بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : **عادل حسين محمد الرحامنة** / كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، قسم : الدراسات العليا التاريخية والحضارية .

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : **الدكتوراه** في تخصص : **التاريخ القديم** .

عنوان الأطروحة : " **خروج بني إسرائيل من مصر والمجتمعات المعاصرة له في غربي الشرق الأدنى القديم - دراسة تاريخية** " .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:-

فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه - والتي تمت مناقشتها بتاريخ : ١٠ / ٢ / ١٤٢٠ هـ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ، فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ....

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش	المناقش
أ.د/ أحمد محمود حسين صابون	د/ سليمان بن عبد الرحمن الذييب	د/ أمين عبد الفتاح عامر
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع : ....

رئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

أ.د/ يوسف بن علي الثقفي

التوقيع : ....

يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

خروج بني إسرائيل من مصر

والمجتمعات المعاصرة له في غربي الشرق الأدنى القديم

دراسة تاريخية

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ القديم

إعداد الطالب

عادل حسين محمد الرحامنة

إشراف

الدكتور / أحمد محمود صابون

المجلد الأول

مكة المكرمة

١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فهذا ملخص الرسالة التي بعنوان : " **خروج بني إسرائيل من مصر والمجتمعات المعاصرة له في غربي الشرق الأدنى القديم – دراسة تاريخية** " .

إن من أهم الأحداث التاريخية المرتبطة ببني إسرائيل ، حادثة خروجهم من مصر بقيادة موسى عليه الصلاة والسلام . ويُعدُّ هذا الخروج بمثابة الحدث التاريخي الحاسم لبني إسرائيل ، إذ يبدأ تاريخهم الحقيقي من تلك التجربة الحاسمة ، باعتبار أن الخروج معجزة إلهية أضفت بُعْداً دينياً على الفهم التاريخي لديهم ، بحيث صار على أساس هذه الحادثة يُفسَّرُ بقية تاريخ بني إسرائيل .

جاءت خطة الرسالة في مقدمة، وثلاثةِ أبوابٍ ، وخاتمة، ثم مُلحَق ببعض الخرائط.

تحدثتُ في المقدمة عن أهمية الموضوع ، والأسباب التي أدّت إلى اختياره ، وموقف الباحث من أسفار التوراة ، مع دراسةٍ تحليلية لمصادر البحث ومراجعه .

أما الباب الأول فهو بعنوان : بنو إسرائيل في مصر قبل وأثناء دعوة موسى عليه الصلاة والسلام . وفي هذا الباب فصلان :

الفصل الأول : التعريف ببني إسرائيل ، وتاريخ وفودهم إلى مصر ، ونشأة موسى عليه الصلاة والسلام .

الفصل الثاني : أولاً – المجتمع المصري القديم المعاصر من الجوانب السياسية ، والفكرية ، والاجتماعية .

ثانياً – رسالة موسى عليه الصلاة والسلام ، وموقف أصحاب الفكر الديني المصري القديم منها .

الباب الثاني : خروج بني إسرائيل من مصر . ويحتوي هذا الباب على فصلين :

الفصل الأول : خروج بني إسرائيل من مصر . تحدثت فيه عن أهم الأسباب لخروجهم ، واستعدادهم للخروج ، وخط السير والمعجزات الربانية في طريق الخروج ، ونظريات الخروج .

الفصل الثاني : أولاً – شبه جزيرة سيناء سياسياً وحضارياً . تحدثت فيه عن جغرافية شبه جزيرة سيناء ، وأهميتها على مر العصور .

ثانياً – بنو إسرائيل في سيناء . وتحدثت فيه عن انحرافاتهم العقدية الخطيرة ، حتى حكم الله عز وجل عليهم بالتيه أربعين سنة .

الباب الثالث : المجتمعات الساميّة المعاصرة للخروج في غربي الشرق الأدنى القديم وموقفها من بني إسرائيل . وفي هذا الباب فصلان :

الفصل الأول : دراسة تاريخية للمجتمعات الساميّة المعاصرة للخروج في غربي الشرق الأدنى القديم . تحدثت في هذا الفصل عن مجتمع مدين ، ومجتمع إدوم ، ومجتمع مؤاب . وكان الحديث عن هذه المجتمعات لما كان لها من علاقاتٍ مختلفة ومباشرة مع بني إسرائيل في أثناء خروجهم من مصر ودخولهم منطقة شرق الأردن .

الفصل الثاني : موقف تلك المجتمعات من بني إسرائيل . وقد تبيّن من خلال هذا الفصل أن موقف تلك المجتمعات اتسم بالعداء بين الطرفين ، بل والصدام المسلّح أحياناً .

أما الخاتمة ، فقد تضمّنت النتائج التي توصلت إليها ، وأهمها :

أولاً – ارتبط ببني إسرائيل عدة تسميات عبر مراحلهم التاريخية ، هي : العبرانيون ، وبنو إسرائيل ، واليهود ، والصهاينة في العصر الحالي .

ثانياً – وفودهم إلى مصر في ظلّ حكم الهكسوس (١٧٢٥ – ١٥٧٥ ق.م) ، وإقامتهم في أرض جوشن في وادي طميلات .

ثالثاً – كان الخروج أمراً ربّانياً ، ووحياً من الله عز وجل لرسوله موسى عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن باجتهادٍ بشري .

رابعاً – هناك عدة نظريات في تحديد تاريخ الخروج ، والفرعون الذي حدث في عهده . ولا يمكن – في الوقت الحاضر على الأقل – الجزم بصحةِ أيٍ منها .

خامساً – أخفى الله عز وجل قبر موسى عليه الصلاة والسلام عن العباد لحكمةٍ بالغة ، لا يعلمها إلا الله عز وجل ، قد يكون منها : ألاّ يُعبد من دون الله ، ولا يُتّخذ قبره مسجداً ، خاصة وأن بني إسرائيل كانوا شديدي الانحراف عن منهج الله تعالى وشرعه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الطالب	المشرف	رئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية	عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
عادل حسين محمد الرحامنة	أ.د/ أحمد محمود صابون	أ.د/ يوسف بن علي الثقفي	د/ محمد بن علي العقلا

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين ، أحمدك اللهم وأشكرك ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، أنت أهل الحمد والشكر والثناء الحسن ، كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك . وصدق رسول الله ﷺ عندما قال : ((لم يشكر الله مَنْ لم يشكر الناس)) .

ولا يسعني ، وقد مَنّ الله عليَّ بفضله وكرمه إتمام هذا البحث ، إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى من كان لهم – بعد عون الله وتوفيقه – الفضل والأثر في إتمام هذا البحث .

ولقد كان في الطليعة من هؤلاء : أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور رشيد سالم الناضوري رحمة الله عليه ، المشرف السابق على هذه الرسالة ، الذي بذل جهداً كبيراً في بناء هذا البحث ، وغرس في نفسي محبة العلم والعلماء ، ووجّهني الوجهة الصالحة . أرجو من الله عز وجل – وقد صار الآن في دار البقاء – أن يجزيه عني خير الجزاء ، لِما قدّم من نافع العلم ، وصالح العمل ، وأن يديم النفع بعلمه ، ويجعله من العمل المتّصل غير المنقطع ، ذكراً في الدنيا ، وذخراً في الآخرة ، فله – تغمده الله عز وجل بواسع رحمته – عظيم الشكر ، وخالص الدعاء ، بأن يُسبغَ الله عليه شآبيب رحمته ورضوانه .

كما أُزجي الشكر الجزيل لأستاذي الفاضل الدكتور أحمد محمود صابون حفظه الله ورعاه ، الذي تفضّلَ مشكوراً بالإشراف على هذه الرسالة ، وحظيتُ بمتابعته الدؤوبة والدقيقة لكافة جوانب هذا العمل حتى نهايته ، ومنحني من وقته وجهده الشيء الكثير ، ولم يبخل عليَّ بملاحظاته الدقيقة ، وتوجيهه الكريم ، بسعة صدر ، وغزارة علم ، فواصَل معي هموم هذه الرسالة ، وقادني إلى الطريق الصحيح ، للوصول بها إلى المستوى المطلوب ، في مجال البحث العلمي ، مُسخِّراً كل ما يستطيع من عمل في سبيل إخراج هذا البحث على الصورة المقبولة إن شاء الله تعالى . فله مني خالص الشكر وجميل الثناء .

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل ، إلى الأستاذين الفاضلين ، اللذين تفضلا مشكورين ، بقبول مناقشة هذا البحث ، وتفرغهما لقراءته ، رغم ما لديهما من أعمال كثيرة ، وارتباطات جَمّة .

وأذكر أخيراً بالشكر الكثير ، والتقدير الكبير ، ما لقيته في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، وقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، وقسم التاريخ ، في جامعة أم القرى - الصرح الشامخ ، والمنار الواضح ، في مهبط الوحي - من رعاية ، وعناية ، ومعونة متنوعة الجوانب ، مما أتاح لي فرصة التفرغ للدراسة والبحث العلمي .

فجزى الله خيراً كافة المستولين في هذا الصرح العلمي الشامخ ، ووفّقهم لما يُحبه ويرضاه ، وجعل عملهم خالصاً لوجهه الكريم .

كما وأشكر كل من قَدّم لي نصيحة ، أو دلّني على ما أفاد هذا البحث ، سائلاً المولى سبحانه وتعالى أن يجزي كل مُحسن ، ويكافئ كل صانع معروف ، ويجعل ذلك في ميزان حسناتهم يوم القيامة ، إنه سميع مجيب الدعاء .

عادل حسين محمد الرحامنة

مكة المكرمة

١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م

فهرس الموضوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ با لله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . مَنْ يهده ا لله فلا مُضلَّ له ، ومن يُضلل فلن تجد له وليّاً مرشداً . وأشهد أن لا إله إلا ا لله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يُحيي ويميت وهو الحي الذي لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى ا لله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ؛ عدد ما أحاط به عِلمُك ، وخطَّ به قلمُك ، وأحصاه كتابُك ، وارض اللهم عن صحابته الكرام : أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وعن الصحابة أجمعين ، وعن التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ..

لقد تحدث القرآن الكريم عن بني إسرائيل في مواضع كثيرة ، وتناول جوانب مختلفة من حياتهم ، منذ البدايات المبكرة لتاريخهم ؛ فتحدث عن يعقوب عليه الصلاة والسلام ، وعن يوسف عليه الصلاة والسلام ، وإخوته ، وعن موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام ، وعن الرسل والأنبياء من بني إسرائيل في الفترات التالية كداود ، وسليمان ، وعيسى ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

ويكاد يكون ذكر بني إسرائيل في القرآن الكريم ، أكثر الأقوام ذكراً ، فيما قبل البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم . فعلى الرغم من ذكر القرآن الكريم لقوم نوحٍ ، وهود ، وصالح ، وشعيب عليهم الصلاة والسلام ، إلا أن عدد المرات التي ذُكر بها بنو إسرائيل يفوق بكثير ما ذُكر عن تلك الأقوام .

وعلى الرغم من أن القرآن الكريم ليس كتاباً تاريخياً بالمعنى الشامل ؛ بحيث يعرض الأحداث التاريخية بشكلٍ تفصيلي ، إلا أنه عرض لبني إسرائيل ، بصورة يتحقق منها الهدف الرئيس للقَصَص القرآني ؛ من تصويرٍ للمشاهد والأحداث ، ومن ثم أخْذُ العبر والعِظات والدلالات .

والقرآن الكريم ، بصفته كلام ا لله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذي تَكفّل ا لله عز وجل بحفظه من التحريف والتبديل والتغيير ، والزيادة أو النقصان ؛ لا يزال محفوظاً بحفظ ا لله تعالى إلى يوم القيامة ، وإلى أن يرث ا لله الأرض ومن عليها ، مما جعله قطعي الثبوت في كل ما أشار إليه .

قال تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[١] .

وبالتالي ، فإن الأحداث التاريخية التي أوردها القرآن الكريم ، فيما يتعلق ببني إسرائيل ، وبغيرهم من الأمم السابقة ، أحداث يقينية ، وحقائق أكيدة وموثّقة ، لا يخطر ببال المسلم شكٌّ في حقيقتها ، وإن لم يُعضِّد ذلك أدلة أثرية أو تاريخية ؛ إذ يبقى النص القرآني هو الحق والصدق ، وهو بمثابة دين يدين به كل مسلم صحيح العقيدة .

قال تعالى : ﴿ **ومن أصدق من ا لله حديثاً** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وعد ا لله حقاً ومن أصدق من ا لله قيلاً** ﴾[٣] .

وقد أشار القرآن الكريم أيضاً إلى تفضيل بني إسرائيل على غيرهم من الأمم السابقة .

قال تعالى : ﴿ **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين** ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ **قال أغير ا لله أبغيكم إلهاً وهو فَضّلكم على العالمين** ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ **وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا لَمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾[٦] .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحُكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على العالمين** ﴾[٧] .

---

(١) سورة الحجر ، الآية (٩) .

(٢) سورة النساء ، الآية (٨٧) .

(٣) سورة النساء ، الآية (١٢٢) .

(٤) سورة البقرة ، الآية (٤٧) . وانظر الآية (١٢٢) .

(٥) سورة الأعراف ، الآية (١٤٠) .

(٦) سورة السجدة ، الآية (٢٤) .

(٧) سورة الجاثية ، الآية (١٦) .

قال ابن كثير(١) :

((والمقصود أنهم كانوا أفضل زمانهم ، وإلا فهذه الأمة [يعني أمة محمد ﷺ] أشرف منهم ، وأفضل عند الله ، وأكمل شريعة ، وأقومُ منهاجاً ، وأكرم نبياً ، وأعظم مُلكاً ، وأغزر أرزاقاً ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، وأوسعُ مملكةً ، وأدومُ عِزّاً)) .

وهذا التفضيل على العالمين ، في زمانهم ، يتجلى في اختيار الله لهم لرسالة التوحيد من بين المشركين الذين كانوا يقيمون حولهم، وليُتِمّ نعمته عليهم بتوريثهم الأرض المقدسة، ما داموا مؤمنين ، وموحِّدين ، ومحافظين على العهد والميثاق الذي واثقهم الله به ؛ من عدم الإشراك به ، وإقامة الصلاة وغيرها من العبادات .

قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حُسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم تولّيتم إلا قليلاً منكم وأنتم مُعرضون** ﴾(٢) .

فالدين الذي كان يدين به بنو إسرائيل ، وهو الإسلام، والإيمان بالله عز وجل، وتوحيده بلا شريك ؛ هو مدار تفضيلهم على غيرهم من السابقين في القرون الخالية ، ممن كانوا يُشركون بالله ، ويعبدون آلهةً من دونه . وهذا يدل على أن ذلك التفضيل ارتبط بظرفٍ خاص ، وزمان خاص ، وليس على العالمين حتى قيام الساعة .

وما أن نكث بنو إسرائيل عهد الله وميثاقه الذي واثقهم به ؛ من الإيمان والتوحيد الخالص لله رب العالمين ، والعمل بدينه وشرعه ، حتى حَلّ محلّ تفضيلهم غضبُ الله عليهم ولعنته ، بعد أن حَقّت عليهم سُنّة الله التي لا تتبدّل ولا تتغيّر ، ولم يعودوا أبداً أهلاً لإنعام الله عليهم ، وتفضيله لهم .

قال تعالى : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية** ﴾(٣) .

ومن أهم الأحداث التاريخية ، التي عرضها القرآن الكريم ، عندما كانوا في ظلّ التفضيل الرباني لهم حادثة خروجهم من مصر ، بقيادة رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٣٧ .

(٢) سورة البقرة ، الآية (٨٣) .

(٣) سورة المائدة ، الآية (١٣) .

وكلما كنتُ أتلو كتاب الله الكريم ، وأمرُّ على ذِكر بني إسرائيل ، في السور الكريمة التي تتحدث عنهم قبل وبعد بعثة الرسول الكريم موسى عليه الصلاة والسلام بالرسالة السماوية لفرعون وملأه ، ولبني إسرائيل ، يجول في ذهني التناقضات العجيبة لبني إسرائيل ، والتي كان أكثرها عصياناً وتمرّداً بعد أن أذن الله عز وجل لرسوله بأن يخرج بهم من مصر ، ويُخرجهم من الظلمات إلى النور .

إن حادثة خروج بني إسرائيل من مصر ، وُضِعت فيها الأسس الرئيسة للعقيدة اليهودية ؛ فهي تُعدّ الحدث التاريخي الحاسم لبني إسرائيل ، بل إن تاريخهم ، حسب اعتقادهم ، يبدأ بدايته الحقيقية من تلك التجربة الحاسمة ؛ حيث تُعتبر ، بالنسبة لهم ، بداية الشعور القومي الحقيقي ، وفي نفس الوقت كانت بداية للإحساس بالشعور التاريخي . وباعتبار أن الخروج معجزة إلهية ، فقد أضافت بُعداً دينياً إلى الإحساس القومي التاريخي ، مما كان له أكبر الأثر على الفهم التاريخي الديني لديهم ، بحيث صار على أساس هذه الحادثة يُفسَّر بقية تاريخ بني إسرائيل[1] .

ومن هنا بدأ التفكير في هذه الحادثة ، التي طالما أشار إليها القرآن الكريم ، واستخرتُ الله عز وجل في هذا الأمر ، فانشرح صدري إليه ، وبدأت مستعيناً بالله عز وجل ، بقراءة سفر الخروج من التوراة ، فوجدت الفرق الشاسع بين تناول القرآن الكريم والتوراة لهذا الحدث ؛ فالتوراة تشير إلى أحداث تاريخية بشكل تفصيلي ، وتشير إلى أسماء أماكن وشخصيات ، ارتبطت بطريقة مباشرة بخروج بني إسرائيل . وتتحدث أيضاً عن موسى عليه الصلاة والسلام ، وتُصوّره بصورة بعيدة كل البعد عما اصطفاه الله به ، من شرف النبوة والرسالة ، وتأييده بالوحي الرباني ، والمعجزات البيّنات . وبعيدة أيضاً عن كلّ ما يمتُّ بصلة إلى الإيمان ، والإسلام ، والعقيدة الصحيحة التي يدين بها كل الأنبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ، وبعيدة عن عصمة أصفياء الله من خلقه ، الذين طهرهم الله عز وجل من كل المآثم ، والمعاصي ، والذنوب .

---

(١) محمد خليفة حسن أحمد : دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٥ م ، ص ٥٧ وكذا

Anderson . B . W . , The Living World of the Old Testament , First Edition , Longmans . Green and Co . , London , 1958 , PP . 5 - 6 .

ومن ثم عقدتُ العزم ، مُفوِّضاً الأمر إلى ا لله عز وجل ، لإختياري هـذا الموضـوع ، ليكون مجالاً للبحث في هذه المرحلة الدراسية ، بحيث ينتهي بوفاة الرسـول الكريـم موسى عليه الصلاة والسلام ، وهو بعنوان :

خروج بني إسرائيل من مصر
والمجتمعات المعاصرة له في غربي الشرق الأدنى القديم
دراسة تاريخية

وعلى الرغم من أن الباحث يدرك صعوبة موضوعات الشرق الأدنـى القديـم ، وأنـه يعتريها كثير من الصعاب والمشاق ، ومنها هـذا الموضـوع بطبيعـة الحـال ، فقـد رغبـتُ في خوض هذا الجانب من الدراسات التاريخية ، خاصة بعد أن لمست الإعـراض الشـديد من بعض طلاب العلم في الدراسات العليا الإتجاه نحو هذا الفرع من الدراسات التاريخية .

وفضلاً عن ذلك، كان هناك عدة أسباب دعت إلى اختيار هذا الموضوع، منها:

أن هذا الموضوع في غاية الأهميـة ؛ لأنـه يُمثِّـل فجـوة تاريخيـة في المؤلَّفـات المتعلقـة بالشرق الأدنى القديم ؛ حيث مـن النـادر أن يجـد القـارئ العربـي مُؤلَّفـات باللغـة العربيـة تتنـاول مثـل هـذه الموضوعـات . ومـن الملاحَـظ احتكـار المستشـرقين والكُتّــاب اليهــود والنصـارى ، ولوقتٍ طويـل ، كتابـة تـاريخ الشـرق الأدنــى القديـم . ولاشـك أنهـم أفـادوا في جوانـب هامــة مـن تلــك الدراســات ، وسـخّرهم ا لله عــز وجــل لكشــف الكثـير مــن غوامضــه ، إلا أن أغلبهــم كتبــوا وهــم متــأثرين بشــدة بحرفيــة نصــوص التوراة ، فَحوّلوا الكثـير مـن الأحـداث والحقـائق لكـي يتفـق ذلـك مـع مـا ورد في أسـفار التوراة . وبالمقابل ، فإن كثيراً منهم قلّما يرجعون إلى القرآن الكريم ، الـذي هـو المصـدر الأصيل الذي لم يتعرّض ، كما مر سابقاً ، للتحريف أو التبديل .

لذلك ، يحتاج المؤرخ المسلم إلى هــذا النـوع مـن الدراسـات باللغـة العربيـة ، والـتي تُعالَج بالموضوعية ، بعيداً عن التعصّب ، والأحكام المسبقة ، والأهواء .

ومن الأسباب التي دعت إلى اختيار هذا الموضوع ، محاولة ربط تاريخ الشرق الأدنى القديم بالأصول والمصادر الإسلامية ، وبوجهة النظـر الإسـلامية ، وبيـان مـا أوردتـه تلـك المصادر من الأحداث التاريخية التي ارتبطت ببني إسـرائيل أثنـاء حيـاة موسـى عليـه الصـلاة والسلام ، وذلك بالرجوع إلى المصدر الأصيل في ذلك ، وهو القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة في كتب السُّنّة المطهّرة .

ومن الأسباب أيضاً ، أن هذا الموضوع يُلقي بعض الأضواء على جوانب من الجِبلّة التي جُبل عليها بنو إسرائيل ، ومن صفاتٍ إتّصفوا بها طوال حياتهم، واستقرت في قلوبهم؛ من كفرٍ وجحود ، وصَدٍّ عن سبيل ا لله ، ونقضٍ للعهود والمواثيق ، ومسارعة في الإثم والعدوان ، والإفساد في الأرض ، وكتم الشهادة بالحق، والحرص على أي نوعٍ من الحياة ، والكذب والحسد والخيانة والغدر ، وغير ذلك من النقائص التي وُصفوا بها .

ومن الأسباب أيضاً ، ما لمسته من بعض كُتاب التاريخ القديم من محاولات عديدة لربط دعوة موسى عليه الصلاة والسلام بما دعا إليه أمنحتب الرابع (أخناتون) (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) . فعلى الرغم من البون الشاسع بين رسالة موسى عليه الصلاة والسلام الربانية ، المُنزّلة من السماء ، والمؤيَّدة بالوحي الإلهي ، وبين دعوة بشرية ، يظهر من خلالها بوضوح الشرك بـا لله عز وجل ؛ حيث يتعبّدُ صاحبها إلى مخلوق من مخلوقات ا لله تعالى ، وهو قرص الشمس الذي أطلق عليه " آتون " ، مهما تباينت التفسيرات ، واختلفت التحليلات . إلا أن البعض يُصرّ على أن موسى عليه الصلاة والسلام تأثّر بدعوة أخناتون ، وبنى تعاليمه على ما نادى به .

وهذا بلاشك ، هدم للرسالات السماوية ، وتشويه لصورة الأنبياء والرسل ، ومحاولة لتشويه دعوتهم ، لكي يُشكّكوا الناس بمصدر تلك الرسالات السماوية .

ومن الأسباب التي كان لها دور حاسم أيضاً لإختيار هذا الموضوع ، ما لمسته أيضاً في كتابات بعض المؤرخين في تاريخ الشرق الأدنى القديم من تشكيك وتشويه لشخصية الرسول الكريم موسى عليه الصلاة والسلام ، بل حاول البعض إنكار وجوده أصلاً ، وأنه شخصية اسطورية . وهذا بالتالي أدى إلى إنكار بعضهم أيضاً موضوع الخروج كله ، وأنه اسطورة تاريخية .

فحاولت قدر المستطاع الذبّ والذود عن كليم ا لله ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام ، وبيان تهافت أقوالهم ، إذ أنهم يهدفون من كل ذلك إلى هدم عقيدة التوحيد ، والتشكيك برسل ا لله الكرام .

ولكي لا أُتّهم بالتجنّي والتّحامل ، فسأورد بعض ما قاله أولئك المؤرخون .

يقول تيودور . هـ. روبنسن[١] :

((يجب أن يُعدّ موسى شيخاً للأمة الإسرائيلية الأولى ، لأنه هو الذي وَحّدَ بين العشائر التي تراخت أواصر القربى بينها ، وجعل منها أمة واحدة ، أطلق عليها إسماً جامعاً وأدخلها في دينٍ واحد . وكان جوهر عمله كله تعريف هذه الأمة بإلهٍ لم يكونوا يعرفونه في مصر . وجعل هذه العلاقة المتبادلة بين الله وشعبه مُتّفقة مع آراء الشرق السامي القديم وشعائره)) .

وفي موضع آخر يقول[٢] :

((وليس ثَمّة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن ديانة موسى تختلف كثيراً عن التوحيد الشائع بين القبائل في أيامه ، وكانت الصفة المميّزة للدين الجديد قيامه على عهد أو ميثاق)) .

وقال مؤرخ آخر[٣] :

((وحتى قصة موسى نفسها يجب أن لا تتعجل فنرفضها من غير بحثٍ وتحقيق ، وإن كان العجيب حقاً أنه لم يرد له ذكر على لسان عاموس أو إشعيا ، وهما اللذان سبقت خطبتهما تأليف أسفار موسى الخمسة بنحو قرنٍ من الزمان)) .

وقال مؤرخ آخر[٤] أيضاً :

((وكان هذا الزعيم الذي تدعوه القصة بموسى ، وهو الذي لا نعرف اسمه الحقيقي على ما يُحتمل ، من المهارة ما حملهم به على الإيمان بأنه ذو صلةٍ بالسماء ...)) .

((... بل إن موسى شخصٌ اسطوري أكثر من كونه شخصاً تاريخياً ...))[٥] .

---

(١) " إسرائيل في ضوء التاريخ " ، ترجمة عبد الحميد يونس ، مراجعة إبراهيم زكي خورشيد ، مقال نشره السير جون . أ . هامرتن : تاريخ العالم ، ترجمه إلى العربية إدارة الترجمة بوزارة المعارف العمومية ، المجلد الثاني ؛ مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٠٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١١٤ .

(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، المجلد الأول ، ج ٢ ، الطبعة الثالثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ م ، ص ٣٢٦ .

(٤) غوستاف لوبون : اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ، ترجمة عادل زعيتر ، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٧٠ م ، ص ٣٣ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٧٥ .

ويقول آخر[١] ، عند حديثه عن فترة الملكية في تاريخ بني إسرائيل :

((فقيام الأنبياء ، كان مظهراً تلقائياً لما كان يشعر به الناس من سخط على الصورة التي فرضها الحكم الملكي على الدين . وكان الأنبياء ، يدعون إلى التمسك بالأفكار القديمة)) . ((وقد لاحظ العلماء ، بثاقب نظرهم ، أن هذه النبوة تعبير عن انبعاث روح الحُرّية الموروثة عن حياة البداوة ، تلك الروح التي رأت في الملكية بدعة مُنكرة ، ونظاماً منقولاً عن العالم الخارجي المعادي لإسرائيل))[٢] .

ومن المهم القول : أن عدم العثور في الآثار المصرية القديمة على ما يشير صراحة إلى خروج بني إسرائيل من مصر ، ليس حُجة أو برهاناً لنفي حدوثه ؛ إذ أن كثيراً من الآثار والنقوش المصرية القديمة لم يُعثر عليها حتى الآن ، وكم من الآثار والنقوش التي أُكتشِفت غيّرت معلومات كثيرة عن أحداث سابقة ؟! ويبقى الأمل معقوداً على ما يعثر عليه المنقّبون والأثريون ، من نقوشٍ أو نصوص ، ربما تُغيّر كثيراً من النقص في هذا الموضوع . وإن كان رأي بعض المؤرخين يميل إلى أن المصريين القدماء لا يُسجّلون في نقوشهم أو نصوصهم ، ما يدل على معارضيهم ، أو ما يدل على أحداث تُنقِصُ من شأنهم .

أهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها البحث :

لقد اعتمدت في هذه الدراسة على مصادر ومراجع هامة ، أفادت البحث بمعلومات قيّمة في معظم فصوله . فقد كان القرآن الكريم هو مصدري الأول والأصيل في كل ما يتعلق بهذا الموضوع ، من كافة جوانبه ، مُستنداً في فَهْمِ مقاصده، وتفسير آياته البيّنات ، على كتب التفسير المعتمدة عند أهل السنة والجماعة ، والتي اخترت منها :

جامع البيان عن تأويل آي القرآن والمعروف باسم تفسير الطبري لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) ، والتفسير الكبير لفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ت ٦٧١ هـ) ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) .

---

(١) سبتينو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، مراجعة محمد القصاص ، دار الرقي ، بيروت ، ١٩٨٦ م ، ص ١٤٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٤٥ .

ومن كتب التفسير الحديثة : تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤ هـ) ، وفي ظلال القرآن لسيد قطب .

وقد تعاضد مع هذه المصادر ، مصدر آخر أصيل هو الأحاديث النبوية الشريفة في كتب الحديث والسنة النبوية المطهرة . وهي بمثابة الخبر اليقين الذي يطمئن المسلم إليه كل الإطمئنان ، لأن هذه الأحاديث النبوية الشريفة مصدرها الوحي الرباني ، كما قال تعالى :

﴿ وما ينطق عن الهوى • إن هو إلا وحيٌ يُوحى ﴾[1] .

ومن أهم هذه المصادر :

صحيح البخاري للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ) ، وصحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) ، والموطأ للإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) ، والمسند للإمام أحمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) ، وصحيح مسلم بشرح النووي للإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ) ، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) .

وقد أفادت هذه المصادر في التّعرّف على حال فرعون أثناء دخوله البحر ، وما حصل له عند غرقه ، وحاله يوم القيامة . وأيضاً تحديد اليوم الذي نجّى ا لله عز وجل فيه موسى ومعه بني إسرائيل ، وأغرق فرعون وجنوده ؛ وهو يوم عاشوراء .

كذلك بَيّنت هذه المصادر ما حدث لموسى عليه الصلاة والسلام عند جبل الطُّور ، في حديث صعقة الطور ، وإكرام ا لله عز وجل له يوم القيامة بتلك الصعقة .

وكذلك التعرّف على بعض المعجزات الربانية ، التي وقعت لبني إسرائيل أثناء خروجهم ؛ إكراماً للرسول الكريم .

وكل ذلك من المعجزات التي أخبر عنها الرسول الكريم ، والصادق المصدوق ، محمد ﷺ .

أما التوراة ، فكانت بلاشك من المراجع الرئيسة في هذه الرسالة ، مع عدم التسليم نهائياً بما ورد فيها ؛ لأنها مُحرّفة ومُبدّلة عما أُنزلت به ، وهي ليست التوراة الحقيقية التي

---

(١) سورة النجم ، الآيتان (٣ ، ٤) .

أُنزلت على موسى عليه الصلاة والسلام . إلا أن ذلك لم يكن حائلاً دون استفادة الباحث منها في كثير من المواطن ، خاصة فيما يتعلق بالأحداث التاريخية ذات الصلة ببني إسرائيل ، والتي لا يترتّبُ على ذكرها والإستناد إليها بيان حكم شرعي أو مخالفته .

أما الناحية العقدية ، والدينية ، وقضايا الإيمان ، فلا يمكن أخذها من التوراة ، ولا يمكن الاعتماد على شيءٍ من ذلك .

قال تعالى : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **من الذين هادوا يُحرفون الكلم عن مواضعه** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً يُحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه ونسوا حَظّاً مما ذُكِّروا به** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **ومن الذين هادوا سَمّاعون للكذب سَمّاعون لقومٍ آخرين لم يأتوك يُحرِّفون الكَلِمَ من بعد مواضعه يقولون إن أُوتيتم هذا فخذوه وإن لم تُؤتَوه فاحذروا** ﴾[4] .

هذه الآيات ، تدل دلالة أكيدة ، على تحريف التوراة على أيدي كتبة الأسفار ، من أحبار اليهود ، بعد موسى عليه الصلاة والسلام بقرون عديدة ، حسب أهوائهم ، وما يتناسب مع وجهة نظرهم .

روى محمد بن جرير الطبري[5] بسنده قال :

« التوراة التي أنزلها عليهم ، يُحرِّفونها ، يجعلون الحلال فيها حراماً ، والحرام فيها حلالاً ، والحق فيها باطلاً ، والباطل فيها حقاً ، إذا جاءهم المُحِقُّ برشوة أخرجوا له كتاب

---

(١) سورة البقرة ، الآية (١٤٦) .

(٢) سورة النساء ، الآية (٤٦) .

(٣) سورة المائدة ، الآية (١٣) .

(٤) سورة المائدة ، الآية (٤١) .

(٥) تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ، حققه وخرج أحاديثه محمود محمد شاكر ، راجع أحاديثه أحمد محمد شاكر ، ج ٢ ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٩ م ، ص ٢٤٦ .

الله ، وإذا جاءهم المُبْطِلُ برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب[١] ، فهو فيه مُحِقّ. وإن جاء أحدٌ يسألهم شيئاً ليس فيه حقٌّ ، ولا رشوة ، ولا شيء ، أمروه بالحقّ » .

وهناك الكثير من النصوص التوراتية[٢] ، تقوم دليلاً كافياً على مدى التحريف الذي نال التوراة على أيدي الكتبة اليهود . وهناك شواهد جغرافية ، تدل على هذا التحريف ؛ فقد ورد في بعض النصوص[٣] ، ما يشير إلى أن المؤلف لهذه النصوص ، كان يقيم في شرق الأردن ، من خلال إطلاقه لبعض التعبيرات الجغرافية ، ومن خلال ذِكْر بعض أسماء مواقع لم تكن معروفة في عهد موسى عليه الصلاة والسلام مثل : مدينة دان ، ومجموعة القرى المعروفة باسم يائير التي لم تظهر للوجود إلا في عصر القضاة ، إلى غير ذلك من النصوص التي تشير إلى هذا التحريف ، والتفاوت الكبير بين تاريخ تأليفها وبين عصر موسى عليه السلام[٤] .

يقول أحد المؤرخين[٥] :

« لذلك فإن أسفار التوراة اليوم ما هي إلا مجموعة من مُدوَّنات مختلفة الأصول، كل منها تعود إلى جيلٍ بعينه من الأجيال المتعاقبة لأنبياء اليهود ، يستخلصون النبوءات من واقع تفسيرات متمايزة لأحداث الماضي ، فكأنهم أيضاً مؤرِّخون ، عكف كلٌّ باجتهادٍ وهوىً على إعادة تقييم ما دوّنه الأسلاف – تحويراً وحذفاً وإضافة – حتى يتوفر عليها آخر الأمر عزرا ومريدوه ، فتُجمع أسفار الكتاب على الوجه الذي هي عليه اليوم » .

وعلى أي حال ، فإن الرجوع للتوراة ، من أجل بيان وقائع تاريخية لا تمسّ الأحكام الشرعية بشيء ، أمر لا بأس بذكره ، ولا يؤاخذ عليه المؤرخ مادام لا يُغيِّر ذلك حقيقة ثابتة ، أو تاريخ بيّن .

---

(١) يعني ذلك الكتاب المُحرّف ، وليس كتاب الله الصادق ، كما يذكر المحقق .

(٢) انظر على سبيل المثال : سفر الخروج ١١ : ٣ ؛ سفر العدد ١٢ : ٣ ؛ سفر التثنية ٣٤ : ٥ – ٦ .

(٣) انظر على سبيل المثال : سفر التكوين ١٤ : ١٤ ؛ ٥٠ : ١٠ – ١١ ؛ سفر العدد ٢٢ : ١ ؛ ٣٢ : ٣٣ ، ٤١ ؛ ٣٥ : ١٤ ؛ سفر التثنية ١ : ١ ، ٥ ؛ ٣ : ٨ ، ١٤ ؛ ٤ : ٤٦ ؛ سفر القضاة ١٠ : ٤ ؛ ١٨ : ٢٩ .

(٤) فؤاد حسنين علي : التوراة الهيروغليفية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ م ، ص ٤٢ – ص ٤٣ .

(٥) حسين ذو الفقار صبري : " توراة اليهود بين أصول متشعثة وسعي إلى انعقاد " ، مجلة المجلة ، العدد ١٥٧ ، السنة الرابعة عشرة ، القاهرة ، ١٩٧٠ م ، ص ٧ .

يقول أحد علماء التفسير(١) :

((ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للإستشهاد لا للإعتضاد ، فإنها على ثلاثة أقسام (أحدها) ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح (والثاني) ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه (والثالث) ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل فلا نؤمنُ به ولا نُكذّبه ويجوز حكايته لما تقدّم ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمرٍ ديني)) .

وقد أجاز رسول الله ﷺ الرواية عن بني إسرائيل ، ما لم يَتعدّ ذلك الحدود الشرعية ، ففي الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال :

((بلّغوا عني ولو آية ، وَحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مَقعدَهُ من النار))(٢) .

قال ابن حجر العسقلاني(٣) ، عند شرح هذا الحديث :

((قوله : (وَحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) أي لا ضيق عليكم في الحديث عنهم ، لأنه كان تَقدّم منه ﷺ الزجر عن الأخذ عنهم ، والنظر في كتبهم ، ثم حصل التوسّع في ذلك ، وكأن النهي وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية ، والقواعد الدينية خشية الفتنة ، ثم لَمّا زال المحذور وقع الإذن في ذلك ؛ لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الإعتبار ، وقيل : معنى قوله : " ولا حرج " لا تضيق صدوركم بما تسمعونه عنهم من الأعاجيب ، فإن ذلك وقع لهم كثيراً ، وقيل : لا حرج في أن لا تُحدِّثوا عنهم لأن قوله أولاً حَدِّثوا صيغة أمر تقتضي الوجوب ، فأشار إلى عدم الوجوب ، وأن الأمر فيه للإباحة بقوله ولا حرج ، أي في ترك التحديث عنهم ، وقيل : المراد رفع الحرج عن حاكي ذلك ، لما في أخبارهم من الألفاظ الشنيعة ....

---

(١) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤ .

(٢) أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، راجعه وقدم له وضبط أحاديثه وعلق عليه طه عبد الرؤوف سعد ، ومصطفى محمد الهواري ، والسيد محمد عبد المعطي ، ج ١٣ ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، كتاب أحاديث الأنبياء – باب ما ذُكر عن بني إسرائيل ، ص ٢٦١ – ص ٢٦٢ ، حديث رقم ٣٤٦١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦١ – ص ٢٦٢ .

وقال مالك : المراد جواز التّحدّث عنهم بما كان من أمرٍ حَسنٍ ، أما ما عُلم كذبه فلا ، وقيل : المعنى حَدِّثوا عنهم بمثل ما ورد في القرآن والحديث الصحيح ، وقيل : المراد جواز التّحدّث عنهم بأي صورة وقعت من انقطاع أو بلاغ لِتعذُّر الإتّصال في التّحدّث عنهم ، بخلاف الأحكام الإسلامية ؛ فإن الأصل في التّحدّث بها الاتصال ولا يتعذّر ذلك لقرب العهد . وقال الشافعي : من المعلوم أن النبي ﷺ لا يُجيز التحدث بالكذب ، فالمعنى حَدِّثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه ، وأما ما تُجوّزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم ، وهو نظير قوله : " إذا حَدّثكم أهل الكتاب فلا تُصدِّقوهم ولا تُكذّبوهم " ولا يرد الإذن ولا المنع من التحدّث بما يقطع بصدقه)) .

وكان للمصادر التاريخية الإسلامية إفادة واضحة في هذا البحث ، حيث ورد في تلك المصادر ، بعض الروايات التاريخية عن خروج بني إسرائيل من مصر ، لم تتوفر في غيرها ، وإن كان بعض تلك الروايات ينقصها التحقيق التاريخي الدقيق ، لما اختلط ببعضها من خيال ومبالغات .

ومن هذه المصادر التاريخية الإسلامية :

فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ) ، والمعارف لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ، وتاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) ، وتنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حُثالة الأغبياء لابن خُمَيِّر (ت حوالي ٥٤٠ هـ) ، والكامل في التاريخ لابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) ، والبداية والنهاية لابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) .

أما المعاجم اللغوية والجغرافية ، فقد أفادت البحث كثيراً في التعريف بالألفاظ اللغوية ومعانيها ، وتحديد الأماكن والمواقع الجغرافية . ومن أهمها :

كتاب الاشتقاق لابن دُريد (ت ٣٢١ هـ) ، ولسان العرب لابن منظور (ت ٧١١ هـ) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني (ت ٥٠٣هـ)، ومعجم البلدان لياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) ، وكتاب الروض المعطار في خبر الأقطار لمحمد بن عبد المنعم الحميري (ت ٧٢٧ هـ) .

ومن أهم المعاجم الحديثة ، قاموس الكتاب المقدس لبطرس عبد الملك وآخرون ، الذي استفدت منه كثيراً في التعريف بأسماء الأعلام والأماكن الواردة في التوراة .

أما أسماء الأماكن المصرية القديمة ، فكان أهم المصادر في التعريف بها كتاب :

Gardiner, A . H ., Ancient Egyptian Onomastica , Vol . I , II , Oxford University Press , Amen House , Oxford , 1947 .

وتكمن أهمية هذا المصدر ، في احتوائه على الأصول المصرية القديمة ، لأسماء الأماكن والمواقع ، مع ذكر الاسم أحياناً باللغات القديمة ، كالقبطية ، والاغريقية ، والعبرية ، فضلاً عن العربية .

ومما لاشك فيه ، أن الباحث استفاد كثيراً مما كتبه المؤرخون المعاصرون الثقات، الذين لهم باعٌ طويل في دراسات تاريخ الشرق الأدنى القديم ، فأناروا لي الطريق ، في التعرف على كثير من المصادر والمراجع الهامة المرتبطة بموضوع البحث . ومن جانب آخر، أتاحت لي دراساتهم المنشورة ، مناقشة بعض القضايا الهامة في هذا البحث ؛ بحيث كان لها دور هام في التعرف على وجهات النظر المختلفة في موضوع الخروج ، من حيث التعارض والتناقض في النصوص التوراتية ، ومدى توافق بعضها مع الحقائق التاريخية الثابتة .

وهذه المراجع الحديثة تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

مراجع عربية ، ومراجع مترجمة إلى العربية ، ومراجع أجنبية .

فالقسمين الأولين ، وأعني بهما المراجع العربية ، والمترجمة إلى العربية ، كان لبعضها أهمية بالغة . فكتاب الاستاذ الدكتور محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (٧) إسرائيل ، الكتاب الأول - التاريخ ، الاسكندرية ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، كان له دور بارز في التعرف على الآراء المختلفة في تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر ، وأسماء الحكام الفراعنة الذين تناولتهم تلك الآراء .

أما كتاب سيجموند فرويد : النبي موسى ورسالة التوحيد ، ترجمة ودراسة عبد المنعم الحفني ، الطبعة الأولى ، دار الرشاد ، القاهرة ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م ، فقد أفاد البحث في التعرف على نظريته في تاريخ الخروج ، والذي حَدّد حدوثه عقب وفاة أخناتون .

وقد كان لكتاب أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ، ترجمة ومراجعة عبد المنعم أبو بكر ، ومحرم كمال ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٣م ، أهمية واضحة في تقديمه معلومات مُفصّلة عن المجتمع المصري القديم ، من مختلف جوانب حياته : السياسية ، والاجتماعية ، والفكرية ، والاقتصادية .

وقد كان للبحث الهام الذي نشره الدكتور معاوية إبراهيم بعنوان :

" الممالك الآرامية في الأردن " ، مجلة اليرموك ، العدد ١٨ ، دائرة العلاقات الثقافية والعامة ، جامعة اليرموك ، إربد ، الأردن ، ١٩٨٦ م ، أهمية كبيرة في التعرف على تاريخ إدوم ومؤاب .

ويُعَدّ بحث الدكتور فواز أحمد طوقان : " مَسلّة مشيع ملك مؤاب " ، حولية مديرية الآثار العامة ، العدد ١٥ ، عمان ، ١٩٧٠ م ، وثيقة هامة في دراسة تاريخ مؤاب القديم ، فعلى الرغم من أن تاريخ المَسَلّة ، التي هي عنوان بحثه، يعود لفترة القرن التاسع قبل الميلاد، إلا أنها أفادت هذه الرسالة بمعلومات قيّمة عن مواقع مؤابية قديمة ، ذكرها المؤلف في بحثه مع الاسم الحديث لتلك المواقع .

وقد كان لكتاب فان زايل : المؤابيون ، تعريب واعداد الدكتور خير نمر ياسين ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٩٠ م ، من الأهمية بمكان ، حيث كان من المراجع الرئيسة في تاريخ مؤاب . إلا أن مؤلفه كان يُسلّم بصحة ما تذكره نصوص التوراة عن مؤاب ، ويعتقد أن المعلومات الواردة فيها من الحقائق التي لا تخضع للمناقشة .

وكان لكتاب الاستاذ الدكتور خير نمر ياسين : جنوبي بلاد الشام تاريخه وآثاره في العصور البرونزية ، منشورات لجنة تاريخ الأردن ، عمان ، ١٩٩١م ، أهمية أيضاً، في مواطن كثيرة من البحث ، خاصة فيما يتعلق بتاريخ الأردن وفلسطين خلال العصور البرونزية ، وهي العصور التي سبقت فترة قدوم بني إسرائيل إلى منطقة الأردن، ومن ثم دخولهم إلى فلسطين . وتميّز هذا الكتاب بدقة معلوماته ، خاصة وأن مؤلفه من الأساتذة المتخصصين في التاريخ القديم للمنطقة المذكورة ، الأمر الذي جعل الباحث يعتمده مرجعاً رئيساً في تأريخ فترات العصور البرونزية .

أما القسم الثالث ، فهي المصادر والمراجع الأجنبية .

لقد اعتمدت في هذا البحث ، على بعض تراجم النقوش ، التي نُشرت باللغة الإنجليزية ، في أهم المصادر التي احتوتها ، وهي :

(1) Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament , Edited by Pritchard , J . B ., Third Edition , Princeton University Press, Princeton , New Jersey , 1974 .

(2) The Cambridge Ancient History , Cambridge University Press , Cambridge , Vol . II , The Egyptian and Hittits Empires to c. 1000 B . C . , 1940 ;
Vol . II , Part2 , History of the Middle East and the Aegean Region c. 1380 - 1000 B . C . , 1975 ;
Vol . III , The Assyrian Empire , 1976 .

وقد إحتوت هذه المراجع على دراسات قيمة ، أثرت البحث في كثير من جوانبه ، فضلاً عن تراجم النقوش الأصلية ، مثل : نقش ترنيمة النصر لمرنبتاح المعروفة بـ" لوحة إسرائيل " ، والنقش المعروف باسم " تقرير موظف الحدود المصرية " الذي أفاد الباحث في أثناء دراسته عن إدوم . هذا بالإضافة إلى بعض النقوش الأخرى ، التي أشرت إليها في مواضعها من البحث .

أما كتاب :

Gardiner , A . H . , Egyptian Grammar Being An Introduction to the Study of Hieroglyphs, Third Edition, Griffith Institute, Ashmolean Museum , Oxford , 1976 .

فقد كان ذو أهمية بالغة ؛ إذ يُعد – مع كتابه السابق الذكر – من المؤلّفات الرئيسة فيما يتعلق بالمصطلحات والأسماء المصرية القديمة المدوّنة بالكتابة الهيروغليفية . وهذا بدوره أدى إلى محاولة الباحث في التعرف على الأصول المصرية القديمة ، لتلك الأسماء والمصطلحات ، قدر الإمكان .

وفي أثناء كتابة الباب الثالث من هذا البحث ، كان هناك بعض المراجع الأجنبية ، التي أسهمت كثيراً في بيان بعض المعلومات التي كانت ذات صلة مباشرة بموضوعات هذا الباب . ومن أهمها :

Landes , G . M . , " Midian " , In The Interpreter's Dictionary of the Bible , Vol . 3 , Edited by Buttrick , G . A . , Abingdon Press , Nashville , New York , 1962 , PP . 375 - 376 ;

Mendenhall , G . E . , " Qurayya and the Midianites " In Studies in the History of Arabia , Vol . II , Pre - Islamic Arabia , King Saud University Press , Riyadh , 1984 , PP . 137 - 145 .

فقد استفدت من هذين المرجعين ، فيما ورد فيهما عن مدين ، من النواحي التاريخية والجغرافية ، ودور المدينيين في المنطقة التي أقاموا فيها ، وفي المناطق الأخرى التي انتشرت فيها بعض القبائل المدينية .

أما فيما يتعلق بإدوم ، فقد كان هناك أيضاً ، بعض المراجع الهامة ، التي ارتكز عليها الباحث في التعرف على الجوانب المختلفة لهذا الموضوع . أذكر منها – مكتفياً هنا بذكر

اسم المؤلف وبحثه(١) – :

Cohen , S . , " Edom " ;
Bartlett , J . R . , " The Rise and fall of the Kingdom of Edom " ;
Bartlett , J . R . , Edom and the Edomites ;
Cook , S . A . , " Edomites " ;
Weippert , M . , " Remarks on the History of Settlement in Southern Jordan during the Early Iron Age " .

وفيما يتعلق بمؤاب ، فقد أفاد البحث من مراجع هامة ، منها :

Ginsburg , C . D . , The Moabite Ston ; Afac - Simile of the Original Inscription ;
Grohman , E . D . , " Moab " ;
Kennett , R . H . , " Moab " ;
Miller , J . M . , " Recent Archaeological Developments Relevant to Ancient Moab " .

وفضلاً عن هذه المصادر والمراجع ، التي ورد ذكرها آنفاً ، فقد استفدت من مصادر أخرى ، ومراجع حديثة ، أثبتُّها في هوامش هذا البحث ، وفي قائمة المصادر والمراجع .

ومما يجدر ذكره في هذا المقام ، بعض الملاحظات التي لابد من الإشارة إليها، وهي:

أولاً : أن الباحث لم يذكر في هوامش فصول الرسالة ، الألقاب المرتبطة بالمؤلفين ، مثل : الدكتور ، الاستاذ ، الشيخ ، ... الخ .

ثانياً : عند كتابة أسماء المصادر الإسلامية في هوامش الرسالة ، قَدّمتُ كتابتها على المراجع ؛ باعتبار تاريخ وفاة المؤلف للمصدر ، وليس باعتبار تاريخ سنة طبع الكتاب ، مع الإشارة إلى كتابة اسم المؤلف كاملاً عند وروده لأول مرة ، وذلك في كل فصل من فصول الرسالة . وفي حال ذِكْرِ تلك المصادر مرة أخرى في الهوامش اللاحقة من الفصل نفسه ، فإني أُشير إلى الاسم الذي أُشتهر به المؤلف ، مع ذكر عبارة المصدر السابق ، وذلك مثل : الإمام البخاري ، الإمام مسلم ، الطبري ، ابن الأثير ، القرطبي ، ابن كثير ، ابن حجر العسقلاني ... وهكذا .

ثالثاً : اعتمد الباحث في تحديد فترات حكم الملوك والفراعنة المصريين على كتاب :

Gardiner , A . H . , Egypt of the Pharaohs , Oxford University Press , New York , 1972 , P . P . 439 - 453 .

---

(١) انظر المعلومات كاملة عن هذه المراجع في قائمة المصادر والمراجع .

رابعاً : اعتمد الباحث في تحديد فترات حكم الملوك الآشوريين على كتاب :

Luckenbill , D . D . , Ancient Records of Assyria and Babylonia , Vol . II , Green Wood Press , New York , 1968 , P . P . 439 - 442 .

احتوى البحث على مقدمة ، وثلاثة أبواب ، وخاتمة . ثم ملحق ببعض الخرائط ، وقائمة للمصادر والمراجع .

تَعرّضتُ في المقدمة إلى أهمية الموضوع ، والأسباب التي أدّت إلى اختياره ، وموقف المؤرخ المسلم من أسفار التوراة ، مع دراسة تحليلية لمصادر ومراجع البحث .

أما الباب الأول : فهو بعنوان : بنو إسرائيل في مصر قبل وأثناء دعوة موسى عليه الصلاة والسلام . وفي هذا الباب فصلان :

الفصل الأول : التعريف ببني إسرائيل ، وتاريخ وفودهم إلى مصر ، ونشأة موسى عليه الصلاة والسلام .

وتحدثت في هذا الفصل عن ثلاث نقاط رئيسة :

أولاً : التعريف ببني إسرائيل ، من حيث التسميات التي ارتبطت بهم ، وهي : عبراني ومدى ارتباطها بالعابيرو ، وإسرائيلي ، ويهودي ، وصهيوني .

وحاولت التعرف على كل تسمية من هذه التسميات ، من خلال الآراء المختلفة لتحديد المفهوم التاريخي لكل تسمية ، ومدى ارتباط البعض بالآخر ، وكذلك مدى الإختلاف ، ودلالة كل منها ، من الناحية التاريخية والدينية ، قدر الاستطاعة .

ثانياً : وفودهم إلى مصر .

تحدثت في هذه النقطة عن أبناء يعقوب عليه الصلاة والسلام الاثنا عشر ، والذين أُطلق عليهم اسم الأسباط فيما بعد ، أي قبائل بني إسرائيل . وناقشت في هذا الموضوع اختلاف العلماء حول نبوّة الأسباط ، إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام ، وأوردت في ذلك رأيين مختلفين ، وحُجج أصحاب كل رأي في إثبات ، أو نفي نبوّتهم . وقد رجّحتُ أن الأسباط ، الوارد ذكرهم في القرآن الكريم ، هم من الرسل الكرام الذين لم يقصّ الله عز وجل خبرهم لرسوله الكريم ، وهم غير الأسباط إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام .

ثم تحدّثتُ عن أهم الأماكن التي كانوا يقيمون فيها في أرض كنعان ، قبل وفودهم إلى مصر ، وهي : شكيم (نابلس حالياً) ، واقليم افرايم ، وبئر السبع وما جاورها ، وفي منطقة العربات ، أو ما يسمى بوادي عربة .

وقد هيأ الله عز وجل لبني إسرائيل الأسباب ، ليدخلوا إلى مصر ، وذلك كما جاء مُفصّلاً في سورة يوسف عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم، وما ورد أيضاً في التوراة ، وإن كنت اعتمدت على الآيات القرآنية الكريمة أكثر مما اعتمدت على التوراة ؛ لما يعتريها من الإضطراب والتناقض في كثير من نصوصها .

أما عن تاريخ وفودهم ، فقد اتجهت آراء المؤرخين إلى رأيين مختلفين :

الرأي الأول : أنه أثناء حكم الهكسوس مصر (١٧٢٥ - ١٥٧٥ ق.م) .

الرأي الثاني : أنه في عهد أمنحتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق.م) .

وقد ناقشت هذين الرأيين ، وأوردت الأدلة التاريخية ، التي يستدل بها كل فريق على رأيه . ورجّحتُ بعد ذلك الرأي الأول ، الذي يكاد ينعقد إجماع كثير من المؤرخين عليه .

وبعد وفودهم إلى مصر ، تحدّثتُ أيضاً عن مكان إقامتهم ، وهي أرض جوشن، أو جاسان حسب ما تشير التوراة ، وحاولت تحديد هذه المنطقة ، بناءً على ما تَوفّر لديّ من مصادر ومراجع ، ورجّحتُ أن أرض جوشن تقع في وادي طميلات ، الذي يمتد من فرع النيل الشرقي ، متجهاً نحو الشرق ، حتى بُحيرة التمساح .

وبعد وفاة يوسف عليه الصلاة والسلام ، تشير التوراة إلى ما حَلّ ببني إسرائيل من تسخير في مصر ، لأسباب كثيرة ، ذكرتها في موضعها من البحث .

ثالثاً : موسى عليه الصلاة والسلام ونشأته .

وقد تحدثت في هذه النقطة عن نسبه ، ومولده ، وإلقائه في اليمّ بأمر الله تعالى ، ونجاته بقدرة الله تعالى على أيدي آل فرعون ، ثم رَدّهِ إلى أُمّه كي تَقرّ عينُها ولا تحزن ، بعد أن حَرّمَ الله عز وجل عليه المراضع من آل فرعون ، لِتتمّ نعمةُ الله عز وجل عليه ، ولتُرضعه أُمّه المؤمنة .

وقد أشرت إلى رأي سيجموند فرويد ، ومن وافقه من المؤرخين ، في زعمه أن موسى عليه الصلاة والسلام شخصية مصرية ، وليس من بني إسرائيل ، والأسس التي ارتكز عليها في دعواه . ثم بيّنتُ تهافت زعمه ، والرد على قوله .

أما نشأته عليه الصلاة والسلام في بيت فرعون ، فهي إرادة إلهية ، وحكمة ربّانية ، إمتنّ الله عز وجل بها على رسوله الكريم . ولما بلغ أشُدّهُ واستوى تَعرّض للإبتلاء

والإختبار ، وذلك بقتل رجلٍ من عدوّه ، فما أن علم أن القوم من آل فرعـون يـأتمرون بـه ليقتلوه حتى خرج من مصر متجهاً تلقاء مدين .

وقد تحدث الباحث في هـذا الموضـوع ، عـن رأي العلمـاء المسـلمين الثقـات ، فيمـا يتعلق بقتل موسى عليه الصلاة والسلام للرجل الذي وكزه حيث لقـي حتفـه ، وبيّنـتُ أن موسى عليه الصلاة والسلام انتصر للمؤمن من الكافر ، إذ أن رابطة العقيدة هي التي جعلته ينتصر لأخيه المؤمن ، وليس رابطة الدم .

وقد أكرم ا لله عز وجل عبده موسى عليـه الصـلاة والسـلام عنـد وصولـه إلى أرض مدين بلقائه الشيخ الكبير ، الذي لقي عنـده المـأوى . وقـد رأيـت مـن الواجـب أن أُبيّـن شخصية الشيخ الكبير ، والآراء التي دارت حوله ، من خلال ما ورد في التـوراة ، والقـرآن الكريم ، وبعض المصادر الإسلامية ، وآراء المؤرخين المُحدَثين .

أما الفصل الثاني ، فيشتمل على موضوعين ، بعنوان :

أولاً : المجتمـع المصـــري القديـم المعـاصر مـن الجوانـب السياسـية والفكرية والإجتماعية .

ثانياً : رسالة موسى عليـه الصـلاة والسـلام ، وموقـف أصحـاب الفكـر الديني المصري القديم منها .

ففيما يتعلق بالموضوع الأول من هذا الفصل ، قام الباحث بدراسـة لأحـوال المجتمـع المصري القديم المعاصر لموسى عليه الصلاة والسلام من النواحي المذكورة آنفاً، ليَسْهُل على القارئ فهم ما استقرّ عليه ذلك المجتمع من تَوجُّـه لغير ا لله تعـالى ، وبالتـالي إدراك حقيقـة الصراع الذي دار بين موسى عليه الصلاة والسلام ، وبين فرعون ومـلأه . فموسى عليـه الصلاة والسلام جاء برسالة سماوية ، وَمُؤيَّد بالوحي ، فيما كان فرعون يدّعـي الالوهيـة ، وأنه الرب الأعلى لقومه . لذلك بَيّنتُ ما كان قد تَرسّخَ في العقيدة الرسمية للدولة المصريـة القديمة ، من تأليه فرعون ، بصفته – حسب اعتقاد المصريين القدمـاء – " الملـك الإلـه " ، وما تَرتّبَ على ذلك من آثار بالغة الأهمية استمرت لقرون طويلة .

ومـن ناحيـة أخـرى ، بَيّـنَ البـاحثُ في هـذا الفصـل دور المعبـود " آمـون " في العقيـدة المصريـة القديمـة ، خاصـة خـلال عصـر الدولـة الحديثـة (الأسـرة الثامنـة عشـرة (١٥٧٥ – ١٣٠٨ ق.م) ، والأسـرة التاسـعة عشـرة (١٣٠٨ – ١١٨٤ ق.م) ،

والأسرة العشرين (١١٨٤ - ١٠٨٧ ق.م) ، والصراع الفكري الـذي قـام بـه امنحُتـب الرابع (أخناتون) (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) ضـد عبـادة آمـون ، ودعوتـه لعبـادة آتـون (قرص الشمس) .

ثم بَيّنتُ أهم المعبودات التي كانت قـد اسـتقرت في الفكـر الديـني المصـري القديـم، وموقف الباحث من الإنحراف العقدي الذي كان سائداً في ذلك المجتمع .

أما الأحوال الإجتماعيـة ، فقـد تَعرّضـتُ إلى أهـم الطبقـات الـتي كـانت سـائدة في المجتمع المصري القديم ، ودورها فيه ، وما تَرتّبَ على ذلـك مـن تبـاين بـين النـاس ، كمـا أشار لذلك القرآن الكريم ، في قوله تعالى :

﴿ إن فرعون عـلا في الأرض وجعـل أهلهـا شـيعاً يستضعف طائفـةً منهـم يُذبّـحُ أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾[١] .

أما الموضوع الثـاني مـن هـذا الفصـل فهـو رسـالة موسـى عليـه الصـلاة والسـلام ، وموقف أصحاب الفكر الديني المصري القديم منها .

وقد تناولتُ هذا الموضوع من خلال القرآن الكريم . وقصدتُ من هذا العنـوان أن أُبيّنَ موقف فرعون وملأه من الرسالة الربانية ؛ إذ أنهم هم الذين يُمثِّلـون أصحـاب الفكـر الديني المصري القديم ، وخاصة إدّعاء فرعون للالوهية والربوبية .

وفضلاً عن ذلك ، بَيّنتُ موقف السّحرة ، وموقف بني إسرائيل الحقيقي من الرسـالة السماوية ، مع بيان الآيات التسع التي أيّدَ الله عز وجـل بهـا رسـوله الكريـم ، وهـي الـتي تُسميها التوراة باسم الضربات .

أما الباب الثاني فهو بعنوان : خروج بني إسرائيل من مصر .

وهذا الباب ، في الحقيقة ، هو الباب الرئيس في البحث . ويحتوي على فصلين:

الفصل الأول : خروج بني إسرائيل من مصر .

وعنوان الفصل مشابه لعنوان الباب ، وفيه ثلاث نقاط رئيسة ، هي :

أولاً : الاستعداد للخروج ، وأهم الأسباب لخروجهم .

ثانياً : خط السير ، والمعجزات الربانية في طريق الخروج .

ثالثاً : نظريات موضوع الخروج .

---

(١) سورة القصص ، الآية (٤) .

بَيّنَ الباحثُ في النقطة الأولى ، إعداد موسى عليه الصلاة والسلام قومه للخروج بهم بأمر الله تعالى ، ووحي منه سبحانه وتعالى ، وما كان يُثيره فيهم من ترغيبٍ في التوجّه إلى الله تعالى بالصلاة ، والصبر على البلاء ؛ إذ هو الزاد الحقيقي للمؤمن . مع الإشارة إلى أهم الأسباب التي وردت في التوراة ، وفي بعض المراجع التاريخية .

أما النقطة الثانية، فتحدثتُ فيها عن خط سير بني إسرائيل عند خروجهم من مصر ، وبينّتُ صعوبة إعطاء تفاصيل دقيقة للطريق التي سلكوها ؛ لعدم تَوفُّرِ مصادر أصيلة في هذا الموضوع . لذلك اجتهدت قدر الإمكان ، وحاولت أن أتعرّف على ذلك من خلال ما ورد في التوراة ، وما ورد في بعض البحوث العلمية الأثرية والتاريخية .

وقد ارتبط بخط سير بني إسرائيل معجزات ربانية أيّدَ الله عز وجل بها رسوله الكريم ، كان أولها معجزة انفلاق البحر ، عند لحاق فرعون وجنوده بموسى عليه الصلاة والسلام ومن معه . فبذلت قدر المستطاع في محاولة تحديد ذلك البحر ، والإشارة لأهم الآراء التاريخية في هذا الشأن . إلا أنني رَجّحتُ أن تحديد ذلك البحر على وجه الدقة واليقين ، هو من علم الغيب الذي استأثر الله عز وجل به وحده ، ويكفي الباحث المسلم التوقّف عند ما أخبر به القرآن الكريم .

ثم تحدّث الباحثُ عن أهم الأسباب التي دعت فرعون وجنوده لِلّحاق ببني إسرائيل، وإن كان السبب الرئيس ، الذي لم يكن يعلمه فرعون وجنوده ، هو استدراجهم لمصَارِعهم ، وإغراقهم أجمعين ، عقاباً لهم وجزاءً على كفرهم با لله وإعراضهم عن دعوته .

أما النقطة الثالثة ، فهي نظريات موضوع الخروج .

وهذا الموضوع ، بلاشك ، اختلفت فيه الآراء التاريخية ، فحاولت جمع هذه الآراء ، وبيان مُؤيّدي كل رأي ومُعارضيه، حسب ما توفّر لدي من مصادر ومراجع.

وأثناء الحديث عن النظرية التي تُحدد الخروج في عهد أخناتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) رأيت من الواجب الرَدّ على من ربط دعوة موسى عليه الصلاة والسلام ورسالته ، بما نادى به أخناتون ، ومن ثم تقرير الحق في هذه المسألة .

وفي نهاية الحديث عن هذه النظريات لم استطع الجزم أو الترجيح لأي منها ، مُفوّضاً علم ذلك إلى الله تعالى ، والتوقُّف عند ما أخبر به القرآن الكريم ، وما ورد في السنة النبوية المطهرة ، وهو المنهج الذي ألزمت نفسي الإلتزام به ، حيث لم يرد فيهما أي إشارة تُحدِّد مَنْ هو فرعون الذي كان معاصراً للرسول الكريم موسى عليه الصلاة والسلام .

أما الفصل الثاني من الباب الثاني ، فقد تناول موضوعين :

أولاً : شبه جزيرة سيناء سياسياً وحضارياً .

ثانياً : بنو إسرائيل في سيناء .

ففي الموضوع الأول ، حاولت إعطاء صورة واضحة عن شبه جزيرة سيناء ، من حيث أصل كلمة سيناء ، وجغرافية شبه جزيرة سيناء ، وأهميتها على مَرّ العصور، خاصة فيما يتعلق بموقعها الهام، وما كانت تحتويه من معادن ، لاسيما مناجم النحاس، التي كانت ذات أهمية بالغة خلال فترات حكم الأُسرات المصرية القديمة .

وفي الموضوع الثاني ، تحدّثَ الباحثُ عن بني إسرائيل في سيناء . وقد آثرتُ قبل الحديث عن ذلك ، مادام القوم قد انتهى بقاءهم في مصر ، أن أُشير إلى المدة الزمنية التي قضوها في مصر ، اعتماداً على نصوصٍ من التوراة والانجيل ، ومناقشتها . ثم تَطرّق الباحثُ إلى عدد الذين خرجوا مع موسى عليه الصلاة والسلام ، ونجّاهم ا لله عز وجل مع رسوله الكريم ، ومبالغة التوراة في ذلك .

وخلال الحديث عن المواقع التي مَرّوا بها خلال سيرهم بعد نجاتهم ، أشرت إلى بداية ظهور انحرافاتهم العقدية الخطيرة ، وذلك في طلبهم من موسى عليه الصلاة والسلام أن يجعل لهم إلهاً كما للقوم الذين رأوهم آلهة .

قال تعالى : ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قومٍ يعكُفون على أصنامٍ لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قومٌ تجهلون • إن هؤلاء مُتبرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون • قال أغير ا لله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين** ﴾(1) .

وهذا الانحراف الخطير ارتبط بما ألفوه من تقليد المصريين في عباداتهم وعاداتهم.

وكذلك بَيّنتُ تَذمّرهم على موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام في شبه جزيرة سيناء ، واتهامهم لهما بأبشع التهم ، رغم أن الخالق جل وعلا أنزل عليهم المنّ والسّلوى ، وَفجّرَ لرسوله الكريم موسى عليه الصلاة والسلام الماء من الحجر ، كمعجزة ربانية أخرى . إلا أن تَمرّدهم يُنبئ عن بعض الجوانب من نفوسهم الملتوية .

---

(١) سورة الأعراف ، الآيات (١٣٨ - ١٤٠) .

وقد أشرتُ إلى أول صِدام عسكري مُسلَّح بين بني إسرائيل ، وبين العماليق ، حسب ما ورد في النصوص التوراتية ، وما آلت إليه تلك المعركة .

وكذلك قدوم حمو موسى عليه الصلاة والسلام لمقابلة الرسول الكريم عند جبل الطور ، والنصيحة التي أسداها له باتباع الطريقة المثلى في حَلِّ الخصومات ، والقضاء بين بني إسرائيل .

وعند صعود موسى عليه الصلاة والسلام إلى جبل الطور، كما واعده ربه عز وجل، حدثت عدة أمور هامة ، منها طلب موسى عليه الصلاة والسلام رؤية ربِّـهِ ، وصعقه بعد ذلك ، ثم إنزال التوراة عليه . وكذلك ردّة بني إسرائيل وعبادتهم العجل من دون الله ، أثناء غياب موسى عليه الصلاة والسلام في الجبل .

وبعد عودة موسى عليه الصلاة والسلام ، أنزل الله عز وجل حُكْمَه في قتل عُبّاد العجل ، بعد أن ارتدّوا عن عبادة الله تعالى ، إلى أن تاب الله عليهم . واختار موسى عليه الصلاة والسلام بعد ذلك سبعين رجلاً من خيار بني إسرائيل ، ليُعلنوا توبتهم ، وندمهم على ما اقترفه السفهاء منهم ، ويعلنوا استعدادهم لتلقّي أوامر الله عز وجل . إلا أنهم طلبوا رؤية الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ، إلى أن رفع الله تعالى عنهم ذلك ، وأحياهم بعد مماتهم .

قال تعالى : ﴿ **واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال ربِّ لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياي أتُهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تُضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين** ﴾(١) .

وفضلاً عن ذلك ، كانت لبني إسرائيل انحرافات أخرى ، أشرت إليها في موضعها من البحث . ولما بلغ بهم الأمر إلى رفض ما جاء في التوراة، رفع الله تعالى فوقهم الجبل ، فَدبَّ الرُّعبُ في قلوبهم ، كما أشار لذلك القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظُلةٌ وظنوا أنه واقعٌ بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون** ﴾(٢) .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية (١٥٥) .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٧١) .

وبعد بقاءهم عند جبل الطور مدة تقارب السنة ، حسب رواية التوراة[1] ، أمر ا لله عز وجل رسوله الكريم بالتوجه نحو أرض كنعان ، فارتحل بنو إسرائيل إلى أن وصلوا إلى قادش برنيع . ومن هناك أرسل موسى عليه الصلاة والسلام رجالاً إلى أرض كنعان ليأتوه بخبرها ، وهم الذين أشار إليهم القرآن الكريم بإثني عشر نقيباً .

قال تعالى : ﴿ **ولقد أخذ ا لله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم إثني عشر نقيباً وقال ا لله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسُلي وَعزّرتموهم وأقرضتم ا لله قرضاً حسناً لأُكفِرنَّ عنكم سيئاتكم ولأُدخلنّكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك فقد ضَلَّ سواء السبيل** ﴾[2] .

وبعد مُضيّ أربعين يوماً عاد أولئك النقباء ، وقدّموا تقريرهم لموسى عليه الصلاة والسلام ، حيث وصفوا الأرض وسكانها ؛ فَدبَّ الرُّعبُ والخوف في قلوب بني إسرائيل لِما سمعوه ، رغم تشجيع رجلين من النقباء لهم ، ورغم ما قام به موسى عليه الصلاة والسلام من حَثٍّ لهم على طاعة أمر ا لله بدخول الأرض المقدسة . إلا أنهم ما ازدادوا إلا عناداً وإصراراً على عدم دخولها مادام القوم الجبارين فيها . فكتب ا لله عز وجل عليهم التيه أربعين سنة ، نتيجة لهذا الموقف ، الذي جاهروا فيه بعصيان أمر ا لله تعالى ، والنكوص على أعقابهم .

وفي فترة التيه ، جرت لهم كثير من الأحداث ، أشرتُ إلى بعضها في موضعه من البحث .

أما الباب الثالث فهو بعنوان : المجتمعات الساميّة المعاصرة للخروج في غربي الشرق الأدنى القديم وموقفها من بني إسرائيل .

وفي هذا الباب فصلان :

الفصل الأول : دراسة تاريخية للمجتمعات الساميّة المعاصرة للخروج في غربي الشرق الأدنى القديم ، وهي :

أ – مجتمع مدين .

ب – مجتمع إدوم .

ج – مجتمع مؤاب .

(١) سفر العدد ١٠ : ١١ – ١٢ .

(٢) سورة المائدة ، الآية (١٢) .

ومما لاشك فيه ، أنه كانت هنـاك مجتمعـات سـاميّة كثيرة تعيـش في غربـي الشـرق الأدنى القديمة ، إلا أن الباحث اقتصر في هذه الدراسة ، على ثلاثـة مجتمعـات ، كـان لها علاقات مختلفة ومباشرة مع بني إسرائيل أثناء خروجهم من مصر ، ودخولهـم منطقـة شـرق الأردن .

وعلى الرغم من صعوبـة إعطـاء تفـاصيل وافيـة عـن تلـك المجتمعـات ، خـلال فـترة الخروج ، نظراً لقلة المصادر الأصيلة الـتي تعـالج تلـك الفـترة ، إلا أن البـاحـث حـاول قـدر الإمكان ، بيان مـا كـانت عليـه تلـك المجتمعـات حينـذاك ، وأهميتهـا ، ودورهـا في تلـك المنطقة .

ففيما يتعلـق بمجتمـع مديـن ، أشـرت إلى قِـدَمِ وجـود المدينيـين ، وتَعـدُّد قبـائلهم ، وانتشـارها في أمـاكن مختلفـة ، ونشـاطها التجـاري منـذ قـرون طويلـة قبـل حيـاة موسـى عليه الصلاة والسلام ، وأهمية ذلك النشاط التجاري ، الـذي ارتبـط مـع الـدول المعـاصرة لهم .

ولأهمية موقع مدين ، حاولت تحديد أرض مديـن ، والآراء التاريخيـة حولهـا . مـع الإشارة إلى طبيعة الحكم التي كانت سائدة في ذلك المجتمع ، وفقـاً لمـا جـاء في التـوراة[١] ، حيث تسمي حكام مدين باسم الملوك .

وفيما يتعلق بمجتمعي إدوم ومؤاب ، فقد ناقش الباحث، قبل التعرُّض لهذا الموضوع، ما أشار إليه بعض المؤرخين من وجود فجوة تاريخية ، فيمـا قبـل القـرن الثـالث عشـر قبـل الميلاد ، لم يوجد خلالها استيطان ، أو استقرار ثابت للسكان في منطقة شرق الأردن . ثم بيّنتُ خطأ هذا القول ، في مكانه من البحث .

وناقش الباحث أثناء دراسة مجتمع إدوم معنى هـذه التسـمية ، وأصلهـا ، وارتباطهـا بأرض سعير كتسمية أقدم لإدوم ، والحدود الجغرافية . وكذلك الـدور الاقتصـادي الـذي قام به الإدوميون في هذه المنطقة ، واهتمام الملوك والفراعنة المصريين بذلك .

وهذا بدوره أدّى إلى ذِكْر إدوم في النصوص المصرية القديمة على وجـه الخصـوص ، وفي السجلاّت الآشورية ، خاصة في الفترات المتأخرة من تاريخ إدوم .

---

(١) سفر العدد ٣١ : ٨ .

وناقش الباحث أيضاً ، مدى صحة وجود مملكة إدومية خلال فترة الخروج ، حسب ما أشارت التوراة ، مع الإشارة إلى أهم مدن إدوم في ذلك الوقت .

وقد رجّحتُ في هذا الشأن ، أن النظام الملكي في إدوم كان في عصر متأخر عن فترة الخروج ، ربما كان قريباً من عصر شاؤل (طالوت في القرآن الكريم) .

وارتبط الحديث عن إدوم بالإشارة إلى الطريق الملكي الذي كان يمر عبر إدوم ، وهو طريق القوافل بين سوريا والعقبة ، وأهميته خلال العصور القديمة .

أما مجتمع مؤاب ، فقمت بدراسة أصل التسمية بـ" مؤاب " ، والرّدُّ على مَنْ ربط ذلك بلوط عليه الصلاة والسلام . ثم بيّنتُ الآراء التاريخية التي دارت حول موطن المؤابيين الأصلي ، وأصولهم التاريخية . هذا فضلاً عن الحديث عن الحدود الجغرافية لمؤاب ، وتاريخ نشأتها ككيان سياسي في منطقة شرق الأردن ، رغم ما يعتري ذلك من صعوبات . إلا أن بعض المصادر المصرية القديمة أشارت إلى مؤاب خلال عهد رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) ، بينما المصادر المسمارية أشارت إلى مؤاب في عصور متأخرة عن فترة الخروج ، تقع فيما بين القرن الثامن قبل الميلاد ، والقرن السادس قبل الميلاد ، أورَدَها الباحثُ في موضعها من البحث .

أما المصادر التاريخية المؤابية ، فهي أيضاً مصادر متأخرة ، أهمها نقش الملك المؤابي ميشع (٨٧٠ - ٨٤٠ ق.م) الذي أُصطلح على تسميته باسم " الحجر المؤابي " .

وبسبب تأثير الفكر الديني المؤابي على بني إسرائيل ، أثناء وجودهم في مؤاب زمن الخروج ، تعرّضتُ إلى هذا الفكر الوثني، الذي جعل من " بعل " معبوداً لهم من دون الله، وكذلك المعبود " كموش " ، فضلاً عن معبودات أخرى ، أشرت إليها في موضعها .

وختَمَ الباحثُ هذا الفصل بالإشارة إلى اللّغة المؤابية ، ومدى تأثُّرها بغيرها من اللّغات التي كانت معاصرة لها ، وفقاً لما كُتب به نقش ميشع آنف الذكر .

أما الفصل الثاني فهو بعنوان: موقف تلك المجتمعات من بني إسرائيل.

وفي هذا الفصل ، تحدّثتُ عن موقف كلٍ من إدوم ومؤاب ومدين، من بني إسرائيل، وذلك بالاعتماد أساساً على النصوص التوراتية، التي كانت المصدر الرئيس لتلك المواقف ، وَتُعضِّدها بعض المراجع الهامة . غير أن الباحث حاول دراسة تلك النصوص التوراتية ، والحكم على صحتها قدر الإمكان .

وقد اقتضى الأمر ، الإشارة إلى بعض المجتمعات الأخرى ، التي كان لها موقف واضح ضد بني إسرائيل ، مثل موقف سيحون الأموري ملك حشبون ، وموقف عوج ملك باشان . مع الإشارة أيضاً إلى الأماكن التي مَرَّ بها بنو إسرائيل عبر أراضي تلك المجتمعات، خاصة تلك التي حدث فيها صِدام مُسلَّح بين الطرفين .

وأثناء الحديث عن موقف مؤاب ، ناقش الباحث دور شخصية بَلْعام ، وما ارتبط بهذه الشخصية من أحداث تاريخية ، وردت الإشارة إليها في بعض المصادر الإسلامية ، مثل كتب التفسير والتاريخ .

وقد أشارت التوراة إلى ما قام به بَلْعام من إغواء بني إسرائيل ، ووقوعهم في الفواحش ، بل وعبادتهم لأصنام المؤابيين ، حتى ضربهم الله تعالى بالوباء .

وفي نهاية هذا الفصل تحدّثتُ عن وفاة موسى عليه الصلاة والسلام بالقرب من الأرض المقدسة ، وما دار حول ذلك من آراء تاريخية . ثم حاولتُ بيان ما دار بين موسى عليه الصلاة والسلام ، وبين مَلَك الموت من أحداث جديرة بالإهتمام ، وذلك بالاعتماد على المصادر الإسلامية الأصيلة ؛ وهي كتب الحديث .

وبوفاة موسى عليه الصلاة والسلام تنتهي الفترة الزمنية المحددة لمجال هذا البحث ، وما تلا ذلك من أحداث ، جديرة بتسجيلها ودراستها في بحث علمي آخر .

وأخيراً احتوى البحث على خاتمة ، تُوضِّح أهم نتائج البحث ، ومن ثم مُلحق ببعض الخرائط .

وبعد ، فإن دراسة الجوانب المختلفة للتاريخ الحقيقي لبني إسرائيل ، يتطلّبُ جهوداً كبيرة من الباحثين ، أملاً في الوصول إلى الحقائق المُجرّدة لأولئك القوم ، بدون التأثر بالنواحي العاطفية ، خاصة في ظلّ إدّعاء اليهود المعاصرين، زوراً وبهتاناً، إلى بني إسرائيل ، رغم أنهم في حقيقة الأمر ، لا يَمُتّون إلى بني إسرائيل بصلة ، ويَمثّلون شتات الأمم .

ولا يزال موضوع خروج بني إسرائيل ، من الناحية التاريخية والأثرية ، موضوعاً حياً جديراً باهتمام الباحثين ، إذ لا أزعم أني استوفيت كل جوانبه . ولا زالت هناك فجوات وثغرات تاريخية تتعلق بكثير من حياة بني إسرائيل ، بحاجة إلى بحث ودراسة تاريخية دقيقة . وهذا يُشجّع الباحث على محاولة استيفاء بعض هذه الجوانب التاريخية وبحثها إن شاء الله تعالى ، قدر الجهد والاستطاعة ، وحسب طاقة النفس .

وليس بعيداً ، في حالة ظهور دلائل تاريخية وأثرية جديدة وأكيدة ، أن يُغيّرَ الباحثون والمؤرخون كثيراً مما كانوا يعتقدون ، وبالتالي يتغيّر الكثير مما كُتب في السنوات والعقود الماضية .

وأخيراً ، فإني أتوجه إلى الخالق جل وعلا بالشكر والحمد والثناء ، على توفيقه لعبده الفقير إليه ، وأشكره سبحانه وتعالى على ما مَنّ به عليَّ من نِعَمٍ لا تُعدُّ ولا تُحصى ، ومنها إتمام هذا البحث، الذي أرجو من الله عز وجل أن أكون قد وُفّقتُ فيه إلى ما قصدتُ إليه، وأن يجعله عملاً خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجعل ما بذلت فيه من جهد ونصب في ميزان حسناتي يوم القيامة .

وما كان في هذا البحث من صواب وسداد ، فهو من توفيق الله عز وجل ورحمته ، أحمده سبحانه وتعالى وأشكره . وما كان فيه من خطأ ونسيانٍ وزلل ، فهو من نفسي ومن الشيطان ، استغفر الله تعالى منه .

وأرجو من الناظر في هذا البحث ، إذا عثر على سهوٍ فيه ، أو خطأ ، أو خَللٍ ، أو ما زَلّ به الفِكرُ والقلم ، أن يتأمّلَ فيه مُنصِفاً ؛ فإن غَلبَ صوابُه على خطأه عفا عن الخطأ وأصلحه ، وعَذَرَ صاحبَه بما شقي في جمعه وترتيبه ، وأفنى من عُمره في تحصيله وتهذيبه ، والعفو والغفران من الله تعالى ، فهو الغفور الرحيم ، المتفضِّل دائماً على عباده بالرحمة والمغفرة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الباب الأول

بنو إسرائيل في مصر قبل وأثناء دعوة موسى عليه السلام .

الفصل الأول

التعريف ببني إسرائيل ، وتاريخ وفودهم إلى مصر ، ونشأة موسى عليه السلام .

أولاً : التعريف ببني إسرائيل .

- التسميات :

١ - عبراني .

٢ - إسرائيلي .

٣ - يهودي .

٤ - صهيوني .

يحاول الباحث دراسة ما أطلقت عليه المصادر التاريخية تسمية " بني إسرائيل " . وهذا يتطلب محاولة التعرّف على بداية ظهور هذه التسمية في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، حيث تعرّض الباحثون في أبحاثهم إلى هذه التسمية ، واتجهت التفسيرات والتعريفات إلى العديد من الآراء ، بناءً على دراسة الأدلة المختلفة من خلال النقوش والنصوص التاريخية القديمة ، مما جعلهم يشيرون إلى بعض التسميات الأخرى المتّصلة بطريق مباشر أو غير مباشر بتسمية بني إسرائيل .

لذلك ، لابد من دراسة هذا الموضوع ، لتحديد المفهوم التاريخي لكل تسمية ، ومدى ارتباط البعض بالبعض الآخر ، ومدى الإختلاف أيضاً ، ودلالة كل مسمى من الناحية التاريخية والدينية حسب ما أمكن ذلك ، مع مراعاة ترتيبها زمنياً ، وأسباب ظهورها ، أو استمرارها ، أو هجرها .

١ - عبراني :

العِبْر ، هو جانبُ النّهر ، وَعِبْرُ الوادي وعَبْرُه : شاطِئَهُ وناحيته .

وفلانٌ في ذلك العِبر أي في ذلك الجانب . وعَبَرتُ النهر والطريق أعْبُرُه عبراً وعُبوراً إذا قطعته من هذا العِبْر إلى ذلك العِبْر(١) .

فكلمة عبري في الأصـل مشتقة مـن الفعـل الثلاثـي عَـبَرَ ، بمعنـى قطـع مرحلـة مـن الطريق ، أو عبر الوادي ، أو النهر ، أو عبر السَّبيل شقّها . وهذا الفعل عَبَرَ يدل – سـواء في اللغة العربية أو العبرية – علـى التحـوّل ، والتنقـل ، والترحـال ، مـن مكـان إلى آخـر ، والاجتيـاز مـن جهـةٍ إلى أخـرى مـن الـوادي ، أو مـن الجـدول الصغـير ، أو النّهـر ، أو الشاطيء ، أو البحر(٢) .

والعِبْري ، بالكسر ، العبراني أو العِبْرانية لغة اليهود .

وكان اليهود يقولون بلغتهم : ((عِبرهَـا نَهَـر)) ، كمـا كـان الأكـاديون يقولـون : ((إبرَناري)) أو ((ابرتي ناري)) ، والآراميون يقولون : ((عَـبْر نَهْـرا)) ، وقريبـاً منـه مـا في النقوش العربية الجنوبية . ومعنى ذلك كله الشـط الآخـر مـن النهـر ، أي نهـر الفـرات بالذات . فيكون العبري بناءً على ذلك هو سـاكن الأرض الواقعـة إلى الضفـة الغربيـة مـن الفرات ، وهي الأقاليم المتاخـمة لسوريا ، والتي تسمى بادية الشام(٣) .

---

(١) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب ، ج٤ ، الطبعة الأولى ، دار صـادر ، بيروت ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ، ص ٥٢٩ ، ٥٣٠ .

(٢) حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١ م ، ص ٧١ وكذا
حسن ظاظا ، عائشـة راتـب ، محمـد فتـح الله الخطيـب : الصهيونيـة العالميـة وإسـرائيل ، الهيئـة العامـة للكتـب والأجهزة العلمية ، القاهرة ، ١٩٧١ م ، ص ١٦ وكذا
إسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٨٠ م ، ص ٧٨ وكذا
محمد خليفة حسن أحمد : دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمـة ، دار الثقافـة للنشـر والتوزيـع ، القاهرة ، ١٩٨٥ م ، ص ١٢ .

(٣) حسن ظاظا : المرجع السابق ، ص ٧١ ، ص ٧٢ وكذا
حامد عبد القادر : الأمم السامية مصادر تاريخها وحضارتها ، مراجعة وتعليق عوني عبـد الـرؤوف ، دار نهضـة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٨١ م ، ص ١١٠ وكذا
محمد سيد طنطاوي : بنو اسرائيل في القرآن والسنة ، الطبعـة الأولى ، دار الزهـراء للاعـلام العربـي ، القـاهرة ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ١٧ ، ص ١٨ .

وهذا المعنى يرتبط به سكان الصحراء وأهل البادية ؛ بمعنى أن كلمة عبري مثل كلمة بدوي التي تُطلق على ساكن الصحراء والبادية ، حيث عُرف عنهم التنقل ، والتجوال في الصحراء طلباً للكلأ والماء لرعي ماشيتهم وسقايتها ، وذلك قبل استقرارهم وتحضّرهم[١] .

ويرى بعض الباحثين[٢] أن التسمية " عبراني " كانت تُطلق على طائفة من القبائل العربية في شمال الجزيرة العربية في بادية الشام ، وعلى غيرهم من الأقوام العربية في المنطقة ، في حوالي الألف الثانية قبل الميلاد ، بحيث أصبحت هذه الكلمة مرادفة لأهل الصحراء أو البادية التي لا تستقر في مكان .

إلا أن هذا الرأي يناقضه أن فعل عَبَرَ لا يعني أقام في البادية أو ما يتعلق في البادية مُطلقاً ؛ فالمعاجم السريانية تُعطي له ثلاثة معان رئيسة هي : إجتاز ، قطع مسافة ، فَنِيَ أو زالَ . والمعاجم العربية تُعطي للفعل نفسه : عَبَرَ عَبْراً أي حزن وسالت دمعتُه ، وعبر عُبوراً بمعنى مرَّ عبوراً كأنه شقّها وقطعها ، وبمعنى مات وانقضى . أما عِبْري فبالسريانية تعني ساحلاً ، أو شاطئاً ، أو اجتيازاً ، ولا معنى لها بالعربية سوى اليهودي . وكذلك فإن لفظة العبراني ظهرت في الألف الثاني قبل الميلاد ، بينما ظهرت لفظة العربي في القرن التاسع قبل الميلاد. وقد كانت كلمة "عرب" مستعملة في اللغة العبرية لتدل على أهل العربة، أي أهل الصحراء فقط، في حين كان لأهل المدن والعمران أسماء أخرى[٣] جاءت في

---

(١) إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ، ص ٧٨ ، ص ١٦٤ .

(٢) أحمد سوسة : العرب واليهود في التاريخ ، الطبعة الثانية ، العربي للاعلان والنشر والطباعة ، دمشق ، ١٩٧٢ م، صفحة ف وكذا

خير الله طلفاح : كنتم خير أمة أخرجت للناس ، ج ٧ ، حقيقة يهود ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨ م ، ص ١٣٠ وكذا

داود عبد العفوّ سُنّقرط : جذور الفكر اليهودي ، الطبعة الأولى ، دار الفرقان ، عَمّان ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م، ص ١٤ .

(٣) قسّم بعض المؤرخين أهل البادية أو البدو إلى صنفين :

الصنف الأول : مَنْ كان معاشُه في السائمة مثل الغنم والبقر ، فهم ظُعَّنٌ في الأغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم ، فالتقلب في الأرض أصلح بهم ويُسمُّون شاوية ، ومعناه القائمون على الشاء والبقر ، ولا يُعْعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة .

الصنف الثاني : مَنْ كان معاشهم في الإبل ، فهم أكثر ظعناً وأبعد في القفر مجالاً ، لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا تستغني بها الإبل في قوام حياتها . وهؤلاء هم العرب الأشدّ بداوة ؛ لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط . انظر :

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، دار القلم ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ١٢١ ، ص ١٢٢ .

كتب اليهود القديمة[١] . فلو كانت التسمية متأتّية من الهجرة والتنقل وحياة البداوة لكانت معظم الأمم السامية نُعتت بذلك . وإذا صحّ القول بأن العبرانيين كانوا ينفرون من هذه التسمية ، وأنهم بعد استقرارهم استبدلوها بالإسرائيلي ، فلماذا لم يستبدلوا أيضاً اسم لغتهم بالإسرائيلية ؟ وهذا ما يُرجّح الرأي المعقول من أن التسمية متأتية من عبور إبراهيم نهر الفرات وأنهاراً أخرى[٢] . هذا بالإضافة إلى أن هذه التسمية إنما اختص بها العبرانيون دون غيرهم من الأمم السامية ، والتي لا تختلف عنهم في موطنها الأصلي[٣] .

ومن الباحثين من يرى أن أول من سُمي بالعبراني هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، حيث عبر نهر الفرات عندما خرج من أرض بلاد النهرين ، وحينما نزل بأرض كنعان[٤]

---

(١) إسحاق ساكا : " معنى التسميات للشعوب السامية الثلاثة الكبرى " ، مجلة العربي ، العدد ٩١ ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت ، صفر ١٣٨٦ هـ / يونيو ١٩٦٦ م ، ص ١٤٦ ، ص ١٤٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٥٣ .

(٣) محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (٧) إسرائيل ، الكتاب الأول – التاريخ ، الاسكندرية ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٢٤ .

(٤) كنعان : يبدو أن الاسم كنعان ذو أصل هندو – أوروبي من كلمة حورية هي " كناجي " .

وقد استخدم هذا الاسم في التعبير عن الصوف ذو اللون الارجواني الذي يعود أصلاً لفينيقية ، بمعنى صبغة حمراء ، ومنها أُخذت الكلمة الكلدانية " كناخي " أو " كنخني " التي حُرّفت إلى كنعان ، أي بلاد الأرجوان ، لشهرتها بتلك الصباغة التي تميز بها الفينيقيون فيما بعد .

وهناك رأي يذهب إلى أن كنعان اسم سامي مشتق من " كنع " أو " خنع " الذي يعني المُنخفِض ، والدال على الأرض المنخفضة التي سكنها الكنعانيون ، وخاصة منطقة ساحل البحر المتوسط ، للتمييز بين الأراضي المنخفضة والجبلية المحاذية لها . لذلك كانت أرض كنعان التي تُنسب إلى الكنعانيين تُطلق في بداية الأمر على منطقة الساحل الفينيقي وغرب فلسطين ، ثم صار هذا الاسم الجغرافي يدل على فلسطين وقسم كبير من سوريا ، وكان هذا أول اسم لفلسطين التي تشمل كل المنطقة الواقعة غرب نهر الأردن .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الكنعانيين اختلط ذكرهم في كتب الآثار والتاريخ بالعموريين (الأموريين) ، فنصوص التوراة اليهوية تُطلق على السكان السابقين للعبريين في سُكنى فلسطين اسم العموريين ، بينما النص الايلوهيمي يسميهم كنعانيين . مما يدل على أن هناك صلة قوية بين هذين الشعبين خاصة في مجال اللغة .

ومن المحتمل أن العموريين كان اسماً أطلقته التوراة على سكان المنطقة الجبلية في فلسطين (هضبة يهوذا) بينما أطلقت اسم الكنعانيين على سكان السهول ، بالرغم من أن كليهما شعب واحد . وهذا الاحتمال يؤيده الأصل العبري لكلمة كنعان " ك ن ع " التي تعني – كما مر سابقاً إنخفض أو منخفض . ويمكن تحديد تاريخ هجرتهم من شبه الجزيرة العربية إلى الساحل الفينيقي بحوالي بداية الألف الثالث قبل الميلاد ، حيث أسسوا عدة مدن هامة منها : صور وصيدا وأرواد . انظر :

فؤاد حسنين علي : إسرائيل عبر التاريخ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦ م ، ص ٦١ وكذا

سماه أهل تلك الجهة إبراهيم العبراني أو العبري[١] .

وقد جاء في التوراة[٢] :

((هكذا قال الرب إله إسرائيل . آباؤكم سكنوا في عِبْر النهر منذ الدهر . تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور وعبدوا آلهة أخرى فأخذتُ إبراهيم أباكم من عِبْر النهر وسرتُ به في كل أرض كنعان وأكثرتُ نسلهُ وأعطيتُه إسحاق)) .

فالنص ذكر النهر دون تحديد ، الأمر الذي جعل أحد الباحثين[٣] يذهب إلى عدم الجزم بتحديد ذلك النهر ، سواء كان نهر الفرات ، أو نهر الأردن ، مُعللاً رأيه بأن كلمة نهر كانت تُطلق في التوراة على كل الأنهار الكبيرة دون أن يُضاف إليها ما يميز بعضها عن بعض . هذا بالرغم من أنه ورد في التوراة أيضاً[٤] :

((في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقاً قائلاً . لنسلك أُعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات)) . فكان نهر الفرات بالنسبة للساميين هو " النهر الكبير " حتى أنه كثيراً ما يُسمى بـ" النهر " دون ذكر لإسمه أو صفته[٥] .

= محمد عبد القادر محمد : الساميون في العصور القديمة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ م ، ص ١٩١ وكذا عباس محمود العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ م ، ص ٢٣ ، ص ٨٧ وكذا

محمد السيد غلاب : " الهجرات البشرية الكبرى " ، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، العدد السادس ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م ، ص ٥٠٢ ، ص ٥٠٣ وكذا

محمد أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١ م ، ص ١٣ .

(١) محمد بدر : الكنز في قواعد اللغة العبرية ، المطبعة التجارية الكبرى بعابدين ، القاهرة ، ١٩٢٦ م ، ص ٢٩ ، ص ٥١ وكذا

ربحي كمال : دروس اللغة العبرية ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٢ م ، ص ٣٢ وكذا

صلاح عبد الفتاح الخالدي : الشخصية اليهودية من خلال القرآن ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، دمشق ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٤٣ .

(٢) سفر يشوع ٢٤ : ٢ - ٤ .

(٣) إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ، ص ٧٧ .

(٤) سفر التكوين ١٥ : ١٨ ؛ سفر التثنية ١ : ٧ .

(٥) حسن ظاظا : المرجع السابق ، ص ٧١ .

وقد رجّح بعض العلماء ، ومنهم ابـن الصليبـي (ت ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م) وابـن العبري (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) وأيضاً أ.ف. كليفن ، أن التسـمية عـبراني ناتجـة عـن عبور إبراهيم نهر الفرات ، حيث لم تظهر هذه التسمية إلا بعد احتياز إبراهيم عليه السـلام نهر الفرات[١] .

ومن الباحثين من يرى أن الأقرب إلى الإنسجام أن يرتبط العبور الـذي يُنسـب إليـه العبريون بقصة ليعقوب بن إسـحاق بـن إبراهيـم عليهـم السـلام . فبنـاءً علـى مـا ورد في التوراة[٢] ، فإن يعقوب عليه السلام عاد إلى فدّان آرام[٣] ليتزوج ، تنفيذاً لوصية جدّه وأبيه بأن يحترس من مصاهرة الكنعانيين . وهناك تزوج يعقوب عليـه السـلام ابنـتي خالـه لابـان وهما : ليئة ومن بعدها راحيل ، لقاء أن يخدمه سبع سـنين براحيـل ، وسـبع سـنين أخـرى بليئـة ، الـتي كـان قـد تزوجهـا قبـل راحيـل . وبعـد أحـداث جـرت بينـه وبـين خالـه لابان ، أشار إليهـا سـفر التكويـن ٣١ عـزم يعقـوب عليـه السـلام علـى العـودة إلى أرض كنعان ، ومعه كل ما يملك من مقتنيات وأموال ، وأيضاً بنيه ونساءه ((فهربَ هو وكلّ ما كان له وقام وعبر النهر وجعل وجههُ نحو جبل جلْعاد))[٤] .

---

(١) إسحاق ساكا : المرجع السابق ، ص ١٥١ ، ص ١٥٢ .

(٢) سفر التكوين ٢٨ : ١ - ٥ ؛ ٢٩ : ١٥ - ٣٠ ؛ ٣١ : ١٧ - ٢١ .

(٣) فدّان آرام : اسم سامي معناه " سهل آرام " ، وقد وردت الإشارة إليه في التوراة أيضاً بـآرام النهريـن ، كمـا في سـفر التكويـن ٢٤ : ١٠ ؛ ٢٥ : ٢٠ ؛ ٢٨ : ٥ . وتعتبـر فـدّان آرام إحـدى مواطـن إبراهيـم عليـه الصـلاة والسلام . أما أرض فدان آرام فهي الأرض الواقعة بين المجرى الأعلى لنهر الفرات ، والمجرى الأعلى لنهر دجلة ، بين قرقميش من الغرب ونينوى في الشرق . وقد كان لنهر الفرات رافدان هما : بلخ والخـابور . وحـرّان هـي المدينة الرئيسة على بلخ ، في حين كانت جوزان (تل حلف الحديثة) هي المدينة الرئيسة على الخابور . فـفـدّان آرام كانت تشمل المنطقة الواقعة حول هذين الرافدين ، وخاصة حول بلخ . انظر :

شـهاب الديـن أبـو عبـد الله يـاقوت بـن عبـد الله الحمـوي : معجـم البلـدان ، ج ٤ ، دار صـادر للطباعـة والنشر ، ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ٢٣٨ وكذا

بطرس عبد الملك ، جون الكساندر طمسُن ، إبراهيم مطـر : قـاموس الكتـاب المقـدس ، الطبعـة الثانيـة ، مجمـع الكنائس في الشرق الأدنى ، بيروت ، ١٩٧١ م ، ص ٦٧٢ وكذا

مصطفى كمال عبد العليم ، وسـيد فـرج راشـد : اليهـود في العـالم القديـم ، الطبعـة الأولى ، دار القلـم والـدار الشـامية ، دمشق ، وبـيروت ، ١٤١٦ هــ / ١٩٩٥ م ، ص ٣٢ هامش (٣) .

(٤) سفر التكوين ٣١ : ٢١ .

وعلى ذلك ، كان يعقوب وأبناؤه في هذه القصة قد انفصلوا عن أصهاره الآراميين ، وعبروا نهر الفرات ، متجهين إلى أرض كنعان ، حيث يقيم إسحاق وإبراهيم عليهما السلام ، فأُطلِق عليهم بسبب هذه الرحلة اسم " العبريين " ، خاصة وأن لابان عندما التقى بعد ذلك بيعقوب ، اشترط عليه أن يبقى حيث هو وألاّ يعبُرَ إليه النهر أبداً[١] ، بعد أن تعاهدا وأشهدا الله على ذلك . وربما كان أصهار يعقوب هم الذين سمّوه هو وأبنائه العبريين[٢] .

إلا أن هذا الرأي ، قد جانَبَ الصواب ، وابتعد عن الرأي الأقرب للحق ؛ وهو اعتبار إبراهيم عليه السلام أول من دُعي بالأسم عبراني ، كما مرّ سابقاً .

هذا بالإضافة إلى أن الثابت تاريخياً أن إبراهيم عليه السلام قد عبر نهر الفرات قبل حفيده يعقوب عليه السلام بزمن طويل[٣] .

وبناءً على ما ورد في التوراة[٤] أيضاً ، فيما يتعلق بهذه التسمية ، تجدر الإشارة إلى أنها تربط الاسم عبراني بإبراهيم عليه السلام ، والتي تسميه بلفظ " أبرام " أو " أبرام العبراني " نسبة إلى أحد الأجداد القدامى للساميين هو عابر بن شَالَح بن أرفَكْشاد بن سام ابن نوح عليه السلام . ومن هنا جاء الرأي الذي يذهب إلى اعتبار التسمية " عبراني " منسوبة إلى عابر أحد أجداد إبراهيم عليه السلام[٥] .

وهذا الرأي الأخذ به أمر صعب ؛ لأن بين إبراهيم عليه السلام الذي كان أول من وُصفَ بهذه التسمية وعابر مدة ستة أجيال متوالية . فلو شاء إبراهيم أن يُنسب إلى أحد أجداده لكان من البديهي أن يُعزى إلى سام أشهر أجداده . ثم لو كانت النسبة إلى عابر فلِمَ لم ترد في التوراة طيلة ستمائة سنة ؟ ولِمَ لم يُسمَّ إبراهيم عليه السلام بها قبل عبوره

---

(١) انظر : سفر التكوين ٣١ : ٤٣ – ٥٥ .

(٢) حسن ظاظا ، وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٧ ، ص ١٨ .

(٣) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٤) سفر التكوين ١٠ : ٢١ ، ٢٤ ، ٢٥ ؛ ١١ : ١٠ – ١٦ ؛ ١٤ : ١٣ .

(٥) نجيب ميخائيل إبراهيم : مصر والشرق الأدنى القديم ، الجزء الثالث ، الشرق الأدنى القديم ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٦ م ، ص ١٨٠ .

نهر الفرات وهو بعد في أرضه وعشيرته ؟ وما الحكمة في نسبته إلى عابر دون غيره ؟ ولِمَ لم يُنوّه كاتب التوراة بذلك ؟ . كل هذا يزيد من صعوبة الأخذ بهذا الرأي[١] .

لذلك آثرَ عباس محمود العقاد[٢] عدم الجزم بأيٍ من الرأيين السابقين بقوله :

ولا يُدرى على وجه التحقيق هل سُمي العبريون بهذا الاسم لأنهم ينتسبون مع إبراهيم عليه السلام إلى عابر بن سام ، أو لأنهم عبروا نهر الفرات بعد قدومهم إلى وادي النهرين ، ثم بعد ذلك عبروا النهر مع إبراهيم عليه السلام إلى أرض كنعان .

وقد ظل أحفاد إبراهيم عليه السلام يُعرفون بالعبريين إلى أن خرج موسى عليه السلام بقومه من مصر . ففي زمن يوسف عليه السلام وأثناء إقامته في مصر نَعَتَهُ المصريون بالعبراني ، كما أشارت التوراة لذلك في مواطن مختلفة[٣] .

وفي زمن موسى عليه السلام – قبل تكليفه بالرسالة – كانوا يُسمَّون بالعبريين[٤] .

لذلك يتبين ، من خلال ما ذكرته التوراة ، أن لهذا المسمى " عبراني " و " عبريون " دلالات ، منها :

دلالته في التوراة ، بصورة عامة ، وذلك للتفريق بينهم وبين الشعوب الأخرى ، لا كإسم وطني لهم[٥] .

ودلالته على غربة هذا الشعب المسمى بالعبريين ، وأنه شعب غريب أو أجنبي .

ثم دلالته على اللغة التي تحدّث بها العبريون ، وهي اللغة العبرية القديمة . فضلاً عن الأدب الذي تم إنتاجه بتلك اللغة بإختلاف العصور من أدب عبري قديم ووسيط وحديث[٦] .

---

(١) إسحاق ساكا : المرجع السابق ، ص ١٥٢ ، ص ١٥٣ وكذا محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٢) الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ، ص ٦٣ ، ص ٦٤ ، ص ٨٦ .

(٣) انظر : سفر التكوين ٣٩ : ١٣ – ١٨ ؛ ٤١ : ٩ – ١٣ ؛ ٤٣ : ٣٢ .

(٤) انظر مثلاً : سفر الخروج ١ : ١٥ – ٢٠ ؛ ٢ : ١١ – ١٥ ؛ ٣ : ١٨ ؛ سفر صموئيل الأول ٤ : ٦ ؛ ٢٩ : ٣ .

(٥) محمد كمال صدقي : معجم المصطلحات الأثرية ، الطبعة الأولى ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ١٨١ .

(٦) محمد خليفة حسن أحمد : المرجع السابق ، ص ١٢ ، ص ١٣ .

ومن خلال دلالة اللغة ، يرى البعض[١] : بأن التسمية " عبراني " لا تُطلق على إبراهيم عليه السلام ؛ لأن المقصود بالعبرية لغة مميزة بين اللغات السامية ، تتفاهم بها طائفة من الساميين دون غيرهم ، وأن إبراهيم كان يتكلم بلغة يفهمها معظم السكان في بلاد النهرين وأرض كنعان ، حيث لم تكن اللغة العبرية قد انفصلت عن سائر اللغات السامية في تلك الأيام .

إلا أنه يمكن القول : أن الاستقراء العلمي ، دلَّ على أن اللغة العبرية القديمة ، قد نشأت في أرض كنعان ، حتى قبل نزوح بني إسرائيل إليها بقيادة موسى عليه السلام . وهي التي وردت في سفر اشعيا ١٩ : ١٨ تحت اسم " لغة كنعان " . فعندما هاجروا من مصر إلى أرض كنعان ، في حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، كانوا يتكلمون لهجة قريبة من إحدى لهجات اللغة الآرامية القديمة ، حتى أنهم في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، كانوا يتكلمون اللغة الكنعانية لغة البلاد المستعملة فيها[٢] .

ويمكن القول أيضاً أن العبريين كانوا من القبائل البدوية ، التي هاجرت أو نزحت مع الهجرات العربية القديمة من قلب الصحراء العربية إلى الأجزاء الخصيبة من بلاد الرافدين ، وخاصة جانب الفرات الأيمن فيما يلي الصحراء . ثم إن هذه القبائل ، فيما بعد ، هاجرت إلى أرض كنعان مع غيرها من القبائل والجماعات التي هاجرت إليها قبلها ، وكوّنت ما عُرف باسم الكنعانيين والفينيقيين في منطقة غربي سوريا وفلسطين[٣] .

وقد ظلّت القبائل العبرية تُعرف باسم العبريين في الفترات الواقعة تقريباً بين إبراهيم عليه السلام ، وموسى عليه السلام ، رغم أن ذلك ليس تحديداً دقيقاً للأسماء التي عُرفوا بها أثناء فتراتهم التاريخية المختلفة ، السابقة واللاحقة ، حيث تداخلت الأسماء فيما بينها في فترات مختلفة من تاريخهم ، حيث عُرفوا بأكثر من اسم واحد في فترة زمنية واحدة من تاريخهم[٤] .

---

(١) عباس محمود العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٨ م ، ص ١٧٧ .

(٢) ربحي كمال : المرجع السابق ، ص ٣٣ ، ص ٣٤ .

(٣) محمد بدر : المرجع السابق ، ص ٣١ ، ص ٣٢ وكذا
عباس محمود العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ، ص ٥٩ ، ص ٩٩ وكذا
محمد السيد غلاب : المرجع السابق ، ص ٥٠٤ وكذا
محمد خليفة حسن أحمد : المرجع السابق ، ص ٤٣ .

(٤) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٤٦ وكذا
محمد خليفة حسن أحمد : المرجع السابق ، ص ٤٣ وكذا
أحمد أمين سليم : في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، مصر – سورية القديمة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٣ م ، ص ٣٣٤ .

ويميل الباحث إلى الأخذ بهذا الاتجاه ، وتأييده ، واعتبار التسمية " عبراني " و" العبريين " اسم لتلك الجماعة التي هاجرت من الجزيرة العربية ، ضمن الهجرات المختلفة ، التي كانت تنطلق من الجزيرة العربية إلى الأماكن التي تتوفر فيها سُبل الحياة ؛ وبالتالي اتجهت أولاً إلى منطقة بلاد الرافدين ، واستمرت لفترة زمنية لم يمكن الإطلاع على الآراء في التحديد . ثم قام العبريون - ربما لأسباب غامضة - بالهجرة بعد ذلك من بلاد الرافدين ، متجهين نحو الاستقرار بين الآراميين ، الذين كانوا قد استقروا في منطقة حرّان[1]، ثم انتشر العبريون بعد ذلك في منطقة غربي سوريا ، وأخيراً استقروا في أرض كنعان .

---

(١) حرّان : هي المدينة التي توجه إليها إبراهيم عليه السلام بعد خروجه من أورالكلدانيين ، ومنها ذهب إلى بلاد كنعان . وبناءً على ما ورد في سفر التكوين ٢٧ : ٤٣ ؛ ٢٨ : ١٠ ؛ ٢٩ : ٤ - ٥ فقد سكن فيها ناحور ولابان أخو رفقة ، ويعقوب عليه السلام ، حيث وردت بلفظ " حاران " .

كما جاء في التوراة أيضاً في سفر التكوين ٢٤ : ١٠ ؛ ٢٥ : ٢٠ اسم آخر لها هو فدّان آرام . وقيل أنها سُميت باسم هاران أخي إبراهيم عليه السلام ، فعربت بعد ذلك فقيل حرّان . وكانت بمثابة منازل الصابئة وهم الحرّانيون الذين يذكرهم أصحاب كتب المِلَل والنِّحَل .

وقال المفسرون في قوله تعالى : ﴿ إني مهاجرٌ إلى ربّي ﴾ سورة العنكبوت ، الآية ٢٦ ، أنه أراد حرّان .

فـ" حرّان " إحدى المدن القديمة التي لازالت تحمل الاسم نفسه إلى اليوم .

أما عن موقعها ؛ فهي تقع في منطقة الشمال الشرقي من بلاد ما بين النهرين ، وفي جوار الحدود السورية التركية داخل حدود تركيا على منابع رافد البليخ ؛ أحد روافد الفرات العليا ، على مسافة ٤٥٠ كيلاً إلى الشمال الشرقي من دمشق ، وعلى مسافة حوالي ٤٠ كيلاً إلى الجنوب الشرقي من أُورْفه ، وحوالي ٨٠ كيلاً من مصب البليخ في نهر الفرات . وكانت مركزاً لدويلة آرامية أُسّست في منطقة الفرات الأوسط . كما أنها كانت تمثّل مركزاً تجارياً هاماً،لكونها تقع على أحد طرق القوافل التجارية الرئيسة بين بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين .

انظر :

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ وكذا

محمد بن عبد المنعم الحميري : كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، الطبعة الثانية ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ، ١٩٨٠ م ، ص ١٩١ وكذا

بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٢٨١ وكذا

عبد الحكيم خير الدين ذا النون : تاريخ فلسطين القديم والخلفية الزائفة للصهيونية ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربي ، سوريا ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ١٣٢ وكذا

كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ١٣٤ وكذا

طه باقر : مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٦ م ، ص ٤٩٥ .

وهناك نقطة هامة تتعلق بهذا الموضوع ، وهي أن التسمية " عبراني " لم يرد عنها أي إشارة في القرآن الكريم ، رغم ورود اسم إبراهيم عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم تسع وستون مرة[١] بلفظ " إبراهيم " ، عدا الصفات الأخرى التي ارتبطت به ؛ مثل : الخليل ، كما في قوله تعالى : ﴿ **واتخذ الله إبراهيم خليلاً** ﴾[٢] . وقوله تعالى : ﴿ **إن إبراهيم كان أُمّةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين** ﴾[٣] .

ويرى أحد الباحثين[٤] أن السبب في عدم ذكر القرآن الكريم لهذه التسمية ، أن نسبتها إلى الأنبياء والرسل الكرام إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، وموسى ، عليهم الصلاة والسلام تؤدي بطريقة ما إلى فُقدان جوهر الرسالة الربّانية التي كُلّفوا بها ، والإبتعاد عن جوهر الدين الذي هو الإسلام ؛ حيث أنه الدين الذي دعا إليه كل الأنبياء والرسل من لَدُن آدم عليه السلام إلى آخر الأنبياء والرسل محمد ﷺ .

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه ورد في النصوص التاريخية المصرية القديمة الإشارة إلى كلمة " عابيرو " ، والتي تقابلها في النصوص البابلية القديمة كلمة " خابيرو " ، وبالتالي كان للعلماء وجهات نظر مختلفة في مدى ارتباط هذه التسمية عبراني أو عدمها بالعابيرو أو الخابيرو .

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، المكتبة الإسلامية ، اسطمبول ، ١٩٨٤ م ، ص ١ .

(٢) سورة النساء ، الآية (١٢٥) .

(٣) سورة النحل ، الآية (١٢٠) .

(٤) محمد خليفة حسن أحمد : المرجع السابق ، ص ٣٣ ، ص ٣٤ .

العابيرو :

تظهر هذه التسمية في المراجع التاريخية المختلفة بألفاظ شتى ، منها : العابيرو Abiru ، العاپـيرو Apiru ، الهابـيرو Habiru ، الهاپـيرو Hapiru ، الخابـيرو Khabiru ، الخاپيرو Khapiru ، الحابيرو (بالحـاء) ، الحاپـيرو . ويرى البعض أنه من المحتمل أن التسمية الأقدم هي الهابيرو Habiru[1] .

ويذهب و.ف. البرايت Albright, W.F.[2] : أن العابيرو اسم لشعب ورد في النصوص المسمارية بلفظ خابـيرو Khabiru بتخفيف البـاء، أو خاپـيرو Khapiru بتشديدها . بالإضافة إلى إمكانية لفظها بالعين ، أي عابيرو أو عاپـيرو . وفي النقوش المصرية القديمة ورد الاسم بلفظ " عپـيرو A-pi-ru " ، وفي النصوص الأوغاريتية[3] بلفظ الجمع عپرم Prm .

---

(١) Kapelrud , A . S ., Israel From the Earliest Times to the Birth of Christ , Translated by Moe , J . M . , Oxford , 1966 , P . 26 .

(٢) From the Stone Age to Christianity , Second Edition , New York , 1957 , P . 240 , note 54 .

(٣) نسبة إلى أوغاريت القديمة ، وهي رأس الشمرا حالياً . ورد اسمها في النصوص الأوغاريتية بلفظ " أُج رت " وتعني الحقل . وفي البابلية Agaru . وكان اسمهـا معروفاً في المصادر المصرية والكنعانية والحثية . وفي سنة ١٩٢٨ م عُثر على موقعها في تل رأس شمرا على بُعد ١٢ كيلاً شمالي اللاذقية ، ويبعد عن شاطيء البحر حوالي ٨٠٠ متر ، والقسم المحاذي للشاطيء يُعرف بـ" مينة البيضا " . وقد كشفت التنقيبات الأثرية فيها عن حضارة راقية بلغت الذروة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، حيث كانت أوغاريت ميناءً دولياً ومركزاً تجارياً وحضارياً هاماً ، يقع بين دول الشرق والشمال والجنوب ، وإن كانت خاضعة للنفوذ المصري .

بدأ أُفول نجم أوغاريت حوالي عام ١٢٠٠ ق.م في بداية العصر الحديدي ، خاصة بعد أن أُصيب الاقتصاد فيها بحريق هائل دمر المدينة . رغم أن هناك حريق سابق على هذا التاريخ في عهد نقمد الثاني (حوالي ١٣٦٠ ق.م) خُرّبت على إثره المدينة . فبناء على ما ورد في رسالة أمير صور " أبي ملكي " (Abimilki) إلى أخناتون يخبره فيها عن اضطراب الحالة في فينيقية القديمة ، ورد في الرسالة :

((وأو غاريت ، مدينة الملك ، التهمتها النيران ، نصف المدينة احترق ، والنصف الثاني لا وجود له)) .

وبعد أن أُعيد بناؤها أصيبت بزلزال ، حتى هاجمتها شعوب البحر ودمرتها في حوالي ١٢٠٠ ق.م . انظر : أنيس فريحة : ملاحم وأساطير من أوغاريت ، نشر الجامعة الأميريكية ، بيروت ، ١٩٦٦ م ، ص ١٧ - ص ٢٥ وكذا

Gardiner , A . H . , Anceint Egyptian Onomastica , Vol . I , Oxford University Press , Amen House , Oxford ,1947 , P . 165* ;

Ginsberg , H . L . , " Ugaritic Myths , Epics , and Legends " ANET , P . 129 .

وبناءً على ما ورد في لوحة هامة تعود لعهد أمِنْحُتِبْ الثاني (١٤٣٦ ق.م – ١٤١٣ ق.م) عُثر عليها في ميت رهينة[١] ، ورد فيها أنه أخذ الأسرى في حملته الثانية على سوريا وفلسطين ، ومن بينهم أسرى من العابيرو Âpiru ( ) Prw[٢] .

وتجدر الإشارة إلى أن العابيرو الذين ورد ذكرهم في النصوص المسمارية السومرية القديمة قد رُمِزَ إليهم بالمقطع السومري " سا – جاز SA.GAZ[٣] ، وذلك بعد أن تمَّ اكتشاف تلك النصوص في مدينة بوغازكِوي[٤] . وهذا المقطع (سا – جاز) تعني " قاطعو الرقاب "[٥] . ومما لاشك فيه أن هذا المقطع لا يدل على اسم جنس مُعين بل تمييز لاسم جماعة مُعينة من الناس[٦] .

---

(١) ميت رهينة : الاسم المصري القديم هو " مِن نفر mn - nfr " التي تعني الحائط الأبيض ، ثم تم اختصار الاسم إلى منف mnf ، والاسم اليوناني لها هو ممفيس . وتقع الآن على الضفة الغربية للنيل على بُعد حوالي ٣ أكيال من النهر ، وحوالي ٢٠ كيلاً إلى الجنوب الغربي من القاهرة . وتعتبر منف من أقدم المراكز الحضارية المصرية القديمة ؛ فقد كانت أول عاصمة لمصر الموحدة عام ٣٢٠٠ ق.م تقريباً . انظر :
أحمد بدوي : في موكب الشمس ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٠ م ، ص ٦٣٣ وكذا
محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ – ص ٢٤٦ وكذا
Gardiner , A . H . , Op . Cit . , Vol . II , P . 122* .

(٢) Ibid . , Vol . I , P . 184* , Vol . II , P . 297 .

(٣) أحمد سوسة : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ ، ص ٢٤٧ ، ص ٢٤٩ وكذا
Lods , A . : Israel from Its Beginnings to the Middle of the Eighth Century , Routledge & Kegan Paul , London , 1962 , P . 49 ;
Noth , M . : The History of Israel , reissue SCM Press , London , 1983 , P. 34 , note (1) ;
Abu - Qorah , O . : " Astructural Comparison of the Hebrew Conquest and the Arab Conquest of Southern Syria : Trans - Jordan and Palestine " , Dissertation , Published , Los Angeles University of California , 1989 , P . 36 .

(٤) بوغازكِوي : هي موضع العاصمة الحثية " خاتوشاش " . وهي قرية تركية تقع على الحافة الشرقية لنهر هاليس في وسط آسيا الصغرى . وتبعد حوالي ٢٠٠ كيلاً شرق مدينة أنقرة . جعل منها الملك الحثي خاتوسيل الأول عاصمة له وذلك في حوالي سنة ١٦٥٠ ق.م . انظر :
محمد عبد القادر محمد : المرجع السابق ، ص ١٣٩ وكذا
طه باقر : المرجع السابق ، ص ٣٦٥ وكذا
محمد شفيق غربال وآخرون : الموسوعة العربية الميسرة ، المجلد الأول ، دار نهضة لبنان للطبع والنشر ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٤٣٦ وكذا
Gardiner , A . H . : Op . Cit , Vol . I , P . 127* ;
Lods , A . : Op . Cit . , P . 48 - 49 .

(٥) محمد بيومي مهران : مصر والشرق الأدنى القديم (٨) بلاد الشام ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ، ص ٥٨ – ص ٥٩ .

(٦) سليم حسن : مصر القديمة ، الجزء الخامس ، السيادة العالمية والتوحيد ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ م ، ص ٣٥٥ .

وعلى أي حال ؛ فإن العابيرو كانوا قبائل بدوية مختلطة من الرُّحّل والأجانب ، وكان فيهم كثير من الجنود والمحاربين المرتزقة المستعدين للإنضمام إلى صفوف أي جيش ، لقاء أجرة ، أو بدافع الحصول على الغنائم(١) .

ويختلف الباحثون في مدى تطابق أو اختلاف المسميات العابيرو وعبري ، فيذهب الفريق الأول إلى أن العابيرو والعبري اسمان مترادفان يدلان على القبائل العبرية . ويعتمد أصحاب هذا الرأي في تدعيم وجهة نظرهم على ذكر العابيرو في رسائل العمارنة(٢) ،

---

(١) محمود أبو طالب : آثار الأردن وفلسطين في العصور القديمة أضواء جديدة (١٩٥٢ - ١٩٧٧ م) الطبعة الأولى ، وزارة الثقافة والشباب ، عمّان ، ١٩٧٨ م ، ص ٧٤ وكذا

توفيق سليمان : دراسات في حضارات غرب آسية القديمة ، ج ١ ، من أقدم العصور إلى عام ١١٩٠ ق.م ، الطبعة الأولى ، دار دمشق ، بيروت ، ودمشق ، ١٩٨٥ م ، ص ٩١ وكذا

فيليب حتّي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق ، أشرف على مراجعته وتحريره جبرائيل جبور ، الجزء الأول ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٢ م ، ص ١٧٣ .

(٢) رسائل العمارنة : كُتبت بالخط المسماري الأكدي على قطع من ألواح الطين والفخار ، وهي مجموعة من الرسائل الودية بين أخناتون في القرن الرابع عشر قبل الميلاد وملوك الحثيين والميتانيين في آسيا الصغرى وبلاد الشام . وهذه الرسائل من الوثائق التاريخية الهامة التي أمكن على ضوئها بيان حقائق تاريخية هامة عن تاريخ الشرق الأدنى القديم وسياسته في ذلك العهد ، مما يدل على ضعف السيطرة المصرية على تلك المناطق في ذلك العهد . وقد عُثر على هذه الرسائل في سنة ١٨٨٧ م في مدينة " أخِتْ آتون " بمعنى " افق آتون " أو " مشرق آتون " وتسمى الآن تل العمارنة ، وتقع بالقرب من الضفة الشرقية للنيل على مسافة حوالي ٣٠٦ كيلاً جنوبي القاهرة ، وحوالي ٤٨٢ كيلاً شمالي طيبة ، وعلى بعد ٤ كيلاً شمالي ديرمواس عبر النهر بمحافظة المنيا .

وقد أسس أخناتون هذه المدينة لتكون عاصمة مصر في عهده بدلاً من طيبة في العام الرابع من حكمه ؛ وقد كانت تمتاز بموقعها الهام ؛ حيث تحيط بها الجبال من الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية . أما الجهة الغربية فكان نهر النيل هو الحد لها .

وتجدر الإشارة إلى أن كتابة هذه الرسائل بالخط المسماري الأكدي ، لأن هذا الخط وهذه اللغة كانت هي اللغة الشائعة منذ عصر الدولة البابلية القديمة ، كلغة دولية للمراسلات السياسية والتجارية في منطقة الشرق القديم . انظر :

سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٢ ، ص ٢٩٩ ، ص ٣٠٠ وكذا

حسن ظاظا : المرجع السابق ، ص ٥٤ وكذا

عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول ، مصر والعراق ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٧ م ، ص ٢٢٥ - ٢٢٧ وكذا

محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ٣٧٥ وكذا

⇐

وعلى النصوص التاريخية التي تعود إلى حوالي سنة ١٧٠٠ ق.م التي عُثر عليها في ماري(١) ، بالإضافة إلى اعتمادهم على أصول لغوية من حيث اشتقاق الإسمين وتشابه حروف كلاً منهما(٢) .

فيرى ألن . هـ . جاردنر Gardiner, A.H.(٣) : أنه من الممكن عدم الشك في أن التسمية عابيرو مماثلة أو مطابقة للتسمية خابيرو Ḫabiru في رسائل العمارنة ، وأنها مرادفة أيضاً للتسمية خابيري Ḫabiri في المصادر المسمارية . وأن هذه التسمية ، تحولت فيما بعد إلى عِبْر Hebr أي عبري ĕbri الذي يعني عبريين Hebrews ، وهي التي تعني في الاشتقاق " شخصٌ ما عَبَرَ " أو " مرَّ على أو عَبَرَ " .

إلا أنه يبدو أن ألن . هـ . جاردنر رجع أو عدّل من رأيه هذا بحيث أصبح أكثر تحفظاً مما ذهب إليه سابقاً وذلك عند قوله(٤) :

ـــ محمد بيومي مهران : مصر والشرق الأدنى القديم (٥) الحضارة المصرية القديمة ، الجزء الثاني ، الطبعة الرابعة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م ، ص ٤٦١ وكذا

جيمس هنري برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي ، ترجمة حسن كمال ، راجعه وصحّحه محمد حسنين الغمراوي بك ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ، ص ٢٤٠ – ص ٢٤١ وكذا

Albright , W . F . , " Akkadian Letters - The Amarna Letters " , ANET , P . 483 .

(١) ماري : هي التي تُعرف الآن بـ" تل الحريري " وهي مدينة تقع على الفرات الأوسط على مسافة ٢ ١/٢ كيلاً من الشاطيء الغربي للنهر في سوريا قرب الحدود مع العراق . وتبعد نحو ١١ كيلاً شمال غربي بلدة البوكمال عند الحدود العراقية السورية . وخلال الاكتشافات الأثرية في المدينة عُثر على سجلات ملكية للدولة والمدينة مكتوبة بالخط المسماري ، وأعداد كبيرة من القطع الأثرية المختلفة . انظر :

توفيق سليمان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦٣ – ص ١٦٦ وكذا

طه باقر : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٥ وكذا

سبتينو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، راجعه محمد القصاص ، دار الرقي ، بيروت ، ١٩٨٦ م ، ص ٦٧ – ص ٦٩ وكذا

Finegan , J . , Light From The Ancient Past , The Archaeological Background of Judaism and Christianity, Princeton , New Jersey , 1969 , P . P . 36 , 43 , 46 , 53 , 56 .

(٢) انظر :

و . لوريتس : " هل للعبرانيين وجود في إبلا ؟ " ، ترجمة قاسم طوير ، مجلة دراسات تاريخية ، العددان ٢٧ ، ٢٨ ، جامعة دمشق ، لجنة كتابة تاريخ العرب ، دمشق ، ١٩٨٧ م ، ص ١٢٣ – ص ١٢٩ .

(٣) Ancient Egyptian Onomastica , Vol . I , P . P . 152* , 184* , note (1) .

(٤) Gardiner , A . H . , Egypt of the Pharaohs , Oxford University Press , New York , 1972 , P . 203 .

كان الرأي منذ أعوام قليلة مضت ، يؤكد في ثقة ، أن هؤلاء الناس (العابيرو) ، إنما هم العبرانيون في التوراة ، لكن هذا الأمر لا يتقبله الآن إلا عدد قليل من العلماء .

ويذهب علماء آخرون[١] إلى أن العبريين ينتمون إلى العابيرو ، مما يعني أن التسمية خابيرو Ḫabiru في رسائل العمارنة قد تكون موازية للكلمة التوراتية عبري ، أو عبريين (عبريم ʿIbrim) .

ويعتبر البعض أن التسميتين متطابقتين في المعنى ، وأن الاختلاف هو في نُطق الحروف المتعلقة بالكلمة ؛ وذلك لأن الخط المسماري لم يعرف حرف العين فكُتب " خ " بدلاً من " ع " ، إضافة إلى أن المفردات البابلية التي كُتب بها نصوص ماري ، ورسائل العمارنة ، لم تكن تضم آنذاك جميع الأحرف الحلْقية الحادة ، فحلّ حرف العين مكان حرف الخاء ، فصار الخابيرو أو العابيرو يُعرفون في النصوص التوراتية بالعبريين[٢] .

وفيما يتعلق بذكر هذه التسمية في رسائل ماري ، فقد أشار النص المسماري إلى تشابه لإسم إحدى القبائل وهي قبيلة بينو – يمين بالقبيلة العبرية وهي قبيلة بنيامين التي ورد ذكرها في التوراة[٣] .

---

(١) سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٣٥٦ هامش (٢) وكذا

Anderson , B . W . , The Living World of the Old Testament , First Edition , London , 1958 , P . 22 ;

Eissfeldt , O . , " Palestine in the Time of the Nineteenth Dynasty - (a) The Exodus and Wanderings " , CAH , Vol . II , Part 2 , 1975 , P P . 313 - 314 ;

Abu - Qorah , O . , Op . Cit . , P . 39 .

(٢) باهور لبيب : لمحات من الدراسات المصرية القديمة ، القاهرة ١٩٤٧ م ، ص ٤٤ وكذا

فؤاد حسنين علي : المرجع السابق ، ص ٥٣ وكذا

أبكار السقاف : إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٧ م ، ص ٧٤ وكذا

توفيق سليمان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٩١ وكذا

محمد إسماعيل علي : " الأصول العربية لفلسطين : الإسرائيليون .. أين وكيف ظهروا ؟ " مجلة الفيصل ، العدد ١٦٢ ، دار الفيصل الثقافية ، الرياض ، ذو الحجة ١٤١٠ هـ / تموز ١٩٩٠ م ، ص ٤٠ وكذا

نيقولا جريمال : تاريخ مصر القديمة ، ترجمة ماهر جويجاتي ، مراجعة زكية طبوزاده ، الطبعة الثانية ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٣ م ، ص ٢٧٨ .

(٣) سفر التكوين ٣٥ : ١٦ – ١٨ .

والنص المسماري المفرد هو ((بن – يمينا Bin - Yamina'a)) ولكـن كُتـب الاسـم عادة ((بنو – يمينا Banu - Yamina)) التي تعني حرفياً أبنـاء الجنـوب (يمـين) . يقـابل ذلك جماعة بدوية عُرفت بـ((بنو سمال [هكذا بالسين] Banu Simal)) الـتي تعـني أبنـاء الشمال (شمال) . ولكن ليس هناك من سبب للإفتراض بأن أولئك البنياميين هم أنفسهم قبيلة بنيامين التي عُرفت فيما بعد في النصوص التوراتية(١) .

وبناءً على هذا النص ذهب بعض العلماء(٢) إلى المساواة بـين قبيلـة بينـو – يمـين الـتي تعني أبناء الجنوب في رسائل ماري ، والتي عاشت بـالقرب مـن حـرّان ، وبـين القبيلـة الـتي أطلق عليها في عصور أحدث اسـم " بـن – يمـين " (بنيـامين) الـتي عاشـت بـالقرب مـن القدس(٣) .

---

(١) Albright , W . F . , " Akkadian Letters - The Mari Letters , a " , ANET , P . 482 , note (1) ; Eissfeldt , O . , Op . Cit . , P . 318 and note 3 .

(٢) أبكار السقاف : المرجع السابق ، ص ٧٤ وكذا

توفيق سليمان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٩٠ – ص ٩١ وكذا

انطون مورتكات : تاريخ الشرق الأدنى القديم ، تعريب توفيق سليمان ، وعلي أبـو عسّـاف ، وقاسـم طوير ، القسم الثاني ، (مكان الطبع مجهول) ، ١٩٥٠ م ، ص ٢٧٢ .

(٣) القدس : ذُكرت أول إشارة إلى مدينة القدس في النصوص المصريـة القديمـة الـتي تعـود إلى القرنـين التاسـع عشـر والثامن عشر قبل الميلاد . وكان اسمها على الأرجح يُنطق بلفظ " روشـاليمم Rushalimum " . ووردت بعـد ذلك في رسائل العمارنة (القـرن ١٤ ق.م) باسم " اورو – سـالم " عندمـا أرسـل حاكمهـا " عبـد – يخيـا " (عبدُ – هبه) يستمد من فرعون مصر العون العسكري لصد هجمات العابيرو .

وأول من بنى القدس هم اليبوسيون ، وكـانت علـى عهدهـم تدعـى " يبـوس " في حـوالي سـنة ٣٠٠٠ ق.م . وأول من احتطها وبناها ملكهم " ملكيصادق " حيث كان هذا الملك مُحباً للسلام فأُطلق عليه " ملك السلام " ، ومن ثم جاء اسم المدينة " سالم " و " شالم " ، وعرفت باسمها الكنعاني " اورو – سـالم " أي مدينـة السـلام . وقيل : أن " اورو – سالم " بابلية الأصل آرامية ، والتسـمية العبريـة الـتي عُرفـت فيمـا بعـد مشـتقة منهـا وهـي " أورشليم " .

وكـان المصريـون يُطلقـون عليهـا اسمهـا اليبوسـي " يـابيتي " و " يـابتي " وأحيانـاً يسـتخدمون اسمهـا الكنعـاني " اورو – سالم " .

وورد اسم القدس في نقوش الامبراطور الآشوري سنحاريب (حوالي ٧٠٠ ق.م) تحت اسم " اوروسليمو " وفي عهد الاسكندر الأكبر سماها اليونان " هيروسوليما " ، وفي سـنة ١٣٩ م سماهـا الامـبراطور الرومـاني أدريـانوس باسم " ايليا كابيتولينا " ، وظلت تُعرف بهذا الاسم " ايليا " حتى أوائل الفتح الإسلامي .

أما " بيت المقدس " فقد أطلق على المدينة بدءاً من العصر الإسـلامي . وقـد ظلـت المدينـة منـذ عهـد عمـر بـن الخطاب رضي الله عنه تحت الحكم الإسلامي حتى احتلهـا الصليبيـون مـدة قـرن ونصـف تقريبـاً حتـى حرّرهـا ⇐

وهذا الرأي المعتمد على اسم هذه القبيلة لم يلق تـأييداً كبـيراً مـن البـاحثين ؛ فليـس هناك من سبب للإفتراض بأن قبيلة بينـو - يمينـا أو بنـو اليمـين هـم أنفسـهم قبيلـة بنيـامين الوارد ذكرها في سفر التكوين ٣٥ : ١٦ - ١٨ .

وقد رجّح بعض الباحثين[١] أن قبيلة بنو - يمينا ، التي تعني الجنوب ، كـانت إحـدى قبائل الأموريين[٢] (العموريين) التي سكنت في منطقة الفرات الأعلى ، وأنها - بناءً علـى

صلاح الدين الأيوبي حيث عـادت للحكـم الإسـلامي ، إلى أن احتـل اليهـود قسـماً منهـا سـنة ١٩٤٨ م ، ثـم احتلوها كاملةً سنة ١٩٦٧ م ، وغيروا اسمها إلى أورشليم .

ومن أسمائهـا : " مدينـة داود " ، و " صهيـون " و " بيـت ايـل (بيـت الـرب) " والقريـة ، والزيتـون ، وبيـت المقدس ، والأرض المقدسة ، والمسجد الأقصى ، والقدس التي تُعرف به حالياً .

وترتفع مدينة القدس عن سطح البحر الأبيض المتوسط حوالي ٢٥٩٨ قدمـاً ، وأمـا الحـرم الشـريف فيهـا فـيرتفع حوالي ٢٤٤٠ قدماً عن سطح البحر . وتبعد القدس عن شواطيء البحر الأبيـض المتوسـط حـوالي ٥٠ كيـلاً ، وحوالي ٢٨ $\frac{1}{2}$ كيلاً عن البحر الميت ، وحوالي ٣٠ كيلاً عن الخليل ، و٤٧ كيلاً عن السامرة . انظر :

عـارف باشـا العـارف : تـاريخ القـدس ، دار المعــارف بمصـر ، ١٩٥١ م ، ص ١١ ، ص ١٣ ، ص ١٦٧ - ص ١٦٩ وكذا

محمود العابدي : قدسنا ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القـاهرة ، ١٩٧٢ م ، ص ٩ ، ص ١٢ - ص ١٣ ، ص ١٥ وكذا

عبد الحميد زايـد : القـدس الخـالدة ، الهيئـة المصريـة العامـة للكتـاب ، القـاهرة ، ١٩٧٤ م ، ص ٦ - ص ٧ ، ص ١٣ ، ص ١٥ ، ص ٣٩ - ص ٤٩ وكذا

سـيد فـرج راشـد : القـدس عربيـة إسـلامية ، دار المريـخ للنشـر ، الريـاض ، ١٤٠٦ هــ / ١٩٨٦ م ، ص ٢٧ - ص ٢٩ وكذا

حسن ظاظا : أبحاث في الفكر اليهودي - المقالة الأولى : القدس مدينة الله .. أم مدينة داود ؟ ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، ودارة العلوم والثقافة ، دمشق وبيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ١٦ - ص ٢٨ .

(١) طه باقر : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٢١ وكذا

Anderson . G . W . . The History and Religion of Israel , Oxford , 1976 , P P . 17 - 18 .

(٢) الأموريون (العموريون) : يمثل الأموريون الموجة السامية الأولى التي قدمت إلى بلاد الشام - أو سـوريا بمعناهـا الواسع - من شبه الجزيرة العربية في هجرة واحدة مع الكنعانيين حوالي بداية الألف الثـالث قبـل الميـلاد ، حتـى اختلط في كتب الآثار والتاريخ ذكر الكنعـانيين والعموريـين ، رغـم أنـه يبـدو أن الكنعـانيين كـانوا سـابقين في النزوح إلى سوريا . وقد انتشر العموريون في الأراضي الواقعة في الجانب السوري المتاخم للصحراء حتـى أعـالي الفرات . ويميل الباحثون حديثاً إلى إطلاق اسم الكنعانيين الشرقيين على الأموريين أو العموريـين ، والكنعـانيين الغربيين أو الفينيقيين على الأقوام السامية التي توطنت في الأجزاء الساحلية من سوريا .

وإن ذهب بعض الباحثين إلى أن أول إشارة إلى أرض الأموريين إنما ترجع إلى عصر سـرجون الأول (٢٣٧٠ - ٢٣١٥ ق.م) .

النصوص التاريخية في رسائل ماري – كانت تشكل خطراً على مملكة ماري نفسها ، حتى أن ملك ماري المسمى " يسمح – أدد "[1] (١٧٩٩ – ١٧٨٠ ق.م) عمل على

⇐ وقد أشارت النصوص السومرية للأموريين بلفظ " أمورو Amurru " وهي الصيغة الأكدية السامية للتسمية السومرية " مار – تو Mar - Tu " (المارتو) ، وكان هذا المصطلح في استعمال سكان وادي الرافدين ، بالإضافة إلى إطلاقه على هؤلاء الأقوام ، ذا مدلول جغرافي عندهم يعني الغرب وبلاد الشام أيضاً . كما استعمل الاسم " مارتو " لإطلاقه على الإله الخاص بالأموريين .

ومن المحتمل أن اسم " أمورو " كان في الأصل إسماً لقبيلة قوية أو مجموعة من القبائل ثم عُمّم الاسم بعد ذلك وصار اسماً عاماً يُطلق على البدو القاطنين في بادية الشام .

وقد استطاع الأموريون (العموريون) منذ حوالي سنة ٢٢٠٠ – ١٧٠٠ ق.م فرض سلطتهم السياسية على غالبية بلاد الرافدين ، وتأثروا بحضارة المنطقة وشكلوا سلالات أو ممالك في عدة مدن منها ، ثم وحدت بلاد الرافدين إحدى السلالات الأمورية التي عرفت بسلالة بابل الأولى ، واتخذوا في بداية الأمر ماري عاصمة لهم في أوائل الألف الثانية قبل الميلاد ، ثم بابل . وكان ملوك هذه السلالة الذين حكموا من القرن التاسع عشر قبل الميلاد إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد جميعهم من الأموريين أو العموريين . وأشهرهم الملك حمورابي (١٧٩٣ – ١٧٥١ ق.م) الذي حكم اثنتين وأربعين سنة .

ومن الجدير بالذكر أنهم لم يتركوا وثائق هامة بلغتهم الخاصة ، بل استعملوا البابلية القديمة ، ويكاد لا يظهر في وثائقهم من لغتهم سوى أسماء الملوك والحكام وبعض أسماء الأماكن السورية . انظر :

محمد عبد القادر محمد : المرجع السابق ، ص ١٠٩ – ص ١١٢ وكذا

محمد السيد غلاب : المرجع السابق ، ص ٥٠٢ – ٥٠٣ وكذا

محمود أبو طالب : المرجع السابق ، ص ٦٣ ، ص ٦٤ وكذا

سامي سعيد الأحمد وآخرون : العراق في التاريخ – العراق القديم – العصر البابلي القديم ، دار الحريّة للطباعة ، بغداد ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٨٣ وكذا

محمد أبو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ، الطبعة الثالثة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ٢٧٦ – ص ٢٧٨ وكذا

طه باقر : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٠٧ – ص ٤١١ وكذا

محمد بيومي مهران : مصر والشرق الأدنى القديم (٨) بلاد الشام ، ص ٤٥ – ص ٧١ .

(١) يسمح – أدد : هو ابن الملك الآشوري " شمشي – أدد " الأول (١٨١٣ – ١٧٨١ ق.م) أحد زعماء الأموريين . وتشير النصوص المسمارية إلى قوة شخصية " شمشي – أدد " الأول وحنكته السياسية حيث تمكن من تأسيس دولة سيطرت على المنطقة الشمالية والغربية من بلاد الرافدين ، وضم إلى مملكته مملكة ماري ، وعيّن ابنه الأصغر " يسمح – أدد " نائباً له على ماري . إلا أنه كان ضعيف الشخصية ؛ فعندما مات والده اعتلى العرش الآشوري أخوه " اشمي – داگان " (١٧٨٠ – ١٧٤١ ق.م) ، غير أنه أبقى على أخيه يسمح – أدد نائباً له في حكم ماري . إلا أن يسمح – أدد لم يتمكن من المحافظة على ماري عندما ظهر أحد الأمراء من ماري ويدعى " زمري – لم " (١٧٧٨ – ١٧٦١ ق.م) ابن " يخدن – لم " (١٨٢٥ – ١٨١٠ ق.م) ونازعه السلطة ، واستطاع أن يطرده منها بمساعدة مملكة حلب . إلا أن " اشمي – داگان " لم يقبل بضياع ⇐

مسالمتهم والتحالف معهم ، وإقطاع جماعات منهم أراضٍ زراعية ، بحيث صاروا زراعيين مستقرين .

ويرجح الباحث عدم وجود علاقة أو رابطة بين قبيلة " بنو - يمينا " وبين قبيلة " بنيامين " العبرية ، إذ أن هذا التشابه بين الاسمين لا يعدو كونه تشابهاً في الاسم واللفظ ، وليس له أي علاقة أو صلة قرابة بين القبيلتين ، والله أعلم .

أما الفريق الثاني فإنهم يتحفظون كثيراً في قبول الرأي الأول ، بل ويستبعد كثير من المؤرخين توحيد العبرانيين بالعابيرو أو الخابيرو . فهناك البرايت Albright الذي كان قد نادى بتوحيد العبرانيين بالعابيرو أو الخابيرو ، يرى أنه مازال أمراً غير مؤكد ، ولا نستطيع أن نتخذه أساساً لأية نتيجة تاريخية(١) .

ويستدل أصحاب هذا الرأي بأن لفظ " عبراني " صفة ، معناها الجهة الأخرى التي يستلزم الوصول إليها اجتيازاً وعبوراً ، وهي تدل على النسب أو الانتماء ، بوجود ياء النسبة في آخرها . بينما لفظ " العابيرو " أو " الخابيرو " صفة أيضاً ؛ إلا أن معناها الرفيق ، أو الحليف ، أو الشريك ، وليس اسم عَلَم ؛ أي أنها تعني المزاملة والمُرَافقة ، والتي قد تدل على مجموعة من الناس تقوم بعمل واحد ، أو تُقيم في إقليم واحد ، دون أن تنتسب بالضرورة إلى أصل واحد(٢) .

مما يعني أن من الصعوبة بمكان المساواة بين الإسمين ، خاصة وأن كلاً منهما يختلف كثيراً في الأصل عن الآخر ؛ إذ عُرِف عن العابيرو أنهم مجموعات كثيرة ومختلطة فيما بينها ، إضافة إلى عدم وجود شواهد أكيدة لمرادفة أو مطابقة الإسمين(٣) .

= سيطرته على ماري وحاول استرجاعها ، غير أنه لم يتمكن من المحافظة على بقية الدولة ، خاصة بعد أن انسلخت بعض الأقاليم عن سلطته ، وقيام حِلف بين مملكة يمخد ومملكة اشنونا ضده . إلى أن استطاع الملك حمورابي توحيد جميع الدويلات وضمها إلى دولة مركزية واحدة مركزها بابل . انظر :

عامر سليمان وآخرون : العراق في التاريخ - العراق القديم - العصر الآشوري ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ١٢٧ وكذا

طه باقر : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٢٠ ، ص ٤٢٢ ، ص ٤٤٣ .

(١) Albright , W . F . , " Akkadian Letters " , ANET , P . 486 , note . 13 .

(٢) حسن ظاظا وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٣) Kenyon , K . M . , Archaeology in the Holy Land , London , 1960 , P . 207 ;
Kapelrud , A . S . , Op . Cit . , P . 26 ;
Noth , M . , Op . Cit . , PP . 34 - 35 .

يقول تيودور . هـ . روبنسن[١] :

فحسب ما ذهب إليه الأستاذ واردل Wardle فإن الشعبين العابيرو والعبرانيين ليسو شعباً واحداً ، وإنما احتضن أحدهما الآخر ، حيث كان بين العابيرو طائفة عُرفت بالعبريين ، و لم يكونوا جميعاً منهم ؛ لأن العابيرو كانوا شعباً أكبر بكثير من الشعب العبري . ولعل هذه أوثق الشواهد المستخلصة من غير المراجع المتصلة بغزو الإسرائيليين أرض كنعان ، رغم غموضه والشك فيه .

ورأي آخر يذهب أصحابه[٢] إلى أن العابيرو أو الخابيرو كانوا عبارة عن قبائل بدوية متجولة ومشاغبة ، وأنهم كانوا يعيشون أحياناً تحت سلطان بعض المدن ، ويهاجمون حدود المدن الأخرى ، ويُسببون متاعب كبيرة .

ويرى باحث آخر[٣] أن هؤلاء العابيرو لم يكونوا من نسل بني إسرائيل ، والأرجح أنه كان اسم لقبائل بدوية ممن كانوا يقطنون شرق الأردن .

ويذهب أحد الباحثين[٤] إلى أن هذه التسمية " عابيرو " ، لاسيما في ألواح تل العمارنة ، تُستعمل لوصف تصرّفات قطّاع الطرق ، وأنها تشير إلى طبقة إجتماعية ، أو جماعات متنازعة مع بعض حكام العصر البرونزي الأخير ، ولا تُستعمل ، في أي حال ، للإشارة إلى أي مجموعة عرقية معيّنة في فلسطين . والأحرى هو أن هذه النصوص تُشير إلى أُناس دُفعوا ، بسبب الفقر أو كارثة شخصية أخرى ، إلى أطراف المجتمع ، ففقدوا وضعهم المعتاد ، وعاشوا مُشرّدين ، كمرتزقة ، وعمالة مأجورة ، ولصوص . فلم يكونوا فلاّحين ولا رُعاة ، لا هم بدو ، ولا هم مستقرون ، بل عاشوا بعيداً عن النمط المألوف ، والمعايير الإجتماعية .

---

(١) إسرائيل في ضوء التاريخ ، ترجمة عبد الحميد يونس ، مراجعة إبراهيم زكي خورشيد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٠٧ ، (مقال نشره السيرجون .أ. هامرتن : تاريخ العالم ، ترجمته إلى العربية إدارة الترجمة بوزارة المعارف العمومية ، المجلد الثاني ، الفصل السابع والعشرون) .

(٢) محمد عبد القادر محمد : المرجع السابق ، ص ١٩٧ وكذا

Bowden , J . , What about the Old Testament ? , SCM Press LTD , London , 1972 , P . 67 .

(٣) جون ولسون : الحضارة المصرية ، ترجمة أحمد فخري ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٦ م ، ص ٣٢٩ .

(٤) توماس ل . طومسون : التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي ، ترجمة صالح علي سوداح ، الطبعة الأولى ، بيسان للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٩٥ م ، ص ١٤٦ .

ويرى البعض(١) – فيما يتعلق بهذا الموضوع – التوقف في تحديد رأي مُعين ، لأنه لازال غير واضح المعالم بشكل قطعي الثبوت ، الأمر الذي يتطلب من الباحثين إبقاء هذا الموضوع مفتوحاً للدراسات المستفيضة والمتعمقة في هذا المجال .

والرأي في هذا الموضوع ، الاختلاف البيّن بين التسميتين عابيرو وعبريين ، وأن لكل منها دلالاته المتعلقة به ، سواءً كانت من الناحية اللغوية ، أو البشرية ، أو الاجتماعية ، أو التاريخية ، ومن غير الممكن الربط بين الشعبين أو ترادف التسميتين .

---

(١) Rowton , M . B . , " Dimorphic Structure and the Problem of the ʿApiro - ʿIbrim " , JNES , 35 , Number 1 , 1976 , PP . 13 - 20 ;
Bimson , J . J . , Redating the Exodus and Conquest , the Almond Press , Sheffield , 1981 , P . 226 .

٢ - إسرائيلي :

إسرائيل هو الاسم الآخر ليعقوب عليه الصلاة والسلام . وهذه التسمية " إسرائيل " كلمة عبرية . فلفظ " الأَسْر " في اللغة العربية يعني شِدّة الخَلْق . يُقال : شدَّ الله أسْرَهُ بمعنى أحْكَمَ خلْقه[1] .

و " إيل " اسم الله تعالى بالعبرية[2] .

ويذهب أحد المفسرين إلى القول[3] :

((معنى إسرائيل : عبد الله . قال ابن عباس : إسرا بالعبرانية هو عبد ، وإيل هو الله . وقيل : إسرا هو صفوة الله ، وإيل هو الله . وقيل : إسرا من الشدّ ؛ فكأن إسرائيل الذي شدَّهُ الله وأتْقنَ خَلْقهُ)) .

وقريب من هذا المعنى ما ذهب إليه أحد الباحثين[4] المعاصرين من أن :

إسرائيل : كلمة عبرانية مركبة من " إسرا " بمعنى عبد أو صفوة ، ومن " إيل " وهو الله ، فيكون معنى الكلمة عبد الله ، أو صفوة الله .

وهناك رأي[5] يذهب إلى أن " إسرائيل " كلمة سامية قديمة تعني " قوة الله " مكونة من لفظتين ساميتين قديمتين هما : " أسر " بمعنى القوة والغَلَبة مثل الأَزْر تماماً ، ولفظة " أل " بمعنى الإله ، أو الله .

ويرى نجيب ميخائيل إبراهيم[6] أن هذه التسمية " إسرائيل " هو لقب منحه الله ليعقوب، بل هو اسم أمره الله أن يتخذه بدلاً من إسمه يعقوب، ويعني "جندي الرب ".

ورأي آخر[7] أيضاً يُفسر معنى كلمة إسرائيل العبرية بأن معناها في اللغة العربية : المُحبّ لعبادة الله وطاعته وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

---

(١) مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، ج ١ ، إدارة إحياء التراث الإسلامي ، الدوحة ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ١٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٤ .

(٣) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرْح الأنصاري القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الأول ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٢٢٦ .

(٤) محمد سيد طنطاوي : المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٥) حسن ظاظا : الشخصية الإسرائيلية ، الطبعة الثانية ، دار القلم ، دمشق ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ، ص ١٦ .

(٦) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٠ .

(٧) السيد رزق الطويل : بنو إسرائيل في القرآن ، الطبعة الثانية ، مكتبة الإرشاد ، جدة ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ ، ص ١٥ .

ويرى فيليب حتّى(١) : أن هذه الكلمة تعني ((لِيَحْكُم إيل أو إيل يَحْكُمْ)) .

وهناك اتجاه آخر في معنى هذه التسمية ؛ فيرى البعض أن معنى هـذا الاسم العبري هو ((يجاهِد مع ا لله)) أو ((ا لله يُصارِع))(٢) ، أو أنها بمعنى أمير ا لله أو قويٌّ مع ا لله(٣) .

وإن كان يرى بعض الباحثين(٤) أن لفظ " إسرائيل " لا يمكن أن يُفسّر بأن معناه " ا لله قوي " أو أن " ا لله جاهد " أو ما شابه ذلك ؛ وإنما معناه عند اليهود ((كان قوياً ضد ا لله)) بمعنى المنتصر على الإله ، وذلك لإنتصار يعقوب على الإله الذي صارعه .

ولاشك أن هذا الاتجاه الأخير مصدره الروايات التوراتية المُحرّفة ، وخاصة النصوص التالية :

النص الأول(٥) :

((فبقي يعقوب وحده وصارَعَه إنسان حتى طلوع الفجر . ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضربَ حُقّ فخذِه فانخلع حُقّ فخذ يعقوب في مصارعته معه . وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر . فقال لا أُطلِقُكَ إن لم تُباركني . فقال له ما اسْمُك فقال:يعقوب . فقال لا يُدعى إسْمُك في ما بعدُ يعقوب بل إسرائيل . لأنك جاهدت مع ا لله والناس وقَدَرت . وسأل يعقوبُ وقال أخبرني بإسمك . فقال لماذا تسأل عن إسمي . وباركه هناك . فدعا يعقوبُ اسم المكان فنيئيل(٦) قائلاً لأني نظرتُ ا لله وجهاً لوجه ونجّيتُ نفسي)) .

---

(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج ١ ، ص ١٩١ هامش (٥) .

(٢) بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٦٩ .

(٣) ولیم مارش : كتاب السَّنَنْ القويم في تفسير أسفار العهد القديم ، ج ١ ، مجمع الكنائس في الشرق الأدنى ، بيروت ، ١٩٧٣ م ، ص ٢١٠ .

(٤) حسين ذو الفقار صبري : " توراة اليهود بين أصول متشعثة وسعي إلى انعقاد " ، المجلة ، العدد ١٥٧ ، السنة الرابعة عشرة ، القاهرة ، يناير (كانون ثاني) ١٩٧٠ م ، ص ٥ وكذا

إسماعيل راجي الفاروقي : أصول الصهيونية في الدين اليهودي ، الطبعة الثانية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٢٢ .

(٥) سفر التكوين ٣٢ : ٢٤ - ٣٠ .

(٦) فنيئيل : اسم عبري معناه " وجه ا لله " وهي " فنوئيل " الواردة في سفر التكوين ٣٢ : ٣٠ ، وهو اسم في الأصل لمخيم شرقي الأردن . وحسب رواية سفر التكوين آنف الذكر فإن أول من سماه بهذا الاسم هو يعقوب ؛ لأنه هناك نظر ا لله وجهاً لوجه ونجى نفسه . انظر :

بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٦٩٨ وكذا

وليم مارش : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢١٠ .

النص الثاني[١] :

((وظهر ا لله ليعقوب أيضاً حين جاء من فدّان آرام وباركَـهُ . وقـال لـه ا لله إسمُـكَ يعقوبُ . لا يُدعى إسمُكَ فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك إسرائيل . فدعا إسمه إسرائيل . وقال له ا لله أنا ا لله القدير)) .

ففي النص الأول أن الذي صارع يعقوب هـو إنسـان ، أمـا في النـص الثـاني فتشير رواية السفر إلى أنه " ا لله " – حاشا لله تعالى وتنزه عن ذلك – .

وإن كان البعض يرى أن الذي صارع يعقوب هو مـلاك في صـورة إنسـان ، حيث ظهر له ذلك الملاك في هيئة إنسان ، وبالتالي فليتست تلك الإشـارة تعـني أن ذلـك الإنسـان كان الإله المتجسد ؛ بل دلالة على حضور ا لله ومداخلته في أمـر يعقـوب ، وتشـجيعاً لـه على ملاقاة المخاطر والأرزاء ، فسماه إسرائيل[٢] .

ويقول حسن ظاظا[٣] في هذا الشأن :

((ولكن سعديا الفيومي ، علامة اليهود في بغداد في أيـام العباسـيين ، يضـع مكانهـا [أي لفظة ا لله] في ترجمته العربية للتـوراة لفظـة " مـلاك " ويتصـرف في النـص ويقـول : لأنك ترأست عند ا لله وعند الناس ، وطقت ذلك)) .

لذلك برزت كثير من التساؤلات حول ذلك المخلوق الغـامض الـذي بـرز ليعقـوب عند مخاضة يبوق[٤] ، أهو جنّي مريد ؟ أم ملاكاً أرسله الرب ليختبر يعقوب قبل أن يُختـار نبياً ؟ كما يحاول أن يوحي بذلك جمهرة من كتاب ومفكري اليهود ، اعتماداً على ما جاء

---

(١) سفر التكوين ٣٥ : ٩ – ١١ .

(٢) وليم مارش : المرجع السابق ، ص ٢١٠ ، ص ٢١٨ .

(٣) الشخصية الإسرائيلية ، ص ١٥ عن :
(ربينو سعديا جأون بن يوسف الفيومي : التفاسير والكتب والرسـال [هكـذا] ، أخرجهـا وصححهـا صحبـة جماعة من العلماء ؛ يوسف ديرينبورج : تفسير التوراة بالعربية ، ج ١ ، باريس ، ١٨٩٣ م ، ص ٥١) .

(٤) يبوق : يعني متدفق . وهو نهر معروف الآن بنهر الزرقاء . ينبـع بـالقرب مـن عمّـان ، ويسـيل أولاً شـرقاً ثـم شمالاً ويمر بمدينة الزرقاء التي سُـميت بإسمـه . ثـم يسـيل غربـاً ويصـب في نهـر الأردن عنـد نقطـة تبعـد حـوالي ٦٨ كيـلاً إلى الجنـوب مـن بحيرة الجليـل ، و ٣٦ كيـلاً إلى الشـمال مـن البحـر الميـت . وتقـوم علـى أحـد روافده مدينة جرش . انظر :
بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٠٥١ – ص ١٠٥٢ .

في سفر هوشع ١٢ : ٤ – ٥ . وما ورد في سفر التكوين آنف الذكر ، مُستقى ولاشك من مأثورة قديمة حين كانت شعوب المنطقة – عرباً كانوا أم عبريين أم كنعانيين – غارقين في المعتقدات الخرافية ، فأساطير التوراة نفسها التي تحاول تفسير قدسية أماكن بعينها تشير بوضوح إلى إيمان راسخٍ عميق بعالمٍ يموج بالجن ، وإن حُوِّرت الصور فكأنهم رُسل من ملائكة . فقد كانت شعوب المنطقة ترى أنه ما من مكان متميز إلا ومن خلفه قوىً خارقة تكفل له الحماية ، كالمرتفعات ، والأشجار الباسقة ، والكهوف ، وعيون الماء ؛ جميعها مسكونة أو مقراً لآلهة أو جنّ أو أرواح . فكأن يعقوب لم يُسارع – كما كان يقضي العُرف – بتقديم القرابين إلى إله المخاضة – أي الروح التي تسكنها حفيظة عليها – وإنما تحداه اعتماداً على قوته الخارقة ، فيتغلب عليه ، وينتزعُ منه البركة انتزاعاً[١] .

والرأي ، أن هذا الذي ورد في سفر التكوين عن سبب تسمية يعقوب عليه السلام باسم إسرائيل ، والأحداث التي جرت أثناء وجود يعقوب عليه السلام عند المخاضة ، من المصارعة بينه وبين الله – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – وحصوله بقوته على العهد والبركة ؛ أمرٌ في غاية الخطورة ، والغرابة في الوقت نفسه . فهذا مما لا يقبله المسلم العاقل، ولا يُصدق به من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان بالله عز وجل ؛ لما فيها من تصوير وتشبيه لله عز وجل ، إذ صور النص الخالق عز وجل بهيئة إنسان يتصارع مع يعقوب عليه السلام معظم الليل إلى قُبيل طلوع الشمس ، بل ويظل يعقوب – حسب النص – متمسكاً به حتى يُباركه ويبارك بنيه من بعده ، ويعطيهم العهد بالاستحواذ على أرض كنعان لكي تبقى مُلْكاً لهم طوال الدهر ، حسب زعم كتبة أسفار التوراة المحرَّفة ، مع ما فيها من افتراءٍ على الله عز وجل وذاتهِ القُدسية ، وقدرته الإلهية ، والتشبيه والتجسيد الواضح لله سبحانه وتعالى .

---

(١) حسين ذو الفقار صبري : المرجع السابق ، ص ٤ وكذا

نبيلة إبراهيم سالم وآخرون : دراسات في الفولكلور – الفولكلور في العهد القديم لجميس فريزر ، الاسكندرية ، ١٩٧٢ م ، ص ١٧٣ – ص ١٧٤ وكذا

Lods , A . . Op . Cit . , P . 160 .

وهناك إشارات كثيرة في مواضع مختلفة من أسفار التوراة[1] لأوصافٍ شائنة بحق نبي الله يعقوب عليه السلام ، من الخديعة والمكر والكذب ، وغير ذلك من الأوصاف والنعوت التي تستحيل بحق الأنبياء الكرام ، ويتنزه عنها أسوياء البشر ، علاوة على أن رهط الأنبياء والرسل الكرام أمتن الله عز وجل عليهم بالعصمة من الخطأ والنقائص والعيوب ، ومقارفة الذنوب .

وهذا الافتراء العظيم الذي اقترفه كتبة أسفار التوراة اليهود على الله عز وجل وعلى نبيه يعقوب عليه السلام ، وغيره من الرسل والأنبياء الكرام ، هو من صفات اليهود الذين ألصقوا أبشع التهم بصفوة الله من البشر ، وهم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بل وتجرّأوا على الله عز وجل دون خوف أو وجل بعد أن كفروا بالله ، وجاهروا بمعصيته .

لذلك استحقوا اللعن ، والطرد من رحمة الله عز وجل ، على ألسنة رُسل الله وأنبيائه الكرام ، كما أشار لذلك القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ من الذين هادوا يُحرّفون الكَلِمَ عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مُسمَع وراعنا ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمَع وانظُرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلاّ قليلاً ﴾[2] .

وقد ورد في تفسير هذه الآية : أن المقصود بـ" الكَلِم " هو التوراة ، فكان اليهود يُبدلون معناها ، ويُغيّرونها عن تأويله[3] .

وقال تعالى :

﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً يُحرفون الكَلِمَ عن مواضعه ﴾[4] .

---

(١) انظر على سبيل المثال : سفر التكوين ٢٧ .

(٢) سورة النساء ، الآية (٤٦) .

(٣) محمد بن جرير الطبري : تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ، حقّقه وخرّج أحاديثه محمود محمد شاكر ، راجع أحاديثه أحمد محمد شاكر ، ج ٨ ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١ م ، ص ٤٣٢ .

(٤) سورة المائدة ، الآية (١٣) .

وقال تعالى :

﴿ لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عَصَوا وكانوا يعتدون • كانوا لا يَتَنَاهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾[١] .

إلى غير ذلك من الإشارات الكثيرة عن لعنهم وطردهم ، في مواضع مختلفة من القرآن الكريم[٢] .

فضلاً عن ذلك ، فإن هذه الآيات القرآنية الكريمة ، بما فيها من اللعن والتعنيف لهم ، دلالة قاطعة على مدى التحريف والتبديل والتغيير الذي أحدثوه في التوراة حسب هواهم وأهوائهم .

وتجدر الإشارة إلى أن اليهود يُحبّذون التمسك بهذه التسمية " إسرائيل " ويعتبرونها أفضل الأسماء التي ينتسبون إليها ، لما فيه من دلالة – حسب اعتقادهم الفاسد – على قدرة يعقوب عليه السلام على مجاهدة الله ، بل وقدرته عليه ، واستحواذه على البركة منه عنوةً وغصباً ، وحصوله على العهد لنسلهِ من بعده بأن يكونوا أعلى مرتبةً من الناس ، وأسياداً لهم ، مما يُفسر إصرارهم على التمسك بهذه التسمية التي يرون فيها معاني القرب من الله عز وجل ، والاختيار لهم ، وتفضيلهم على سائر البشر .

وهكذا ظلوا يُلقبون بـ" بيت إسرائيل " أو " آل إسرائيل " أو " بني إسرائيل " ، وكثيراً ما يختصرون هذا التعبير فيقولون : " إسرائيل " فقط[٣] .

ولقد ورث أبناء يعقوب عليه السلام كُنية أبيهم هذه ، وصار يُطلق عليهم اسم إسرائيل كمرادف لبني إسرائيل، حتى منذ أيام يعقوب عليه السلام نفسه[٤]، ثم صار علماً

---

(١) سورة المائدة ، الآيتان (٧٨ – ٧٩) .

(٢) انظر : سورة البقرة ، الآيتان (٨٨ ، ١٥٩) .
سورة النساء ، الآيتان (٤٧ ، ٥٢) .
سورة المائدة ، الآيتان (٦٠ ، ٦٤) .

(٣) حسن ظاظا : المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٤) انظر سفر التكوين ٣٤ : ٧ وكذا
بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٦٩ .

عليهم منذ خروجهم من مصر وحتى آخر أيام الملك شاؤل[1] (١٠٢٠ - ١٠٠٠ ق.م) وليس إلى ما بعد موت سليمان عليه السلام ، فيما يرى البعض ، لأن بداية انقسام الدولة كان بعد وفاة شاؤل مباشرة[2] .

والمقصود ببني إسرائيل هم أولاد يعقوب عليه السلام الاثنا عشر ولداً ، وهم الذين أُطلق عليهم اسم الأسباط ، وهم :

ستة ذكور من زوجته ليئة : رأوبين ، شمعون ، لاوي ، يهوذا ، يسّاكر ، زبولون .

واثنين من زوجته راحيل : يوسف ، بنيامين .

واثنين من زوجته زلفة جارية ليئة : جاد ، أشير .

واثنين من زوجته بلهة جارية راحيل : دان ، نفتالي[3] .

---

(١) شاؤل : هو شاؤل بن قيس بن أبيئيل بن صرور بن بكورة بن أفيح ، أول ملوك إسرائيل من سبط بنيامين . وهو الذي يُسمى عند نسّابة العرب والمفسرين للقرآن الكريم باسم " طالوت " الذي أشارت إليه الآيات القرآنية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴾ سورة البقرة ، الآية (٢٤٧) . وقوله تعالى : ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر ﴾ سورة البقرة ، الآية (٢٤٩) .

وقد أشار القرآن الكريم أيضاً إلى طالوت وموقف بني إسرائيل منه في سورة البقرة، الآيات (٢٤٦ - ٢٥١) .

والنبي الذي وردت الإشارة إليه في الايات القرآنية الكريمة السابقة هو صموئيل .

وقد اختلف المؤرخون حول فترة حكم طالوت ، فمنهم من يرى أنه حكم من (١٠٢٠ - ١٠٠٠ ق.م) ، ومنهم من يرى أنه حكم من (١٠٣٠ - ١٠٠٤ ق.م) ، وآراء أخرى تجعل ذلك فيما بين (١٠٢٥ - ١٠١٣ ق.م) أو (١٠٠٠ - ٩٨٥ ق.م) أو (١٠٢٠ - ١٠٠٤ ق.م) . انظر :

سفر صموئيل الأول ٩ : ١ - ٢ وكذا

إسماعيل بن عمر بن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ١ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٣٠١ وكذا

علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون ، ج ٢ ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ م ، ص ٥٠٩ وكذا

عبد الحكيم خير الدين ذا النون : المرجع السابق ، ص ١٣٤ وكذا

محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٢٤٦ - ص ٢٤٩ .

(٢) محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (٧) إسرائيل ، الكتاب الأول - التاريخ ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٣) محمد علي الصابوني : النبوة والأنبياء ، الطبعة الثانية ، مكة المكرمة ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٢٤٧ - ص ٢٤٨ وكذا

⇐

وأما هذه التسمية " إسرائيل " أو " بني إسرائيل " في الإنجيل فإنها تعني عند النصارى ، أن شعب الله الحقيقي هو مجتمع المؤمنين قاطبة ، ويجب أن يشمل أفراداً من جميع الشعوب وكل الأجناس ، وأن على المنتسب إلى النصرانية أن يدرك ويفهم الإنجيل بأنه يبين قصد الله في خلق المساواة بين الناس ، تلك المساواة التي تسمو على القومية ولا تميز بين الأجناس(١) .

لذلك جاءت الإشارات الكثيرة في الإنجيل إلى هذا المعنى(٢) ، وإلى أن الإسرائيلي هو المسيحي تحقيقاً لفكرة قيام إسرائيل الجديدة مكان إسرائيل القديمة ؛ أي الكنيسة المسيحية لكونها إسرائيل الجديدة . إلا أن اليهود رفضوا هذه المعاني الجديدة التي استحدثها المسيحيون واستمروا في استخدام الاسم " إسرائيل " بكل ما تضمنهُ من معانٍ تاريخية ودينية(٣) .

وفيما يتعلق بهذه التسمية في المصادر الإسلامية ، فقد وردت إشارات كثيرة في القرآن الكريم عنها ، إذ جاءت بلفظ " إسرائيل " للدلالة على يعقوب عليه السلام في قوله تعالى :

﴿ كلُّ الطعام كان حِلاً لبني إسرائيل إلا ما حرّمَ إسرائيلُ على نفسه من قبل أن تُنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾(٤) .

← محمد سيد طنطاوي : المرجع السابق ، ص ١٨ - ص ١٩ وكذا

السيد رزق الطويل : المرجع السابق ، ص ١٦ وكذا

غوستاف لوبون : اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ، ترجمة عادل زعيتر ، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٧٠ م ، ص ٣٢ .

(١) مراد كامل : إسرائيل في التوراة والإنجيل ، الطبعة الثانية ، دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٦٧ م ، ص ٤٤ .

(٢) انظر : سفر أعمال الرسل ٢ : ٢٢ ؛ ٣ : ١٢ ؛ ٥ : ٣٥ وكذا

سفر الرسالة إلى أهل رومية ١١ : ١ .

(٣) محمد خليفة حسن أحمد : المرجع السابق ، ص ٣١ - ص ٣٢ ، ص ٤٤ وكذا

أوفيد ر. سيلرز ، وآخرون : إسرائيل في الكتاب المقدس - معنى إسرائيل في نظر المسيحي ، ترجمة حسني حشبة ، مراجعة وتقديم إسحاق موسى الحسيني ، جامعة الدول العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٢ م ، ص ٦١ ، ص ٦٢ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية (٩٣) .

وفي قوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين أنعمَ ا لله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تُتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سُجّداً وبُكيّاً** ﴾(١) .

ووردت أيضاً التسمية " بني إسرائيل " في القرآن الكريم إحدى وأربعون مرة ، فإذا أُضيف إليها الآيتين السابقتين تكون التسمية قد وردت ثلاثٌ وأربعون مرة(٢) .

وفي السُّنّة النبوية المطهرة ، روى ابن عباس رضي ا لله عنهما قال(٣) :

" حَضَرتْ عِصابةٌ من اليهود نبي ا لله ﷺ يوماً فقالوا : يا أبا القاسم حدثنا عن خِلالٍ نسأُلكَ عنهن ، لا يَعلَمُهنَّ إلا نبي ، قال : ((سلوني عما شئتم ، ولكن اجعلوا لي ذمة ا لله وما أخذَ يعقوبُ عليه السلام على بنيه : لَئِنْ حدَّثْتُكم شيئاً فعرفتموه لَتُتَابِعُنّي على الإسلام)) . قالوا : فذلك لك ، قال : ((فسلوني عما شئتم)) قالوا : أخْبِرنا عن أربع خلالٍ نسأُلكَ عنهنَّ : أخبرنا أيُّ الطعام حرّمَ إسرائيلُ على نفسه من قبل أن تُنزل التوراة ؟ وأخبرنا كيف ماء المرأةِ وماء الرجل ؟ كيف الذَّكرُ منه ؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم ؟ ومَنْ وليُّهُ من الملائكة ؟

قال : ((فعليكم عهد ا لله وميثاقه لئِن أنا أخبَرْتُكم لَتُتَابِعُنّي ؟)) قال : فأعطوه ما شاء من عهدٍ وميثاق ، قال : ((فأنشُدكم بالذي أنزلَ التوراة على موسى صلى ا لله عليه وسلم ، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوبَ عليه السلام مرض مرضاً شديداً وطالَ سقَمُهُ ، فَنَذَر لله نذراً ، لئِن شفاه ا لله تعالى من سَقَمِهِ لَيُحرمنَّ أحبَّ الشراب إليه وأحبَّ الطعام إليه ، وكان أحبَّ الطعام إليه لحمانُ الإبل ، وأحبُّ الشراب إليه ألبانُها ؟)) قالوا : اللّهمَّ نعم . قال : ((اللهم اشهد عليهم ...)) " .

وهناك رأي للشيخ الإمام محمد عبده يذهب فيه إلى أن المقصود بـ" إسرائيل " في الآية الثالثة والتسعين من سورة آل عمران هو " شعب إسرائيل " وليس يعقوب عليه السلام ، فيقول(٤) :

---

(١) سورة مريم ، الآية (٥٨) .

(٢) محمد فؤاد عبد الباقي : المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(٣) الإمام أحمد بن محمد بن حنبل : المُسنَد ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، ج ٤ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م ، ص ١٧٦ – ص ١٧٧ حديث رقم ٢٥١٤ وكذا

ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، ص ٣٨١ .

(٤) محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار ، ج ٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٢ / ١٩٧٣ م ، ص ٤ .

((فالمراد بإسرائيل شعب إسرائيل كما هو مُستعملٌ عندهم ، لا يعقوب نفسه . ومعنى تحريم الشعب ذلك على نفسه : أنه ارتكب الظلم واجترح السيئات التي كانت سبب التحريم ، كما صرّحت الآية)) .

إلا أن محمد رشيد رضا في نهاية تفسيره للآية لم يُتابع شيخه فيما ذهب إليه ، ورجّح أن إسرائيل هو لقب نبي الله يعقوب عليه السلام ، الذي أُطلق على جميع ذريته من بعده[1] .

والحق ، أن ما ذهب إليه الشيخ الإمام محمد عبده يُخالف ما عليه أئمة التفسير ، وجانَبَ رأيُه الصواب الذي انعقد عليه جُلّ المفسرين لكتاب الله الكريم . وبالتالي لا يوافق الباحث على هذا الرأي .

وتجدر الإشارة إلى أن التسمية " بني إسرائيل " اتسع استخدامها ، وصارت تُطلق على كل نسل يعقوب عليه السلام على الرغم من كثرة الأنبياء فيهم ، وبدلاً من تكرار كلمة " قوم " مع كل نبي من أنبياء بني إسرائيل الكُثر ، أوجز القرآن الكريم الإشارة إليهم بإستخدامه عبارة " بني إسرائيل " ، وأشار إلى أنبياء بني إسرائيل ، وذلك لأنهم لا ينتمون إلى نبي واحد حتى يُنسبون إليه ، فكانت هذه التسمية جامعة لهم ولأنبيائهم[2] .

هذا بالإضافة إلى أن القرآن الكريم أشار إلى بني إسرائيل باستخدامه عبارة " قوم موسى " في قوله تعالى :

﴿ واتخذ قومُ موسى من بُعده من حُليّهم عجلاً جسداً له خوار ﴾[3] .

وقوله تعالى : **﴿ ومن قوم موسى أُمّةٌ يهدون بالحق وبه يَعدِلون ﴾**[4] .

وجاء الربط بين موسى عليه الصلاة والسلام وبين قومه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم[5] .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٥ .

(٢) محمد خليفة حسن أحمد : المرجع السابق ، ص ٣٧ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية (١٤٨) .

(٤) سورة الأعراف ، الآية (١٥٩) .

(٥) انظر على سبيل المثال لا الحصر :

سورة البقرة ، الآيات (٥٤ ، ٦٠ ، ٦٧) .

سورة المائدة ، الآية (٢٠) .

سورة الأعراف ، الآية (١٥٠) .

سورة يونس ، الآيتان (٨٣ ، ٨٤) .

سورة إبراهيم ، الآيتان (٥ ، ٦) .

سورة طه ، الآيتان (٨٣ ، ٨٦) .

سورة القصص ، الآية (٧٦) .

٣ - يهودي :

اشتق الاسم " يهود " من أَهْوَدَ بمعنى السُّكون ولين الجانب ، فعندما قالوا : ﴿ **إنا هُدنا إليك** ﴾[١] أي لانت قلوبُنا[٢] .

وذهب ابن منظور[٣] إلى أن الهَوْدُ بمعنى التوبة ، من هادَ يهودُ هَوْداً .

وتهوّد : أي تاب ورجع إلى الحق ، وقَرُبَ من المغفرة ، فهو هائد .

ويرى البعض أن اسم " يهوذا " مُشتق لغوياً من أصل سامي قديم هو مادة " ودى " التي تُفيد الإعتراف والإقرار والجزاء ، وفي العبرية اكتسبت هذه المادة معنى الإقرار والاعتراف بالجميل وتقديم الشكر[٤] .

وقد ذهب جمهور المفسرين[٥] إلى أن هذه التسمية سُمّوا بها عندما تابوا عن عبادة العجل في عهد موسى عليه الصلاة والسلام وقالوا : ﴿ **إنا هُدنا إليك** ﴾ حيث صاروا يستغفرون الله عز وجل ويعلنوا توبتهم ورجوعهم إلى الحق .

ولكن هذا الراي يُعارضه أحد الباحثين[٦] بقوله :

إن إشتقاق كلمة يهود من هادَ بمعنى تابَ أو رجع استدلال غير صحيح ، ولا يقوم على أُسس تاريخية ، أو دينية ، أو لغوية . وأن المعنى المقصود من التعبير القرآني ﴿ **والذين هادوا** ﴾[٧] هم اليهود الذين دانوا باليهودية ، وليس المقصود منه الذين تابوا ، أو عادوا ، أو رجعوا .

---

(١) سورة الأعراف ، الاية (١٥٦) .

(٢) محمد بن الحسن بن دُريد : الإشتقاق ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، ج ٢ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م ، ص ٥٤٩ .

(٣) لسان العرب ، ج ٣ ، ص ٤٣٩ .

(٤) حسن ظاظا : المرجع السابق ، ص ٢٨ - ص ٢٩ .

(٥) الطبري : المصدر السابق ، ج ١٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨ م ، ص ١٥٢ - ص ١٥٣ وكذا الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن ، تحقيق نديم مَرعَشلي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ، ص ٥٤٤ وكذا

القرطبي : المصدر السابق ، المجلد الرابع ، ج ٧ ، ص ١٨٨ وكذا

ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥٠ .

(٦) محمد خليفة حسن أحمد : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٧) سورة البقرة ، الآية (٦٢) .

وهناك رأي بأنهم سُمّوا في الأصل بذلك لتوبتهم ومودتهم بعضهم بعضاً . أو لأنهم يتهودون ، أي يتحركون ، عند قراءتهم للتوراة[١] .

ورأي آخر يُرجع سبب هذه التسمية إلى " يهوذا " الابن الرابع ليعقوب عليه السلام وأكبر أبنائه ، فَعُرِّب إسْمُه بقلب الذال دالاً فصار " يهودا " ، ومن ثم سُميت عشيرته بإسمه ، وصار العرب يسمونهم " اليهود "[٢] .

وقيل للواحد منهم يهوذي أو يهودي ، وبمرور الزمن صارت هذه الكلمة " اليهود " أعم من بني إسرائيل ؛ لأن كثيراً من أجناس العرب ، والروم ، والفرس ، وغيرهم ، صاروا يهوداً ، ولم يكونوا من بني إسرائيل ، وإنما بنو إسرائيل هم الأصل في هذه المِلّة ، وغيرهم دخيلٌ فيها[٣] .

وقد أشارت التوراة[٤] إلى هذه التسمية ، إضافة إلى إطلاقها عليهم اسم آل يهوذا ، أو بيت يهوذا ، أو رجال يهوذا .

ولهذه التسمية دلالة عامة ، ودلالة خاصة .

فالدلالة العامة ؛ أنها تسمية أطلقت على كل من اعتنق اليهودية وآمن بها . فاليهودي نسبة إلى اليهودية ، تمييزاً لهم عن غيرهم ممن لم يكونوا على هذا الدين[٥] .

---

(١) الراغب الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٥٤٤ وكذا
ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٣ وكذا
محمد سيد طنطاوي : المرجع السابق ، ص ١٩ .

(٢) ابن منظور : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٣٩ وكذا
حسن ظاظا وآخرون : المرجع السابق ، ص ٢٠ وكذا
محمد خليفة حسن أحمد : المرجع السابق ، ص ٤٢ وكذا
محمد سيد طنطاوي : المرجع السابق ، ص ١٩ .

(٣) إسماعيل أبي الفداء : المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفداء) ، ج ١ ، دار المعرفة ، بيروت ، بدون تاريخ ؛ ص ٨٧ .

(٤) سفر الملوك الأول ١ : ٩ .
سفر الملوك الثاني : ١٦ : ٦ .
سفر اشعياء ٢٢ : ٢١ .

(٥) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٣٤ .

أما الدلالة الخاصة ؛ فهي تعني الانتماء إلى كيان سياسي جغرافي هو مملكة يهوذا في جنوب فلسطين[١] ، بعد انشقاق مملكة سليمان عليه السلام بعد وفاته إلى قسمين . وبالتالي أصبحت التسمية " يهودي " علماً على الدين كمرادف للتسمية إسرائيلي ، وبالتالي صارت تُستخدم بشكل كبير حيث توارت التسمية السابقة عبريين أو إسرائيليين[٢] .

أما فيما يتعلق بتاريخ بداية استعمال هذه التسمية ، فقد اختلفت الآراء حول ذلك ، فهناك من يُرجعه إلى عهد موسى عليه الصلاة والسلام في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وهناك من يُرجعه إلى عهد داود عليه الصلاة والسلام (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م) وابنه سليمان عليه الصلاة والسلام (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م) حيث كانا من سبط يهوذا ، فانتسب الشعب كله إلى عشيرتهما وحملوا هذا الاسم " اليهود " . وإن كان هناك رأي تأخر به إلى أيام الفرس (٥٣٩ - ٣٣٢ ق.م)[٣] .

---

(١) مملكة يهوذا : (٩٢٣ - ٥٨٦ ق.م) ، عاصمتها القدس " يبوس " ، وهي أحد قسمي مملكة سليمان عليه السلام بعد وفاته ، حيث كان القسم الآخر في الشمال وهو مملكة إسرائيل (٩٢٣ - ٧٢٢ ق.م) التي كانت عاصمتها السامرة (سبسطية حالياً) . واستمرت مملكة يهوذا الجنوبية نحو ١٣٦ عاماً بعد انهيار مملكة إسرائيل الشمالية .

وغزا نبوخذ نصر مملكة يهوذا سنة ٥٩٧ ق.م ، وأخذ معه إلى بابل ملكها يهوياكيم وعشرة آلاف من سكانها ، وكان منهم النبي حزقيال ، وأبقى على المملكة اليهودية كتابعة لامبراطوريته . ولكن الملك زيديكياه (صدقيا) قام بثورة ، بالرغم من أنه كان قد أقسم يمين الولاء لنبوخذ نصر الذي كان قد أقامه ملكاً على يهوذا . فجاء نبوخذ نصر مرة أخرى وحطم القدس نهائياً سنة ٥٨٦ ق.م وسبى كثيراً من سكانها بعد حصار دام ١٨ شهراً ، وهو ما عُرف في التاريخ القديم باسم الأسر البابلي أو السبي البابلي . انظر :

عبد الحكيم خير الدين ذا النون : المرجع السابق ، ص ٦٥ - ص ٦٦ وكذا

ظفر الإسلام خان : تاريخ فلسطين القديم ، الطبعة الخامسة ، دار النفائس ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، ص ٥٧ - ص ٥٩ وكذا

مصطفى كمال عبد العليم ، وسيد فرج راشد : المرجع السابق ، ص ١٦٤ - ص ١٦٦ .

(٢) محمد خليفة حسن أحمد : المرجع السابق ، ص ٢٠ ، ص ٢٩ .

(٣) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٣٣ - ص ٣٤ وكذا

حسن ظاظا : المرجع السابق ، ص ٢٨ .

ويرجح الباحث أن هذه التسمية استخدمت منذ السبي البابلي[1] عام ٥٨٦ ق.م ؛

(١) السبي البابلي : السبي هو حالة الوجود تحت عبودية الأسر ، على الأخص في أرض غريبة . وقد اعتاد الآشوريون والكلدانيون أن ينقلوا أهل البلاد التي يفتحونها إلى بلاد أخرى ، حتى يفقدوا حماسهم الوطني ، بعيداً عن ذكريات الوطن .

وهناك سبيين هامين وقعا للإسرائيليين أو بني إسرائيل بسبب الخطيئة وكثرة الذنوب والبُعد عن الله عز وجل وهما :

السبي الأول : سبي الأسباط العشرة أو مملكة إسرائيل ، ففي عام ٨٤٢ ق.م كان ياهو (٨٤٢ - ٨١٣ ق.م) يرسل بجزيته إلى الملك الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤ ق.م) حيث كانت السمة البارزة في هذه الفترة هي سيادة آشور على مملكة إسرائيل . وأثناء حُكم تجلات بليزر الثالث (٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م) أدخل هذا الملك سياسة جديدة انتهجها إزاء الأقاليم المفتوحة التي تتكرر ثوراتها ، فصار يُهجّر سكانها وينقلهم بالجملة إلى أقاليم أخرى ، وإسكان أقوام أخرى في بلدانهم . وقد سار الملوك الآشوريون من بعده على هذه السياسة . وفي عهد سرجون الثاني (٧٢١ - ٧٠٥ ق.م) أزال دولة إسرائيل من الوجود ونقل الكثير من أهلها أسرى وأسكنهم في بلاد ماذي ، وجلب بدلاً منهم جماعات من بلاد بابل ولاسيما من منطقة " كوثي " . وهذا هو السبي الآشوري .

السبي الثاني : هو سبي يهوذا الذي تم على يد نبوخذ نصر الثاني (٦٠٤ - ٥٦٢ ق.م) في عدة مراحل : بعد عام من تتويجه ، وفي عام ٥٩٧ ق.م ، وفي عام ٥٨٦ ق.م .

فلما انقطع " يهوياكيم " (٦٠٨ - ٥٩٧ ق.م) ملك يهوذا عن دفع الجزية أسرع نبوخذ نصر الثاني بإرسال جيش حاصر أورشليم ، فاستسلمت له في عام ٥٩٧ ق.م ، وهلك ملكها " يهوياكيم " في أثناء الحصار ، وأسر من اليهود حوالي ثلاثة آلاف أسير ، ونصّب نبوخذ نصر الثاني على مملكة يهوذا ملكاً هو صدقيا (٥٩٧ - ٥٨٧ ق.م) . وهذا هو السبي الأول في العصر البابلي .

إلا أن الملك صدقيا خلع ولاءه لملك بابل نبوخذ نصر الثاني وانحاز إلى جانب الفرعون المصري بسامتكوس الثاني (٥٩٥ - ٥٨٩ ق . م) ، فأرسل نبوخذ نصر الثاني جيشه إلى أورشليم ، وضيق الحصار عليها حتى استسلمت له من بعد ١٨ شهراً عام ٥٨٦ ق.م ، وقبض على صدقيا بعد محاولته الهرب ونكل به وبأبنائه بعد أن أخذهم أسرى إلى بابل . وبلغ عدد الأسرى اليهود حوالي أربعين ألف أسير ، أُخذوا بعد أن دُمرت أورشليم ودكت معالم هيكل سليمان ، حسب ما ورد في سفر الملوك الثاني ٢٥ : ٦ - ٧ ؛ وسفر أخبار الأيام الثاني ٣٦ : ١٣ - ٢٠ .

وهذا هو السبي البابلي الثاني لليهود الذين مكثوا في بلاد بابل إلى زمن الدولة الفارسية الاخمينية حيث رجع بعضهم إلى فلسطين في عهد كورش الثاني (٥٥٩ - ٥٣٠ ق.م) الفارسي في عام ٥٣٩ ق.م ، وفضل بعضهم البقاء في بابل فصار اسمهم يهود الشتات . انظر :

بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٤٥٧ - ص ٤٥٨ وكذا

طه باقر : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥١١ ، ص ٥١٥ ، ص ٥٤٩ - ص ٥٥٠ وكذا

ظفر الإسلام خان : المرجع السابق ، ص ٥٨ ، ص ٦٤ وكذا

محمد بيومي مهران : مصر والشرق الأدنى القديم (٨) بلاد الشام ، ص ٣٧٦ ، ص ٣٨٤ - ص ٣٩٠ ، ص ٤٢١ - ص ٤٣٠ وكذا

مصطفى كمال عبد العليم وسيد فرج راشد : المرجع السابق ، ص ١٣٠ ، ص ١٥٢ - ص ١٥٦ ، ص ١٦٤ - ص ١٦٥ وكذا

Noth , M . , Op . Cit . , PP . 280 - 289 .

إما عن طريق المسبيين أنفسهم ، حيث كانوا يُسمون قبل ذلك بالإسرائيليين أو بني إسرائيل ، أو أنهم أطلقوا على أنفسهم هذه التسمية قبيل سقوط دويلة يهوذا بقليل . ومما يقوي هذا الرأي ويُرجحه أن الاستخدامات التي وردت في التوراة[١] – حسب رأي بعض الباحثين[٢] – تعود كلها إلى فترة السبي البابلي .

وبذلك أصبحت التسمية " يهود " أو " اليهود " تسمية لكل الأمة ، وذلك لأن الأسباط العشرة التي كانت تتكون منها دويلة إسرائيل قد ضاعت في زوايا النسيان منذ السبي الآشوري في عام ٧٢٢ ق.م ، ولأن دولتهم التي دمرها نبوخذ نصر الثاني[٣] (٦٠٤ – ٥٦٢ ق.م) في عام ٥٨٦ ق.م كانت معروفة باسم يهوذا نسبة إلى سبط يهوذا الذي ظل من بين الأسباط جميعاً محتفظاً بشيء من كيان بني إسرائيل ، فعُرفوا حينئذٍ ببني يهوذا[٤] .

---

(١) انظر : سفر الملوك الثاني ١٦ : ٥ – ٦ ؛ ١٨ : ٢٦ ؛ سفر نحميا ٤ : ١ – ٢ ؛ أستير ٢ : ٥ – ٦ ؛ ٣ : ٥ – ٦ ؛ سفر إرمياء ٥٢ : ٢٨ – ٣٠ .

(٢) محمد خليفة حسن أحمد : المرجع السابق ، ص ٢٩ وكذا
حسن ظاظا : المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(٣) نبوخذ نصر الثاني : تبوأ عرش مملكة بابل في ٢٣ أيلول عام ٦٠٤ ق.م ، ودام حُكمه فترة طويلة (٦٠٤ – ٥٦٢ ق.م) أي حوالي ٤٣ عاماً . ونبوخذ نصر اسم بابلي معناه " الإله نبو يحمي ذريتي " أو " نبو حامي الحدود " . وهو الذي أزال الدولة اليهودية ودمر أورشليم ، وكان هو الذي سبى اليهود وأخذهم أسرى إلى بلاده في عام ٥٩٦ ق.م وعام ٥٨٦ ق.م ، وما استتبع ذلك السبي من بقاء اليهود في بلاد بابل ردحاً من الزمن .

وعلى الرغم من الحروب الكثيرة التي خاضها نبوخذ نصر الثاني ، والتي تطلبت أموالاً طائلة فقد أولى هذا الملك البابلي عناية قصوى للجهود المعمارية ، وخاصة تعمير مدينة بابل ، والمدن الأخرى مثل : بورسيار ، ولارسة ، والوركاء ، وسيار ، واور ، ودلبات .

وقد ذهب بعض الكتاب اليونان والرومان إلى أن نبوخذ نصر الثاني ، شيد للأميرة الميدية التي تزوجها حسب أقوالهم ، الجنان المعلقة في مدينة بابل ، لكي تتذكر هذه الزوجة بيئة بلادها الجبلية ، وهو أمر ردّدته المصادر والمدوّنات القديمة والحديثة ، رغم خلوّه من السند التاريخي ، حتى أُقرنت بابل بها .

وتوفي نبوخذ نصر الثاني في الفترة بين ٢٦ أيلول و ٦ تشرين أول سنة ٥٦٢ ق.م . انظر :
سامي سعيد الأحمد وآخرون : العراق في التاريخ – العراق القديم – سلالة بابل الحديثة ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ١٦٤ – ص ١٦٥ ؛ ص ١٦٨ ، ص ١٧١ وكذا
طه باقر : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٠ ، ص ٥٤٨ – ص ٥٥٠ .

(٤) نجيب ميخائيل إبراهيم : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٠ وكذا
محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٣٣ – ص ٣٤ .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه التسمية في مواضع مختلفة ، فقد وردت الكلمة بصيغة المفرد مرة واحدة[١] ، في قوله تعالى :

﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾[٢] .

ووردت أيضاً بصيغة الجمع في ثمانية مواضع[٣] ، منها قوله تعالى :

﴿ وقالت اليهودُ ليست النصارى على شيءٍ وقالت النصارى ليست اليهود على شيءٍ وهم يتلون الكتاب ﴾[٤] .

وقد أطلق القرآن الكريم على اليهود أيضاً اسماً آخر هو **﴿ الذين هادوا ﴾** في عشرة مواضع[٥] ، منها ، قوله تعالى :

﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَنْ آمن با لله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون ﴾[٦] .

وكذلك أطلق القرآن الكريم على اليهود تسمية أخرى جاءت بلفظ **﴿ هوداً ﴾** في ثلاثة مواضع[٧] ، منها ، قوله تعالى :

﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا مَنْ كان هوداً أو نصارى تلك أمانيُّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[٨] .

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقي : المرجع السابق ، ص ٧٧٥ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (٦٧) .

وهذه الآية الكريمة تفيد بالنص القاطع أن إبراهيم عليه السلام كان رسولاً مسلماً يدعو إلى عبادة الله وحده بلا شريك ، وهي دعوة الإسلام التي دعا إليها جميع الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام . وتُبين أيضاً أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مُسلماً ولم ينتسب إلى اليهود أو النصارى ، كما يدّعي كُتّاب التوراة المحرفة ، والكُتّاب اليهود القدماء والمعاصرين ، ومن سار على نهجهم .

(٣) محمد فؤاد عبد الباقي : المرجع السابق ، ص ٧٧٥ .

(٤) سورة البقرة ، الآية (١١٣) . وانظر :

سورة البقرة ، الآية (١٢٠) .

سورة المائدة ، الآيات (١٨ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٨٢) .

سورة التوبة ، الآية (٣٠) .

(٥) محمد فؤاد عبد الباقي : المرجع السابق ، ص ٧٣٩ .

(٦) سورة البقرة ، الآية (٦٢) .

(٧) محمد فؤاد عبد الباقي : المرجع السابق ، ص ٧٣٩ .

(٨) سورة البقرة ، الآية (١١١) .

ومن الملفت للنظر ، أن القرآن الكريم كان يشير إليهم باسم " اليهود " عندما كان يتنزل على رسول الله ﷺ في المدينة ، حيث يكشف عن نفسياتهم وتحريفهم ودسائسهم ، ويُفند شبهاتهم وأقوالهم . أما في إشاراته عنهم ، وما وقع لهم أو عليهم قبل بعثة محمد ﷺ فكان يُطلق عليهم اسم " بني إسرائيل " . مما يدل على أن هناك حِكْمةٌ في هذا الأسلوب القرآني المعجز ، تتمثل – والله أعلم – أن تسميتهم بـ" بني إسرائيل " يمنحهم صِلةً ونسباً بإسرائيل الذي هو يعقوب عليه السلام ، ويُضفي عليهم ظلالاً دينية وإيمانية ، وهو نوع من التكريم لهم . وهذا ما حصل لهم في تاريخهم السابق ، عندما كانوا مع أنبيائهم والصالحين منهم ، ممثلين لجانب الحق والإيمان ، فاستحقوا ذلك التكريم ؛ بانتسابهم الإيماني والوراثي ليعقوب عليه السلام[١] .

أما عندما بُعث رسول الله ﷺ للناس كافة فقد صار هو " الوارث " الديني والإيماني ليعقوب عليه السلام والأنبياء من ذريته ، وأصبحت الأمة المسلمة هي الأَوْلَى للدين والحق ، ولم تَعُدْ لبني إسرائيل ، الذين كفروا بمحمد ﷺ ورسالته ، أية صلة تربطهم بيعقوب عليه السلام . لذلك لم يكونوا مستحقين لذلك الاسم الكريم ، وصار يُطلِق عليهم اسم " اليهود " مجرداً من كل معاني الإيمان والتوبة والرجوع إلى الله عز وجل ، رغم صحة انتسابهم لإبراهيم ويعقوب وإسحاق عليهم السلام ، إلا أن، حسب منهج القرآن الكريم، هناك فرق شاسع بين صلة النسب وبين وراثة الدين والإيمان والعقيدة ؛ فليس كل مَنْ صح نسبُه بالأنبياء يكون وارثاً لعلمهم وإيمانهم ورسالتهم[٢] .

والرأي ، أن ما قرره القرآن الكريم وأثبته من تسميتهم بـ" اليهود " في سوره المدنية هو الأَوْلَى والأجدر بالمسلمين أن ينعتوهم به ، ويلتزمون بهذه التسمية المجردة من كل معاني الإيمان والتوبة والإنابة ، خاصة وأن هذه التسمية اقترنت بلعنهم من الله عز وجل ، والغضب عليهم إلى يوم يلقونه .

---

(١) صلاح عبد الفتاح الخالدي : المرجع السابق ، ص ٣٨ – ٣٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٠ ، ص ٣٩ .

٤ - صهيوني :

هذه التسمية نسبة إلى " صِهْيَوْن " وهو اسم عبري معناه على الأرجح " حصن "[١].

وهناك رأي يعتبر أن هذه التسمية إنما كانت بناءً على المصادر المصرية ، ولا علاقة لها باللغة العبرية ؛ ذلك أن المصريين كانوا يُطلقون كلمة " أون " أو " عيون " على المدينة المقدسة . أما كلمة " صا " فهي تعني الصحراء أو المنطقة الجدباء . وبالتالي فإنه من الطبيعي ، في حال قيام المصريين ببناء معبد في منطقة تُعتبر مقدسة لدى كل شعوب كنعان ، تعبّد بها الملك المصري تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) ، خاصة وأن اليبوسيين لم يكونوا قد بنوا معبداً لهم على الأرض المقدسة ، واكتفوا بالتعبد عند صخرة المذبح ، فمن الطبيعي أن يعتبروها هم أيضاً (المصريون) مدينة مقدسة ، أي " أون " . وبما أنها تقع في منطقة جبلية خارج الحدود المصرية فقد أسموها " صا أون " أي المدينة المقدسة للصحراء أو المنطقة الجدباء . وصارت هذه الكلمة في العبرية " صي يون " وفي العربية "صهيون "[٢] .

ورأي ثالث يذهب إلى أن هذا اللفظ " صهيون " لعله من أصلٍ عربي مشتق من الصهوة ، أي الربوة أو قمة الجبل ، على وزن فعلون ، الذي فيه صيغة المبالغة عند العرب[٣] .

وصهيون في العبرية " تسيون " وهو القسم المحصن من المدينة في جبل صهيون إلى الجنوب من مدينة القدس[٤] .

غير أن محمد بيومي مهران[٥] يرى أنه لا يوجد أصل مُتّفق عليه لهذه التسمية في اللغة العبرية ، رغم أن البعض يُرجحون أنها عربية الأصل ، وأنها من مادة الصون والتحصين ، حيث كانت بالفعل من حصون الروابي العالية .

---

(١) بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٥٥٨ .

(٢) أحمد عثمان : تاريخ اليهود ، ج ١ ، مكتبة الشروق ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٦٤ ، ص ١٦٥ .

(٣) عبد الحميد بن أبي زيان بن شنهو : أصول الصهيونية ومآلها ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ، ص ١١٠ وكذا

مصطفى كمال عبد العليم ، وسيد فرج راشد : المرجع السابق ، ص ٧٦ هامش (٢) ، ص ١٨٠ هامش (١) .

(٤) أفرايم ومناحِم تلمي : معجم المصطلحات الصهيونية ، ترجمة أحمد بركات العجرمي ، الطبعة الأولى ، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية ، عمّان ، ١٩٨٨ م ، ص ٣٨٠ .

(٥) دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (٧) إسرائيل ، الكتاب الأول - التاريخ ، ص ٣٦ .

وعلى أي حال ، فإن كلمة " صهيون " ورد ذكرها للمرة الأولى في التوراة ، في النص التالي : ((وأخذَ داودُ حصن صهيون . هي مدينةُ داود))[1] .

وفي نص آخر : ((وقال سكانُ يبوس لداود لا تدخل إلى هنا . فأخذ داود حصن صهيون . هي مدينة داود))[2] .

ومن هنا أطلق داود عليه السلام على هذا الحصن اسم مدينة داود ، وإليها أتى بتابوت العهد[3] ، فمنذئذٍ صار الحصن مكاناً مقدساً ، ونجح داود بعمله هذا في أن يجعل من أورشليم مركزاً للحياة الدينية والسياسية على حدٍ سواء[4] .

---

(١) سفر صموئيل الثاني ٥ : ٧ .

(٢) سفر أخبار الأيام الأوَّل ١١ : ٥ .

(٣) تابوت العهد : بناءً على ما ورد في سفر الخروج ٢٥ : ١٠ - ٢٢ فإن تابوت العهد عبارة عن صندوق صنعه موسى بأمر الله تعالى ، طوله ذراعان ونصف ، وعرضه ذراع ونصف ، وارتفاعه ذراع ونصف . وكان مصنوعاً من خشب السنط ، ومُغشى بصفائح من ذهبٍ نقي من داخل ومن خارج ، ويحيط برأسه إكليل من ذهب فوقه غطاء من ذهب نقي . وفوق كل طرف من الغطاء كروب من ذهب يُظلل الغطاء . وعلى كل من جانبي التابوت حلقتان من ذهب لعصَوَي التابوت المصفحتين بالذهب لحمل التابوت .

وكان في التابوت الوعاء الذي يحتوي على المنّ ، وعصا هارون ، ولوحا العهد ، وكان عليهما وصايا الله العشر . ثم وضع بجانبه كتاب التوراة ، حسب ما ورد في سفر التثنية ٣١ : ٢٦ ، ومن ثم يسمى التابوت أحياناً تابوت الشهادة ، حسب ما ورد أيضاً في سفر الخروج ٢٥ : ١٦ و ٤٠ : ٢١ .

وعندما سكن داود عليه السلام القدس (أورشليم) نقل التابوت إليها على غاية من التجلة والمظاهر الدينية المناسبة .

ولا يُعرف هل أخذ البابليون تابوت العهد معهم عندما دمروا القدس ونهبوها ، أو اختفى وتم ضياعه ؟ انظر :

بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٢٠٩ ، ص ٢١٠ وكذا

أحمد شلبي : مقارنة الأديان ، الجزء الأول - اليهودية ، الطبعة الخامسة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٨ م ، ص ٢٠٥ - ص ٢٠٦ وكذا

إسماعيل راجي الفاروقي : المرجع السابق ، ص ٤٩ ، ص ٥٠ وكذا

مصطفى كمال عبد العليم وسيد فرج راشد : المرجع السابق ، ص ٩٦ - ص ٩٧ الهامش وكذا

سبتينو موسكاتي : المرجع السابق ، ص ٢٨٨ هامش (٢) وكذا

Lods , A . , Op . Cit . , P . 425 , note 1 .

(٤) بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٥٥٨ وكذا

عبد الحميد بن أبي زيان بن شنهو : المرجع السابق ، ص ٤٥ وكذا

محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٣٥ ، ص ٣٦ وكذا

Kapelrud , A . S . , Op . Cit . , P . 42 ;
Anderson , G . W . , Op . Cit . , P . 168 ;
Noth , M . , Op . Cit . , P . 191 .

ومن هذه الكلمة " صهيون " أخذت الحركة الصهيونية اسمها . والصهيونية كحركة سياسية تهدف إلى جمع اليهود ، ولم شملهم ، وتهجيرهم إلى فلسطين لتأسيس دولة يهودية فيها تدين بالدين اليهودي ، وتتميز بالعنصر اليهودي ، وبالثقافة اليهودية ، وبإرادة بعث مملكة داود ، نشأت في أواسط القرن التاسع عشر على يد تيودور هرتزل (١٨٦٠ - ١٩٠٤ م) . أما الصهيونية كحركة دينية وفكرية ، فهي تهدف إلى تمكين العنصر اليهودي من أداء رسالته ، وتتفهم هذه الرسالة بتملّك أرض فلسطين ، التي يعتبرونها أرض الميعاد ، وقهر لجيرانها الأعداء ، وتركيز لسلطة العالم الروحية والحضارية والفكرية في صهيون ، وهي فكرة قديمة جداً[١] .

ولذلك يقول بعض الباحثين[٢] اليهود عن تصورهم للصهيونية :

((هي الحركة اليهودية الوطنية في العهد الجديد [الإنجيل] ، وهذه الحركة تؤيد عودة الشعب إلى صهيون ؛ إلى وطنه التاريخي " أرض إسرائيل " وإقامة دولة يهودية حرّة ومستقلة ، وتجديد حياة الشعب اليهودي ، الدينية ، والثقافية ، والسياسية ، والاقتصادية . وكان أول من استنبط اسم الصهيونية هو الأديب ناتان برنبويم ، وكان ذلك عام ١٨٩٠ م)) .

ويرى البعض أن الحركة الصهيونية نشأت منذ الأسر البابلي في سنة ٥٨٦ ق.م حين أصبح الحنين إلى صهيون رمزاً لإعادة بناء المملكة اليهودية[٣] . وقد جاء في قول " فيلون " (حوالي ٦١ - ١٤١ م) - فيلسوف الاسكندرية اليهودي - : إن على اليهود أن يستوطنوا الأرض المقدسة ، أرض الميعاد ، والزحف منها إلى العالم والسيطرة عليه[٤] .

يقول إسماعيل راجي الفاروقي[٥] :

---

(١) إسماعيل راجي الفاروقي : المرجع السابق ، ص ٧ وكذا
حسن ظاظا : المرجع السابق ، ص ٨٠ .

(٢) افرايم ومناحِم تلمي : المرجع السابق ، ص ٣٨٠ .

(٣) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٣٨ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٣٨ وكذا
أنور الجندي : المخططات التلمودية الصهيونية اليهودية في غزو الفكر الإسلامي ، دار الاعتصام ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٣١ .

(٥) الملل المعاصرة في الدين اليهودي ، الطبعة الثانية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٩٩ .

((في المنفى في بابل بعد سنة ٥٨٦ ق.م ، تحول الدين العبري إلى الدين اليهودي . في الدين العبري كان الإله إله شعبه المختار فقط ، يدفعه ويؤازره ويحركه ويعمل له من أجل استيطانه فلسطين والمحافظة على جنسيته وعنصره ، لكنه لم يكن يتدخل في كثير أو قليل في حياة الشعوب الأخرى ، بعد أن تم الاستيطان الأول وقيام مملكة داود . أما بعد المنفى فقد أصبح الإله يتدخل لا لحماية شعبه فحسب ، بل لإذلال وإخضاع شعوب العالم لشعبه المختار ، ولاستمرار استعبادهم له على مرّ العصور ، ...)) .

ولعل أول دعوة علنية لإنشاء وطن قومي لليهود تمهيداً لإنشاء دولتهم العالمية كانت تلك التي نادى بها " السير هنري فنش " في كتابه الذي نُشر سنة ١٦١٦ م بانجلترا بعنوان " نداء اليهود " . إلا أن هذه الدعوة لم تلق تأييداً كافياً إلا بعد مرور قرنين من الزمان ، عندما استغل الكُتّاب اليهود دعوة الحرية ، التي نادت بها الثورة الأميريكية (١٧٧٦ م) ، وأكدتها الثورة الفرنسية (١٧٨٩ م) ، فراحوا يؤكدون ما وقع عليهم من اضطهاد في الدول الأوروبية زاعمين أن مشكلة اليهود تكمن في عدم وجود وطن لهم ، وأن الحل يتأتى بمنحهم وطنٍ يلجأون إليه ويطمئنون فيه[١] .

وفي مايو ١٨٥٤ م كانت أول دعوة صهيونية في العصر الحديث ؛ إذ عقد الحاخام الأكبر اليهودي في بريطانيا اجتماعاً دعا فيه إلى الصهيونية ، التي لم تكن معروفة وقت ذاك ، وكان الهدف من ذلك تجميع اليهود وإعاشتهم في مكانٍ ما[٢] .

وتوالت نشاطات اليهود المختلفة من أجل تحقيق هذا الهدف منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وبرزت أسماء وشخصيات يهودية كان لها أكبر الأثر في توجيه هذه الدعوى ، ومنهم[٣] :

يهود الكالاي (١٧٩٨ – ١٨٧٨ م) ويُعد من أوائل الرجال الصهيونيين بالرغم من أنه غير معروف نسبياً ، وقد نشأ في صربيا في البلقان . ومع أنه كان ارثوذكسياً يؤمن

---

(١) حسن ظاظا وآخرون : المرجع السابق ، ص ٨١ – ص ٨٢ .

(٢) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(٣) انظر : أحمد عبد الغفور عطار : الشيوعية وليدة الصهيونية ، الطبعة الأولى ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ، ص ٣٧ – ص ٤٠ وكذا
إسماعيل راجي الفاروقي : المرجع السابق ، ص ١٠٧ – ص ١٠٩ بتصرف وكذا
أنور الجندي : المرجع السابق ، ص ٢١١ .

بمعجزة الخلاص ، فقد رأى أن لا مانع من التحضير لهذه المعجزة بالاستيطان في فلسطين من قِبَل اليهود .

وكذلك زفي هرش كاليشر (١٧٩٥ - ١٨٧٤ م) المولود في بولندا ، حيث شهد صراع الروس والألمان والبولنديين ، ودعا إلى ضرورة تعاون الحكومات الأوروبية في سبيل تحقيق عودة اليهود وقيام دولة داود في فلسطين . وقد ألف كتاباً سماه "داريشات صهيون" (سعياً وراء صهيون) وذلك في عام ١٨٦٢ م ، حاول فيه إقناع الارثوذكس المتعصبين بضرورة السعي الإنساني والسياسي والتمهيد المادي لتحقيق ذلك الهدف ، بل كان أول من دعا إلى الاستعمار الزراعي في أرض فلسطين .

وقام بعده بيريتز سمولينسكين (١٨٤٢ - ١٨٨٥ م) حيث دعا إلى أن اليهود لن يقبلوا أية أرض في هذا الكون سوى فلسطين ، أرض إسرائيل المقدسة ، وأن فيها فقط يمكن لليهود تحقيق السلام والطمأنينة لهم .

ثم جاء ليوبينسكر (١٨١١ - ١٨٩١ م) ليدعو إلى تعايش اليهود التام مع المجتمع الروسي . إلا أنه غيّر فكرته هذه بعد سنة ١٨٨١ م حيث اشترك الشعب الروسي في تقتيل اليهود ، إلى جانب اشتراك الطبقة المثقفة والحاكمة في أعمال الإضطهاد ، فصار يدعو إلى ضرورة استيطان اليهود في أية أرض أخرى مقبولة . وعن فِكر ليوبينسكر نشأت منظمة " أحبة صهيون " أو " أحباء صهيون "[1] التي أخذت تشتري الأراضي في فلسطين لتوطين اليهود فيها .

---

(١) أحباء صهيون : كان الوعي اليهودي القومي قد بلغ ذروته في أوروبا الشرقية بسبب الاضطهاد الذي كان يجتاح اليهود أحياناً ، ثم يخف عنهم أحياناً أخرى . وعلى إثر مذابح اليهود في روسيا سنة ١٨٨٢ م ظهرت حركة صهيونية عنيفة ، ألّفَ خلالها هيكلر الجرماني كتاب بعنوان " إرجاع اليهود إلى فلسطين حسب أقوال الأنبياء " وفي السنة التالية ، أي سنة ١٨٨٣ م ظهرت أول منظمة صهيونية علنية على يد شباب من يهود أوديسا ، في روسيا ، وأطلقت على نفسها " أحباء صهيون " ، ثم انتشرت لها فروع في كثير من بلدان أوروبا الشرقية ، وبشكل خاص في بولونيا . انظر :

الندوة العالمية للشباب الإسلامي : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، الطبعة الثانية ، الرياض ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م ، ص ٣٣٢ وكذا

حسن ظاظا : المرجع السابق ، ص ٨٠ .

ويرى بعض الباحثين[١] أنه في عام ١٨٨٥ م قام فريق من اليهود في أميريكا بحركة تحررية تهدف إلى ترك التزمت القديم باتباعهم القيادة العالمية للأنبياء ، فهم باعترافهم يهود لا يلتزمون في سلوكهم الديني بأية محاولة – طيبة أو سيئة – لتفسير كتابهم المقدس تفسيراً حرفياً . وكان هذا الفريق من أبرز الحاخامين اليهود الأميريكان الذين أعلنوا في وثيقة تسمى " برنامج بيتسبورج Pittsburgh Platform " بولاية بنسلفانيا في مدينة بيتسبورج ، وأعلنوا تكوين المذهب الإصلاحي Reform Judaism الذي يرمي إلى أن يتخذ اليهود مكانه في الحضارة الحديثة ، ويتفاءل باقتراب تحقيق الأمل الكبير في الخلاص من أجل إقامة مملكة الحق والعدل والسلام بين البشر أجمعين .

وبظهور تيودور هرتزل (١٨٦٠ – ١٩٠٤ م) الصحفي اليهودي النمساوي يمكن القول أنه قام بتأسيس الصهيونية الحديثة . فقد رأى تيودور هرتزل أن الحل الجذري للمشكلة اليهودية هو في إقامة وطن لهؤلاء الناس ، يبتعدون فيه عن الأمم الأخرى ، وتحكمهم حكومة منهم . وإنطلاقاً من هذه الفكرة نشر كتابه " الدولة اليهودية " في عام ١٨٩٦ م ، ودعا فيه إلى عقد اجتماع يهودي لوضع سياسة صهيونية منظمة تهدف إلى تحقيق الحل الذي يراه ، وهو ما تم بالفعل حيث اجتمع المؤتمر الصهيوني الأول في ٢٩ أغسطس سنة ١٨٩٧ م في مدينة بال (بازل) بسويسرا حيث قرر المؤتمر بكل بساطة " اغتصاب فلسطين " لتكون في المستقبل هي دولة اليهود[٢] .

وبعد ذلك انضمت أوساط واسعة من اليهود إلى الحركة الصهيونية ، وتدفقت أفواج كثيرة من اليهود بشكل هجرة إلى فلسطين ، وأنشأوا الوكالة اليهودية ،

---

(١) حسن ظاظا : المرجع السابق ، ص ٨٠ وكذا
إلمر برجر Elmer Berger وآخرون : إسرائيل في الكتاب المقدس – إسرائيل أهي تحقيق لنبوءة الكتاب المقدس ؟ ترجمة حسني خشبة ، مراجعة وتقديم إسحاق موسى الحسيني ؛ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٢ م ، ص ٣٨ .

(٢) حسن ظاظا وآخرون : المرجع السابق ، ص ٨٤ ، ص ٨٥ وكذا
محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٤٢ وكذا
إسماعيل راجي الفاروقي : المرجع السابق ، ص ١١٢ وكذا
افرايم ومناحِم تلمي : المرجع السابق ، ص ٣٨١ .

والمستوطنات الزراعية ، والمشاريع المختلفة بحيث قويت الحركة الصهيونية ، إلى أن حققت أملها الأكبر بإنشاء دولة إسرائيل التي أُعلنت ((في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الجمعة ١٤ مايو ١٩٤٨ م برئاسة حاييم وايزمان (١٨٧٤ - ١٩٥٢ م) أول رئيس لدولة إسرائيل))(١) .

ومما لاشك فيه أن الصهيونية العالمية وقاعدتها الأمامية " إسرائيل " هي أكبر الأخطار على العالم الإسلامي في الوقت الحاضر ، ويكاد يكون هذا الخطر يفوق في طبيعته ما تعرض له المسلمون في تاريخهم من هجمات الصليبيين ، والمغول ، والاستعمار الأوروبي الحديث ؛ ذلك لأن الصهيونية - فوق احتلالها للأرض - تهدف أيضاً إلى تدمير كل ما هو مقدس عند المسلمين وغيرهم ؛ من تدميرٍ للأديان ، وهدم للعقائد ، واستئصال للشعوب ، وإفساد القيم والأخلاق(٢) .

وهكذا ، فإن الصهيونية هي العدو الخبيث الذي يحارب العالم العربي كله في عقر داره ، وهي على التحقيق خطر عاجل على سلام العالم بأسره لا يُرجى منه خير لطائفة من طوائف البشر بغير استثناء الصهيونيين أنفسهم ، لو أنهم ينظرون إلى العواقب ، ولا يُعميهم التعصب على هذا الشر المستطير الذي يقدحون زناده بأيديهم ، وهم يحسبون أنه هو المجد الموعود لأبناء إسرائيل . والواقع أن الصهيونية لا تعتمد في دعواها على سندٍ صحيح من الكتب السماوية ؛ فليس في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في القرآن الكريم ، كلمة واحدة يحق للصهيونيين أن يُعزّزوا بها دعواهم في أرض فلسطين(٣) .

وأخيراً ، ثمة أمر جدير بالإشارة ، وهو أن اليهود ، والحركة الصهيونية الحديثة منذ تأسيسها على يد تيودور هرتزل (١٨٦٠ - ١٩٠٤ م) ، الصحفي اليهودي النمساوي ، الذي أقام أول مؤتمر صهيوني عالمي في بازل بسويسرا سنة ١٨٩٧ م ، يدّعون أنهم ينتسبون إلى بني إسرائيل ، ويحاولون إيجاد الروابط والوشائج بينهم وبين بني إسرائيل ، وبين حركتهم الصهيونية وتاريخ بني إسرائيل في أرض فلسطين المحتلة ،

---

(١) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٢) أحمد عبد الغفور عطار : المرجع السابق ، ص ٤٢ ، ص ٢٣٤ .

(٣) عباس محمود العقاد : الصهيونية وقضية فلسطين ، تحرير الحساني عبد الله ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٣٦ .

ليكون لهم سنداً ودليلاً لما يصبون إليه من محاولة السيطرة على منطقة الشرق العربي ، بعد أن أقاموا لهم دولة على أرض فلسطين في ١٤ مايو عام ١٩٤٨ م .

وكل ذلك الادّعاء ، في حقيقة الأمر ، لا أساس له من الصحة والصواب ، فبني إسرائيل عندما أراد الله عز وجل أن يدخلوا أرض فلسطين المقدسة ، كان ذلك في فترة زمنية مُحدَّدة ، كإختيار لهم وتفضيل على عالمي زمانهم ، في عصر موسى عليه الصلاة والسلام ؛ لأنهم كانوا مُوحِّدين ومسلمين . وعندما نقضوا عهد الله عز وجل من الإيمان والإسلام ، رفع الله عنهم الاختيار ، بل وغضب عليهم ولعنهم .

وبمرور الزمن ، وبعد غزو الرومان في القرن الأول والثاني بعد الميلاد لفلسطين ، دخل كثير ممن بقي من بني إسرائيل في النصرانية .

وبمجيء رسول الله محمد ﷺ برسالة الإسلام ، نسخ الله عز وجل الشرائع السابقة ، ودخل كثير منهم في الإسلام ، وصاروا ينتسبون إلى هذا الدين . والشواهد لذلك كثيرة في التاريخ الإسلامي ، خاصة في بداية الدعوة الإسلامية في عصر الرسول محمد ﷺ . ورغم ذلك فقد بقي كثير منهم على يهوديته ، وتفرّقوا في أصقاع العالم المختلفة ، واختلطوا بالشعوب المقيمة في قارات آسيا ، وافريقيا ، وأوروبا . ويمكن القول أن بعض الأقوام التي اختلط بهم اليهود قد اعتنقوا اليهودية ، مثل قبائل الخزر ، وانتشرت بعد ذلك في مناطق وجودها في روسيا إلى أوروبا ، والذين يُعرفون بـ" الشكنازيم " عند اليهود اليوم .

لذلك ، فإن الحقيقة التي لا جدال ولا مراء فيها ، هي أن ما يُسمّون أنفسهم باليهود في العصر الحالي ، ما هم إلا من ذُرّية تلك الأقوام ، التي اعتنقت اليهودية في ارمينية والخزر ، وغيرها من البلدان المختلفة . وبالتالي لا صلة لهم ببني إسرائيل الذين كانوا معاصرين لموسى عليه الصلاة والسلام ، وأنهم تَشبّثوا بتبعيتهم للدين اليهودي ظناً منهم في خداع الناس ، بأنهم ينتسبون لبني إسرائيل ، بل وتمسّكوا بلغتهم العبرية ، ليكون ذلك عاملاً يجمعهم ويُميّزهم عن غيرهم من الأمم المعاصرة ، ليُقوّوا حججهم الواهية بأن لهم حق في أرض فلسطين .

لذلك ، لا يُستغرب على اليهود ، وأتباع الحركة الصهيونية ، حشد كل قواهم لترسيخ مفاهيم الحقوق الدينية والتاريخية ، في أذهان الناس في العالم ، وخاصة العالم الغربي المؤيد لهم . إلا أن هذا التأييد والمدد لن يدوم لهم .

وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : ((لا تقوم الساعة حتى يُقاتل المسلمون اليهود فيقتلُهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهوديٌّ خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود))(١) .

وفي رواية أخرى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال: ((تُقاتِلُكم اليهود ، فتُسلَّطون عليهم ، حتى يقول الحجر : يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله))(٢) .

والمسلم الحق ، يؤمن إيماناً قاطعاً ، بأن هؤلاء اليهود الذين لا صلة لهم ببني إسرائيل ، ولا صلة لهم بالإيمان أو العقيدة ، الذين يحتلون جزءاً من أرض المسلمين ، وهي فلسطين ، سيتحقق فيهم وعد الله عز وجل ، بقتلهم وإبادتهم ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ ، فهو الذي أخبر أن اليهود سيأتون إلى الأرض المقدسة ، وصار ذلك حقيقة واقعة ، وهو نفسه ﷺ ، الذي أخبر أيضاً ، أنهم سيُقتلون على أيدي المسلمين ، في المعركة الفاصلة ، التي لا يعلم زمانها إلا الله عز وجل ، وذلك عندما يُحقِّق المسلمون المعنى الحقيقي للعبودية لله رب العالمين ، فيكونوا أهلاً لأن يُخاطبهم الشجر والحجر بصفة الإسلام ، والإيمان الخالص لله رب العالمين ، فيناديهم : يا مسلم ، يا عبد الله .

---

(١) الإمام الحافظ أبو زكريا يحيى بن شرف النووي : صحيح مسلم بشرح النووي ، الطبعة الثانية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ، ج ١٨ ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، ص ٤٤ – ص ٤٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٤ وكذا أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، راجعه وقدّم له وضبط أحاديثه وعلّق عليه طه عبد الرؤوف سعد ، ومصطفى محمد الهواري ، والسيد محمد عبد المعطي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ج ١٤ ، كتاب المناقب – باب علامات النبوة في الإسلام ، ص ١٠٣ ، حديث رقم ٣٥٩٣ .

ثانياً : وفودهم إلى مصر .

كان يعقوب – الذي هو إسرائيل – عليه السلام قد رزقه الله عز وجل اثنا عشر ولداً من الذكور . فقد ولدت له زوجُه لَيْئَة ستة أبناء من الذكور هم :

رَأوبَيْن ، وشِمْعُون ، ولاوي ، ويهوذا ، ويَسَّاكَر ، وزَبُولون .

وابنا راحيل : يوسف وبَنْيامين .

وابنا بِلْهَة جارية راحيل : دان ، ونَفْتالي .

وابنا زِلْفَة جارية لَيْئَة : جاد ، وأَشير[١] .

وهؤلاء الاثنا عشر ذكراً كوّنوا فيما بعد الأسباط[٢] في بني إسرائيل ، أي قبائل بني إسرائيل .

وقد ارتبط بهذه التسمية " الأسباط " اختلاف في آراء العلماء حول نبوتهم : هل كانوا أنبياء أم لا ؟ . لذلك من الضرورة بمكان ، بيان وجه الحق في هذه المسألة ، قدر المستطاع .

أشار القرآن الكريم إلى " الأسباط " أربع مرات ، وإلى لفظ " أسباطاً " مرة واحدة[٣] .

قال تعالى : ﴿ **قولوا آمنا با لله وما أنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نُفرقُ بين أحد منهم ونحنُ له مسلمون** ﴾[٤] .

---

(١) سفر التكوين ٣٥ : ٢٣ – ٢٦ .

(٢) الأسباط : مفردها سبط ، وهي كلمة عبرانية معناها " جماعة يقودها رئيس بعصا " .

والسِّبْط عند العرب : ولدُ الابن والإبنة ، كأنه امتدادٌ للفروع . والسِّبط من بني إسرائيل كالقبيلة من العرب ، فكان الأسباط هم قبائل بني إسرائيل ، كلُّ قبيلة من نسل رجلٍ واحد ، أسباطاً أُمماً ، كما في قوله تعالى : ﴿ وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أُمماً ﴾ . سورة الأعراف ، الآية ١٦٠ . انظر :

الراغب الأصفهاني : المرجع السابق ، ص ٢٢٧ وكذا

مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد المعروف بابن الأثير : منال الطالب في شرح طوال الغرائب ، تحقيق محمود محمد الطناحي ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص ١٤٧ وكذا

بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٤٥٥ .

(٣) محمد فؤاد عبد الباقي : المرجع السابق ، ص ٣٤٠ .

(٤) سورة البقرة ، الآية (١٣٦) .

وقال تعالى : ﴿ أم تقولـون إنَّ إبراهيـم وإسمـاعيل وإسـحاق ويعقـوب والأسـباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ قل آمنا با لله وما أنزل علينـا ومـا أنـزل علـى إبراهيـم وإسمـاعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهـم لا نُفـرق بـين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيـم وإسمـاعيل وإسـحاق ويعقـوب والأسـباط وعيسـى وأيـوب ويونـس وهـارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أُمماً ﴾[٤] .

وقد ورد في تفسير هذه التسمية :

أن المقصود بالأسباط هم بنو يعقوب ، اثنا عشر رجلاً ، ولَدَ كـلُّ رجـلٍ منهـم أُمـةً من الناس ، فسموا الأسباط . والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسمـاعيل بمـا يعـني أن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل ، وما أنزل الله من الوحي علـى الأنبيـاء الموجوديـن منهم[٥] .

وقال ابن كثير أيضاً[٦] :

((... ، وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام . وقد ذهب طائفـةٌ من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبي غيره ، وباقي إخوته لم يوحَ إليهـم . وظـاهر مـا ذُكـر من فِعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول)) .

وفي سورة يوسف أدلة واضحة تؤيـد وجهـة النظر بعـدم نبـوة اخـوة يوسـف عليـه السلام .

(١) سورة البقرة ، الآية (١٤٠) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (٨٤) .

(٣) سورة النساء ، الآية (١٦٣) .

(٤) سورة الأعراف ، الآية (١٦٠) .

(٥) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٧ .

(٦) البداية والنهاية ، ج ١ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٩٨ ، ص ١٩٩ .

فقد ذكر أحد علماء القرن السادس الهجري عن اخوة يوسف عليه السلام بقوله[١]:

((عندما واقعوا ما واقعوه مع أخيهم وأبيهم لم يكونوا أنبياء وأمناء الله ورُسُله . والدليل على ذلك أن الكتاب العزيز جاء بأنهم واقعوا كبائر وصغائر ، والإجماع مُنعقدٌ على أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الكبائر .... فأما جملة ما ارتكبوه منها ففي عشرين آية ، من قوله تعالى مُخبراً عن أبيهم أنه قال ليوسف عليه السلام : ﴿ **لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً** ﴾[٢] إلى قوله تعالى مخبراً عن نفسه : ﴿ **وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** ﴾[٣] .

... ومعلوم أن الله عز وجل ما أطلق هذه الأقوال وأمثالها على أنبيائه وأصفيائه في كتابٍ ولا سُنة ، ولا أمر بإطلاقها عليهم ، ولا باعتقادها فيهم . فأما الكبائر التي فعلوها وهي لا تجوز على الأنبياء فخمسة : ظلم الأخ المسلم لاسيما أخٌ مثل يوسف ، وعقوق الأب لاسيما أبٌ مثل يعقوب عليه السلام ، والكذب في قصة الذئب المؤدي إلى فراق أخيهم من أبيهم على حداثة سِنه ... وتفجّع أبيهم على فَقْدِهِ حتى أبيضّت عيناه من الحزن . وبيعهِ بثمنٍ بخسٍ وهو مؤمنٌ حُرّ ، وأخوهم وابنُ نبيّ . ووصمة أخيهم يوسف عليه السلام بعد ثبوت نبوته حين قالوا له : ﴿ **إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل** ﴾[٤] فنبزوه بالسرقة حتى ألجئوه أن يقول لهم : ﴿ **أنتم شرٌّ مكاناً** ﴾[٥] .

أوَ هذهِ - رحمك الله - أخلاق الأنبياء عليهم السلام ؟ أوَ يسوغُ أيضاً أن يكذبَ النبيَّ عشرةُ أنبياء حتى يقول لهم أبوهم النبي بعدما جاءوه عشاءً يبكون ، وقالوا إن يوسف أكله الذئب : ﴿ **بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون** ﴾[٦] . وهذا هو فحوى التكذيب .

---

(١) علي بن أحمد السَّبتي الأموي المعروف بابن خُمَيْر : تنزيه الأنبياء عما نسبَ إليهم حُثالة الأغبياء ، تحقيق محمد رضوان الداية ، الطبعة الأولى ، دار الفكر المعاصر ، بيروت .
١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م ، ص ١٣٨ - ص ١٤٠ بتصرف .

(٢) سورة يوسف ، الآية (٥) .

(٣) سورة يوسف ، الآية (١٠٢) .

(٤) سورة يوسف ، الآية (٧٧) .

(٥) سورة يوسف ، الآية (٧٧) .

(٦) سورة يوسف ، الآية (١٨) .

... ، فإن قيل : ولعل هذه الأفعال كانت في شريعتهم غير كبائر ، قلنا : إنما وقع الإجماع على أن كبائر شريعتنا لا تجوز عليهم . والخمسة التي أخبر تعالى عنهم بها ، كبائر في شريعتنا ، وأما شرائعهم فما نعلمُ كبائرها من صغائرها ، ولا كُلِّفنا ذلك)) .

وقال أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني[1] :

((أُختلِفَ في شأن اخوة يوسف عليه السلام ، فقيل : كانوا أنبياء . ويُقال : لم يكن فيهم نبي ، إذ المراد بالأسباط قبائل بني إسرائيل ، فقد كان فيهم من الأنبياء عددٌ كثير)) .

ومن العلماء[2] من يرى : أن الآيات القرآنية السابقة ، التي ورد فيها ذِكرُ الأسباط ، تؤكد بكل صراحة وقوة أن اخوة يوسف ليسوا هم الأسباط ، فلا صلة لهم بهم ؛ لأن لفظ الأسباط في القرآن كله لا يصح أن يُطلق عليهم ، لأنه يدل صراحة على غيرهم ، وذلك من خلال الأدلة التالية التي أوردها :

أولاً : تؤكد الآية ١٦٠ من سورة الأعراف ، أن الأسباط الأمم الاثنتي عشرة ، إنما هم أمم بعدد عيون الحجر الاثنتي عشرة ، وأنهم بعد موسى عليه الصلاة والسلام ، ومن قومه . وأن الله عز وجل قطّع هؤلاء الأمم الأسباط في الأرض ، بعد أن أعلم كل أُناسٍ بمشربهم من الحجر الذي تفجر منه الماء بقدرة الله عز وجل في أواخر عهد موسى عليه السلام .

ثانياً : أن الآية ١٤٠ من سورة البقرة دلت بشكل قاطع أن " الأسباط " لم يكونوا هوداً أو نصارى ، أو أنهم كانوا اخوة يوسف عليه السلام أو أبناءهم .

ثالثاً : أن الآية ١٣٦ من سورة البقرة تؤكد أن " الأسباط " قد أُنزلت إليهم رسالات سماوية وهم من المسلمين ، ويجب على المسلمين الإيمان بهم كإيمانهم بإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام الذين أوحى الله إليهم بالنبوة والرسالة .

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، راجعه وقدم له وضبط أحاديثه وعلق عليه : طه عبد الرؤوف سعد ، مصطفى محمد الهواري ، السيد محمد عبد المعطي ، ج ١٣ ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ١٦٤ ، ص ١٦٥ .

(٢) محمد فتح الله بدران : الفلسفة الحديثة في الميزان وتأسيس القواعد من القرآن ، الطبعة الثانية ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ، ص ٥٥٢ – ص ٥٦٦ .

رابعاً : أكدت الآية الكريمة على لسان مؤمن آل فرعون في قوله تعالى :

﴿ ولقد جاءكم يوسفُ من قبلُ بالبينات فما زلتم في شكٍ مما جاءكم به حتى إذا هلكَ قلتم لن يبعث ا لله من بعده رسولاً كذلك يُضلُّ ا لله من هو مُسرفٌ مرتاب ﴾[١].

أن بني إسرائيل ، منذ عهد يعقوب عليه السلام إلى موسى عليه السلام ، لم يُرسل ا لله فيهم رسولاً غير يوسف عليه السلام ، و لم يكن لاخوته أي مكان من الرسالة والدين .

خامساً : إن مما هو معلوم في القصص القرآني ، أن يشير القرآن الكريم إلى كل واحدٍ من الرسل الكرام إن جاء اسمهُ مُصرّحاً به ، فيفصّل شيئاً من بعض مواقفه ، وما بلّغهُ لقومه ، وموقفهم من رسالته . إضافة إلى الألفاظ الدالة على الرسالة إليه ؛ كالتبليغ ، والدعوة ، والتبشير ، والإنذار ، والصبر .

وليس من هذا كله أي إشارة لإخوة يوسف عليه السلام .

سادساً : أن مما يجب على كل رسول أو نبي أن يتصف بالصدق ، والأمانة ، والتبليغ، والبُعد عن المُنفرات، واجتناب الكبائر والصغائر من الذنوب والضلالات وغيرها .

وإخوة يوسف كانوا أبعد ما يكون عن هذه الصفات الحميدة . بل لقد كان من أسباط بني إسرائيل الذين قطّعهم ا لله في الأرض اثنتي عشرة أسباطاً أُمماً بعد موسى عليه السلام من لعنه ا لله وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير ، كما أشار لذلك القرآن الكريم في مواضع مختلفة[٢] .

وهناك اتجاه آخر في الرأي يَعُدّ أبناء يعقوب الاثنى عشر في زمرة الأنبياء ، وأنهم هم الأسباط الوارد ذكرهم في الآيات القرآنية الكريمة آنفة الذكر .

يقول أحد الباحثين[٣] :

((وإذا تمشينا مع المعارضين : فمن يكون الأسباط إذا لم يكونوا أولاد يعقوب لِصُلْبه ؟ ومتى كانوا ؟ . إن الأسباط لم توجد إلا قبل عهد موسى . وكان الزمن من

---

(١) سورة غافر ، الآية (٣٤) .

(٢) انظر : سورة البقرة ، الآيتان (٦٥ ، ٦٦) .
سورة المائدة ، الآية (٦٠) .
سورة الأعراف ، الآيات (١٦٣ - ١٦٨) .

(٣) عبد الباقي أحمد سلامة : " نبوة الأسباط في الميزان " ، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، العدد الثالث ، السنة الثالثة ، الأحساء ، ١٤٠٣ هـ / ١٤٠٤ هـ ، ص ٢٣ .

موت يوسف إلى ولادة موسى ٦٤ سنة . ولم يُروَ في التاريخ ، أو في القرآن الكريم ، أو في أي كتاب آخر ، أن هناك اثني عشر نبياً كانوا يدعون إلى الله في مصر ، وتواتروا في الزمن بين يوسف وموسى ، حيث أن ذرية يعقوب لم تخرج من مصر إلا في زمن موسى . فلا يصح الزعم بأن هناك أسباطاً غير أولاد يعقوب الاثني عشر)) .

ولما كانت أهم الأسباب التي بنى المعارضون عليها الحكم بعدم نبوة أبناء يعقوب هي الأعمال التي قاموا بها ضد أخيهم يوسف عليه السلام ، وما اعتبروه عقوقاً لأبيهم ، فكيف يظلمون بنيامين ويحكمون عليه حكمهم على العشرة الباقين ، وهو لم يشاركهم في شيء مما كان ؟ ولا يُعقل أنهم أطلعوه على نياتهم ، أو استشاروه في أمرٍ يُسيء إلى يوسف وهو أحد اللذين كانا أحب أبناء يعقوب إليه . وعند ذلك يكون من الإنصاف حصر القول بعدم النبوة في الاخوة العشرة دون بنيامين ؛ لانتفاء علة الحكم عنه[1] .

ومن الأدلة التي تؤيد هذا الاتجاه ، أنه لا يُطعن في أبناء يعقوب لمجرد أنه حدّثتهم أنفسهم أن يقتلوا يوسف بسبب عارضٍ من أعراض الغيرة لم يلبث أن انتهى ، ولو أنهم كانوا أشراراً لقتلوه فعلاً ، وليس في ديننا أن من تُحدّثه نفسه باقتراف جريمة ، وتغلّبَ على نفسه ، ولكنه لم يقترفها يكون مديناً ؛ بل إنه لمن صفات المؤمنين مجاهدة النفس الأمارة بالسوء ، وأن سياق الآيات القرآنية الكريمة يشير إلى أن إخوة يوسف لم يكونوا عازمين على قتله عزماً أكيداً ، بل كانوا مترددين في القتل ، وما كان يهمهم هو إبعاده عن أبيه بطريقة ما ، إذ ليس من المعقول أن يكون شقياً من يُفكر في التوبة والصلاح عند التفكير في اقتراف الذنب ، خاصة وأن القرآن الكريم لم يذكر أن إخوة يوسف كانوا أنبياء عندما فكروا في قتل أخيهم ، فكان كل خطأ وقعوا فيه كان قبل النبوة[2] .

قال تعالى : ﴿ **لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسائلين • إذ قالوا لَيُوسفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا ونحن عُصبةٌ إنّ أبانا لفي ضلالٍ مبين • اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين • قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجُبّ يلتقطه بعضُ السيارة إن كنتم فاعلين** ﴾[3] .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٣ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣١ ، ص ٣٢ .

(٣) سورة يوسف ، الآيات (٧ - ١٠) .

وقد استحوذ الشيطان على إخوة يوسف عندما همّوا بقتله ، فهو العدو اللدود للإنسان الذي لا ينفك يأمره بالكفر والعصيان .

قال تعالى : ﴿ **إن الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين** ﴾[(١)] .

وقال تعالى : ﴿ **إن الشيطان كان للإنسان عدواً مُبيناً** ﴾[(٢)] .

وقال تعالى : ﴿ **وكان الشيطان للإنسان خذولاً** ﴾[(٣)] .

وقال تعالى : ﴿ **إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً** ﴾[(٤)] .

وقال تعالى : ﴿ **ولا يَصدّنكم الشيطان إنه لكم عدوٌ مبين** ﴾[(٥)] .

غير أن هذا الشيطان المريد لا سبيل له على عباد الله المُخْلَصِين ، كما قال تعالى : ﴿ **ولأغوينهم أجمعين • إلا عبادك منهم المُخْلَصِين** ﴾[(٦)] .

وقال تعالى : ﴿ **قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين • إلا عبادك منهم المخلَصين** ﴾[(٧)] .

وكون أبناء يعقوب بحيث يمكن أن يكون للشيطان عليهم سبيل ، قبل النبوة ، لا يمنع من كونهم صاروا بعد ذلك أنبياء ، وحتى لو كانوا أنبياء وقتئذٍ فالأنبياء على الأرجح – حسب هذا الرأي – غير معصومين من الصغائر[(٨)] .

فأولاد يعقوب الاثني عشر جميعاً صاروا أنبياء ، وتمت نعمة الله على آل يعقوب ، وليس بواجب الإيمان بأسمائهم ؛ إذ لم يذكر القرآن الكريم ولا السُّنة المطهرة أسماءهم . ويكفي المسلم الإيمان بهم إجمالاً بما ورد إجمالاً ، وتفصيلاً بما ورد تفصيلاً[(٩)] .

وإذا كان إخوة يوسف قد ماتوا في مصر ، ولم يذكر القرآن الكريم أن أهل مصر قد جاءهم نبي قبل موسى وهارون عليهما السلام بعد يوسف عليه السلام ؛ فإن هذا يكون دليلاً على نبوة الأسباط ، وهم أولاد يعقوب عليه السلام حيث لا يوجد غيرهم[(١٠)] .

---

(١) سورة يوسف ، الآية (٥) .

(٢) سورة الإسراء ، الآية (٥٣) .

(٣) سورة الفرقان ، الآية (٢٩) .

(٤) سورة فاطر ، الآية (٦) .

(٥) سورة الزخرف ، الآية (٦٢) .

(٦) سورة الحجر ، الآيتان (٣٩ ، ٤٠) .

(٧) سورة ص ، الآيتان (٨٢ ، ٨٣) .

(٨) عبد الباقي أحمد سلامة : المرجع السابق ، ص ٣٧ ، ص ٣٨ ، ص ٣٩ .

(٩) المرجع نفسه ، ص ٤٤ .

(١٠) المرجع نفسه ، ص ٣٩ .

ومما هو جدير بالذكر ، فيما يتعلق بهذا الموضوع ، أن الأصل عدم النبوة ، إذ النبوة لا تكون إلا بتكليفٍ من الله عز وجل ، وتثبت بنصٍ صريحٍ ، إما من القرآن الكريم ، أو حديثٍ شريفٍ للرسول ﷺ . والقرآن الكريم لم يُصرح بنبوة إخوة يوسف ، ولو كانوا أنبياءً لأخبَرَ القرآن الكريم عن أسمائهم ، مثلما ذكر اسم أخيهم يوسف عليه السلام . كما لا يوجد حديث نبوي صحيح يُستدَلُّ منه على أنهم أنبياء . وقد يقع المسلم في الإثم والمحظور إذا قال بنبوة إخوة يوسف ؛ ففي حال الاعتقاد بأنهم أنبياء مع كونهم ليسوا كذلك ؛ يكون المسلم قد جعل مع الأنبياء مَنْ هو ليس بنبي ، وهو ما نهى الدين الحنيف عنه[(١)] .

والرأي في هذا الموضوع ، أن " الأسباط " الذين أشارت إليهم الآيات القرآنية آنفة الذكر هم من الرسل الذين لم يقصّ الله عز وجل خبرهم للرسول محمد ﷺ ، وبذلك يجب على المؤمن أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الأسباط من رهط الرسل الكرام ، مع عدم الخوض فيما لم يُصرّح به القرآن الكريم ، لأنهم يدخلون في جُملة ما أشار إليه قوله تعالى :

﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبلُ ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ﴾[(٢)] .

وقوله تعالى : **﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم مَنْ قصصنا عليك ومنهم مَنْ لم نقصص عليك وما كان لرسولٍ أن يأتي بآيةٍ إلا بإذن الله فإذا جاء أمرُ الله قُضِيَ بالحقّ وخسِرَ هُنالك المُبطلون ﴾**[(٣)] .

أما إخوة يوسف عليه السلام ، فالراجح أنهم ليسوا في عِداد الأنبياء ؛ لأن الأنبياء معصومون عن مُقارفة الذنوب ، واجتراح السيئات ، والوقوع في الخطايا ، ومما لا يليق بمقام النبوة . وليس كل من له صلة بالأنبياء أو الرسل من جهة النسب حقيق على أن يكون مثلهم . فالقرآن الكريم أخبر عن بني إسرائيل أن منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، كما في قوله تعالى :

---

(١) صلاح عبد الفتاح الخالدي : المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٢) سورة النساء ، الآية (١٦٤) .

(٣) سورة غافر ، الآية (٧٨) .

﴿ وقطّعناهم في الأرض أُمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾[١] .

وقال تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام :

﴿ وبشّرْناه بإسحاق نبياً من الصالحين • وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما مُحسِنٌ وظالمٌ لنفسهِ مبين ﴾[٢] .

وفيما يتعلق ببني إسرائيل قبل وفودهم إلى مصر ، فقد كانوا يعيشون في أرض كنعان في كنف والدهم يعقوب عليه الصلاة والسلام . ولكونهم من القبائل التي تتصف بالبداوة، فقد كانوا كثيري التنقل والترحال من مكانٍ لآخر طلباً للماء والكلأ .

ومن أهم الأماكن التي أقاموا فيها في أرض كنعان ، ما أشارت إليه التوراة[٣] :

((ثم أتى يعقوبُ سالماً إلى مدينة شكيم التي في أرض كنعان ، حين جاء من فدان آرام . ونزل أمام المدينة . وابتاع قطعة الحقل التي نصب فيها خيمته من يد بني حمور أبي شكيم بمئة قسيطة)) .

فهذا النص يُحدد أن شكيم[٤] كانت من أقدم الأماكن التي أقاموا فيها .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية (١٦٨) .

(٢) سورة الصافات ، الآيتان (١١٢ ، ١١٣) .

(٣) سفر التكوين ٣٣ : ١٨ - ١٩ .

(٤) شكيم : بمعنى منكب أو كتف ، ونجدٍ وارتفاع . وهي مدينة كنعانية من أقدم مدن العالم . ومكانها القديم الآن هو " تل بلاطة " شرقي مدينة نابلس ، بين جبلي السامرة العاليين عيبال وجرزيم . وتبعد مدينة نابلس عن القدس ٦٩ كيلاً ، وعن عمّان ١١٤ كيلاً ، وعن البحر المتوسط ٤٢ كيلاً .

وعلى جبل جرزيم تُقام العبادات السامرية في كل يوم سبت ، ولليهود السامريين اعتقاد في هذا الجبل عظيم ، حيث يُصلّون إليه ويزورونه ، الأمر الذي زاد عددهم في هذه المدينة .

وفي حوالي عام ٦٧ م دمرها على ما يبدو الامبراطور الروماني فسباسيان Vaspasian ، وبعد سنة ٧٠ م نُقلت حجارتها إلى المكان الحالي ، وبُنيت من جديد وسميت " نيابوليس " بمعنى المدينة الجديدة ، ومنها لفظ نابلس الحالي ، التي تكثر فيها الينابيع المائية .

وفي شرقي مدينة نابلس ، في طرف مخيم بلاطة الحالي ، يوجد مكان مقدس عند اليهود يُقال أنه المكان الذي حزن فيه يعقوب على ولده يوسف ، ويسمى " جامع حزن يعقوب " و" جامع الأنبياء " . انظر :

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٤٨ - ص ٢٤٩ وكذا

محمد سلامة النحال : جغرافية فلسطين ، الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٦ م ، ص ١٤٥ - ص ١٤٦ وكذا

عبد الحكيم خير الدين ذا النون : المرجع السابق ، ص ١٣٥ وكذا

محمد محمد شرّاب : معجم بلدان فلسطين ، الطبعة الأولى ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٦٩٧ - ص ٦٩٩ وكذا

Cook , S . A . , " The Rise of Israel " , CAH , Vol . II , london , 1940 , P . 352 ;
Kapelrud , A . S . , Op . Cit . , P . P . 27 , 30 .

ومن بين المناطق التي استقروا فيها أيضاً في أرض كنعان اقليم أفْرايم[١] الجبلي الذي كان يخلو – تقريباً – من السكان[٢] .

كما أقاموا أيضاً في منطقة جنوب فلسطين ، وخاصة في بئر السبع[٣] والمنطقة المحيطة بها[٤] .

---

(١) اقليم أفْرايم : يُقصد بها مدينة " بيت لحم " ، ويُذكر أن اسمها الأصلي " أفرات " أو " أفرأته " بمعنى " المُثمرة ". ثم دُعيت بإسمها الحالي " بيت لحم " نسبة إلى الإله " لخمو " الكنعاني ، إلـه القـوت والطعـام عنـد الكنعـانيين . وهي بالسريانية بمعنى بيت الخبز . وفي الآرامية لخم أو لحم معناها الخبز أيضاً . وعند العرب معناها اللحم . وسكن الكنعانيون المدينة سنة ٢٠٠٠ ق.م ، وتوالت عليها الأحداث ، وكانت في العصور القديمة قرية متواضعة تكتنفها الأودية العميقة من جهاتها الثلاث .
وتقوم المدينة على جبل ، يرتفع عن مستوى سطح البحر حوالي ٧٨٠ متراً . وتبعد عن القدس ١٠ أكيال ، جنوبي مدينة القدس ، وتبعد عن الخليل ٢٧ كيلاً .
واستمدت المدينة شهرتها العالمية من مولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فيها ، فهي مكان مهده ، وبها المغارة التي يزعم النصارى أنه وُلد بها ، حيث أقاموا فوقها كنيسة المهد في حوالي سنة ٣٣٠ م بأمر من الملكة هيلانة أُمّ قسطنطين الكبير .
وفي المدينة أيضاً أماكن أثرية هامة ، منها :
قبر راحيل أُمّ يوسف عليه السلام ، وقبري داود وسليمان عليهما السلام ، والبرك المعروفة بـ" برك سليمان " التي بُنيت ليُجمع فيها الماء في قناة إلى القدس .
وحسب ما ورد في سفر يشوع ١٩ : ٥٠ فإن اقليم أفرايم الذي يشمل أيضاً القسم الأوسط من فلسطين الغربية قد عُيِّنت نصيباً لسبط أفرايم . انظر :
ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٢١ – ص ٥٢٢ وكذا
محمد عبد المنعم الحميري : المصدر السابق ، ص ١٢٣ وكذا
محمد سلامة النحال : المرجع السابق ، ص ١٥٦ – ص ١٥٨ وكذا
بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٩١ وكذا
محمد محمد شرّاب : المرجع السابق ، ص ١٩٩ – ص ٢٠٢ .

(٢) سليم حسن : مصر القديمة ، ج ٦ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٩ م ، ص ٥٨٥ ، ص ٥٨٦ .

(٣) بئر السبع : تقع في النقب الشمالي ، وتكاد تكون في منتصف المسافة بين البحر الميت شرقاً ، والبحر المتوسط غرباً ، فتبعد ٧٥ كيلاً غربي البحر الميت ، و ٨٥ كيلاً شرقي البحر المتوسط . وهي تقع على مسافة ٥٠ كيلاً شرقي غزة ، وحوالي ٥٠ كيلاً أيضاً عن الخليل .
كان الكنعانيون أول من سكن المنطقة . وفي سبب تسميتها بهذا الاسم أقوال ، منها :
أنها دعيت بذلك بسبب عطاء إبراهيم عليه السلام سبع نعاج لأبيمالك زعيم المنطقة في زمانه ، شهادة على حفره لذلك البئر ، حسب ما أشار لذلك سفر التكوين ٢١ : ٣١ ؛ ٢٦ : ٣٣ .
وقيل : أنها سُميت بذلك لوجود سبعة آبار قديمة بها .
وفي خرائب المدينة عدة آبار قديمة العهد جداً ، عُمق البعض منها حوالي خمسين قدماً ، وبالقرب من هذه الآبار أحواض كبيرة من الحجارة كانت تُملأ لسقي الأنعام ، مما يدل على أن الهضاب المجاورة للمدينة كانت مراعٍ خصبة . انظر :
ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٥ وكذا
محمد سلامة النحال : المرجع السابق ، ص ١٣٢ وكذا
بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٥٠ – ص ١٥١ وكذا
محمد محمد شرّاب : المرجع السابق ، ص ٢١٠ – ص ٢١١ .

(٤) صلاح عبد الفتاح الخالدي : المرجع السابق ، ص ٦٠ .

وذهب بعض المؤرخين[١] إلى أن بني إسرائيل أقاموا في منطقة العربات[٢] من أرض فلسطين .

ويبدو واضحاً أنهم كانوا كثيري الترحال والتنقل من منطقة إلى أخرى ، طلباً للماء والكلأ ، فاتصفوا – كغيرهم من القبائل البدوية – بعدم الاستقرار في منطقة واحدة ، والتجول في بقاعٍ مختلفة ؛ فطوراً في غرب الأردن ، وطوراً آخر في شرقه ، وطوراً بالقرب من حدود مصر الشمالية الشرقية ، حتى أنهم استقروا في مصر ذاتها في عهد يوسف ويعقوب عليهما السلام[٣] .

ويتجه الرأي إلى أن الأحوال المناخية ، والظروف الاقتصادية ، كان لها دورٌ كبير في حياة بني إسرائيل من حيث حلهم أو ترحالهم في أماكن مختلفة ، فمتى توفرت سُبُل العيش والحياة لهم ولأنعامهم فإنهم يمكثون هناك ، وإذا أجدبت الأرض وحلّ الجفاف ولّوا وجوههم شطر مناطق الخِصْب حيث النماء ورغد العيش .

ويشاء الله سبحانه وتعالى أن يُهيء الأسباب لبني إسرائيل من أجل أن يدخلوا مصر آمنين ، بدءاً بيوسف عليه السلام ، وما رافق ذلك من أحداث تاريخية ثابتة وردت في كتاب الله الكريم في سورة يوسف ، إلى أن تمَّ مجيئهم أجمعين واستقروا في مصر بتدبير إلهي مُعجز .

---

(١) محمد بن جرير الطبري : تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج ١ ، الطبعة الثالثة ، دار سويدان ، بيروت ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ، ص ٣٥٠ وكذا ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢١٨ .

(٢) العربات : يُقصد بذلك " وادي عربة " ، وهو يمتد من طرف البحر الميت إلى خليج العقبة جنوباً ، ويبلغ طول هذا الوادي ١٧٠ كيلاً ، وعرضه بين ٨ – ٢٥ كيلاً . وهو جزء من غور وادي الأردن ، ينخفض قسم كبير منه دون مستوى سطح البحر ، ويُعدّ الحد الفاصل بين فلسطين والأردن . وهو اقليم صحراوي تقطعه بعض الأودية من الشرق ومن الغرب مثل : وادي المرة ، ووادي جرافي ، ووادي الحياني ، ووادي الفدان .
وقد أشارت التوراة إلى هذا الوادي في سفر التثنية ١ : ١ ؛ ٢ : ٨ ، وسفر يشوع ١١ : ٢ ؛ ١٢ : ٣ ، وغير ذلك من الأسفار . انظر :
محمد سلامة النحال : المرجع السابق ، ص ٤٨ وكذا
محمد محمد شرّاب : المرجع السابق ، ص ٥٢٩ .

(٣) فؤاد حسنين علي : فلسطين العربية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ص ١٠ وكذا تيودور . هـ. روبنسن : المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

وتجدر الإشارة إلى أن قصة يوسف عليه السلام وردت في التوراة[١] أيضاً ، ونتيجة للتحريف الذي دخل عليها ، جاءت القصة مختلفة كثيراً عما ورد في القرآن الكريم ، ويتنافى كثير من الأحداث فيها عما جاء في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

لذلك سأعتمد على الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع ، مع الإشارة أحياناً إلى ما ورد في نصوص التوراة كلما اقتضت الضرورة ذلك .

قال تعالى :

﴿ إذ قال يوسفُ لأبيه يا أبتِ إني رأيت أحدَ عشرَ كوكباً والشمس والقمر رأيتُهم لي ساجدين • قال يا بُنيّ لا تَقصُص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدوٌ مُبين • وكذلك يجتبيك ربُّكَ ويُعلمُكَ من تأويل الأحاديث ويُتمُّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربَّك عليمٌ حكيم ﴾[٢] .

ومن خلال هذه الرؤيا استبشر يعقوب عليه السلام الخير لابنه في مستقبل حياته ، وحُسْن عاقبةٍ في آخرته . فأمرَ يوسفَ بكتمانها عن إخوته للأسباب التي أشارت إليها الآيات القرآنية الكريمة ، فالتزم الابن لأمر أبيه كما يدل على ذلك السياق القرآني .

أما رواية التوراة ((فقال إني قد حَلُمْتُ حُلْماً وإذا الشمس والقمر وأحدَ عشر كوكباً ساجدة لي . وقصّهُ على أبيه وعلى إخوته . فانتهرهُ أبوه وقال له ما هذا الحُلْم الذي حَلُمْت . هل نأتي أنا وأُمك وإخوتُك لنسجد لك إلى الأرض . فحسده إخوته . وأما أبوه فحفظ الأمر))[٣] .

وهذا النص التوراتي ظاهر التحريف ، ولا يعتقد المسلم بصحتهِ ؛ لمخالفته صريح القرآن الكريم في امتثال يوسف عليه السلام لأمر أبيه .

---

(١) انظر : سفر التكوين ٣٧ : ٢ – ٣٦ ؛ ٣٩ : ١ – ٢٣ ؛ ٤٠ : ١ – ٢٣ ، الاصحاح ٤١ – الاصحاح ٥٠ .

(٢) سورة يوسف ، الآيات (٤ – ٦) .

(٣) سفر التكوين ٣٧ : ٩ – ١١ .

وبدأ يعقوب عليه السلام يهتمُّ لأمر يوسف ، ويُظهر عنايته به ، الأمر الذي أدى إلى احتيال الشيطان لاخوة يوسف ، ونزْغهِ بينهم على كراهيته ، بل ومحاولة قتله والتخلص منه .

قال تعالى : ﴿ **لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسائلين • إذ قالوا لَيُوسف وأخوه أحَبُّ إلى أبينا منا ونحن عُصبة إنّ أبانا لفي ضلالٍ مبين • اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين • قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجُبّ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين • قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون • أرسِلْهُ معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون • قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون • قالوا لئن أكلهُ الذئب ونحن عُصبةٌ إنا إذاً لخاسرون** ﴾(١) .

ويظهر من خلال السياق القرآني ، أن يعقوب عليه السلام قد أرسل يوسف مع إخوته في اليوم التالي ، وهو يتوجس في نفسه الخوف عليه منهم بعد أن دخل في نفوسهم الحقد والحسد والكراهية ليوسف ، وهو ما تحقق بالفعل ؛ إذ أنهم ما إن ذهبوا به حتى بدأوا في تنفيذ ما أجمعوا عليه ، كما أخبر سبحانه وتعالى في قوله عز وجل : ﴿ **فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجبّ وأوحينا إليه لَتُنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون • وجاءوا أباهم عشاءً يبكون • قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين • وجاءوا على قميصه بدمٍ كذب قال بل سولت لكم أنفُسُكم أمراً فصبرٌ جميل وا لله المستعان على ما تصفون** ﴾(٢) .

وساق ا لله عز وجل ليوسف عليه السلام مَن يُخرجه من ظُلْمةِ البئر ، فجاءت قافلة تجارية ونزلوا قريباً من تلك البئر ، كما قال تعالى : ﴿ **وجاءت سيارةٌ فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بُشرى هذا غلامٌ وأسرّوه بضاعة وا لله عليم بما يعملون • وشروه بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين** ﴾(٣) .

(١) سورة يوسف ، الآيات (٧ - ١٤) .

(٢) سورة يوسف ، الآيات (١٥ - ١٨) .

(٣) سورة يوسف ، الآيتان (١٩ - ٢٠) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ **وأسرّوه بضاعة** ﴾ ذكر ابن كثير[١] قولان :

القول الأول : أي أسرَّهُ الواردون من بقية السيارة ، وقالوا اشتريناه وتبضّعناه من أصحاب الماء ، مخافة أن يُشاركوهم فيه إذا علموا خبره .

القول الثاني : أن الذي أسرّه بضاعة هم إخوة يوسف ، فهم الذين أسرّوا شأنه ، وكتموا أن يكون أخاهم ، وكتم يوسفُ شأنه مخافة أن يقتله إخوته ، واختار البيع ، فذكره إخوته لوارد القوم ، فنادى أصحابه ((يا بُشرى هذا غلام)) يُباع فباعه إخوته .

وكان الله عز وجل قادر على تغيير ذلك ودفعه ، ولكن لله حكمة وقدرٌ سابق ، فترك ذلك ليمضي ما قدّره وقضاه .

وحُمِلَ يوسف عليه السلام في تلك القافلة المتجهة إلى مصر ، وتم بيعُه فيها حسب ما أوجز القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى : ﴿ **وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنُعلمه من تأويل الأحاديث والله غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[٢] .

وهذا هو منهج القرآن الكريم في بيان الأحداث ، إذ أنه كتابٌ فيه هداية وأرشاد ، وليس كتاباً تاريخياً يُعنى بالأحداث التاريخية المرتبطة بالبشر .

أما الروايات التوراتية ، فيما يتعلق بهذا الموضوع ، فيعتريها الإضطراب والتباين ، فقد جاء في نص التوراة[٣] : ((وأما المديانيون فباعوه في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط)) .

وفي نص آخر[٤] : ((وأما يوسف فأُنزل إلى مصر واشتراه فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط رجلٌ مصري من يد الإسماعيليين الذين أنزلوه إلى هناك)) .

فالنص الأول يذكر أن الذين باعوا يوسف عليه السلام هم المديانيون . وفي النص الثاني أنهم الإسماعيليون ، وإن اتفق النصان في أن الذي اشتراه هو " فوطيفار " .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

(٢) سورة يوسف ، الآية (٢١) .

(٣) سفر التكوين ٣٧ : ٣٦ .

(٤) سفر التكوين ٣٩ : ١ .

ووفقاً لرواية التوراة[١] فقد كان عُمْر يوسف عند بيعه سبع عشرة سنة .

فأيهما قام ببيعه المديانيون أم الإسماعيليون ؟

وللإجابة على ذلك ، تنبغي الإشارة إلى أن التسمية " الإسماعيليون " أطلقت على نسل إسماعيل من أمَةِ والده هاجر المصرية ، فقد أشارت التوراة[٢] أنه كان لإسماعيل اثنا عشر ابناً صاروا أمراء ورؤساء قبائل . وقد كانت هذه القبائل تسكن الجزء الشمالي من شبه الجزيرة العربية على حدود فلسطين ، وبلاد ما بين النهرين ، وكان الإسماعيليون تجاراً رحّلاً ينتقلون من مكان لآخر .

أما المديانيون ، فوفقاً لرواية التوراة[٣] أيضاً فقد كانوا ينتسبون إلى مديان أحد أبناء إبراهيم عليه السلام من زوجته قطوره .

ويرى البعض[٤] ، أن التجار الذين باعوا يوسف عليه السلام ، كانوا خليطاً من الإسماعيليين والمديانيين ، وأن رواية سفر التكوين التي سبقت الإشارة إليها ، تدل على جماعة واحدة أطلق عليها الإسمان حسب ما كان معهوداً في تلك الفترة السياسية .

ويرى بعض المؤرخين[٥] أن الإسماعيليين أقارب للمديانيين ، بناء على ما ورد في التوراة[٦] أيضاً ، إذ كان اليهود يُطلقون على كلٍ من القبيلتين اسم الآخر ، لأنه لم يكن هناك ما يميز إحداهما عن الأخرى ، فضلاً عن أنهم كانوا يقيمون في منطقة بلاد الحجاز الممتدة إلى طريق القوافل المار بسيناء إلى مصر .

---

(١) سفر التكوين ٣٧ : ٢ .

(٢) سفر التكوين ١٧ : ٢٠ ؛ ٢٥ : ١٢ - ١٨ ؛ ٣٧ : ٢٥ - ٢٨ .

(٣) سفر التكوين ٢٥ : ٢ ، ٤ .

(٤) بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٧٥ وكذا
وليم مارش : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٧ ، ص ٢٢٨ .

(٥) جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٢٢٤ وكذا
إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ، القاهرة ، ١٩٢٧ م ، ص ٧٦ وكذا
جواد علي : المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، دار العلم للملايين ، ومكتبة النهضة ، بيروت وبغداد ، ١٩٧٦ م ، ص ٤٣٥ ، ص ٤٣٦ ، ص ٤٥٦ .

(٦) سفر التكوين ٣٧ : ٢٨ وكذا
سفر القضاة ٦ : ٣٣ ؛ ٨ : ٢٢ - ٢٥ .

ويقول ألويس موسل Alois Musil[1] :

((يبدو أن فروع مدين ربمـا كـانت قـد اختلطـت بفـروع إسمـاعيل ، وأنهـم كـانوا يسكنون بجوارهم إلى الشرق من مؤاب وعمون . ولا نعلم من أين أتت فروع مدين هذه، ولكن يجب أن نفترض أنهم هاجروا من أرض مدين ، سالكين طريق القوافل الرئيس الـذي يأتي من الجنوب إلى الشمال . وقد كـانوا يؤجـرون رواحلهـم للتجـار مـن جنـوب بـلاد العرب الذين كانوا يستأجرون الرواحل كذلك من بني إسماعيل ، وهم الجيران الشماليون . ومن ثم فقد ظهر اسم مدين في مجرى الأحداث في هذه المنطقة[2] ، وأصبح معروفـاً معرفـةً عامة)) .

وقد تمت المبادلة اللفظية ، بين تسـمية الإسمـاعيليين وبـين تسـمية المديـانيين في قصـة يوسف عليه السلام ، على أنهما تسميتان مترادفتان لشعبٍ واحد ، فضـلاً علـى مـا لصلـة كلٍّ منهما بالعرب الشماليين بخاصة . وكان أولئك التجار فيمـا يبـدو فريقـاً مـن وسـطاء التجارة التي تتجمع سلعها في مـدن فلسـطين ، فـيرحلون ببعضهـا علـى دوابهـم إلى حيـث يبيعونها في أسواق الدول الكبيرة[3] .

ويذهب إرنست أكسل كناوف Ernst A . Knauf[4] إلى القول :

((بغضِّ النظر عن أيهما باعه ، فإن هـذا النـص مركـب مـن مصـدر أو مصدريـن ، فالمديانيين والإسماعيليين كانتا قبيلتين مختلفتين ، وكلاهما مارس التجارة بـين شمـالي منطقـة شرق الأردن ومصر . وكان ظهورهم في وسط فلسطين أمر واضح وجلـيّ ، وليـس أمـراً غير عادي . فإذا كان النص مركـب من مصدرين فمعنـى ذلـك أن إحـدى القبيلتـين ربمـا

---

(١) شمال بلاد العرب ، الجزء الأول – شمال الحجاز ، ترجمة عبد المحسن الحسيني ، مطابع رمسيس ، الاسكندرية ، ١٩٥٢ م ، ص ٨٠ – ص ٨١ .

(٢) أي منطقة شرق وشمال شرق البحر الميت ، كما يذكر المؤلف نفسه ص ٨٠ .

(٣) عبد العزيز صالح : " شبه الجزيرة العربية في المصادر المصرية القديمة " ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس عشر ، العدد الأول ، وزارة الاعلام ، الكويت ، ١٩٨٤ م ، ص ٣٠٣ .

(٤) Knauf , E . A . , " Midianites and Ishmaelites " , in Midian , Moab and Edom , The History and Archaeology of Late Bronze and Iron Age Jordan and North - West Arabia , Edited by Sawyer , J . F . A . , and Clines , D . J . A . , JSOT Press , Sheffield , 1983 , P . 147

ولمزيد من المعلومات حول الإسماعيليين والمديانيين ومدى العلاقة بينهما ، انظر :

Nadvi, S . M . , AGeographical History of the Qura'n , vol . 1 , Pakistan , Lahore , 1974 , PP . 36 - 37 ;

Knauf , E . A . , Op . Cit . , PP 147 - 152 .

نحت في هذه المنطقة أكثر من الأخرى . وإذا كان النص مأخوذ من مصدر واحد فقط ، فإن ذلك يعني أن كلا القبيلتين كانتا مُعاصرتين زمنياً بعضهما البعض .

ومع ذلك ، فقد ورد في سفر القضاة ٨ : ٢٤ أن المديانيين قالوا : أنهم سوف يكونون إسماعيليين أيضاً ، لأنهم كانوا يلبسون أقراط ذهب في أنوفهم .

وهكذا يبدو واضحاً أن النصين يُناقض كلٌّ منهما الآخر)) .

ويتجه رأي الباحث إلى أن الذين قاموا ببيع يوسف عليه السلام في مصر كانوا من التجار الذين ينتمون إلى إحدى القبيلتين ، إما من المدينيين أو من الإسماعيليين . ونتيجة للتحريف الذي شاب نصوص التوراة على أيدي كتبة الأسفار ، جاء الاضطراب والإختلاف في النصوص . ولعل كاتب سفر التكوين ، آنف الذكر ، ذكر مرة أن الذين قاموا ببيعه هم المدينيون ، وفي مرة أخرى ذكر أنهم الإسماعيليون ، لمعرفته بمدى صلة القرابة بين القبيلتين، فكأنه اعتبر الإسمين لهما دلالة واحدة .

ومن الممكن أن تكون القافلة التجارية تابعة للمدينيين ، وكانت تضم بينها تجاراً من الإسماعيليين ، أو العكس ، وبالتالي ذكر كاتب السفر هؤلاء مرة ، وهؤلاء مرة أخرى ، والله أعلم .

ومن الأهمية بمكان ، الإشارة إلى أن سياق الآيات القرآنية في سورة يوسف ، وكذلك نصوص التوراة آنفة الذكر ، تشير إلى وجود تجارة الرقيق وانتشارها في مصر ، في الفترة الزمنية المعاصرة ليوسف عليه السلام . ويؤيد ذلك نصوص تاريخية مصرية قديمة أشارت إلى ذلك منذ زمن سابق لعهد يوسف عليه السلام ، وخاصة من العبيد والرقيق الآسيويين .

ومن هذه النصوص ما أشار إليه جون ولسون(١) John Wilson بقوله :

((ورد في بردية(٢) تعود إلى عصر الأسرة الثالثة عشرة (أواسط القرن الثامن عشر قبل الميلاد) شواهد على وجود عدد كبير من الخدم الآسيويين الذين كانوا يعملون في أحد البيوت المصرية .

---

(١) Wilson , J. A. , " Egyptian Historical Texts - Asiatics in Egyptian Household Service " , ANET , P. 553 .

(٢) يذكر جون ولسون في نفس الصفحة السابقة أن هذه البردية يعود تاريخها إلى نهاية الدولة الوسطى في مصر ، ومحفوظة في متحف بروكلين في نيويورك ، وقد نشرها كل من :

Hayes , W . C . , Apapyrus of the Late Middle Kingdom in the Brooklyn Museum [Papyrus Brooklyn 35 . 1446] (Brooklyn Museum , 1955) ;

Albright , W . F . , JAOS , LXXIV (1955) , 222 - 233 ;

Posner , G . , Syria , XXXIV (1957) , 145 - 163 .

ولا يمكن أن يكونوا قد جُلِبوا كأسرى حرب آسيويين ، حيث أن قصة يوسف[١] تؤيد ذلك الوضع كتجارة ؛ حيث حُملوا كتجارة من قِبَلِ الآسيويين أنفسهم . ويُقدّم النص ذِكْر أكثر من أربعين إسماً من الخدم الآسيويين من أصل أكثر من ثمانين إسماً كخدم في منزلٍ مصري ، وبينهم عدد كبير من النساء فضلاً عن الرجال)) .

وعلى أي حال ، فقد قيض الله عز وجل ليوسف عليه السلام مَن يشتريه من عِلية القوم من أهل مصر وهو العزيز ، الذي ربما كان وزيراً للملك ، أو رئيس الشُّرَط كما في نص التوارة السابق . فاعتنى به وأكرمه ، وتوسم فيه الخير والصلاح ، وأوصى أهله به .

وظل يوسف عليه السلام في بيت سيده فوطيفار يقوم على خدمته ، حتى إذا بلغ أَشُدَّهُ[٢] ، امتن الله عز وجل عليه واصطفاه لرسالته ، كما قال تعالى :

﴿ ولما بلغ أَشُدَّهُ آتيناه حُكماً وعِلماً وكذلك نَجزي المحسنين ﴾[٣] .

قال ابن كثير[٤] عند تفسيره لهذه الآية الكريمة :

((لما بلغ يوسف عليه السلام أشُدَّهُ ، أي استكمل عقله ، وتم خُلُقه ، آتاه الله عز وجل حُكماً وعلماً ، أي النبوة ، فحباه بها بين أولئك الأقوام ، بعد أن كان يوسف عليه السلام مُحسناً في عمله ، وعاملاً بطاعة ربه سبحانه وتعالى)) .

ولحكمةٍ أرادها الله عز وجل ، تعرض يوسف عليه السلام للإبتلاء والاختبار ، كما أخبر سبحانه وتعالى في سورة يوسف[٥] ، حيث راودته امرأة العزيز عن نفسه ، فعصَمَهُ الله عز وجل من ذلك ، إلى أن انتهى الأمر بإدخاله السجن ، كما قال تعالى :

﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات لَيَسْجُنُنَّهُ حتى حين ﴾[٦] .

---

(١) يشير جون ولسون إلى سفر التكوين ٣٧ : ٢٨ ، ٣٦ .

(٢) أُختلِفَ في مقدار المدة التي بلغ فيها يوسف عليه السلام أشده ، فقيل : ثلاث وثلاثون سنة ، وقيل : بضع وثلاثون سنة ، وقيل : أربعون سنة ، والله أعلم . انظر :
ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ .

(٣) سورة يوسف ، الآية (٢٢) .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ .

(٥) انظر الآيات (٢٣ - ٣٥) .

(٦) سورة يوسف ، الآية (٣٥) .

وقد ورد في الأدب المصري القديم[١] ، قصة فيها ملامح وأوجه شبه عديدة من قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز ، أُشتهرت باسم " قصة الأخوين " ، أشارت أحداثها إلى أنه كان هناك أخَوَان ، الأكبر يسمى " أنوبيس " والأصغر يسمى " باتا " ، حيث قامت زوجة الأخ الأكبر بمراودة شقيق زوجها عن نفسه ، فامتنع أشد الامتناع ، وفرّ من البيت إلى الحقل . وعند عودة زوجها أخبرته بإهانة أخيه لها ، حتى تملّكه الغضب ، وعزم على قتل أخيه . فلما أحس الأخ الأصغر بالخطر فرّ من مصر وتوجه إلى وادي الأرز[٢] ، حيث عاش هناك فترة طويلة ، عاد بعدها إلى مصر ، وتولى - كما تشير القصة - الحكم في مصر ، وبعد وفاته خَلَفَهُ أخوه الأكبر في الحكم .

وقد وردت أحداث هذه القصة في بردية تُعرف ببردية دوربيني D'orbiney[٣] .

ولبث يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين ، ظل خلالها يقوم بواجب الدعوة إلى توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبودية ، كما أشارت لذلك الآيات الكريمة في سورة يوسف[٤] .

---

(١) انظر :

أحمد فخري وآخرون : تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني ، المجلد الأول - الأدب المصري القديم ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ م ، ص ٤٠٩ - ص ٤١٢ وكذا

عبد الحميد زايد : " الرمز والأسطورة الفرعونية " ، مجلة عالم الفكر ، المجلد السادس عشر ، العدد الثالث ، وزارة الإعلام ، الكويت ، ١٩٨٥ م ، ص ٥٣ - ص ٦٠ وكذا

أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ، ترجمه وراجعه عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٣ م ، ص ٤١٩ - ٤٢١ وكذا

جيمس هنري برستد : تطور الفكر والدين في مصر القديمة ، ترجمة زكي سوس ، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٦١ م ، ص ٤٨٠ - ص ٤٨٢ وكذا

Wilson , J . A . , " Egyptian Myths , Tales , and Mortuary Texts - The Story of two brothers " , ANET . PP . 23 - 25 .

(٢) وادي الأرز : يظهر أن هذا الوادي في ، أو بجوار فينيقية (لبنان) كما جاء ذلك في النصوص الشهيرة لمعركة قادش التي وقعت في عهد رعمسيس الثاني على نهر الأورنتو (نهر العاصي) . انظر :

عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٥٥ هامش ٨٧ وكذا

Wilson , J . A . , Op . Cit . . P . 25 note 7 .

(٣) بردية دوربيني D'orbiney محفوظة في المتحف البريطاني ورقمها ١٠١٨٣ ، وقد نشرها عدد من العلماء أشار إليهم جون ولسون في مقالته عن قصة الأخوين . وهذه القصة يرجع تاريخها إلى حوالي سنة ١٢٢٥ ق.م في عصر الأسرة التاسعة عشرة . انظر :

Wilson , J . A . , Op . Cit . P . 23 .

(٤) انظر الآيات (٣٦ - ٤٠) .

وقد هيأ الله عز وجل الأسباب ، من أجل أن يَخرج يوسف عليه السلام من السجن، فقد رأى الملك رؤيا[١] هالَتْهُ وأرعبته ، فلما حدّث بها بطانته ، وعجزوا عن تفسيرها ، أرسلَ الملكُ إلى يوسف – بعد أن علم مِن الذي نجا من السجن وكان مع يوسف أنه عليم – يطلبُ منه تأويل رؤياه ، فلما عَبَّرَ يوسف عليه السلام تلك الرؤيا ، أمر بإحضاره من السجن لمقابلته ، إلا أنه امتنع عن ذلك ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وقال الملك إئتوني به فلما جاءَهُ الرسول قال ارْجعْ إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديَهُنّ إنّ ربّي بكيدهن عليم ﴾[٢] .

فأراد يوسف عليه السلام قبل خروجه من السجن إشهار براءتِهِ ، وعفته ، وطهارته ، مما أُتّهِمَ به ظُلماً وعدواناً . وفي هذا ، ورد في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

((... ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأَجَبْتُهُ))[٣] .

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ :

((عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه – والله يغفِرُ له – حيث أُرسِلَ إليه ليُستَفْتَى في الرؤيا ، ولو كنت أنا لم أفعل حتى أخرج ، وعجبت لصبره وكرمه – والله يغفر له – أُتي ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بِعُذْره ، ولو كنت أنا لبادرت الباب))[٤] .

وأيضاً قال رسول الله ﷺ :

((لو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم جاء الداعي لأجبتُه ، إذ جاءه الرسول فقال : **﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ﴾** ، ورحمة الله على لوط إن كان ليأوي إلى رُكنٍ شديد ، إذ قال لقومه : **﴿ لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركنٍ شديد ﴾** ، وما بعث الله من بعدهِ من نبيٍّ إلا في ثروةٍ من قومه))[٥] .

---

(١) انظر : سورة يوسف ، الآيات (٤٣ – ٤٩) .

(٢) سورة يوسف ، الآية (٥٠) .

(٣) ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ١٦٦ ، حديث رقم ٣٣٨٧ .

(٤) محمد ناصر الدين الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، المجلد الرابع ، الطبعة الثانية ، المكتبة الإسلامية ، عمان ، الدار السلفية ، الكويت ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ٥٨٩ ، حديث رقم ١٩٤٥ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٤٨٢ – ص ٤٨٣ ، حديث رقم ١٨٦٧ .

وبعد أن تحقق للملك براءة يوسف عليه السلام ، ونزاهة عِرْضه مما نُسب إليه زوراً وبهتاناً ، قال الملك – كما أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم – : ﴿ **ائتوني به استخلصه لنفسي** ﴾[١] .

أي أجعلهُ من خاصتي وأهل مشورتي : فلما خاطبه الملك ، وعرفه ، ورأى فضله وبراعته وعَلِمَ ما هو عليه من خَلْقٍ وخُلُق وكمال ، قال له الملك : ﴿ **إنك اليومَ لدينا مكين أمين** ﴾[٢] فصار ليوسف عندهم مكانة وأمانة[٣] .

وفي قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام :

﴿ **قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليم** ﴾[٤] ، دلالة على أن يوسف عليه السلام مدح نفسه في هذه الآية ، ويجوز للرجل ذلك إذا جُهِلَ أمره للحاجة ، فذكر أنه ﴿ **حفيظٌ** ﴾ أي خازن أمين ، و ﴿ **عليم** ﴾ أي ذو علمٍ وبصيرة بما يتولاه . فسأل العمل لعلمه بقدرته عليه ، ولما فيه من المصالح للناس . لذلك سأل الملكَ أن يجعله على خزائن الأرض التي يُجمعُ فيه الغلات ، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها ، فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد ، فأُجيبَ إلى ذلك رغبةً فيه وتكرمه له[٥] .

وهذه المكانة التي تبوأها يوسف عليه السلام يمكن تسميتها بوزير الخزانة ، أو وزير المالية في مصر آنذاك ، حيث دبّرَ الإقتصاد المصري أحسن تدبير ، وأنقذه من كوارث محققة[٦] . فصار يوسف عليه السلام في نظر المصريين سيداً ذا منصب مهم يتولى شؤون البلاد بعد الملك[٧] .

---

(١) سورة يوسف ، الآية (٥٤) .
(٢) سورة يوسف ، الآية (٥٤) .
(٣) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨٢ .
(٤) سورة يوسف ، الآية (٥٥) .
(٥) ابن كثير : المصدر السابق ، نفس الصفحة .
(٦) صابر عبد الرحمن طعيمة : اليهود بين الدين والتاريخ ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ م ، ص ٨٨ وكذا
محمد الطيب النجار : تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ، الطبعة الثانية ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ١٤٣ .
(٧) محمد أحمد محمود حسن : مصر والعرب وإسرائيل في الكتب المقدسة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ م ، ص ٨ .

والواقع ، أن المصريين قد أخذوا بمشورة يوسف عليه السلام ، حيث قاموا بادخار ما حصدوه من الحبوب ، وأبقوه في سُنبله ، وجعلوه في المخازن لكي يتصرفوا بذلك في السنين العجاف التي أنبأهم بها .

ويشاء الله سبحانه وتعالى أن يعم القحط والجدب في أرض كنعان ، والمناطق المجاورة ، حتى أصاب الناس الفاقة ، وحلت بهم الحاجة والمجاعة . وترامت إلى أسماعهم الأخبار بما كانت عليه خزائن مصر من الخير .

يقول صابر عبد الرحمن طعيمة(١) :

((لذلك بدأت هجرات متعددة ، لعناصر بشرية ، مختلفة الأجناس والأقوام ، تهاجر من قلب صحراء آسيا ، في حالة طرد بشري من جدب الصحراء إلى حيث توجد الأنهار والمياه ، وحيث تستقر الشعوب ، خاصة في مصر ، بعد أن استطاع حكام مصر تدبير شؤونهم الإقتصادية ، وعدم تعرضهم لأخطار المجاعة التي سادت المنطقة)) .

ومن بين أولئك القادمين إلى مصر ، أبناء يعقوب عليه السلام ، الذين جاءوا ابتغاء حصولهم على ما يكفيهم من المئونة . وهو ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له مُنكرون ﴾(٢) .

((فلما دخلوا على يوسف عليه السلام ، وهو جالسٌ في أُبّهتهِ ورياسته ، وسيادته ، عرفهم حين نظر إليهم ، وهم لا يعرفونه ؛ لأنهم فارقوه وهو صغيرٌ حَدَث ، وباعوه للسيارة و لم يدروا أين ذهبوا به ، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه ، فلهذا لم يعرفوه ، وأما هو فعرفهم))(٣) .

فأوفى يوسف عليه السلام لهم الكيل ، وحمّلهم ما يحتاجون إليه ، بل ورغّبهم في العودة إليه مرة أخرى على أن يأتوا بأخيهم الذي ذكروا له ، كما أشارت لذلك الآيات القرآنية الكريمة(٤) .

---

(١) اليهود في موكب التاريخ ، الطبعة الأولى ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة، ١٩٦٩م ، ص ١٠٩ – ص ١١٠ .

(٢) سورة يوسف ، الآية (٥٨) .

(٣) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨٣ .

(٤) انظر : سورة يوسف ، الآيات (٥٩ – ٦٧) .

وعندما تمت موافقة يعقوب عليه السلام على إرسال بنيامين معهم في المرة الثانية ، بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق في الحفاظ عليه ، رجعوا إلى مصر مرة أخرى وهم يأملون عطف العزيز عليهم وإكرامهم .

وعندما وقفوا أمام يوسف عليه السلام في هذه المرة ، ومعهم أخاهم ، اختلى يوسف بأخيه ، وأطلعه على حقيقة الأمر ، وأخبره بأنه أخاه يوسف ، وطلب منه كتمان أمره ، وأنه عزم أمره على إبقائه عنده ، بعد أن تم تدبير اتهام إخوته بالسرقة ، كما أشار لذلك القرآن الكريم[١] .

وبعد عودتهم من مصر إلى أرض كنعان ، بدون أخيهم بنيامين ، وإخبار أبيهم يعقوب عليه السلام بالأحداث التي جرت خلال رحلتهم ، قال لهم :

﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل عسى ا لله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم ﴾[٢] .

وأمرهم بعد ذلك بالعودة مرة ثالثة إلى مصر ، وهو يأمل من ا لله عز وجل أن يلتقي بيوسف وأخيه ، كما قال تعالى :

﴿ يا بنيَّ إذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح ا لله إنه لا ييأس من روح ا لله إلا القوم الكافرون ﴾[٣] .

ولما وصلوا إلى مصر في هذه المرة ، أخبر ا لله سبحانه وتعالى عن حالهم عند دخولهم على يوسف في قوله تعالى :

﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعةٍ مزجاةٍ فأوفِ لنا الكيل وتصدق علينا إن ا لله يجزي المتصدقين ﴾[٤] .

والظاهر من السياق القرآني أن يوسف عليه السلام أخذته الرحمة والشفقة على إخوته ، وتذكّر أباه وما آل إليه أمره ، فبين لهم وكشف عن شخصيته الكريمة ، كما أخبر سبحانه وتعالى عن ذلك في قوله عز وجل :

---

(١) انظر : سورة يوسف ، الآيات (٦٩ – ٨٧) .

(٢) سورة يوسف ، الآية (٨٣) .

(٣) سورة يوسف ، الآية (٨٧) .

(٤) سورة يوسف ، الآية (٨٨) .

﴿ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون • قالوا أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد مَنَّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يُضيع أجر المحسنين • قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين • قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾[1] .

والظاهر أن يوسف عليه السلام تعرّف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له ، وأخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين أيضاً بأمر الله تعالى له في ذلك ، والله أعلم[2] .

ومن ثم طلب يوسف عليه السلام من إخوته العودة إلى أبيهم ، وأن يأتوا به وبأهلهم أجمعين للإقامة في مصر[3] ، وأعطاهم قميصه للدلالة على حياة يوسف عليه السلام ، ولرد بصر يعقوب عليه السلام الذي أبيضت عيناه من الحزن على فراق ولده ، كما قال تعالى :

﴿ إذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين • ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون • قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم • فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله مالا تعلمون • قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين • قال سوف استغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾[4] .

وما إن تلقى يعقوب عليه السلام تلك البشارة الكريمة ، ورد الله إليه بصره ، حتى بدأ بنو إسرائيل جميعاً في التجهّز للرحيل إلى مصر ، ومغادرة أرض كنعان .

وانطلاق هذه الرحلة التي جاء بها يعقوب عليه السلام إلى مصر ، هي البداية الحقيقية لوفود بني إسرائيل إليها . أما المرات السابقة التي كانوا يفدون بها إلى مصر ، فقد قال عنها أحد الباحثين[5] : لقد كان دخولهم يتسم بكونهم قوماً جاءوا إلى مصر مسالمين

---

(١) سورة يوسف ، الآيات (٨٩ – ٩٢) .

(٢) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨٩ .

(٣) تفيد رواية التوراة في سفر التكوين ٤٥ : ١٧ – ١٩ أن الذي طلب قدوم بني إسرائيل إلى مصر هو الملك . ولاشك أن ذلك غير صحيح لتعارضه مع ما ورد في القرآن الكريم في سورة يوسف ، الآية (٩٣) .

(٤) سورة يوسف ، الآيات (٩٣ – ٩٨) .

(٥) صابر عبد الرحمن طعيمة : المرجع السابق ، ص ٩٧ – ص ٩٨ .

سائلين ، أصحاب حاجة ورجاء ، ولم تكن في حركة القدوم تلك أدنى علاقة من معاني الدين أو تخطيط الدعوة ، بل عفوية السؤال ، وحال الاستجداء ، وأمل المعونة .

وقد ورد في التوراة(١) :

((جميع النفوس ليعقوب التي أتت إلى مصر الخارجة من صُلبهِ ما عدا نساء بني يعقوب جميع النفوس ستٌ وستون نفساً . وابنا يوسف اللذان وُلِدا له في مصر نفسان . جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت إلى مصر سبعون)) .

كما أشارت التوراة أيضاً(٢) إلى أسماء بني إسرائيل الذين جاءوا إلى مصر .

وعلى الرغم من أن قدوم بني إسرائيل كان بطلبٍ صريحٍ من يوسف عليه السلام للاستقرار في مصر ، بعد أن علموا إكرام الله عز وجل ليوسف ، وتبوّئه خزائن مصر ، بحيث كانت له سلطة قوية في إدارة شؤون البلاد المصرية في الجوانب الإقتصادية ، الأمر الذي يُخوّله السماح لمن يرغب بالدخول إلى مصر لسد حاجته ، أو يمنع من يُريد منعه .

إلا أن هناك وجهات نظر مختلفة ، تعزو وفود بني إسرائيل إلى مصر والإقامة فيها ، لأسباب مختلفة . فيرى بعض العلماء(٣) : أن حالة الجوع ، وشدة الظروف الإقتصادية التي كانت سائدة في أرض كنعان ، سببٌ رئيس في وفودهم إلى مصر ، حيث أن تلك الظروف ، ألجأت يعقوب عليه السلام وبنيه إلى ترك بئر السبع ، والتوجه إلى مصر .

ويذهب علماء آخرون(٤) : إلى أن سبب ذلك مبني على أساس حاجتهم لرعي ماشيتهم ، وتغيير المرعى ، والبحث عن أراضٍ خصبة ، يتوفر فيها الكلأ والماء ، لحفظ حياتهم وقطعانهم ، وأن هذا هو السبب الذي ينبغي فَهْمُه على أساس كونه معزواً إلى تغيير المرعى .

---

(١) سفر التكوين ٤٦ : ٢٦ – ٢٧ .
وانظر : سفر الخروج ١ : ٥ ؛ ٢٤ : ١ ؛ سفر العدد ١١ : ١٦ ؛ سفر التثنية ١٠ : ٢٢ .

(٢) سفر التكوين ٤٦ : ٨ – ٢٥ .

(٣) أحمد بدوي : في موكب الشمس ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م ، ص ٢٠٨ وكذا
دي بوا إيميه : كيف خرج اليهود من مصر القديمة ، ترجمة زهير الشايب ، مكان الطبع مجهول ، ١٩٩١ م ، ص ٣٨ .

(٤) Cook , S . A . , " The Rise of Israel " , CAH , vol . II P . 352 ;
Anderson , B . W . , Op . Cit . , P . 26 ;
Eissfeldt , O . , Op . Cit . , P . 320 .

ويبدو أن هذا الرأي ليس دقيقاً بشكلٍ كافٍ ، خاصة إذا نظر الباحث إلى الأثر الجسيم الذي تركته إقامة بني إسرائيل في مصر ؛ حيث كان عاملاً ذو أهمية بالغة في تاريخهم . هذا فضلاً عن أنه كان من عادة البدو على مر العصور – وحتى العصر الحاضر – اجتياز الحدود بحثاً عن الأماكن الخصبة . وبالتالي ، فلو كان مجيء بني إسرائيل إلى مصر من أجل تغيير المرعى ؛ فإنه من الصعب أن يكون من نتائجه قيام كيان خاص بهم وسط المجتمع المصري القديم .

ويذهب مارتن نوث(١) إلى أنه لم يكن من غير العادي أن تفد إلى مصر عناصر بشرية مختلفة ، من الأراضي الآسيوية المجاورة ، والصحراء السينائية التي تظهر على الحدود الشرقية للدلتا ، يبتغون سد حاجتهم ، وعوزهم ، بسبب ندرة الأمطار ، وأيضاً رغبتهم في الاعتراف بهم – وقد تم لهم ذلك – في أرض النيل التي لا تعتمد على الأمطار . وبالتالي كان مجيئهم إلى مصر نوع من الأحداث التي تقع عادة ، إضافة إلى نوع الباعث الذي قادهم للمجيء إلى مصر .

وحسب رأي أحد الباحثين(٢) ، فإنه قد يخرج الناس فرادى أو جماعات من أوطانهم طلباً للرزق والتماساً للعيش . أما خروجهم في أعدادٍ غفيرة ، على شكل أفواجٍ متدافقة ، أو هجرات كبرى ، فإنه لا يحدث إلا إذا كانوا تحت ضغطٍ شديد ؛ إما دفعتهم شعوبٌ أقوى منهم واضطرتهم إلى الخروج ، وإما لتغيُّر الظروف الطبيعية التي يعيشون فيها ، مما يجعل المقام في أوطانهم ضرباً من الرضا بشظف العيش . والعامل الهام الذي يؤثر في ظروف البيئة هو المناخ . ومن ثم كان البحث عن ذبذبة المناخ أو حتى تغيّره باعتباره دافعاً للحركة والهجرة . وبالتالي كان البدو الرابضين على حدود الأقطار الزراعية – مثل مصر – يعلمون ما بداخلها ، ويدركون إن كانت حكوماتها قوية أو ضعيفة ، فإن كانت قوية اكتفوا بالتسلل داخلها طالبين ما يحتاجون من الطعام والميرة ، كما فعل إخوة يوسف عليه السلام عندما دخلوا إلى مصر .

---

(١) Noth ., M . , Op . Cit . , PP . 112 - 113 .

(٢) محمد السيد غلاب : المرجع السابق ، ص ٤٨٨ ، ص ٤٩٢ .

ويرى البعض[١] إمكانية وجود أسباب أخرى لوفودهم إلى مصر ، إضافة إلى القحط والجوع في أرض كنعان ؛ وهي غارات بعض البدو المجاورين على أماكن إقامتهم في أرض كنعان . أو أن يكون بنو إسرائيل قد تعرضوا لهجوم من الإدوميين ، وطردوهم إلى مصر حوالي عام ١٤٣٠ ق.م في عهد امنحتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق.م) .

وهذا الرأي أيضاً لا يوافق عليه الباحث ، لأن بني إسرائيل جاءوا إلى مصر بطلب من يوسف عليه السلام بنص القرآن الكريم كما مر سابقاً ، وليس لطرد الادوميين لهم ، أو لغارات بعض البدو على أماكن سكناهم .

ومما هو جدير بالذكر ، أن بعض الباحثين[٢] يذهبون إلى أنه ليس كل بني إسرائيل قد وفدوا إلى مصر ، حيث بقي منهم في أرض كنعان جماعات ظلت محافظة على تقاليدها في طريقة حياتها واستقرارها ، وأن الذين قاموا بالرحيل إلى مصر هم أبناء يعقوب عليه السلام وطائفة من عشيرته ، ومن آمن بملة إبراهيم عليه السلام من سكان أرض كنعان .

وهذا ما حدا بأحد الباحثين[٣] إلى القول : أن منهم من بقي على إقامته على حدود أرض كنعان ، ومنهم من نزل البوادي ، ومنهم من نزح إلى مصر واستقروا في أرضها الخصبة .

ويتجه الباحث إلى أن بني إسرائيل قد قدموا إلى مصر أجمعين ، إذ قال الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام : ﴿ **وأتوني بأهلكم أجمعين** ﴾[٤] . فلا يُعقل أن يخالف هؤلاء أمر يوسف عليه السلام الذي كان " عزيز " مصر الذي يتبوأ مكان السلطة والرياسة .

---

(١) حسن أحمد محمود وآخرون : حضارة مصر والشرق القديم - الساميون القدماء - العبرانيون ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٣٥٠ - ص ٣٥٢ .

(٢) عبد السميع سالم الهراوي : الصهيونية بين الدين والسياسة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٧ م ، ص ٢٤٩ وكذا

تيودور . هـ . روبنسن : المرجع السابق ، ص ١٠٨ وكذا

فيليب حتّي : المرجع السابق ، ص ١٩٣ وكذا

Cook , S . A . , Op . Cit . , PP . 358 , 360 ;
Lods . A . , Op . Cit . , P . 171 ;
Noth , M . , Op . Cit . PP . 117 - 119 .

(٣) فؤاد حسنين علي : إسرائيل عبر التاريخ ، ص ٥٤ .

(٤) سورة يوسف ، الآية (٩٣) .

لكن من المحتمل أن بعض بني إسرائيل عادوا إلى أرض كنعان بعد انقضاء فترة الجوع والقحط ، وا لله أعلم .

أما فيما يتعلق بالطريق التي سلكوها للوصول إلى مصر ، فيبدو أنهم سلكوا الطريق العربي القديم الذي يصل بين مصر وفلسطين عبر سيناء ، والذي كان يُطلق عليه اسم " طريق حورس  "(1) ، وهو أقدم طريق حربي عرفه العالم . وكان هذا الطريق يصل بين مصر وفلسطين عبر شمال شبه جزيرة سيناء ، وقد استخدمه الفراعنة في عصور مختلفة ، كما فعل تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) عندما سلكه مع جيوشه لتأديب الذين هاجموا حدود مصر الشرقية من الآسيويين والبدو .

ويرى بعض المؤرخين(2) : أن هذا الطريق كان يبدأ من مدينة " ثارو ṯ3rw "(3) ثم يتجه الطريق شمالاً إلى المجدول (تل الحير حالياً) ، ثم " بير رمانة " على مقربةٍ من المحمدية على شاطيء البحر المتوسط ، ثم إلى الحصن الذي كان منسوباً إلى سيتي الأول (١٣٠٩- ١٢٩١ ق.م) ، وأُبدلت نقوشه نسبة إلى رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) ،

---

(١) Gardiner , A . H . , Ancient Egyptian Onomastica , vol . II , P . 202* .

(٢) سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٦ ، ص ٣٥ - ص ٣٨ وكذا

محمد عبد المقصود عبد الرحيم ، أشرف عبد المقصود عبد الرحيم ، غريب علي إبراهيم : " مناطق آثار شمال سيناء وأحدث الاكتشافات الأثرية " ، مجلة الفيصل ، العدد ٩٧ ، السنة التاسعة ، دار الفيصل الثقافية ، الرياض ، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م ، ص ١٠٨ وكذا

محمود عبد الحميد أحمد : الهجرات العربية القديمة من شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين والشام إلى مصر ، الطبعة الأولى ، دار طلاس ، دمشق ، ١٩٨٨ م ، ص ٦١ هامش ٥ وكذا

ألن جاردنر : مصر الفراعنة ، ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم ، مراجعة عبد المنعم أبو بكر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ص ٥٣ وكذا

Gardiner , A . H . , Egypt of the Pharaohs , P . 36 .

(٣) ثارو ṯ3rw : ورد هذا الاسم في النقوش المصرية القديمة للإشارة إلى هذه المدينة الحدودية المصرية ، التي كانت تمثل قلعتها منطلقاً للحملات الحربية المتجهة إلى فلسطين وسوريا . وهي تقع بين بُحيرتي المنزلة والبلاح . وقد ذُكرت أيضاً باسم " زل " أو " زلو " في رسائل العمارنة . وقد يُنطق الاسم زيلو أو سيلا أو سيلة . ويقوم مكانها الآن " تل أبو صيفة " الذي يُعرف أيضاً باسم " التل الأحمر " . وهذا التل يبعد مسافة ٣ أكيال إلى الشرق من مدينة القنطرة شرق قناة السويس . ويبعد أيضاً حوالي ٥٠ كيلاً جنوبي شرق تانيس ، وحوالي ٢٦,٥ كيلاً جنوبي غرب الفرما (بلوزيوم) . انظر :

أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٦٢٠ - ص ٦٢١ وكذا

Gardiner , A . H . , Ancient Egyptian Onomastica , vol . II , PP . 202* - 204* ;
wilson , J . A . , " An Egyptian Letter " , ANET , P . 478 note 47 .

وتقع مكانه الآن " قطيه " ؛ وهـي المدينـة الـتي أطلـق عليـه مؤرخـو العصـر اليونـاني اسـم " معسكر الاسكندر " ، ثم يمتد الطريق حتى " بـير العبـد " جنـوب بحـيرة الـبردويل ، ثـم " بير المزار " جنوب " الفلوسيات " على البحر المتوسط ، ثم يتجه الطريق إلى العريش[١] ، ثم إلى " الشيخ زويد " ، ثم إلى رفح[٢] على طرف الحدود المصرية الشرقية . وكان طـول هذا الطريق من ثارو إلى العريش حوالي ١٤٤ كيلاً . أما مسافة هذا الطريق مـن ثـارو إلى رفح فكانت حوالي ١٩٣ كيلاً، وهي مسافة لم تكن تُشكل عائقاً أمام الوافدين إلى مصر ، الذين تشدهم الحاجة أو الطمع إلى خيرات مصر[٣] .

---

(١) العريش : أهم مدن شاطيء سيناء ، وعاصمة هذه المحافظة . وكانت منذ أقدم عصور التاريخ المصري ميناءً هاماً على البحر ، ومركزاً اسـتراتيجياً علـى الطريـق الحربـي الكبـير (طريـق حـورس) . وفي عصـر الدولـة الحديثـة (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م) كانت العريش أحد المراكز الرئيسة للجيش ، ولكن لم يبق مـن حصونهـا ومعابدهـا القديمة شيء يُذكر . وقد ذكرها جغرافيو الرومان تحت اسم " رينوكورورا " أي " مقطوعو الأنوف " ، وفسـر سترابون ذلك بأن بعض الذين كانوا يرتكبون جرائم كبيرة كان يُحكم عليهم بقطع أنوفهم ، ونفيهم إلى هناك . وقد ذكر ياقوت الحموي خبراً عن سبب تسميتها بالعريش بأن إخوة يوسـف عليـه السـلام لمـا دخلـوا إلى مصـر بسبب القحط يمتارون منها ، ألقى الحراس المصريون القبض عليهم في تلك المنطقة ، فَمُسِكوا بها إلى أن يتم لهـم الإذن بالدخول إلى مصر ، فبنوا لهم عريشاً يستظلون تحته من الشمس ، فسمي الموضع العريش .

وتبعد العريش حوالي ١,٥ كيلاً عن شاطيء البحر المتوسط . انظر :

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١١٣ - ص ١١٤ وكذا

محمد بن عبد المنعم الحميري : المصدر السابق ، ص ٤١٠ وكذا

أحمد فخري وآخرون : الموسوعة المصرية - تاريخ مصـر القديمـة وآثارهـا ، المجلـد الأول ، الجزء الأول ، وزارة الثقافة والاعلام ، مصر ، بدون تاريخ ، ص ٣٠٨ - ص ٣٠٩ وكذا

سعاد ماهر : محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقيـة في العصـر الإسـلامي ، المجلـس الأعلـى للشـئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ، ص ٢٢٢ .

(٢) رفح : اكتسبت رفح أهمية خاصة لكونهـا نقطـة الحـدود الفلسـطينية الجنوبيـة مـع مصـر ، وكـانت في معظـم عصورها الحد الفاصل بين مصر والشام . وقد وردت في التاريخ بأسماء متعددة ، ففـي النقـوش المصريـة القديمـة ورد اسمها  Rpḥ ، وعند الآشوريين " رفيحو " ، وعند اليونان " رافيا " ، أما الكنعانيين فسموها " رفيا " . وتبعد رفح نحو ٣٨ كيلاً جنوب غزة ، ونحو ١٣ كيلاً جنوب خان يونس ، وترتفع نحو ٤٨ متراً عن سطح البحر ، وهي تبعد عن البحر المتوسط حوالي ٥,٥ كيلاً . انظر :

محمد سلامة النحال : المرجع السابق ، ص ١٣١ وكذا

محمد محمد شراب : المرجع السابق ، ص ٤١٣ - ص ٤١٤ وكذا

Gardiner , A . H . , Op . Cit . , vol . I , P . 191* ;

wilson , J . A . , Op . Cit . , ANET , P . 478 note 54 .

(٣) محمود عبد الحميد أحمد : المرجع السابق ، ص ٦١ هامش ٥ وكذا

ألن جاردنر : المرجع السابق ، ص ٥٣ وكذا

Gardiner , A . H . , Egypt of the Pharaohs , P . 36 .

تاريخ وفود بني إسرائيل إلى مصر :

في صدد تناول هذا الموضوع ، ينبغي التأكيد أولاً على أنه لا توجد أي إشارة في القرآن الكريم إلى تحديد تاريخ وفود بني إسرائيل إلى مصر . والإشارة الوحيدة التي جاءت لتبين من كان يحكم مصر في ذلك العهد هي نعت ذلك الحاكم بلقب ﴿ **الملك** ﴾[(١)] . وكذلك بالنسبة لإسم ذلك الملك ، فقد خلت الآيات القرآنية من ذكر اسمه[(٢)] .

أما ما تركه الإنسان المصري القديم من النقوش ، والنصوص على الجدران، والمقابر، والبرديات ، فقد خلت أيضاً من تحديد تاريخ وفودهم إلى مصر . وهذه المصادر كان من المؤمل لدى المهتمين والدارسين ، أن تمدهم بما يصبون إليه من كشفٍ للحقائق ، وبيانٍ للتاريخ . إلا أن ذلك لم يتحقق .

ورغم ذلك ، فقد تعرض الباحثون والدارسون إلى هذا الموضوع ، واتجهت آراؤهم التاريخية إلى افتراض رأيين مختلفين :

الرأي الأول : يتجه إلى تحديد تاريخ وفود بني إسرائيل إلى مصر أثناء حكم الهكسوس[(٣)] مصر (حوالي ١٧٢٥ - ١٥٧٥ ق.م) .

---

(١) انظر : سورة يوسف ، الآيات (٤٣ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٧٢ ، ٧٦) .

(٢) ويعود السبب في ذلك - والله أعلم - إلى أن ذكر ذلك لا ينبني عليه فائدة أو عمل ، وليس له أهمية كبيرة في القصص القرآني في سورة يوسف عليه السلام على رسول الله محمد ﷺ . ولو كان ذكره ضرورياً لأخبر عنه القرآن الكريم ، أو أخبر عنه رسول الله محمد ﷺ . هذا فضلاً عن أن القرآن الكريم ليس كتاباً تاريخياً يفصل الأحداث تفصيلاً دقيقاً ، بل يشير إليها بصورة مجملة ، فهو كتاب معجز ، فيه الهداية والإرشاد لمن ابتغى الحق واتبع هداه .

(٣) الهكسوس HYKSOS : لم تُعبِّر تسمية الهكسوس في أصلها عن شعبٍ معين بقدر ما عبَّرت عن صفة لمجموعة من الحكام ، أطلق المصريون عليهم اسم " حقاوخاسوت " أو " حيق - خاسة " التي تعني حكام البلاد الجبلية الأجنبية . ثم صحّفَ الاغريق هذه التسمية إلى " هكسوس " التي ترجمها مانيثون المصري (القرن الثالث قبل الميلاد) بمعنى " ملوك الرعاة " ثم ترجمها فلافيوس جوزيفوس Flavious Josephus اليهودي (٣٨م - ١٠٠م) بمعنى " الأسرى الرعاة " وربط بينهم وبين العبريين كفئة تابعة لهم ، حيث أيده في ذلك بعض الباحثين المعاصرين . وكان المصريون يُطلقون عليهم تسمية " عامو " التي تعني الأجانب بصفة عامة ، وبشكل خاص الساميين . وأيضاً تسمية " منتيوست " و " شاسو " .

وكان الهكسوس يتكونون من عناصر مختلفة ومختلطة ، الأمر الذي أدى إلى اختلاف وجهات النظر بين الباحثين حول أصول الهكسوس . وقد حكم الهكسوس في مصر من حوالي عام ١٧٢٥ - ١٥٧٥ ق.م ، وكانت

:::

الرأي الثاني : يتجه إلى تحديد ذلك في عهد امنحتب الثاني (١٤٣٦-١٤١٣ق.م).

الرأي الأول : أن تاريخ وفود بني إسرائيل إلى مصر كان في أثناء حكم الهكسوس مصر (حوالي ١٧٢٥ - ١٥٧٥ ق.م) :

يعتمد أصحاب هذا الاتجاه على أدلة وبراهين تؤيد وجهة نظرهم ، ومنها :

أولاً : ما ورد في التوراة[١] : ((ثم قال فرعون[٢] ليوسف بعدما أعلمك ا لله كل هذا ليس بصيرٌ وحكيمٌ مثلَكَ . أنت تكونُ على بيتي وعلى فمك يُقبّلُ جميع شعبي . إلا أن الكرسي أكون فيه أعظم منك . ثم قال فرعون ليوسف انظر . قد جعلتك على كل أرض مصر . وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف . وألبسه ثياب بوصٍ ووضع طوق ذهبٍ في عنقه . وأركبه في مركبته الثانية ونادوا أمامه اركعوا . وجعله على كل أرض مصر)) .

﴾ عاصمتهم " أواريس " في شرق الدلتا . وقد تم طرد الهكسوس من مصر على يد أحمس الأول (١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق.م) بعد أن ظلوا فيها مدة قرن ونصف من الزمان . انظر :

باهور لبيب : المرجع السابق ، ص ٤١ - ص ٤٢ وكذا

أحمد بدوي : " أيام الهكسوس " ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الأول ، العددان الأول والثاني ، مصر ، ١٩٤٨م ، ص ٤١ - ص ٨٦ وكذا

سليم حسن : مصر القديمة ، الجزء الرابع ، عهد الهكسوس وتأسيس الامبراطورية ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ م ، ص ٥٤ - ص ٦٥ وكذا

محمد عبد القادر محمد : المرجع السابق ، ص ١٩٤ وكذا

عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول ، مصر والعراق ، ص ١٩٥ - ص ٢٠٣ وكذا

ألن جاردنر : المرجع السابق ، ص ١٧٧ - ص ١٨٨ وكذا

نيقولا جريمال : المرجع السابق ، ص ٢٤١ - ص ٢٥٣ وكذا

Wilson , J . A . , " Egyptian Historical Texts - The Hyksos in Egypt " , ANET , PP . 230 - 234 ;
Johnson , P . , The Civilization of Ancient Egypt , Weidenfeld and Nicolson , London , 1978 , PP . 72 - 73 .

(١) سفر التكوين ٤١ : ٣٩ - ٤٣ .

(٢) ذِكْر التوراة لهذا اللقب " فرعون " في عهد يوسف عليه السلام يدل دلالة قاطعة على مدى التحريف والتبديل الذي تعرضت له . إذ أن الحاكم الذي كان معاصراً ليوسف عليه السلام أطلق عليه القرآن الكريم لقب ﴿ الملك ﴾ وهو لاشك الحق والصدق . ومن أجل نقل النص حرفياً من سفر التكوين اقتضت الضرورة إبقاء اللقب الوارد فيه كما هو .

فهذا النص يبين أن الملك جعل يوسف عليه السلام نائباً له ، وأركبه " في مركبته الثانية " ليبين لقومه ما صار إليه ، إذ كانت المركبة الأولى تجري بالملك ، وتجري وراءها مركبةٌ أخرى بيوسف عليه السلام[١] .

والإشارة إلى وجود العربة ذات العجلات في عهد يوسف عليه السلام يدل على أن ذلك كان في عصر الهكسوس ، لأنهم أول من أدخل العربة الحربية إلى مصر ، وأول من استخدمها أيضاً في المناسبات العامة في مصر ، بحيث كانت العربة الأولى للملك ، والثانية لوزيره[٢] .

ثانياً : ان " ساكن الرمال " أي الآسيوي ، لم يتبوأ منصب الوزير في عهود الحكام الفراعنة فيما بعد . أما في عهد الهكسوس فقد وصل بعض الآسيويين إلى مناصب عليا في الدولة ، بدليل وجود أسماء موظفين يحملون أسماء سامية في عصر الهكسوس[٣] .

ثالثاً : لقد عُثر على جعول[٤] يعود تاريخها إلى فترة وجود الهكسوس في مصر ، كُتبت عليها أسماء لرؤساء من الساميين مثل : " عنات - حر " و " يعقوب - حر " ، و" يونس " ، و" عنتر " ، و" عزيز " ، و" بن يون " الذي له صدىً كبيراً لإسم بتيامين

---

(١) وليم مارش : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

(٢) سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ١٦٣ - ص ١٦٤ وكذا
نجيب ميخائيل إبراهيم : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ وكذا
محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٢٥٠ وكذا
خولة قسوس الحناينة : عصر الهكسوس في الأردن وفلسطين ، وزارة السياحة والآثار ، دائرة الآثار العامة ، عمان ، ١٩٩٠ م ، ص ١٦ .

(٣) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٢٥٠ - ص ٢٥١ .

(٤) جعول : جمع " جُعَل " : وقد يطلق عليها اسم جُعْلان أو جعران Scarab وهي حشرة سوداء من نوع الخنافس ، عرفها المصريون القدماء في طبيعة أرضهم ، وكانت لهم في سيرتها آمال فقدسوها ؛ وأطلقوا عليها اسم " خِبِر ḫpr " أي الجعران المقدس ؛ وهو على شكل حشرة الجُعَل أو الجعران ، حيث صوره المصريون القدماء على هيئة رجل برأس هذه الحشرة ، وصوروه أيضاً في هيئة الحشرة نفسها ؛ وهو أحد صور الإله رع الذي كان يُعبد في " أون " ومنها انتشرت في سائر أنحاء مصر . وكان يُمثل ذاتية الخلق أو الكون في الأساطير الدينية ، وكذلك الشمس المشرقة . وقد كان له دور هام في المعتقدات الجنزية منذ عصر الدولة القديمة وحتى نهاية العصور الفرعونية . كما تخيل المصري القديم القوة التي تحرك الشمس في السماء جعراناً هائلاً ، يدفع بقرصها المتوهج أمامه ، كما يدفع نظيره الحي على الأرض ، واعتبره إلهاً أطلق عليه اسم " خِبِر رع " . ويكثر ذكره في البرديات الجنزية المعروفة باسم " كتاب الموتى " وداخل التوابيت . انظر :
محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ٢١٦ - ص ٢١٧ ، ص ٣٤٥ وكذا
Gardiner , A . H . , Egyptian Grammar , Third Edition , Griffith Institute , Ashmolean Museum , Oxford , 1976 , P . 477 .

أحد أبناء يعقوب عليه السلام . هذا فضلاً عن أن الاسم " عنات " كان معروفاً كمعبودة سامية . وأيضاً من الصعب استبعاد الاسم " يعقوب - حر " كإحياء لذكرى أبيهم يعقوب عليه السلام في الاسم الآخر ، خاصة وأنه ورد أيضاً في سجلات تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) أسماء شبيهة بذلك مثل : " يعقوب - ايل " و" يوسف - ايل "[١] .

ويذهب بعض المؤرخين[٢] إلى أن هذه الأسماء هي أسماء عبرية ، وهي حقيقة لا يمكن إنكارها ، لظهورها بشكل واضح ، مما يدل على أن مصر كانت تحت الحكم السامي ، وكانت الظروف مؤاتية للإستقبال الودي لبني إسرائيل . وتشير أيضاً إلى تبوء أحد رؤسائهم - وهو يوسف - مركزاً قيادياً في السلطة الملكية في تلك الفترة ، الأمر الذي يتناسب مع احتمال دخول بني إسرائيل إلى مصر وقتئذٍ .

رابعاً : يذهب محمد بيومي مهران[٣] إلى أن القرآن الكريم أشار إلى لقب الحاكم المعاصر ليوسف عليه السلام بلقب " الملك " - كما مر سابقاً - ، بينما أشار القرآن الكريم إلى الحاكم المعاصر لموسى عليه السلام بلقب " فرعون "[٤] ، وهو لقب لم يستعمل

---

(١) يوسف الدبس : من تاريخ سورية الدنيوي والديني ، المجلد الثاني ، بيروت ، ١٨٩٣ م ، ص ٨٧ وكذا
أبكار السقاف : المرجع السابق ، ص ١٣٨ - ص ١٣٩ وكذا
محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٢٥١ وكذا
ألن جاردنر : المرجع السابق ، ص ١٧٩ وكذا

Albright , W . F . , From the Stone Age to Christianity , P . 242 ;

Lods , A . , Op . Cit . , P . 158 ;

Wilson , J . A . , " Egyptian Historical Texts - Lists of Asiatic Countries Under the Egyptian Empire ", ANET , P . 242 .

(٢) سامي سعيد الأحمد : " الأسس التاريخية للديانة اليهودية " ، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية ، العدد ١٩ ، جامعة بغداد ، بغداد ، ١٩٧٦ م ، ص ١٠١ وكذا
جيمس هنري برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي ، ص ١٤٢ .

(٣) دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (٧) إسرائيل - الكتاب الأول - التاريخ ، ص ٢٥٢ ، ص ٢٥٣ .

(٤) فرعون : ورد هذا اللقب " فرعون " في القرآن الكريم ٧٤ مرة ، وورد في التوراة أيضاً في قصتي يوسف وموسى عليهما السلام كمصطلح عام للحاكم الذي كان يحكم مصر ، وكان فرعون يمثل السلطة المطلقة في الدولة ؛ فهو رئيس الدولة ، والإدارة ، والجيش ، وأمور الدين .
والحقيقة أن المصطلح " فرعون Pharaoh " كان متأخراً ، والأصل المصري القديم هو " پرعا " أو " پرعو " pr - ꜥꜣ بمعنى البيت العظيم ، أو البيت العالي ، أو البيت الكبير . وكان قد أُستخدم في عصر الدولة القديمة كجزء من عدة عبارات ، مثل : Smr pr - ꜥꜣ أي المتودد للبيت العالي . وأصبح يدل على القصر أو البلاط
⇐

للدلالة على شخص الملك إلا منذ أيام تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) ، مما يدل على أن يوسف عليه السلام كان في عصر سابق لعصر الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ - ١٣٠٨ ق.م) التي استعمل فيها اللقب " فرعون " .

خامساً : بناءً على ما ورد في التوراة[١] :

((وأما إقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر فكانت أربعمائة وثلاثين سنة . وكان عند نهاية أربعمائة وثلاثين سنة في ذلك اليوم عينه أن جميع أجناد الرب خرجت من أرض مصر)) .

فلو كانت هذه الجملة ((أربعمائة وثلاثين سنة)) تعود إلى الوقت الإجمالي الذي أقامه بنو إسرائيل في منطقة الدلتا ؛ فعلى ذلك يكون زمن وصولهم إلى مصر - في حالة افتراض خروجهم في عهد رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) - في الفترة الزمنية التي تعود إلى غزو الهكسوس لمصر . وبطريقة حسابية بسيطة : ١٢٩٠ ق.م + ٤٣٠ ق.م = ١٧٢٠ ق.م ، وهي السنة التي يُفترض أنهم وصلوا بها إلى مصر[٢] .

سادساً : ورد في التوراة[٣] ما يدل على أن قصر الملك لم يكن بعيداً عن المكان الذي نزل فيه بنو إسرائيل حال وصولهم إلى مصر ، مما يعني أن العاصمة المصرية كانت في منطقة

= الملكي ، وليس لشخص الملك إلا في فترات متأخرة . وللمقارنة فقط يمكن تشبيه ذلك بما كان يُطلق في العصر العثماني عن قصر الحكم ، وبالتالي السلطان نفسه بلفظ الباب العالي .

ويمكن القول أنه حدث خلال عهد تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) أن الاصطلاح " فرعون " بُديء في إطلاقه على الملك نفسه . ثم حرفت النصوص العبرية لفظ " پرعو " إلى " فرعو " ، ثم أضاف إليه العرب نوناً فأصبح يُلفظ " فرعون " حيث شاع هذا اللقب فيما بعد مع الاسم الشخصي لكل من يحكم مصر . انظر:

محمد فؤاد عبد الباقي : المرجع السابق ، ص ٥١٥ - ص ٥١٦ وكذا

عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٨١ وكذا

جيمس هنري برستد : انتصار الحضارة (تاريخ الشرق القديم) ، ترجمة أحمد فخري ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٦ م ، ص ٨٧ وكذا

Gardiner , A . H . , Egypt of the Pharaohs , P . 52 ;

Gardiner , A . H . , Egyptian Grammar , P . 75 .

(١) سفر الخروج ١٢ : ٤٠ - ٤١ .

(٢) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٢٥٣ وكذا

Anderson , B . W . , Op . Cit . , P . 29 note 10 .

(٣) سفر التكوين ٤٦ : ٣١ - ٣٤ ؛ ٤٧ : ١ - ٦ .

الدلتا ، وهو ما يتفق وعصر الهكسوس في مصر ، حيث كانت عاصمتهم " أواريس "[١] ، وهي العاصمة المصرية التي لم تكن في الدلتا إلا في فترة حكم الهكسوس لمصر ، ثم في عصر الرعامسة (الأسرة التاسعة عشرة والأسرة العشرين) حيث كانت العاصمة " بر – رعمسيس "[٢] . ولما كان من غير الممكن معاصرة يوسف عليه السلام لعصر

---

(١) أواريس : أصل التسمية في اللغة المصرية القديمة " حُوت – وعرت Ḥwt - Wꜥrt " ، وتلفظ أحياناً " هواريس " أو " أفاريس " . وسميت فيما بعد باسم " تانيس " ، ووردت في النصوص المصرية القديمة بلفظ " جعنت " ، وسماها اليونان باسم " زعنت " ، وهي الواردة في التوراة باسم صوعن . ففي سفر العدد ١٣ : ٢٢ وردت الإشارة إلى أن صوعن (تانيس) بُنيت في مصر بعد حبرون بسبع سنين ، الأمر الذي يكاد يؤكد بأن تانيس وأفاريس مكان واحد ، رغم أن فحوى هذا التأكيد لا يزال موضع جدل .

وتقع تانيس في المكان المعروف بـ" صان الحجر " على مسافة حوالي ٢٠ كيلاً إلى الجنوب من المنزلة الآن ، وعلى مسافة ١٤ كيلاً باتجاه الشمال الشرقي من تل فرعون (نبيشة) . انظر :

باهور لبيب : المرجع السابق ، ص ٤٨ وكذا

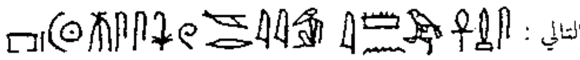
سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٧٤ – ص ٧٩ وكذا

جيمس بيكي : الآثار المصرية في وادي النيل ، ترجمة لبيب حبشي ، وشفيق فريد ، مراجعة محمد جمال الدين الشيال ، الجزء الأول ، دار الكرنك ، القاهرة ، ١٩٦٣ م ، ص ٦٥ – ص ٦٦ وكذا

ألن جاردنر : المرجع السابق ، ص ١٨٧ – ص ١٨٨ وكذا

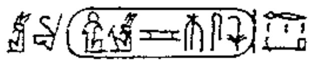
Gardiner , A . H . , Ancient Egyptian Onomastica , vol . II , P. P . 155* , 169* , 172* , 199* , 279* ;

Gardiner , A . H . , Egypt of the Pharaohs , PP . 164 - 165 .

(٢) بر – رعمسيس : ارتبطت هذه المدينة باسم رعمسيس الثاني ، حيث قام بإنشائها لتكون عاصمةً لمصر في عهده . و " بر – رعمسيس " تعني " بيت أو دار رعمسيس " ، وقد وردت في النصوص المصرية القديمة على النحو التالي : 

والدلالة الصوتية لهذا الاسم هي : . " Pr - Rꜥmssw - mr - ʾI mn " Pr - Raꜥmesse

وقد ذهب البعض بأن موقعها يقوم على أنقاض مدينة تانيس ، بدليل أنه تم العثور على نقش مصري قديم على جانب كبير من الأهمية ، على كتلة حجرية من المعبد الكبير في تانيس ، يُحدّد الاسم على النحو التالي :



والترجمة الحرفية لهذا النص :

((آمون صاحب رعمس ، مريآمون ، ذو الانتصارات العظيمة)) . وهذا الوصف يوجد عادة في الاسم " بي – رعمس Pi - Raꜥmesse " على الآثار المعاصرة التي وجدت لمؤسس هذه المدينة .

ويرى البعض أنها " قنتير " التي تبعد ١٩ كيلاً جنوب تانيس ، و ٩ أكيال إلى الشمال الشرقي لفاقوس . رغم أن هناك من يُحدد موقعها عند " تل الضبعة " بالقرب من فاقوس أيضاً ، على أنقاض " حوت – وعرت " مدينة أواريس القديمة . انظر :

⇐

الرعامسة ، فإن النتيجة الحتمية أن يكون معاصراً لعصر حكم الهكسوس في مصر[١] .

أما فيما يتعلق بالتحديد التاريخي الدقيق للسنة التي وصل فيها بنو إسرائيل إلى مصر ، فهذا مما يتعذر على الباحث الجزم به . إلا أن هناك أراء متقاربة في تحديد ذلك ، فيرى البعض[٢] أن دخول يوسف عليه السلام إلى مصر كان في سنة ١٧٥٠ ق.م باعتباره أول الوافدين من بني إسرائيل .

فيما يرى عبد العزيز صالح[٣] أن من المحتمل أن يكون دخول يوسف عليه السلام إلى مصر في أواخر القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، أو أوائل القرن السابع عشر قبل الميلاد .

وأحد الباحثين[٤] يحدد دخول بني إسرائيل إلى مصر في حوالي سنة ١٧٢٨ ق.م .

فيما يرى آخر[٥] أن ذلك كان في حوالي سنة ١٧٠٠ ق.م . وإن كان هناك[٦] من يتأخر بتحديد ذلك في عام ١٦٧٨ ق.م في عهد الملك إيبيبي Epipi (أبو فيس) .

ومن الجدير بالذكر أن المصادر الإسلامية أشارت إلى الملك الذي كان معاصراً ليوسف عليه السلام باسم الريان بن الوليد[٧] . بينما لم يرد ذلك الإسم في قوائم الملوك من الهكسوس الذين حكموا مصر .

⇐ سليم حسن : مصر القديمة ، ج ٤ ، ص ٧٦ – ص ٧٩ وكذا
المؤلف نفسه : مصر القديمة ، ج ٦ ، ص ٣٨٣ – ص ٣٨٩ وكذا
محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٤٣٩ – ص ٤٤٣ وكذا
نيقولا جريمال : المرجع السابق ، ص ٣٤٢ وكذا
Gardiner , A . H . , Ancient Egyptian Onomastica , vol . II , PP . 171* - 172* , 278* f .

(١) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٢٥٣ – ص ٢٥٤ .

(٢) جرجي زيدان : المرجع السابق ، ص ٨١ .

(٣) شبه الجزيرة العربية في المصادر المصرية القديمة ، ص ٣٠٣ .

(٤) سامي سعيد الأحمد : المرجع السابق ، ص ١٠١ .

(٥) محمد الأمين خلفة : كل الحقيقة عن تاريخ إسرائيل ، تونس ، ١٩٨٢ م ، ص ٩ – ص ١٠ .

(٦) غطاس عبد الملك الخشبة : رحلة بني إسرائيل إلى مصر الفرعونية والخروج ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٩٠ م ، ص ١٣١ ، ص ١٥٢ – ص ١٥٣ .

(٧) انظر : عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق Charles , C . T ، طبعة ليدن ، ١٩٣٠ م ، أعادت طبعه مكتبة المثنى ، بغداد ، ص ١٧ وكذا
الطبري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٣٥ – ص ٣٣٦ وكذا
علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير : الكامل في التاريخ ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٨٠ وكذا
ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨٢ .

وهناك اسم قد يكون قريباً في لفظه من نطق الاسم " ريان " وهو الاسم " خيان " الذي وُصِفَ بأنه " رئيس البلاد الأجنبية خيان " حيث عُرِفَ أيضاً بهذا الاسم على عدد من الجعول ، وإن كان يوصف بها أحياناً بأنه ابن رع " سا – وسر – إن – رع "[١] .

وفي هذا الشأن يقول محمد بيومي مهران[٢] :

((إذا أردنا أن نحدد – قدر استطاعتنا ، وفي الوقت نفسه حدساً عن غير يقين – ملك مصر الذي عاصر الصدّيق ، مستعينين في ذلك بقوائم الملوك من تلك الفترة ، ومستعينين في الوقت نفسه بالمصادر الإسلامية ، لوجدنا أن واحداً من ملوك الهكسوس كان يُدعى " سا أوسر إن رع – خيان " من ملوك الأسرة الخامسة عشرة الهكسوسية – أي في بداءة عصر الهكسوس – لوجدنا في الوقت نفسه ، أن المصادر الإسلامية تذكر أن ملك مصر على أيام الصدّيق ، إنما كان من ملوك العرب المعروفين بالرعاة (الهكسوس) ، وأنه كان يُدعى " الريان " ، وإني لأظن ... أنه ليس من الصعب كثيراً تصحيف الاسم " ريان " إلى " خيان ")) .

إلا أن ذلك يظل اجتهاداً شخصياً من المحتمل أن يكون صائباً ، ومن المحتمل أن يكون غير ذلك ، إذ العلم اليقين في ذلك عند الله وحده .

---

(١) سليم حسن : مصر القديمة ، ج ٤ ، ص ٩١ وكذا
ألن جاردنر : المرجع السابق ، ص ١٨٠ .

(٢) دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (٧) إسرائيل – الكتاب الأول – التاريخ ، ص ٢٥٥ – ص ٢٥٦ .

الرأي الثاني : أن تاريخ وفود بني إسرائيل إلى مصر كان في عهد امنحتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق.م)

هذا الرأي لا يحظى بكثيرٍ من التأييد ، إلا أنه يتحتم على الباحث الإشارة إليه ؛ لأنه وجهة نظر تُعبّر عن أصحابها في هذا الموضوع .

يقول أدولف لودز[١] :

((لقد كتب برني . Burney , C . F مقالاً في هذا الموضوع ، ثم عاد إليه مرة أخرى في تعليقه على سفر القضاة ، وقد قدم نظريته على غاية من الحذر والدقة ، فهو يعتقد أن بعضاً من القبائل العبرية قد استقرت في مصر مع الهكسوس ، وتم طردها أيضاً معهم ، وهذا يتفق مع ما ورد في سفر التكوين ١٢ : ١٠ - ٢٠ من أن إبراهيم دخل إلى مصر ثم غادرها . فقد وجد تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) حوالي سنة ١٤٧٩ ق.م إحدى المجموعات العبرية التي تسمى يعقوب (يعقوب إل) تقيم في فلسطين ، بعد أن طردها الأدوميون من كنعان (هروب يعقوب من عيسو) ، ثم غزت البلاد مرة أخرى (غزو الخابيرو حوالي عام ١٤٠٠ ق.م) ، لأن " لابان "[٢] كان قد حث في طلبهم . هؤلاء الخابيرو ، الذين سُموا عادة " إسرائيل "، وجهوا هجومهم بشكل خاص نحو شكيم، كما أشار لذلك سفر التكوين ٣٤ . وكان جزء من هؤلاء ، متضمنة يوسف ، وربما شمعون ولاوي ، قد ذهبوا إلى مصر في عهد امنحتب الثاني ، حوالي سنة ١٤٣٥ ق.م ، واستقروا هناك ٢١٥ سنة (حسب ما ورد في سفر الخروج ١٢ : ٤٠ - ٤١ في ترجمته السبعينية[٣] LXX) . لكن الأكثرية من الإسرائيليين ظلوا في فلسطين ؛ ومن ثم

---

(١) Lods , A . , Op . Cit . , P . 184 .

(٢) لابان : هو ابن بتوئيل وحفيد ناحور أخي إبراهيم ، وأخو رفقة . سكن حاران في فدان آرام حسب ما ورد في سفر التكوين ٢٤ : ١٠ ، ١٥ ؛ ٢٨ : ٥ ، ١٠ ؛ ٢٩ : ٤ - ٥ . وهو خال يعقوب عليه السلام ، ووالد زوجتيه ليئة وراحيل . وقد ظل يعقوب عليه السلام عند خاله لابان حوالي عشرين سنة يخدمه فيها . انظر : بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٨٠٤ .

(٣) الترجمة السبعينية : هي إحدى الترجمات اليونانية للتوراة . ويرجع السبب في هذه الترجمة السبعينية إلى أن اليهود الذين هاجروا إلى مصر في القرن الثالث قبل الميلاد نسوا اللغة العبرية ، ولذلك طلب الملك بطلميوس فيلادلفيوس (بطلميوس الثاني الذي حكم من ٢٨٤ - ٢٤٦ ق.م) عام ٢٨٥ ق.م إلى الكاهن الأعظم إلعازار في أورشليم أن يُرسل رجالاً ذوي خبرة في القانون وفي اللغتين العبرية واليونانية ، لكي يترجموا التوراة إلى اليونانية ، فاختار له الكاهن الأعظم ٧٢ من العلماء بواقع ستة من كل قبيلة، وأرسلهم إلى مصر وجلسوا في أماكن منفصلة ، ⇐

ذُكرت " آشير Asher " في سجلات سيتي الأول (١٣٠٩ - ١٢٩١ ق.م) ورعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) ، وكذلك " إسرائيلو Israilu " (إسرائيل) في عهد مرنبتاح (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م) ، أو خلال فترة الاضطرابات التي أعقبت موته)) .

وقد أخذ بعض الباحثين[١] بهذا الرأي ، وذهبوا إلى أن دخول بني إسرائيل إلى مصر يجب أن يؤرخ بحوالي نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، أو بحوالي سنة ١٤٣٠ ق.م على وجه التحديد .

وقد رد بعض الباحثين[٢] هذا الرأي لأسبابٍ ذكروا منها :

١ - تعارض هذا الرأي مع ما ورد في التوراة[٣] من إثبات حقيقة قدومهم إلى مصر بسبب ما حل بأرض كنعان من القحط والجوع الشديد ، ثم تعارضه مع ما ورد في القرآن الكريم[٤] من دعوة يوسف عليه السلام لهم بالمجيء إلى مصر بأهلهم أجمعين ، وليس بسبب طرد الأدوميين لهم .

٢ - ذكرت التوراة[٥] أن مدة إقامة بني إسرائيل في مصر كانت أربعمائة وثلاثين عاماً ، بينما هذا الرأي يحدد تلك المدة بـ٢١٥ عاماً بناءً على الترجمة السبعينية للتوراة .

٣ - أنه يربط بين دخول إبراهيم عليه السلام إلى مصر وخروجه منها ، وبين عهد الهكسوس . الأمر الذي لا يتفق والقرائن التاريخية .

= وأنجزوا في ٧٢ يوماً ترجمة يونانية للتوراة العبرية عُرفت باسم الترجمة السبعينية . وترجع أهمية الترجمة السبعينية إلى أنها نُقلت عن نصوص فُقدت تحوي جميع كتب القانون الغربي ، وإن كان مخطوط الترجمة الأولى مفقوداً . وهناك ترجمات يونانية أخرى مثل : اكوبلا ، ثيودينون ، سيماخوس ، موجودة في بعض المتاحف ، غير أن بعضها لم يبق منها إلا آثار تدل عليها . انظر :

بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٧٦٨ وكذا

محمد شفيق غربال وآخرون : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٩٥٩ وكذا

مصطفى كمال عبد العليم وسيد فرج راشد : المرجع السابق ، ص ٢٢٠ هامش ٣ .

(١) حسن أحمد محمود وآخرون : المرجع السابق ، ص ٣٥٢ وكذا

Eissfeldt , O . , Op . Cit . , P . 322 .

(٢) صابر عبد الرحمن طعيمة : اليهود بين الدين والتاريخ ، ص ١٢٧ - ص ١٢٨ وكذا

محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٢٥٨ - ص ٢٥٩ .

(٣) سفر التكوين ٤٢ - الاصحاح ٤٧ .

(٤) سورة يوسف الآيات (٥٨ - ١٠٠) .

(٥) سفر الخروج ١٢ : ٤٠ - ٤١ .

٤ – هذا الرأي يربط بين روايات إسرائيلية تتعلق بأحداث مبكرة في فلسطين ، وبين دخولهم إلى مصر .

٥ – ذكرت التوراة[١] أن جميع بني إسرائيل قد وفدوا إلى مصر ، بينما هذا الرأي يستثني أسباطاً من بني إسرائيل في أنهم لم يذهبوا إلى مصر .

ويتابع أدولف لودز بقوله[٢] : ((وأما الملامح الخاصة لنظرية " جرسمان Gressmann " فهي ضغط الأحداث إلى أقصر مدة زمنية ممكنة ، فهو يرى أن الخابيرو ينتمون إلى موجة من موجات الغزاة الآراميين سابقة للتي أتت بالإسرائيليين . وأن هؤلاء الاسرائيليين فقط استطاعوا الوصول إلى حدود فلسطين حوالي سنة ١٣٠٠ ق.م ، وأن جزءاً منهم ذهب على الفور إلى مصر ؛ حيث أقاموا هناك مدة جيلين فقط ، وهو الجزء الذي يتطلبه الجزء الأقدم من التقاليد الإسرائيلية (حسب ما ورد في سفر التكوين ١٥ : ١٦ ؛ وسفر الخروج ١ : ٦ – ٨ ؛ ٦ : ٢٠) ، الذي يمكن القول أنه خمسين عاماً . ففي أثناء عهد رعمسيس الثاني ، فرعون الإضطهاد ، فروا من مصر ، واستقروا في كنعان (حوالي سنة ١٢٣٠ ق.م) ؛ ومن ثم فليس هناك شيء مدهش في الحقيقة أن يذكر مرنبتاح إسرائيل في سنة ١٢٢٩ ق.م من بين الشعوب التي أخضعها خلال حملته في فلسطين)) .

وقد تصدى محمد بيومي مهران أيضاً لهذه النظرية فقال[٣] :

((أما نظرية " جرسمان " فهي تضغط الأحداث بدرجة كبيرة ، هذا فضلاً عن اعتمادها على تفسيرات معينة لنصوص معينة ، وفي نفس الوقت ، فإنها تتجاهل نصوصاً أخرى تحدد بصراحة مدة الإقامة بـ٤٣٠ سنة ، أضف إلى ذلك أن تحديداً لدخول بني إسرائيل مصر في عام ١٣٠٠ ق.م والخروج بعام ١٢٣٠ ق.م ، يجعل مدة إقامة بني إسرائيل في مصر حوالي ٧٠ عاماً ، كما يحددها جرسمان نفسه – وهو أمر يخالف كل التقاليد العبرية ، بل إن القصة كلها – كما يقدمها لنا جرسمان – إنما تخالف كل التقاليد اليهودية الخاصة بقصة دخول وخروج بني إسرائيل من مصر)) .

---

(١) سفر التكوين ٤٦ : ٥ – ٢٧ .

(٢) Lods , A . , Op . Cit . , PP . 184 - 185 .

(٣) دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (٧) إسرائيل – الكتاب الأول – التاريخ ، ص ٢٥٩ .

والرأي الذي يرجحه الباحث في موضوع تاريخ وفود بني إسرائيل إلى مصر ، رغم عدم وجود دليل قطعي الثبوت في ذلك ، هو الرأي الأول . فيبدو – والله أعلم – أن يوسف عليه السلام ، ومن ثم يعقوب عليه السلام وبنيه وأهلهم أجمعين ، وفدوا إلى مصر في عهد الهكسوس ، الذي كان وجودهم فيها عاملاً مساعداً على مجيئهم إلى مصر ، فضلاً عن العامل الرئيس وهو وجود يوسف عليه السلام مسئولاً عن خزائن مصر وإدارة شؤونها الإقتصادية .

ومما هو جدير بالذكر ، أنه لم يرد في النقوش المصرية القديمة ذكرٌ لبني إسرائيل أثناء وجودهم في مصر ، ولا حتى إشارة إلى يوسف عليه السلام ، رغم ما وصل إليه من مكانة عالية الشأن في المجتمع المصري القديم .

ويُعلل أحد المؤرخين[١] ذلك : بأن يوسف عليه السلام ، رغم مكانته في حكومة الملك ، إلا أنه لم يتعد أن كان وزير مالية وحسب[٢] ، وأن كل عمل عظيم يقوم به ويستحق التسجيل كان لابد من نسبته إلى الملك ، الذي كان يُسجّل ما يُعظّمه ويُشيد بذكره ، الأمر الذي جعل اسم يوسف لا يظهر فيها . إضافة إلى أن الإسرائيليين لم يكن لهم مكانة إجتماعية أو سياسية في عهد يوسف عليه السلام ؛ إذ كانوا من رُعاة البدو ، ولم يكونوا يُعْنَونَ بتدوين أعمالهم في السجلات الرسمية .

ويذهب محمد بيومي مهران[٣] : إلى أن من أسباب تجاهل ذكر يوسف عليه السلام وبني إسرائيل في المصادر المصرية القديمة ، أنه كان معاصراً لفترة حكم الهكسوس في مصر ، وهو العصر الذي امتاز بأنه من أغمض فترات التاريخ المصري القديم ؛ وذلك بسبب

---

(١) سليم حسن : مصر القديمة ، ج ٧ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠ م ، ص ١٠٧ – ص ١٠٨ .

(٢) يرى الباحث أن المؤلف هنا (سليم حسن) قد أغفل جانباً هاماً جداً من حياة يوسف عليه السلام أثناء وجوده في مصر ، وهو كونه رسولاً من عند الله ، مؤيداً بالوحي الرباني . فالأمر لم يتوقف على كونه " وزير مالية وحسب " كما ذكر المؤلف ؛ بل قام عليه الصلاة والسلام بواجبه كأمينٍ وحفيظٍ على خزائن مصر وشؤونها الإقتصادية ، خاصة في السنين العجاف التي مرت بها البلاد ؛ إضافة إلى قيامه بواجب الرسالة والدعوة إلى الله عز وجل ، وبيان عقيدة التوحيد لله رب العالمين ، وتعريف الناس بخالقهم سبحانه وتعالى ليعبدوه وحده دون شريك .

قال تعالى : ﴿ ولقد جاءكم يوسفُ من قبلُ بالبينات فما زلتم في شكٍ مما جاءكم به حتى إذا هلك قُلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يُضل الله من هو مسرفٌ مرتاب ﴾ سورة غافر ، الآية (٣٤) .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٥٤ – ص ٢٥٥ .

كراهية المصريين لذلك العصر ، فلم يرغبوا بتسجيل أحداثه ، و لم يحاولوا الإشارة إليه إلا على عهد الملكة حتشبسوت (١٤٩٠ – ١٤٦٨ ق.م) . إضافة إلى قيام المصريين بتدمير آثار الهكسوس بعد طردهم من مصر في عام ١٥٧٥ ق.م ، وتحريرها من سيطرتهم .

ولو كان بنو إسرائيل قد وفدوا إلى مصر قبل عصر الهكسوس فيها ، لكان من الغريب فعلاً عدم الإشارة إليهم . مما يُرجح أنهم وفدوا إلى مصر في عهدهم ، خاصة وأن الملك الذي كان معاصراً ليوسف عليه السلام لم يكن من المصريين ؛ بدليل أنه أسند إلى يوسف جانباً رئاسياً مهماً في دولته ، بل ورحب بمجيء أبيه وإخوته . ووفقاً لرواية التوراة[١] ، فإن المصريين كانوا يُبغضون الأجانب ويعتزلونهم ، ولاسيما الرعاة منهم ، إذ هم رجس عندهم[٢] .

مكان إقامتهم في مصر :

وفقاً لما جاء في التوراة[٣] :

((ثم قال يوسفُ لإخوته ولبيتِ أبيه أَصْعَدُ وأُخبِرُ فرعون وأقولُ له إخوتي وبيتُ أبي الذين في أرض كنعان جاءوا إليَّ . والرجالُ رعاة غنم . فإنهم كانوا أهل مواشٍ وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل مالهم . فيكونُ إذا دعاكم فرعونُ وقال ما صناعتكم أن تقولوا عبيدُك أهلُ مواشٍ منذُ صِبانا إلى الآن نحن وآباؤنا جميعاً . لكي تسكنوا في أرض جاسان . لأن كل راعي غنم رجسٌ للمصريين)) .

فيُبين هذا النص ، أن يوسف عليه السلام ، كان يُريد أن يسكن بنو إسرائيل في أرض جاسان ، وهو الأمر الذي تحقق له ، عندما طلبَ من الملك ذلك ، حيث أجابه الملك : ((أرضُ مصر قُدَّامَك . في أفضلِ الأرض أسكِنْ أباك وإخوتك . ليسكنوا في أرض جاسان))[٤] .

وأرى أن " أرض جاسان " هي نفسها " أرض جوشن " التي يرد ذكرها كثيراً في المصادر والمراجع المختلفة، إذ يبدو أنه حدث تصحيف للكلمة ، فصارت تُلفظ "جوشن".

---

(١) سفر التكوين ٤٦ : ٣٤ .

(٢) هارفي بورتر : موسوعة مختصر التاريخ القديم ، الطبعة الأولى ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م ، ص ١١٥ – ص ١١٦ .

(٣) سفر التكوين ٤٦ : ٣١ – ٣٤ .

(٤) سفر التكوين ٤٧ : ٦ .

ويرى بعض الباحثين[١] : أن كلمة " جوشن " تعني المراعي أو المواشي . فجوشن ، وجوشا ، وجاشنو ، وجوسن ، وجوسان ، وجوساني ، كلها ألفاظ تدور حول المكان الذي تُحفظ فيه المواشي ، وهو الحظيرة . أو أن يكون معناه " مرعى " ، وهو ما عُرف عن بني إسرائيل من كون غالبيتهم رعاة .

وتجدر الإشارة إلى اختلاف وجهات النظر فيما يتعلق بذكر أرض جوشن في النصوص المصرية القديمة .

فهناك رأي يذهب صاحبه إلى القول[٢] : بأنه لا يوجد أي ذكر لجوشن في أي نقشٍ مصري قديم .

ورأي آخر[٣] يؤكد الإشارة إلى ورود اسم ذلك المكان في النصوص المصرية القديمة بلفظ " أرض جسم أو جاسام " .

وهذا اللفظ شبيه بما ورد في الترجمة السبعينية للتوراة ، التي تُسمي المكان " جسم ارابياس "[٤] .

غير أنه ورد في التوراة باسم آخر : « فأسكن يوسفُ أباه وإخوته وأعطاهم مُلْكاً في أرض مصر في أفضل الأرض في أرض رعمسيس كما أمر فرعون »[٥] .

ولاشك أن هذا النص يعتريه خطأ تاريخي واضح ، إذ أن كلمة " رعمسيس " لم تُستعمل إلا منذ الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ - ١١٨٤ ق.م) وليس منذ عهد الهكسوس الذين سيطروا على الحكم في مصر من حوالي سنة ١٧٢٥ ق.م - ١٥٧٥ ق.م، وهو العصر الذي يُفترض فيه دخول بني إسرائيل إلى مصر[٦] .

---

(١) عبد المحسن الخشاب : تاريخ اليهود القديم بمصر ، الطبعة الأولى ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م ، ص ٣١ ، ص ٢٣٢ هامش ٢٢ وكذا

Albright , W . F . , Op . Cit . , P . 242 note 58 .

(٢) جيمس بيكي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٩ .

(٣) أحمد عبد الحميد يوسف : مصر في القرآن والسنة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ص ٦٧ وكذا محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٢٣٣ وكذا

Lods , A . , Op . Cit . , P . 173 .

(٤) مجلة المقتطف ، المجلد ٣٩ ، الجزء ٢ ، الجامعة الأميريكية ، بيروت ، ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م ، باب المسائل ، ص ٢٠١ .

(٥) سفر التكوين ٤٧ : ١١ .

(٦) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٢٣٣ .

ووفقاً لما ورد في سفر يشوع[١] ، فإن هناك مكان آخر في جنوب فلسطين يُسمى أيضاً " جُوشن "[٢] ، فقد جاء في النص : ((فضربهم يشوع من قادش برنيع إلى غزة وجميع أرض جُوشن إلى جبعون)) .

وما إطلاق اسم جوشن على منطقة كانت واقعة جنوب فلسطين إلا لاحتمال إحياء لذكرى مصر التي علقت بأذهان بني إسرائيل ، و لم يستطيعوا لها فِكاكاً . وربما أطلق بنو إسرائيل عليها هذا الاسم لتشابه خصوبتها بأرض جوشن في مصر[٣] .

لذلك يبدو واضحاً تضارب الروايات التوراتية، حول تحديد أرض جوشن (جاسان) التي استقر فيها بنو إسرائيل في مصر . وبالتالي فقد اختلفت أيضاً الآراء التاريخية في تحديد تلك المنطقة تحديداً دقيقاً .

ومن هذه الآراء التاريخية رأي أحد المؤرخين الأوائل[٤] ، الذي يذهب إلى أن يوسف عليه السلام أنزل بني إسرائيل في منطقةٍ ريفية برية خصبة ، تقع فيما بين مدينة " أون "[٥] إلى " الفرما "[٦] .

---

(١) الاصحاح ١٠ : ٤١ . وانظر السفر نفسه ١١ : ١٦ ؛ ١٥ : ٥١ .

(٢) تقع هذه المنطقة في جنوب يهوذا ، فيما بين غزة ، وجبعون (وهي قرية في الشمال الغربي من القدس على مسافة ١٠ أكيال وتسمى الآن الجيب) . أو أن تكون جوشن هي قرية الضاهرية الحالية التي تقع في الجنوب الغربي من الخليل مسافة ٢٣ كيلاً . انظر :

بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٢٤٦ ، ص ٢٧٧ وكذا

محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٢٣٤ وكذا

محمد محمد شراب : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ ، ص ٤٩٤ .

(٣) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٢٣٦ - ص ٢٣٧ .

(٤) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ١٧ .

(٥) أون : ورد اسم " أون " في اللغة المصرية القديمة بلفظ " ايونو " أو " ايون " iwnw - Rꜥ أي رع معبود الشمس . وكتبت في النقوش المصرية القديمة بشكل  . ومعنى " أون " الشمس . وكانت عاصمة مقاطعة " واست " (الأقصر الحالية) ؛ وهي المقاطعة الرابعة من مقاطعات الوجه القبلي . وسماها الاغريق باسم " هليوبوليس Heliopolis " . وسماها البابليون باسم " آنا Ana " . أما العرب فأطلقوا عليها اسم " عين شمس " بعد أن كانت معروفة قبل فتح مصر باسم " مدينة الشمس " ، إذ كان بجوار المدينة عين ماء معروفة ، فسموا المدينة باسم " عين شمس " .

وتقع أون شمال قرية المطرية على مسافة حوالي ١٦ كيلاً شمال شرقي القاهرة . انظر :

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٧٨ - ص ١٧٩ وكذا

سليم حسن : مصر القديمة ، الجزء الثالث ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٧ م ، ص ١ وكذا

سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ١٦ وكذا

Gardiner , A . H . , Op . Cit . vol . II , PP . 144* - 145* .

(٦) الفرما : تقع منطقة آثار الفرما في النطاق الإداري لمحافظة شمال سيناء ، وفي الشمال الغربي منها وعلى مسافة ٤ أكيال شمال قرية بالوظة الحالية .

⇐

وقد تعددت الآراء الحديثة في تحديد أرض جوشن . وأهم هذه الآراء :

- **الرأي الأول** : وهو رأي ستانلي آرثر كوك[١] ، حيث ذهب إلى القول :

أن أرض جوشن تقع بالقرب من وادي طميلات ، وأنها كانت قريبة من " نهر مصر " (وادي العريش) بحوالي ٨٠ كيلاً جنوب غزة[٢] .

- **الرأي الثاني** : هو رأي " بروكش Brugseh " الذي يرى أن أرض جوشن تتطابق بالمدينة والاقليم الذي عُرف عند المصريين باسم " پرسويد " (صفط الحنة الحالية). وهو أمر غير مؤكد ، إلا أن هناك احتمالاً بأن تكون أرض جوشن جزءاً من شرق الدلتا ، بما فيها وادي طميلات مع عدم معرفة امتدادها وحدودها[٣] .

= وقد عرفت الفرما باسم " بر - آمون " أي مدينة الإله آمون ، في العصر الفرعوني . ثم عُرفت في العصر القبطي باسم " بَرَما Barama " أو Bapamia ، وحوّلت إلى اسم BapAmoyn ، وعُرفت في اليونانية باسم " بيلوز " نسبة للفرع البيلوزي للنيل . ومن هذه التسمية جاء الاسم الحديث للمنطقة المجاورة لها التي تعرف الآن باسم " بالوظة " . ويُعتقد أن تسمية المنطقة باسم الفرما بدأت منذ الفتح الإسلامي لمصر على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه سنة ١٩ هـ / ٦٤٠ م . انظر :

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ - ص ٢٥٦ وكذا

محمد عبد المقصود عبد الرحيم وآخرون : المرجع السابق ، ص ١١٠ وكذا

Gardiner , A . H . , Op . Cit . , P . 172* .

(١) Cook , S . A ., " The Rise of Israel " CAH, vol . II , 1940 , P . 359 .

(٢) غزة : تقع مدينة غزة على ساحل البحر المتوسط ، شمال عسقلان ، وتُعدّ من أقدم المدن التي بناها الكنعانيون . وكلمة " غزة " كلمة كنعانية تعني " القوي " أو " المخازن " أو " الكنوز " . وكانت قد وردت في النصوص المصرية القديمة بلفظ Gdt  التي تعني غزة . وقد أطلق عليها الفرس اسم " هازاتو " ، وسماها العبريون باسم غزة . أما العرب فسموها " غزة هاشم " نسبة إلى هاشم بن عبد مناف الجد الثاني للرسول ﷺ ، الذي مات فيها وهو راجع بتجارته إلى الحجاز .

وكانت غزة من المدن الهامة على الطريق الحربي القديم ، لذلك وردت ضمن المدن التي كانت في طريق حملات تحتمس الثالث إلى سوريا وفلسطين . انظر :

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٠٢ - ص ٢٠٣ وكذا

محمد سلامة النحال : المرجع السابق ، ص ١٢٦ - ص ١٢٧ وكذا

محمد محمد شراب : المرجع السابق ، ص ٥٦٧ وكذا

Gardiner , A . H . , Op . Cit . , vol . I , P . 191* .

(٣) فلندرز بتري : " خروج بني إسرائيل من مصر " مجلة المقتطف ، المجلد ٣١ ، الجزء ٧ ، الجامعة الأميريكية ، بيروت ، ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦ م ، ص ٥٣٨ وكذا

جيمس بيكي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٩ .

– **الرأي الثالث :** أن أرض جوشن تقع في وادي طميلات ، الذي يمتد من أقصى المصب الشرقي للنيل شرقاً إلى بحيرة التمساح (بركة التمساح) تقريباً في وسط قناة السويس ، وهي تُمثل بقايا أرض خصبة على الحدود الشرقية لدلتا النيل ، مقابل صحراء سيناء ، حيث يبدو أنه كان لوادي طميلات ، أو جزء منه في الأزمنة القديمة اسم يظهر في سفر الخروج ٩: ٢٦ بصيغة أرض جوشن أو أرض جاسان، حيث سكن الإسرائيليون(١).

– **الرأي الرابع :** أن أرض جوشن تقع في شبه جزيرة سيناء ، وتمتد فيما بين تانيس ومنطقة العريش ، فضلاً عن وادي طميلات الذي ينحدر من الشرق إلى الغرب فيما بين الزقازيق والإسماعيلية(٢) .

– **الرأي الخامس :** أن أرض جوشن هي المنطقة الواقعة شرق الدلتا ، وهي المعروفة الآن بالشرقية ، الممتدة من جوار أبي زعبل إلى البحر ، ومن برية جعفر إلى وادي طميلات ، وهي تكون جزءاً من أرض رعمسيس(٣) .

– **الرأي السادس :** وهو رأي أدولف لودز(٤) الذي يرى أن أرض جوشن قد تم تحديدها عادةً بعد لبسيوس Lepsius (١٨٨٣ م) وناڤيل Naville (١٨٧٥ - ١٩٢٤ م) وفلندرز بتري Flinders Petrie بأنها وادي طميلات ، الذي يمتد شرقاً وغرباً من الزقازيق (بالقرب من بوبسطة القديمة) إلى الإسماعيلية . إلا أن هذا التحقيق غير مؤكد ؛ لأنه بناءً على رأي ألن جاردنر Alan Gardiner فإن الكلمة المصرية التي قرأها بروكش Brugseh (١٨٢٧ - ١٨٩٤ م) وناڤيل وهي : " كِس Kes " أو " كُسِمْ (جُسم) qosem " (وهي جوشن في العبرية) واللذين كانا قد اعتقدا أنها قُطر ما ، يجب أن تكون قِرأتها " شسمت Sesmet " (وتُقرأ بشكل آخر شِسِمْ Ṣhesem) وهو اسم كان لسيناء .

---

(١) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٢٣٤ وكذا
أحمد أمين سليم : المرجع السابق ، ص ٣٣٥ وكذا
أدولف إرمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ١٩ وكذا
Noth , M . , Op . Cit . , P . 113 .

(٢) حسن أحمد محمود وآخرون : المرجع السابق ، ص ٣٥١ .

(٣) محمد فتح الله بدران : المرجع السابق ، ص ٥٦٧ وكذا
بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٢٤٢ - ص ٢٤٣ وكذا
عبد السميع سالم الهراوي : المرجع السابق ، ص ٢٤٦ .

(٤) Lods , A . , Op . Cit . , PP . 172 - 173 .

ويؤيد الباحث الرأي الثالث ، والذي أيده من قبلُ محمد بيومي مهران[١] ، في تحديده لأرض جوشن ، وهو أنها تقع في وادي طميلات ، الذي يمتد من فرع النيل الشرقي (البيلوزي) متجهاً نحو الشرق ، حتى بحيرة التمساح . وهذا الرأي هو أكثر الآراء التاريخية إتفاقاً مع وصف المنطقة التي أقام فيها بنو إسرائيل .

ومما يقوي هذا الرأي ويرجحه ، أن منطقة الدلتا كانت من المناطق الهامة كمنطقة جذب للوافدين ، حيث أن فيها أراضٍ فسيحة ، صالحة للزراعة ، والمراعي الكثيرة ، وفيها بحارٍ ومستنقعاتٍ مائية كثيرة ، الأمر الذي ساعد على توجه كثير من الوافدين إليها .

وقد كان وادي طميلات بالذات في منطقة شرق الدلتا أكثر الأماكن تعرضاً لتلك الأحداث ، وكذلك الحافة الشرقية للأراضي الزراعية ؛ حيث كانت تُمثّل طريق الهجرة إلى مصر ، فتتابعت عليها جموعٌ كثيرة من الوافدين الساميين وغيرهم ، بخلاف قلب الدلتا الذي كان محمياً نسبياً . أما غرب الدلتا فقد كان أكثر تعرضاً لغزوات الليبيين القدماء . لذلك فإن منطقة شرق الدلتا كانت من المناطق السهلة للإتصال بالعالم الخارجي عن طريق البر شرقاً وغرباً ، وعن طريق البحر غرباً ، فكانت أكثر تعرضاً من غيرها للغزاة والوافدين[٢] .

وعلى هذا الأساس اعتنى الملوك المصريون منذ الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ – ١٧٨٦ ق.م) بتحصين هذه المنطقة ، التي كانت تُعتبر نقطة ضعف في استحكامات مصر الطبيعية في شرقي الدلتا . ومن خلال " نبوءة نفرتي "[٣] يتبين أن أمنمحات الأول

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣٦ .

(٢) سليمان حُزّين : " سكان مصر ودراسة تاريخهم الجنسي " ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الأول ، العددان الأول والثاني ، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٤٨ م ، ص ١٢ – ص ١٣ وكذا

سليمان حزين وآخرون : تاريخ الحضارة المصرية – العصر الفرعوني ، المجلد الأول – البيئة والإنسان والحضارة في وادي النيل الأدنى ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢م ، ص ٢٣ .

(٣) نبوءة نفرتي The Prophecy of Neferti : وتُعرف أيضاً ببردية " نفر – روهو Nefer - rohu " وهي محفوظة في متحف لينينجراد في روسيا تحت رقم ١١١٦ ب ، وقد نشرها العالم الأثري الروسي جولينيشف W. Golenischeff في بطرسبورغ سنة ١٩١٣ م . وترجمها ألن جاردنر أيضاً . كما ترجمها أيضاً أدولف إرمان . وكانت هذه البردية من القطع الأدبية التي أقبل عليها تلاميذ الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة .
⇐

(١٩٩١ – ١٩٦٢ ق.م) مؤسس الأسرة الثانية عشرة أدرك مدى الخطر الذي يتهدد مصر من هذه الناحية ، بعد أن تسرب إلى الدلتا كثير من الآسيويين (عامو) ، فشيد في حوالي سنة ١٩٧٠ ق.م حصناً كبيراً على حدود الدلتا الشرقية عُرف باسم " جدار الحاكم " ، أو " أسوار الحاكم " ، أو " أسوار الأمير " الذي شُيد لرد الآسيويين ، ولتقضي على " المتنقلين على الرمال "(١) .

وعلى أي حال ، فقد أقام بنو إسرائيل في أرض جوشن ، بعد موافقة الملك على طلب يوسف عليه السلام . وقد تكون موافقة الملك على ذلك – حسب ما يرى أحد المؤرخين(٢) – نابعة من رغبته في أن يكونوا وقايةً لأرض مصر من الغزاة ، الذين طالما كانوا يجولون بالقرب من تلك المنطقة ، ويبثون الخوف بين سكانها .

ومن الممكن أيضاً أن يكون يوسف عليه السلام قد أدرك بمعرفته لهم كثرة شرورهم، فأراد أن يكونوا بعيدين عن الإختلاط بالمجتمع المصري ؛ حتى لا تظهر عيوبهم،

::: وهذه البردية تصف المآسي والاضطرابات التي أعقبت الأسرة الحادية عشرة (حوالي ٢١٣٥ – ٢٠٠٠ ق.م) وقد كُتبت في عهد الملك أمنمحات الأول (١٩٩١ – ١٩٦٢ ق.م) ، ولكن كاتبها نسب تأليفها إلى أيام الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة . والباعث على كتابة هذه النبوءة هو الدعوة إلى تمجيد أعمال مؤسس الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ – ١٧٨٦ ق.م) أمنمحات الأول ، وأنه تولى العرش بأمر الآلهة وسمعته اذنا الملك سنفرو الذي ألّههُ المصريون في الأسرة الثانية عشرة . انظر :

أحمد فخري وآخرون : المرجع السابق ، ص ٤٥٠ – ص ٤٥١ وكذا

ألن جاردنر : المرجع السابق ، ص ١٤٦ – ص ١٤٧ وكذا

Gardiner , A . H . , Egypt of the Pharaohs , PP . 125 - 126 ;

Wilson , J . A ., " Oracles and Prophecies - The Prophecy of Neferti " , ANET , PP . 444 - 446 .

(١) عبد المنعم أبو بكر وآخرون : تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني ، المجلد الأول – النظم الاجتماعية ، ص ١٢٠ وكذا

عبد العزيز صالح : شبه الجزيرة العربية في المصادر المصرية القديمة ، ص ٣٠٥ وكذا

محمد بيومي مهران : مصر والشرق الأدنى القديم (٢) مصر ، الجزء الثاني ، الطبعة الرابعة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٣٨٧ وكذا

أدولف إرمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٦٠٥ وكذا

ألن جاردنر : المرجع السابق ، ص ٥٣ ، ص ١٥٢ وكذا

نيقولا جريمال : المرجع السابق ، ص ٢٠٦ وكذا

Gardiner , A . H . , Op . Cit . , p . p . 36 , 131 .

(٢) هارفي بورتر : المرجع السابق ، ص ١١٦ .

وتتجدد شـرورهـم ، ويلتفـت الحكـام إلى فسـادهـم وإفسـادهـم ، وبذلـك يجـب طردهـم ، فتتجدد أحزان أبيهم ، وتنتشـر مخـازيهم ، ولا يستطيع أحـد حمـايتهم . لذلـك تضـاعف تشديد يوسف عليه السلام عليهم ، وازدادت رقابته عليهم ، وفي يده القـوة المادية ، فهـو عزيز مصر وكبير وزرائها ، والقوة الدينية ؛ لأنه رسـول ا لله الـذي يـؤدي رسـالته ويدعـو إليها[1] .

لذلك اتصف بنو إسرائيل بالعزلة بأنفسـهم ، واللـوذ بعصبيتهـم ، وعـدم اختلاطهـم بأهل البلاد المصريين ؛ الأمـر الـذي أدى إلى نفـور المصريـين منهـم ، والشـك فيهـم ، بـل والحذر منهم ، بعد أن أحسَّ المصريون نفور بني إسرائيل مـن الـولاء للبلـد الـذي آواهـم ، وعاشوا فيه[2] .

وقد تكون هناك أسبابٌ أخرى لرغبة بـني إسـرائيل في العزلـة بأنفسـهم عـن المجتمـع المصري أثناء إقامتهم في مصر ، منها :

ما أشـارت إليـه التـوراة : « لأن كـل راعـي غنـم رجـسٌ للمصريـين »[3] . فهـذه الكراهية من قِبَلِ المصريين للرعاة تدل على أن ذلك من الأمور الدينية عندهـم ، فقـد كـان الرعاة يذبحون بعض البهائم التي كان المصريون يعبدونها . إضافة إلى أن الرعاة أيضاً كانوا يتجولون من مكانٍ لآخر ، في الوقت الذي كان المصريون يرون أن لا حق لهـم في الإقامـة في أرضهم[4] .

وقد كان المجتمع المصـري مجتمعـاً مدنيـاً ، يتمتـع بمظـاهر التحـرر ، ويُعـدّ الأجـانب جاهلين . وكان يُميز بين " الناس " من ناحية ، وبين الآسيويين ، أو الليبيين ، أو النوبيين، من ناحية أخرى . فكلمة " الناس " في هذا الصدد تعـني المصريـين أو " البشـر " متمـيزين

---

(١) محمد فتح ا لله بدران : المرجع السابق ؛ ص ٥٦٧ وكذا
صابر عبد الرحمن طعيمة : بنو إسرائيل بين نبأ القرآن الكريم وخبر العهد القديم ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ؛ ص ١٧٩ – ص ١٨٠ .

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ؛ ص ٧٢ ، ص ٧٣ وكذا
عباس محمود العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ، ص ٦٢ ، ص ٦٣ وكذا
أحمد شلبي : المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٣) سفر التكوين ٤٦ : ٣٤ .

(٤) بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ١١١٧ وكذا
وليم مارش : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٥ .

عن الآلهة ؛ أو أنهم " البشر " متميزين عن الحيوانات . فكان المصريون - بهذا المعنى - يعتبرون أنفسهم أنهم وحدهم " الناس " أما الأجانب فلا[١] .

كذلك من الممكن أن يكون بنو إسرائيل قد كانت لديهم الرغبة في أن يظلوا قريبين من حدود مصر الشرقية وسيناء المُطلة على أرض كنعان ، كي يقيموا ما أحبوا الإقامة ، ويرحلوا عندما يعزموا على الرحيل[٢] .

ويرى أحد المؤرخين[٣] : أن هذه العزلة كانت خيراً بالنسبة لبني إسرائيل ؛ إذ أنهم ظلوا محافظين على دينهم وآدابهم ولغتهم ، فكانت عاملاً هاماً على وقايتهم من سَرَيَان عدوى عقائد المصريين إليهم ، وتمسّكهم بعقيدة توحيد الله عز وجل ، والمحافظة على تقاليد آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام .

وظل حال بني إسرائيل كذلك إلى أن توفي يوسف عليه الصلاة والسلام ، إذ ورد في التوراة : ((ثم مات يوسف وهو ابن مائة وعشر سنين . فحنّطوه ووضِعَ في تابوتٍ في مصر))[٤] .

وكان يوسف عليه السلام ، قد أوصى بني إسرائيل قبل وفاته ، أن يحملوه معهم إذا خرجوا من مصر ، فيدفنوه بالقرب من آبائه ، إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام . وهو ما تم بالفعل في أيام موسى عليه السلام ، حيث أخذ معه عظام يوسف عليه السلام عند الخروج من مصر ، كما أشارت لذلك التوراة : ((وأخذ موسى عظام يوسف معه . لأنه كان قد استحلف بني إسرائيل بِحَلْفٍ قائلاً إن الله سيفتقدُكم فتُصعِدون عظامي من هنا معكم))[٥] .

---

(١) هنري فرانكفورت ، هـ . أ . فرانكفورت ، جون . أ . ولسُن ، ثوركيلد جاكوبسن : ما قبل الفلسفة الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى ، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ، مراجعة محمود الأمين ، دار مكتبة الحياة (فرع بغداد) ، بغداد ، بدون تاريخ ، ص ٤٥ - ص ٤٦ .

(٢) كمال أحمد عون : اليهود من كتابهم المقدس ، دار الشعب ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٨٥ .

(٣) يوسف الدبس : المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٨٥ .

(٤) سفر التكوين ٥٠ : ٢٦ .

(٥) سفر الخروج ١٣ : ١٩ .

وشاء الله سبحانه وتعالى أن يظل بنو إسرائيل في مصر ، بعد وفاة يوسف عليه السلام ، ومرت عليهم الأعوام الكثيرة ، فزاد عددهم ، وقويت شوكتهم ، فقد جاء في نص التوراة :

((وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيراً جداً وامتلأت الأرض منهم))[1] .

وظلوا أيضاً على صلةٍ وثيقة بالحكام الهكسوس ، إلى أن دار الزمان دورته ، واستطاع أحمس الأول (١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق.م) طرد الهكسوس من مصر ، وشن الحرب على كل من كان بجانبهم ، ومن بينهم بني إسرائيل الذين كانوا يوالونهم ويؤازرونهم .

وبذلك بدأت مرحلة جديدة في تاريخ بني إسرائيل في مصر ، اتسمت بظهور العداء الصريح تجاههم ، حيث سادت الجفوة الشديدة بين المصريين وبينهم ، الأمر الذي أدى إلى تسخيرهم وإذلالهم واضطهادهم بقسوة وعنف .

---

(١) سفر الخروج ١ : ٧ .

تسخير بني إسرائيل في مصر :

وفقاً لما جاء في التوراة : « ثم قام ملكٌ جديدٌ على مصر لم يكن يعرفُ يوسف . فقال لشعبهِ هوذا بنو إسرائيل شعبٌ أكثرُ وأعظمُ مِنّا . هَلُمَّ نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حربٌ أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض . فجعلوا عليهم رؤساء تسخيرٍ لكي يُذلّوهم بأثقالهم »[١] .

ويرى أحد المؤرخين[٢] أن فرعون مصر الذي لم يكن يعرف يوسف عليه السلام ربما كان رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) الذي قام بالتنكيل ببني إسرائيل . وأن السبب في عدم معرفته له ، أن يوسف عليه السلام عاش في فترة سابقة وطويلة تعود إلى عهد الهكسوس ، وكان موظفاً كبيراً في دولتهم ، فارتبط اسمه فيما بعد بأحداث عصر الهكسوس في مصر ، مما يعني أن أي إعجابٍ بيوسف عليه السلام إنما يعني - على الأقل في نظر فرعون - الثناء على دولة الهكسوس ، فضلاً عن كونه رجلاً غريباً من الآسيويين .

أما قول فرعون لشعبه في النص السابق « هوذا بنو إسرائيل شعبٌ أكثرُ وأعظمُ منا » فهو لاشك أمرٌ غير صحيح ، إذ كان بنو إسرائيل في مصر - في أكثر الأحيان - مجرد رعاة أغنام ، في حين كان المصريون هم أصحاب البلاد الأصلاء ، والمالكون للسلطة والقوة والثروة . فكيف يتعرض بنو إسرائيل للإضطهاد إذا كانوا أكثر من المصريين ؟! مما يدل على مدى المبالغة التي ذهب إليها كاتب سفر الخروج[٣] .

وهذا يدل على أن قول فرعون أيضاً كذب ، ولعله أتى هذه المبالغة ، بل هذا الكذب ، ليُهيّج بُغض المصريين وعداوتهم لبني إسرائيل[٤] .

وقد أشار القرآن الكريم إلى تسخير بني إسرائيل وتعذيبهم ، وإيقاع العنت عليهم من قِبَلِ فرعون وملأهِ ، في أثناء حديثه عن امتنان الله عز وجل على بني إسرائيل .

---

(١) سفر الخروج ١ : ٨ - ١١ .

(٢) محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (٧) إسرائيل ، الكتاب الأول - التاريخ ، ص ٢٦٦ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٦٧ ، ص ٢٦٨ .

(٤) وليم مارش : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٦ .

قال تعالى : ﴿ **وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يُذبحون أبناءكم ويستحيونَ نساءكم وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم** ﴾[١] .

وقال تعالى لرسوليه موسى وهارون عليهما السلام : ﴿ **فأتياهُ فقولا إنا رسَوُلاَ ربِّك فأرْسِل معنا بني إسرائيل ولا تُعذّبهم** ﴾[٢] .

وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿ **وتلك نعمةٌ تَمنُّها عليَّ أن عبّدتَّ بني إسرائيل** ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ **إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شِيَعاً يستضعفُ طائفةً منهم يُذبح أبناءَهم ويستحيي نساءَهم إنه كان من المفسدين** ﴾[٤] .

والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة[٥] .

أما فيما يتعلق بأسباب إضطهاد بني إسرائيل وتسخيرهم في مصر ، فإن نص التوراة آنف الذكر[٦] أشار إلى أن سبب ذلك خوف المصريين من انضمام بني إسرائيل إلى الأعداء في حالة نشوب حرب ، وأيضاً خروجهم من مصر في حالة هزيمة الأعداء .

وإذا كان هذا الفرعون قد اختار للوقاية من شرور بني إسرائيل أسلوباً عنيفاً قاسياً ، فإن ذلك لم يكن اعتداءً مجانياً ، وإنما كان سببه من أقوى الأسباب التي تُخيف منهم أمةً متحضرة كمصر ، وتخيف في الوقت نفسه فرعونها المهيب ، وهو انعدام ولائهم لهذه البلاد، واستعدادهم للإنضمام إلى أعدائها وشن الحرب عليها[٧] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية (٤٩) .

(٢) سورة طه ، الآية (٤٧) .

(٣) سورة الشعراء ، الآية (٢٢) .

(٤) سورة القصص ، الآية (٤) .

(٥) انظر : سورة إبراهيم ، الآية (٦) .
سورة المؤمنون ، الآية (٤٦) .
سورة الصافات ، الآيتان (١١٤ ، ١١٥) .
سورة الدخان ، الآيتان (٣٠ ، ٣١) .

(٦) سفر الخروج ١ : ٨ – ١١ .

(٧) حسن ظاظا وآخرون : المرجع السابق ، ص ٤ وكذا
محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .

ولعل هنا – من خلال نص التوراة السابق الذكر – موطن السر ، ولعل أيضاً من قاموا بكتابة نصوص التوراة قد أشاروا إلى موطن الداء دون أن يدروا ، وهو عدم ثقة المصريين في بني إسرائيل ، وخشيتهم من أن يكونوا حرباً عليهم إن طمع فيهم غازٍ أو معتدٍ ، ولعله كان لهم دورٌ في عهد الهكسوس في مصر ، إذ أنهم ليسوا فوق مستوى الشبهات[١] .

وقد أشارت المصادر الإسلامية كثيراً إلى ما كان يلاقيه بنو إسرائيل من الاضطهاد والتعذيب والتسخير على يد فرعون وملأه . وروى بعض المؤرخين المسلمين الأوائل[٢] روايةً عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وبعض الصحابة الآخرين رضي الله عنهم ، تشير إلى الدافع الذي جعل فرعون يسوم بني إسرائيل سوء العذاب ، وهي :

« أنه كان من شأن فرعون أنه رأى رؤيا في منامه ، أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر ، فأحرقت القبط ، وتركت بني إسرائيل ، وأخربت بيوت مصر ، فدعا السحرة والكهنة ... فسألهم عن رؤياه ، فقالوا له : يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه رجلٌ يكون على وجههِ هلاك مصر . فأمر ببني إسرائيل ألا يولد لهم غلامٌ إلا ذبحوه ، ولا يُولد لهم جارية إلاّ تُركت . وقال للقبط : انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجاً فأدخلوهم واجعلوا بني إسرائيل يلونَ تلك الأعمال القذرة . فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم ، ... فجعل لا يُولد لبني إسرائيل مولود إلا ذُبح ، فلا يكبر الصغير ، وقذف الله في مشيخة بني إسرائيل الموت ، فأسرع فيهم ، فدخل رؤس القبط على فرعون فكلموه ، فقالوا : إن هؤلاء القوم قد وقع فيهم الموت ، فيوشك أن يقع العمل

---

(١) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .

(٢) انظر : الطبري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨٨ – ص ٣٨٩ وكذا

علي بن الحسين بن علي المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ج ١، دار المعرفة ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٤٨ – ص ٤٩ وكذا

ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٦ – ص ٩٧ وكذا

ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٧٩ وكذا

ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ١٧١ .

على غلماننا ، نذبحُ أبناءهم فلا يبلغ الصغار ، ويفنى الكبار ، فلو أنك تُبقي من أولادهم ! فأمر أن يُذبحوا سنة ، ويُتركوا سنة ؛ فلما كان في السنة التي لا يذبحون فيها وُلد هارون فتُرك ، فلما كان في السنة التي يُذبحون فيها حملت أم موسى بموسى ...)) .

وقد ورد في تفسير الآية الرابعة من سورة القصص في قوله تعالى : ﴿ **وجعل أهلها شيعاً** ﴾ أن فرعون جعل أهل مصر فِرقاً يُشيّعونه على ما يريد ، ويطيعونه ، ولا يملك أحدٌ منهم مخالفته ، وصرف كلَّ صنفٍ فيما يريد من أمور دولته ، بعد أن جعلهم فِرقاً مختلفة قد أغرى بينهم العداوة ليكونوا له أطوع . وجعل بني إسرائيل طائفة مُستضعفة ؛ حيث استعملهم في أخس الأعمال ، وكان يكدهم ليلاً ونهاراً في أشغالِهِ وأشغال رعيته[١] .

قال الطبري[٢] : ((ولم يكن من الفراعنة فرعون أشدّ غلظة ، ولا أقسى قلباً ، ولا أسوأ مِلْكةً لبني إسرائيل منه ، يُعذبهم فيجعلهم خدماً وخولاً ، وصنفهم في أعماله ، فصنف يبنون ، وصنف يحرثون ، وصنف يزرعون له ، فهم في أعماله ... فسامهم سوء العذاب ، وفيهم مع ذلك بقايا من أمر دينهم لا يريدون فراقه)) .

وأسرف فرعون في إذلال بني إسرائيل ، وتكليفهم الأعمال الشاقة ، لعلمه بأن الذل يُقلل النسل ويُفضي بالأمة إلى الإنقراض ، ولكنهم ظلوا مع الاستذلال يتناسلون ويكثرون . فخاف المصريون أن يقووا بالكثرة فيعدوا عليهم ويغلبوهم على بلادهم ، وأدركوا أن الذل لا يؤثر فيهم إلا في الزمن الطويل ؛ لذلك عملوا على انقراضهم بقتل الذكور واستحياء الإناث ؛ لأن من سُنة الله في الخلق ، أن قوام الشعوب والقبائل وحفظ الأجناس إنما يكون بالذكور[٣] .

---

(١) محمد بن عمر بن حسين الملقب بالإمام فخر الدين الرازي : التفسير الكبير ، ج ٢٤ ، الطبعة الثالثة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٢٢٥ وكذا

ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٧٩ وكذا

أبو الأعلى المودودي : فرعون في القرآن ، ترجمة وتعليق أحمد إدريس ، المختار الإسلامي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة ، ١٩٨٥ م ، ص ١٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧٨ .

(٣) محمد رشيد رضا : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٩ - ص ٢٦٠ .

ومن الغريب حقاً ، أن يذهب أحد الكُتّاب المُحدَثين[١] إلى الزعم بأن أمر فرعون بقتل المواليد الذكور ، واستحياء المواليد من الإناث من بني إسرائيل ، لم يكن أكثر من أمرٍ رمزي ، أبعد عن الجدّية من أن يُنفّذ بحذافيره ، وإلا لكان بنو إسرائيل – حسب زعمه – قد تم إفناءهم من الجيل الذي نشأ مع ولادة موسى عليه السلام .

وهذا لاشك زعمٌ باطل ؛ إذ أن القرآن الكريم أكد حقيقة وقوع هذا الأمر ، بل أن فرعون أصرَّ على اتباع هذا الأسلوب لفترة طويلة ، امتدت حتى بعد مولد موسى عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن ذلك أمراً رمزياً أو بعيداً عن الجدية .

وقد تعددت الآراء الحديثة في بيان أسباب الإضطهاد الذي حلَّ ببني إسرائيل ، ونتائجه التي كان لها أثر كبير في حياتهم . فيرى فريق من المؤرخين والدارسين[٢] : أنه بعد طرد الهكسوس من مصر ، أدرك المصريون أن بني إسرائيل كانوا خلال حكم الهكسوس عبارة عن – إن صح التعبير – صفٍ ثانٍ يُمثل موقفاً مضاداً لمصر والمصريين ، فاعتبروا ذلك خيانة من بني إسرائيل الدخلاء ، وموالاةً للأعداء المحتلين ، ولو كان ذلك على حساب الوطن الذي يؤيهم ؛ إذ كانوا من أحذق الناس على التقلب والتلون ، وإثارة القلاقل ، واستغلال الأزمات ؛ مما أثار حفيظة المصريين عليهم ، فاتخذوا منهم موقفاً مضاداً تمثل في عزلهم عن كل ما من شأنه التأثير على المصريين ، وإرغامهم على القيام بأعمال بناء

---

(١) محمود نعناعة : المشكلة اليهودية وهل تحلها إسرائيل ، الجزء الأول ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢م، ص ١٤٥ .

(٢) انظر : صابر عبد الرحمن طعيمة : اليهود في موكب التاريخ ، ص ١١٢ – ص ١١٣ وكذا

أحمد شلبي : " سيناء والأديان السماوية " ، مجلة الهلال ، العدد السادس ، السنة التاسعة والسبعون ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م ، ص ٤٤ وكذا

أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ٧٤ وكذا

عماد عبد الحميد النجار : التطور التاريخي لبني إسرائيل ، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ص ٣١ وكذا

زكي شنودة : موسوعة تاريخ الأقباط والمسيحية ، ج ٨ ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٣ / ١٩٧٤ م ، ص ٢٢ وكذا

عبد السميع سالم الهراوي : المرجع السابق ، ص ٢٤٦ وكذا

روجيه جارودي : ملف إسرائيل دراسة للصهيونية السياسية ، أشرف على الترجمة مصطفى كامل فودة ، الطبعة الأولى ، دار الشروق ، بيروت والقاهرة ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٣٦ .

المدن والمعابد ، وشق الترع والطرق . فلما رفض بنو إسرائيل هذا النمط من الحياة ، يبدو أنهم قاموا بتنظيم أعمال تمرد وتخريب ، وأيضاً تحريض العبيد من بني إسرائيل والمصريين على حدٍ سواء ، على القيام بتلك الأعمال من الفوضى والشغب ، والامتناع عن العمل . فكانت ردة الفعل المصرية قوية ضدهم ؛ إلى حد محاولة القضاء عليهم ، بقتل المواليد الذكور واستحياء الإناث ، على ما أمر به فرعون .

فيما يرى فريق آخر[1] : أنه بعد طرد الهكسوس من مصر ، دبت الكراهية في قلوب المصريين على الأجانب الذين تعاونوا مع الهكسوس ، وتآمروا معهم على البلاد . ومن أولئك الأجانب بني إسرائيل المقيمين في مصر ، حيث صار المصريون ينظرون إليهم نظرةً يسودها عدم الثقة ، والارتياب في حبهم للوطن ، بل وخشيتهم من أن ينضموا إلى صفوف الأعداء في حالة الحرب . لذلك أمر فرعون باضطهادهم ، وتسخيرهم في أعمال البناء ، وغيرها .

وعلى افتراض أن رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) هو فرعون الاضطهاد ، ذهب بعض المؤرخين[2] إلى أن السبب في اضطهاد بني إسرائيل ووضعهم في أحوال السخرة والعسف هو رغبة رعمسيس الثاني في إنعاش النشاط العمراني من تشييد المدن ، والمعابد ، والنشاط الزراعي ، وما يتطلب ذلك من عمالةٍ ضخمة ، وإنتاجٍ مستمر

---

(١) انظر : حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ، ص ٧٥ وكذا

عفيف عبد الفتاح طبارة : اليهود في القرآن ، الطبعة التاسعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٢ م ، ص ١٨٩ وكذا

محمد ضياء الرحمن الأعظمي : اليهودية والمسيحية ، الطبعة الأولى ، مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٥٩ وكذا

جيمس فريزر : الفولكلور في العهد القديم ، ترجمة نبيلة إبراهيم ، مراجعة حسن ظاظا ، الجزء الثاني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ م ، ص ٥ .

(٢) حسن أحمد محمود وآخرون : المرجع السابق ، ص ٣٥٣ وكذا

صبري جرجس : التراث اليهودي الصهيوني ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٠ م ، ص ٢٤ - ص ٢٥ وكذا

جون ولسون : المرجع السابق ، ص ٤٠٩ وكذا

Anderson , B . W . , Op . Cit . , PP . 26 - 27 ;
Kapelrud , A . S . , Op . Cit . , P . P . 17 , 23 ;
Eissfeldt , O . , Op . Cit . , PP . 321 - 322 .

في تلك المشاريع الكبيرة والطموحة ، الأمر الذي جعل رعمسيس الثاني يرى ضرورة إشتراك بني إسرائيل ، ومجموعات أخرى من الساميين ، فيما كان يُبذل في البلاد المصرية من جهود عمرانية وزراعية . إلا أن بني إسرائيل اعتبروا ذلك عنتاً لا يُطيقون احتماله ، فبدأوا يتذمرون ؛ إذ لم يكونوا قد تعوّدوا على مثل ذلك الوضع من العمل الإجباري والقسري . فلجأ فرعون ، في سبيل تحقيق ذلك ، إلى وسائل السخرة والعسف والقسوة ، بعد أن أحس بتذمرهم ، فألزمهم في المشاركة بتلك الأعمال والمشاريع الضخمة حتى يُذعنوا له بالطاعة.

يقول ناحوم . م . سارنا[1] :

مثل هذه المشاريع الضخمة تتطلب مصدراً غير محدود من العمال ، ودرجة عالية من التنظيم ، وإنتاج مستمر ووافر من الآجر ، ومواد البناء . وكان فرعون يستطيع أن يجد عدداً ضخماً من القوة العاملة في متناول اليد في الدلتا ، من بين السكان الإسرائيليين . وقد شرع في استغلال ذلك كاملاً ، فسلط عليهم سادة العمل ليضطهدوهم بالعمل الإجباري ، في بناء مدينتي بيثوم[2] وبر – رعمسيس .

---

(١) Sarna , N . M . , Exploring Exodus the Heritage of Biblical Israel , Schocken Books , New York , 1989 , P . 20 .

(٢) بيثوم Pithom : وردت في اللغة المصرية القديمة بلفظ " بي – توم Pi - tum " أو " بر أتوم Per - Atum " وتعني بيت أتوم ، أو مدينة الإله أتوم . ووردت الإشارة إليها في سفر الخروج ١ : ١١ ، وهي تقع في وادي طميلات الذي يشكل ممراً هاماً بين مصر وآسيا .

وقد اختلفت وجهات النظر في تحديد موقعها تحديداً دقيقاً . فيرى البعض أنها تقع في الموقع المعروف الآن باسم " تل الرطابة " الذي يبعد حوالي ٣٥ كيلاً غرب مدينة الإسماعيلية حالياً .

فيما يرى علماء آخرون أن موقع بيثوم هو الموقع المعروف حالياً باسم " تل المسخوطة " الذي ورد في اللغة المصرية القديمة بلفظ " ثكو أو تجكو Tjeku " والمعروف في التوراة باسم " سكّوت " . وهذا الرأي يحتمل الكثير من الشك ، وإن تقبله الكثيرون . هذا فضلاً عن أن البعض ذهب إلى أنها تقع على تل أثري يُعرف باسم " تل بوتو Tell - Buto " في الشمال الشرقي من فاقوس بحوالي ١٨ كيلاً ، ويبعد عن الصالحية في اتجاه صان الحجر بحوالي ١٢ كيلاً ، وهي غير " بوتو " الواقعة بمركز دسوق غربية . أنظر :

غطاس عبد الملك الخشبة : المرجع السابق ، ص ١٨٦ هامش ٣ ؛ ص ٢٤٧ هامش ٣٣ وكذا

جيمس بيكي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٠ – ص ٥١ وكذا

ألن جاردنر : المرجع السابق ، ص ٣٠٣ وكذا

Gardiner , A . H . , Op . Cit , P . 274 ;

Gardiner , A . H . , Egyptian Grammar , P . 555 ;

Wilson , J . A . , " Egyptian Historical Texts - The Report of aforontier Official " , ANET , P . 259 , note 5 .

ومن الممكن ، أن أمراً ما قد حدث من جانب بني إسرائيل ، عندما كُلّفوا بالعمل في المدينتين السابقتين ، مما أثار غضب فرعون عليهم ، رغم عدم إمكانية تحديد ذلك الأمر ، الذي ربما كان خيانةً منهم ، أو ربما بداية تمرّد ، أو على الأقل ربما كانوا قد بدأوا في توجيه حرب نفسية – إن صح التعبير – لخلخلة الرأي العام المصري في منطقة جوشن . أو أنهم قاموا بالاتصال بالحثيين والأعداء الآسيويين ، ومن ثم اكتشفه المصريون بعد عودتهم من الحرب التي كانت دائرة رحاها بين الطرفين . أو ربما كان ذلك بعد حملة رعمسيس الثاني على سوريا في العام الثامن من حُكمه ، والتي قضى فيها على أعدائه من الملوك الحثيين والأمراء الآسيويين ، لأن ما حدث ربما كان بعد هذه الحملة ، إذ كانت الظروف السياسية في منطقة فلسطين تتصف بالاضطراب وعدم الإستقرار ، حيث أن الفترة الواقعة ما بين معركة قادش[1] في السنة الخامسة من حكم رعمسيس الثاني (حوالي عام ١٢٨٥ ق.م) وبين حملة العام الثامن (حوالي عام ١٢٨٢ ق.م) إنما تميزت باندلاع الثورة في كل فلسطين بتحريض من الحثيين ، وربما بدسائس الإسرائيليين كذلك ، الأمر الذي جعل رعمسيس الثاني بعد عودته من تلك الحروب يشعر بخيانة بني إسرائيل له ، وأنهم قدموا المساعدة لأعدائه ، فأمر بإيقاع العذاب بهم دون رحمة أو شفقة[2] .

---

(١) معركة قادش : عندما اعتلى رعمسيس الثاني العرش حوالي سنة ١٢٩٠ ق.م ، كان من الواضح أنه لابد من الصدام المسلح بين الحثيين والمصريين . لذلك جمع الملك الحثي " مرواتاليش " فِرقاً عسكرية من كل حلفائه الذين ذكرتهم القوائم المصرية ومنهم : الدردانيون ، والفلسطينيون ، والشردانيون . وقد تقابلت الجيوش الحثية والمصرية في قادش شمال نهر العاصي في السنة الخامسة من حكم رعمسيس الثاني (١٢٨٥ ق.م) وانتهت المعركة لصالح رعمسيس الثاني ، بعد هروب القوات الحثية ، تحت ضغط القوات المصرية التي ألجأتهم إلى الفرار تجاه البحر طلباً للنجاة . وظلت الأمور على حالها من التوتر والحروب بين الطرفين إلى أن تولى " خاتو شيليش (خاتوسيل) " الحكم حوالي سنة ١٢٧٥ ق.م حيث أصبحت العلاقات ودّية بين الجانبين ، وانتهت الحروب بينهما في عقد معاهدة بين رعمسيس الثاني وخاتوشيليش سنة ١٢٦٩ ق.م ، وتوطدت العلاقات بشكل أكبر في سنة ١٢٥٦ ق.م بعد زواج رعمسيس الثاني من ابنة الملك الحثي خاتوشيليش (خاتوسيل) . انظر :

محمد عبد القادر محمد : المرجع السابق ، ص ١٤٧ ، ص ١٤٨ وكذا

محمد بيومي مهران : مصر والشرق الأدنى القديم (٣) مصر ، الطبعة الرابعة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٣٥٢ – ص ٣٦٠ وكذا

Gardiner , A . H . , The Ḳadesh Inscriptions of Ramesses II , Griffith Institute , Ashmolean Museum , Oxford , 1975 , PP . 1 - 56 .

(٢) محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (٧) إسرائيل – الكتاب الأول – التاريخ ، ص ٢٨٠ – ص ٢٨١ .

وهكذا لم يكن لرعمسيس الثاني أن يفاجيء الناس – على غير علةٍ ولا سبب – بتلك السياسة الحازمة مع بني إسرائيل ، عن مجرد مزاجٍ مال به إليه ، أو رغبةٍ منه في إيقاع العذاب بهم ، ولا انفرد بذلك من غير استشارة كبار دولته ، عندما أدرك ما قام به بنو إسرائيل ، فغضب منهم غضباً شديداً ، وضاق صدره عليهم ، خاصة وأنه افتقد الثقة فيهم خلال حروبه التي استغرقت خمسة عشر عاماً مع الحثيين ، فوجد فيهم ما لم يتعففوا عنه من الخيانة للوطن الذي يعيشون فيه ، بل وموالاتهم للغالب في ظنهم من المتحاربين ، إما المصريين أو الحثيين(١) .

وعلى الرغم من كل هذه الأسباب ، آنفة الذكر ، التي كانت دافعاً قوياً إلى اضطهاد بني إسرائيل وتسخيرهم ، فإن هناك سبباً آخر ، حسب رأي بعض الباحثين(٢) كان عاملاً هاماً لإيقاع ذلك العذاب عليهم ، وهو اختلاف العقيدتين بين بني إسرائيل والمصريين ؛ إذ كان بنو إسرائيل يدينون بعقيدة التوحيد لله رب العالمين ، وهي العقيدة التي انتشرت على نطاقٍ ما أثناء حياة يوسف عليه السلام وتوليه جانباً من الحكم في مصر ؛ بينما كان غالبية المصريين يُشركون بالله عز وجل ، وينظرون إلى فرعون بصفته إلهاً . لذلك كانت عقيدة التوحيد الصحيحة تُحطّم القاعدة التي كان يقوم عليها حكم فرعون وهي تعدد الآلهة . هذا بالرغم من أن عدداً كبيراً من بني إسرائيل كان قد وقع في عقيدتهم شيء من الفساد والإنحراف ، إلا أنهم كانوا محافظين على أصل الاعتقاد ، وهو إيمانهم بإله واحد لا شريك له ، وإنكارهم إلوهية فرعون ، والوثنية السائدة في مصر .

والرأي الذي أراه في موضوع إضطهاد بني إسرائيل وتسخيرهم في مصر ، أنه لابد من ربط الأحداث بالسنن الربانية الكونية ، فإن فهم حقيقة الأمور تتضح جلياً لكل من يبحث عن الحق ، فهناك سُنن ربانية لا تتغير ولا تتبدل في حياة الأمم والشعوب ، وهذا بنص القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

---

(١) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ٨٦ .

(٢) جمال عبد الهادي محمد ، وفاء محمد رفعت : أخطاء يجب أن تُصحح في التاريخ – ذرية إبراهيم عليه السلام وبيت المقدس ، الطبعة الأولى ، دار طيبة ، الرياض ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، ص ١٠٩ ، ص ١١٠ ، ص ١٤٦ .

قال تعالى : ﴿ **ذلك بأن ا لله لم يك مغيراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن ا لله سميعٌ عليم** ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ **إن ا لله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد ا لله بقومٍ سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال** ﴾[٢] .

فالسبب الرئيس لكل ما حدث لبني إسرائيل من الاضطهاد والتسخير في مصر على يد فرعون وملأه ، هو ما حدث من تَغيّر حقيقي في نفوسهم تجاه ربهم عز وجل ، من تركهم لأوامره ، وعدم اجتنابهم لنواهيه . والدليل على ما ذهبتُ إليه ما رواه عبد ا لله بن عباس رضي ا لله عنهما : ((أن بني إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس ، وعملوا بالمعاصي ، فسلط ا لله عليهم القبط ، وساموهم سوء العذاب ، إلى أن نجاهم ا لله على يد موسى عليه السلام))[٣] .

فقد غَيّر بنو إسرائيل ما بأنفسهم من تقوى لله عز وجل ، وإيمان به ، وزيّن لهم الشيطان أنهم أفضل من غيرهم من الناس ، فاستطالوا واستكبروا على الآخرين ، واستدرجهم الشيطان أيضاً لارتكاب المعاصي ، ومقارفة الذنوب ، وزين لهم أعمالهم فصدهم عن السبيل الحق ، فتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فحق عليهم العذاب من عند ا لله عز وجل ، بأن سلّطَ عليهم فرعون وملأه يسومونهم سوء العذاب .

وكل ذلك كان ابتلاءً وفتنةً لهم من ا لله عز وجل ، إذ الابتلاء والاختبار للعباد يكون بالشر والخير ، كما في قوله تعالى : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنةً وإلينا تُرجعون** ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم** ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ **أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون • ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن ا لله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾[٦] .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية (٥٣) .

(٢) سورة الرعد ، الآية (١١) .

(٣) القرطبي : المصدر السابق ، المجلد السابع ، ج ١٣ ، ص ١٦٦ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية (٣٥) .

(٥) سورة البقرة ، الآية (٤٩) ؛ سورة الأعراف ، الآية (١٤١) ؛ سورة إبراهيم ، الآية (٦) .

(٦) سورة العنكبوت ، الآيتان (٢ ، ٣) .

وقال تعالى : ﴿ **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور** ﴾[١] .

إن ذلك التعذيب والإضطهاد الذي حلَّ ببني إسرائيل كان فيه بلاء من ربهم عظيم ، لُيلقي في حِسّهم أن إصابة العباد بالشدة هي امتحان وبلاء ، واختبار وفتنة ، وأن الذي يستيقظ لهذه الحقيقة يستفيد من الشدة ، ويعتبر بالبلاء ؛ فالألم لا يذهب ضياعاً إذا أدرك صاحبه أنه يمر بفترة امتحان لها ما بعدها إن أحسن الانتفاع بها . والألم يهون على النفس حين تعيش بهذا التصور ، وحين تدّخر ما في التجربة المؤلمة من زادٍ للدنيا ، بالخبرة والمعرفة والصبر والإحتمال ، ومن زادٍ للآخرة ، باحتساب الأجر عند الله عز وجل ، وبالتضرع إليه ، وانتظار الفرج من عنده ، وعدم اليأس أو القنوط من رحمته[٢] .

وفي موضع آخر يقول سيد قطب أيضاً[٣] :

((بلاءٌ بالعذاب أولاً ، لامتحان الصبر ، والتماسك ، والمقاومة ، والعزم على الخلاص والعمل له ، فليس الصبر هو احتمال الذل والعذاب وكفى ، ولكن الصبر هو احتمال العذاب بلا تضعضع ولا هزيمة روحية ، واستمرار العزم على الخلاص ، والاستعداد للوقوف في وجه الظلم)) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن أحد الباحثين[٤] ينفي أن يكون بنو إسرائيل قد تم اضطهادهم في مصر ، أو أُجبروا على العمل في المشاريع التي أنشأها رعمسيس الثاني ، فيذهب إلى أن الذين وقع عليهم الإضطهاد والتسخير ، والعمل ، هم فئة من بقايا الهكسوس ، أُطلق عليهم اسم " العبريو " ، وأن تلك الفئة ، عبارة عن إحدى القبائل العربية البدوية ، وليسوا من بني إسرائيل . ويستدل على رأيه هذا بأن مدينة بر – رعمسيس التي بُنيت في موضع مدينة " أواريس " عاصمة الهكسوس ، قد بناها – حسب رأيه – مَنْ بقي من الهكسوس في مصر مُتجمّعاً في هذه المنطقة ذاتها ، فَسُخّروا في بناء المدينة الجديدة، بعد أن رأى فرعون أنهم أصبحوا مصدر خطر على الدولة المصرية.

---

(١) سورة الملك ، الآية (٢) .

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج ١ ، الطبعة الثانية عشرة ، دار العلم للطباعة والنشر ، جدة ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، ص ٦٤ .

(٣) المرجع نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٠٨٨ .

(٤) أحمد سوسة : المرجع السابق ، صفحة ك ك ، ل ل ، ص ٢٨٣ .

وهذا الرأي لاشك أنه غير صحيح ، ولا يتفق والاشارات القرآنية الكثيرة التي تؤكد وقوع العذاب على بني إسرائيل ، كما مر آنفاً . هذا فضلاً عن تعارضه مع الحقائق التاريخية التي تؤكد أيضاً هذا الأمر ، وتحمل في ثناياها أدلة كثيرة على وقوعه .

وقد عبر إيسفلت عن هذا الموضوع بقوله(١) :

ليس من المعقول أن شعباً يستطيع – وبتعصّب – أن يحافظ على تراثٍ يتحدث عن استعبادٍ مُذلٍّ لأجداده في أرض أجنبية ، وأن يتناقله من جيلٍ إلى جيل ما لم يكن قد مر حقيقةً بهذه التجربة . إضافة إلى أن روايات العمل الإجباري الذي فُرض على الإسرائيليين في مصر تحتوي على ملامح ، لا تشير فقط إلى أن استقرارهم في مصر حقيقة تاريخية ؛ ولكنها حقيقة تتجاوب بدرجةٍ كبيرة مع الظروف التي كانت تحدث في مصر ، في الزمن الذي يُؤرَّخُ به للاستعباد المصري لهم ، وأعني نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وبداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

ويقول جون . ج . بيمسون(٢) :

((من المستبعد أن يُعطي شعب من الشعوب الأولوية في سجلاته التاريخية ، لتجارب المعاناة ، والاستعباد ، التي تَعرَّضَ لها في بلادٍ أجنبية ، ما لم تكن تلك التجارب جزء حقيقي وحيوي من تاريخه . الأمر الذي يُفيد بأن التراث التوراتي لموضوع الإضطهاد والاستعباد ذو أُسسٍ تاريخية)) .

وفي غمرة تلك المعاناة القاسية ، والابتلاء الذي كان يلاقيه بنو إسرائيل ، شاء الله عز وجل بإرادته النافذة ، التي لا رادَّ لها ، أن يُخرج من بني إسرائيل من سيكون على يديه خلاصهم ونجاتهم من العذاب المهين ، ومن فرعون وملأه ، حيث وُلد موسى عليه الصلاة والسلام .

---

(١) Eissfeldt , O . , Op . Cit . , P . 321 .

(٢) Bimson , J . J . , Op . Cit . , P . 10 .

ثالثاً : موسى عليه الصلاة والسلام ونشأته.

نسبه :

لم يرد في القرآن الكريم إشارة إلى اسم والدي موسى عليه الصلاة والسلام ، الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ١٣٦ مرة[١] . ولعل السبب في ذلك - وا لله أعلم - أنه لا ينبني على معرفة ذلك كبير فائدة ، مقارنة بالأحداث التي ارتبطت به ؛ حيث فُصلت في القرآن الكريم تفصيلاً يكاد يكون تاماً لأهميتها ، وما ترتب عليها من فهمٍ شامل لمختلف جوانب حياة موسى عليه الصلاة والسلام .

ففيما يتعلق بنسبه فهو : موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام . واسم أمه يوخابد ، أو يوحانذ ، أو باختة[٢] .

وهناك آراء أخرى في المصادر الإسلامية أشارت إلى بعض الاختلاف في نسبه[٣] .

أما مفسري التوراة[٤] فيقولون أنه : موسى بن عمران بن قهات بن لاوي . واسم أمه يوكابد .

مولده :

ولد موسى عليه الصلاة والسلام في السنة التي يُذبح فيها المواليد الذكور من بني إسرائيل ، في حين وُلد أخوه هارون عليه السلام في السنة التي لا يُذبحون فيها[٥] .

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقي : المرجع السابق ، ص ٦٨٠ .

(٢) الطبري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨٥ .

(٣) انظر : المسعودي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٨ وكذا
ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٥ وكذا
ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ٢٣٧ وكذا
ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ١٧١ .

(٤) بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٩٣٠ .

(٥) الطبري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨٨ - ص ٣٨٩ وكذا
المسعودي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٨ - ص ٤٩ وكذا
ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٦ - ص ٩٧ وكذا
ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ١٧١ وكذا
محمد علي الصابوني : المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

ويرى بعض المؤرخين[١] أن موسى عليه الصلاة والسلام وُلد في عهد رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) في ظل الخوف والرعب الذي فرضه على بني إسرائيل .

وحسب رواية التوراة[٢] فإن أم موسى بعد ولادته « خبّأته ثلاثة أشهر . ولما لم يُمكنها أن تُخبئه بَعْدُ أخذت له سَفَطاً من البردي وطلته بالحُمَر والزفت ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر . ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يُفعل به » .

ومن خلال سياق الآيات القرآنية ، فإن أم موسى عليه السلام لما خافت عليه كثيراً ، أوحى الله عز وجل إليها وحي إرشادٍ وإلهام بأن تُرضعه وتُلقيه في اليمّ[٣] ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليكِ وجاعلوه من المرسلين** ﴾[٤] .

وهذه الآية من سورة القصص فيها إعجاز قرآني واضح ؛ إذ أن فيها أمران : ﴿ **أرضعيه** ﴾ و ﴿ **فألقيه** ﴾ وفيها نهيان : ﴿ **لا تخافي** ﴾ و ﴿ **لا تحزني** ﴾ ، وفيها بشارتان : ﴿ **إنا رادوه إليك** ﴾ و ﴿ **جاعلوه من المرسلين** ﴾ . مما يدل على أن أمر الله

---

(١) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ٨٤ وكذا
الندوة العالمية للشباب الإسلامي : المرجع السابق ، ص ٥٦٥ وكذا
جمال عبد الهادي محمد ، وفاء محمد رفعت : أخطاء يجب أن تُصحح في التاريخ - تاريخ الأمة المسلمة الواحدة منذ أقدم عصورها وحتى القرن السابع قبل الهجرة في مصر والعراق ، الطبعة الأولى ، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م ، ص ٣٥٠ وكذا
Finegan , J . , Op . Cit . , P . 120 .

(٢) سفر الخروج ٢ : ٢ - ٤ . وانظر أيضاً : الانجيل : سفر أعمال الرسل ٧ : ٢٠ .

(٣) اليمّ : هو البحر ، ويطلق أيضاً على النهر . وقد وردت في القرآن الكريم ٨ مرات . وهي لفظة سامية وردت في اللغة المصرية القديمة منذ الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ - ١٣٠٨ ق.م) ، حيث كان المصريون يُطلقون على البحر والنهر وما اتسع من لُج الماء لفظ اليم . انظر :
الراغب الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٥٧٧ وكذا
أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ٨٧ وكذا
محمد فؤاد عبد الباقي : المرجع السابق ، ص ٧٧٤ وكذا
محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٢٨٥ وكذا
المعجم الوسيط ، ج ٢ ، ص ١٠٦٦ .

(٤) سورة القصص ، الآية (٧) .

عز وجل غالبٌ على أمر البشر بلا شك ، حيث أراد ا لله عز وجل بقدرته أن ينشأ موسى عليه الصلاة والسلام في بيت فرعون ، وتربيه أيضاً امرأة فرعون[١] .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد مننا عليك مرةً أخرى • إذ أوحينا إلى أمك ما يُوحى • أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدوٌ لي وعدوٌ له وألقيتُ عليك محبة مني ولتُصنع على عيني** ﴾[٢] .

وقد افترى أحد الكُتّاب النصارى فرية عظيمة ، عندما علَّقَ على حادثة إلقاء أم موسى لابنها عليه السلام في اليم ، وأثار شُبهة منكرة وخطيرة على رسولٍ كريم من أولي العزم من الرسل ، ومعصومٍ من الخطأ والزلل ، حفظه ا لله منذ ولادته . يقول[٣] :

((أما حكاية التوراة فلم تذكر شيئاً عن شرعية بنوة موسى . لكننا إذا تذكرنا أن عمران والد موسى كان متزوجاً من عمته ، وأن موسى كان ثمرة هذا الزواج ، وإذا تذكرنا أن القانون العبري المتأخر قد أبطل مثل هذا الزواج باعتباره زنا ، فربما ساورنا الشك ، ونرجو ألا نُتهم بالتعسف في هذا الشك ، أن أم موسى في الشكل الأصلي للحكاية كان يدفعها سببٌ خاص في أبعاد طرح ابنها في النهر ، وأنها لم تفعل هذا رضوخاً لأمرٍ عام صدر من فرعون بطرح كل أطفال العبريين في الماء . ومهما يكن الأمر في الحكاية العبرية فإنه يبدو أنه كانت من عادة الشعوب الأخرى أن تطرح الطفل في الماء لِتُقرّر ما إذا كان الطفل شرعياً أم غير شرعي ، ومن ثم كانت تقرر الإبقاء عليه أو إعدامه)) .

أبَعْدَ كل هذا التعسف ، والافتراء العظيم ، يطلب جيمس فريزر عدم اتهامه بذلك؟!
فأي جرمٍ شنيع قد ارتكبه في حق رسول ا لله موسى عليه الصلاة والسلام ؟!

حاشا لله أن يكون موسى عليه الصلاة والسلام في شيءٍ من ذلك .

لقد أغفل هذا الكاتب – عمداً أو عن غير عمد – الحقيقة ، ولا يُعذر لانتمائه العقائدي أن يفتري الكذب على الإنسان العادي ، فكيف إذا كان افترائه على رسول كريم اختصه ا لله برسالته وبكلامه ؟! . لاشك أن هذا أعظم وأكبر وزراً .

---

(١) صلاح أبو إسماعيل : اليهود في القرآن الكريم ، دار الصحوة ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٨ .

(٢) سورة طه ، الآيات (٣٧ – ٣٩) .

(٣) جيمس فريزر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٢ .

ولكن كل ما قاله يُنبئ عـن نفسيته المنحرفـة ، وعـن سـلوكياته وعلاقاتـه الهابطـة . وكل كلماته التي سطرها في كتابه طعنات قواتل في الظهور ، تَزْوَرُّ عنها الأخلاق الرفيعة ، والقيم الإنسانية الأصيلة ، وتعافها النفوس الطيبة ذات المثل العليا العريقة والخلاقة .

ولما أُلقيَ موسى عليه الصلاة والسلام في اليم[1] ، أقبل الموج بالتابوت يرفعـه تـارة ، ويخفضه تارة أخرى ، حتى أدخله بين أشجارٍ قريبةٍ من بيت فرعون ، « فنزلت ابنة فرعون

---

(١) تجدر الإشـارة إلى أنـه وردت أسطورة في النصـوص الآشـورية ، تتحـدث عـن مولـد سـرجون الأول الأكـدي (شاروكين Šarru - Ken) (٢٣٧٠ – ٢٣٠٥ ق.م) ، فيها عناصر شبيهة بقصة مولد موسى عليـه الصـلاة والسلام ، وما صاحب ذلك من أحداث . وهذه الأسطورة تتحـدث عـن أصـل هـذا الملك الأكـدي ، ويعـود تاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد في عصر الدولة الآشورية الحديثة .

يقول فيها سرجون عن نفسه :

« أنا سرجون ، الملك القدير ، ملك أكد .

كانت أمي كبيرة الكاهنات ، ولم أعرف أبي .

... حملت بي أمي ، كبيرة الكاهنات ، وولدتني سراً .

ووضعتني في سلةٍ من الحصير مُقيرة [من أنواع الزفت والقار] وغطتها ورمتني .

قذفتني إلى النهر الذي لم يغرقني .

حملني النهر فوقه ، وحملني إلى أكّي Akki الذي يرفع الماء .

انتشلني أكّي ... و [اتخذني] كابن له (و) ربّاني .

... عينني أكي بُستانياً .

وبينما كنت بستانياً ، أحبتني الإلاهة عشتار .

وفي خلال أربع و [...] سنوات تبوأت وظيفة الملكية ... » .

وبالإضافة إلى الرعاية التي أولته إياها الإلاهة عشتار فقد نال رضا الإله مردوخ الـذي غضـب علـى ملـك كيـش " أور – زبابا " ثاني ملك من سلالة هذه المدينة الرابعة ، لأنه أهمل شعائر معبده " إيساكلا E - Sag - ila " في بابل .

ويبدو أن السبب الذي دفع أم سرجون الأول لإلقائه في النهر ، أنها كانت من طبقة عليا من الكاهنات ، تسمى الواحدة منهن " إينتُم Entum " حُرِّم عليهن الزواج ما دمن في أثنـاء خدمتهـن الدينيـة ، وحُـرِّم عليهـن إنجاب الأطفال . مما يعني أن سرجون الأول كـان مـن الطبقـات العليـا في المجتمـع ، إذ جـرى العُـرْف أثنـاء عهـده أن الكاهنات العليا كن بنات الملوك والحكام . انظر :

محمد عبد القادر محمد : المرجع السابق ; ص ٦٨ – ص ٦٩ وكذا

فاضل عبد الواحد علي وآخرون : العراق في التاريخ – العراق القديم – حضـارة بـلاد وادي الرافدين أصالتهـا وتأثيرها في بلدان الشرق الأدنـى القديـم ، دار الحريـة ، بغـداد ، ١٩٨٣ م ؛ ص ٢٨٧ وكذا

طه باقر : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٢ – ص ٣٦٣ وكذا

جيمس فريزر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٨ وكذا

سيجموند فرويد : النبي موسى ورسالة التوحيد ، ترجمة ودراسة عبد المنعم الحفني ، الطبعة الأولى ، دار الرشاد ، القاهرة ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م ، ص ٢٩ – ص ٣٠ وكذا

Lods, A . , Op . Cit . , PP . 170 - 171 ;

Speiser , E . A . , " Akkadian Myths and Epics - The Legend of Sargon " , ANET , P . 119 .

إلى النهر لتغتسل وكانت جواريها ماشياتٍ على جانب النهر . فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أَمَتَها وأَخذَته . ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبي يبكي . فَرقَّتْ له وقالت هذا من أولاد العبرانيين »[١] .

فهذا النص من التوراة يشير إلى أن ابنة فرعون هي التي رقَّت له وعطفت عليه ، وهي التي صارت تبحث له عن مرضعة .

ولاشك أن هذا النص غير صحيح ، لتعارضه مع ما ورد في القرآن الكريم الذي أشار إلى أن امرأة فرعون – وليست ابنته – هي التي شرفها الله عز وجل بأن تكون سبباً في حياة موسى عليه الصلاة والسلام ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وقالت امرأة فرعون قُرة عينٍ لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون** ﴾[٢] .

وقد ألقى الله سبحانه وتعالى محبة موسى عليه السلام على من رآه ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وألقيت عليك محبةً مني ولتُصنع على عيني** ﴾[٣] ، ولذلك لما رأته امرأة فرعون وقعت عليه رحمتها وأحبته ، فأراد فرعون أن يقتله ، إلا أنها لم تزل تُكلمه حتى تركه لها ، وهو يخشى أن يكون من بني إسرائيل ، الذي سيكون ذهاب مُلْكه على يديه[٤] .

قال تعالى : ﴿ **فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدوٌ لي وعدوٌ له** ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ **فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً** ﴾[٦] .

وقد أخبر الله عز وجل عن الحالة النفسية التي كانت فيها أم موسى بعد إلقائه في النهر ، قال تعالى : ﴿ **وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين • وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون** ﴾[٧] .

---

(١) سفر الخروج ٢ : ٥ – ٦ .
(٢) سورة القصص ، الآية (٩) .
(٣) سورة طه ، الآية (٣٩) .
(٤) الطبري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨٩ – ص ٣٩٠ وكذا
ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٧ وكذا
ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ١٧١ وكذا
محمد فتح الله بدران : المرجع السابق ، ص ٥٦٩ .
(٥) سورة طه ، الآية (٣٩) .
(٦) سورة القصص ، الآية (٨) .
(٧) سورة القصص ، الآيتان (١٠ ، ١١) .

فمن شدة خوف أم موسى عليه الصلاة والسلام عليه ، صار فؤادها فارغاً من التفكير في أي أمر إلا التفكير في ابنها ، حتى كادت من شدة الخوف عليه أن تبوح بسرّها ، فتنطق بأنه ابنها ؛ إلا أن الله عز وجل ربط على قلبها ، وثبته بالايمان والطمأنينة والسكينة ، ليتم أمره .

فتذكرت أم موسى وعد الله عز وجل لها برده إليها فالتزمت أمر الله لها ، وأيقنت بأن الله عز وجل منجزٌ لها ما وعدها . ولمعرفة ما يؤول إليه أمر وليدها أمرت أخته بأن تتبع أثره ، وتسير بمحاذاة جريان الماء عن بُعْد ، لكي لا يُشَكُّ في أمرها ، ويُعرَفُ مقصدها .

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال[1] :

﴿ **فارغاً** ﴾ إلا من ذكر موسى . وفي قوله تعالى : ﴿ **قصيه** ﴾ أي اتبعي أثره ، وقد يكون أن تقصت الكلام . واتباع أثره كان ﴿ **عن جُنُبٍ** ﴾ أي عن بُعْدٍ .

رضاعته :

قال تعالى : ﴿ **إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيتٍ يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حقٌ ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾[3] .

فمن حكمة الله عز وجل وقدرته النافذة أن حرَّمَ المراضع على موسى ، فلم يقبل الرضاعة من أي امرأة سوى أمه المؤمنة ، ليتحقق وعد الله لها ﴿ **إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين** ﴾[4] ، وكذلك لأن الله عز وجل كان يُعِدُّهُ لأمرٍ عظيم وهو النبوّة والرسالة، فليس له أن يرضع من امرأة مشركة بالله ، فأتم الله أمره ، وأعاده إلى أمه .

---

(١) الإمام محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري ، ضبطه ورقمه ، وذكر تكرار مواضعه ، وشرح ألفاظه وجمله ، وخرج أحاديثه في صحيح مسلم ، ووضع فهارسه مصطفى ديب البُغا ، المجلد الثالث ، كتاب الأنبياء ، الباب الخامس والعشرون ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، دمشق ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ص ١٢٤٢ – ص ١٢٤٣ .

(٢) سورة طه ، الآية (٤٠) .

(٣) سورة القصص ، الآيتان (١٢ ، ١٣) .

(٤) سورة القصص ، الآية (٧) .

ويذهب بعض المؤرخين(١) إلى أن ذهاب أم موسى إلى قصر فرعون لإرضاع موسى بعد رفضه للمراضع دلالة على أن حال بني إسرائيل في مصر لم يكن شراً كله ، خاصة إن أبْدَوا استعداداً للعيش في المجتمع المصري . وأنهم لم يكونوا جميعاً بالطائفة المنبوذة التي يتعامل معها الناس أو ينفر منها فرعون ؛ إذ أن ساقي الفرعون مرنبتاح (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م) كان اسمه " بن عزين " وهو اسم لاشك في ارتباطه بالعبرية .

ومن خلال عرض موسى عليه الصلاة والسلام على المراضع ، وحضور عدد من النساء لإرضاعه ، دلالة على أن هذه العادة كانت منتشرة في مصر القديمة ، وخاصة في قصور الملوك والفراعنة المصريين . فلقد أُستخدمت المرضعات في القصور منذ القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد على أقل تقدير ، وخصصت لكل مولودٍ فيها مرضعة أو أكثر ، وحاضنة أو أكثر ، وكانت المرضعة تكلف أحياناً بدور الحاضنة والمربية . وكان للمراضع في القصور مكانة اجتماعية مرموقة ، علاوة على ما يحصلن عليه من أجرٍ وجزاءٍ وافٍ ، حتى أن بعضهن كن يحصلن على ضياعٍ كاملة . أما من تولت إرضاع أحد الملوك أو الفراعنة فكن يتمتعن بحقوق الأمهات ، وجاز لأبنائهن أن يتلقبوا بلقب الأخوة في الرضاعة للملك أو للفرعون ، ويُفرد لهن أحياناً مكان خاص في القصر يسمى دار المراضع(٢) .

فإذا كانت كل هذه الامتيازات تمنح للمرضعة ، فإنه يعرف حينئذٍ السبب في تهافت النسوة المرضعات ، وكثرتهن لأجل إرضاع موسى في قصر فرعون .

ومما تجدر الإشارة إليه رأي سيجموند فرويد(٣) في شخصية موسى عليه الصلاة والسلام ، فهو يزعم(٤) أن اسم موسى لم يكن عبرياً وإنما اسم مصري ، وهو يُكتب في

---

(١) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ٩١ - ص ٩٢ وكذا
محمد بيومي مهران : مصر والشرق الأدنى القديم (٣) مصر ، ص ٣٩٦ .

(٢) عبد العزيز صالح : الأسرة في المجتمع المصري القديم ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦١م ، ص ٤٤ - ص ٤٥ وكذا
أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٣) سيجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩ م) ، طبيب يهودي نمساوي ، ومؤسس مدرسة التحليل النفسي ، وهو صاحب نظرية تطور الغريزة الجنسية منذ الطفولة التي حاول تطبيقها في تفسير نشأة المجتمع والدين والحضارة . وكان لنظريته آثار جسيمة في الدراسات النفسية والاجتماعية والتربوية . انظر :
محمد شفيق غربال وآخرون : الموسوعة العربية الميسّرة ، ج ٢ ، ص ١٢٩٧ .

(٤) انظر : سيجموند فرويد : المرجع السابق ، ص ٢٦ - ص ٣٥ .

العبرية " موشيه Mosche " ويعتقد بناءً على ما ورد في التوراة[١] ((ولما كَبُرَ الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابناً . ودعت اسمه موسى وقالت إني انتشلْته من الماء)) أن الأميرة المصرية هي التي انقذت الطفل من الماء وأعطته اسمه ، وأنها لم تكن على معرفة باللغة العبرية حتى تسميه اسماً عبرياً . ثم ان الاسم موسى ليس إلا الكلمة المصرية " موسى Mose " والتي تعني " طفلاً " ، وهي اختصار للاسم المكون من شقّين مثل : " أمون موسى " أي طفل آمون ، أو " بتاح موسى " أي طفل بتاح ، و" أح - موس " (أحمس) ، و" توت - موسى " (تحتمس) ، و" رع - موسى " (رعمسيس) ، لذلك من يحمل اسماً مصرياً كان مصرياً هو نفسه ، خاصة أن هذه الإحالة من الاسم إلى الجنسية تكون أكثر رجحاناً فيما يتعلق بالعصور المبكرة والبدائية .

والحق أن ما ذهب إليه سيجموند فرويد ومَنْ وافقه من المؤرخين[٢] من كون موسى عليه السلام رجلاً مصرياً أمر فيه كثير من التعسّف والمغالطة ، ولا يمكن قبوله في حالٍ من الأحوال . فهو يتعارض مع نصوص القرآن الكريم التي أشارت إلى موسى عليه السلام وارتباطه ببني إسرائيل ، ويتعارض أيضاً مع ما ورد في السنّة النبوية المطهرة من أحاديث كثيرة - ليس مجال بحثها هنا - عن انتمائه لبني إسرائيل ، وانتسابه إليهم كما مرّ سابقاً .

أما من ناحية " اشتقاق الاسم " فلا ضير أن يكون أصله مصرياً أو غير ذلك ، ومن الممكن قبول هذا الاشتقاق فقط فيما يتعلق بالاسم " موسى " .

فقد ذهب بعض المؤرخين[٣] إلى أنه سُمّي موسى لأنهم وجدوه في ماءٍ وشجر ، والماء بالقبطية " مو " والشجر " شا " .

---

(١) سفر الخروج ٢ : ١٠ .

(٢) منهم محمد الأمين خلفة : المرجع السابق ، ص ١٠ وكذا
أحمد السقاف : العنصرية الصهيونية في التوراة ، الطبعة الأولى ، شركة الربيعان للنشر والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٤ م ، ص ١٦ ، ص ٢٩ .

(٣) الطبري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩٠ وكذا
ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٧ وكذا
القرطبي : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ج ١ ، ص ٢٦٨ .

وقد ورد الاسم " موسى " في النصوص المصرية القديمة بالحرفين " م س " بدون أحرف علّة لخلّو اللغة المصرية القديمة من ذلك ، كما في أسماء الفراعنة : أحمس ، وتحتمس ، ورعمسيس . أما الاسم في العبرية فهو " موشيه " . وتعني كلمة " م س " باللغة المصرية القديمة " وليد " أو " ابن " أو " طفل " أو " الزنجي أو الأسود The Negro " ، أو " بصحة جيدة " أو " سليم "[(١)] .

نشأته :

لقد أراد الله عز وجل أن ينشأ موسى عليه الصلاة والسلام في بيت فرعون نفسه ، وأن تقوم زوجه آسية برعايته . وهذه النشأة والتربية امتنّ بها فرعون على موسى عليه السلام فيما بعد عندما كلّفه الله عز وجل بالرسالة ، فقال تعالى إخباراً عن فرعون : ﴿ **قال ألم نُربك فينا وليداً ولبثت فينا من عُمُرِكَ سنين** ﴾[(٢)] .

ومن غير الممكن الجزم بعدد السنين التي ظل فيها موسى عليه السلام في قصر فرعون ، إلا أنه يُستفاد من سياق الآيات القرآنية أن موسى عندما بلغ أشُدَّه آتاه الله عز وجل حُكماً وعلماً ، كما في قوله تعالى : ﴿ **ولما بلغ أشدَّه واستوى آتيناه حُكْماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين** ﴾[(٣)] .

ولا يُعرف أيضاً هل ظلَّ موسى عليه السلام في قصر فرعون أم أنه اعتزل القصر ، ولم تسترح نفسُه للحياة فيه ، حيث أنه كان يزور أُمَّهُ على علمٍ من فرعون الذي لا يعلم

---

(١) انظر : أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ٨٩ وكذا
عفيف عبد الفتاح طبارة : المرجع السابق ، ص ١٩٠ هامش ١ وكذا
سهيل ديب : التوراة بين الوثنية والتوحيد ، الطبعة الثانية ، دار النفائس ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ٦٢ وكذا
محمد ضياء الرحمن الأعظمي : المرجع السابق ، ص ٦٢ وكذا
عبد المحسن الخشاب : المرجع السابق ، ص ١٩ - ص ٢١ وكذا

Cook, S. A., Op. Cit. p. 355;
Gwyn, G. J., " The Egyptian Derivation of the Name Moses ", JNES, Vol. 12, 1953, p p. 225 - 231;
Lods, A., Op. Cit., p. 169;
Finegan, J., Op. Cit., p. 134;
Gardiner. A. H., Egyptian Grammar, p. 15;
Noth, M., Op. Cit., p. 136 note 2.

(٢) سورة الشعراء ، الآية (١٨) .

(٣) سورة القصص ، الآية (١٤) .

أنها أمه حقيقةً ، والتي لابدّ أنها قد عرّفته مَنْ هو ، ومَنْ قومه ، وما ديانته ، حتى صار عنده ميلٌ فطري لقومه الذين كانوا في نفس الوقت يُسامون الظلم الشنيع والبغي اللئيم(١) .

يقول محمد بيومي مهران(٢) : والواقع أنه لا يوجد دليل على شيء من ذلك ، وإن كان سياق الحوادث يشير إلى شيءٍ من ذلك ، فموسى عليه السلام ، فيما يبدو ، لا ينسى أنه من بني إسرائيل الذين كانوا يُسامون العذاب الأليم ، وربما كان يدرك أن الله تعالى إنما آتاه العلم والحكمة ليُنقذ قومه من ظلم فرعون وجبروته ، لذلك كان موسى عليه السلام كثير الحدب عليهم والشفقة بهم .

وربما كان موسى عليه السلام أيضاً يذكر لبني إسرائيل ما كان عليه حال فرعون من الكفر والضلال ، وأنه يقوم بأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، ويعظه وينهاه عن الكفر ، حتى وصل الأمر إلى أن شاع ذلك بين الناس ، وأن موسى عليه السلام مُخالِفٌ رأي فرعون وما هو عليه(٣) .

ولعل حياة الترف البالغ لم تَرُقْ في عين موسى عليه الصلاة والسلام ، خصوصاً بما يصاحبها من القيود الرسمية الفرعونية ، التي كانت تحيط بموسى كشخصية هامة في قصر فرعون ، فكان يحاول أن يخرج خفية متحرراً من قيود الرسميات ، وأبّهة السلطان والحرّاس والاستعدادات(٤) .

وتشير الآية الرابعة عشر من سورة القصص ، آنفة الذكر ، إلى أنه لما بلغ موسى عليه السلام نهاية القوة وتمام العقل آتاه الله عز وجل حكمةً وعلماً بمصالح الدارين ؛ الدنيا والآخرة ، وذلك جزاءً له على إحسانه . وفضلاً عن ذلك فإن الله عز وجل آتاه عملاً بهذا العلم ، إذ وفّقه للعمل به ، ومَنْ كان عالماً عاملاً بعلمه كان أبْعَد عن الشرور والمفاسد ، وأكثر إلتزاماً بأوامر الله تعالى وشرائعه ، وأشدّ تأبّياً على الشيطان ونزغاته(٥) .

---

(١) سيد قطب : المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٢٦٨١ وكذا
جمال عبد الهادي محمد ، ووفاء محمد رفعت : أخطاء يجب أن تُصحح في التاريخ – ذرية إبراهيم عليه السلام وبيت المقدس ، ص ١٤٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٩٨ – ص ٣٩٩ .

(٣) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن المقدسي المعروف بابي اليُمْن مجير الدين : الأنيس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج ١ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٣ م ، ص ٧٨ .

(٤) محمد فتح الله بدران : المرجع السابق ، ص ٥٧٢ .

(٥) محمد أبو النور الحديدي : عصمة الأنبياء والرد على الشُّبه الموجهة إليهم ، مطبعة الأمانة ، القاهرة ، ١٩٧٩ م ، ص ١٦٩ .

وقد تكون إشارة الآية القرآنية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ **ولما بلغ أشدّه واستوى** ﴾ دلالة على بلوغه سِن الأربعين من العُمُر ، فقد اقترن ذكر هذا العُمُر في آية أخرى بلفظ " أشدّه " في قوله تعالى : ﴿ **حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذرّيتي إني تُبتُ إليكَ وإنّي من المسلمين** ﴾[1] .

لذلك ، قال أحد العلماء[2] : ((إذا بلغ الإنسانُ هذا القدْر من العُمُر ، فإنه يتقوّى خُلُقُه الذي هو عليه ، فلا يكاد يُزايله بعد ذلك)) .

وورد في الإنجيل[3] : ((فتهذّب موسى بكل حِكمة المصريين وكان مقتدراً في الأقوال والأعمال . ولما كَمُلَت له مدة أربعين سنة خطر على بالهِ أن يفتقِدَ إخوتَهُ بني إسرائيل)) .

ويذكر بعض المؤرخين[4] أن موسى عليه السلام عندما كان في قصر فرعون ، كان يركب مراكب فرعون ، ويلبس مثلما يلبس ، حتى كان يُدعى موسى بن فرعون .

وقد أخذ موسى بقسطٍ كبير من التعليم والتثقيف أثناء نشأته في قصر فرعون ، فتعلّمَ القراءة والكتابة والحساب ، وفنون الحكم والقيادة العسكرية والحربية ، وكل ذلك باللغة المصرية القديمة ، شأنه في ذلك شأن أبناء الملوك والأشراف في ذلك الوقت ، وتولّى بعد ذلك منصباً مهماً في الدولة ربما كان منصب " الكاتب " حيث كانت هذه الوظيفة في مصر مدخلاً لأرفع المناصب ، وأسمى الدرجات[5] .

---

(١) سورة الأحقاف ، الآية (١٥) .

(٢) الراغب الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٢٦٣ .

(٣) سفر أعمال الرسل ٧ : ٢٢ - ٢٣ .

(٤) الطبري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩٠ وكذا
ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٨ .

(٥) فؤاد حسنين علي : التوراة الهيروغليفية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ م ، ص ٥٧ وكذا
أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ٩٢ - ص ٩٣ وكذا
محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (٧) إسرائيل ، الكتاب الأول - التاريخ ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ وكذا
أبو الأعلى المودودي : المرجع السابق ، ص ١٤ .

ويرى البعض[1] أن موسى عليه السلام وصل إلى رتبة قائد عسكري في الجيش المصري ، وأنه كان أحد الذين عُهِدَ إليهم بالتوسّع والإغارة على بعض المناطق المجاورة .

ولا يؤيد الباحث هذا الرأي الأخير ، لأنه يفتقر إلى الدليل الذي يبرهن على أن موسى كان قائداً عسكرياً في الجيش المصري . ولم ترد أي إشارة تدل على ذلك في المصادر المصرية القديمة ، ولو كان الأمر كذلك فمن المؤكد أن المصادر المصرية القديمة لن تُغفل ذكر قائد عسكري له تلك الأهمية .

وشاء الله عز وجل لعبده موسى عليه السلام الابتلاء والإختبار ، ليقضي أمراً كان مفعولاً ، فقد أخبر سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ **ودخل المدينة على حين غفلةٍ[2] من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثهُ الذي من شيعته على الذي من عدوّه فوَكَزَهُ[3] موسى فقضى عليه قال هذا من**

(١) صابر عبد الرحمن طعيمة : المرجع السابق ، ص ١١٦ وكذا
محمد الأمين خلفة : المرجع السابق ، ص ١٠ وكذا
أحمد السقاف : المرجع السابق ، ص ١٦ ، ص ٢٩ .

(٢) الغفلة : سهوٌ يعتري الإنسان من قلّة التحفّظ والتّيقّظ . وتطلق على وقت غفلة الناس وهو وقت منتصف النهار على الأقوى من الأقوال . وهناك من يرى أنها بين العِشاءين ، ولعل الغفلة التي أخذت الناس وصرفتهم حيناً عن فعلة موسى إنما كان ما شغلهم من وفاة فرعون من حدادٍ عليه ، وما أخذوا أنفسهم به من إعداده للدفن بالتحنيط والدعاء ، وكان ذلك يُشغل الكثرة من الناس ويستغرقهم أياماً تبلغ السبعين . انظر :
الراغب الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٣٧٥ وكذا
ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٨ وكذا
ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص ٣٨٢ وكذا
أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ٩٦ وكذا
محمد بيومي مهران : مصر والشرق الأدنى القديم (٣) مصر ، ص ٣٩٩ هامش ٢١ .

(٣) الوكز : الطّعن والدفع والضرب بجميع الكف ، وقيل : ضرَبَهُ بجُمْع يده على ذقنه . وقال قتادة : بعصا كانت معه . والمفهوم من التعبير أنها وكزة واحدة كان فيها حتف المصري ، مما يدل على قوة موسى وفتوّته ، ويصوّر كذلك انفعاله وغضبه ، ويعبّر عما كان يُخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به . انظر :
الراغب الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٥٦٨ وكذا
ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٨ وكذا
المعجم الوسيط ، ج ٢ ، ص ١٠٥٣ – ص ١٠٥٤ وكذا
سيد قطب : المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٢٦٨٢ وكذا
محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٣٩٩ ، هامش ٢٣ .

عمل الشيطان إنّهُ عدوٌ مُضلٌ مبين • قال رب إني ظلمتُ نفسي فاغفر لي فغفرَ له إنه هو الغفور الرحيم • قال رب بما أنعمتَ عليَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾(١) .

وقد ثبتت هذه الحادثة في الحديث النبوي الشريف ، كما أثبتها القرآن الكريم . فقد روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي ا لله عنه في حديث الشفاعة الطويل عن رسول ا لله ﷺ قال : ((... ، فيأتون موسى فيقولون : يا موسى ، أنت رسولُ ا لله ، فضَّلَكَ ا للهُ برسالتهِ فيقول : إنّ ربي قد غضبَ اليوم غَضَباً لم يَغضبْ قَبْلَهُ مثلَهُ ولن يغضبَ بَعْدَهُ مِثلَهُ ، وإنّي قد قتلتُ نفساً لم أُومَرْ بقتلها ، نَفْسِي نفسي نفسي ، إذهبوا إلى غيري ، إذهبوا إلى عيسى ...))(٢) .

والآية القرآنية السابقة تدل دلالة قاطعة على أن موسى عليه الصلاة والسلام توجّه إلى ا لله عز وجل بالتوبة والاستغفار ، وأقرّ بظُلمهِ لنفسه ، فغفر ا لله عز وجل له . إلا أن موسى عليه الصلاة والسلام ، من خشيته لربه ، يتذكر يوم القيامة ما بدرَ منه في الحياة الدنيا من قتل تلك النفس التي ذكر أنه لم يُؤمر بقتلها ، فهو يخشى على نفسه ، بالرغم من أنه رسول ا لله ، بل ومن أولي العزم من الرسل .

ولكن هذه هي أخلاق الأنبياء ، وهذه هي سمات نفوسهم الطيبة التّقية .

فموسى عليه الصلاة والسلام أراد أن يرفع الظلم الذي كاد أن يقع على الضعيف ، وإنما أغاث من استغاث به من الرجلين ، لأن نصر المظلوم دينٌ في المِلَلِ كلها على الأمم ، وفرضٌ في جميع الشرائع ، حيث كان الاسرائيلي مؤمناً ، ونُصْرة المؤمن واجبةٌ في جميع الشرائع(٣) .

والنفس الطيبة تضيق بالظلم عندما يقع ، لأنه يُفسد المجتمع ، وتختلُّ به الموازين ، وبالتالي تفسد فطرة الناس ؛ بحيث يرون الظلم والبغي فلا تجيشُ أنفسهم لدفعه ، حتى يصل بهم الأمر إلى حد إنكار الناس على المظلوم الذي يحاول أن يدفع عن نفسه ذلك الظلم ، بل ويسمّون مَنْ يُقاوم ذلك ، أو مَنْ يدفع عن غيره ، جبّاراً في الأرض ، وهي

---

(١) سورة القصص ، الآيات (١٥ - ١٧) .

(٢) ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ، ج ١٧ ، كتاب التفسير ، باب ﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾ ، ص ٢٨٨ - ص ٢٨٩ حديث رقم ٤٧١٢ .

(٣) القرطبي : المصدر السابق ، المجلد السابع ، ج ١٣ ، ص ١٧٢ ، ص ١٧٤ .

الكلمة التي قيلت لكليم الله موسى عليه الصلاة والسلام عندما أنقذ المظلوم من يد ظالمة ، مما يُنبىء عمّا كان سائداً في المجتمع المصري القديم آنذاك[١] .

وللعلماء المسلمين رأي هام فيما يتعلق بموضوع قتل موسى عليه الصلاة والسلام للرجل الذي وكزه فلقي حتفه على إثر تلك الوكزة . وهذا الرأي ينبغي على الباحث بيانه قدر المستطاع ، لبيان وجه الحقّ فيما قام به كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام .

يقول ابن حُمَيّر[٢] : ((فمن أقوال المُخلِّطة في هذه القصة ، أن موسى عليه السلام قتل القبطي من أجل العبرانيّ ، لأنْ كان العبراني من قَبيلهِ والقبطي من غير قَبيلهِ . فصيّروا الكليم عليه السلام متعصّباً لأجل قبيلهِ وعشيرتهِ . وليس الأمر كذلك ، وحاشاه من ذلك . فإن هذه هي حميّة الجاهلية ، وإنما مرّ موسى عليه السلام برجلين يقتتلان أحدهما يعرِفُه مؤمناً ، والآخر يَعرِفُهُ كافراً ، فاستغاثه المؤمن على الكافر ، فوكزَ الكافرَ ليحمي المؤمن ، فصادفَ مقتلاً من مَقَاتِلِه بتلك الوكزة فمات)) .

وقد ذهب إلى هذا الرأي بعض المفسّرين[٣] الأجلاّء . وهو تعليلٌ حَسَنٌ تطمئن إليه النفس .

وقد استدل ابن حُمَيّر في رأيه على أدلّة قوية ، منها قوله[٤] : ((... فإن قالوا : لقوله تعالى : ﴿ **هذا من شيعته وهذا من عدوّه** ﴾ والشّيعة : القبيلُ والرهط ، فمن أين نقلتم الحقيقة إلى المجاز ؟ ومن أين صحّ لكم العلم بكفر أحدهما وإيمان الثاني ؟! فنقول : علمنا ذلك من ثلاثة أوجه :

أحدهما : أن شيعة الكافر قبيلُهُ ونسيبُهُ وصِنْفُهُ . وشيعة المؤمن إنما هو شريكهُ في الإيمان ؛ سواء كان من قبيلهِ أو من غير قبيلهِ . قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾[٥] .

---

(١) سيد قطب : المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٢٦٨٣ .
وانظر : محمد أبو النور الحديدي : المرجع السابق ، ص ١٧٢ وكذا
محمد الطيب النجار : المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

(٣) انظر : فخر الدين الرازي : المصدر السابق ، ج ٢٤ ، ص ٢٣٣ – ص ٢٣٤ وكذا
القرطبي : المصدر السابق ، المجلد السابع ، ج ١٣ ، ص ١٧٢ ، ص ١٧٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠٩ – ص ١١٤ بتصرّف .

(٥) سورة الحجرات ، الآية (١٠) .

وقال تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه : ﴿ **فلما تبيّن له أنّه عدوٌ لله تبرّأ منه** ﴾[١] ... ، وقال تعالى : ﴿ **الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعضٍ عدوٌ إلا المتقين** ﴾[٢] . والأخلاء هنا المؤمنون .

إلى غير ذلك مما جاء في الكتاب والسنة من تبرؤ المؤمن من الكافر . ومجموع هذا يدل على أن الذي استغاث بموسى عليه الصلاة والسلام كان مؤمناً على بقايا من دين يوسف عليه السلام ، ... فكان في بني إسرائيل وفي القبط مؤمنون يكتمون إيمانهم ، فكان هذا الرجل المستغيث بموسى عليه السلام منهم .

الثاني : قول الله تعالى لأم موسى عليه السلام : ﴿ **يأخذه عدوٌ لي وعدوٌ له** ﴾[٣] . ومعلومٌ قطعاً أن الله تعالى ما سمّى فرعون عدواً له ولنبيّه إلا لأجل كفره ، ولو اجتزأنا بهذا الدليل لاكتفينا به عما سواه .

الثالث : أن الله تعالى قال : ﴿ **هذا من شيعته وهذا من عدوّه** ﴾ فلو كان المقصود بالشّيعةِ القبيل لَقُوبِلَ في النَّقيضِ بقبيلٍ آخر لا بالعدوّ ، فإنه ليس مَنْ وُصِفَ مَنْ لم يكن من القبيل أن يكون عدواً ، ثم قد يكون العدو من القبيل ، بل من الأخ والولد ، كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم** ﴾[٤]. فَصحّت عداوة الدين مع ثبوت النَّسب . فيخرج العدو هنا مخرج قوله تعالى : ﴿ **يأخذه عدوٌ لي وعدوٌ له** ﴾ حرفاً بحرف ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ **فاستغاثه الذي من شيعتهِ على الذي من عدوه** ﴾ فخرج من مضمون هذا أن موسى عليه السلام وكز الكافر العدو لأجل كفره لا لغير ذلك ...

وأما قول موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ **فعلتُها إذاً وأنا من الضالّين** ﴾[٥] فيدل على أن موسى عليه السلام عندما قتل ذلك الكافر كان من الغافلين الغير مُكلّفين ، فكأنه يقول لفرعون : فعلتُ ذلك قبل إلزام التكليف ، وإذا كنتُ غير مُكلَّف فلا تثريب عليّ ، فإنه لا يقع الذنب والطاعة إلا بعد ثبوت الأمر والنهي .

---

(١) سورة التوبة ، الآية (١١٤) .

(٢) سورة الزخرف ، الآية (٦٧) .

(٣) سورة طه ، الآية (٣٩) .

(٤) سورة التغابن ، الآية (١٤) .

(٥) سورة الشعراء ، آية (٢٠) .

والدليل على أن ضلال الأنبياء غفلةٌ لا جهل قوله تعالى عن محمد ﷺ : ﴿ **ووجدك ضالاً فهدى** ﴾[١] ، يعني غافلاً عن الشريعة ، لا تدري كيفية العبادة ، فَهَداك لها بالأمر والنّهي . ثم قال له أيضاً : ﴿ **بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبلهِ لمن الغافلين** ﴾[٢] . والجاهل لا يُسمى غافلاً حقيقةً لقيام الجهل به ، فصحّ أن ضلال الأنبياء عليهم السلام غفلةٌ لا جهل ...

ومع ما في هذه القصة من تبرئة موسى عليه السلام من الذّنب في قتل الكافر أنّ قَتْلَهُ كان خطأً ، فإنه ما طعنه بحديدة ، ولا رماه بسهم ، ولا ضربه بحجرٍ ، ولا بغيره ، وإنما وكَزَهُ ، وما جرت العادة بالموت من الوكزة ، وإن مات منها أحد فنادر ، والنّادرُ لا يُحكَمُ به)) .

ومن ثَمَّ لا يصح القول بأن موسى عليه الصلاة والسلام كان على ضلالٍ قبل البعثة حين وكز المصري فمات ، بل المفهوم من فِعله ذلك أن موسى عليه السلام كان ذاهلاً أو غافلاً عن أن الوكزة قد تُفضي إلى القتل ، والضّال عن الشيء هو الذاهل عن معرفته . أو أن يُحمل المعنى على أن موسى عليه الصلاة والسلام كان عمله خطأً عن غير قصدٍ أو عمد ، فهو لم يتعمّد قتل تلك النّفس ، لأن الضلال بمعنى الخطأ ، وإنما أراد دَفْعَهُ فوكزه فمات من تلك الوكزة – كما مر آنفاً – ومثلُهُ لا ضَيرَ فيه لأنه خطأٌ معفوٌّ عنه[٣] .

ويتبيّن من خلال ذلك ، أن على المسلم أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأن موسى عليه الصلاة والسلام انتصر للمؤمن من الكافر ، وهذا هو الذي يليق بأخلاق الرسل والأنبياء الكرام ، الذين فضّلهم الله عز وجل على الخلق ، وعصمهم الله عز وجل من الأخطاء ، والوقوع في الكبائر والذنوب .

ويخبرُ الله تعالى عن الحالة التي أصبح فيها موسى عليه السلام في اليوم التالي في قوله تعالى : ﴿ **فأصبح في المدينة خائفاً يترقّبُ فإذا الذي استنصَرَهُ بالأمس يستصرخُه قال له موسى إنك لَغَويٌّ مبين ۝ فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدوٌّ لهما قال يا موسى أتريدُ**

(١) سورة الضحى ، الآية (٧) .

(٢) سورة يوسف ، الآية (٣) .

(٣) محمد أبو النور الحديدي : المرجع السابق ، ص ٦٩ ، ص ٧٠ .

أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تُريد إلاّ أن تكون جبّاراً في الأرض وما تُريد أن تكون من المُصلحين ﴾[١] .

قال ابن كثير[٢] : ((لما قتل موسى ذلك القبطي أصبح في المدينة خائفاً من معرّة ما فعل ، فكان يترقّب أي يتلّفت ويتوقّع ما يكون من هذا الأمر ، فمرّ في بعض الطرق فإذا ذلك الذي استنصره بالأمس يُقاتل رجلاً آخر ، ويستصرخه عليه ، فقال له موسى : ﴿ **إنك لغويٌّ مبين** ﴾ أي ظاهر الغواية كثير الشرّ ، ثم عزم موسى عليه السلام على البطش بذلك القبطي ، فاعتقد الاسرائيلي لِخَوَرِهِ وضعفهِ وذلّته أن موسى إنما يريدُ قصدهُ لّما سمعه يقول ذلك ، فقال يدفع عن نفسه : ﴿ **يا موسى أتريدُ أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس** ﴾ وذلك لأنه لم يعلم بذلك القتيل إلاّ هو وموسى عليه السلام ، فلما سمعها ذلك القبطي لَقَفَها من فمهِ ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده ، فعلم فرعون بذلك ، فاشتدّ حنقه ، وعزم على قتل موسى عليه السلام فطلبوه ، فبعثوا ورائه لِيُحضِروه لذلك)) . وشاع الخبر ، وأُنبئت السلطات المصرية التي ارتاعت كما ارتاع الناس لِما ارتكب موسى عليه السلام من قتل رجل والشروع في قتل آخر ، فقرّ رأيُهم على محاكمته بما ارتكب ، والقصاص منه . وإن كان موسى عليه السلام يرى في ذلك ظُلماً صارخاً بأن يُطلَب بقتلٍ خطأً لم يتعمّده أو يرغب فيه[٣] .

وأدركت عناية الله عز وجل عبده موسى عليه الصلاة والسلام ، بأن سَخَّرَ له مَنْ ينقل إليه تآمر القوم على قتله ، فقام ذلك الرجل الذي أخبر عنه القرآن الكريم ، بإسداء النصيحة الصادقة لموسى بمغادرة مصر دون إبطاء ، كما جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ **وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فأخرُج إني لك من الناصحين** ﴾[٤] .

فأدرك موسى عليه الصلاة والسلام خطورة الموقف كما في قوله تعالى : ﴿ **فخرج منها خائفاً يترقّب قال رب نجّني من القوم الظالمين • ولما توجه تلقاء مَدين قال عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل** ﴾[٥] .

---

(١) سورة القصص ، الآيتان (١٨ ، ١٩) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص ٣٨٣ .

(٣) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٤) سورة القصص ، الآية (٢٠) .

(٥) سورة القصص ، الآيتان (٢١ ، ٢٢) .

فخرج موسى عليه السلام من مصر متّجهاً إلى مَدين[١] . وقد كانت هناك قوات مصرية تقوم بحراسة الطرق الرئيسة في شبه جزيرة سيناء . وكان على رؤساء القبائل المقيمة في شبه جزيرة سيناء أن يسمعوا ويطيعوا للدولة المصرية ، فإذا عمد مُتّهم سياسي إلى الإقامة بين تلك القبائل ، فإن أمره لا يلبث أن ينكشف لرئيس الحامية القريبة من الحدود ، فيأمر بمثوله توّاً بين يديه ، إذا كان لا يريد أن يُعرّض نفسه وحاميته لما يترتّب على إهماله من عقاب[٢] .

لذلك فإن موسى عليه الصلاة والسلام فرّ من مصر ، ومن بقيّة الأراضي المتاخمة لحدودها إلى مدين ، التي لم تكن ضمن امتداد النفوذ المصري ، أو السيطرة المصرية .

ويُفهَمُ من سياق الآيات القرآنية السابقة أن موسى عليه الصلاة والسلام فرّ من مصر وحيداً دون رفيق له في الطريق ، معتمداً على هداية الله عز وجل له ، ومفوّضاً أمره إليه ، فَهدَاهُ سواء السبيل ، بعد أن نجّاهُ من القوم الظالمين . وبالتالي فلا يصحُ ما ذهب إليه أحد المؤرخين[٣] عندما قال عن موسى عليه السلام : ((إنه لم يفرّ عبر الصحراء منفرداً ، لأنه إذا كان قد أراد التّخفي ، فلابدّ له من أن يَنضمَّ إلى إحدى القوافل المتّجهةِ نحو الشرق ، فيندمج بين أفرادها ويسير معها في الطريق التجاري حتى يصل إلى مدين)) .

فإذا كان الملأ من آل فرعون قد تآمروا على قتل موسى عليه السلام فكيف يُعقل أن ينتظر حتى يسير مع قافلة تجارية ؟ والآيات السابقة تدل بوضوح على أنه خرج من مصر خائفاً ، والخائف يحاول النجاة بأسرع ما يمكن ، وتهون عليه المشاق والصعاب .

وحسب تعبير أحد المؤرخين[٤] فإن موسى عليه الصلاة والسلام خرج من مصر هائماً على وجهه في صحراوات سيناء المقفرة ، فارّاً مستوحشاً ، خائفاً أن تناله هراوات الشرطة من رجال " المجاي "[٥] الأشداء ، أو تصل إليه أيدي السلطات .

---

(١) انظر عن مدين : الباب الثالث – الفصل الأول .

(٢) ألويس موسل : المرجع السابق ، ص ٨١ – ص ٨٢ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٨٢ .

(٤) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٤٠٣ .

(٥) المجاي أو المازوي أو المزاي : كلمة كانت تُطلق على قبائل قوية اشتهرت بالقيام بالحراسة ، وشاع استخدامها في الشرطة المصرية إلى درجة أن هذه الكلمة أصبحت تُطلق على رجال الشرطة حتى وإن لم يكونوا من النوبيين =

وكان موسى عليه الصلاة والسلام عند فراره من مصر إلى مدين يبلغ من العمر إحدى وأربعين سنة ، وكان على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ويدعو إليه[١] . ولم يكن له طعام إلاّ البقل وورق الشجر ، وخرج حافياً ، فما وصل إلى مدين حتى سقطت خُفَّ قدميه ، وجلس في الظل ، وهو صفوة الله من خلقه في زمانه ، وإن بَطنَهُ لَلاصقٌ بظهره من شدة الجوع[٢] .

موسى عليه السلام في مدين :

يطوي السياق القرآني الأحداث التي واجهها موسى عليه الصلاة والسلام في رحلته من مصر ، وما لاقى خلالها من نَصَبٍ ومشقة ويشير إلى وصوله إلى منطقة مدين .

قال تعالى : ﴿ **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أُمّةً من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يُصدِرَ الرعَاءُ وأبونا شيخٌ كبير • فسقى لهما ثم تولّى إلى الظلّ فقال ربّ إني لما أنزلتَ إليّ من خيرٍ فقير • فجاءَته إحداهما تمشي على استحياءٍ قالت إن أبي يدعوكَ ليجزيَكَ أجر ما سقيتَ لنا**

⇐ بعامة ، ومن هذه القبيلة " مدجا " بصفة خاصة والتي كانت تسكن عند الجندل الثاني وفي مجاورته . وقد أطلق عليهم أحياناً اسم " متزاي " أو " فرقة المازين " نسبة لقبيلة مزا النوبية ، وكانت هذه الفرقة تشكل قوّة حربية تؤدي عملها في الحفاظ على الأمن ، ويتولى الإشراف عليها رؤساء يسمى قائدهم الأعلى باسم " أمير مزاي " ، وكانوا يحملون في الغالب أسماء مصرية مثل : " تخت – ست " أي ست مُنتصر . انظر :

أحمد كمال : العقد الثمين في محاسن أخبار وبدائع آثار الأقدمين ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأميرية ، بولاق ، مصر ، ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٢ م ، ص ١٨٨ وكذا

محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (٧) إسرائيل ، الكتاب الأول – التاريخ ، ص ٢٩١ هامش ٢ وكذا

أدولف إرمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٩٩ ، ص ٦٢٥ ، ص ٦٢٦ وكذا

ألن جاردنر : المرجع السابق ، ص ١٢٠ وكذا

Gardiner, A. H., Egypt of the pharaohs. p. 101

(١) الطبري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٩٧ وكذا

ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٩ وكذا

غريغوريوس أبي الفرج بن أهرون المعروف بابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، وقف على تصحيحه وفهرسته أنطون صالحاني اليسوعي ، دار الرائد اللبناني ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٢٨ وكذا

ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٨٣ – ص ٣٨٤ .

فلما جاءَهُ وقصّ عليه القَصَص قال لا تخف نجوتَ من القوم الظالمين • قالت إحداهما يا أبتِ استأجره إنّ خيرَ مَن استأجرتَ القويُّ الأمين • قال إنّي أُريدُ أن أُنكِحكَ إحدى ابنتيَّ هاتين على أن تأجُرَني ثماني حِجج فإن أتممت عشراً فمن عندِكَ وما أريد أن أشقَّ عليك ستجدُني إن شاء الله من الصالحين • قال ذلك بيني وبينَك أيّما الأجلينِ قضيتُ فلا عدوان عليَّ والله على ما نقولُ وكيل ﴾[١] .

وهذه الآيات القرآنية الكريمة أجملت ابتداء حياة موسى عليه الصلاة والسلام في مدين ، وبيّنتْ بإسلوبٍ قرآني فريد مُستقبَل حياته هناك ، بزواجه بإبنة الشيخ الكبير الصالح لقاء خدمته له ثماني سنين ، فإن زاد وأتمَّ عشراً فهو تطوّعاً وتكرّماً من موسى دون إلزامٍ له .

ولكن من هو الشيخ الكبير الصالح الذي آوى موسى عليه السلام في بيته ، وزوّجه إحدى ابنتيه لقاء خدمته تلك المدة المشروطة ؟

لم يرد في القرآن الكريم إشارة إلى اسم ذلك الشيخ ، إلا أنه كان على وجه التأكيد " من الصالحين " كما أشارت لذلك الآية السابعة والعشرون من سورة القصص . لذلك يجدر بالباحث بيان وجه الحق في هذا الموضوع قدر الاستطاعة .

ففيما يتعلق بالمعلومات الواردة في التوراة عن هذا الرجل الذي استقبل موسى عليه السلام ، يمكن القول أنها معلومات يشوبها كثير من التناقض الواضح ، الأمر الذي يُثير الشك في صحتها .

جاء في التوراة[٢] : ((وكان لكاهن مديان سبع بنات . فأتينَ واستقينَ وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن . فأتى الرعاة وطردوهن . فنهض موسى وأنجدهنّ وسقى غنمهن . فلما أتين إلى رعوئيل أبيهنّ قال ما بالُكنّ أسرعتُنَّ في المجيء اليوم . فقلنَ رجلٌ مصريٌّ أنقذنا من أيدي الرّعاة وأنه استقى لنا أيضاً وسقى الغنم)) .

فهو في هذا النص كاهن مدين ، وان اسمه رعوئيل .

وفي التوراة أيضاً[٣] : ((وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميهِ كاهن مديان)) .

---

(١) سورة القصص ، الآيات (٢٣ – ٢٨) .

(٢) سفر الخروج ٢ : ١٦ – ١٩ .

(٣) سفر الخروج ٣ : ١ .

فهو في هذا النص كاهن مدين ، وأن اسمه يثرون .

وفي نصٍ آخر من التوراة[١] : ((وقال موسى لحوباب بن رعوئيل المديانيّ حمي موسى إننا راحلون إلى المكان الذي قال الربُّ أُعطيكم إياه)) .

وهو هنا حوباب بن رعوئيل المدياني .

وكذلك ورد في التوراة[٢] : ((وبنو القيني حمي موسى صعدوا من مدينة النخل)) .

ففي هذا النص عُرف بالقيني وليس المديني .

ووفقاً لهذه النصوص من التوراة رجّحَ بعض العلماء[٣] أن هذا الرجل هو كاهن مدين ويُدعى يثرو Jethro ، وأن له اسماً آخر هو رعوئيل . أما " القيني " فهي صفةٌ له وتعني الحدّاد .

وأحد الحلول التي طُرحت لتفسير هذا التناقض الوارد في نصوص التوراة ، هو ما أشار إليه أحد الباحثين[٤] ، من ضرورة تعامُل المرء مع مواقف مختلفة من التراث المنقول عن هذه الشخصية ، أو أن يُفهم التعبير الذي جاء في النص ((فلما أتين إلى رعوئيل أبيهن))[٥] على أنه إشارة إلى جدّهن . إذا أن هناك العديد من الأدلة في التوراة على استخدام تعبير " أب " و" ابن " للإشارة إلى بعض الأقارب ، ومن ذلك على سبيل المثال : أن " لابان " خال يعقوب عليه السلام هو حفيد " ناحور " إلا أنه سُمّي في النص التالي " ابن ناحور " : ((فقال لهم هل تعرفون لابان ابن ناحور))[٦] . وكذلك جاء في نص التوراة[٧] ، أن أبناء زلفة عددهم ستة عشر ، لكن أربعة عشر منهم هم أحفاد يعقوب وأبناء أحفاده . وعلى ذلك فإن " رعوئيل " في النصوص السابقة يجوز أن يكون جدٌّ للبنات ، وعليه يكون لوالد زوجة موسى اسمين هما : يثرو وحوباب . وقد قُرِنَ اسم يثرو بصفته " كاهن مدين " في

---

(١) سفر العدد ١٠ : ٢٩ .

(٢) سفر القضاة ١ : ١٦ .

(٣) Albright, W. F., Op. Cit., p. 257;
Landes. G. M., " Midian " , In The Interpreter`s Dictionary of the Bible, Vol. 3, Edited by Buttrick, G. A., Abingdon press, Nashville, New York, 1962, p. 375 .

(٤) Sarna. N. M., Op. Cit., p. 36 .

(٥) سفر الخروج ٢ : ١٨ .

(٦) سفر التكوين ٢٩ : ٥ .

(٧) سفر التكوين ٤٦ : ١٨ - ٢٢ .

نصوص التوراة[١] ، الأمر الذي يمكن القول عنده : بأنه من المحتمل كذلك أن يكون الاسم " يثرو " هو لقبه الديني الرسمي ، وليس اسماً شخصياً ، رغم أنه في حقيقة الأمر أن الاسم " يثرو " قد يعني " صاحب السعادة أو العزّة " التي وردت الإشارة إليه في قول يعقوب لابنه رأوبين : ((رأوبين أنت بِكْري قوّتي وأوّلُ قُدرتي فضلُ الرفعةِ وفضلُ العِزّ))[٢] . أما كونه " قيني " فقد جاء في النص[٣] : ((وقال شاؤل للقينيين إذهبوا حِيدُوا انزلوا من وسط العمالقة لئلا أُهلككم معهم وأنتم قد فعلتم معروفاً مع جميع بني إسرائيل عند صعودهم من مصر)) . وهذا يشير إلى مدى العلاقة الحميمة التي كانت بين بني إسرائيل والقينيين[٤] فيما بعد ، في زمن خروج بني إسرائيل من مصر . وهذا الاسم " قيني " ليس له في الواقع دلالة عرقية ، ولكنه يدل على مهنة الأعمال المعدنية .

---

(١) سفر الخروج ٣ : ١ ؛ ١٨ : ١ .

(٢) سفر التكوين ٤٩ : ٣ .

(٣) سفر صموئيل الأول ١٥ : ٦ .

(٤) القينيون : مفردها " قيني " وهو اسم سامي معناه حدّاد . وهي قبيلة عربية رعوية ، عُرف عنها صناعة الأعمال المعدنية والاشتغال بالمعادن في منطقة التعدين بوادي عربة في جنوب الأردن . والعلاقة بينهم وبين المدينيين جدُّ وثيقة ؛ فقد انضموا وانتسبوا إلى المدينيين على أيام موسى عليه الصلاة والسلام . وفي فترة حكم شاؤل كانوا يرتبطون بالعماليق ، لكن تاريخ علاقاتهم الطيبة مع بني إسرائيل كانت محفوظة فيما بعد وخاصة بينهم وبين سبط يهوذا . وبناءً على ما ورد في التوراة فإنهم يعيشون في مكان ما في الجزء الجنوبي من غرب الأردن ؛ لأن مدنهم إنما تشير إلى علاقة ما بالأماكن الأخرى المعروفة في الجزء الجنوبي من الجبال ، كما أنهم يشتركون في النقب كذلك . وقد كان القينيون يقيمون لهم خياماً في مكان ما في الجليل قرب قادش ، وينتشرون أيضاً في وادي عربة ، ويهوذا الجنوبية على أيام داود عليه السلام . ومنهم " الركابيون " الذين أصرّوا على سكن الخيام حتى في عصر الملكية المتأخر حسب ماورد في سفر ارمياء ٣٥ : ٦ - ١٠ محتفظين بوصيّة أبيهم . انظر :

سفر القضاة ١ : ١٦ ؛ ٤ : ١١ ، ١٧ وكذا

سفر صموئيل الأول ١٥ : ٦ ؛ ٢٧ : ١٠ ؛ ٣٠ : ٢٩ وكذا

سفر أخبار الأيام الأول ٢ : ٥٥ وكذا

سفر ارمياء ٣٥ : ٦ - ١٠ وكذا

بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٧٥٦ وكذا

محمد بيومي مهران : مصر والشرق الأدنى القديم (٨) بلاد الشام ، ص ٤٤٨ - ص ٤٤٩ وكذا

Noth, M., Op. Cit., p . p . 57 and Note 2, 3, 58 note 1, 76 - 77, 182;

Sarna, N. M., Op. Cit., p. 36 .

وفيما يتعلق بالمصادر الإسلامية ، التي تحدثت عن الشيخ الكبير الذي صاهر موسى عليه الصلاة والسلام ورعى له الغنم في مدين ، فقد اختلفت أيضاً الروايات التاريخية حوله .

فقد ذكر الطبري[١] عدة روايات تاريخية عن اسمه ، ففي رواية أنه يثرون – بالتاء – وهو شعيب النبي صلى الله عليه وسلم . ورواية أخرى أنه يترون – بالتاء – ابن أخي شعيب ، ورواية ثالثة أنه يترون – بالتاء أيضاً – كاهن مدين . ورواية رابعة أنه يثرى – بالثاء – صاحب مدين .

ويذهب المسعودي[٢] إلى أن الشيخ الكبير هو شعيب بن نويت بن رعوايل ... ، وكان لسانه عربياً ، ومبعوثاً إلى أهل مدين .

وذكر ابن عبد البرّ[٣] في ترجمة سلمة بن سعد العنزي ، حديث سلمة الذي رفعه إلى رسول الله ﷺ فقال : ((نِعمَ الحيُّ عنزة مبغيٌّ عليهم منصورون ، قوم شعيب وأحبار موسى)) .

إلا أن ابن كثير[٤] ، ذكر كلمة " أختان " بدلاً من كلمة " أحبار " وقال بعد ذلك: ((فلو صحَّ هذا لدلَّ على أن شُعيباً ... من قبيلة من العرب العاربة يُقال لهم عنزة ، لا أنهم من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، فإن هؤلاء بعده بدهرٍ طويل ، والله أعلم)) .

وهذا الحديث ((في إسنادِه مجاهيل))[٥] ، أي أنه حديث غير صحيح ، لوجود عِلّةٍ في السند ، وهو الجهل ببعضِ رواة سلسلة السند ، مما يُضعّف الحديث .

وهناك رأي جديرٌ بالإهتمام ، وهو رأي ابن تيميّة ، رحمة الله عليه ، إذ يقول[٦]: ((قال ابن جرير : " وهذا لا يُدرَكُ عِلْمُهُ إلاّ بخبرٍ عن معصومٍ ، ولا خبر في ذلك " ...

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨٥ ، ص ٣٨٦ ، ص ٤٠٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٩ .

(٣) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البرّ : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق علي محمد البجاوي ، القسم الثاني ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٦٤٤ .

(٤) البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

(٥) ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٢٠٢ .

(٦) شيخ الإسلام أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية : جامع الرسائل ، المجموعة الأولى ، تحقيق محمد رشاد سالم ، الطبعة الأولى ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ، ص ٦٢ – ص ٦٥ بتصرف .

فهذه كتب التفسير التي تُروى بالأسانيد المعروفة عن النبي ﷺ والتابعين لم يُذكر فيها عن أحدٍ أنه شُعيبٌ النبي ، ولكن نقلوا بالأسانيد الثابتة عن الحسن البصري[1] أنه قال : " يقولون إنه شعيب وليس بشعيب ، ولكنه سيّد الماء يومئذ " ... فمن جزم بأنه شعيبٌ النبي فقد قال ما ليس له به علم ، وما لم يُنقل عن النبي ﷺ ، ولا عن الصحابة ، ولا عمَّن يُحتجُّ بقوله من علماء المسلمين ، وخالفَ في ذلك ما ثبت عن ابن عباس والحسن البصري ، مع مخالفته أيضاً لأهل الكتابين ، فإنهم مُتّفقون على أنه ليس هو شعيبٌ النبي ، فإن ما في التوراة التي عند اليهود ، والإنجيل الذي عند النصارى أن اسمه يثرون ، وليس لشعيب النبي عندهم ذِكرٌ في التوراة ... . وظاهر القرآن يدل على مخاطبة موسى للمرأتين وأبيهما بغير ترجمان . وإنما شُبهة مَنْ ظنَّ ذلك أنه وجد في القرآن قصة شعيب وإرساله إلى أهل مدين ، ووجد في القرآن مجيء موسى إلى مدين ومصاهرته لهذا ، فظنَّ أنه هو . والقرآن يدل أن الله أهلك قوم شعيب بالظُّلَّة ، فحينئذٍ لم يبقَ في مدين من قوم شعيب أحد ، وشعيب لا يُقيم بقريةٍ ليس بها أحد ... ، وموسى لما جاء إلى مدين كانت معمورة بهذا الشيخ الذي صاهره ، ولم يكن هؤلاء قوم شعيب المذكورين في القرآن ، بل ومَنْ قال : انه كان ابن أخي شعيب أو ابن عمه لم يَنْقُل ذلك عن ثبت ، والنقل الثابت عن ابن عباس لا يُعارَضُ بمثل قول هؤلاء .

... ، وذُكِرَ عن موسى أنّهُ أحقُّ بالوفاء من حميه ... ولم يكن موسى قبل أن يُنَبّأ أحقّ منه ، فإن شعيباً كان نبياً وموسى لم يكن نبياً ، فلم يكن موسى قبل أن يُنبأ أكملَ من نبيّ)) .

---

(١) الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، أبو سعيد . يُقال مولى زيد بن ثابت ، ويقال مولى جميل بن قُطبة . وهو من الطبقة الثالثة الوسطى من التابعين . ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه . قال عنه سليمان التيمي : الحسن شيخ أهل البصرة . نشأ بالمدينة وحفظ كتاب الله في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه . لازمَ الجهاد والعلم والعمل ، وكان كاتباً في دولة معاوية رضي الله عنه لوالي خراسان الربيع بن زياد ، وحدّث عن جمْعٍ من الصحابة رضي الله عنهم . مات في رجب سنة ١١٠ هـ ، وكان عمره ثمانٌ وثمانون سنة رحمة الله عليه . انظر :

أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : تذكرة الحفاظ ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد، الهند ، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م ، وصوّرته ونشرته في طبعته الثالثة دار إحياء التراث العربي ببيروت ، ص ٧١ - ص ٧٢ وكذا

عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي : طبقات الحفّاظ ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٣٥ .

ومما يؤيد ما ذهب إليه ابن تيميّة رحمة الله عليه أن شعيب عليه السلام كان قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة ، لأن شعيب قال لقومه : ﴿ **وما قوم لوطٍ منكم بعيد** ﴾(١) . وقد كان هلاك قوم لوط عليه السلام في زمن إبراهيم الخليل عليه السلام بنصّ القرآن ، وقد عُلِمَ أنه كان بين إبراهيم الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة عام ، وما قيل أن شعيباً عاش مدةً طويلة إنما هو - والله أعلم - احترازٌ من هذا الإشكال . ثم من المقوّى لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إيّاه لأوشك أن يُنصَّ على اسمه في القرآن ههنا(٢) .

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن قوم شعيب أنهم قالوا له : ﴿ **قالوا يا شعيب ما نفقهُ كثيراً مما تقولُ وإنا لنراكَ فينا ضعيفاً ولولا رَهطُكَ لرجمناكَ وما أنت علينا بعزيز** ﴾(٣) .

فكيف يكون لشعيب رهط ، ويُرسل ابنتيه للتزاحم على الماء ؟ وأين الرّهط إذاً ؟! ثم كيف يبحث عمن يستأجره فلا يجد ؛ حتى يجيء إليه موسى القوي الأمين ؟! . هذا فضلاً عن أن القرآن الكريم لم يتحدث بكلمة واحدة عن هذا الرجل الشيخ الكبير طوال مقام موسى عنده عشر سنين كاملة ، ولم يدعُ شعيبٌ موسى إلى الله ، ولم يُبلّغهُ الرسالة ؛ وهو خطيب الأنبياء في تبليغ الرسالة ، مع أن الرسول لابد أن يُبلغ رسالة ربه دائماً ، بل ينتهز الفرصة دائماً للتبليغ(٤) .

أما المؤرخون المُحدّثون فقد تعدّدت آراؤهم أيضاً في شأن الشيخ الكبير ، فيرى أحدهم(٥) أنه كاهن مدين ويُدعى " جنترو " أو " روعيل " على وجه التأكيد .

ويرى البعض(٦) أنه من الممكن أن يكون الكاهن يثرو أو يثرون قسّيساً من أفراد القبائل العربية الجنوبية القديمة ، وأنه أقام بين أهل مدين الذين كانوا يخضعون سياسياً

---

(١) سورة هود ، الآية (٨٩) .

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص ٣٨٤ ، ص ٣٨٥ .

(٣) سورة هود ، الآية (٩١) .

(٤) محمد فتح الله بدران : المرجع السابق ، ص ٥٨٠ . وانظر ص ٥٧٦ - ص ٥٨٠ وكذا السيد رزق الطويل : المرجع السابق ص ٢٥ - ص ٢٧ .

(٥) سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ١٣١ .

(٦) ألويس موسل : المرجع السابق ، ص ٨٣ وكذا ديتلف نيلسن وآخرون : التاريخ العربي القديم - الديانة العربية القديمة ، ترجمه واستكمله فؤاد حسنين علي ، مراجعة زكي محمد حسن ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ م ، ص ٢٣٩ .

لحكام المحطات التجارية الرئيسة التي تقع على طول الطريق التجاري المارّ بأرض مدين ، حيث كان أولئك الحكام وحامياتهم عرباً من عرب الجنوب .

ويذهب أحد المؤرخين(١) إلى القول : كان الكاهن "يثرو" العربي الجنوبي في مدين ، وكان سادناً لبيتٍ من بيوت العبادة التي أقامتها الدولة العربية الجنوبية التي عرفت باسم الدولة المعينية (حوالي ١٣٠٠ ق . م – ٧٠٠ ق . م) على طول الطريق البرّي التجاري الذي يصل بين جنوب الجزيرة العربية بشمالها ، لحماية القوافل التجارية أولاً ، وتمكين التّجار من تأدية فرائضهم الدينية ثانياً .

ولا يتفق الباحث مع هذا الرأي ، من كون ذلك الرجل الذي استقبل موسى عليه الصلاة والسلام سادناً لبيتٍ من بيوت العبادة التابعة للدولة المشار إليها ، فذلك الرجل الكبير الصالح ، لا يمكن أن يكون سادناً لبيتٍ يُعبَدُ فيه غير الله تعالى ، إذ ظاهر الآيات القرآنية آنفة الذكر تدل على انه كان موحداً لله رب العالمين ، والدولة المعينية أقامت تلك الأماكن لعبادة غير الله تعالى .

ومن المؤرخين(٢) من يذهب إلى أن كلمة "يثرو" ليست اسم علم لشعيب عليه الصلاة والسلام ؛ وإنما هي كناية عن وظيفته وهي الكهانة ، حيث كان كاهناً في قومه ، إذ أن كلمة يثرو في بعض اللغات العربية الجنوبية القديمة لها معنى الكاهن .

وهكذا اختلف المفسّرون والمؤرخون المسلمون وتباينت وجهات نظرهم حول شخصية الشيخ الكبير ، مما دفع بأحد المؤرخين(٣) إلى القول : والغريب أن واحداً من المفسرين أو المؤرخين لم يقدّم دليلاً على صحة رأيه ، أو أن مَن خالفه كان على صواب ، فتارةً هو شعيب ، وتارة أخرى يثرون ، أو يثرو ، أو يثروب ، أو يزون ، أو بنزون ، إضافة إلى أن قصة موسى عليه الصلاة والسلام وصلته بكاهن مدين كما جاءت في التوراة(٤) لعبت أخطر الأدوار في تلوين قصة النبي العربي باللون الإسرائيلي ، ومردُّ ذلك ،

(١) فؤاد حسنين علي : فلسطين العربية ، ص ٦٩ .

(٢) جواد علي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٥٣ .

(٣) محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم (١) في بلاد العرب ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٢٩٦ – ٢٩٧ .

(٤) سفر الخروج ٢ : ١٥ – ٢٥ .

هو اعتماد الإخباريين والمؤرخين على رواياتٍ ممن أسلموا من اليهود ، فنقلوا عنهم كل ما جاءت به قرائحهم من غثٍ وسمين .

ونتيجة لكثرة الروايات واختلافها في شأن الشيخ الكبير توقّف أحد العلماء[1] في الجزم بتحديد هذه الشخصية المؤمنة بقوله : ((آثرتُ تفويض العلم باسم الشيخ الكبير إلى ا لله تعالى ؛ إذ من المحتمل أن يكون هو شعيب عليه الصلاة والسلام ، ومن المحتمل أيضاً أن يكون ابن أخيه ، أو أن يكون رجلاً صالحاً من أهل مدين ، كل ذلك مُحتمل ، وا لله أعلم)) .

وقد رجّح كثير من المؤرخين والباحثين المعاصرين[2] أن يثرو كاهن مدين الوارد في التوراة هو اسم لنبي ا لله شعيب عليه الصلاة والسلام الوارد ذكره في القرآن الكريم .

والرأي الذي أرجّحه هو أن الشيخ الكبير ليس هو شعيب النبي صلى ا لله عليه وسلم الذي أُرسل إلى أهل مدين ، وإنما هو رجل صالح كان في أهل مدين . لذلك كان رأي ابن تيمية ، آنف الذكر ، ومن وافقه من العلماء ، هو الرأي الأقرب للصواب ، وا لله أعلم .

وعلى أي حال ، فقد مكث موسى عليه الصلاة والسلام في مدين بعد أن تزوج بابنة الشيخ الكبير يرعى الغنم ، حتى أتمَّ الأجل الذي كان بينهما ، فقضى موسى عليه الصلاة والسلام عشر سنوات كاملة وهو في خدمة ذلك الرجل الصالح .

---

(١) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ، الطبعة الثالثة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٢) انظر : محمد عزة دروزه : تاريخ الجنس العربي ، ج ٤ ، الطبعة الأولى ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، صيدا ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م ؛ ص ١٥٥ وكذا

حسن ظاظا وآخرون : المرجع السابق ، ص ٣٤ وكذا

عباس محمود العقاد : المرجع السابق ، ص ٨٨ ، ص ٩١ وكذا

محمد بيومي مهران : " دراسة حول العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة " ، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، العدد السادس ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م ؛ ص ٣٦١ وكذا

محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم (١) في بلاد العرب ، ص ٣٠٤ وكذا

محمد علي الصابوني : المرجع السابق ، ص ١٧٤ - ص ١٧٥ وكذا

رشيد سالم الناضوري : " حول أرض مدين من حيث تحديد موقعها ودورها التاريخي المبكر " ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية - الكتاب الثاني - الجزيرة العربية قبل الإسلام ، الطبعة الأولى ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ٧٢ - ص ٧٣ .

والدليل على أن موسى عليه الصلاة والسلام قضى عشر سنوات في مدين ، ما رواه البخاري[١] بسنده عن سعيد بن جبير[٢] قال : ((سألني يهودي من أهل الحيرة أيُّ الأجلين قضى موسى؟ قلت : لا أدري ، حتى أَقْدِمَ على حَبْر العرب فأسألَهُ ، فقدمتُ فسألتُ ابن عباس ، فقال : قضى أكثرهما وأطْيَبَهما ، إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل)) .

وروى الطبري[٣] أيضاً بسنده عن سعيد بن جبير ، قال : ((سألني رجلٌ من أهل النصرانية : أيُّ الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا أعلم – وأنا يومئذ لا أعلم – فلقيتُ ابن عباس ، فذكرتُ له الذي سألني عنه النصراني ، فقال : أما كنت تعلم أن ثمانياً واجبة عليه ، لم يكن نبي لِيُنقِص منها شيئاً ، وتعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدّته التي وعده ، فإنه قضى عشر سنين)) .

ويتبيّن من خلال الروايتين السابقتين ، أن السائل في الرواية الأولى كان يهودياً ، وفي الرواية الثانية كان نصرانياً . وأرى أن ذلك يمكن تفسيره على احتمال أن اليهودي سأل سعيد بن جبير عن ذلك في مرة ، وسأله النصراني عن الأمر نفسه في مرة أخرى ، في أماكن مختلفة من العراق ، فأجاب كل واحدٍ منهما بأنه لا يعلم في ذلك شيئاً ، وطلب منهما حين سألاه إمهاله حتى يرجع من الحج ، حيث يسأل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن ذلك في مكة ، وهو ما حدث بالفعل .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الشهادات ، باب من أُمِرَ بإنجاز الوعد ، ج ٢ ، ص ٩٥٣ حديث رقم ٢٥٣٨ وكذا ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١١٤ ، حديث رقم ٢٦٨٤ .

(٢) سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبي أبو محمد أو أبو عبد الله الكوفي ، ثقة ثبتٌ فقيه ، من الطبقة الثالثة . كان ابن عباس إذا حجَّ أهلُ الكوفة وسألوه يقول : أليس فيكم سعيد بن جبير ؟ وكان يُقال له : جهبذ العلماء . قُتل بين يدي الحجّاج في شعبان سنة خمسٍ وتسعين للهجرة ، وله تسع وأربعون سنة رحمة الله عليه . قال عنه ميمون بن مهران : مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض رجلٌ إلا وهو يحتاج إلى علمه . انظر :
عبد الله بن مسلم بن قتيبة : المعارف ، حقّقه وقدم له ثروت عكاشة ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ م ، ص ٤٤٥ – ص ٤٤٦ وكذا
الذهبي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٦ – ص ٧٧ وكذا
ابن حجر العسقلاني : تقريب التهذيب ، قدّم له دراسة وافية بأصل مؤلّفه محمد عوّامة ، الطبعة الأولى ، دار الرشيد ، سوريا ، حلب ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، ص ٢٣٤ وكذا
السيوطي : المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(٣) تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٣٩٩ .

وفي رواية البخاري التي جاء فيها ((قضى أكثرهما وأطيبهما)) دلالة على أن معاملة رسُل وأنبياء الله للناس تكون على أحسن وأرفع ما تكون المعاملة من الوفاء بالوعود ، وأداء الحقوق ، بل والزيادة عليها من قبيل الإحسان ، وهو ما قام به موسى عليه الصلاة والسلام برغبته وإرادته دون إلزام ، لما كان من طيب خُلقه وكرمه .

ومما تجدر الإشارة إليه أن روايات التوراة والإنجيل تجعل إقامة موسى عليه الصلاة والسلام في مدين أربعين سنة ، فقد ورد في التوراة[1] :

((وكان موسى ابن ثمانين سنة وهارون ابن ثلاثٍ وثمانين سنة حين كلما فرعون)) .

وورد في الإنجيل[2] :

((ولما كَمِلَت أربعون سنة ظهر له ملاك الرب)) .

وذهب لهذا الرأي بعض مفسري التوراة[3] .

إلا أن روايات التوراة والإنجيل ومن وافقها من المؤرخين في شأن هذا الموضوع ، روايات غير صحيحة ، وغير مقبولة على وجه اليقين ، لتعارضها مع ظاهر الآيات القرآنية السابقة التي تدل على عشر سنوات ، بالإضافة إلى تعارضها مع ما ورد في صحيح البخاري الذي يعتبر أصح كتاب بعد كتاب الله الكريم .

وبعد انقضاء تلك السنين العشر في أهل مدين عزم موسى عليه الصلاة والسلام على العودة إلى مصر ، كما قال تعالى :

﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبرٍ أو جذوةٍ من النار لعلكم تصطلون ﴾[4] .

وورد في التوراة[5] :

((وحدث في تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات)) .

---

(١) سفر الخروج ٧ : ٧ .

(٢) سفر أعمال الرسل ٧ : ٣٠ .

(٣) بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٩٣١ .

(٤) سورة القصص ، الآية (٢٩) .

(٥) سفر الخروج ٢ : ٢٣ .

وفي أثناء هذه العودة كلف ا لله عز وجل موسى عليه الصلاة والسلام بالرسالة ، وأمره بالذهاب إلى فرعون وتبليغه دعوة ا لله عز وجل ، بالإضافة إلى كونه رسولاً إلى بني إسرائيل ، ومعه أخاه هارون عليه السلام وزيراً له . وهو ما سيناقشه الباحث إن شاء ا لله في الفصل الثاني .

الفصل الثاني

أولاً : المجتمع المصري القديم المعاصر من الجوانب السياسية والفكرية والاجتماعية .

قبل الحديث عن رسالة موسى عليه الصلاة والسلام بعد تكليفه بها ، وقيامه بواجب التبليغ الكامل للرسالة الربانية ، يجد الباحث أن من الضرورة بمكان توضيح أحوال المجتمع المصري القديم المعاصر لموسى عليه الصلاة والسلام ، من النواحي السياسية ، والفكرية ، والاجتماعية ؛ لكي يكون فَهْمُ حقيقة الصراع الذي دار بين موسى عليه الصلاة والسلام ، وفرعون وملأه وقومه ، ممكناً في ضوء ما استقر عليه ذلك المجتمع من أفكار ومعتقدات ، وما كان يسوده من أحوال ، أثّرت بشكلٍ ما عليه ، كان من أهم نتائجها موقف فرعون وملأه من الرسالة السماوية ، حيث الكفر والصدّ عن دعوة الله رب العالمين ، والتمسك بعقيدة الآباء الأولين ، إلا فئة قليلة آمنت بموسى عليه الصلاة والسلام وبرسالته ، ولاقت في سبيل الله العذاب ، والتهديد بالقتل والصلب في جذوع النخل .

الأحوال السياسية :

بالنظر إلى الأحوال السابقة لرسالة موسى عليه الصلاة والسلام والتي سادت في مصر ، وتحديداً بعد طرد الهكسوس من مصر سنة ١٥٧٥ ق.م ، كان الفراعنة قد بدأوا في عصر الدولة الحديثة (١٥٧٥ – ١٠٨٧ ق.م) يفرضون سيطرتهم على البلاد ، واعتبروا كل ما حرروه بقوة السلاح مُلكاً خاصاً بهم ، فيما عدا أملاك الكهنة ، الذين كانوا يتبوأون مكانة عالية في الدولة . أما الجيش فقد زادت أهميته ، وصار يُعدّ القوة الرئيسة للدولة[١] .

وقد كان فرعون في نظر المصريين القدماء الإله المحرك لما يدور في الدولة كلها ؛ فهو رأس المجتمع وسيده الذي لا تُمسّ ذاته ، فكل أملاك البلاد في مصر هي من حقه وحده ، وحتى الرّعيّة ما هي إلا مُلْك له يتصرف في حياتها ، وأرواحها كما يشاء ، ويتصرف في شؤونهم ، ويرعى حقوقهم ويدافع عنها[٢] .

لذلك كان كل ما في البلاد يتعلق بالفرعون ، سواء شمل ذلك الأشخاص أم الأملاك ، والطاعة للفرعون عمياء تظهر في عظمة المراسم المحيطة به ، فهو يقيم العدل ، ويدأب على التنظيم ، ويسهر على الاقتصاد ، ويؤمّن الدفاع عن البلاد ؛ لا لأنه مسئول أمام شعبه بل ليكسب رضى آلهة آبائه[٣] . فكان بذلك ((هو الملك الوحيد للأرض والمناجم ، وهو المشرّع الوحيد ، والقاضي الوحيد ، والقائد العسكري الوحيد ، ويُنيب عن نفسه الموظفين الذين يختارهم بنفسه ، ويُجري عليهم الرواتب والمكافآت بحسب ما يرى))[٤] .

ومن هنا قيل عن الملك أو الفرعون في العقيدة الرسمية للدولة المصرية القديمة أنه كان من طبيعة أخرى ، إذ كان إلهاً يحكم بشراً ، ولا ينازعه في سلطته أناس آخرون ، بصفته

(١) محمد أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١ م ، ص ٦٢ ، ص ٦٣ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٧ ، ص ٢٨ وكذا

أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ، ترجمه وراجعه عبد المنعم أبو بكر ، ومحرم كمال ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٣ م ، ص ٤٠ .

(٣) نبيب عبد الساتر : الحضارات ، الطبعة الرابعة عشرة ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٩٧ م ، ص ١٠ .

(٤) جان يويوت : مصر الفرعونية ، ترجمة سعد زهران ، مراجعة عبد المنعم أبو بكر ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٦ م ، ص ٤٣ .

الملك الإله . لذلك ترسّخت في مصر القديمة نظرية وراثة العرش التي تقضي بأن من يتولى الحكم يجب أن يكون من أصول ملكية .

ولكي يتم فهم هذه النظرية يجدر بالباحث إلقاء بعض الضوء على جوانب هامة فيها.

إن العوامل الطبيعية التي كان يشاهدها المصري القديم لم تكن وحدها هي الدافع لتأليه الملك أو الفرعون ، بل كانت هناك عوامل أخرى سياسية تعود إلى ما تميز به النظام الحكومي المصري منذ بداية التاريخ الفرعوني ، والتي ظهرت حتى في ألقاب الملك نفسه ، مثل لقب " نسو – بيت " الذي يعني ملك الوجهين القبلي والبحري ، ولقب " نبتي " أو الرّبتين أو السيدتين[١] .

والقاعدة الثابتة في هذه النظرية أن يعتلي عرش مصر من تسري في عروق والديه الدماء الملكية النقية ، أما إذا كان ابناً لزوجة مصرية غير ملكية ، فكان عليه أن يلجأ إلى الزواج من أميرة من الفرع الملكي الخالص ، ليقوّي بذلك شرعية مركزه ، ويصبح أهلاً لتولي العرش ، ومع ذلك فإن زوج الأميرة الملكية إنما يُعتبر مجرد أمير ، وأما أبناؤهما ثمرة هذا الزواج ، فقد كانوا يُعتبرون ورثة شرعيين للعرش ، وفي بعض الحالات قد يصبح زوج الملكة الوارثة ملكاً ، حين تكون هذه الملكة كبرى نساء البيت المالك سِنّاً ، كأن تكون أرملة الملك المتوفي ، أو كبرى بناته ، أو أبعد من ذلك قرابة ، مما جعل نظرية تولي العرش في مصر القديمة تنص على أن تكون أم الملك من نسل ملكي ؛ فهي إما أن تكون ابنة أو زوجة ، أو أم للملك المؤلّه ، أو قد تكون الثلاثة معاً ؛ أي ابنة ملك ، واخت ملك ، وزوج ملك ، وذلك لأن الملكات إنما كن يمثلن الدم الملكي ، ويحافظن على التقاليد الملكية بارتباطهن بالأسرة الجديدة ، سواء كان أول ملوكها زوجاً للملكة أو أحد أبنائها[٢] .

وقد عدَّ المصريون الزوجة الملكية الرئيسة هي زوجة الملك (الإله) ، وإن كانت من نسل ملكي سابق ، لكن قد جيء بها من صُلب جسدي مقدس (إلهي) ، فهي أنقى الزوجات دماً في حالة زواج الملك أو الفرعون بأكثر من زوجة[٣] .

---

(١) عبد المنعم عبد الحليم سيد : حضارة مصر الفرعونية ، ج١ ، دار المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٨م ، ص ٣٥ .

(٢) محمد بيومي مهران : مصر والشرق الأدنى القديم (٣) مصر ، الجزء الثالث ، من قيام الدولة الحديثة حتى الأسرة الحادية والثلاثين ، الطبعة الرابعة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ١٧ ، ص ١٨ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٩ .

وإذا ما شعر بعض الفراعنة بشبهةٍ ما يمكن أن تمس شرعية ولايته للعرش ، فإنهم سرعان ما يربطون أحقيتهم بالعرش بالدين وكرامات معبودهم آمون رع ، وتأكيد تدخّل آمون رع رب الدولة بنفسه في اختياره ، أو يسارع بتأكيد بنوّته المباشرة نتيجة لتقمصه روح أبيه حين أنجبه . وعبّرت عن هذه الإدعاءات أربع روايات للفراعنة : حتشبسوت (١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق.م) ، وتحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) ، وتحتمس الرابع (١٤١٣ - ١٤٠٥ ق.م) ، وامنحتب الثالث (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) . وكانت حتشبسوت ابنة للفرعون تحتمس الأول (١٥٢٨ - ١٥١٠ ق.م) من زوجة رئيسة ، وكان من المفترض أن تخلفه على العرش ، لولا أن سوابق حكم الملكات في مصر القديمة لم تشجعه و لم تشجعها على إعلان تتويجها دفعة واحدة ، فزوّجها من أخٍ لها غير شقيق ، وُلد له من زوجة أقل مرتبة من أمها وولي العرش بعده باسم تحتمس الثاني (١٥١٠ - ١٤٩٠ ق.م) ، ونجحت حتشبسوت في أن تؤكد شخصيتها وتمهّد لخلافتها في عهد زوجها تحتمس الثاني ، ثم حالفها الحظ بوفاته بعد أن أنجب منها بنتين ، وأنجب ولداً من زوجة أخرى ، فآثرت حتشبسوت الحذر مرة أخرى ، فلم تُعلن نفسها ملكة على التوّ ، وإنما قدّمت ابن زوجها الذي ولي العرش باسم تحتمس الثالث وزوّجته بنتها حاتشبسة وجعلت نفسها شبه وصية عليه نحو ثمان أو تسع سنوات ، استغلتها في تجميع الأنصار حولها[١] .

وعندما اطمأنت إلى قوة مركزها ، وكثرة أتباعها ، قامت بتنحية تحتمس الثالث ، وأرغمته على عدم الظهور ، وبرّرت فعلتها فأوحت إلى أتباعها بقصة نشروها بين الناس ، ثم سجّلوها تصويراً في لوحات فنية كبيرة على جدران معبدها في الدير البحري[٢] ،

---

(١) عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول ، مصر والعراق ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٧ م ، ص ٢٠٦ - ص ٢٠٧ .

(٢) الدير البحري : أحد الأديرة التي أقامها النصارى غربي طيبة ، بُني في القرن السابع الميلادي ، مكان المعبد الجنائزي للملكة حتشبسوت (١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق.م) .

وقد سُجلت على جدران هذا المعبد قصة توليتها للعرش ، ومراحل بعثة هذه الملكة إلى بلاد بونت في عام حكمها التاسع . انظر :

محمد كمال صدقي : معجم المصطلحات الأثرية ، الطبعة الأولى ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ١١٧ .

وأكدوا فيها أن الإله آمون رع أنجبها بنفسه أو من روحه ، وأن أباها البشري تحتمس الأول ارتضى هذه البنوّة ، وأعلنها شريكة له في الحكم خلال حياته ، وأوصى لها بالمُلْك بعد وفاته . وبدأت القصة بتصوير مشاعر آمون إزاء أمها أحمس ، فأظهرته يدبر أمره لإيجاد وريث شرعي من سلالته يحكم مصر ، ويعوضها عما سلف من أمرها ، ثم صوّرته ينصرف بتفكيره ورغبته إلى الملكة أحمس بعد أن تشاور في شأنها مع صفيّه ورسوله الإله تحوتي ، وسمع منه الثناء المستفيض عليها ، وحينئذٍ أعلن لبقية الأرباب أنه سيهبها مولوداً من صُلبه يعتلي العرش ، وأنه قضى بجعل مولوده المرتقب أنثى . وتحققت المعجزة – في تصورهم – وحملت الملكة ، وأوحى آمون رع فيما ادعت القصة إلى المعبود خنوم المتكفل بخلق البشر – في عقيدة القوم – بأن يصور بدن الجنين من صلصال ففعل . واختار آمون رع اسم المولودة من سياق حديث دار بينه وبين أمها ، فسماها " حتشبسوت خنمة آمون " بمعنى " ذروة النبيلات صفية آمون " وقدم مولودته إلى الأرباب باعتبارها وريثته على الأرض . ثم تلقى أبوها البشري تحتمس الأول إرادة آمون عن رضا ، وأعلنها على الناس . ولما أصبحت الإبنة شابة جميلة نضرة تُضارع الربة " إحو " في زمانها ، طاف بها على المعابد الكبرى وأعلنها خليفته على العرش[١] .

وجرى تحتمس الثالث (١٤٩٠ – ١٤٣٦ ق.م) على سبيل مشابه ليُفسِد على خصيمته حتشبسوت دعواها، فروت نصوصه قصة يبدو أن أباه كان قد دبرها مع الكهنة، ليقيه ضرر طموح حتشبسوت . وذكر أنه حدث خلال عيد ديني كبير في الكرنك[٢] أن

---

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

(٢) الكرنك : قرية تقع على الضفة الشرقية للنيل على بعد ٣ أكيال شمال مدينة الأقصر الحالية ، وهي تحتوي على أطلال المعابد الكبرى ، وأهمها معبد الكرنك ، الذي يُعد من أكبر دور العبادة القديمة في العالم . وكلمة الكرنك فارسية أطلقها العرب على قصر آمون ، وأصلها " خورنق " . كان لدى المصريين القدماء أقدس دار ، ويسمى " ابت – سوت " بمعنى المعبد لعبادة آمون ، فيه عرش رب الأرباب آمون ، ورمز وحدة البلاد الدينية والسياسية ، وإليه كان يهرع المصريون القدماء في سرائهم وضرائهم ، وفيه كان فرعون يستوحي ربه . ويختلف الكرنك عن معابد مصر كلها ، فهو ليس بمعبد واحد ، وإنما هو عدة معابد ، وُضعت في أوائل الدولة الوسطى ، وتعاقب الملوك منذ مطلع الدولة الحديثة يزيدون عليها ، ويغيّرون فيها ، ثم يتركونها للأجيال عجيبة رائعة ، بل معرضاً لمختلف طرز البناء ، وفنون النحت ، وبدائع النقش والتصوير . انظر :

محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ٢١٥ – ص ٢١٦ وكذا

أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ١٣ ، ص ٣٠٩ .

انتحى تحتمس الصغير جانباً من البهو الشمالي للمعبد ليشهد منه موكب ربه آمون ، وكان حينذاك قد انتظم في التربية الدينية بالمعبد ، ولكنه لم يكن قد بلغ منصب " خادم الرب " . وعندما مر الموكب والفرعون في مقدمته تعمد (تمثال) الإله أن يتجه بموكبه إلى البهو الشمالي ، ويطوف به ، وقد تبعه الكهنة ورجال الدولة دون أن يعلموا حقيقة هدفه ، حتى بلغ موضع تحتمس الصغير وتوقف عنده ، فخرَّ الأمير ساجداً ، واعتبرها الكهنة حينذاك آية ، وفسروها برغبة الإله في اختيار الطفل لعرش آبائه . وبوحي الإله أنهضوا الأمير وقدموه في الموضع المخصص للحاكم ، وبعدها انكشفت له آفاق ربه ، وطار إلى سمائه ، وتلقى منه ألقابه ، أو هكذا روت القصة[١] .

أما تحتمس الرابع (١٤١٣ – ١٤٠٥ ق.م) ، ففي سبيل تأييد حقه في العرش ، أشاع قصة عُرفت اصطلاحاً باسم قصة الرؤيا ، فيها إيحاء للناس بتفضيل الإله له ليتولى عرشه ، ومؤداها أنه حدث في إحدى رحلات صيده للغزلان بصحراء الجيزة أن آوى إلى الظل بجوار تمثال أبو الهول[٢] ، وأخذته سِنَةٌ من النوم رأى فيها الإله يتحدث إليه قائلاً : ((ولدي تحتمس تأملني فأنا أبوك ، إنني واهبك مُلكي على الأرض لتصبح سيداً على الأحياء ... ، وستكون لك الأرض بطولها والعرض ، وكل ما تضيئه عين رب الكل ... ، وها أنذا موليك وجهي فكن حفيظاً على شئوني ...))[٣] .

---

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٠٧ وكذا

Wilson , J . A . , " Oracles and Prophecies - Egyptian Oracles and Prophecies - The Divine Nomination of Thut - Mose III " , ANET , PP . 446 - 447 .

(٢) أبو الهول : تمثال ضخم من أشهر آثار العالم . أصله صخرة من الحجر الجيري الأيوسيني اعترضت الطريق الصاعد الموصل بين معبدي الوادي والجنازي لهرم خفرع من الأسرة الرابعة (٢٦٨٠ – ٢٥٦٠ ق.م) بالجيزة ، فنُحتت برأس آدمي يغلب أن تكون للملك خفرع ، وبجسم أسد رابض . وعُبد في الدولة الحديثة منذ أيام الأسرة الثامنة عشرة كرمز للشمس ، وأسموه حورس في الأفق ، وأطلق عليه الاغريق اسم سفنكس على غرار ما ورد في أساطيرهم . وكلمة أبو الهول العربي مشتقة من اللغة المصرية القديمة " بوحور " أي مكان حور ، وهو الإله " حور – ام – آخت " ، ومعناها حور في الأفق ، أو حورس في الأفق . وتماثيل أبو الهول الاغريقية تختلف عن تماثيل أبو الهول المصرية في أنها مجنحة . انظر :

محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ٣٥٩ .

(٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٠٧ – ص ٢٠٨ وكذا

Wilson , J . A . , " Oracles and Prophecies - Egyptian Oracles and Prophecies - ADivine Oracle Through Adream " , ANET , P . 449 .

أما تولية امنحتب الثالث (١٤٠٥ – ١٣٦٧ ق.م) على العرش فقد أحاطت بها ظروف غامضة لا يُعرف حقيقة تفاصيلها ، جعلته يدعي الميلاد الإلهي . ومن تلك الظروف احتمال بنوّته لأمٍ ميتانية الأصل تزوجها أبوه تحتمس الرابع ليؤكد صِلاته بدولة الميتان ، وعندما خشي امنحتب الثالث أن يعيبه كون أمه أجنبية إدّعى هو وأنصاره أن آمون أنجبه منها بنفسه أو من روحه ، بعد أن اصطفاها وارتضاها لذاته . وصوّروا ذلك الإدعاء في لوحات فنية كبيرة بمعبد الأقصر[١] ، وبمراحل تشبه مراحل ميلاد حتشبسوت[٢].

ولا يُعرف مدى تصديق المصريين لهذه الإدعاءات التي ادعاها أولئك الفراعنة ، ولكن حسبها ما تدل عليه من اعتقاد الفراعنة بأن الأمر الواقع في ارتقاء العرش والهيمنة على السلطة لا يكفي ، وأنه لابد من تأييده بسندٍ من الدين يُرضي الكهان والخاصة والعوام[٣] .

لذلك كانت نظرية الحق الإلهي في السلطة ، أو نظرية وراثة العرش في مصر القديمة ، في مقدمة الأفكار والنظريات التي بحثت في أصل السلطة ، وفي الأمر السياسي بشكل عام ، وهي التي أرجعت أصل السلطة والدولة إلى إرادة الآلهة ، واستمرت هذه النظرية بأشكال مختلفة باختلاف التطورات التاريخية والدينية ، وظلت تُرجع وجود السلطة إلى إرادة الآلهة ، وأضفت على أصحاب السلطة صفة القداسة ، باعتبارهم حلقة الاتصال بين الآلهة والبشر ، وممثلي الآلهة على الأرض ، وأنه كان على الأفراد الخضوع لسلطة الفرعون تنفيذاً لإرادة

---

(١) معبد الأقصر : أقامه الفرعون امنحتب الثالث (١٤٠٥ – ١٣٦٧ ق.م) للإله آمون ، ويقع جنوب معابد الكرنك بمدينة الأقصر بجنوب مصر ، بين إحدى قاعاته نقش امنحتب عليها قصة مولده المقدس بالرسم والحكاية ، فكانت القصة هي الغرض من بناء المعبد . ثم زاد عليه الفرعون رعمسيس الثاني (١٢٩٠ – ١٢٢٤ ق.م) فمد بناءه نحو الشمال ، منحرفاً بمحوره ، ليجعل مدخله على مطلع طريق الكباش الذي يصل بين الكرنك والأقصر ، وأقام على بابه ستة من تماثيله الضخمة ، ومسلتين عظيمتين ، مازالت إحداهما في مكانها . ثم نقش رعمسيس الثاني على جدرانه من جانبي المدخل أحداث معركة قادش ، كما زُينت حوائطه من الداخل بصور الاحتفال بأعراس آمون . انظر :

محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ٢٣٢ .

(٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٠٨ وكذا

محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٢٠ وكذا

Wilson , J. A. , "Egyptian Hymns and Prayers - From Amen - hotep III's Building Inscription", ANET , PP . 375 - 376 .

(٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

الآلهة وأوامرها ؛ لأن سلطته – حسب اعتقادهم – مقدسة ، والخضوع لها واجب ديني ، ومن عصى السلطة فقد عصى الآلهة ، التي إن غضبت ، تَحلُّ بالإنسان وبالمجتمع الكوارث العِظام[(١)] .

ومنذ أوائل عصر الدولة الحديثة (١٥٧٥ – ١٠٨٧ ق.م) اتجه المصريون اتجاهاً عسكرياً ، مما كان له أكبر الأثر في تشكيل الحكومة في عصر الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ – ١٣٠٨ ق.م) بالشكل العسكري . ففيما يتعلق بسلطة الفرعون استردت الملكية سلطتها المركزية الواسعة ، وتم القضاء على سلطة حكام الأقاليم ، حيث تُعدّ الطريقة التي قام بها أحمس الأول (١٥٧٥ – ١٥٥٠ ق.م) في وضع أساس الامبراطورية المصرية ، ذات أهمية بالغة في التكوين السياسي في الأسرة الثامنة عشرة ؛ فقد أيّده بعض حكام الأقاليم أثناء حروبه مع الهكسوس ، بينما لم يتعاون البعض الآخر معه ، مما اضطره إلى القضاء على نظام الاقطاع . وبذلك انهارات اللامركزية التي كانت سائدة في أواخر عصر الدولة القديمة (٢٧٨٠ – ٢٢٣٠ ق.م) ، وعصر الانتقال الأول (من أواخر القرن ٢٣ ق.م إلى أواسط القرن ٢١ ق.م) ، وعصر الدولة الوسطى (٢١٣٣-١٧٨٦ ق.م) ، وعصر الانتقال الثاني (١٧٨٦ – ١٥٦٧ ق.م) ، وسيطرت على البلاد حكومة مركزية قوية ، وأصبح الفرعون هو الرئيس الفعلي للدولة . ولما كان للعسكرية المركز الأول في البلاد ، كان لزاماً على الفرعون أن يتولى منصب القائد الأعلى للجيش ، وأن يرأس المجالس الحربية[(٢)] .

ومما هو جدير بالذكر ، أنه منذ عصر الأسرة الثامنة عشرة ، فيما يتعلق بالسياسة الداخلية ، استعادت الملكية هيبتها التقليدية ، بشخصيات فراعنتها وجهودهم في سبيل توطيد استقلال دولتهم ، وتنمية ثرائها ، وتوسيع حدودها ، وإعلاء شهرتها ، وإن كان

---

(١) عمر محمد صبحي عبد الحي : الفكر السياسي وأساطير الشرق الأدنى القديم بلاد ما بين النهرين ومصر القديمة ، الطبعة الأولى ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م ، ص ٢٦٦ .

(٢) أحمد ارحيّم هبّو : تاريخ الشرق القديم (٣) مصر ، الطبعة الأولى ، دار الحكمة اليمانية ، ودار الحرف العربي، صنعاء ، بيروت ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م ، ص ١٩٦ ، ص ١٩٧ وكذا نبيلة محمد عبد الحليم : مصر القديمة تاريخها وحضارتها ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٨ ، ص ٣٢٧ .

أغلب هذه الجهود ، من حيث الواقع العملي ، من كسب أعوان الملوك والشعب ، أكثر مما هي من كسب الملوك أنفسهم، على الرغم من كفاية أغلبهم وتأثيرهم في سياسة عهودهم . واستمسكت هذه الملكية بما استمسكت به الملكيات القديمة المستقرة ، من حيث الإصرار شكلاً على الأقل ، على المركزية الواسعة ، وادعاء حق الحكم الإلهي ، والقول بالوراثة المقدسة ، والبنوة للآلهة الكبار(١) .

وعلى أي حال ، فقد كان الإله آمون في الأصل إلهاً محلياً لمدينة طيبة(٢) ، وقد أقيم معبده ، أو أعيد بناؤه منذ عهد الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ - ١٨٧٦ ق.م) ، ومعنى اسمه آمون أي " الخفي " . وقد وهب فراعنة الأسرة الثامنة عشرة ، والتاسعة عشرة ، والعشرين ، معابده الهبات والاعطيات على نطاق باذخ ، وقد دعاه كهنته باسم

---

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

(٢) طيبة : مدينة مصرية قديمة ، كانت عاصمة مصر العليا منذ الأسرة الحادية عشرة (٢١٣٣ - ١٩٩١ ق.م) ، وقد ورد ذكرها في النقوش المصرية القديمة باسم " واســت " مدينة آمون ، وهي تقع مكان الأقصر حالياً . وكانت طيبة تقع على الشاطيء الشرقي لنهر النيل على مسافة ٦٥٠ كيلاً جنوب القاهرة ، وحوالي ٥٠٠ كيلاً جنوب مدينة ممفيس القديمة . وكانت طيبة العاصمة الدينية بعد نشوء الامبراطورية في مصر عام ١٥٨٠ ق.م . اشتهرت طيبة عبر تاريخها ، وخاصة زمن الأسرة الحادية عشرة بعبادة المعبود آمون ، وبقيت كذلك إلى أن غزاها الآشوريون في القرن الثامن قبل الميلاد ودمروها . وفي عهد الملك أشور بانيبال (٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م) أيضاً تم تدمير المدينة . ومن الجدير بالذكر أن طيبة فقدت أهميتها لفترة محدودة بعدما نقل الفرعون أخناتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) عاصمته إلى آخت أتون (تل العمارنة) ، إلا أنها عادت إلى مجدها بعد وفاة أخناتون . ويوجد في هذه المدينة معابد الكرنك ، والأقصر ، والدير البحري ، والتماثيل الضخمة لرعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) ومقابر الحكام الفراعنة .

وفي البر الغربي من طيبة وقبالة الكرنك على الضفة الثانية من النهر توجد سلسلة طويلة من المعابد الجنائزية والتي أطلق عليها مدينة الخلود (مدينة الموتى) ، والتي هي عبارة عن مساحات شاسعة من الصحراء ، تحتضن مئات القبور التي شُيدت لعظام رجال المملكة ونسائهم ، ورجال بلاطهم ، ولبعض الكهنة .

وأبرز ما في هذه المساحات الصحراوية ما يُعرف باسم وادي الملوك والذي يضم أكثر من ١٢ قبراً لأبرز الحكام الفراعنة . انظر :

عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ١٦٣ ، ص ١٧١ وكذا

محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ٣٧٨ وكذا

حسن نعمة : من ذاكرة التاريخ مدن الشرق الأدنى القديم ، الطبعة الأولى ، شركة رشاد برس ، بيروت ، ١٩٩٤ م ، ص ١٢٣ - ص ١٢٦ وكذا

Gardiner , A . H . , Ancient Egyptian Onomastica, Vol II, Oxford University Press , Amen House , Oxford , 1947 , P . 24* .

" ملك الآلهة " ، وحاولوا أن يجعلوا مصر كلها تُسلّم بذلك ، لكنهم على الرغم من السلطة التي كانوا يتمتعون بها ، أدركوا أنهم غير قادرين على بلوغ هذا الغرض ، إلا أن يوحّدوه بأقدم آلهة البلاد ؛ فأعلنوا أنهم يُمثلون القدرة الخفية الغامضة التي خلقت العالم ، وقامت على حفظه ، وأن الشمس ما هي إلا رمز لهذه القدرة ؛ فأضافوا اسم آمون إلى رع ، فكان منهما آمون – رع ، وبهذه الصيغة أخذ يستولي تدريجياً على الصفات والسلطات التي كان يتمتع بها الآلهة العظام[١] .

وقد حرصت الأسرة الثامنة عشرة على الاحتفاظ بمدينة طيبة عاصمة أولى للدولة ، باعتبارها مسقط رأس ملوكها ، والأتون الذي انبعثت منه شرارة التحرير ، وباعتبارها مقر آمون رع الذي استعان أجداد الأسرة به لصبغ جهادهم ضد الهكسوس بصبغة مقدسة ، وظل خلفاؤهم يُحاربون تحت رايته ويردون انتصاراتهم إلى تأييده ونصره . وكان في كل هذا ما عوض طيبة في أقصى الصعيد عن ميزة الموقع المتوسط ، بعد أن اتسعت حدود الدولة اتساعاً كبيراً ناحية الشمال . وقد تجلى الاهتمام بها وبمعبودها في كثرة ما أقيم فيها على مر الزمن ، من عمائر ، ومعابد دنيوية وأخروية ، في شرقها وفي غربها[٢] .

ومما هو جدير بالذكر ، أن الإسراف في الإهتمام بآمون ومعابده ، والإسراف في رصد الأوقاف الضخمة عليها وعلى عبادته ، والتي كانت تبلغ أحياناً خراج مدن كاملة ، والإفساح لكبار كهنته في بلوغ كبرى مناصب الدولة ، كل هذا أصبح فيما بعد من عوامل حض أخناتون (١٣٦٧ – ١٣٥٠ ق.م) على ضرورة التغيير في سياق دعوته الدينية إلى توحيد العبادة لإله واحد ، حتى يتخلص ضمناً من كثرة المعابد التي أصبحت تمتص خيرات الدولة بغير طائل ، ويتخلص كذلك من تدخل كبار الكهنة ، الذين أصبحوا قُبيل عهده يبدون كأنهم أصحاب دولة داخل الدولة[٣] .

وعلى أي حال ، فإن الإله آمون إنما يصبح في الدولة الحديثة أباً فعلياً للفرعون ، يُنجبه بالإتصال – كزوج – بأمه الملكة ، ومن ثم ورد في نصوص الدولة الحديثة العبارة

---

(١) واليس بدج : الديانة الفرعونية ، ترجمة نهاد خياطة ، الطبعة الثانية ، دار علاء الدين ، دمشق ، ١٩٩٣ م ، ص ١١٠ – ص ١١١ .

(٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

(٣) المرجع نفسه ، نفس الصفحة .

التي يُخاطب بها الإله آمون الفرعون بقوله : ((ابني من جسدي)) ، وأن الفرعون قد صنع كذا وكذا " لأبيه آمون " ، بل إن الجملة الأخيرة لا يكاد يخلو منها نص في الدولة الحديثة(١) . ثم إن آمون لم يكن في الدولة الحديثة مجرد الإله الرسمي للدولة ، وإنما كان كذلك الإله المتسلط ، حاكم الآلهة ، وحاكم العاصمة طيبة ، وهو الذي يمنح العرش لابنه الفرعون الذي أنجبه ، ويمنحه النصر على كل البلاد الأجنبية ، ويخصص له العديد من سني الحكم ، مما يشير إلى أن الفرعون إنما يتلقى تفويضاً إلهياً من آمون ، الذي كان يبعث به قوة وحزم ليقضي على أعدائه ، وقد عبرت بعض الأدلة الأثرية عن ممارسة آمون لهذا الاختصاص بتقديمه سيف " خشبي " للفرعون ليذبح به أعدائه(٢) .

وقد ازدادت قوة كهنة آمون في عصر الدولة الحديثة ، وأصبحوا ذوي نفوذ سياسي كبير ، حتى أن الفرعون تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) نصب رئيس كهنة آمون رئيساً لكهان مصر جميعاً ، بحيث صار الرئيس الديني للدولة ، ومن ثم صار أيضاً كاهن آمون الأكبر يُشرف على كهنة جميع معبودات مصر العليا ومصر السفلى ، وأصبح جميع كهنة المعابد المصرية خاضعين له ، وصار له سلطة حتى على فرعون نفسه ، عن طريق الوحي المزعوم ، في أن يفرض رأيه في المسائل الدقيقة التي يطلب فرعون فيها رأي المعبود آمون ؛ فيقوم الكاهن تحت ستار روحي مصطنع بما يريده من تنفيذ ما يأمر به هو ، باعتباره الكاهن الأكبر في البلاد ، والمشرف على جميع الكهنة فيها(٣) .

وإن صح هذا الرأي الذي يذهب إلى ازدياد سلطة الكهنة ، وقوة نفوذهم بوجود فرعون ، فيمكن القول : أن سلطة فرعون لم تخضع لسلطة الكهنة إلا بعد كفاح ومقاومة ، وربما كانت حركة الإصلاح التي قام بها أخناتون ، وكذلك الإضطرابات التي حدثت في أواخر الأسرة التاسعة عشرة ، حيث كانت لا تستحضر قرابين إلى المعبد ، تُعزى في الجانب

---

(١) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ١٣١ - ص ١٣٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٣٣ - ص ١٣٦ .

ولمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع . انظر :

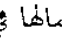
Aldred , C . , " Egypt : The Amarna Period and the End of the Eighteenth Dynasty " , CAH , Vol . II , Part 2 , 1975 , P . P . 53 , 62 , 67 , 79 , 87 , 89 ;

Faulkner , R . O . , " Egypt : From the Inception of the Nineteenth Dynasty to the Death of Ramesses III " , CAH , Vol . II , Part 2 , 1975 , P . P . 222 , 227 , 240 - 248 .

(٣) أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٣١٦ .

الأكبر منها إلى المجهودات التي قام بها الفراعنة ، ليسدوا الطريق أمام قوة كهنة آمون المتزايدة[١] .

ولكن هذه السيطرة القوية للكهنة في مصر ، يبدو أنها تفتقر لكثير من الحقيقة ؛ إذ لا توجد أدلة قوية تؤكد تلك المزاعم لهذه الادعاءات العريضة لنفوذ كهان آمون ، ومن الصعب أيضاً التصور بأن يكون لأي سلطة مصرية قدرة على تهديد مركز الفرعون إذا ما استقر على العرش ، واعترفت البلاد بسلطانه . هذا فضلاً عن أن المعابد التي أقيمت للآلهة كانت مثل غيرها من المصالح الحكومية ، وأن الفرعون نفسه – من الناحية النظرية – كان عليه أداء الواجبات الدينية في كل معابد البلاد ، وأن الكهنة كانوا يقومون أيضاً بأداء الطقوس الدينية ، بصفتهم ممثلين للفرعون ، مما يشير إلى أنهم كانوا وكلاء للفرعون كباقي القوى الهامة في الدولة مثل : ضباط الجيش ، وجامعي الضرائب ، الأمر الذي يدل أيضاً على أن الفرعون كان له نفس القوة في تعيين الكهنة ، وفصلهم من أماكنهم ، كباقي المصالح الملكية والحكومية التي يتولى الإشراف عليها[٢] .

لذلك كانت ردة الفعل المفاجئة التي قام بها امنحتب الرابع (١٣٦٧-١٣٥٠ق.م) قوية ضد عبادة آمون ، فقد غيّر هذا الفرعون اسمه إلى أخناتون ، وهجر عبادة آمون ، وعبد الإله " أتون الحي العظيم " أي قرص الشمس – أو بحسب لقبه الرسمي « المبتهج في جبلهِ المضيء بإسمه (شو) الذي هو اسم أتون » . فلم يكن إله الشمس هو الذي يُعبد ؛ وإنما كان كوكب الشمس نفسه ، الذي تمتد أشعته على شكل أيدٍ ، فتمنح الملك ابنها الحي على الأرض " ملايين الحياة التي فيها " . لذلك لم يتسمّ الإله الجديد باسم أي إله من آلهة الشمس الأقدمين ، ولم يُطلق عليه اسم " الشمس " ، البسيط وإنما دعي باسم " إتن  " أي قرص الشمس ، وهي كلمة لم يجر استعمالها في الدين القديم ، وصار يُطلق على امنحتب الرابع اسم أخناتُن (أخناتون) الذي يعني : " الذي يروق لقرص الشمس "[٣] .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٣٢٤ .

(٢) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ١٥٣ – ص ١٥٤ .

(٣) أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٢٨٠ وهامش (٦) وكذا
ألن جاردنر : مصر الفراعنة ، ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم ، مراجعة عبد المنعم أبو بكر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ص ٢٤٣ وكذا
واليس بدج : المرجع السابق ، ص ١١١ – ص ١١٢ وكذا
Gardiner , A . H . , Egypt of the Pharaohs , Oxford University Press , New York , 1972 , PP . 216 - 217 .

واستمرت عبادة قرص الشمس في عهد أخناتون ، حوالي خمسة عشر عاماً ، نظراً للسياسة المتشددة نوعاً ما التي اتبعها حول هذا الموضوع . فقام أخناتون ببناء عاصمة جديدة ، ذات قصور فخمة ، وميادين واسعة ، والتي يقوم فوقها الآن تل العمارنة ، وجمع حوله عدد كبير من المتحمسين لأفكاره الجديدة ، ولكن ذلك العمل الإصلاحي إنهار بعد موته بقليل[1] .

ولقد قام العلماء المتخصصون بفحص مومياء أخناتون ، ووجدوا أن هناك ما يدل على أن الفرعون الشاب أخناتون لم يكن قد تجاوز عمره عند وفاته سن الثامنة والعشرين .

وبهذا يكون عمره إحدى عشرة سنة عندما تولى الحكم ، وهو ما ينفي مسئوليته عن المشاريع الضخمة التي بدأت واستمرت خلال أيام حكمه ، حيث يجب أن يُعزى ذلك إلى الآخرين الذين آزروه .. وفي هذه الحالة يُفترض أن شؤون الحكم كانت توجهها أمه المسيطرة الملكة تيي ، وإن كان هذا مجرد تخمين أو حدس[2] .

وباقتراب نهاية الأسرة الثامنة عشرة ، ضعفت السيطرة المصرية على أرض كنعان بشكل ملحوظ ، خصوصاً في فترة حكم الفرعون امنحتب الرابع (أخناتون) ، فقد عُثر في تل العمارنة ، على عدة وثائق ، تسلط الضوء على العلاقات الخارجية المصرية في أرض كنعان ، خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، المسمى عصر العمارنة (وهو العصر الذي يغطي فترة حكم كل من امنحتب الثالث (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) وامنحتب الرابع (أخناتون) (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) . فكان أخناتون - بخلاف أسلافه من حكام الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ - ١٣٠٨ ق.م) - يتمتع بعدم الرغبة في إنشاء علاقات سياسية عدائية ، بقدر ما كان مشغولاً بإحداث اصلاحاته الدينية . وبالتالي أصبح الوضع في أرض كنعان خارج نطاق السيطرة المصرية بالكامل ، حيث عمّت الفوضى هناك ، وصار حكام دويلات المدن يستغلون ضعف السلطة المصرية لزيادة طموحاتهم السياسية ، بالرغم من إبداء إخلاصهم وولاءهم للدولة المصرية . هذا فضلاً عن أن الموظفين المصريين

---

(١) Kapelrud , A . S . , Israel From the Earliest Times to the Birth of Christ , Translated by J . M . Moe , Oxford , 1966 , P . 19 ;
Aldred , C . , Op . Cit . , PP . 53 - 63 .

(٢) Albright , W . F . : From the Stone Age to Christianity , Second Edition , Doubleday Anchor Books, New York , 1957 , PP . 219 - 220 .

كانوا أيضاً في حالةٍ من الفساد ، دفعتهم إلى مزيدٍ من إعطاء صورة غير حقيقية للأوضاع السائدة في أرض كنعان(١) .

وفي أوائل حكم الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ - ١١٨٤ ق.م) ، استطاع سيتي الأول (١٣٠٩ - ١٢٩١ ق.م) ، أن يعيد السيطرة المصرية على فلسطين ، بعد كوارث فترة العمارنة . وهذا يتبين من المسلة التي أقامها في بيت شان (بيسان حالياً)(٢) حيث تُقدم على ذلك دليلاً على نشاطاته في تلك المناطق ، الأمر الذي اعتبرت فيه تلك المسلة سجلاً جديراً بالاهتمام . وقد كان من الواضح - من خلال ذلك السجل - أنه لابد من التعامل مع عددٍ من العصابات المغيرة للسلب والنهب ، حيث وصف ذلك عند هزيمته لتلك العصابات التي عبرت الأردن ، وقامت بمهاجمة بيت شان ، والمدن المجاورة . وفي مسلةٍ أخرى لسيتي الأول أيضاً - رغم فقدان أجزاء من رموزها - وصف هزيمته للعابيرو Âpiru من " جبال الأردن " ، مما يُعد دليلاً على أن العصابات المتحالفة مع العابيرو الذين ورد ذكرهم في رسائل العمارنة كانوا لا يزالون يُسبّبون المتاعب . وتلك السيطرة المصرية على فلسطين أدت أيضاً إلى إحكام السيطرة المصرية على الطريق البري العظيم ، مما أدى بالتالي إلى استقرار الأحوال في المنطقة ، كما نتج عنه قدر أكبر من التقدم الحضاري في المدن الواقعة عليه . كما أن هناك دليلاً إضافياً على أنه حتى الأحوال غير

---

(١) Anderson . B . W . , The Living World of the Old Testament , First Edition , Longmans , Green and Co , London , 1958 , P . 74 .

(٢) بيسان : الاسم الكنعاني القديم لها هو " بيت شان " بمعنى بيت الإله شان ، أو بيت السكون . وتقع على بعد ٨ أكيال إلى الجهة الغربية من نهر الأردن . وتبعد عن القدس ١٢٧ كيلاً ، وعن نابلس ٣٦ كيلاً . وفيها آثار مصرية قديمة تعود لعهد سيتي الأول ورعمسيس الثاني . قال عنها ياقوت الحموي : هي بين حوران وفلسطين ، وهي بلدة وبئة حارة أهلها سُمر الألوان جُعد الشعور لشدة الحر عندهم . انظر :
شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، دار صادر للطباعة والنشر ، ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ٥٢٧ وكذا
عبد الحكيم خير الدين ذا النون : تاريخ فلسطين القديم والخلفية الزائفة للصهيونية ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربي ، سوريا ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ١٣١ وكذا
محمد محمد شرّاب : معجم بلدان فلسطين ، الطبعة الأولى ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٢١٧ - ص ٢١٨ .

المستقرة في الداخل لم تمنع الإتصالات التجارية مع منطقة البحر المتوسط ؛ وهو العثور على كميات من الخزف السوري والقبرصي التي تم استيرادهما ووجدت في بعض المواقع[١] .

ونتيجة لنشاطات سيتي الأول العسكرية في فلسطين وجنوب سوريا ضد الحثيين ، استطاع هذا الفرعون أن يفرض السيطرة المصرية على منطقة شاسعة وصلت إلى مصب نهر الليطاني وصارت مدن مثل : مجدّو[٢] ، وبيسان ، قواعد عسكرية مصرية ، بحيث فرض هيبة النفوذ المصري في كل فلسطين ، وفي سوريا الجنوبية ، خاصة بعد هزيمة الجيش الحثي، التي لا يُعرف تاريخ محدد لها ، ولا في أي مكان حدثت[٣] ، رغم أن البعض يرى أن الجيشان الحثي والمصري تلاقيا في شمال قادش[٤] ، حيث كان أول لقاء مباشر بين

---

(١) Kenyon , K . M . , Archaeology in the Holy Land , Ernest Benn Limited , London , 1960 , P 219 .

(٢) مجدّو : إحدى المدن الكنعانية القديمة ، كان موقعها في فلسطين على بعد ٣٤ كيلاً شرقي مدينة حيفا الحالية ، وتعرف بـ" تل المتسلم " الذي يقع إلى جهة الغرب من مدينة بيسان . وقد وردت الإشارة إليها في نصوص تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) على جدران معبد الكرنك باسم " مكتي Mkti " حيث فتحها سنة ١٤٧٩ ق.م أثناء فتوحاته في بلاد الشرق . وتل المتسلم يشرف على سهل مرج ابن عامر ، وبذلك تكون مجدو مفتاح الطريق إلى مصر والجنوب ، وإلى سوريا والشمال ، ولذلك مرت بها أكثر الغزوات السابقة . تهدمت وهُجرت في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، وبقيت قرنين من الزمان خالية من السكان ، وبعد ذلك أُعيد بناؤها على الأسلوب الكنعاني في البناء . ثم أعيد احتلال المدينة وتدميرها ثانية عام ٧٣٢ ق.م على أيدي الآشوريين . انظر :

عبد الحكيم خير الدين ذا النون : المرجع السابق ، ص ١٣٥ ، ص ١٣٦ وكذا

محمد محمد شراب : المرجع السابق ؛ ص ٦٤٩ - ص ٦٥٠ وكذا

حسن نعمة : المرجع السابق ، ص ١٤٧ وكذا

Gardiner , A . H . , Ancient Egyptian Onomastica , Vol . I , P . 138* .

(٣) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٣٥١ .

(٤) قادش : كانت مملكة مزدهرة خلال الألف الثاني قبل الميلاد ، وبسطت نفوذها على منطقة واسعة من أواسط سوريا . وفي عهد تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) تزعمت قادش حلف الدويلات السورية ضد المصريين ، إلا أنها تحولت إلى خراب بعد انتصاره على تحالف الدويلات السورية في معركة مجدو . وقد ورد ذكر قادش كثيراً في السجلات الحثية والآشورية ، وغيرها من وثائق الشرق الأدنى القديم . أما موقعها الحالي فهي تقع على نهر الاورنت (نهر العاصي) حيث تُعرف الآن باسم " تل نبي مندُ " على الطرف الغربي لبحيرة قطينة إلى الجنوب من مدينة حمص الحالية . انظر :

Gardiner , A . H . , Op . Cit , Vol . I , P . 137* ;
Goetze , A . , " Egyptian and Hittite Treaties - Hittite Treaties " , ANET , PP . 203 note 4 , 204 note 13 ;
Gardiner , A . H . , The Kadesh Inscriptions of Ramesses II , Griffith Institute , Ashmolean Museum , Oxford , 1975 , P . 58 .

الخصمين الكبيرين ، أدرك كل منهما بعده أنه لن يتيسر له القضاء على قوة خصمه بسهولة ، فتميّع الموقف بينهما إلى حين ، وربما انتهيا إلى عقد هدنة ، وإن كانت نصوص كل فريق منهما قد ادّعت النصر لأهلها على الفريق الآخر[١] .

وبعد وفاة سيتي الأول واصل ابنه رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) متابعة الانتصارات التي حققها والده في فلسطين ، ومدها نحو الشمال إلى سوريا حيث النفوذ الحثي ، الأمر الذي أدى إلى المواجهة بين الجانبين المصري والحثي في سنة ١٢٨٥ ق.م في قادش ، حيث استمر النزاع بين الطرفين فترة طويلة انتهت بعقد معاهدة بينهما في سنة ١٢٦٩ ق.م[٢] .

وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية في عصر الأسرة الثامنة عشرة ، فقد خرج أولو الرأي المصريون من محنة الهكسوس ، وقد غلب على تفكيرهم أنه لا أمان لاستقلالهم من غدر أعدائهم إلا إذا واصلوا الاهتمام بجيشهم ، وزادوا قوته الحربية ، وأنه لا أمان لإقتصادهم من اعتداءات بقايا الهكسوس وأمثالهم إلا إذا أبعدوهم عن مسالك تجارتهم الخارجية جهد ما يستطيعون ، وأحاطوهم بأنصارهم جهد ما يستطيعون ، وأنه لا أمان لمستقبل بلدهم من غزو هجرات شعوبية جديدة غريبة إلا إذا سيطروا بأنفسهم على مداخل الهجرات في شمال الشام وأطراف العراق . وتكفّل بالمرحلتين الأوليين من هذه السياسة أحمس الأول (١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق.م) ، وامنحتب الأول (١٥٥٠ - ١٥٢٨ ق.م) على التعاقب ، بينما أخذ خليفتهما تحتمس الأول (١٥٢٨ - ١٥١٠ ق.م) على عاتقه أن يبدأ بتنفيذ المرحلة الثالثة منها[٣] .

أما في عصر الأسرة التاسعة عشرة ، فقد ظلت شؤون الإدارة الخارجية على حالها الذي استقرت عليه خلال عصر الأسرة الثامنة عشرة ، فتولى أمرها في سوريا وفلسطين امراء محليون ، وشاركهم في مسئولية توطيد الأمن حاميات مصرية سورية ، وقام بمهمة التنسيق بين القطرين رسل ملكيون . وتولى الإدارة في النوبة أمراء محليون أيضاً تحت إشراف أمير كوش المصري ونوابه[٤] .

---

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٣٢ .

(٢) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٣٥٢ ، ص ٣٥٧ وكذا

Finegan , J . , Light From the Ancient Past , The Archeological Background of Judaism and Christianity , Princeton University Press , Princeton , New Jersey , 1969 , PP . 113 - 114 .

(٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٢٣٢ وكذا

ألن جاردنر : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ وكذا

Gardiner , A . H . , Egypt of the Pharaohs , P . 255 .

الأحوال الفكرية أو الدينية :

أما فيما يتعلق بالنواحي الفكرية ، أو الدينية التي كانت سائدة في مصر ، فإن المصري القديم كان يعتقد « بوجود قوة مدبرة مهيمنة على المخلوقات والمعبودات جميعها ، وأن هذه القوة إذا أرادت تغيير الكون تقول له كن فيكون »[١] . لذلك استقر في عقائد المصريين القدماء أن لهذا الكون إله خلقه وقدره ، وقام على تدبير أموره ، وأن ذلك الإله لا يُرى ، وإنما يظهر في قوىً له مختلفة ، فهمها الخاصة من الناس وهم الكهان ، ثم رأوا أن يبسّطوا هذه المفاهيم للعامة من الناس ، فجسّدوها لهم على الأرض ليتوجهوا إليها في السراء والضراء[٢] .

وهذا يشير إلى أن تلك القوة التي عبّر عنها المصريون ، وتتصف بهذه الصفات ، لا يمكن أن تكون إلا لله سبحانه وتعالى ، وهذا هو الإدراك الفطري لدى الإنسان في معرفته لخالقه ، كما قال تعالى : ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[٣] .

إلا أن القوم طُمست فطرتهم ، وهي معرفة الله عز وجل وتوحيده بالألوهية والربوبية ، واجتالتهم الشياطين حتى اتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله ، وأطلقوا عليها صفات الخالق والمدبر للكون .

أما اسم إله الكون الذي كان المصريون يعتقدون به ، فقد قام الكهنة بإطلاق صفاته على المعبودات المختلفة في مصر ؛ فالكهنة في منف اعتقدوا أن " بتاح " خالق الكون الأعظم ، والكهنة في طيبة اعتقدوا أن معبودهم " آمون " إله العالم ، حيث أنه معبود الدولة الرسمي . والكهنة في أون اعتقدوا أن خالق الكون هو " رع " ، وأن فراعنة مصر أبناء الشمس رع وورثته على الأرض ، وأنه صاحب المركز السامي في مصر ، حتى أن

---

(١) جيمس هنري برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي ، ترجمة حسن كمال ، راجعه وصححه محمد حسنين الغمراوي بك ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ، ص ٢٣٦ .

(٢) أحمد بدوي : في موكب الشمس ، ج ١ ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م ، ص ١٠٣ .

(٣) سورة الروم ، الآية (٣٠) .

المكاتبات الرسمية كانت تبدأ بالدعاء للمعبود رع حرخوتي Re - Harakhte ، وأنه كان حاكم هذا الكون . وفي عهد أخناتون كان " آتون " قرص الشمس قد أُستعمل بدلاً من رع ، فكان في عهده آتون (قرص الشمس) هو المعبود الواحد الذي لا شريك له(١) .

وكان من مظاهر اهتمام المجتمع المصري القديم بالفكر الديني ، اعتقادهم بالوهية الملك وارتباطه بالقوى الإلهية .

وهناك اختلاف بين العلماء في موضوع التعرف على كيفية اعتناق الإنسان المصري القديم لتلك العقيدة . لكن يمكن القول ، بأن التفسيرات المعتمدة على تحقيق الملك أو الفرعون لبعض الظواهر الخاصة المميزة في المجتمع الإنساني ؛ كإنقاذ ذلك المجتمع من محنة اقتصادية ، أو تحقيق انتصار حربي حاسم ، أو بمعنى أصح تيسير الطمأنينة لدى أفراد المجتمع بتوفير الأمن والخير لهم ، ربما كان من المبررات القوية ، لاحتمال اعتقاد ذلك المجتمع ، بوجود ارتباط بين ملكهم وبين القوى الإلهية المتحكمة في كافة جوانب حياتهم ؛ رغم أن مدى اقتناع الإنسان المصري القديم بتلك العقيدة قد تفاوت من عصر إلى آخر خلال التاريخ الفرعوني(٢) .

وقبول المصريين القدماء للمبدأ القائل بأن مصر لم يكن يحكمها شخص من الوجه القبلي ، أو شخص من الوجه البحري ، ولكن يحكمها إله تتمثل فيه القوى الجوهرية في كلٍ من " الأرضين " ، فإذا قَبِلَ الوجه البحري هذا المبدأ فلم يكن من حقه أن يُعارض في أن يحكمه إنسان تقيم عائلته في الوجه القبلي ، فقد كان مقرراً أن هذا الإنسان لم يكن تابعاً لمنطقة جغرافية في هذا الوجود ، ولكنه كان من عالم الآلهة . فإذا صح ذلك ، فإنه من الجائز أن توطيد هذا المبدأ في جميع أنحاء البلاد احتاج إلى وقتٍ طويل ، حتى قبلوا جميعاً أن ذلك الإنسان الذي ينظرون إليه ليس بشراً مثلهم بل هو من نوعٍ آخر . لقد أعلن الملك نفسه أنه الإله " حورس " إله المسافات الشاسعة ، إله السماء ، مثل الصقر . وأعلن نفسه أنه هو " السيّدتان " لأنه اتحدت فيه شخصيتا الإلٰهتين اللتين كانتا تمثلان

---

(١) جيمس هنري برستد : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ ؛ ص ٢٣٨ .

(٢) رشيد سالم الناصوري : جنوب غربي آسيا وشمال افريقيا – المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني – المدخل في دراسة بعض جوانب العطاء الفكري لإنسان الشرق الأدنى القديم ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م ، ص ٤٥ – ص ٤٦ .

الوجه القبلي والوجه البحري ، وكان هذان الإدعاءان في حد ذاتهما ، كافيين لأن يُساعدا بينه وبين اعتباره منتسباً لأي جزء من أرض مصر ، ومع ذلك ثبتت جذور صلته بكلٍ من الشمال والجنوب ، وانتهى الأمر بأن ادعى الملك ، وكان ذلك في الأسرة الخامسة ، أنه الابن الإلهي لإله الشمس رع ، الذي كان الإله الأعظم(١) .

وهكذا اعتقد المصريون القدماء بأن ملكهم ما هو إلا إله يحكم بشراً ، وقد نشأت في مصر ، كما ذكرت سابقاً ، منذ تاريخها المبكر فكرة قيام حكومة مركزية يرأسها حاكم واحد هو الملك ، وكان هذا الحاكم إنساناً من البشر هيأته انتصاراته ، وقوة جيشه ، وحُسن سياسته وإدارته للبلاد لأن يتبوأ مركز الزعامة ، أو أن يجعل تلك الزعامة تؤخذ بالوراثة بناءً على النظرية القائمة على أساس " الحكم الإلهي " أو " الفرعون المؤله " والتي اعتمدت على أساس ولاية الآلهة لحكم البلاد وعرشها ثم وراثة الفروع الملكية لهم ، وخلافتهم إياهم في الأرض ، وتدبير أمورها . وقد أراد الفراعنة من هذا التأليه لأنفسهم ، تأكيد أحقيتهم في العرش عن حقٍ مبرر ، أكثر مما أرادوه لأنفسهم من إلوهية ذات فروض؛ وأن ترديد الخاصة لما استوجبه هذا الاتجاه من ألقاب تُخلع على الملوك وتصلهم بالآلهة ، كان يستهدف التفخيم دون التأليه ، وإن جنح إلى المغالاة فهو يستهدف التفخيم المطلق وليس التأليه المطلق ، وما كُتب على جدران المعابد ، ونقوش المقابر ، أشاع لهذه النظرية ما لم تكن تحتمله جميعه من أصول وفروع(٢) .

لذلك كان المصريون القدماء يعتقدون بأن هذا الملك الذي يحكمهم إله عظيم ، على اتصال مباشر ووثيق بالآلهة الكبار ، له القدرة على الطبيعة ، يُصرفها في الوجه الخير النافع. فهو على قول أحد الوزراء الذين عملوا في عهد الامبراطورية المصرية الحديثة " إله أعماله تساعده على الحياة " ، وعندما كان يتولى الحكم كان على الناس أن يفرحوا ويبتهجوا

---

(١) عبد المنعم أبو بكر وآخرون : تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني ، المجلد الأول – النظم الاجتماعية ؛ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ م ؛ ص ١١١ وكذا

جون ولسون : الحضارة المصرية ، ترجمة أحمد فخري ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٦ م ، ص ٩٦ – ص ٩٧ .

(٢) عبد العزيز صالح : دراسات في التاريخ الحضاري لمصر القديمة ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٣١ ، ص ٣٢ .

لأن أحد الأرباب أُقيم رئيساً على كل البلاد(١) . إلا أنه يمكن القول أن فكرة الربوبية وأربابها ، والقداسة وأصحابها ، قد انصرفت في بعض نواحيها لدى المصريين إلى خلاف ما تنصرف إليه فكرة الألوهية والقداسة في أديان السماء(٢) .

وقد كان أهل البلاد من المصريين ، أو كبارهم على الأقل ، مقتنعين بإلوهية الفراعنة وتنزيه لسلطانهم ، واعتبارهم الأوصياء على نظام سرمدي استنته الآلهة لاستقرار المجتمع ، ورشاد الحكم ، وصلاح أمره في شئون الدنيا والدين(٣) .

ومن المفهوم طبعاً – والحالة هذه – أن اتصال الناس الشخصي بهذا الإله ، الذي هو فوق البشر – في تصورهم – ، لم يكن ممكناً إلا لخاصة الخاصة الأقربين من الملك . أما الأشخاص العاديون فلم تكن لهم جرأة على الإقتراب من هذا الإله – في تصورهم – ، وإن حدث ذلك فإن الهلع يستولي على قلوبهم ، وترتعد فرائصهم ، وَيَخرّون على الأرض ساجدين لهذا الإله الذي أمامهم(٤) . ذلك أن شخص فرعون الإلهي يُعتبر أقدس من أن يُخاطبه أحد مباشرة ، فمن كان بشراً عادياً لا يستطيع التكلم " مع " الملك ، إنما هو يتكلم " في حضرة " الملك . الأمر الذي يجب على من يُخاطب الملك أن يتجنب الإشارة المباشرة إلى الملك ، فيقول مثلاً : « فلتسمع جلالتُك » بدلاً من " فلتسمع " ، وهكذا(٥) .

لذا ، كان كل ما يصدر عن الملك – حسب اعتقادهم – من باب اعتباره إلهاً ، حتى الكلمات التي ينبس بها إنما تخرج من فم إله ، وكل ما يتفوه به يجب أن يتحقق بالحال ؛ إذ أن مشيئة الملك وإرادته هي القانون ، ولها ما للعقيدة الدينية من قوة ، فهو يعمل ما يحب ، ولا يأتي قط ما يُكرِه أو يُبغِض(٦) .

---

(١) أندريه إيمار ، جانين أوبوايه : تاريخ الحضارات العام ، الشرق واليونان القديمة ، إشراف موريس كروزيه ، ترجمة فريد م . داغر وفؤاد ج . أبو ريحان ، المجلد الأول ، الطبعة الثانية ، باريس – بيروت ، ١٩٨٦ م ؛ ص ٤٦ ، ص ٤٧ .

(٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٤ .

(٤) أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(٥) هنري فرانكفورت ، هـ . أ . فرانكفورت ، جون . أ . ولسُن ، ثوركيلد جاكوبسن : ما قبل الفلسفة ، الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى ، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ؛ مراجعة محمود الأمين ، دار مكتبة الحياة (فرع بغداد) ؛ بغداد ، بدون تاريخ ، ص ٩٣ .

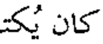
(٦) أندريه ايمار وآخرون : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

ومن الأهمية بمكان ، الإشارة إلى أن الألقاب الملكية الرسمية ، كانت من مستلزمات توطيد عقيدة إلوهية الملك في نفوس الناس ، بهدف توضيحها وبيانها . ففي العصور القديمة كان الملك يحمل لقب " سيد القطرين " أو " موحد القطرين " أو " حاكم مصر " ، إلا أن اللقب الرسمي الذي ظل يحمله على الدوام وفي جميع العصور هو " ملك مصر العليا وملك مصر السفلى " . وابتداءً من الدولة القديمة ، وحتى نهاية التاريخ المصري ، كانت ألقاب الملك الكاملة أو " اسمه العظيم " ، على حد تعبير المصريين القدماء ، تتكون من خمسة ألقاب ، ظل ترتيبها ثابتاً منذ بداية الدولة الوسطى(١) .

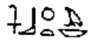
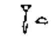
وكانت الألقاب الملكية للملك تؤكد على حقه " الإلهي " في حكم مصر كلها ، الصعيد والدلتا .

وهذه الألقاب هي :

١ - الاسم الحوري The Horus Name :

كان يُكتب داخل إطار مستطيل ، وورد بالكتابة الهيروغليفية بلفظ  Srḫ سرخ ، وهو يمثل القصر الملكي أو معبده ، ويعلوه من فوقه الصقر حور الذي يشير إلى أنه إله مصر منذ أقدم الأزمنة(٢) .

٢ - الاسم النّبتي ، أي " السيدتان " The Nebty Name :

وكُتب بالهيروغليفية على النحو التالي :  nbty " السيدتان " ، حيث تُمثل هذه الكتابة صورة رخمة للدلالة على الإلاهة نخبت *Nḫbt*  (Nekhbet) إلهة مصر العليا (الصعيد) ، والحية الكوبرا " وادجت *W3dt*  " إلهة مصر السفلى (الدلتا)(٣) .

(١) عبد المنعم عبد الحليم سيد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥١ - ص ٥٢ وكذا محمد بيومي مهران : مصر والشرق الأدنى القديم (٥) الحضارة المصرية القديمة ، الجزء الثاني ، الطبعة الرابعة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م ، ص ١٢٩ - ص ١٣٠ وكذا أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٤٣ وهامش (٢) .

(٢) Gardiner , A . H . , Egyptian Grammar Being An Introduction to the Study of Hieroglyphs , Third Edition , Griffith Institute , Ashmolean Museum , Oxford , 1976 , P . 72 .

(٣) Ibid . , P . 73 .

٣ – الاسم حورس الذهبي The Golden Horus Name :

الذي ربما يمثل شكل الصقر حورس بانتصاراته على الإله سِث Seth الذي كان معبوداً في أومبوس(١) Ombos بشكل واضح(٢) .

٤ – الاسم النِسوبيتي The nsw bit Name :

بحيث يكون الاسم الأول تابع للقب نسوبيت *n-sw-bit* أي " الذي ينتمي إلى نبات الحلفاء والنحلة " ؛ حيث أن نبات الحلفاء *swt* يرمز إلى مصر العليا . أما النحلة فترمز إلى مصر السفلى ، مما يعني أن هذا اللقب يمثل " ملك مصر العليا والسفلى " . وقد كُتب هذا اللقب داخل " خرطوش " (كلمة فرنسية تعني لوح مزخرف للكتابة من حجر أو خشب أو معدن داخله نقش) ، أو " حلقة ملكية " (٣) .

٥ – الاسم ابن " إله الشمس " رع *sз Rʿ* (٤) .

وهذه الألقاب الخمسة ، كانت في أغلب الأحيان ، لا تكفي لإشباع رغبات كُتّاب الدولة الحديثة في إظهار الولاء والإخلاص للفرعون . فكانوا يُعبّرون أحياناً عن احترامهم له بإنشودة قصيرة تُضاف إلى إسمه(٥) . ومثال ذلك ما ورد في تأريخ لوح يعود لعهد رعمسيس الثاني أقيم على الطريق إلى مناجم الذهب في بلاد النوبة ، جاء فيه :

((في السنة الثالثة من حكم جلالة .

الحوريس ... ... : الثور القوي ، محبوب آلهة الحق .

الربتان ... ... : حامي مصر وقاهر الشعوب الأجنبية .

حوريس الذهبي ... ... : كثير الأعوام ، عظيم الانتصارات .

ملك مصر العليا وملك مصر السفلى : رع القوي في الحق ، الذي اختاره رع .

ابن رع : ... ... : رمسيس ، محبوب آمون ، الذي تُعطى له الحياة دائماً وإلى الأبد ، محبوب آمون رع ، رب الكرنك الطيبي ، الذي يضيء على عرش

---

(١) أومبوس Ombos : تقع بالقرب من قوص الحالية . وأمبوس هي كوم أمبو الحالية التي تقع على بُعد حوالي ٤٠ كيلاً شمال أسوان . وتبعد أيضاً عن طوخ حوالي ٢,٥ كيلاً إلى جهة الشمال الغربي منها . انظر :
Gardiner , A . H . , Ancient Egyptian Onomastica , Vol . II , P . 5* , 28* .

(٢) Gardiner , A . H . , Egyptian Grammar , P . 73 .

(٣) Ibid . , PP . 73 - 74 .

(٤) Ibid . , P . 74 .

(٥) أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٤٣ – ص ٤٤ .

حوريس الخاص بالأحياء مثل أبيه رع في كل يوم ، الإله الطيب ، سيد الوجه القبلي ، حوريس أدفو ذو الأجنحة المرقشة ، الباشق الذهبي الجميل ، الذي يحمي مصر بأجنحته ، ... ، ملك مصر العليا وملك مصر السفلى " رع القوي في الحق الذي اصطفاه رع " ابن رع رمسيس الذي أحبّه آمون الذي أُعطيت له الحياة دائماً وأبداً مثل أبيه رع كل يوم))[1] .

وأثناء كتابة اللقب عند المصريين القدماء ، يُوضح الاسم الأول الذي يُطلق عليه اسم حورس في علامة هيروغليفية تمثل باب قصر الملك ، أما الاسمان الرابع والخامس فقد كانا يوضعان في حلقتين . وحلقة الملك - التي تسمى خرطوش - كانت في بداية الأمر مستديرة ، ثم صارت بعد ذلك ، حسب طول الاسم ، ذات شكل مستطيل . وكان الملك يتسلم أسمائه الثلاثة الأولى عند اعتلائه العرش ، أما اللقب الخامس (ابن رع) فقد اعتادوا أن يُضمّنوه الاسم الذي يُعرف به الملك وهو أمير[2] .

وفي أثناء حياة الملك كان يُطلق عليه " الإله الطيب " أو " الإله الكبير " . أما بعد وفاته فإنه يُطلق عليه لقب آخر هو " الإله العظيم " ، فبدلاً من أن يُقال عن الملوك أنهم ماتوا أو تُوفّوا ، فإن المصريين كانوا يعتقدون بأنهم كانوا " يختفون في السماء ويتحدون مع الشمس " حسب ما ورد في الأدب المصري القديم[3] .

وهكذا تطور الأمر حتى وصل إلى حد أن يدعو الملك ، أو الفرعون على الأصح ، إلى عبادته هو شخصياً وهو على قيد الحياة ، بصفته معبودهم الذي يهيمن على كل مصر، وذلك في عصر الدولة الحديثة .

إن فكرة إلوهية الملك وهو حي ، لم تُمثل مادياً إلا ابتداءً من عصر الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ - ١٣٠٨ ق.م) ، حيث لم تكن قبل ذلك معابد لعبادة الملك وهو حي ، وأقدم معبد عُثر عليه لعبادة الملك وهو على قيد الحياة ، يعود لعهد الملك أمِنحُتب الثالث

(١) المرجع نفسه ، ص ٤٤ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٥ .

(٣) عبد المنعم أبو بكر وآخرون : المرجع السابق ، ص ١١١ وكذا محمد أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ٢٩ وكذا أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(١٤٠٥ – ١٣٦٧ ق.م) في صولب (على بعد حوالي ٨٨ كيلاً شمالي الجندل الثالث ، في شمال السودان) بهدف أن يُعبد فيه بجوار الإله آمون[1] .

ومن الممكن أن تكون الفكرة التي ابتدعتها الملكة حتشبسوت (١٤٩٠ – ١٤٦٨ ق.م) في معبدها بالدير البحري ، والتي تأثر بها فيما بعد امنحتب الثالث ، وتمثلت في معبد الأقصر ، من تصوير مولدهما كأن الإله آمون نفسه قد اتصل بوالدتيهما وأنجبهما من صُلبه ، مما جعل فكرة إنشاء معبد لعبادة امنحتب الثالث لشخصه مقبولة لديه . إلا أنه لم يبدأها في مصر ، إذ لم تبدأ عبادة شخص الملك الحي في مصر إلا منذ عهد رعمسيس الثاني[2] .

وفي هذا المجال يقول أحد المؤرخين[3] :

((كان بدعة مستحدثة ما حصل من تقديم فروض العبادة لذات الملك (الممثل الحي للسلطة المصرية) علاوة على آلهة الدولة . حقاً إن المصريين اعتبروا فرعون منذ قديم الزمان ، مثالاً مجسداً للإله " حوريس " أو " ابن إله الشمس " ، كما سموه باختصار " الإله الصالح " ، ولكن لم يحصل قط أن فرعوناً كان أثناء حياته موضع إجلال وعبادة في مصر نفسها ، ... وإنما اجترأ القوم على هذه البدعة أولاً في البلاد الأجنبية ، أو بالأحرى بلاد النوبة ، إذ لم نعثر في آسيا على أثر يدل على تأليه الفراعنة وهم أحياء . ففي بلاد النوبة كانت تُنشأ المعابد لملوك مصر وتُقدَّم لهم القرابين في " قدس الأقداس "[4] . وفي أحد هياكل النوبة يُرى فرعون متبوئاً عرش الالوهية بجانب آمون وفتاح أو رع حوريس ، تُقدَّم لهم آيات الخشوع وشعائر التقديس)) .

---

(١) محمد أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ٢٩ وكذا
محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٢) محمد أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٣) استيندُرف الألماني : ديانة قدماء المصريين ، تعريب سليم حسن ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٢٣ م ، ص ١٢٢ .

(٤) قدس الأقداس : يظهر أن المقصود بذلك القسم الداخلي من المعبد ، وقد تُطلق على ما يجاور موضع العبادة ، أو ما يمكن أن يطلق عليه اسم المحراب في المساجد عند المسلمين حالياً . انظر :
بطرس عبد الملك ، جون الكساندر طمسن ، إبراهيم مطر ، وآخرون : قاموس الكتاب المقدس ، الطبعة الثانية ، مجمع الكنائس في الشرق الأدنى ، بيروت ، ١٩٧١ م ، ص ٧١٨ وكذا
سبتينو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، مراجعة محمد القصاص ، دار الرقي ، بيروت ، ١٩٨٦ م ، ص ٢٨٨ هامش (١) .

وفي عهد رعمسيس الثاني ، صار المصريون يعتقدون أن جميع معابدهم ما هي إلا أماكن لعبادة فرعون ، باعتباره إله مصر الأعظم[١] ، بعد أن كان قد رسّخَ هذه الفكرة خارج البلاد المصرية .

لقد أدخل رعمسيس الثاني عبادة شخصه بين الآلهة في معابده التي أنشأها في النوبة، إذ يمكن القول أن بداية تاريخ عبادة رعمسيس الثاني كإله بدأ في معبده في أبي سِمبل الكبير[٢] في بلاد النوبة ، حيث بشر بتلك العبادة بعد ذلك في سائر أنحاء بلاد النوبة . ويبدو أن ذلك كان في العام الذي انتهى فيه بناء المعبد ، أو بعد ذلك بقليل ، أي حوالي العام الخامس والثلاثين من حكم رعمسيس الثاني ، حيث انتشرت بعد ذلك في تلك البلاد[٣] .

ومن الوسائل التي إتّبعها رعمسيس الثاني في التبشير بعبادته ، أسلوب تصويره بين الآلهة أولاً كأنه واحدٌ منها ، ثم عمد إلى انتحال شخص بعض الآلهة ؛ وذلك بالظهور في كثير من الأحيان ثالث الثالوث في عبادة من العبادات ، إشعاراً بأنه شخص الإله الذي صُوِّرَ مكانه ، فَصُوِّرَ بين الإله " آمون " وزوجته " موت " في مقام ابنهما " خنسو " ، وبين " ايزيس " و " أوزريس " في مقام ابنهما " حور " ، وبين " بتاح " و " سخنت " في مقام ابنهما " نفرتم " وغير ذلك . وقد كانت قمة ما وصلت إليه عبادة رعمسيس الثاني ، من التطور والإكتمال كإله ، عندما عُبد على صورة " رع " نفسه ، كأنما اتحد مع " رع " فأصبحا إلهاً واحداً ، أو أنه يمثل الإله العظيم في الأرض[٤] .

ومن أبرز الصور وأهمها في التعبير عن إلوهية رعمسيس الثاني ، واتحاده في شخص " رع " ، صورة تُعبِّر عن اسمه (أوسر ماعت رع) مُثِّلَ فيها الملك من وراء زورق الإله قائماً فوق رأسه قرص الشمس رع ، وفي يده اليمين صولجان يُعبّر عن لفظ " أوسر " ،

---

(١) جيمس هنري برستد : المرجع السابق ، ص ٣٠٧ .

(٢) أبي سِمبل : منطقة أثرية تقع في الجزء الجنوبي من مصر ، على بُعد حوالي ٢٨٠ كيلاً جنوب مدينة أسوان . وفيها معبدين لرعمسيس الثاني ، أحدهما له ، والآخر لزوجته نفرتاري . انظر : محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٣) أحمد عبد الحميد يوسف : " معابد رمسيس الثاني وعبادته في بلاد النوبة " ، مجلة المجلة ، العدد ١٠٥ ، السنة التاسعة ، القاهرة ، ١٩٦٥ م ، ص ٩١ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٩٣ .

وفي يده اليسار ريشة تُعبر عن لفظ " ماعت " . وكان اسم الملك هذا يُكتب كثيراً بهذا الأسلوب ؛ حيث يُصَوَّر الصولجان والريشة في يدي رع إله الشمس في هيئة إنسان ، له رأس الصقر المتوَّج بقرص الشمس . وبذلك فقد حل شخص رعمسيس الثاني محل رع الذي يُكوِّن الجزء الثالث من اسم الملك(١) .

وقد صوّر رعمسيس الثاني أيضاً نفسه ، في معبد أبي سمبل الكبير (على أحد جدران الغرفة اليمنى التي تتفرع من بهو الأعمدة) ، في هيئة الآلهة ، وعلى رأسه قرص الشمس ، وكتب في هذه الصورة « رعمسيس الإله العظيم » . ثم صور نفسه في هيئة ملك يلبس التاجين ، وكتب في هذه الصورة « رعمسيس الإله الطيب » حيث تُمثله هذه الصورة وهو يركع أمام صورته كإله ، ويُقدم قرباناً من السوائل ، بحيث يظهر وكأنه رسم نفسه وهو يتعبد إلى نفسه(٢) .

وقد عُرف عن رعمسيس الثاني إقامته للتماثيل الضخمة ، وتأليه نفسه في عدة معابد ، مما يدل على أنه كان مُغرماً بتمجيد نفسه ، وحُبّه لتمجيد ذاته ، وحتى عبادة ذاته ، حتى وصل به الأمر إلى أن يمحو أسماء أسلافه السابقين من الفراعنة ليضع اسمه مكانها ، الأمر الذي يمكن القول عنده أن نزعات رعمسيس الثاني الشخصية ، وولعه غير العادي بتمجيد ذاته ، هي الدوافع الأساسية وراء كثرة تماثيله ومبانيه الضخمة(٣) .

ويبدو أنه حتى بعد وفاة رعمسيس الثاني قد اتصلت عبادته واستمرت في بلاد النوبة أعواماً عديدة ، وأن بعض الفضل في ذلك ربما يرجع إلى حفيده سيتي الثاني (١٢١٤ – ١٢٠٨ ق.م) حيث احتفل بعد ترميم معبد أبي سمبل الكبير بمركب الزورق المقدس لرعمسيس الإله وتجديد شعائره(٤) .

ومما يرتبط أيضاً بالفكر الديني المصري القديم تعدد الآلهة وكثرتها . ويمكن تصنيف تلك الآلهة إلى ثلاثة أقسام :

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٩٣ .

(٢) عبد المنعم عبد الحليم سيد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٢٠ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٤٢٠ ، ص ٤٢١ .

(٤) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ٩٠ .

القسم الأول : الآلهة الكونية .

وهذه الآلهة تتضمن إلاهة السماء " نِوت Nut " حيث صُـوِّرت في عـدة أشـكال ، مثل : سيدة كبيرة تمتد في شكل شبه قوس فوق الأرض ، أو في شكل بقـرة كبـيرة يرفعهـا الإله " شو Shu " إله الهواء . وأيضاً من أهم الآلهـة الكونيـة الإلـه رع الإلـه الشمسـي ، حيث كان من بين القوى العظمى التي ، حسب اعتقـادهم ، باشـرت نفوذهـا علـى الحيـاة الأرضية ، فكانت الشمس التي ظهرت على وجـه التـأكيد أكـثر دوامـاً واسـتقراراً ، كمـا كـانت أقـل حاجـة لصـور متغـيرة . ومـع ذلـك فـإن المصريـين القدمـاء كـانوا يتخيلونهـا " حرختي (حورس الأفق) " برأس الباشق ، أو هي ملك آدمي يحمل لقب أتوم ، أو ربمـا هي جُعْل يدحرج كرة الروث أمامه (خوبـرى) ، ولم يكـن هـذا كـل شـيء ، بـل إنهـم أدركوا أن أهمية الإله المحلي قد ترتفع إذا أُردفـت إليـه كلمـة رع ، أكـثر ألقـاب الشـمس شيوعاً ، كنعتٍ له(١) .

ويـبـدو أن المصريـين صـوّروا إلـه الشـمس الإلـه رع بـأن جعلـوا قـرص الشـمس في الوسط ، وعلى كل جانبٍ منه رأس أفعى من نوع الكوبرا ، وجعلـوا لهـا جناحـان بشـكل جناحي الصقر ، لاعتقادهم بأن إله الشمس في هذه الهيئة ليس إلا صقراً يطير في السـماء ، رغم أنهم في بعض الأحيان جعلوا الهرم الكبـير رمـزاً مقدسـاً لإلـه الشـمس رع ، وجعلـوا المركز الرئيس لعبادته في أون(٢) .

ومن الآلهة الكونية أيضاً الإله القمري الذي يُمثله عادة الإلـه تُحـوت Thut ، وهـو أيضاً إله الكتابة وحساب الزمن ، ويُرمز له بالطائر إيبيس Ibis أو رأس إيبيس ، على جسد آدمي . ولكنه كان من الممكن أن يكون كذلك قرداً ، أو أن يُـبرز نفسـه كقمـر . كمـا

---

(١) رشيد سالم الناضوري : المرجع السابق ، ص ٦٧ وكذا

نبيلة محمد عبد الحليم : المرجع السابق ، ص ٥٠ ، ص ٥١ وكذا

ألن جاردنر : المرجع السابق ، ص ٢٤٢ وكذا

واليس بدج : المرجع السابق ، ص ١٠١ - ص ١٠٣ وكذا

Gardiner , A . H . , Egypt of the Pharaohs , PP . 216 - 217 .

(٢) أحمد بدوي : المرجع السابق ، ص ٩٨ ، ص ١٠٦ وكذا

جيمس هنري برستد : تطور الفكر والدين في مصر القديمة ، ترجمة زكـي سـوس ، دار الكرنـك للنشر والطبـع والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٦١ م ، ص ٣٥ ، ص ٤٢٨ وكذا

جيمس هنري برستد : انتصار الحضارة (تاريخ الشرق القديم) ، ترجمة أحمد فخري ، مكتبة الأنجلـو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٦ م ، ص ٩٢ ، ص ٩٤ .

صور الإله القمري أيضاً خونسو Khunsu الذي يُصَوَّر في شكلٍ صغير يحمل قرص القمر[١] .

كذلك كان الإله الأرضي جب Geb الذي صُور على صورة الكبش خنوم ، حيث انفصلت الأرض عن السماء ، باعتقاد المصريين القدماء ، بواسطة الإله شو Shu إله الهواء[٢] .

القسم الثاني : الآلهة الرسمية للدولة .

وهذه الآلهة تعود في الأصل إلى أنها معبودات محلية تنتمي إلى المقاطعات المختلفة في مصر ، ولكنها سرعان ما تبوأت مكانة خاصة لدى بعض الملوك ، وصار لها مكانة مرموقة ، لها فاعليتها في تسيير شؤون الدولة المصرية . ولم تقتصر آلهة الدولة على مبعود معين ، بل انتقلت من معبودٍ إلى آخر حسب توجيهات الفرعون ، ومدى ارتباطها به . ففي بداية العصر التاريخي كان الإله حورس ، وهو إله السماء ، الذي صُوِّر على شكل صقر ، أو رجل يحمل فوق رأسه قرص الشمس ، هو إله الدولة المصرية المتحدة ، واستمر محتفظاً بتلك الولاية حتى الأسرة الخامسة ، حيث انتقلت العقيدة الرسمية للدولة إلى الإله رع في أون ، واتخذ الملك لقب ابن الإله رع لنفسه منذ الأسرة الخامسة ، ثم تتابعت بعد ذلك العقائد الأوزيرية (الإله أوزير) ، والإله آمون في طيبة ، والآتونية بعد ذلك[٣] .

وتجدر الإشارة إلى أن الإله حورس هو الصقر حور أو حُر ، ورغم أن اسمه عربي ، فهو أصيل في الوجه البحري ، حيث كان يُنسب إلى مدينة " بحدت " عاصمة الوجه البحري في عصور ما قبل التاريخ ، وعندما تم توحيد القطرين عُرف كإله سماوي ، وصار حورس رمزاً وحامياً لملوك مصر[٤] .

---

(١) رشيد سالم الناضوري : المرجع السابق ، ص ٦٧ ، ص ٦٨ وكذا
نبيلة محمد عبد الحليم : المرجع السابق ، ص ٥١ وكذا
ألن جاردنر : المرجع السابق ، ص ٢٤٢ .

(٢) رشيد سالم الناضوري : المرجع السابق ، ص ٦٨ وكذا
نبيلة محمد عبد الحليم : المرجع السابق ، ص ٥١ وكذا
ألن جاردنر : المرجع السابق ، ص ٢٤٢ .

(٣) رشيد سالم الناضوري : المرجع السابق ، ص ٦٨ ، ص ٦٩ وكذا
نبيلة محمد عبد الحليم : المرجع السابق ، ص ٥١ - ص ٥٢ .

(٤) محمد عبد القادر محمد : " العلاقات المصرية العربية في العصور القديمة : مصادر ودراسات " ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية - الكتاب الأول - مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص ٢٦ وكذا
نبيلة محمد عبد الحليم : المرجع السابق ، ص ٤٦ وكذا
هنري فرانكفورت وآخرون : المرجع السابق ، ص ٣٣ .

وكانت الصحراء الشرقية لمصر ، أو المناطق الواقعة شرق مصر – حسب اعتقاد المصريين القدماء – هي مقر الإله حورس الذي كان المصريون يختصّونه بكلمة " نِثر " ، ومن هنا جاءت التسمية " تا – نثر " في النصوص المصرية القديمة التي تعني أرض الإله ، للدلالة على الصحراء الشرقية لمصر . ويبدو أن السبب في إطلاق هذا الاسم ، أن جبالها الممتدة بمحاذاة النيل كانت أول المناطق التي تُشرق منها الشمس رمز معبودهم إله الشمس ، وهو الإله الأكبر في مصر القديمة الذي رمزَ إليه المصريون بجناحي صقر يتوسطهما قرص الشمس[١] .

أما النيل ، فكان يمثّل للمصريين القدماء أحد الآلهة الهامة بالنسبة إليهم ، حيث اعتقدوا أنه روح هذه الحياة المتجدّدة التي لا يمكن أن تموت موتاً نهائياً ، وأنه يهب الإنسان كل ما يحتاج إليه ؛ حيث يُنعِش الأرض ، والحياة النباتية ، وتتجدد كل سنة حسب تعاقب الفصول[٢] .

القسم الثالث : آلهة محلية أو ثانوية .

اتخذت المقاطعات المصرية ، معبودات محلية،لكل مقاطعة معبودها الخاص بها ، حيث كان الإنسان المصري القديم يعتقد في تجسيم القوى الخفيّة التي تتحكم في حياته في معبود معين . فمثلاً عبدوا الإله بتاح في منف ، والإله أتوم في أون ، والإله حور أو حورس في إدفو[٣] ، والإله آمون في طيبة ، والإله أوزير في أبي صير[٤] ثم في

(١) عبد المنعم عبد الحليم سيد : " الجزيرة العربية ومناطقها وسكانها في النقوش القديمة في مصر " ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية – الكتاب الأول – مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص ٣٩ – ص ٤٠ .

(٢) جيمس هنري برستد : تطور الفكر والدين في مصر القديمة ، ص ٤٢٨ .

(٣) ادفو : مدينة تقع على الضفة الغربية للنيل بصعيد مصر شمال أسوان ، تشتهر بوجود معبد الإله حورس ، الذي بدأ تشييده بطلميوس الثالث (٢٤٦ – ٢٢١ ق . م) واستكمله خلفاؤه من بعده ، حيث كانت مقراً لعبادته . انظر :

محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ١٣٢ وكذا

Gardiner, A. H., Ancient Egyptian Onomastica, Vol. II, P.P. 6* f., 139*, 275* .

(٤) أبو صير : هناك أربع مناطق أثرية بإسم أبو صير وكلها تقع في مصر : الأول على مسافة ٨ أكيال جنوبي أهرامات الجيزة ، بها أهرامات أربعة لملوك مصر من الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ – ٢٤٢٠ ق . م) ، والثانية ⇐

أبيدوس(١) ، والإله سِث في أومبوس ، والإلاهة حتحور في دندرة(٢) ، والإلاهـة باسِتت في تل بسطة(٣) ، والإله خنوم معبود إلفنتين(٤) ، والإله سوبك رع في الفيوم(٥) ، والإلاهة نيث

⇐ على مسافة ٤٥ كيلاً غربي الإسكندرية . وأبو صير الملق وتقع عند مدخل اقليم الفيوم . والرابعة في الدلتا . انظر :

محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ١٨ وكذا

Gardiner, A. H., Op. Cit., Vol. II, P.P. 114*, 151*, 176* ff., 236*.

(١) أبيدوس : من أقدم مدن مصر العليا ، وتقع جنوب القاهرة على مسافة حوالي ٥٣٠ كيلاً ، وبها مقابر من الأسرة الأولى (٣٢٠٠ – ٢٩٠٠ ق . م) ومن عصور أخرى ، ويقع بها معبد أبيدوس ، الذي بناه سيتي الأول (١٣٠٩ – ١٢٩١ ق . م) ، وعلى جدران هذا المعبد توجد قائمة أبيدوس التي نُقشت عليها أسماء الملوك . انظر :

محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ١٨ وكذا

حسن نعمة : المرجع السابق ، ص ٣٨ وكذا

Gardiner, A. H., Op. Cit., Vol. II, P. P. 36*, 39*;
Faulkner, R. O., Op. Cit., P.P. 222 - 224, 230 - 231.

(٢) دندرة : الاسم القديم في اللغة المصرية القديمة لهذا الموقع هو " أيونه – إن – نترة " بمعنى رواق المعبودة أو معبدها ، وكانت عاصمة الاقليم السادس من أقاليم الصعيد . وتقع على الضفة الغربية للنيل على مسافة ٦٦٥ كيلاً جنوبي القاهرة . انظر :

محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ١٢٠ وكذا

Gardiner, A. H., Op. Cit., Vol. II, P.P. 29*, 30*, 53*, 186*.

(٣) تل بسطة: عاصمة الاقليم الثامن عشر من أقاليم الدلتا أيام الفراعنة، نُسبت إلى معبودتها " بستة " أو " باستِت " فسميت " بر – بستة " بمعنى بيت أو معبد بستة . ورد اسمها في النصوص القبطية بلفظ " بوباستي " ؛ وفي الاغريقية " بوباستس " ، وقد أصبحت أيام الأسرة الثانية والعشرون (٩٤٥ – ٧٣٠ ق . م) قاعدة للحكم . انظر :

محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ٣٧٥ وكذا

Gardiner, A. H., Op. Cit., Vol. II, p. 168*.

(٤) إلفنتين : هي جزيرة كبيرة تقع أمام مدينة أسوان جنوب مصر ، كانت تُدعى أيام الفراعنة " آبو " أي مدينة الفيل ، وأصبحت تُعرف عند الاغريق منذ عصر البطالمة (٣٢٣ – ٣٠ ق . م) باسم إلفنتين . وقد عُثر بها على برديات اغريقية تُعدّ من أقدم البرديات الاغريقية . وفي العصر اليوناني – الروماني كانت مقراً للحاميات العسكرية المدافعة عن مدخل مصر الجنوبي . انظر :

محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ١٣٣ وكذا

Gardiner, A. H., Op. Cit., Vol. II, p. 4*;
Aldred, C., Op. Cit., p. 52;
Cerny, J., " Egypt : From the Death of Ramesses III to the End of the Twenty - First Dynasty ", CAH, Vol. II, Part 2, 1975, P.P. 611, 632.

(٥) الفيوم : منخفض يقع على مسافة حوالي ٨٠ كيلاً جنوب القاهرة ، وعلى بُعْد عدة أكيال قليلة من حافة الصحراء الغربية . وكانت الفيوم أحد أقدم المراكز الحضارية في مصر في عصر ما قبل الأسرات . وفي عصر

⇐

في سايس[١] ، التي رُمز إليها بدرع وسهام متقاطعة[٢] .

وهناك معبودات أخرى أقل أهمية مما سبق ذكره باعتبار وظيفتها ليست ذات أثر فعّال في الحياة العامة ، حيث تتعلق بالحياة الخاصة واليومية مثل :

أنوبيس ابن رع أو أوزيريس ، الذي يرأس مُقام الأموات ، ويشترك مع أُفوات في السيادة على " الجبل الجنائزي " ؛ ويُرمز إلى كل من هذين المعبودين في شكل ذئب أو كلب أو ابن آوى ، والإله بس Bes ، والإلاهة باستت حيث صوّرت على هيئة قطة ، وعُبدت كونها آلهة للموسيقى والرقص والمرح والشئون المنزلية ؛ والإله نبري Nepri إله القمح[٣] .

وتجدر الإشارة إلى أن الإنسان المصري القديم رمز لآلهتهِ برموز حيوانية وبشرية مختلفة للتعبير عنها ، بحيث أنه في بعض الأحيان يجمع ذلك الرمز بين الجانب البشري

ـــ الدولة الوسطى نفّذ الفراعنة عدة مشروعات ضخمة لإصلاح الأراضي والري في الفيوم ، كما أقاموا فيها الأهرامات والمعابد . ومن أهم المواقع الأثرية فيها هوّارة ، واللاهون ، وفيها أيضاً المعبد الجنائزي الذي شيّده امنمحات الثالث (١٨٤٢ - ١٧٩٧ ق . م) ، إلا أنه دُمّر منذ العصور القديمة ولم تبق منه أي آثار تقريباً . انظر :

عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول ، مصر والعراق ، ص ٤٥ – ص ٤٦ ، ص ١٨٠ وكذا

محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ١٤٦ - ١٤٧ وكذا

أحمد أرحيّم هبّو : المرجع السابق ، ص ٥٠ – ص ٥٢ وكذا

Gardiner, A. H., Op. Cit., Vol. I, P.P. 100*, 115* ff., 118*, 120*.

(١) سايس : أو ساو ، التي قامت على أطلالها صا الحجر على فرع رشيد في غرب الدلتا ، وكانت من عواصم مصر القديمة ، وأسماها الاغريق سايس ، وكانت عاصمة الاقليم الخامس عشر من أقاليم الدلتا . بدأت شهرتها في عصر الأسرة الرابعة والعشرين (٧٢٠ - ٧١٥ ق . م) عندما أصبحت عاصمة . أُقيمت فيها المعابد للإلاهة نيث Neith ، ولم يبق من آثارها اليوم إلا خرائب . انظر :

عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٦٤ ، ص ٦٦ ، ص ٣٠٠ وكذا

محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ٣٤٠ وكذا

Gardiner, A. H., Op. Cit., Vol. II, p. 120*.

(٢) رشيد سالم الناضوري : المرجع السابق ، ص ٧١ وكذا

نبيلة محمد عبد الحليم : المرجع السابق ، ص ٥٣ – ص ٥٤ .

(٣) رشيد سالم الناضوري : المرجع السابق ، ص ٧١ وكذا

نبيلة محمد عبد الحليم : المرجع السابق ، ص ٥٥ وكذا

واليس بدج : المرجع السابق ، ص ١١٥ وكذا

Gardiner, A. H., Op. Cit., Vol. II, P.P. 104* - 112*.

والجانب الحيواني ، فكانت تلك المعبودات الحيوانية بأجساد وأعضاء الآدميين العاديين ونُسبت إليهم بعض الصفات وألوان النشاط الآدمية ، عندما رأى المصري القديم تحكُّم الإنسان وسيطرته على الحيوان والعالم المادي من حوله ، فصار يصوّر تلك المعبودات على هيئة الإنسان ، إلا أنه ميّز بينهما ، بأن جعلها على هيئة الإنسان برأس يمثّل رأس المعبود الأصلي ؛ أو برأس أضيفت إليه علامة مميّزة لذلك المعبود ، كما هو الحال عندما تم تصوير المعبود آمون بشكل صورة آدمية برأس كبش ، وصوّرت المعبودة حتحور برأس آدمية ولها قرون بقرة(١) .

ولعله يبدو واضحاً ، أنه كان للحياة الزراعية ، أثر بالغ في تمثيل الآلهة المصرية القديمة ، بأشكال حيوانية تعيش في البيئة المصرية القديمة ، لاتصال الإنسان المصري ، بحُكم عمله الزراعي ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، بتلك الحيوانات ، حيث كان يلمس ظواهر معيّنة تجعله يعتبرها بمثابة رموزحيوانية تعبّر عن الآلهة ؛ فالشعور الذي كان ينتاب الإنسان المصري في تلك البيئة ، سواء كان الحب ، أو الخوف ، أو الرهبة ، أو الولاء اتجاه عنصر من عناصر بيئته جعله يعتقد بقدرة ذلك العنصر على التأثير عليه ، الأمر الذي جعله يتصرّف تجاهه بما يتخيّل أنه يرضيه أو يتجنب أذاه . فبعض الجماعات من المصريين القدماء وجدوا أن الثور مثلاً لديه القدرة على الإخصاب وانتاج النسل فقدّسوه ، وبعضها الآخر وجدت أن اللبؤة مثلاً لديها القدرة على البطش لقوّتها ، فقدّسوها . فرغبة من تلك الجماعات في تبسيط فهمها صوّروها بأشكال تجمع بين الصفة الحيوانية ، والصفة البشرية(٢) .

---

(١) رشيد سالم الناضوري : المرجع السابق ، ص ٧٢ وكذا
محمد أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ٦٥ ، ص ٦٦ وكذا
عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٣٣٠ ، ص ٣٣١ وكذا
ألن جاردنر : المرجع السابق ، ص ٢٤٢ وكذا
Gardiner, A. H., Egypt of the Pharaohs, P.P. 214 , 215 Fig. 10 .

(٢) رشيد سالم الناضوري : المرجع السابق ، ص ٧٣ وكذا
عبد الحميد زايد : " الرمز والأسطورة الفرعونية " ، مجلة عالم الفكر ، المجلد السادس عشر ، العدد الثالث ، وزارة الإعلام ، الكويت ، ١٩٨٥ م ، ص ٦٣ وكذا
عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٣٢٩ - ص ٣٣٠ وكذا
جان يويوت : المرجع السابق ، ص ٢١ ، ص ٢٢ ، ص ٢٤ .

ومهما كانت خصائص عقيدة التألية[١] ، لبعض الحيوانات في مصر القديمة وعبادتها ، والأسباب التي حفزت المصريين القدماء إلى اتخاذها آلهة تُعبد ، فإنه لا يمكن أن يكون سبب منطقي قد دفعهم إلى ذلك ، بل لابدّ أن يكون الدافع وهماً باطلاً ، وخيالاً فاسداً ، لأن ذلك الاعتقاد باطل ؛ فلا يمكن أن يوصل إليه إلا نظر منحرف ، وفكر غير قويم ، ومقدمات لا تمت إلى المنطق بنسب ، ولا يربطها به سبب[٢] .

وهكذا يتضح أن أكثر المجتمع المصري القديم من الناحية الفكرية أو الدينية كان مجتمعاً مشركاً با لله عز وجل ، حيث اتخذوا آلهة من دون ا لله توجّهوا إليها بالعبادة والدعاء ، حتى وصل بهم الأمر إلى أن يتّخذوا حكّامهم آلهة - كما مر سابقاً - بعد أن كفروا با لله عز وجل .

لذلك كانت ديانتهم تتغيّر ، وعقائدهم تتبدّل ، تبعاً لسنّة ا لله في الأمم والكون ، ما دامت لم تعتمد على أصل سماوي ، وبالتالي كانت خاضعة لقوانين التحوّل والانتقال من حالٍ إلى حال ، ومن صورة إلى صورة ، ومن غاية إلى غاية ، خاصة عندما كانوا على فترةٍ من الرسل[٣] .

وقد أخبر ا لله سبحانه وتعالى عن القرون الخالية ، وعن أحوال أهلها ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **واتَّخَذوا من دونه آلهةً لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً** ﴾[٤] .

والأمر الذي لاشك فيه ، أن ا لله عز وجل أرسل إليهم رسلاً أو أنبياء ، ينذرونهم ويبلّغونهم ، ويدلّونهم على خالقهم ورازقهم ، وأحقّيته وحده بالعبادة دون شريك ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **وما كان ا للهُ ليُضِلَّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يُبيّن لهم ما يتّقون إن ا لله بكل شيءٍ عليم** ﴾[٥] .

---

(١) انظر هذه الخصائص ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٣٣٠ - ص ٣٣١ .

(٢) محمد أبو زهرة : مقارنات الأديان - الديانات القديمة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩١ م ، ص ١٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٨ .

(٤) سورة الفرقان ، الآية (٣) .

(٥) سورة التوبة ، آية (١١٥) .

وقال تعالى : ﴿ ولكل أمّةٍ رسول فإذا جاءَ رسولهم قُضي بينهم بالقسطِ وهم لا يُظلمون ﴾[١] .

وفي سياق الحديث عن الرسل بعد نوح عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعده رُسُلاً إلى قومهم فجاءُوهم بالبيّنات فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا به من قبل كذلك نطبعُ على قلوب المعتدين ﴾[٢] .

ومن غير الممكن تحديد أولئك الرسل والأنبياء – فيما عدا يوسف وموسى عليهما السلام في رسالتيهما في مصر – كما في قوله تعالى : ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبلُ ورسُلاً لم نقصصهم عليك وكلّمَ ا لله موسى تكليماً . رُسُلاً مبشّرين ومنذِرين لئلا يكونَ للناس على ا لله حُجّةٌ بعد الرُّسُل وكان ا لله عزيزاً حكيماً ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ إنما أنتَ مُنذِرٌ ولكلّ قومٍ هادٍ ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كلّ أمّةٍ رسولاً أن اعبدوا ا لله واجتنبوا الطاغوت فمنهم مَنْ هدى ا لله ومنهم مَنْ حقّت عليهمُ الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين ﴾[٥] .

وقل تعالى : ﴿ تا لله لقد أرسلنا إلى أُممٍ من قبلك فزيّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم فهو وليُّهم اليوم ولهم عذابٌ أليم ﴾[٦] .

وقال تعالى : ﴿ ويوم نبعثُ في كلّ أمةٍ شهيداً عليهم من أنفُسِهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيءٍ وهدى ورحمةً وبشرى للمسلمين ﴾[٧] .

وقال تعالى : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها مُنذرون ﴾[٨] .

---

(١) سورة يونس ، الآية (٤٧) .

(٢) سوة يونس ، الآية (٧٤) .

(٣) سورة النساء ، الآيتان (١٦٤ – ١٦٥) .

(٤) سورة الرعد ، الآية (٧) .

(٥) سورة النحل ، الآية (٣٦) .

(٦) سورة النحل ، الآية (٦٣) .

(٧) سورة النحل ، الآية (٨٩) .

(٨) سورة الشعراء ، الآية (٢٠٨) .

وقال تعالى : ﴿ **إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمةٍ إلاّ خلا فيها نذير** ﴾[1] .

ومن رحمة الله عز وجل وعدله أن أرسل لكل أمة رسول يُكلّمهم بلسانهم ، ويبلّغهم رسالة ربّهم على أتمّ ما يكون التوضيح والبيان ، حتى لا يكون لهم حُجّة بعد الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من رسولٍ إلاّ بلسان قومِهِ ليُبيّن لهم فيُضِلُّ الله مَنْ يشاء ويهدي مَنْ يشاء وهو العزيز الحكيم** ﴾[2] .

ومن الثابت على وجه اليقين ، أن الله عز وجل أرسل لأهل مصر رسلاً مبشرين ومنذرين ، كما ذكرت آنفاً ، ومنهم يوسف عليه السلام ، وموسى وأخيه هارون عليهما السلام . كما قال تعالى على لسان الرجل المؤمن من آل فرعون : ﴿ **ولقد جاءَكم يوسفُ من قبلُ بالبيّنات فما زلتم في شكٍّ مما جاءَكم به حتى إذا هلَكَ قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يُضلّ الله مَنْ هو مسرفٌ مرتاب** ﴾[3] .

ولقد مكّن الله عز وجل ليوسف عليه السلام في أرض مصر ، وتولّى خزائن الدولة المصرية في وقته ، وصار ذا سلطان مبين فيها ، وهو رسول من رب العالمين ، فلابد أن يكون قد دعا المصريين جهرة إلى الدين القيّم ، ولابد أن يكون قد أجابه منهم أُناس ، ونكص عن الإجابة أكثرهم . لذلك كان لدعوة يوسف عليه السلام إلى التوحيد في مصر أثر ما ، ولكن المصريين أَلِفوا عبادة ما أنتجه خيالهم من الوهية زعموها لبعض الأشياء والحيوان ، فلما جاءتهم دعوة إلى التوحيد صريحة قوية بما تستمدّه من بيّنات فعلية ، وأدلة منطقية تستقيم مع قضايا الفكر ، آمنَ مَنْ آمن ، ومن لم يكن نافذ البصيرة ، قوي المدارك ، وقع في حيرة بين قديم قد أَلِفَهُ ، وتغلغل في مكنون قلبه ، واستولى على أهوائه ومشاعره ، وجديد قد عرفه ، ورأى فيه استقامة في الفكرة ، وقوة في الاستدلال ، فكان في شكٍ ومرية[4] .

---

(١) سوة فاطر ، الآية (٢٤) .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية (٤) .

(٣) سورة غافر ، الآية (٣٤) .

(٤) محمد أبو زهرة : المرجع السابق ، ص ٩ .

ويظهر أن صدى دعوة يوسف عليه السلام استمرّ أجيالاً يعمل في النفس المصرية ، ترى نور الحق منبعثاً فيما أُثِرَ عن يوسف عليه السلام ، والنفس قد استهواها ما أُثِرَ عن الآباء والأجداد . ولذا قال تعالى حاكياً عن مؤمن آل فرعون عندما حثّهم على عدم قتل موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ **ولقد جاءكم يوسفُ من قبلُ بالبيّنات فما زلتم في شكٍ مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث ا للهُ من بعده رسولاً كذلك يُضِلُّ ا للهُ من هو مسرفٌ مرتاب** ﴾[1] ، فذلك الاضطراب بين القديم المألوف ، والجديد الحق المعروف ، هو الشك الذي استمروّا فيه بعد يوسف عليه السلام[2] .

ثم إن احتكاك المصريين بالآسيويين ، في الحروب الدائبة المستمرة ، لابد أن يكون هو أيضاً قد أطلع الغزاة والفاتحين المصريين على ما في آسيا من ديانات ، وآثار النبيّين من شرائع وعقائد وأحكام ، وكل ذلك لابد أن ينال شيئاً من النفس المصرية ، وإن لم ينل القلوب ، ويستولي عليها استيلاءً تاماً[3] .

لذلك لا عجب أن يوجد بين النصوص المصرية القديمة تعبيرات تدل على أن هناك أثر لرسالات التوحيد في المجتمع المصري القديم ، وبقايا مما دعا إليه الرسل الكرام ، عبّرَ عنها الإنسان المصري القديم في شتى شؤون حياته ، وخاصّة عندما يصيبه الضرّ ، فيتوجه بالدعاء لخالقه . ورغم أن النصوص والنقوش صوّرت ذلك على أنه توجّه لآلهتهم أو معبوداتهم المتعددة ؛ إلا أنه يتضح من خلال بعض العبارات فيها ، أثر واضح لأساسٍ ديني سماوي . ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

لوحة لرجل رسّام يسمى " نِبي أمون " عاش في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، مرض ولده الأكبر مرضاً شديداً ، وظنّ الوالد أن ابنه قد أصيب بذلك المرض بسبب ذنبٍ اقترفه ، فاتجه بدعائه إلى ربّه يقول له : ((لئن شفيت لي ولدي لأُقيمنّ تذكاراً بإسمك ، وأُسجل لك عليه نشيداً مكتوباً ، فلما أجاب الربُّ دعاءه ، أوْفَى بعهده ... وقام الوالد يُسبّح ربَّهُ قائلاً : أنت رب السماوات ، أنت مَنْ تُجيب دعوة المسكين ، دُعُوْتُكَ وأنا مهموم ، فلبّيت الدعاء وأنقذتني))[4] .

---

(١) سورة غافر ، الآية (٣٤) .

(٢) محمد أبو زهرة : المرجع السابق ، ص ١٠ .

(٣) المرجع نفسه ، نفس الصفحة .

(٤) عبد العزيز صالح : الأسرة في المجتمع المصري القديم ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦١ م ، ص ٨٩ – ص ٩٠ .

فهذه التعبيرات تدل بلا شك على أثر ديني في نفسية ذلك الرجل ، فهو يعرف أنه يتوجّه إلى رب السماوات ويدعوه ، وأن لها خالق خلقها ، وأن ذلك الرب هو الذي يُجيب المسكين والمضطرّ والمهموم .

ومن أمثلة ذلك أيضاً عبارات التوحيد التي بقيت في الأناشيد التي يُقدّمها المصريون القدماء لآلهتهم ، رغم أنها تشير إلى الآلهة باستمرار :

((أيها (الشَّبَهُ) الأوحد يا صانع ما هو كائن
أيها الأوحد ، الفرد ، صانع ما هو كائن
الذي من عينيه ، خرج الناس
الذي من فمهِ ، قدم الآلهة
صانع الأعشاب ، لأجل الماشية ، وشجرة الحياة البشرية ...))[1] .

وكذلك هناك إشارات وردت في النصوص المصرية القديمة ، تشير إلى ما سيؤول إليه حال الإنسان بعد موته ، وما سيلاقيه من الحساب والجزاء . وهذا بلا ريب أثر من آثار الرسالات السماوية ؛ فمن غير الممكن الاعتقاد بأن ذلك من اختراع عقله وتصوّراته . ومثال على ذلك أن المصريين القدماء اعتقدوا بأنه سيكون هناك محاكمة للإنسان بعد وفاته ؛ فقد ورد في بردية موجودة في المتحف البريطاني ، منظر المحاكمة للإنسان ، كما وردت في أحد كتب الموتى ، فقد كان هناك متوفّى يسمى " آني " وخلفه زوجته ، وأمامهما الميزان ، في احدى كفّتيه قلب الإنسان يقوم بوزنه الإله " إنوبيس " (ورأسه على هيئة ابن آوى) ليعرف إن كان صاحبه صادقاً أو غير صادق ، وإلى جانبه يقف الإله " تُحوت " وقلمه في يده ليُسجّل الحُكم ، وتهيّؤ المعبودة البشعة التي تلتهم الأرواح المذنبة . وينحني " آني " احتراماً وينظر إلى قلبه الذي في احدى كفّتي الميزان ، وفي الكفّة الأخرى ريشة الحق . وفي نفس الوقت الذي يتضرّع فيه " آني " إلى قلبه أن يقف إلى جانبه وألاّ يتخلّى عنه ، وكل ذلك بوجود صفّ من الآلهة الذين يشهدون هذه المحاكمة[2] .

---

(١) جيمس هنري برستد : المرجع السابق ، ص ٤٦٥ – ص ٤٦٦ .

(٢) جيمس هنري برستد : انتصار الحضارة (تاريخ الشرق القديم) ، ص ١٣٦ وكذا واليس بدج : المرجع السابق ، ص ١٤٣ – ص ١٤٩ .

ولا شك أنه من خلال هذه المحاكمة ، وما يتعرّض له الإنسان من سؤال في الآخرة وخوف الإنسان ووجَلِهِ ، كل ذلك دليل على تأثّر المصريين برسالات سماوية دعت إلى التوحيد ، وبيّنت للناس ما سيؤول إليه مصيرهم ، مما يشير إلى أن هذا لابدّ أن يكون مصدره وحيٌ رباني ، بلّغَهُ رسولٌ أو نبي لتلك الأمة ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وإن من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير ﴾(١) .

لذلك كله ، كان من الأجدر ببعض المؤرخين المسلمين ، المتخصصين بدراسة التاريخ المصري القديم ، عند تعرّضهم للفكر الديني المصري القديم ، عدم إغفال الإشارات الدالة على الآثار المتعدّدة للرسالات السماوية المنّزلة من عند الله عز وجل ، عن طريق الوحي الربّاني . ولبيان ذلك ، على سبيل المثال لا الحصر ، ما أورده أحد المؤرخين(٢) بقوله : ((بشّرَ بالوحدانية في مصر القديمة دعوتان : دعوة آزرها الحكّام ونادت بإله أكبر يهيمن على الأرض وأربابها ، على نحو ما يهيمن الفراعنة على شئون مصر وأهلها . وأخرى صدرت عن الفلاسفة وكبار الكهّان ، ونادت بإله خالق قديم بَرَأَ الوجود بأربابه وناسه وأرضه وسمائه .

وأفضت دعوة الحكّام إلى إيمان المصريين بإله أكبر لدولتهم أطلق أصحابُه عليه اسم حُوُر ، واسم رع . كما أدّت دعوة الفلاسفة ، وكبار الكهّان ، إلى الاعتراف بإله خالق للوجود دعاه بعضهم باسم أتوم ، ودعاه آخرون باسم رع أتوم ، ودعاه سواهم باسم بتاح تاثنن .

وأفضت الدعوتان إلى تصوير الوحدانية في عهود الدولة القديمة (خلال القرون ٢٩ - ٢٣ ق . م) بصور شتى . فغام أمرها على سواد الناس ، واكتفوا بأن سلّموا بسيادة إله الدولة ، وقِدَم خالق الوجود تسليم الطاعة والتقليد ، وانصرفوا بإيمانهم إلى أرباب محلّيين نسبوا إليهم حظّاً من المقدرة في شئون الدنيا والآخرة ، ورمزوا إلى كل منهم بجسمٍ وهيئة ، دعوهم بأسماء عدّة)) .

---

(١) سوة فاطر ، الآية (٢٤) .

(٢) عبد العزيز صالح : " الوحدانية في مصر القديمة " ، مجلة المجلة ، العدد ٣١ ، السنة الثالثة ، القاهرة ، ذو الحجة ١٣٧٨ هـ / يولية ١٩٥٩ م ، ص ١١ .

الأحوال الإجتماعية :

ما يهم الباحث في النواحي الإجتماعية هو ما كان عليه المجتمع المصري القديم من تفاوت في طبقاته .

كانت الطبقية أساساً في المجتمع المصري القديم ، ولكنها اقتصرت على طبقتين اثنتين شديدتي الترابط ، هما : الطبقة العليا ، وطبقة العامة . بل يجوز القول طبقة حاكمة ، وأخرى محكومة ، إذ لا مجال للعمل أمام الطبقة الثانية ، إلاّ فيما تهيّئهُ لها الطبقة العليا من إمكانات[١] .

وفيما يتعلق بالطبقة العليا ، فقد كانت هذه الطبقة تستأثر بمقدّرات البلاد ، وتتمثل – بعد الفرعون – في النبلاء وحاشية الفرعون الذين كانوا من ذوي الفرعون ، وأنسبائه ، والمخلصين له ، والمحظيين . فمن بينهم كان الفرعون يختار الوزراء ، والكتبة ، والكهنة ، والقادة ، وسائر الموظفين ، ليعاونوه في حكم البلاد[٢] .

وقد ازداد نفوذ وثروات هذه الطبقة العليا المتميّزة ، التي كانت تتباهى دائماً بقرب أعضائها من الفرعون ، وحول هذه الطبقة دارت كل الأنشطة الإقتصادية والأنشطة الفنية ، بل من أجل هذه الطبقة وُجدت هذه الأنشطة في الأصل لتخدمها ، فهم الذين كانوا يمتلكون تلك المقابر ، والمصاطب[٣] الفخمة المزدانة بالعديد من أعمال النحت والتصوير ، والتي تُوقَفْ من أجلها الأوقاف من أراضٍ زراعية ، وممتلكات أخرى . ومع ذلك فلم يكن أعضاء هذه الصفوة ، من الطبقة العليا ، يمثّلون نبلاء عاطلين لا عمل لهم سوى الارتباط بالقصر الملكي ؛ بل كان بينهم المهندسون ، والكتّاب ، والمفكّرون ، ورجال الدين ، وسادة رجال الحِرَف ، والصناعات ، والفنون[٤] .

---

(١) لبيب عبد الساتر : المرجع السابق ، ص ١٠ .

(٢) المرجع نفسه ، نفس الصفحة .

(٣) المصاطب : جمع مَصْطَبَة ، وهو اصطلاح أطلقه العامة على نوع من أنواع المقابر المصرية في جبّانة منف ، ثم استحسنه العلماء الغربيون فأخذوا به . والمصطبة بناء مستطيل مائل الجوانب يُبنى فوق المقبرة ، وقد عُرفت المصطبة في مصر منذ عصر الأسرة الأولى (٣٢٠٠ – ٢٩٠٠ ق . م) . وأول مصطبة بالمعنى المعروف هي مصطبة الملك زوسر (جسر نترخت) في بيت خلاّف بمصر حوالي ٢٨٠٠ ق . م . انظر :
محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ وكذا
أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ١٨ ، ص ٣٣٠ .

(٤) سيريل ألدريد : الحضارة المصرية من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة ، ترجمة وتحقيق مختار السويفي ، مراجعة وتقديم أحمد قدري ، الطبعة الثالثة ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م ، ص ٢١١ ، ص ٢١٢ .

وثمة حقيقة واضحة اتصفت بها الطبقة العليا في المجتمع المصري القديم هي الإسراف ، والتبذير في شؤون حياتهم ، وعيشتهم المُترَفة ، فيسكنون الدور الفخمة ، ويملكون الأراضي الواسعة ، ويتنقّلون – في عصر الدولة الحديثة – على عربات تجرّها الخيل ، ويمارسون فوقها الفروسية والصيد ، ويستروحون عليها بين الحقول وعلى ضفاف النهر . بينما الطبقة العامة من الناس يعيشون حياة الفقر المدقع ، وحاجتهم وعوزهم(١) .

ومن أهم العناصر الهامة – بعد الفرعون – التي كانت تُصنّف ضمن الطبقة العليا :

أولاً – الوزير :

ظلت شخصية الوزير الشخصية الثانية بعد الفرعون في عصر الدولة الحديثة ، وربما ازدوجت الوزارة حينذاك ؛ أي كان هناك وزيران ، فاستقرّ الوزير الأكبر في طيبة ، وظهر أحياناً وزير آخر في منف التي كانت مركزاً لبعض وحدات الجيش والملاحة ، ومقراً لأولياء العهود . وشغل الوزارة في هذا العصر مدنيون ، وآخرون جمعوا بين الوزارة وبين رئاسة كهنوت آمون ، وزادت سلطة الوزير الأعلى في طيبة عما كانت عليه قبل عصر الدولة الحديثة ، وأصبح إشرافه على ولاة الأقاليم أعمّ وأكبر ، وكان له رسل ومندوبون يعملون كحلقة وصل بينه وبين المصالح الإقليمية ، ويقدّمون تقاريرهم لرؤسائهم ثلاث مرات في العام ، الأمر الذي قلّل من شأن الأسر الإقطاعية الكبيرة في حكم الأقاليم ، ومن ثم اتسعت تبعات الوزير في مقابل ذلك باتساع آفاق الموارد والاستثمارات والمسئوليات في شؤون الضرائب ، والزراعة ، والري ، والمنشآت ، وتنظيم الجيش والبحرية ، والأمور الخارجية ، في فترات الإنطلاق والإزدهار من هذا العصر(٢) .

وكان الوزير ، في عصر الدولة الحديثة ، بمثابة رئيس القضاة في البلاد كلها ، والمشرف على المجالس القضائية ، وكان مسئولاً عن الضرائب التي تُحصَّل من مصر ، وعن الجزية التي ترد من البلاد الأجنبية ، كما كان من واجباته الإشراف على الأعمال العامة ،

---

(١) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٩٨ وكذا
أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

(٢) عبد المنعم أبو بكر ، وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٢٥ – ص ١٢٧ وكذا
عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول ، مصر والعراق ، ص ٢٠٩ وكذا
نبيلة محمد عبد الحليم : المرجع السابق ، ص ٣٢٨ ، ص ٣٢٩ .

وجميع الصناعات في الدولة ، إلى غير ذلك من الأعمال ، حتى كان بحق " عماد البلاد كلها " حسب ما يرى الفرعون(١) .

ومن النقوش الهامة في عصر الدولة الحديثة التي تشير إلى أهمية الوزير في ذلك العصر ، نقوش رخميرع Rekh-mi-Re وزير تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق . م) ، حيث وجّه له الفرعون عدة نصائح عند تولّيه الوزارة ، وتعاليم الفرعون له بما ينبغي أن يتخلّق به خلال قيامه بها ، حيث قال له : ((تطلّع إلى منصب الوزير هذا وكن يقظاً لكل ما يحدث فيه ، فهو عماد الأرض كلها ، ولاحظ أنه ليس بالمنصب الهيّن ، ولكنه مُرّ المذاق ... وهو لا يعني (مجرد) تقدير الذات ، واحترام الرؤساء ، ورجال البلاط ، وليس الغرض منه أن يستعبد الوزير أفراداً من الشعب ... ، فإذا قصَدَكَ شاكٍ من الصعيد أو الدلتا ، أو من أي بُقعة في الأرض ، فعليك أن تتأكد من أن كل شيء يجري وفقاً للقانون والعُرْف . وامنح كل ذي حق حقه ... ، ولاحظ أن من يلي منصباً كبيراً يردّد الهواء والماء كل ما يفعله ولا يمكن أن تستمر تصرّفاته خافية ... ، تصرّف وفقاً للعدل ، فالمحاباة يمقتها الرب . وإليك نصيحة تتخلّق بها : عامل مَنْ تعرفه كما تُعامل من لا تعرفه ، وانظر إلى المقرّب إليك نظرك إلى البعيد عنك ... ، لا تُشِح بوجهك عن صاحب شكوى ، ولا تؤمن سريعاً على حديث مَن يحادثك ... ، لا تغضب على فرد بغير حق ، واقصر غضبك على مَنْ ينبغي الغضب منه . كن مهيباً يهابُك الناس ، والنبيل هو مَنْ يُجلّهُ الناس وتتأتّى مهابته إذا أَحقّ الحق ... ، ولكنه إذا أخاف الناس وأسرفَ في ترويعهم ، وكانت به نقيصة ، نزلوا به عن مصاف الرجال .

ولسوف تنجح في تحقيق الهدف من منصبك إذا نصرتَ الحق ، فالناس يتوقّعون العدل في كل تصرّفات الوزير ، وتلك سُنّة القضاء منذ حكم الرب على الأرض ... ، كن عنيفاً مع المتكبّر ، فالفرعون يُفضّلُ مَنْ يستحي على من يتكبّر ...))(٢) .

---

(١) نبيلة محمد عبد الحليم : المرجع السابق ، ص ٣٢٩ وكذا
جون ولسون : المرجع السابق ، ص ٢٨٥ .

(٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٠٩ وكذا
نبيلة محمد عبد الحليم : المرجع السابق ، ص ٣٢٩ وكذا
جون ولسون : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ وكذا
Wilson, J. A., " Documents From the Practice of Law - The Vizier of Egypt ", ANET, P.P. 212 - 213.

وعلى ذلك ، فقد كان الوزير يمثّل السلطة العليا لكل شيء حتى المعابد ، وكان يتقدّم كبار الكهنة . وفي عصر الدولة الحديثة اختار الفراعنة لمنصب الوزير شخصيات دينية مثل كبير كهنة آمون ، أو كبير كهنة بتاح ، مما يعني أن الوزير جمع في شخصهِ بين أعلى منصبين ديني ودنيوي[١] .

ثانياً – الكهنة :

مثلما نالت الديانة المصرية القديمة ، حظها القوي في حياة الشعب المصري القديم رويداً رويداً ، فإن سدنتها ، وهم الكهنة ، وصلوا بالتدريج أيضاً إلى مركزهم العالي . وقد كانت لهم ألقاباً كهنوتية ، منها : الـ" أوعب " بمعنى " الكاهن الطاهر " الذي كان يتحقق من زكاة حيوانات التضحية المذبوحة ، ويعلن أنها زكية ونظيفة[٢] .

ثم هناك وظيفة " خِري حب " أي " الكاهن المرتّل " أو بالمعنى الحرفي " الذي معه الطقوس " ، وكان يتولى تلاوة وترتيل كتبهم المقدسة التي يعتقدون من خلالها بوجود قوة سحرية مخبوءة في تلك النصوص الدينية القديمة ، رغم أن الناس كانوا يعتقدون – على الأقل في عصر الدولة الحديثة – أن الـ" خِري حب " كان ساحراً . وهذه القوة كانت تُعزى بصفة خاصة إلى " الكاهن المرتل الأول " للملك . بيد أن أكثر طبقات الكهنة ذيوعاً وانتشاراً كانت خدم الإله وهم الذين عُرفوا بالكهنة[٣] .

وفي عصر الدولة الحديثة أيضاً ، كانت هناك خمس طبقات بين موظفي أو خدم الإله ؛ الكاهن الأول والثاني والثالث ، والأب الإلهي ، والأوعب الذي كان يعمل أيضاً في المعبد كاهناً مرتّلاً[٤] . ومن بين الكهنة مَنْ تضاعف نفوذه حتى أصبح فرعوناً مثل أمنحُتب الرابع (١٣٦٧ – ١٣٥٠ ق . م)[٥] .

---

(١) نبيلة محمد عبد الحليم : المرجع السابق ، ص ٣٣٠ .

(٢) أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٣١١ .

(٣) المرجع نفسه ، نفس الصفحة ، وهامش (٣) .

(٤) سليم حسن ؛ وآخرون : تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني ، المجلد الأول – المظاهر الحضارية (١) الحياة الدينية وأثرها على المجتمع – الديانة المصرية القديمة وأصولها ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ م ، ص ٢٥٣ – ص ٢٥٤ وكذا
أدولف إرمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٣١٤ ، ص ٣١٥ .

(٥) محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ١٢٦ وكذا
لبيب عبد الساتر : المرجع السابق ، ص ١٢ .

وكان الكهنة العِظام في المعبد هم الذين يُسمح لهم بحضور كل الشعائر التي كانت تُقام للإله في قدس الأقداس . وهؤلاء الكهنة كانوا يُسمّون في المتون المصرية القديمة – كما ذكرت سابقاً – الكهنة آباء الإله (أي الملك) ثم الكهنة خَدَمة الإله . وقد أطلق الإغريق على الكهنة خَدَمة الإله اسم الأنبياء ، وذلك لأنهم كانوا – حسب اعتقادهم – يُترجمون ما ينطق به الوحي . وكان على رأس الكهنة آباء الآلهة رئيس هو الكاهن الأكبر ، ثم يأتي بعده الكاهن الثاني للإله ، وكانت وظيفته مساعداً ؛ إذ كان يعاون الكاهن الأكبر في أعماله ، وغالباً ما كان يحل محله في وظائفه الدينية ، كما كان ينفرد بإدارة جزء كبير من أملاك الإله صاحب المعبد ، فكان يدير بشكل خاص مصانع الإله وحقوله ، ويتسلم في الكرنك الجزية التي كانت تُحصَّل من البلاد الأجنبية التي كان يخصصها الملك لمعبد الإله[١].

وقد استطاع الكهنة ، نتيجة لتعاظم سلطتهم ، من تكديس الثروة ، والحصول على النفوذ ، خاصة كهنة آمون في الكرنك ، حيث أن معبد الآلهة في عصر الدولة الحديثة أصبحت فخمة ، وتمتلك ضياعاً واسعة ، بل وأصدر الفراعنة براءات بإعفاء المعابد وموظفيها من الواجبات المفروضة على المواطنين الآخرين ، وأصبحت مصر وعاتقها مثقل بأعباء الكهنة ، وأملاك المعابد ، التي كانت تتمتع بامتيازات خاصة ، وكان معنى ذلك أن الكهنة كان يهمهم أن تظل السيطرة المصرية على غيرها من الأمم الأجنبية ، بل كان يهمهم أن تتسع وتزداد[٢] .

لذلك كان لكبار الكهنة هيبة كبيرة في نفوس الناس ، واستطاعوا أن يُخضعوا سلطان الدين لكثير من التأويل والتعقيد ، بعد احتفاظهم بأسرار تعاليمهم الدينية ، وزعمهم القدرة على استخدام السحر[٣] . ونتيجة لذلك بسطوا سيطرتهم على جزء كبير من الأراضي الزراعية ، بينما كان جزء منها تحت سيطرة الدولة ، حيث لم يكن للنبلاء في عصر الأسرة التاسعة عشر أملاك خاصة كما كان سابقاً ، فغدوا طبقة اجتماعية متميزة انفردت في إدارة المعابد ، والتصرّف في أموالها ، والاستئثار بنذورها ، والاستحواذ على خيراتها[٤] .

---

(١) سليم حسن وآخرون : المرجع السابق ، ص ٢٥٣ .

(٢) جون ولسون : المرجع السابق ، ص ٣٠٤ ، ص ٣٠٥ .

(٣) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(٤) عبد المنعم أبو بكر وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٣٠ وكذا لبيب عبد الساتر : المرجع السابق ، ص ١٢ وكذا أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

ثالثاً – الموظفون :

كان أكبر موظف في البلاد بعد الملك ، هو كبير كهنة آمون في الكرنك ، ووزير الوجه القبلي ، ووزير الوجه البحري ، و" الابن الملكي لكوش " أو نائب الملك في النوبة . وكانت على شاغل الوظيفة الأخيرة ثلاث مسئوليات هي : حكم الامبراطورية الافريقية بإسم الفرعون ، ثم مسئوليته عن مناجم الذهب في النوبة ، وأخيراً قيادة الجيش في أفريقيا . أما مسئولية توسيع الامبراطورية في آسيا فكانت ملقاة على عاتق الفرعون نفسه ، وكثيراً ما كانت وظيفة نائب الملك يتولاّها أولياء العهد ليتمرّنوا فيها على الإدارة(١) .

وتجدر الإشارة إلى أنه في عصر الدولة الحديثة لم يعد الكهنة يستطيعون القيام بأعمال الإدارة وحدهم بل احتاجوا إلى جيش من الموظفين لمعاونتهم ، وهذا الأمر ينطبق على جميع المعابد ، وإن كان أشدّ انطباقاً بطبيعة الحال على معبد آمون بطيبة . فقد كان لهذا المعبود إدارة عامة " للبيت " أي لأملاك المعبد ، وكانت له إدارات خاصة للخزينة ، وللأراضي الزراعية ، ولمخازن الحبوب ، وللماشية ، وكان لكل إدارة من هذه الإدارات مشرف خاص بها يكون في غالب الأحيان من طبقة الأمراء ، ولفيف من الكتبة . وكان في معبد آمون أيضاً " كبير كُتّاب " عالي المقام ، يُناط به إمساك سِجلّ لأملاك المعبد . ولما كانت أعمال البناء والترميم في أحد معابد الدولة الحديثة الكبيرة لا تنقطع لزم المعبود أن تكون له إدارة مبانٍ خاصة به تُشرف على " جميع الأشغال " ، وتُعنى أيضاً بطبيعة الحال بالعدد اللازم من العمال والفنّيين من كل نوع ابتداءً من النّقاش حتى قاطع الأحجار . ولكي يُحتفظ بالنظام في المعبد وفي أملاكه كان للمعبود قوته العسكرية الخاصة به ، وفيها صغار الضباط وكبارهم . ولا يُعرف إلا القليل عن الهيئة الكبيرة لصغار الموظفين التي اقتضت هذه الأحوال الإدارية وجودها ، لأن هذه الطبقات توارت واختفت . ومع ذلك فقد ترك بعض الموظفين مثل " رئيس مخازن القرابين " و" حارسي الأبواب " من كل نوع ، و" الحلاقين " آثاراً تدل على أنهم كانوا يستمتعون بحياة لا بأس بها ، ومن الأشياء المميزة أن يكون في غالب الأحيان كبار موظفي المعبد هؤلاء في الوقت نفسه موظفين حكوميين(٢).

---

(١) عبد المنعم أبو بكر ، وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٢٧ – ص ١٢٨ وكذا نبيلة محمد عبد الحليم : المرجع السابق ، ص ٣٢٧ ، ص ٣٣١ وكذا جون ولسون : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ .

(٢) أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٣٢٣ – ص ٣٢٤ .

رابعاً – الكَتَبَة :

الكاتب شخص بالغ الأهمية في المجتمع المصري القديم ، نظراً لقلّة من يُتقنون الكتابة والحساب . والكتابة جهد متواصل ومراس طويل ، يوجب الكثير من الدقة والمران لفهم أوامر الفرعون ، وتنفيذ رغباته بحذافيرها . كذلك الكتابة أمرٌ يتوق إليه الجميع ، لما يفتحه أمام الفرد من مجالات الكسب والرّفعة ، فمن بين الكتبة يُهيّأ الكاهن أو الوزير أحياناً[١] .

ولأهمية الكتابة في مصر القديمة ، جعلوا لها معبودة هي سشات Seshat ، وقالوا عنها أنها ربة الكتابة والأساس في العقيدة المصرية القديمة ، وصوّروها على هيئة امرأة على رأسها ريشتان ، ونجمة مُحاطة بهلال[٢] .

وكان المصريون يُقدّرون التعليم ، بسبب التفوّق الذي يناله الرجال المتعلمون على غير المتعلمين في شؤون الحياة ، فكان التعليم بذلك هو الحد الذي يفصل بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة ، فمن انتظم في دراسات تعليمية وأصبح كاتباً فقد وضع بذلك قدميه على أول درجة في سُلّم التوظف ، وتفتّحت أمامه مناصب الدولة جميعها ؛ إذ كان يُعفى من جميع الأعمال البدنية والمتاعب التي كان على غيره أن يتعرّض لها . وكانت هذه المهنة (مهنة الكاتب) مهنة عظيمة ، وتجلب أدوات كتابته ، وملفات كتبه البهجة والثراء ، وكل ما كان يحتاج إليه يُعطاه من أملاك الملك فـ" الرجل المتعلم يشبع بسبب علمه " ، ومن أظهر نشاطاً ككاتب و لم يُهمل كتبه وصل إلى أعلى المراتب ، وعندما يُراد إيفاد سفير فإن اسمه يُذكر في البلاط ، و" الكاتب دون سواه هو الذي يدير أعمال جميع الناس ، ولكن إذا كان العمل في الكتب مكروهاً لديه فإن الحظ يتخلّى عنه " ، لذلك كان على العاقل الحكيم أن يظل مخلصاً للعلم[٣] .

وكان من يريد أن يكون كاتباً أو عالماً يُرسَل في وقت باكر إلى " بيت التعليم " أي المدرسة ، حيث كان " يتربّى مع أبناء الأمراء ، ويؤهل نفسه لأن يكون من هذه الطبقة " حتى ولو كان من الطبقات الدنيا[٤] .

---

(١) لبيب عبد الساتر : المرجع السابق ، ص ١٢ ، ص ١٤ .

(٢) محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ٣٤٩ .

(٣) أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٣٥٣ ، ص ٣٥٤ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٣٥٥ .

وخلال عصر الدولة الحديثة أيضاً احتاج توسّع الدولة المصرية إلى الاستزادة من عدد الكتّاب ، مما جعل مدارس إعداد الكتّاب مليئة بالنشاط لسدّ تلك الحاجة . وكان يتلقى تلاميذ المدارس ما يجعلهم يحيطون بالقطع الأدبية الخالدة ، وذلك بنقل بعض نصوصها . ومن الجائز أنهم خصّصوا في تلك المدارس وقتاً أكثر لما تتطلبه واجبات الوظيفة التي يتطلع إليها التلميذ الذي يريد أن يصبح كاتباً ، أو صرّافاً ، أو محرر خطابات ، لذلك كان التلاميذ يتعلمون نماذج من جميع أنواع المراسلات ، وضعوها لجميع الاحتياجات ، وفيها الصيغ المؤدبة التي يجب أن يستخدمها الناس في مخاطباتهم . ولم يكن هناك شيء أحب إلى المدرسين من تكرار القول بأن وظيفة الكاتب في الحكومة خير من أي عمل آخر(١) .

أما فيما يتعلق بالطبقة العامة ، فقد كانت تتكون من السواد الأكبر من الناس ، وخاصة الفلاحين ، والعمّال ، والعبيد والأرقّاء الأجانب ، وأصحاب الحرف الصغيرة كالنجّار ، والحلاّق ، والبستاني ، وصانع السهام ، وصغار التجار الذين يعملون في التجارة الداخلية ، والتي كانت تجارتهم محدودةٍ إلى حدٍ كبير(٢) . لذلك سأتعرّض لأهم عناصر هذه الطبقة .

أولاً – الفلاّحون :

لقد كان الكهنة – كما ذكرت آنفاً – يسيطرون على جزء كبير من الأراضي الزراعية ، والباقي يقع تحت سيطرة الدولة . وهذه الأراضي الزراعية يعمل فيها فلاّحون بسطاء ، وهم في نفس الوقت رقيق للعمل في الأراضي الزراعية(٣) . فعملهم هو كل ما يتوفر لهم من مداخيل ، ويقيمون على خدمة الطبقة العليا ، أو يرتبطون بسيّد الأرض ، مما يؤدي بهم إلى حياة الاستعباد أحياناً(٤) .

وكان الفلاح يقضي عمره كله كادحاً في الأرض والحقول ، يعيش حياته لحظة بلحظة ، مُهدَّداً غالباً بالمرض أو الجوع ، ومطوّقاً دائماً بمعتقدات خرافية تفوق معتقدات أسياده . ولكنه يتميّز عن أولئك الأسياد بأنه كان يملك حرّية الخروج على آداب المجتمع ،

---

(١) جون ولسون : المرجع السابق ، ص ٤١٧ .

(٢) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٣) أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

(٤) لبيب عبد الساتر : المرجع السابق ، ص ١٤ .

بالرغم من أنه كان يتمتع مثلهم بنفس العادات والأخلاق والتقاليد ، وهـذا ما أبقاه على نفس الحال دائماً على مدى العصور التاريخية[١] .

ورغم أن الفلاح ، كان يقوم بكل ما تتطلبه الزراعة ، وتربيـة الماشية ، من أعمال هامة شاقة إلا أنه لم يتمتع بأي تقدير لنصيبه منها ، بل كان يُعتبر في نظر أبناء جلدته كمخلوق بائس لا يستحق إلا الرحمة والرثاء . وهذه النظرة إلى الفلاح لم تكن نظرة أفراد قلائل بل كانت نظرة عامة[٢] . والدليل على ذلك ما سجّله أحد الكتّاب في خطاب وجّههُ إلى تلاميذه ، متحدثاً عن نصيب الفلاحين من الحياة ، وورد في هذا الوصف المؤلم : ((لقد سرق الدود نصف (الحبوب) ثم أكل فرس البحر النصف الآخر . هناك عدد لا يُحصى من الفيران تسعى فوق الحقول كما هبطت جحافل الجراد . أما الماشية فهي تأكل ، والعصافير تسرق ، ولكن واحسرتاه على الفلاّح ، فما بقي له من حبوب على أرض الجُرْن قد سرقها اللصوص ، كما نَفَقت ثيرانه من الدرس والحرث . ثم وصل الكاتب بسفينته إلى الشاطيء ، وهدفه أن يتسلّم المحصول ، وقد حمل موظّفوه عِصيّهم ، في حين أمسك الزنوج بمقارعهم وكلهم يقولون له : " اعطنا الحبوب " فإذا لم تكن هناك حبوب ضربوه وقيّدوه وقذفوا به في القناة فيغرق ... أما امرأته فهي تُقيّد أيضاً أمامه ، كما أن أولاده يُربطون ويتركهم جيرانهم ويولّون الأدبار ، ويسرعون لكي يحافظوا على حبوبهم (يضعوها في أمان)))[٣] .

وكان الفلاّحون يؤلّفون الغالبية العظمى من الشعب ، وقد كانوا فريقين : فريق يمتلك أرضه وحقله ، والفريق الآخر أجير عند فرعون ، بادئ ذي بدء ، ثم عند النبيل أو حاكم الإقليم ، حين شارك هؤلاء سيدهم في الغنيمة . أما الفريق الأول فهم يملكون أرضهم ، ولم يكونوا خاضعين إلا لأداء الضريبة المقررة عليها من قبل الدولة . وأما الفريق الثاني ، وهو الأكثر عدداً ، فقد كانوا مرتبطين بالأرض ، لا ينفكون عنها ، بحيث إذا انتقلت ملكيتها انتقلت معها تبعيتهم من المالك القديم إلى المالك الجديد ، ولكنه انتقال

---

(١) جون ولسون : المرجع السابق ، ص ١٤٠ - ص ١٤١ وكذا سيريل ألدريد : المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

(٢) أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٥١٣ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٥١٣ - ص ٥١٤ .

للذمة ، وليس للمُلْكية ، ذلك لأن القوم إنما كانوا أحراراً ، وأن الرق في جميع العصور الفرعونية لم يمتد إلى أية طائفة من سكان مصر ، وإنما كان ذلك من نصيب الأسرى دون سواهم(١) .

ولم يكن للفلاحين من الحرية ما لغيرهم من الأصناف الأخرى من الناس ، وإنما كانوا يعملون في مواسم الزرع ، ولا يُسرّ الفلاح بالفيضان ، فقد يتعرّض للسخرة أثناء ذلك ، فما إن تمتلىء الأحواض بالمياه ، وتتوقف الأعمال الزراعية حتى تقوم الدولة بحشد أعداد كبيرة من الفلاحين للعمل في المحاجر ، والمناجم ، وأعمال البناء ، وجميع المشروعات الحيوية والعمرانية العامة ، أو أعمال الري . وبرغم ما يسود هذا النظام من عيوب ، فقد كان من مزاياه أنه جعل الشعب عاملاً قوياً دؤوباً ، لا يعرف الملل ، ولا يركن إلى الراحة التي تدفع للناس عِللاً اجتماعية وبدنية ، كما أكسبه مهارة فنية كبيرة ونافعة(٢) .

لذلك كان حظ الفلاح في الحياة في العصور القديمة بمصر القديمة الإجهاد والإرهاق ، دون أن يستمتع بنتيجة عمله ، بل يقضي أيام حياته في بؤس مستمر ، دون أن يشفع له جهده ، فيرفع من سمعته لدى أبناء جلدته ، فإن أرادوا أن يصفوه ، لم يجدوا خيراً من أن يُشبّهوه بماشيته(٣) .

ثانياً – العمّال :

كان العمال يعملون في المناجم والمحاجر وغيرها ، وفي بناء الأهرامات والمقابر والمعابد ، وكانت الدولة هي التي تحتكر استغلال المناجم والمحاجر ، وهي التي تُشرف على العمال بطريقة تضمن العناية بهم ، والسهر على مصلحتهم . فكانت تُجنّد طوائف من العمال المختصين تحت إشراف رؤساء للعمال ومفتشين ، وتعمل على نقلهم تحت حماية جندها إلى مقر أعمالهم في الصحراوات المصرية(٤) .

---

(١) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ١١١ – ص ١١٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١١٤ وكذا
لبيب عبد الساتر : المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٣) أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٥١٤ .

(٤) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ١٠٥ وكذا
أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٦٠٣ .

وفي عصر الدولة الحديثة كان العمال يقومون في قطع المقابر في غرب طيبة ، وفي نقشها وزخرفتها وحراستها . وكان أولئك العمال مقسّمين إلى فريقين يُشرف عليهما ثلاثة من الرؤساء هما زعيما الفريقين ، وكاتب الجبّانة . وكان يرأس هؤلاء الرؤساء عمدة غرب طيبة (البر الغربي) الذي كان مسئولاً أمام وزير الوجه القبلي . أما أفراد هؤلاء الفريقين فكانوا يسكنون مع عائلاتهم في منازل[١] في الجبّانة ، وكانوا على الأرجح يقيمون داخل مناطق مسوّرة يحرسها البوّابون ورجال الشرطة . وكان يقيم مع العمال أشخاص لوضع الملاط على الجدران ، وآخرون لقطع الخشب ، وتشييد المباني ، وغسل الملابس ، وزرع الخضروات ، وصيد السمك ، ونقل المياه ، وكانت تُدفع لهم أجورهم غلالاً ، وتُصرف لهم شهرياً[٢] .

ثالثاً – الجنود :

إن حياة الجنود توصف بأنها حياة مرهقة ، لأن معظمهم من المشاة[٣] .

وفي عصر الدولة الحديثة ، بدأت الدولة المصرية في تكوين جيش منظم لها منذ عهد تحتمس الثالث (١٤٩٠ – ١٤٣٦ ق . م) ، خاصة وأنه صار لمصر حاميات في بلاد بعيدة[٤] .

ولكن هذا الجيش ، الذي كان يقوم بالحروب العظيمة للدولة الحديثة ، كان جزء صغير منه يُجمع في مصر ، في حين كان يتألف الجزء الأكبر منه من جنود مرتزقة . وكان الأمر على هذا الشأن في الأسرة التاسعة عشرة على الأقل ، ومن أمثلة ذلك جيش صغير من هذا العهد كان يتألف من ٣١٠٠ من الجنود المرتزقة من الخارج ، ومن ١٩٠٠ جندي مصري فقط ، وحتى ممن ذُكروا أخيراً لم يكونوا فرقة مصرية بالمعنى القديم ، إلا جزء منهم في الواقع ، وهو الذي حمل اسم " الجنود " المعتاد . أما الجنود الذين كان يُطلق عليهم " نعارين " فقد كانوا من الأنظمة المستحدثة المؤلَّفة على الطراز الأجنبي ، كما يرجّح ذلك اسمهم السامي ، وهو مشتق من " نعر " أي غلام . وقد نشأت فرقة " بيتي "

---

(١) انظر عن هذه المنازل وتخطيطها ، ومواقعها :
أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ١٨٠ – ص ١٩١ .

(٢) جون ولسون : المرجع السابق ، ص ٤٣٧ .

(٣) لبيب عبد الساتر : المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٤) جون ولسون : المرجع السابق ، ص ٣٠٧ .

التي يرد ذكرها كثيراً ، وهي " فرقة الرماة " كذلك من فرقة أجنبية ، ولإسمها علاقة ما باسم " الأقواس التسعة " الذي كان يُطلق منذ أقدم الأزمنة على القبائل المجاورة لمصر ، فقد جاء ذكر " شعب القوس " في أحد نصوص الدولة المتوسطة وقد " وفد على مصر من الخارج " لغرض سلمي ، وكان يتولى قيادة فرق الرماة هذه " رؤساء " من طبقات عالية متعلمة ، حيث كان أحد هؤلاء الرؤساء يتولى القيادة في بلاد النوبة ، في حين اتّخذ بعضهم مقرّه في حصون الحدود في شرق الدلتا ، وفي مراكز الآبار في جنوبي فلسطين ، وكثيراً ما كانوا يقيمون أيضاً في البلاد الأجنبية ، على أنه لم يكن من النادر استخدامهم أيضاً في مصر نفسها[١] .

ومما يدل على مدى الاستهانة بالجندي ، ما كتبه أحد الضباط الكبار في فرقة سائقي مركبات الفرعون ويدعى " امن – إم – ابي " من الأسرة التاسعة عشرة ، وكان يُسمّي نفسه " المبعوث الملكي لسائر البلاد الأجنبية ، رئيس البلاد والبلاد الأجنبية " ، وكان رجلاً سياسياً وقائداً عسكرياً ، ظهر من خلال ما كتبه ، أنه رجل متعلم يزدري من قلبه مهنة الجندي العادي " النّفْر " إذ سمح هذا القائد لتلميذه " بيبس " أن ينسخ إلى جانب رسائل الحكمة ، والنماذج المختارة من الشعر ، تحذيراً من " المهنة الشّاقّة لجندي من جنود المركبات "[٢] . وقد جاء في هذا التحذير ، أن أحد البؤساء استطاع في صباه بفضل خدمات جده أن يعمل في اصطبل الملك ، فيقول عنه :

((إنه يعدو ليمسك الخيل
في الحظيرة أمام جلالته
فإذا استقبل خيولاً أصيلة
فإنه يبتهج ويتهلل
ويعود بها إلى مدينته))[٣] .

وأكثر من هذا لا ينبغي أن يفكّر " بيبس " في أن يكون جندياً من المشاة ، أو " وعو " كما يسمّيه المصريون ، لأن هذا أتعس حالاً . ولتحذيره من هذه المهنة وضع " امن – إم – ابي " أمامه القصيدة التالية :

---

(١) أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٦٢٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦٣١ .

(٣) المرجع نفسه ، نفس الصفحة .

((يا للعجب ماذا يعني ما تقول :
الجندي أحسن حالاً من الكاتب ؟
تعال أقصُّ عليك حالة الجندي المُضْنى :
إنه يُؤتى به كطفل ...... ويُحجَز في ثكنة (؟)
ويتلّقى ضربة مؤلمة (؟) على بطنه ،
ويتلّقى ضربة شاجّة على حاجبيه ،
ورأسه مشجوج بجرح
وهم يطرحونه ويثخنونه كأنه ورقة بردي (؟) ،
حتى يتهدّم من الجَلْد .
تعال أقصُّ عليك عن سفره إلى سوريا
وعن سيره في الجبال
إنه يحملُ خبزه وماءه على كتفه ،
كحمل حمار ،
مما يجعل عنقه متصلّباً كعنق عير (أي حمار)
وتتقوّس فقار ظهره ،
وهو يشربُ ماءً آسناً .....
فإذا شارف على العدو
فهو كطائر مهيض (؟)
ليس في أعضائه قوة ما .
وإذا قُدّرت له العودة إلى بيته في مصر
فهو كالخشب الذي يأكله الدود
وهو مريض لا يسعه إلا الاستلقاء ،
فيُحمل على الحمار إلى وطنه ،
بينما تُسرق ثيابه ويهرب خادمه .
(لهذا) غيّر رأيك أيها الكاتب أنيبي
بسبب القول المأثور : (الكاتب أحسن حالاً من الجندي ؟)))[١] .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٦٣٢ - ص ٦٣٣ .

رابعاً – العبيد والرقيق الأجانب :

كان هذا الصنف من الناس في أدنى درجات المجتمع المصري القديم ، وكان مصدرهم أسواق الرقيق في النوبة ، أو أسرى الحرب الآسيويين ، بحيث يحتفظ الفرعون بأعداد ضخمة منهم ، حتى أنه قد يكافئ بعضاً من المقرّبين إليه بمنحه عدداً منهم[١] .

وكان كثير من الأرقّاء الأجانب يخدمون في قصر فرعون ، أو أرقّاء في ضياع المعابد ، أو أملاك النبلاء ، وكانوا يعيشون حياةً أفضل من حياة الفلاّح المصري ، فإذا كان ساعياً في أحد المكاتب الحكومية ، أو خادماً خاصاً لأحد النبلاء ، أو تابعاً في الحريم الملكي ، أو جندياً في احدى فرق المرتزقة ، فقد كان أمام الرقيق فرص كثيرة ليجعل من نفسه شخصاً لا يُستغنى عن وجوده[٢] . وكمثال على ذلك : أن هناك بعض الأرقام عن عدد الأرقاء الأجانب الذين كانوا يعملون في بعض المنشآت الحكومية ؛ ففي عهد رعمسيس الثالث (١١٨٢ – ١١٥١ ق . م) كان في أملاك معبد آمون ٢٦٠٧ " سوري وزنجي من أسرى جلالته " ، وكان في أملاك رع ٢٠٩٣ ، وفي أملاك بتاح ٢٠٥ . واستخدم رعمسيس الرابع (١١٥١ – ١١٤٥ ق . م) ثمانمائة من العابيرو أو الخابيرو في عمل من أعمال استخراج الأحجار ، ولابد أنه كان هناك عشرات الألوف من الأجانب المستعبدين في الجيش ، وفي المشاريع الحكومية ، وفي مصانع المعابد ، وفي ضياع الملك ونبلائه[٣] .

وكان الأجنبي أو الغريب في المجتمع المصري القديم يُنظَرُ إليه نظرة فيها نوع من الاحتقار ، خاصة إذا كان ذلك الأجنبي من الأمم الضعيفة ، وقد تمثّل هذا في تعريف المصري للمصريين بأنهم الرجال ، أو بني الإنسان ، وعرّفوا البدو بأنهم سكّان الصحراء ، أو سكان الرمال ، وعرّفوا أهل الجنوب بأنهم أهل كوش الخاسئين[٤] .

---

(١) لبيب عبد الساتر : المرجع السابق ، ص ١٦ وكذا
أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٣١٩ ، ص ٣٢٠ ، ص ٥٩٤ .

(٢) جون ولسون : المرجع السابق ، ص ٣٠٦ ، ص ٣٠٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٤١٠ .

(٤) محمد أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ٢١ ، ص ٢٢ .

ومن خلال ما سبق بيانه من تكوين المجتمع المصري القديم بصورة مختصرة ، يمكن القول : أن الأحوال الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الحديثة تتسم في سيطرة الدولة على جزء كبير من الأراضي الزراعية ، والجزء الآخر في يد الكهنة ، وأن تلك الأراضي كان يعمل فيها فلاّحون وأرقّاء ، وعلى ما يبدو لم يعد يوجد للنبلاء ضياع خاصة ، أو على الأقل في عصر الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ - ١١٨٤ ق . م) ، وأنه من الممكن أن تكون هناك طبقة متوسطة بين الطبقتين العليا والعامة ، تكوّنت من العمال والتجار ، ولكن لم يكن لهم شأن كبير يمكّنهم من أن يؤدّوا دوراً رئيساً في تقدّم بلادهم إلى جانب الكهنة ، والموظفين ، وغيرهم[١] .

وعلى هذا الأساس من تقسيم المجتمع المصري القديم إلى طبقات ، وأصناف متعددة ، يمكن فهم الحقائق الثابتة التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ **إنَّ فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شِيعاً يستضعفُ طائفةً منهم يُذَبّحُ أبناءَهم ويستحيي نساءَهم إنه كان من المفسدين** ﴾[٢] .

وهذه الآية تُشير بوضوح إلى أن فرعون جعل أهل مصر شيعاً مختلفة .

ومما ورد ي تفسير هذه الآية :

أن فرعون جعل أهلها شيعاً ((أي فِرَقاً يُشيّعونه على ما يريد ، ويطيعونه ، لا يملكُ أحدٌ منهم مخالفته . أو يُشيّع بعضهم بعضاً في استخدامه ، أو أصنافاً في استخدامه ، أو فِرَقاً مختلفة قد أغرى بينهم العداوة ليكونوا له أطوع))[٣] .

وجاء في تفسير هذه الآية أيضاً أن فرعون ((تكبّر وتجبّر وطغى (وجعل أهلها شيعاً) أي أصنافاً ، قد صرفَ كل صنف فيما يريد من أمور دولته))[٤] .

---

(١) أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ١٢٨ ، ص ١٢٩ .

(٢) سورة القصص ، الآية (٤) .

(٣) محمد بن عمر بن حسين الملقب بالإمام فخر الدين الرازي : التفسير الكبير ، ج ٢٤ ، الطبعة الثالثة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٢٢٥ .

(٤) الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي : تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٣٧٩ .

وبهذه السياسة التي اتّبعها فرعون ، الذي كان معاصراً لموسى عليه الصلاة والسلام ، يظهر بوضوح أن أساس حكمه لم يكن تساوي أفراد المجتمع في المعاملة ، ونيل حقوقهم بشكل متساوٍ ، بل جعل سياسته في البلاد المصرية تقوم على أساس تقسيم أهلها شيعاً وجماعات ، يخصُّ طائفة بالعناية والامتيازات ، ويتخذ منها قادته وحكامه على الأقاليم ، ويجعل طائفة أخرى مُستضعفة ذليلة ، ومغلوب على أمرها[١] .

وفي غمرة تلك الظروف ، أراد الله عز وجل أن يُقيم الحُجَّة على فرعون وملأه ، كما قال تعالى : ﴿ **لِئلاّ يكون للناس على الله حُجَّةٌ بعد الرُّسل** ﴾[٢] .

واقتضت مشيئته سبحانه وتعالى أن يُرسل إليه رسولاً ونذيراً ، وَلِيُخرجَ بني إسرائيل من العذاب المُهين الذي كانوا يُلاقونه على يدي فرعون ، فشاء سبحانه وتعالى أن يكون موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام رسولان كريمان لأداء الرسالة إلى فرعون وقومه ، وإلى بني إسرائيل .

---

(١) أبو الأعلى المودودي : فرعون في القرآن ، ترجمة وتعليق أحمد ادريس ، المختار الإسلامي للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٥ م ، ص ١٢٩ .

(٢) سورة النساء ، الآية (١٦٥) .

ثانياً : رسالة موسى عليه الصلاة والسلام وموقف أصحاب الفكر الديني المصري القديم منها .

مما لا شك فيه أن الله عز وجل أشار في كتابه العزيز إلى اسم موسى عليه الصلاة والسلام ورسالته ، حتى كان اسمه من أكثر أسماء الرسل الكرام ذكراً في القرآن الكريم ، حيث ورد ذكره ١٣٦ مرة[١] .

ومن أسباب كثرة ذكره في القرآن الكريم أنه أُرسل إلى فئتين من الناس ، كل منهما كان على جانبٍ كبير من العناد والقسوة والكفر ؛ ففئة فرعون وملأه وقومه كانت ممعنة في التكبر والطغيان ، ولهم آثارهم الباقية الدالة على قوتهم وبطشهم . وفئة بني إسرائيل التي استمرأت الذل والهوان ، والتبعية والاستضعاف لفرعون وملأه، ومواقفهم المختلفة مع رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام . لذلك أشار القرآن الكريم إلى سيرة موسى عليه الصلاة والسلام من عدة جوانب لما فيها من عِظات ودروس وعبر حريٌّ بها أن تُدرس[٢] .

كذلك فإن سيرة موسى عليه الصلاة والسلام ، نُقلت ودونت مشوّهةً ومحرّفةً ومزوّرة في أسفار التوراة ؛ بحيث أغفلت تلك الأسفار كل قيمة لمهمة الرسالة الربانية التي كُلّف بها موسى عليه الصلاة والسلام ، فجاءت الآيات القرآنية الكريمة تُطهّره من كل ما ألصق به كُتاب الأسفار التوراتية ، وما احتوته من تزييف وتحريف ، حتى في العقيدة الدينية ، حيث أظهرت الرب بصور التعدد والتشبيه والتجسيم[٣] .

قال تعالى : ﴿ **فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبرٍ أو جذوةٍ من النار لعلكم تصطلون** ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وهل أتاك حديث موسى • إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبسٍ أو أجد على النار هُدى** ﴾[٥] .

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، المكتبة الإسلامية ، اسطمبول ، ١٩٨٤ م ، ص ٦٨٠ .

(٢) فضل حسن عباس : القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته ، الطبعة الأولى ، دار الفرقان ، عمان ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٢٢٤ ، ص ٢٢٥ .

(٣) صابر عبد الرحمن طعيمة : التراث الإسرائيلي في العهد القديم وموقف القرآن الكريم منه ، دار الجيل ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص ٧٥٢ .

(٤) سورة القصص ، الآية (٢٩) .

(٥) سورة طه ، الآيتان (٩ ، ١٠) .

فبعد انقضاء الأجل ، الذي كان بين موسى عليه الصلاة والسلام وصهره في مدين في رعي الغنم ، سار موسى عليه الصلاة والسلام من مدين قاصداً مصر ، ومعه أهله ، فَضَلَّ الطريق .

قال ابن عباس رضي الله عنهما عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **لعلي آتيكم منها بقبس** ﴾[1] :

((ضَلّوا الطريق ، وكانوا شاتِين ، فقال : إن لم أجد عليها من يهدي الطريق آتِكم بنارٍ توقدون))[2] .

وقال ابن كثير[3] :

((بعدما قضى موسى الأجل ، الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم ، وسار بأهله ، قيل قاصداً بلاد مصر بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ، ومعه زوجته فأضلَّ الطريق ، وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلاً بين شعابٍ وجبال ، في بردٍ وشتاء وسحاب وظلام وضباب ، وجعل يقدح بزَنْدٍ[4] معه ليوري ناراً كما جرت له العادة به ، فجعل لا يقدح شيئاً ، ولا يخرج منه شرر ولا شيء ، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً ، أي ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه ، فقال لأهله يُبشرهم ﴿ **إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبسٍ** ﴾ أي شهاب من نار ، وفي الآية الأخرى

---

(١) سورة طه ، الآية (١٠) .

(٢) الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري ، ج ٤ ، ضبطه ورقمه ، وذكر تكرار مواضعه ، وشرح ألفاظه وجُمله ، وخرج أحاديثه في صحيح مسلم ، ووضع فهارسه ، مصطفى ديب البغا ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، دمشق ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، كتاب التفسير ، باب تفسير سورة طه ، ص ١٧٦٣ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص ١٤٣ .

(٤) الزّند : المِقْدَحة ، وكبا الزند يكبو : إذا لم تخرج ناره عند الإقتداح ، وأكبيته إذا عطّلته ، فلم تقدح به. وقيل : الزند هو العود الأعلى الذي تُقدح به النار ، والأسفل هو الزّندة ، جمعها زنادٌ ، وأزناد . انظر :
مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير : منال الطالب في شرح طوال الغرائب ، تحقيق محمود محمد الطناحي ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص ٣٤٧ وكذا
مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، ج ١ ، إخراج إبراهيم أنيس ، وعطية الصوالحي ، وعبد الحليم منتصر ، ومحمد خلف الله أحمد ، إدارة إحياء التراث الإسلامي ، قطر ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ٤٠٢ .

﴿ **أو جذوة من النار** ﴾ وهي الجمر الذي معه لهب ﴿ **لعلكم تصطلون** ﴾ دل على وجود البرد ، وقوله ﴿ **بقبسٍ** ﴾ دل على وجود الظلام ، وقوله ﴿ **أو أجد على النار هدى** ﴾ أي من يهديني الطريق ، دل على أنه قد تاه عن الطريق » .

وكانت هذه الليلة هي الليلة التي اختارها الله موعداً لما أراده الله عز وجل لموسى من الكرامة وهي النبوة والرسالة . فلما وصل إلى النار ، وجد الضياء في شجرة ولم يجد أثراً لاشتعال النار ، فدنا منها فتأخرت عنه ، فرجع عنها وأوجس في نفسه خيفة ، ولكنها عادت تقترب منه ، ثم سمع النداء الذي آنسه وأذهب عنه خوفه ووحشته وحيرته حيث كلمه ربه عز وجل[1] . وهو ما أشارت إليه الآيات الكريمة في قوله تعالى : ﴿ **فلما أتاها نودي يا موسى • إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادِ المقدس طُوى[2] • وأنا اخترتك فاستمع لما يُوحى • إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري • إن الساعة آتيةٌ أكاد أخفيها لتُجزى كلُّ نفسٍ بما تسعى • فلا يَصُدَّنك عنها من لا يؤمن بها واتّبعَ هواه فتردى** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدرٍ يا موسى • واصطنعتك لنفسي** ﴾[4] . قال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ **على قدرٍ** ﴾ على موعد[5] .

---

(١) محمد بن جرير الطبري : تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج ١ ، الطبعة الثالثة ، دار سويدان ، بيروت ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ، ص ٤٠٢ وكذا
علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١ ، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ١٠٠ .

(٢) طُوى : روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : " المقدس " أي المبارك ، " طوى " اسم الوادي . وقيل : هو اسم الوادي الذي حصل فيه المناداة . وقيل : إن ذلك جُعل إشارة إلى حالةٍ حصلت له على طريق الاجتباء ؛ فكأنه طوى عليه مسافةً لو احتاج أن ينالها في الإجتهاد لبعُد عليه . وقيل : هو اسم أرضٍ . وقيل : هو مصدر طويت بمعنى ناديته مرتين . انظر :
البخاري : المصدر السابق ، ج ٤ ، كتاب التفسير ، باب تفسير سورة طه ، ص ١٧٦٣ وكذا
الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن ، تحقيق نديم مرعشلي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ، ص ٣٢١ .

(٣) سورة طه ، الآيات (١١ - ١٦) .

(٤) سورة طه ، الآيتان (٤٠ ، ٤١) .

(٥) البخاري : المصدر السابق ، ج ٤ ، كتاب التفسير ، باب تفسير سورة طه ، ص ١٧٦٤ .

وقد ذهب بعض علماء التفسير[1] إلى أن موسى عليه السلام أُمر بخلع نعليه بالواد المقدس طوى لأسباب منها : ما ورد عن علي بن أبي طالب ، وأبو ذر ، وأبو أيوب ، رضي الله عنهم ، وغير واحدٍ من السلف ، أن نعليه كانتا من جلد حمار . وقيل : إنما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبيعة ، والله أعلم .

أو أن يكون ذلك من أجل أن تصيب بركة الأرض المقدسة قدميه[2] . أو سُمُوّاً بهذا المكان أن تُلبس فيه النعال ، وسُمُوّاً بموسى عليه السلام أن يكون في هذا الوقت لابساً نعليه ، حيث أكرمه الله برسالته[3] .

وقال تعالى : ﴿ **واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبيّاً • وناديناه من جانب الطور الأيمن وقرّبناه نجياً • ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً** ﴾[4].

يقول سيد قطب[5] :

« تدل هذه الآيات ، على فضل موسى عليه السلام ، بندائه من جانب الطور الأيمن (الأيمن بالنسبة لموسى إذ ذاك) ، وتقريبه إلى الله عز وجل لدرجة الكلام القريب في صورة مناجاة . ونحن لا ندري كيف كان هذا الكلام ، وكيف أدركه موسى .. أكان صوتاً تسمعه الأذن أم يتلقاه الكيان الإنساني كله ، ولا نعلم كيف أعدّ الله كيان موسى البشري لتلقي كلام الله الأزلي .. إنما نؤمن أنه كان ، وهو على الله هيّن أن يصل مخلوقه بطريقةٍ من الطرق ، وهو بشر على بشريته ، وكلام الله عِلوي على علويته ، ومن قبل كان الإنسان إنساناً بنفخةٍ من روح الله » .

---

(١) فخر الدين الرازي : المصدر السابق ، ج ٢١ ، ص ١٧ وكذا ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٤٣ .

(٢) عبد الحميد محمود مطاوع : موسى كليم الله عليه السلام ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٧ م ، ص ٤١ .

(٣) محمد الطيب النجار : تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ، الطبعة الثانية ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ١٨٩ .

(٤) سورة مريم ، الآيات (٥١ - ٥٣) .

(٥) في ظلال القرآن ، ج ٤ ، الطبعة الثانية عشرة ، دار القلم للطباعة والنشر ، جدة ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، ص ٢٣١٣ .

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز عن تكليف موسى عليه السلام بالرسالة السماوية في قوله تعالى : ﴿ **فلما أتاها نُودي يا موسى • إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى • وأنا اخترتك فاستمع لما يُوحى • إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري • إن الساعة آتيةٌ أكادُ أخفيها لتُجزى كل نفسٍ بما تسعى • فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى • وما تلك بيمينك يا موسى • قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى • قال ألقها يا موسى • فألقاها فإذا هي حية تسعى • قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى • واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوءٍ آيةً أخرى • لنريك من آياتنا الكبرى • إذهب إلى فرعون إنه طغى • قال رب اشرح لي صدري • ويسر لي أمري • واحلل عقدة من لساني • يفقهوا قولي • واجعل لي وزيراً من أهلي • هارون أخي • اشدد به أزري • واشركه في أمري • كي نُسبحك كثيراً • ونذكرك كثيراً • إنك كنت بنا بصيراً • قال قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **واصطنعتك لنفسي • اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا[2] في ذكري • إذهبا إلى فرعون إنه طغى • فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى • قالا ربنا إننا نخاف أن يَفرُط علينا أو أن يطغى • قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى • فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآيةٍ من ربك والسلام على من اتبع الهدى • إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى** ﴾[3] .

---

(١) سورة طه ، الآيات (١١ - ٣٦) .

(٢) ولا تنيا : قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى هذا التوجيه : لا تنيا : لا تضعُفا . انظر : البخاري : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٧٦٤ .

وهذا دليل على أن الله عز وجل قد دل موسى وهارون عليهما السلام على ما يتقوون به على عدوهم وهو مداومة ذكر الله عز وجل في السراء والضراء ؛ لأن ذكر الله سبحانه بمثابة الزاد للمؤمن يحتاج إليه في كل وقت من أوقاته . وبذلك يتحقق للمؤمن ما يصبو إليه ما بقي على طاعة الله عز وجل ، ومتبعاً لما أمره ، ومنتهياً عما نهاه .

(٣) سورة طه ، الآيات (٤١ - ٤٨) .

وقال تعالى : ﴿ فلما أتاها نُودي من شاطيء الـوادِ الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا ا لله رب العالمين ● وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جانٌ ولى مدبراً ولم يُعقّب يا موسى أقبِل ولا تخف إنك من الآمنين ● اسلُك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب[١] فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملأه إنهم كانوا قوماً فاسقين ● قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ● وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يُكذبون ● قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سُلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائتِ القوم الظالمين ● قوم فرعون ألا يتقون ● قال ربِ إني أخاف أن يكذبون ● ويضيق صدري ولا ينطلقُ لساني فأرسل إلى هارون ● ولهم عليَّ ذنبٌ فأخاف أن يقتلون ● قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون ● فأتيا فرعون فقولا إنا رسولا ربِ العالمين ● أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾[٣] .

ومن خلال هذه الآيات البينات ، يتبين التكليف الرباني لموسى عليه السلام وأخيه هارون عليه السلام برسالة السماء إلى فرعون وملأه ، وإلى بني إسرائيل . ويتبين أيضاً مدى العزم الذي عقده موسى وهارون عليهما السلام لتبليغ رسالة رب العالمين على الوجه الأكمل ، وهذه الآيات الكريمة ترد رداً قاطعاً ، وتؤكد كذب ما ورد في التوراة المحرّفة من اعتذار موسى عليه السلام ، عن القبول بالتكليف والدعوة ، وهو ما يُبيّن مدى افتراء كتبة الأسفار التوراتية على ا لله ورسله .

---

(١) الرهب : مخافة مع تحرز واضطراب . انظر :
الراغب الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٢٠٩ .

(٢) سورة القصص ، الآيات (٣٠ – ٣٥) .

(٣) سورة الشعراء ، الآيات (١٠ – ١٧) .
وانظر : سورة النمل ، الآيات (٧ – ١٢) .
سورة النازعات ، الآيات (١٥ – ٢١) .

جاء في التوراة : ((فقال موسى للرب استمع أيها السيد . لست أنا صاحب كلامٍ منذ أمسٍ ولا أولِ من أمسٍ ولا من حين كلّمت عَبْدَك . بل أنا ثقيل الفم واللسان . فقال له الربُّ مَنْ صنع للإنسان فماً أو من يصنعُ أخرسَ أو أصمّ أو بصيراً أو أعمى . أما هو أنا الرب . فالآن اذهب وأنا أكون مع فمك وأُعلِّمُك ما تتكلمُ به . فقال استمع أيها السيد . أرسل بيد من تُرسل . فحمي غضب الرب على موسى وقال أليس هارون اللاوي أخاك . أنا أعلم أنه هو يتكلم . وأيضاً ها هو خارج لاستقبالك . فحينما يراك يفرح بقلبه . فَتُكلِّمُه وتضعُ الكلمات في فمه . وأنا أكون مع فمك ومع فمه وأُعلِمُكما ماذا تصنعان . وهو يُكلّم الشعب عنك . وهو يكون لك فماً وأنت تكون له إلهاً . وتأخذ في يدك هذه العصا التي تصنع بها الآيات))(١) .

فالفقرات السابقة من سفر الخروج ، تُبيّن مدى ما ألحقه كتبة أسفار التوراة بموسى عليه السلام ، واتهامه بأنه طلب من ربه أن يُعفيه من الرسالة ، وأنه اعتذر عن ذلك بسبب ما في لسانه وفمه من ثِقَل ؛ حيث اشتد غضب الرب – حسب رواية السفر – على موسى عليه السلام . فهل يُصدّقُ عاقلٌ أن موسى عليه السلام يطلب من ربه إعفاءه من الرسالة؟! وهو نبي كريم امتن الله بها عليه ، وجعله في زمرة الرسل ومن أولي العزم الكرام ، الذين يُقدّرون نعمة الله عليهم باختصاصهم بالنبوة والرسالة . فمن غير الممكن التصور بأن منهم مَنْ يرفض إكرام الله عز وجل له ، أو أن يعتذر عن قبول ما كلفه الله به . هذا بالإضافة إلى أنه لا يمكن أن يكون موسى عليه السلام ثقيل الفم واللسان ؛ لأن الرسول مُكلفٌ بتبليغ رسالة ربه ، ودعوة الناس إلى الله عز وجل ، فكيف يستطيع ذلك إن كان في لسانه أو فمه شيء من الثقل ؟ والدعوة تحتاج إلى فصاحة اللسان وقوة البيان ؟ . فلاشك أن الله عز وجل اختار موسى عليه السلام لرسالته وهو أعلم به ، حيث كان مُعدّاً للرسالة ، وفصيحاً كل الفصاحة . إلا أن أخاه هارون عليه السلام كان أفصح من موسى عليه السلام ، كما ورد ذلك على لسان موسى عليه السلام نفسه : ﴿ **وأخي هارون هو أفصح مني لساناً** ﴾(٢) ، فكلاهما فصيح ، إلا أن هارون كان أكثر فصاحة من موسى ،

---

(١) سفر الخروج ٤ : ١٠ – ١٧ .

(٢) سورة القصص ، الآية (٣٤) .

وما طلب موسى مؤازرته بأخيه إلا لمصلحة الدعوة . وفوق ذلك فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يتحملون مشاق الدعوة إلى الله عز وجل ، وما يلاقونه من أذى الناس وصدّهم ، ابتغاء الأجر من الله عز وجل ، والثواب من عنده ، مهما تعرّضوا في سبيل ذلك من ابتلاءات ومحن ، بل ما يزيدهم ذلك إلا حرصاً على تبليغ رسالات ربهم عز وجل ، ولو كلفهم ذلك حياتهم في سبيل الله تعالى(١) .

وهكذا تم تكليف موسى عليه الصلاة والسلام بحمل الرسالة السماوية ، وتبليغها إلى فرعون وملأه ، علاوة على كونه رسولاً إلى بني إسرائيل . فامتثل الرسول الكريم لأمر ربه ، وتوجه إليه سبحانه يستمد العون منه ، ﴿ **قال رب اشرح لي صدري • ويسر لي أمري • واحلل عقدةً من لساني • يفقهوا قولي** ﴾(٢) . وحتى عندما كلفه الله عز وجل بالذهاب إلى فرعون وتبليغه الرسالة أحس موسى عليه السلام بعظم المهمة ، وفي نفس الوقت طغيان فرعون وجبروته قال تعالى : ﴿ **إذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري • اذهبا إلى فرعون إنه طغى(٣) • فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى • قالا ربنا إننا نخاف أن يفرُط علينا أو أن يطغى(٤)• قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى** ﴾(٥) . وأيضاً طلب موسى عليه السلام من الله عز وجل ، أن يكفيه شر فرعون ، ويدفع عنه ما قد يهم به مِنْ قتله،انتقاماً للذي قتله منهم من قبل ، وكان سبباً في فراره إلى مدين ، كما قال تعالى : ﴿ **ولهم عليَّ ذنبٌ فأخافُ أن يقتلون • قال كلا فاذهبا**

---

(١) محمد أبو النور الحديدي : عصمة الأنبياء والرد على الشُّبَه الموجهة إليهم ، مطبعة الأمانة ، القاهرة ، ١٩٧٩ م، ص ٢٠٩ – ص ٢١٠ .

(٢) سورة طه ، الآيات (٢٥ – ٢٨) .

(٣) الطغيان مجاوزة الحد في الضلال ، ففرعون طغى على الخالق بأن كفر به ، وطغى على الخلق بأن تكبر عليهم واستعبدهم ، وكما أن كمال العبودية ليس إلا صدق المعاملة مع الخالق ومع الخلق ، فكذا كمال الطغيان ليس إلا الجمع بين سوء المعاملة مع الخالق ومع الخلق . انظر :

فخر الدين الرازي : المصدر السابق ، ج ٣١ ، ص ٣٩ وكذا

مجد الدين ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ٢٧ ، ص ٥٦٧ .

(٤) يعنيان أن فرعون قد يبدر إليهما ويُعجل بعقوبةٍ لهما ، أو يعتدي عليهما ، فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك . انظر :

ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٥٤ .

(٥) سورة طه ، الآيات (٤٢ – ٤٦) .

بآياتنا إنا معكم مستمعون • فأتيا فرعون فقولا إنا رسولا رب العالمين • أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾(١) .

وقال تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام : **﴿ قال ربِ إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون • وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون • قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾**(٢) .

وقد أيد الله عز وجل رسوله بآياتٍ عظام تدل على صدق رسالته ، خاصة وأنه بُعث إلى حاكم اتصف بالطغيان والجبروت ، فكانت العصا التي تتحول إلى حية ، واليد التي تصير بيضاء من غير سوء ، معجزتين عظيمتين لموسى عليه الصلاة والسلام .

ومن خلال واقع الحياة المصرية القديمة ، أراد الله عز وجل بحكمته ، أن يؤيد رسوله موسى عليه الصلاة والسلام بنزول الآية والمعجزة ، بالصورة التي شاء الله عز وجل أن تتنزل بها ، لتتناسب في أمرٍ من واقع حياة الناس ، وما يدور في أذهانهم ، فتكون محققة في أعينهم على غير قاعدة ولا قياس لخارقٍ من الأعمال ، طالما فكّروا فيه وسمروا به ، وضربوا به في أغوار الوهم وتخيلوه ، حيث كانت أحاديث السِّحر والسَّحرة في الحياة المصرية القديمة منتشرة بشكل كبير ، وكان المصريون القدماء يُحبون أحاديث السحر وخوارق الأعمال ، لما تعلقت به أوهام الناس في العصور القديمة من خيالات يردونها إلى السحر(٣) .

وفي عصر الدولة الحديثة ، زاد اعتماد الناس على أنواع السحر المختلفة ، فقد زادت حالة عدم الطمأنينة ، بسبب تشوّق الناس إلى حماية أعظم تأتيهم من قوىً خارجية ، وولّى

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات (١٤ - ١٧) .

(٢) سورة القصص ، الآيات (٣٣ - ٣٥) .

(٣) أحمد عبد الحميد يوسف : مصر في القرآن والسنة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ص ١٠٤، ص ١٠٥ .

وانظر عن موضوع السحر عند المصريين القدماء واختلاطه بالدين :

سليم حسن ، وآخرون : المرجع السابق ، ص ٢٦٠ - ص ٢٦٣ وكذا

سامية حسن ساعاتي : السحر والمجتمع ، الطبعة الثانية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٣ م ، ص ٣١ - ص ٤٣ وكذا

حياة سعيد عمر با أخضر : موقف الإسلام من السحر ، المجلد الأول ، الطبعة الأولى ، دار المجتمع للنشر والتوزيع ، جدة ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م ، ص ٧٩ - ص ٩٢ .

الناس وجوههم نحو الأحجبة السحرية ، والتماثيل التي تقيهم الشرور – حسب اعتقادهم – ، وكانوا يقومون بطقوس منظمة عند قراءتهم للتعاويذ . انهم أرادوا أن يفعلوا شيئاً ، ضد ما كتبه عليهم قضاؤهم وقدرهم في الحياة ، بطلبهم من الآلهة أن يُعينوهم فيمدّوهم بعونٍ سحري ، إذ لم يعد للإنسان الثقة في أنه يمتلك في نفسه القوة الكافية[1] .

(١) جون ولسون : المرجع السابق ، ص ٣٨٩ .

موسى عليه السلام يتوجه إلى مصر ويدعو بني إسرائيل إلى الإيمان بالله تعالى :

لقد كان هارون في مصر قبل عودة موسى إليها من مدين ، فأوحى الله عز وجل إلى هارون يُبشره بقدوم موسى عليه السلام ، ويخبره أنه قد جعله وزيراً لأخيه ورسولاً معه إلى فرعون[(١)] .

وحسب رواية التوراة[(٢)] : ((وقال الرب لهارون إذهب إلى البرّية[(٣)] لاستقبال موسى . فذهب والتقاه في جبل الله وَقَبّلَهُ . فأخبر موسى هارون بجميع كلام الرب الذي أرسله وبكل الآيات التي أوصاه بها . ثم مضى موسى وهارون وجمعا جميع شيوخ بني إسرائيل فتكلم هارون بجميع الكلام الذي كلم الرب موسى به وصنع الآيات أمام عيون الشعب . فآمن الشعب . ولما سمعوا أن الرب افتقد بني إسرائيل وأنه نظر مَذَلّتهم خَرّوا وسجدوا)) .

ومن خلال النصوص السابقة من سفر الخروج ، يتبين أن بني إسرائيل آمنوا برسالة موسى عليه السلام ((فآمن الشعب)) . لكن من الواضح أن هناك تناقض صريح بين روايات التوراة في إيمان بني إسرائيل بموسى عليه السلام أو عدم إيمانهم ، فقد ورد في التوراة أيضاً : ((... ، لذلك قل لبني إسرائيل أنا الرب . وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وأنقذكم من عبوديتهم وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة . وأتخذكم لي شعباً وأكون لكم إلهاً . فتعلمون أني أنا الرب إلهكم الذي يخرجكم من تحت أثقال المصريين . وأدخلكم إلى الأرض التي رفعت يدي أن أعطيها لإبراهيم وإسحاق ويعقوب . وأعطيكم إياها ميراثاً . أنا الرب . فكلم موسى هكذا بني إسرائيل . ولكن لم يسمعوا لموسى من صِغَر النّفس ومن العبودية القاسية))[(٤)] .

---

(١) محمد علي الصابوني : النبوة والأنبياء ، الطبعة الثانية ، مكة المكرمة ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ١٧٦ – ص ١٧٧ .

(٢) سفر الخروج ٤ : ٢٧ – ٣١ .

(٣) ذهب أحد مفسري التوراة إلى أن الله عز وجل عندما أوحى إلى هارون بأن يذهب إلى البرية لاستقبال موسى ؛ إما أن الرب حدد له البرية التي أمره بالذهاب إليها ؛ وإما أنه هداه إليها بالإلهام ، فالتقاه عند جبل الله أي سيناء . انظر :

وليم مارش : كتاب السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم ، ج ١ ، مجمع الكنائس في الشرق الأوسط ، بيروت ، ١٩٧٣ م ، ص ٣١٨ .

(٤) سفر الخروج ٦ : ٦ – ٩ .

فالفقرة الأخيرة من النص السابق « لم يسمعوا لموسى من صغر النفس ومن العبودية القاسية » تفيد عدم إيمانهم بموسى ورسالته . فإما أن يكونوا قد آمنوا في بداية الأمر ، ثم ارتدوا بعد ذلك عن الإيمان ؛ وإما أن يكون هذا من التحريف الذي دخل على التوراة على أيدي كتبة الأسفار .

يقول أحد مفسري الأسفار[1] التوراتية عند هذه الفقرة :

« لم يسمعوا أي لم يُصدقوا موسى ، ولم يلتفتوا إلى كلامه ، فتغيّروا عما كانوا عليه في أول الأمر . ولم يكن ذلك من الأمور العجيبة لظهور سببه ، وذلك لـ" صغر النفس والعبودية القاسية " فرغم أنهم توقّعوا الفَرَج إلا أنهم ازدادوا ضيقاً لوهن نفوسهم ، وقلة صبرها ، وعجزها عن الاحتمال » .

إلا أن سياق الأحداث يدل على أن بني إسرائيل في بداية الأمر من دعوة موسى عليه السلام قد آمنوا به كرسول يدعو إلى الله عز وجل ، ولكنهم بعد موقف فرعون وعناده وكفره بما جاء به موسى عليه السلام ، تغير موقفهم خوفاً من بطش فرعون بهم .

ولكي يتم توضيح هذا الموقف ، لابد من بيان موقف فرعون وملأه ، من رسالة موسى عليه السلام ، ودعوتهم إلى عبادة الله وحده بلا شريك ، والإيمان بالله سبحانه وتعالى كإله للعالمين ، وهو الموقف الذي أثّرَ بشكل كبير على مدى استجابة بني إسرائيل أيضاً لرسول الله موسى عليه السلام .

---

(١) وليم مارش : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٢٥ .

دعوة موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون ، وموقف فرعون وملأه وقومه من الرسالة الربانية :

لقد فَصّلَ القرآن الكريم موضوع دعوة موسى عليه الصلاة والسلام ورسالته ، وتبليغ الدعوة الربانية لفرعون وآله من أهل دينه ، وقومه وأشياعه وأتباعه ، تفصيلاً كاملاً، بحيث يدرك المرء مدى عناد فرعون وكفره با لله عز وجل ، ورفضه لكل الآيات والنُّذر التي جاء بها رسول ا لله موسى عليه الصلاة والسلام .

قال تعالى : ﴿ **وما كان لنفسٍ أن تؤمن إلا بإذن ا لله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون • قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تُغني الآيات والنذر عن قومٍ لا يؤمنون** ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد جاء آل فرعون النُّذُر . كذّبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيزٍ مقتدر** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وقال موسى يا فرعون إني رسولٌ من رب العالمين • حقيقٌ على أن لا أقول على ا لله إلا الحق قد جئتكم ببينةٍ من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل • قال إن كنت جئت بآيةٍ فأت بها إن كنت من الصادقين • فألقى عصاه فإذا هي ثُعبان مبين • ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين • قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم • يريد أن يُخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون • قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين • يأتوك بكل ساحرٍ عليم** ﴾[٣] .

فموسى عليه السلام أخبر فرعون بأنه رسول من رب العالمين ، وقال له : أنا حقيق بأن لا أقول على ا لله إلا الحق ، بمعنى : جدير وواجبٌ وحقٌ عليَّ أن لا أقول إلا الحق ، وقد جئتكم ببرهان من ربكم يشهد أيها القوم على صحة ما أقول ، وصدق ما أذكر لكم من إرسال ا لله إياي إليكم رسولاً ، فأرسل يا فرعون معي بني إسرائيل . وحينئذٍ طلب فرعون من موسى أن يأتي ببيّنته وحُجّته الشاهدة على صدق ما يقول[٤] .

---

(١) سورة يونس ، الآيتان (١٠٠ ، ١٠١) .

(٢) سورة القمر ، الآيتان (٤١ ، ٤٢) .

(٣) سورة الأعراف ، الآيات (١٠٤ - ١١٢) .

(٤) محمد بن جرير الطبري : تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ، حققه وخرج أحاديثه محمود محمد شاكر ، راجع أحاديثه أحمد محمد شاكر ، ج ١٣ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٨ م ، ص ١٣ - ص ١٤ وكذا
الراغب الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ١٢٥ وكذا
ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ .

ومما هال فرعون واستعظمه قول موسى عليه السلام : ﴿ **إني رسول رب العالمين** ﴾(١) ، فقد روى الطبري(٢) بسنده عن ابن إسحاق ، قال : « خرج موسى لما بعثه الله عز وجل حتى قَدِمَ مصر على فرعون هو وأخوه هارون ، حتى وقفا على باب فرعون يلتمسان الإذن عليه ، وهما يقولان : إنا رسولا رب العالمين ، فآذِنوا بنا هذا الرجل . فمكثا ... حتى دخل عليه بَطّال(٣) له يُلعّبه ويُضحكه ، فقال له : أيها الملك ، إن على الباب رجلاً يقول قولاً عجيباً ، يزعم أن له إلهاً غيرك ، قال : أدخلوه ، فدخل ومعه هارون أخوه ، وبيده عصاه ، فلما وقف على فرعون قال له : ﴿ **إني رسول رب العالمين** ﴾ ، فعرفه فرعون فقال : ﴿ **ألم نُربّك فينا وليداً ولبثت فينا من عُمرك سنين • وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين • قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين** ﴾(٤) ، أي خطأً لا أريد ذلك . ثم أقبل عليه موسى يُنكر عليه ما ذكر من يده عنده ، فقال : ﴿ **وتلك نعمةٌ تَمنُّها عليَّ أن عبدت بني إسرائيل** ﴾(٥) ، أي اتخذتهم عبيداً تنزع أبناءهم من أيديهم ، فَتسترقّ مَنْ شئت ، وتقتل مَنْ شئت ... » .

قال تعالى : ﴿ **قال فرعون وما رب العالمين • قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين • قال لمن حوله ألا تستمعون • قال ربكم ورب آبائكم الأولين • قال إن رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون • قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون • قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين • قال أولو جئتك بشيءٍ مبين • قال فأت به إن كنت من الصادقين • فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين • ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين • قال للملأ حوله إن هذا لساحرٌ عليمٌ • يريد أن يُخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون • قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين • يأتوك بكل سحّار عليم** ﴾(٦) .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية (١٠٤) . وانظر : سورة طه ، الآيات (٤٧ - ٥٦) ؛ سورة الشعراء ، الآية (١٦) .
(٢) تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٤٠٥ - ص ٤٠٦ .
وانظر أيضاً :
ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٢ .
(٣) أي الساحر الذي يقوم بتسليته .
(٤) سورة الشعراء ، الآيات (١٨ - ٢٠) .
(٥) سورة الشعراء ، الآية (٢٢) .
(٦) سورة الشعراء ، الآيات (٢٣ - ٣٧) .

ففي هذه الآيات القرآنية الكريمة ، ردَّ موسى عليه السلام على فرعون كل مظاهر الشرك با لله عند المصريين القدماء ، وبيّنَ لفرعون وملأه أن لهذا الكون ربٌّ واحد وهو ا لله عز وجل الذي لا ينازعه أحدٌ في مُلْكه ، وأن كل ما يدين به المصريون فيما بين السموات والأرض من عبادة النجوم ، والكواكب ، والشمس والقمر ، والفضاء الخارجي ، والهواء ، وما بين المشرق والمغرب من معبودات يعبدونها من دون ا لله ، كل ذلك مخلوقات لله سبحانه وتعالى لا تضر ولا تنفع ، وأن ا لله عز وجل هو المستحق للعبادة ، وأنه المتفرد بالألوهية والربوبية ، وما فرعون إلا مخلوق من مخلوقات ا لله عز وجل الذي سيكون مصيره الموت والفناء في هذه الحياة الدنيا .

ولقد اشتملت رسالة موسى عليه السلام ودعوته على أصول الرسالات السماوية من التوحيد ، والعبادة لله تعالى وحده دون شريك ، وترك عبادة الأوثان ، وأرواح الموتى والملوك ، وغيرها من المعبودات ، والإيمان بالبعث والنشور بعد الموت ، والتأكيد على أمر الصلاة[1] .

وتجدر الإشارة إلى أن من الصعوبة بمكان الجزم بتحديد اللغة التي بلغ بها موسى عليه السلام رسالته إلى فرعون وقومه .

يقول أحد المؤرخين[2] في هذا الشأن :

« أننا لا نعرف معرفة يقينية اللغة التي بلغ بها موسى رسالته . ومهما يكن من شيء ، حتى على افتراض أنها العبرية ، فلاشك أنها كانت تختلف إختلافاً بيّناً جداً عن عبرية النص المقدس الذي بين أيدينا . فلابد أنه مع جمع نصوص العهد القديم العبري وكتابتها بيد عزرا ، حدث طوعاً أو كرهاً " تنسيق " لا في السياق فحسب بل في اللغة

---

(١) صلاح أبو إسماعيل : اليهود في القرآن الكريم ، دار الصحوة ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٠ ، ص ١٤ وكذا محمد ضياء الرحمن الأعظمي : اليهودية والمسيحية ، الطبعة الأولى ، مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٦٠ .

(٢) حسن ظاظا : الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه ، الطبعة الثانية ، دار القلم ، دمشق ، دارة العلوم والثقافة ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٢٥ - ص ٢٦ .

أيضاً . فبين موسى وعزرا[1] ما يقرب من ألف عام ، لاشك أن اللغة فيها ككل لغة في العالم تطورت تطوراً كبيراً » .

وأثناء نشأة موسى عليه السلام في بيت فرعون ، كان من المستبعد أن يتعلم لغة قومه العبريين ، لأن بيت فرعون في مصر كان من أبعد البيوت عن احتمال التفاهم باللغة العبرية ، أو بلغة شبيهة بها من لغات الساميين[2] .

غير أن من المعلوم بالضرورة ، أن موسى عليه السلام كان من بني إسرائيل ، وأن لغة قومه بني إسرائيل كانت تختلف عن اللغة المصرية التي يتكلم بها المصريون القدماء ، ونتيجة لنشأته في قصر فرعون فإنه لاشك قد تعلم اللغة المصرية القديمة وتكلّمَ بها ، ولكن ليس بالبراعة التي كان عليها في لغته الأم وهي العبرية ، فالثابت بنص القرآن الكريم أن أمه تولت تربيته في طفولته ، وكانت أيضاً مرضعته ومربيته ، فلابد أنها أنشأته عليه السلام على لغتها التي تتكلم بها ، وربما عاشت معه حتى هرب إلى مدين ، إذ لم يرد في القرآن الكريم ولا في الحديث النبوي الشريف ما يشير إلى أن أمه ماتت في تلك الفترة ، أو أنها أرضعته عامين مثلاً وتركت قصر فرعون . وعند عودته عليه السلام من أرض مدين بعد

---

(١) عزرا : هو الذي ورد اسمه في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود عُزيرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ سورة التوبة ، الآية (٣٠) . فهو " عزير " عند المسلمين . وكان عزراً موظفاً في بلاط الامبراطور الفارسي " ارتحشستا " ومستشاراً له في شؤون اليهود المقيمين منذ السبي البابلي في بلاد ما بين النهرين .

وقد تمكن عزراً من أن ينال عفو الامبراطور عن اليهود وسماحه لهم بالعودة إلى القدس . وكان عزراً معاصراً لـ" نحميا " في القدس . وعاد إليها في حوالي سنة ٤٥٨ ق.م أو ٤٥٧ ق.م . ويعتبره اليهود زعيماً لهم ، ومؤسس نُظم اليهودية المتأخرة التي وضعت في القرن الخامس قبل الميلاد ، ولقّبوه بالكاهن وبالكاتب ، وهو الذي جمع أسفار الكتاب المقدس – حسب اعتقادهم – ونظمها . أما تاريخ عزرا فقد ورد في سفر عزرا ، وجزء من أخباره في سفر نحميا . انظر :

نجيب ميخائيل إبراهيم : مصر والشرق الأدنى القديم ، الجزء الثالث ، الشرق الأدنى القديم – سورية ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٦ م ، ص ٤٦٩ – ص ٤٧٠ وكذا

بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٦٢١ وكذا

حسن ظاظا : المرجع السابق ، ص ٤٧ وكذا

Finegan , J . , Op . Cit . , P . 239 ;
Noth , M . , The History of Israel , SCM Press , London , 1983 , P . P . 312 note 1 , 318 - 320 , 331 .

(٢) حسن ظاظا : المرجع السابق ، ص ١٧ .

مرور عشر سنين ، ويبدو أن هذه الفترة ، كان لها تأثير ما على ما تعلمه من اللغة المصرية القديمة ، لانقطاعه عنها طوال تلك الفترة ، وعندما عاد وقد كلفه الله بالرسالة ، فمن المحتمل أنه بلغ رسالته لفرعون وقومه المصريين باللغة المصرية القديمة التي يعرفونها[١] .

وهناك رأي آخر له أهميته ، يذهب أصحابه[٢] إلى القول : أن توراة موسى عليه السلام هيروغليفية الأصل وليست عبرية ، وأن اللغة العبرية هي اللغة السامية الوحيدة التي لم تلازم بني إسرائيل منذ ظهورهم في التاريخ ، ولم يتكلموا بهذه اللغة إلا بعد دخولهم أرض كنعان ، واستيطانهم فيها ، ومخالطتهم سكانها الكنعانيين، ولا يعرف لهم لغة أصيلة، فقد كانوا قبل ذلك يتكلمون لغة الشعوب التي يَحلّون بينها ، فعندما كانوا يعيشون في منطقة النفوذ الآرامية تكلموا اللغة الآرامية ، وعندما كانوا في مصر تكلموا اللغة المصرية القديمة ، كغيرهم من العناصر البشرية التي استقرت فيها . وبالتالي فإن موسى عليه السلام عندما ولد في مصر ونشأ فيها تثقف بثقافة المصريين ، حتى أنه عندما خرج ببني إسرائيل من مصر ، كانت لغته هي اللغة المصرية القديمة ، فهو لم يدخل فلسطين ، وتوفي قبل ظهور اللغة العبرية إلى الوجود بأكثر من قرن من الزمان .

ويقول مصطفى كمال عبد العليم ، وسيد فرج راشد[٣] :

« ولسنا ندري على وجه اليقين ، إذا كانت عبرية هذه التوراة قد احتفظت بالسمات الأولى للعبرية التي كان يتحدثها موسى ، هذا إذا افترضنا أن موسى كان يتكلم العبرية ، أو بلغة سامية أخرى . ومن المعروف أن موسى خرج من مصر ولا توجد شواهد أو أدلة على وجود اللغة العبرية ، أو أية لغة سامية أخرى في مصر في هذا العصر .

---

(١) أبو الأعلى المودودي : المرجع السابق ، ص ١٦٠ (المترجم) .

(٢) فؤاد حسنين علي : التوراة الهيروغليفية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ م ، ص ٣ - ص ٥ وكذا

محمد عبد القادر محمد : الساميون في العصور القديمة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ م ، ص ٢٠٨ - ص ٢٠٩ وكذا

داود عبد العفو سنقرط : جذور الفكر اليهودي ، الطبعة الأولى ، دار الفرقان ، عمان ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م، ص ٦٤ وكذا

عبد الحكيم خير الدين ذا النون : المرجع السابق ، ص ٥٧ .

(٣) اليهود في العالم القديم ، الطبعة الأولى ، دار القلم والدار الشامية ، دمشق وبيروت ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م ، ص ١٤ .

وإذا كنا لا نعرف معرفة يقينية اللغة التي تلقى بها موسى الوصايا العشر ، وحتى على افتراض أنها العبرية ، فالذي لاشك فيه أنها كانت تختلف اختلافاً شديداً عن عبرية الأسفار الخمسة (التوراة))) .

وعلى أي حال ، فقد قام موسى عليه السلام بتبليغ رسالة رب العالمين لفرعون على أكمل وجه .

قال تعالى : ﴿ **ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملأه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين • فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إنّ هذا لسحرٌ مبين • قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحرٌ هذا ولا يُفلح الساحرون • قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين** ﴾[(١)] .

وفي هذه الآيات الكريمة يتبين موقف فرعون وملأه أيضاً من الصد عن دعوة الله ، وعدم التصديق بما جاء به موسى ، والاحتجاج بأن ذلك الذي جاء به موسى لم يكن في آباءهم ولا أجدادهم . وفي هذا الموقف تشابه كبير مع مواقف كثير من الأقوام السابقة من دعوات الرسل والأنبياء ، وكأن هذه الحجة - وهي التمسك بما كان عليه الآباء - هي سببٌ رئيس لرفضهم الاستجابة لما دعا إليه رسل الله الكرام ، كما قال تعالى : ﴿ **قالت رُسلهم أفي الله شكٌ فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجلٍ مسمى قالوا إن أنتم إلا بشرٌ مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطانٍ مبين • قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشرٌ مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطانٍ إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾[(٢)] .

ومن تلك المواقف التي أشار إليها القرآن الكريم ، موقف قوم عاد من رسول الله هود عليه السلام عندما قالوا له : ﴿ **قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾[(٣)] .

---

(١) سورة يونس ، الآيات (٧٥ - ٧٨) .
(٢) سورة إبراهيم ، الآيتان (١٠ ، ١١) .
(٣) سورة الأعراف ، الآية (٧٠) .

وقوم ثمود قالوا لنبيهم صالح عليه السلام : ﴿ **قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شكٍ مما تدعونا إليه مريب** ﴾[١] .

وقوم إبراهيم عليه السلام قالوا له : ﴿ **قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون** ﴾[٢].

وقوم مدين قالوا لنبيهم شعيب عليه السلام : ﴿ **قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾[٣] .

وهذه الحجة التي احتجت بها أقوام الرسل هي نفسها التي قالتها أيضاً قريش والعرب لمحمد ﷺ : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل ا لله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أوَلو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون** ﴾[٤] .

وقد عرض القرآن الكريم ، موقف فرعون وملأه من رسالة موسى عليه السلام ودعوته بصور شتى ، حتى أنه بيّن في بعض المواضع من السور الكريمة ، أدق التفاصيل لما كان يدور من أحداث في مواجهة موسى وهارون عليهما السلام لفرعون وملأه .

قال تعالى : ﴿ **ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى • قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى • فلنأتينك بسحرٍ مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى • قال موعِدُكم يوم الزّينة وأن يُحشر الناس ضحى • فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى** ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ **فلما جاءهم موسى بآياتنا بيناتٍ قالوا ما هذا إلا سحرٌ مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين • وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يُفلح الظالمون • وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلهٍ غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً[٦] لعلي أطلع إلى إله موسى**

---

(١) سورة هود ، الآية (٦٢) .

(٢) سورة الشعراء ، الآية (٧٤) .

(٣) سورة هود ، الآية (٨٧) .

(٤) سورة البقرة ، الآية (١٧٠) . وانظر : سورة المائدة ، الآية (١٠٤) ، سورة لقمان ، الآية (٢١) ، سورة الزخرف ، الآيتان (٢٢ ، ٢٣) .

(٥) سورة طه ، الآيات (٥٦ - ٦٠) .

(٦) الصرح : القصر أو البناء العالي الذاهب في السماء ، وسُمي بذلك اعتباراً بكونه صرحاً عن الشّوْب أي خالصاً . انظر :

الراغب الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٢٨٧ وكذا

مجد الدين ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ١٧٠ وكذا

المعجم الوسيط : ج ١ ، ص ٥١١ ، ص ٥١٢ .

وإني لأظنه من الكاذبين • واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يُرجعون ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب[٢] . أسباب السموات فاطّلعَ إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً وكذلك زُيّن لفرعون سوء عمله وَصُدّ عن السّبيل وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾[٣] .

وهنا لابد من مناقشة قضيتين مهمتين ، الأولى : قول فرعون لملأه ﴿ ما علمت لكم من إلهٍ غيري ﴾ وإدعائه هذه الألوهية . والثانية : الأمر ببناء الصرح أثناء محاجة موسى عليه السلام له .

أولاً : ادعاء فرعون الألوهية .

لقد كان موضوع " إلوهية فرعون " أمراً فاصلاً في عدم استجابة فرعون لدعوة موسى عليه السلام ، بل واستحالة أي تقارب بين موسى عليه السلام وفرعون ؛ فلا يوجد في تاريخ النبوات دعوة يتعرض صاحبها لزعم كذوب ممن أُرسل إليه على أنه إله للناس ، كما هو الحال بالنسبة لفرعون ، حيث كان فرعون في نظر المصريين القدماء إله حي على هيئة إنسان ، يتساوى مع غيره من آلهتهم الأخرى فيما لها من حقوق ، مما يجعل له الحق في الاتصال بهم ، ومن ثم كان على الشعب تقديم القداسة والمهابة له ، وبالتالي أصبح تأليه الفرعون في مصر يمثل عقيدة الدولة الرسمية ، وهي دعوى كذوب ظلت مثار جدل شديد بين الرسول الكريم موسى عليه السلام وفرعون[٤] .

قال تعالى في كتابه الكريم إخباراً عن فرعون : ﴿ قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾[٥] .

---

(١) سورة القصص ، الآيات (٣٦ - ٣٩) .

(٢) الأسباب : سُمي كل ما يتوصل به إلى شيء سبباً . والسبب الحبل ، وجمعها أسباب .
ومعنى قول فرعون هذا : أي لعلي أعرف الذرائع والأسباب الحادثة في السماء ؛ وهي مراقيها ونواحيها ، فأتوصل بها إلى معرفة ما يدعيه موسى . انظر :
الراغب الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٢٢٥ وكذا
المعجم الوسيط : ج ١ ، ص ٤١١ ، ص ٤١٢ .

(٣) سورة غافر ، الأيتان (٣٦ ، ٣٧) .

(٤) محمد بيومي مهران : مصر والشرق الأدنى القديم (٣) مصر : ص ٤٤١ ، ص ٤٤٢ .

(٥) سورة الشعراء ، الآية (٢٩) .

وقال تعالى : ﴿ **وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلـهٍ غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطّلِعُ إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **فكذب وعصى • ثم أدبر يسعى • فحشر فنادى • فقال أنا ربكم الأعلى** ﴾[2] .

قال فخر الدين الرازي[3] :

((الذي يخطر ببالي أن فرعون إن قلنا : إنه ما كان كامل العقل لم يَجُزْ في حكمة الله تعالى إرسال الرسول إليه ، وإن كان عاقلاً لم يَجُزْ أن يعتقد في نفسه كونه خالقاً للسموات والأرض ، ولم يجز في الجمع العظيم من العقلاء أن يعتقدوا فيه ذلك ، لأن فساده معلومٌ بضرورة العقل . بل الأقرب أن يُقال إنه كان دهرياً يُنكر وجود الصانع ، وكان يقول مدبر هذا العالم السفلي هو الكواكب ، وأما المجدي في هذا العالم للخلق ، ولتلك الطائفة والمربي لهم فهو نفسُه ، فقوله ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ أي مربّيكم ، والمنعم عليكم ، والمطعم لكم . وقوله ﴿ **ما علمت لكم من إلـهٍ غيري** ﴾ أي لا أعلم لكم أحداً يجب عليكم عبادته إلا أنا ، وإذا كان مذهبه ذلك لم يَبْعُد أن يقال إنه كان قد اتخذ أصناماً على صور الكواكب ، ويعبدها ويتقرب إليها على ما هو دين عبدة الكواكب ، حيث أمرهم بعبادتها وقال أنا ربكم الأعلى ورب هذه الأصنام)) .

وقول فرعون لقومه ﴿ **ما علمت لكم من إلـهٍ غيري** ﴾ يُفسره قوله الذي أخبر القرآن الكريم عنه : ﴿ **ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي مُلْك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تُبصرون • أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يُبين • فلولا أُلقي عليه اسورةٌ من ذهبٍ أو جاء معه الملائكة مقترنين • فاستخفّ قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾[4] .

---

(١) سورة القصص ، الآية (٣٨) .

(٢) سورة النازعات ، الآيات (٢١ - ٢٤) .

(٣) التفسير الكبير ، ج ١٤ ، ص ٢١١ . وانظر : ج ١٨ ، ص ٥٣ ، ص ٥٤ ؛ ج ٣١ ، ص ٤٢ وكذا ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٣٢ .

(٤) سورة الزخرف ، الآيات (٥١ - ٥٤) .

وفي قوله تعالى : ﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه** ﴾ دليل على أن القوم كانوا فاسقين ، إذ أنهم أطاعوا فرعون عند طلبه منهم الخِفّة في الإتيان بكل ما كان يأمرهم به ، لذلك استجهل قومه لخفة أحلامهم ، وقلة عقولهم فأطاعوه بما يأمرهم . وربما يُحمل المعنى على أنه استفزهم بالقول وقهرهم حتى اتبعوه ، فأطاعوه على التكذيب(١) .

ففرعون كان يوازن بين ما هو فيه من مُلْكٍ ، وما يُحلّى به من أسورة الذهب ، وبين ما فيه حال موسى من تجرّد من السلطان والزينة ، فهو – باعتقادهم – الحاكم المسيطر الذي يُسيرهم كما يشاء ، ويتبعون كلمته بلا معارض ، مما يُفيد أن الحاكمية على هذا النحو إلوهية ؛ لأن الإله هو الذي يُشرّع للناس ويُنفذ حكمه فيهم ، سواءً قالها أم لم يقلها(٢) .

وقول فرعون ﴿ **فلولا أُلقيَ عليه أسورةٌ من ذهب** ﴾ يبين ويكشف عن نفسيته وتعاليه عن دعوة الحق ، وتباهيه بالذهب والمال والجاه ، فلا يملأ عين الكبراء ، ولا يَعظُم في نفوسهم غير بريق الذهب ، وأبّهة السلطان(٣) .

وفيما يتعلق بإشارة القرآن الكريم إلى اتخاذ فرعون نفسه آلهةً يعبدها ، وفي نفس الوقت يدعي أنه إلههم الوحيد ، تجدر الإشارة إلى عدم وجود تعارض أو تناقض في آيات القرآن الكريم ، ولا يمكن أن يخطر ببال المسلم شيءٌ من ذلك . فقوله تعالى : ﴿ **وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون** ﴾(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ **وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ...** ﴾(٥) .

كل ذلك يدل على ادعاء فرعون الألوهية والربوبية . ولدرء ما قد يبدو للقارئ ، بوجود شيء من اللّبس في فهم الآيتين الكريمتين لابد من تقرير الأمر السابق الذكر ، وهو عدم وجود أيّ تعارض أصلاً في القرآن الكريم .

---

(١) فخر الدين الرازي : المصدر السابق ، ج ٢٧ ، ص ٢١٩ وكذا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الثامن ، ج ١٦ ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٦٨ .

(٢) سيد قطب : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٣٥٤ .

(٣) التهامي نقرة : سيكولوجية القصة في القرآن ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ١٩٧٤ م ، ص ٢٧٢ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية (١٢٧) .

(٥) سورة القصص ، الآية (٣٨) .

قال الطبري[١] عند تفسيره للآية من سورة الأعراف :

((أي أتذر موسى وقومه ليُفسدوا في الأرض ، وقد تركـك وتـرك عبـادتك وعبـادة آلهتك)) .

وقال القرطبي[٢] :

((قال الحسن : كان فرعون يعبد الأصنام . فكـان يَعبـد ويُعبـد . وقـال سـليمان التيمي : فقلت للحسن : هل كان فرعون يعبد شيئاً ؟ قال نعم ؛ إنه كان يعبد شـيئاً كـان قد جُعل في عنقه . وقيل : معنى " وآلهتك " أي وطاعتك ، كما قيل في قوله : ﴿ **اتخـذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون ا لله** ﴾[٣] أنهم مـا عبدوهـم ولكـن أطـاعوهم ؛ فصـار تمثيلاً ... وقال الزّجاج : كان له أصنام صغار يعبدها قومه تقرباً إليه فنسـبت إليـه ؛ ولهـذا قال : ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ . قـال إسمـاعيل بـن إسـحاق : قـول فرعـون ﴿ **أنـا ربكـم الأعلى** ﴾ يدل على أنهم كانوا يعبدون شيئاً غيره .... وقيل : أرادوا بها الشمس وكـانوا يعبدونها)) .

وقال ابن كثير[٤] عند تفسيره للآية من سورة الأعراف :

((يعنون قبحهم ا لله أن دعوته إلى عبادة ا لله وحده لا شريك له ، والنهي عن عبـادة ما سواه فسادٌ بالنسبة إلى اعتقاد القبط لعنهم ا لله ، وقرأ بعضهم ﴿ **ويذرك وآلهتك** ﴾ أي وعبادتك ، ويحتمل شيئين : أحدهما : ويذر دينك ، ... الثاني : ويذر أن يعبدك فإنه كان يزعم أنه إله لعنه ا لله)) .

ويعلق سيد قطب على نفس الآية السابقة بقوله[٥] :

((... فالإفساد في الأرض – من وجهة نظرهم – هو الدعوة إلى ربوبية ا لله وحـده، حيث يترتب عليها تلقائياً بطلان شرعية حكم فرعون ونظامه كله . إذ أن هذا النظام قائمٌ

---

(١) تفسير الطبري ، ج ١٣ ، ص ٣٧ . وانظر :
مجد الدين ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ١٤٨ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الرابع ، ج ٧ ، ص ١٦٧ . وانظر :
محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار ، ج ٩ ، الهيئة المصرية العامـة للكتـاب ، القـاهرة ، ١٩٧٢ م – ١٩٧٣ م ، ص ٦٩ .
(٣) سورة التوبة ، الآية (٣١) .
(٤) تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ .
(٥) في ظلال القرآن ، ج ٣ ، ص ١٣٥٤ .

على أساس حاكمية فرعون بأمره – أو بتعبير مرادف على أساس ربوبية فرعون لقومه – وإذن فهو – بزعمهم – الإفساد في الأرض ، بقلب نظام الحكم ، وتغيير الأوضاع القائمة على ربوبية البشر للبشر ، وإنشاء وضع آخر مخالف تماماً لهذه الأوضاع ، الربوبية فيه لله لا للبشر . ومن ثم قرنوا الإفساد في الأرض بترك موسى وقومه لفرعون ولآلهته التي يعبدها هو وقومه)) .

لذلك فلا يوجد أي تعارض بين الآية ١٢٧ من سورة الأعراف ، والآية ٣٨ من سورة القصص ، لأن آلهة فرعون التي ذكرتها سورة الأعراف قد نصبها فرعون لتأكيد ألوهيته هو ، وهي بمثابة التهيئة لمن يدخل عليه ، فلا يليق بداخل عليه أن يدخل من أول الأمر ، بل عليه أن يمر على تلك الآلهة التي صنعها خصيصاً لنفسه لتُهيء الداخلين عليه لملاقاته . فقوله تعالى ﴿ **وآلهتك** ﴾ تفيد معنى المخصوصة بك ، والتي تُهيء بها رعيتك لقبول إلوهيتك ، لأنها كانت آلهة جامدة لا تسمع ولا تُبصر ، فإذا سَلّم لها من مر عليها بالإلوهية كان تسليمه بإلوهية فرعون ألزم ؛ لأنه يسمع ، ويُبصر ، ويتكلم ، ويُعطي ويمنع ، باعتباره بشراً ، زوّده الله تعالى بما يمكنه من القيام بذلك[١] .

فلم تكن إلوهية الفرعون تعني أنه خالق الكون ومدبره ، أو أن له سلطاناً في عالم الأسباب الكونية ؛ وإنما كان يدعي الإلوهية بمعنى أنه حاكم هذا الشعب بشريعته وقانونه، وبإرادته تُقضى الأمور ، فكانت عبادتهم إياه بمعنى خضوع الناس وطاعتهم ، والإنقياد لأمره في كل شيء ، لا يعصون له أمراً ، ولا ينقضون له شرعاً ، بعد أن تَغفّل بقوله ذلك بسطاء العقول ، وصغار الأحلام ، رغم يقينه بصدق موسى عليه الصلاة والسلام في دعوته ، وأحقيته فيما يقول ويدعو إليه[٢] .

---

(١) عادل محمد صالح أبو العلا : ((الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف)) ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، قسم الكتاب والسنة ، كلية الدعوة وأصول الدين ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٩ هـ ، ص ٣٠٤ – ص ٣٠٥ .

(٢) محمد أحمد العدوي : دعوة الرسل إلى الله تعالى ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م ص ٢٧٣ وكذا

سيد قطب : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٣٥٣ وكذا

محمد بيومي مهران : مصر والشرق الأدنى القديم (٥) الحضارة المصرية القديمة ، ج ٢ ، ص ١٢٧ – ص ١٢٨ .

وهذا يدل ، على أن إدعاء فرعون إلوهية نفسه ، وربوبيتها ، كان بالمعنى السياسي لا الديني ، بحيث يترسخ في أذهان الناس ، أن فرعون هو صاحب السلطة العليا ، والحاكم المطاع والمطلق ، فلا حق لغيره أن يتولى الحكم في الدولة ، وأن لا سُلطة فوق سلطته يمكن أن يُطاع أمرها[١] .

ثانياً : الأمر لهامان ببناء الصّرح .

لما شعر فرعون بتشديد موسى عليه السلام على قضية الإيمان با لله عز وجل والوهيته وحده سبحانه ، وخاصة أن فرعون كان في ملأٍ من قومه ؛ أحسّ بأن ذلك يُضعِفُ من هيبته ، ويحطّ من قدره ، فأصدرَ أمره إلى وزيره هامان بأن يبني له صرحاً ، أي قصراً عالياً ، ليطّلع من فوقه على إله موسى . قال تعالى إخباراً عن فرعون : ﴿ **وقال فرعونُ يا أيها الملأ ما علمتُ لكم من إلهٍ غيري فأوقد لي يا هامان على الطّين فاجعل لي صرحاً لعلّي أطّلعُ إلى إله موسى وإنّي لأظنّهُ من الكاذبين** ﴾[٢] . وقال تعالى : ﴿ **وقال فرعونُ يا هامان ابن لي صرحاً لعلّي أبلغُ الأسباب • أسباب السماوات فأطّلع إلى إله موسى وإنّي لأظنّهُ كاذباً وكذلك زُيّن لفرعونَ سوءُ عمله وصُدَّ عن السبيل وما كيدُ فرعونَ إلاّ في تباب** ﴾[٣] .

وهناك روايات تاريخية أوردتها المصادر الإسلامية[٤] تفيد بأن هامان كان أولُ من طبخَ الآجر من أجل أن يبني الصّرح الذي أمر به فرعون . رغم أن هناك رواية تاريخية[٥]

(١) أبو الأعلى المودودي : المرجع السابق ، ص ١٠١ ، ص ١٦٥ .

(٢) سورة القصص ، الآية (٣٨) .

(٣) سورة غافر ، الآيتان (٣٦ ، ٣٧) .

(٤) انظر :

الطبري : تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٤٠٥ وكذا

الحسن بن عبد الله بن سهل المعروف بأبي هلال العسكري : الأوائل ، تحقيق وليد قصّاب ومحمد المصري ، القسم الثاني ، الطبعة الثانية ، دار العلوم ، الرياض ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ص ١٧١ وكذا

ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٤ وكذا

جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي : الوسائل إلى معرفة الأوائل ، تحقيق إبراهيم العدوي ، وعلي محمد عمر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ١٤٦ .

(٥) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق Charles , C. T. ؛ مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٣٠ م ، أعادت طبعه مكتبة المثنى ، بغداد ، ص ٢١ .

تفيد أيضاً بأن الله عز وجل شغَلَ فرعون بالآيات التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام فلم يستطع هامان أن يبني له الصّرح .

وأكبر الظنّ أن فرعون بأمره هذا ، لم يكن من الجهل ، بحيث أنه يأمل أن يصل إلى السماء من خلال ذلك الصرح ؛ ولكنه أراد بفعلته تلك السُّخرية من موسى عليه السلام ، والاستخفاف بقومه حتى يعتقدوا بقدرته على ذلك بصفتهِ إلههم كما يعتقدون(١) .

فلو كان عند قوم فرعون تفكير سليم ، وجُرأة وشجاعة لقالوا لفرعون عند ذلك : لِمَ نُجهِدُ أنفسنا بالبناء ما دمتَ على يقين أن ليس هناك إلهٌ غيرُك ، ولكنه الإخلاد إلى الأرض يجرّد الذين رضوا بالاستضعاف والذلّ من مقوّمات الإنسانية الكريمة(٢) .

يقول سيد قطب(٣) :

((وبعيدٌ عن الإحتمال أن يكون هذا فهم فرعون وإدراكه ، وبعيد أن يكون جادّاً في البحث عن إله موسى على هذا النحو المادي الساذج . وقد بلغ فراعنة مصر من الثقافة حدّاً يَبْعُدُ معه هذا التّصور . إنما هو الاستهتار والسخرية من جهة ، والتظاهر بالإنصاف والتثبّت من جهة أخرى . وربما كانت هذه خطّة للتراجع أمام مطارق المنطق المؤمن في حديث الرجل المؤمن ! وكل هذه الفروض تدل على إصراره على ضلاله ، وتبجّحه في جحوده ...)) .

وعلى أي حال ، فموقف فرعون هذا يشير إلى أن شخصيّته قد اتّسمت بصفات الطغيان ، والتكبّر ، والغرور ، والمكابرة في الحق ، فكان مُعتزاً بقوّته الغاشمة التي بين يديه ، والثروة الطائلة التي ينعُم بها في ترفٍ وإسراف ، والسلطان المادي الذي يرتكز عليه ، فاسترهب الناس بالقوة والبأس ، وتسلّط عليهم بالبطش والطغيان ، علاوة على كبريائه في إدّعائه الربوبية ، وإعراضهِ عن اتّباع الحق ، رغم الآيات الربّانية العظيمة التي شاهدها أمام ناظرَيه(٤) .

---

(١) فخر الدين الرازي : المصدر السابق ، ج ٢٤ ، ص ٢٥٣ وكذا
عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ، الطبعة الثالثة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ١٨٥ – ص ١٨٦ .

(٢) فضل حسن عباس : المرجع السابق ، ص ٢٥١ .

(٣) في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص ٣٠٨٢ .

(٤) التهامي نقرة : المرجع السابق ، ص ٣٦٩ – ٣٧٠ .

وقد ذهب أحد المؤرخين[١] إلى أن أكبر الظن ، أن المفسّرين عندما أوردوا في مؤلّفاتهم أن هامان كان أول من عَمِلَ الآجر ، كانوا يستندون في ذلك إلى طائفة من الخبر الصحيح كانت بين أيديهم ، وإن اختلط ذلك ببعض الأوهام . ولقد عَثر عالم الآثار الانجليزي بتري على طائفة من غير مألوف المصريين من الآجر المحروق ، بُنيت به قبور، كما أُقيمت به بعض من أسس المنشآت تعود إلى عصر الأسرة التاسعة عشر (١٣٠٨ - ١١٨٤ ق . م) في عهود كل من رعمسيس الثاني ومرنبتاح وسيتي الثاني ، وكان عثوره عليها في نبيشه ودفنه غير بعيد من عاصمتهم " بر - رعمسيس " في شرق الدلتا . وقال بتري في ذلك : إن حرق اللّبن قد ظلّ نادراً حتى عصر الرومان . وهو قول لا يكاد يخالف قول المفسّرين من بدء اتّخاذ الآجر المحروق على عهد فرعون موسى . وهو كذلك من قرائن القرآن الكريم ، التي يمكن الاطمئنان إليها في تحديد عصر خروج بني إسرائيل من مصر ، في عصر الأسرة التاسعة عشر التي بدأت - كما مر سابقاً - تصنع في بنائها الآجر من الطين المحروق .

ويعرض القرآن الكريم أيضاً صور أخرى لموقف فرعون وملأه من رسالة موسى عليه السلام ، فقد أخبر سبحانه وتعالى عن عزمهم على تقتيل المؤمنين برسالة موسى عليه السلام ، بل وحتى محاولتهم قتل موسى نفسه . قال تعالى : ﴿ **وقال الملأُ من قوم فرعون أتذرُ موسى وقومه ليُفسدوا في الأرض ويَذَرك وآلهتك قال سنُقتّل أبناءَهم ونستحيي نساءَهم وإنّا فوقهم قاهرون • قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها مَنْ يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبين • إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحرٌ كذّاب • فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال • وقال فرعونُ ذروني أقتلْ موسى وليدعُ ربّه إني أخاف أن يُبدّل دينكم أو أن يُظهر في الأرض الفساد • وقال موسى إني عُذتُ بربي وربّكم من كلّ متكبّرٍ لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾[٣] .

(١) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ١٣٧ - ص ١٣٨ .
(٢) سورة الأعراف ، الآيتان (١٢٧ ، ١٢٨) .
(٣) سورة غافر ، الآيات (٢٣ - ٢٧) .

وكان هذا الذبح للأبناء من الذكور في بني إسرائيل قد ارتكبه فرعون قبل ولادة موسى عليه السلام ، حسب ما مرّ سابقاً ، وحسب ما بيّنتْهُ سورة القصص ، الآيات ٣ – ٥ . فأراد فرعون أن يوقع مقتلةً أخرى ، وتذبيح آخر بدافع الإنتقام ، وإدخال الخوف والرهبة في نفوس المؤمنين بما جاء به موسى عليه السلام من الرسالة السماوية .

وقد خصَّ الله سبحانه وتعالى فرعون وهامان وقارون بالذّكر في الآية ٢٣ من سورة غافر ، لأن مدار التدبير في عداوة موسى كان عليهم ، ففرعون الملك ، وهامان الوزير ، وقارون صاحب الأموال والكنوز ، فجمعه الله معهما ، لأن عمله في الكفر والتكذيب كأعمالهما[١] .

قال ابن كثير[٢] :

((وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنما كان على وجه الإهانة ، والإذلال ، والتقتيل لملأ بني إسرائيل لئلاّ يكون لهم شوكة يمتنعون بها ، ويصولون على القبط بسببها ، وكانت القبط منهم يحذرون ، فلم ينفعهم ذلك ، ولم يردّ عنهم قَدَرَ الذي يقول للشيء كن فيكون ...)) .

وفي قوله تعالى إخباراً عن فرعون : ﴿ **وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدعُ ربّه إني أخاف أن يُبدّل دينكم أو أن يُظهر في الأرض الفساد** ﴾[٣] . فهذه الآية تدل ، على أن بعض الملأ من آل فرعون ، قد أشاروا على فرعون بعدم قتل موسى عليه السلام ، وهناك احتمالين – على رأي بعض المفسّرين[٤] – :

الاحتمال الأول : أنهم منعوه من قتله لوجوه :

الأول : لعله كان فيهم مَنْ يعتقد بقلبه كون موسى صادقاً ، فيأتي بوجوه الحِيَل في منع فرعون من قتله .

---

(١) القرطبي : المصدر السابق ، المجلد الثامن ، ج ١٥ ، ص ١٩٩ .

(٢) البداية والنهاية ، ج ١ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٢٥٩ – ص ٢٦٠ .

(٣) سورة غافر ، الآية (٢٦) .

(٤) فخر الدين الرازي : المصدر السابق ، ج ٢٧ ، ص ٥٤ – ص ٥٥ وكذا
القرطبي : المصدر السابق ، نفس الصفحة وكذا
ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٧٦ .

الثاني : قال الحسن : إن أصحابه قالوا له لا تقتله ، فإنما هو ساحر ضعيف ، ولا يمكنه أن يغلب سَحَرتِك ، وإن قتلته أدخلت الشُّبهة على الناس ، وقالوا : إن كان مُحقاً ، وعجزوا عن جوابه فقتلوه .

الثالث : لعلهم كانوا يحتالون في منعهِ من قتله ، لأجل أن يبقى فرعون مشغول القلب بموسى ، فلا يتفرّغ لتأديب أولئك الأقوام ؛ فإن من شأن الأمراء أن يُشغلوا قلب ملكهم بخصمٍ خارجي حتى يصيروا آمنين من شرّ ذلك الملك .

والاحتمال الثاني : أن أحداً ما منع فرعون من قتل موسى وأنه كان يريد أن يقتله ، إلا أنه كان خائفاً من أنه لو حاول قتله لظهرت معجزات قاهرة تمنعه من قتلهِ ، فَيُفتَضح ، إلا أنه لوقاحته قال : ﴿ **ذروني أقتل موسى** ﴾ وغرضه منه أنه إنما امتنع عن قتله رعاية لقلوب أصحابه ، وغرضه منه إخفاء خوفه . أما قوله ﴿ **وليدع ربّه** ﴾ فإنما ذكره على سبيل الاستهزاء ، يعني أني أقتله ، فليقل لربه حتى يُخلّصه مني .

وأما قوله ﴿ **إني أخاف أن يُبدّل دينكم أو أن يُظهر في الأرض الفساد** ﴾ ... المقصود من هذا الكلام بيان السبب الموجب لقتلهِ ، وهو أن وجوده يوجب إما فساد الدين أو فساد الدنيا ؛ أما فساد الدين فلأن القوم اعتقدوا أن الدّين الصحيح هو الذي كانوا عليه ، فلما كان موسى ساعياً في إفساده ، كان في اعتقادهم انه ساعٍ في إفساد الدين الحق .

وأما فساد الدنيا فهو أنه لابدّ وأن يجتمع عليه قوم ، ويصير ذلك سبباً لوقوع الخصومات ، وإثارة الفتن ، ولما كان حُبّ الناس لأديانهم فوق حُبّهم لأموالهم لا جرم بدأ فرعون بذكر الدين فقال ﴿ **إني أخاف أن يُبدّل دينكم** ﴾ ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال ﴿ **أو أن يُظهر في الأرض الفساد** ﴾ .

والظاهر أن رغبة فرعون بقتل موسى كانت تجد مُعارضة على الأقل في نفوس الحاضرين ، ففي حالة قتله ربما صار موسى مُقدّساً وشهيداً في نظر السَّحرة على الأقل الذين أدركوا فيما بعد حقيقة ما جاء به موسى من المعجزات الربانية .

قال سيد قطب في هذه النقطة[١] : ((فقد يوحي هذا للجماهير بتقديسه واعتباره شهيداً ، والحماسة الشعورية له ، وللدين الذي جاء به ، وبخاصة بعد إيمان السحرة في مشهد شعبي جامع ، وإعلانهم سبب إيمانهم ، وهم الذين جيء بهم ليُبطلوا عمله ويناوئوه . وقد يكون بعض مستشاري الملك أحسّ في نفسه رهبة أن ينتقم إلـهُ موسى له ، ويبطش بهم . وليس هذا ببعيد فقد كان الوثنيون يعتقدون بتعدّد الآلهة ، ويتصوّرون بسهولة أن يكون لموسى إله ينتقم له ممن يعتدون عليه ! ويكون قول فرعون ﴿ **وليدع ربه** ﴾ رداً على هذا التلويح ! وإن كان لا يبعد أن هذه الكلمة الفاجرة من فرعون كانت تبجّحاً واستهتاراً ، لقي جزاءه في نهاية المطاف)) .

وهكذا كان موقف فرعون وملأه من دعوة التوحيد ، ورسالة السماء ، التي جاء بها الرسولان الكريمان موسى وهارون عليهما السلام ، حقيقة تاريخية أثبتها القرآن الكريم ، حيث وقفوا في وجه الدعوة إلى الله عز وجل ، وتكذيب الرسولين الكريمين ، ومحاولة تخذيل الناس عن اتّباع ما يدعوان إليه من هُدىً وإيمان ، رغم إدراك فرعون وملأه إدراكاً يقينياً بصدق موسى وهارون عليهما السلام ، كما أخبر الله تعالى : ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفُسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾[٢] .

ولمحاولة تفسير هذا الموقف الذي اتّخذه فرعون وملأه من الدعوة لعبادة الله وحده ، يمكن القول : أنه موقف نابع من حرص أولئك الملأ على البقاء في السلطة والقيادة ، فَهُم في الحقيقة لا تهمّهم كثيراً الآلهة المعبودة عندهم بالمقام الأول ، بقدر ما يهمّهم ويُشغلهم الإستمرار في السيطرة على مقاليد الحكم ومقدّرات الناس ، رغم أنهم يدافعون عن تلك الآلهة التي يعبدونها ، ويُظهرون للناس الضعفاء ولاءهم لها ، لأن أولئك القوم كانوا متمسّكين بمعبوداتهم المتعدّدة ، ويُقدّمون لها الشعائر التعبّدية والقرابين للتقرّب إليها ، وإرضاءها حسب اعتقادهم . فالملأ يستغلون هذا الموقف من الناس ويدّعون أنهم يدافعون عن تلك المعبودات ، وهدفهم الرئيس – إضافة لبقائهم في الحكم والسلطان – إبعادهم عن دعوة الله وتوحيد عبادته ، لأنها في نظرهم تشكّل الخطر الداهم عليهم ، إذ بدخولهم

---

(١) في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص ٣٠٧٨ .

(٢) سورة النمل ، الآية (١٤) .

دعوة الإسلام تصبح سلطة التشريع ليست من حقّهم ولا في مقدورهم ، إذ أن الله الخالق هو الذي يُشرّع للناس ويبيّن لهم الهدى والضلال ، والحق والباطل .

لذلك كله يسهُل إدراك ما أصاب فرعون وملأه من الفزع والخوف ، عندما جاء موسى وهارون عليهما السلام بدعوة التوحيد لله رب العالمين لا شريك له ، فحلَّ بهم الذعر ؛ لإدراكهم بأن هذه الدعوة سوف تُفقدهم كل سلطة على أولئك الناس ، فاستغلّ فرعون وملأه حُبّ الناس لآلهتهم وتعلّقهم بها ، وبيّن لهم أن موسى وهارون يريدان تبديل الدين الذي يدينون به ، والعيث في الأرض فساداً .

قال تعالى على لسان فرعون : ﴿ **إني أخاف أن يُبدّل دينكم أو أن يُظهر في الأرض الفساد** ﴾[1] .

السَّحَرة وموقفهم من رسالة موسى عليه السلام :

من خلال ما عرضه القرآن الكريم فإن فرعون وملأه اتّهموا موسى عليه السلام وأخيه هارون عليه السلام بأنهما ساحران : ﴿ **قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يُخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى** ﴾[2] ، لذلك أرادوا أن يُظهروا للناس أن ما أتيا به من الدعوة إلى عبادة إله واحد ، ونبذ الشرك ، ما هو إلا عمل سحر ، ولا يُبطِلُ ذلك إلا سحر مثله ، فأتمروا على المواجهة الصريحة بين الرسولين الكريمين وسحرة فرعون ، كما أخبر الله تعالى في كتابه الكريم في كثير من السور الكريمة ، كما في قوله تعالى : ﴿ **فألقى عصاه فإذا هي ثُعبانٌ مبين • ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين • قال الملأُ من قوم فرعون إنّ هذا لساحرٌ عليم • يُريد أن يُخرجَكم من أرضكم فماذا تأمرون • قالوا أَرْجِهْ وأخاه وأرسِل في المدائن حاشرين • يأتوك بكل ساحر عليم** ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ **فلما جاءَهم الحق من عندنا قالوا إنّ هذا لسحرٌ مبين • قال موسى أتقولون للحقِّ لما جاءكم أسحرٌ هذا ولا يُفلحُ الساحرون • قالوا أجئتنا لتَلفِتنا**

---

(١) سورة غافر ، الآية (٢٦) .

(٢) سورة طه ، الآية (٦٣) .

(٣) سورة الأعراف ، الآيات (١٠٧ – ١١٢) .

عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياءُ في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين • وقال فرعون ائتوني بكلّ ساحرٍ عليم ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ **قال أجئتنا لتُخرِجنا من أرضنا بسحرِك يا موسى • فلنأتينّك بسحرٍ مثلهِ فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نُخلِفُهُ نحنُ ولا أنتَ مكاناً سوى • قال موعدُكم يومُ الزِّينَةِ وأن يُحشرَ الناسُ ضُحى • فتولى فرعونُ فجمعَ كيدَهُ ثم أتى ﴾**(٢) .

وقال تعالى : ﴿ **فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين • ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين • قال للملأ حوله إنّ هذا لساحرٌ عليم • يريد أن يُخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون • قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين • يأتوك بكلِّ سحّارٍ عليم ﴾**(٣) .

وهكذا وُجِّهَتْ تهمة السّحر إلى موسى ، وأنه أتى بنوع من السّحر ليصدّ الناس عما هم عليه من سَنَن آباءهم الأولين ، لذلك كان لابدّ من المواجهة بين موسى وعلماء السحر في مصر . فضُرِبَ بينهم موعد اللقاء ، وحُدّد بيوم الزّينة ، وفي وقت الضُّحى ؛ ليكون ذلك أظهر للمعجزة الربانية ، وفي وقت تمام الرؤية ؛ إذ تكون الشمس قد نشرت أشعتها فلا مجال لوجود الظلام حينئذٍ ، فلا تكون هناك حُجّة على من يدّعي بعدم الرؤية الواضحة ، وكما قال فخر الدين الرازي(٤) : ((وإنما أوعدهم موسى عليه السلام ذلك اليوم ليكون علوّ كلمة الله تعالى ، وظهور دينه ، وكبت الكافر ، وزهوق الباطل ، على رؤوس الأشهاد في المجمع العام ، ليَكثُر المُحدِّثُ بذلك الأمر العجيب ، في كل بدو وحضر ، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر)) .

ويبدو أنه كانت هناك أعيادٌ كثيرة تُقام في المدن المصرية القديمة ، وكانوا يحتفلون بها احتفالاً كبيراً ، حيث يجتمع الناس من أطراف المناطق . ومن المحتمل أن يوم الزينة ، الذي ورد على لسان موسى عليه السلام ليكون اليوم الذي يجتمع فيه الناس ، هو يوم من تلك الأيام التي كان يشهدها كثير من الناس .

---

(١) سورة يونس ، الآيات (٧٦ - ٧٩) .

(٢) سورة طه ، الآيات (٥٧ - ٦٠) .

(٣) سورة الشعراء ، الآيات (٣٢ - ٣٧) .

(٤) التفسير الكبير ، ج ٢٢ ، ص ٧٣ .

وكمثال على ذلك : فقد ورد في النقوش المصرية القديمة أسماء عدة لبعض الأعياد التي كانت تُقام للآلهة ، ويحتفل بها المصريون القدماء . فكانوا يحتفلون بأعياد الآلهة "حور" و"سوكر" و"مين" و"إنوبيس" و"زد" الدال على أوزير . وقد كان من أهم هذه الأعياد في نظر المصريين القدماء عيد تتويج الملك الذي كان يُسبغ عليه صبغته المقدسة . فالعيد الكبير للإله "مين" من أقدم الأعياد التي كان المصريون القدماء يحتفلون بها في جميع البلاد المصرية ، وتدل الشواهد والأحوال على أن الاحتفال بهذا العيد ظلّ يُمارَس حتى العهد الروماني ، بسبب علاقته الوثيقة بالشعائر الملكية ، خاصة في الدولة الحديثة ، فقد صُورت عدة مناظر – وإن كانت مُهشّمة بعض الشيء – للعيد المزدوج للإله الأكبر "مين" و"الملك" في معابد منطقة طيبة ، وخاصة المعابد الجنائزية التي تعود لعهد رعمسيس الثاني[١] .

ومن المفسرين[٢] من يرى : ((أن يوم الزينة إما أنه يوم عيدٍ لهم يتزيّنون فيه ، أو أنه العيد المعروف بيوم النيروز . وعن سعيد بن جبير : أنه يوم سوقٍ لهم ، ورواية لابن عباس رضي الله عنهما : أنه يوم عاشوراء)) .

ويقول محمد الطيب النجار[٣] : ((هو يوم العيد الذي يحتفلون به ويتزيّنون له ، وهو عيد الربيع الذي لا يزال الاحتفال به في مصر إلى الآن في يوم شم النسيم ... أو أنه يوم وفاء النيل وكان أعظم أعيادهم)) . ولعل يوم الزينة هو يوم عيد وفاء النيل أو غيره من أعيادهم[٤] .

وعلى أي حال ، فقد جمع فرعون السّحرة من شتى الأقاليم المصرية ، وحرص على أن يكونوا من المَهَرة في السّحر ، والعلماء الأفذاذ فيه ، وأتى بهم إلى الموعد المحدد في يوم الزينة ، بعد أن وعدهم بأن يكونوا من المقرّبين له ، وأن يَبذُلَ لهم الأجر الجزيل إن هم غلبوا موسى ، وأبطلوا ما جاء به ، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك في قوله تعالى :

---

(١) سليم حسن وآخرون : المرجع السابق ، ص ٢٥٦ – ص ٢٥٧ وكذا أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٢٩٨ – ص ٣٠١ .

(٢) فخر الدين الرازي : المصدر السابق ، ج ٢٢ ، ص ٧٣ .

(٣) تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ، ص ١٩٧ .

(٤) محمد بيومي مهران : مصر والشرق الأدنى القديم (٣) مصر ، ص ٤٢٢ .

﴿ **وجاء السَّحَرةُ فرعونَ قالوا إنّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين • قال نعم وإنّكم لمن المقرّبين** ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ **فلما جاء السَّحَرةُ قالوا لفرعون أَئِنَّ لنا لأجراً إن كُنّا نحنُ الغالبين • قال نعم وإنّكم إذاً لمن المقرّبين** ﴾[٢] .

واجتمع السّحرة ، وتواصوا فيما بينهم على أن يأتوا بغاية ما يعلموه من السحر ، من أجل إبطال ما جاء به موسى عليه السلام ، لذلك وصف الله سبحانه وتعالى ما فعله السَّحرة بقوله : ﴿ **وجاءوا بسحرٍ عظيم** ﴾[٣] .

وقبل بداية المقابلة الأولى بين موسى والسَّحرة ، وعظهم موسى عليه السلام ، وذكّرهم بالله عز وجل ، قبل أن يروا المعجزة الربّانية التي لا تُبارى بسحر ، فقال لهم : ﴿ **ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيُسحِتكم**[٤] **بعذابٍ وقد خابَ من افترى • فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النّجوى • قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يُخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى • فأجمِعوا كيدكم ثم ائتوا صفّاً وقد أفلحَ اليومَ من استعلى** ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ **فلما جاء السَّحرةُ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون • فلما ألقَوا قال موسى ما جئتم به السّحر إن الله سيُبطِلُه إن الله لا يُصلح عمل المفسدين • ويُحقُّ الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون** ﴾[٦] .

وبعد ذلك كان لابد من المواجهة ، فابتدر السحرة الموقف ، وتوجهوا إلى موسى عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ **قالوا يا موسى إما أن تُلقي وإمّا أن نكون نحنُ المُلْقِين • قال أَلْقُوا فلما ألقَوا سحروا أعينَ الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحرٍ عظيم** ﴾[٧] ، وفي

---

(١) سورة الأعراف ، الآيتان (١١٣ ، ١١٤) .

(٢) سورة الشعراء ، الآيتان (٤١ ، ٤٢) .

(٣) سورة الأعراف ، الآية (١١٦) .

(٤) أي يستأصلكم .

(٥) سورة طه ، الآيات (٦١ - ٦٤) .

(٦) سورة يونس ، الآيات (٨٠ - ٨٢) .

(٧) سورة الأعراف ، الآيتان (١١٥ - ١١٦) .

آية أخرى قال تعالى : ﴿ **قالوا يا موسى إمّا أن تُلْقي وإمّا أن نكونَ أوّلَ مَنْ ألقى • قال بل أَلْقُوا فإذا حِبالُهم وعِصِيُّهم يُخيَّلُ إليه من سحرهم أنّها تسعى** ﴾(١) .

فلما قال موسى للسَّحرة : ﴿ **ألقوا ما أنتم ملقون** ﴾ ألقى السَّحرةُ ما معهم ، فلما ألقوا ذلك ﴿ **سحروا أعين الناس** ﴾ أي خيّلوا إلى أعين الناس بما أحدثوا من التخييل والخُدَع أنها تسعى ، واسترهبوا الناس بما سَحَروا في أعينهم ، حتى خافوا من العصيّ والحبال ، ظناً منهم أنها حيّات ، فجاء السحرة ، كما قال تعالى : ﴿ **بسحرٍ عظيم** ﴾ أي بتخييلٍ عظيم كبير من التخييل والخداع(٢) .

والسّحر في عُرف الشرع مختص بكل أمرٍ يخفى سببُه ، ويُتَخيَّل على غير حقيقته ، ويجري مجرى التمويه والخداع ، فالسَّحرة موّهوا على الناس حتى ظنّوا أن حبالهم وعصيّهم تسعى . ولو كان السّحر حقاً لكان السَّحرة قد سحروا قلوب الناس لا أعينهم ، مما يدل على أنهم تخيّلوا أحوالاً عجيبة مع أن الأمر في الحقيقة ما كان على وفق ما تخيّلوه(٣) .

لذلك كان الذي صنعه السَّحرة نوع من الخداع والتخييلات التي لا حقيقة لها ، ونحو ما يفعله الساحر بصرف الأبصار عما يفعله لِخفّةِ يده ، وما يفعلُه بقولٍ مزخرف عائقٍ للأسماع(٤) ، فهو إفك وتخييل وكيد ، وحيلةٌ مموّهة لا حقيقة لها ؛ إذ لا يُحيلُ الطبائع إلاّ خالقها ، شهادةً لرسلهِ وأنبيائه ، وفرقاً بين الصدق والكذب(٥) .

لذلك فإن السّحر لا يستهدف هداية الناس ، ولا يتضمن عقيدة ، وليس له فكرة مُعيّنة عن الإلوهية ، وعلاقة الخلق بالخالق ، ولا يتضمن منهاجاً تنظيمياً للحياة ، فما يختلط

---

(١) سورة طه ، الآيتان (٦٥ – ٦٦) .

(٢) الطبري : تفسير الطبري ، ج ١٣ ، ص ٢٧ .

(٣) فخر الدين الرازي : قصة السِّحر والسَّحرة في القرآن الكريم ، تحقيق محمد إبراهيم سليم ، مكتبة القرآن ، القاهرة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ٢٥ ، ص ٢٦ ، ص ١٥٨ وكذا
سامية حسن ساعاتي : المرجع السابق ، ص ٥١ – ص ٥٢ وكذا
حياة سعيد عمر با أخضر : المرجع السابق ، ص ٣٦ – ص ٣٧ .

(٤) الراغب الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٢٣١ .

(٥) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري : الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل ، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، وعبد الرحمن عُمَيرة ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، شركة مكتبات عُكاظ ، الرياض ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، ص ٢٤٨ – ص ٢٤٩ .

السّحر بهذا ولا يلتبس ، وما كان الساحرون ليؤدّوا عملاً يستهدف مثل هذه الأغـراض ، ويحقق مثل هذا الاتجاه ؛ وما كانوا ليُفلحوا وكل عملهم تخييل وتزييف(١) .

وكذلك فإن سلطان السحر محـدود ؛ فهـو وإن كـان لـه حقيقـة ، فهـي لا تتجـاوز حدوداً مُعيّنة ، ولا يمكن أن يكون وسيلةً لقلب الحقائق ، وتبديل جواهر الأشياء ، ولذلـك فإن الله عز وجل عبّر عـن السّـحر الـذي صنعـه السَّحرة بقولـه تعـالى : ﴿ **فإذا حبالُهم وعصيّهم يُخيَّلُ إليه من سحرهم أنّها تسعى** ﴾(٢) ، فعبّر القرآن الكريـم عمـا رآه موسـى عليه السلام من صنيعهم بالخيال ، أي أن الحبال لم تنقلب في الحقيقـة إلى ثعـابين بسـحرهم الذي فعلوه ؛ وإنما الذي اتّجه إليه سحرهم هو أعين الناس ، فهي التي سُحِرت لا الحبال والعصي . أما تأثّر العين بذلك الخيال وضعفها عن رؤية الحقيقة فذلك هو مفعول السّـحر وحقيقته لما أصاب العين من ذلك ، مما يدل على أن مناط السحر هو جسم الإنسـان ، أو حواسّه وجوارحه ، وتظهر بسبب ذلك السـحر بعـض المرئيـات أو المحسوسـات علـى غـير حقيقتها(٣) .

قال ابن كثير(٤) :

((فقال لهم عليه السلام [يعني موسى] ألقوا أي أنتم أولاً ، قيل : الحكمـة في هـذا والله أعلم ليرى الناس صنيعهم ويتأمّلوه ، فإذا فرغـوا مـن بهرجهـم ومحـالهم جـاءهم الحق الواضح الجليّ بعد التطلّب له ، والانتظار منهـم لمجيئـه ، فيكـون أوقـع في النفـوس ، وكـذا كان)) .

أما تخييرهـم لموسى عليه السلام بالإلقاء ، فلثقتهم بأنفسهم ، واعتدادهم بسـحرهم ، وإرهاباً له ، وإظهاراً لعدم المبالاة به ، مع العلم بأن المتأخر يكون أبصـر بمـا يقتضيـه الحـال بعد وقوعه على مُنتهى شوط خصمه ، وما قيل من أن علّة التخيـير مراعـاة الأدب لا وجـه له البتة ، بل مقامهم بحضرة ملكهم الذي يدّعي الإلوهية والربوبية فيهم ، وما طلبوه منـه ، وما وعدهم إياه ، كله يقتضي أن يحتقروا خصمه لا أن يتأدّبوا معه(٥) .

---

(١) سيد قطب : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٨١٣ .

(٢) سورة طه ، الآية (٦٦) .

(٣) محمد سعيد رمضان البوطي : فقه السّيرة ، الطبعة السابعة ، دار الفكر ، دمشق ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٣٥٩ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

(٥) محمد رشيد رضا : المرجع السابق ، ج ٩ ، ص ٥٦ وكذا محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٤٢٣ – ص ٤٢٤ .

ولما رأى موسى عليه الصلاة والسلام ما صنعه السّحرة أمام أعين الناس ، انتابه شعور أخبر الله عز وجل عنه في قوله تعالى : ﴿ **فأوجس**[١] **في نفسهِ خيفةً موسى • قلنا لا تَخَفْ إنك أنت الأعلى** ﴾[٢] .

وهنا لابد من وقفة ، لبيان حقيقة ما انتاب موسى عليه الصلاة والسلام في ذلك الموقف . لم يكن تخوّف موسى عليه الصلاة والسلام على روحه أو على حياته ؛ فإن حياة الدعاة ، وحياة أصحاب الرسالات السماوية مهما تكن غالية على أصحابها ، فإنها لديهم أقلّ ما يُبذل في سبيل الله من تضحيات ، لتكون كلمة الله هي العليا ؛ ولكن كان خوفُهُ عليه الصلاة والسلام أن تضيع رسالته ، ويُفتَن الناس بسحرِ السَّحرة . ولذلك أوحى الله عز وجل إلى نبيّه ورسوله الكريم بما يُطمئنُ قلبَه ،ويدفع عنه الخذلان ، وأنه المنتصر بما معه من الحق على الباطل الزهوق ، فأوحى إليه أن ﴿ **قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى** ﴾[٣] ، وهو خوف طبيعي لدى موسى عليه السلام بصفته حامل لرسالة ربّه[٤] .

قال فخر الدين الرازي[٥] :

((الإيجاس استشعار الخوف ، أي وجد في نفسه خوفاً ... وقد وقع الخوف في قلبه لأن ذلك الخوف هو ما طُبع عليه الآدمي من ضعف القلب ، وإن كان موسى عليه السلام قد علم أنهم لا يصلون إليه ، وأن الله ناصره ، كما قال ذلك الحسن .

وقال مقاتل : إنه خاف أن تدخل على الناس شُبهة فيما يرونه ، فيظنوا أنهم قد ساووا موسى عليه السلام ، ويشتبه ذلك عليهم . وهذا التأويل متأكد بقوله تعالى : ﴿ **لا تخف إنّك أنت الأعلى** ﴾ . ووجه آخر لذلك الخوف ، أنه خاف حيث بدأوا وتأخر

---

(١) الوجْسُ : الصوت الخفيّ ، والتوجّسُ التَسمُّع ، والإيجاس وجود ذلك في النفس . فالوجس هو حالةٌ تحصلُ من النفس بعد الهاجس ؛ لأن الهاجسَ مُبتدأ التفكير ، ثم يكون الواجِسُ الخاطِرُ . انظر : الراغب الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٥٥٠ .

(٢) سورة طه ، الآيتان (٦٧ - ٦٨) .

(٣) سورة طه ، الآية (٦٨) .

(٤) صلاح أبو إسماعيل : المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٥) التفسير الكبير ، ج ٢٢ ، ص ٨٤ بتصرف . وانظر :
القرطبي : المصدر السابق ، المجلد السادس ، ج ١١ ، ص ١٤٨ - ص ١٤٩ وكذا
ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٥٨ .

إلقاؤه أن ينصرف بعض القوم قبل مشاهدة ما يُلقيه ، فيدوموا على اعتقاد الباطل . ولعله كان عليه السلام مأموراً بأن لا يفعل شيئاً إلا بالوحي ، فلما تأخّر نزول الوحي عليه في ذلك الوقت خاف أن لا ينزل عليه الوحي في ذلك الوقت فيبقى في الخجالة . ولعله عليه السلام خاف من أنه لو أبطل سحر أولئك الحاضرين فلعلّ فرعون قد أعدّ أقواماً آخرين فيأتيه بهم ، فيحتاج مرة أخرى إلى إبطال سحرهم ، وهكذا ، من غير أن يظهر له مقطع ، وحينئذ لا يتم الأمر ، ولا يحصل المقصود . ثم انه تعالى أزال ذلك الخوف بالإجمال أولاً ، وبالتفصيل ثانياً ؛ أما الإجمال فقوله تعالى : ﴿ **قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى** ﴾ ودلالته على أن خوفه كان لأمر يرجع إلى أن أمْرَهُ لا يظهر للقوم فأمّنَهُ الله تعالى بقوله : ﴿ **إنك أنت الأعلى** ﴾ ... ، وأما التفصيل فقوله ﴿ **والقِ ما في يمينك** ﴾ ...)) .

ولذلك جاء الأمر الرباني للرسول الكريم : ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن ألقِ عصاك فإذا هي تلْقفُ ما يأفكون • فوقع الحقُّ وبطَلَ ما كانوا يعملون • فَغُلِبوا هنالك وانقلبوا صاغرين • وأُلقِيَ السَّحرةُ ساجدين • قالوا آمنّا بربّ العالمين • ربّ موسى وهارون** ﴾[1] .

روى الطبري[2] بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : فألقى عصاه فإذا هي حيّةٌ تلقفُ ما يأفكون ؛ لا تمرّ بشيءٍ من حبالهم وخُشُبِهم التي ألقوها إلاّ التقمته ، فَعَرفتْ السَّحرةُ أن هذا أمرٌ من السماء ، وليس هذا بسحر ، فخرّوا سُجّداً وقالوا ﴿ **آمنا برب العالمين • ربّ موسى وهارون** ﴾ ﴿ **فوقع الحق وبطلَ ما كانوا يعملون** ﴾ أي ظهر الحق وتبيّنَ لمن شهده وحضَرهُ في أمر موسى ، وأنه لله رسول يدعو إلى الحق ﴿ **وبطل ما كانوا يعملون** ﴾ من افك السحر وكذبه ومخايله .

لذلك كانت المفاجأة عظيمة لفرعون وملأه بإيمان السَّحرة برب العالمين ، واتّباع موسى وهارون ، وهم الذين جاءوا ليقفوا في وجه الدعوة والرسالة ، وليدافعوا عن فرعون وقوّته . فأراد الله سبحانه وتعالى غير ما أرادوا ، وكتب لهم الإيمان والتصديقَ برسالة رب العالمين التي جاء بها رسوله الكريم موسى عليه السلام وأخيه هارون عليه السلام .

---

(١) سورة الأعراف ، الآيات (١١٧ - ١٢٢) . وانظر :
سورة طه ، الآيات (٦٩ - ٧٠) .
سورة الشعراء ، الآيات (٤٥ - ٤٨) .

(٢) تفسير الطبري ، ج ١٣ ، ص ٢٩ ، ص ٣١ .

والسبب في إيمان السَّحرة حال رؤيتهم للمعجزة الربانيـة ، واعـترافهم بوحدانيـة ا لله وربوبيته وإلوهيته ؛ لأنهم أيقنوا تمام اليقين أن الذي جاء به موسى عليه السلام ليس سحراً ولا شعوذة ؛ وإنما آية من آيات ا لله تعالى أيّد بها رسوله الكريم لتكون برهاناً على صدقه ، وأدركوا أيضاً أن ذلك الأمر خارجٌ عن طاقة البشر وقدرتهم ، فلابـد أن ذلـك مـن القـوة الإلهية[1] ، فعندئذٍ سجدوا لله رب العالمين ، وآمنوا بـا لله عـز وجـل . ولمـا أدرك فرعـون مدى عجزهِ أراد أن يَستُرَ هزيمته ، ويستعيد هيبته ، فقال للسَّحرة : ﴿ **إنّه لكبيركم الـذي علّمكم السّحر فلسوف تعلمون لأقطّعنَّ أيديَكم وأرجُلَكـم مـن خِـلافٍ ولأصلّبنّكـم أجمعين** ﴾[2] . وقال تعالى إخباراً عن موقف فرعون من إيمـان السَّـحرة : ﴿ **قـال فرعـون آمنتم به قبل أن آذن لكم إنّ هذا لمكرٌ مكرتموه في المدينة لتُخرجوا منهـا أهلهـا فسـوف تعلمون ، لأقطّعنَ أيديَكم وأرجُلكم من خلافٍ ثم لأصلّبنكم أجمعين** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **قال آمنتم لهُ قبل أن آذنَ لكم إنه لكبيركم الذي علّمكم السّحر فلأقطعنّ أيديكم وأرجُلَكم من خلافٍ ولأُصلّبنّكم في جذوع النّخل ولَتعلمُنَّ أيُّنـا أشـدُّ عذاباً وأبقى** ﴾[4] .

روى ابن كثير[5] : أن السَّحرة لما سجدوا لله عز وجل ((رأوا منازلهم وقصورهم في الجنّة تُهيّأُ لهم ، وتُزَخرفُ لقدومهم ، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيـده ، وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السَّحرة قـد أسـلموا وأشـهروا ذكـر موسـى وهـارون في الناس على هذه الصفة الجميلة أفزعـه ذلـك ، ورأى أمـراً بَهَـرهُ وأعمـى بصيرتـه وبصـره ، وكان فيه كيد ومكر وخداع وضِعةٍ بليغة في الصدّ عـن سـبيل ا لله تعـالى ، فقـال مخاطبـاً للسَّحرة بحضرة الناس ﴿ **آمنتم له قبل أن آذن لكم** ﴾ أي هلاّ شاورتموني فيما صنعتم من

---

(١) محمد علي الصابوني : المرجع السابق ، ص ١٧٨ وكذا
عفيف عبد الفتاح طبـارة : اليهود في القرآن ، الطبعـة التاسـعة ، دار العلـم للملايـين ، بـيروت ، ١٩٨٢ م ، ص ٢٠٤ – ص ٢٠٥ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية (٤٩) .

(٣) سورة الأعراف ، الآيتان (١٢٣ ، ١٢٤) .

(٤) سورة طه ، الآية (٧١) .

(٥) البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ٢٥٦ – ص ٢٥٧ .

الأمر الفظيع بحضرة رعيّتي ، ثم تهدّدَ وتوعّدَ ... قائلاً ﴿ **إنه لكبيركم الذي علّمكم السّحر** ﴾[١] وقال في الآية الأخرى ﴿ **إن هذا لمكرٌ مكرتموه في المدينة لتُخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون** ﴾[٢] . وهذا الذي قاله من البُهتان يعلمُ كلُّ فردٍ عاقلٍ ما فيه من الكفر والكذب والهذيان ، بل لا يروجُ مثله على الصبيان ، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يرى هؤلاء يوماً من الدّهر ، فكيف يكون كبيرهم الذي علّمهم السّحر . ثم هو لم يجمعهم ولا عَلِمَ باجتماعهم حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم واجتباهم من كل فجٍّ عميق ، ووادٍ سحيق ، ومن حواضر بلاد مصر والأطراف ومن المدن والأرياف)) .

لذلك كان ردُّ السَّحرة على فرعون بعد إيمانهم با لله عز وجل ، وعلى تهديده ووعيده لهم : ﴿ **قالوا إنّا إلى ربّنا مُنقلبون • وما تنقمُ منّا إلاّ أن آمنّا بآيات ربّنا لّما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفّنا مُسلمين** ﴾[٣] . وقالوا له أيضاً : ﴿ **قالوا لن نُؤثِرك على ما جاءنا من البيّنات والذي فَطَرنا فاقضِ ما أنتَ قاضٍ إنما تقضي هذه الحياةَ الدنيا • إنا آمنا بربّنا ليغفِر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السِّحر وا لله خيرٌ وأبقى • إنّهُ من يأتِ ربّهُ مجرماً فإنّ له جهنم لا يموتُ فيها ولا يحيى • ومَنْ يأتهِ مؤمناً قد عمل الصّالحات فأولئك لهم الدرجات العُلى • جناتُ عدنٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاءُ مَنْ تزكّى** ﴾[٤] .

وأخبر سبحانه وتعالى عنهم قولهم : ﴿ **قالوا لا ضَيرَ إنّا إلى ربّنا مُنقلبون • إنّا نطمعُ أن يغفرَ لنا ربُّنا خطايانا أن كُنّا أوّلَ المؤمنين** ﴾[٥] .

وهكذا فإن الإيمان عندما يسكن القلب عن يقينٍ واقتناع ، لا عن تقليدٍ وميراث ؛ فإنه يُثبّتُ صاحبه في أصعب المواقف ، ويتجاوز به أقسى الظروف ، وتهونُ معه التضحية بكل عزيز في هذه الحياة الدنيا ، ولو كان الفداء نفسه التي بين جنبيه[٦] .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية (٤٩) .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٢٣) .

(٣) سورة الأعراف ، الآيتان (١٢٥ ، ١٢٦) .

(٤) سورة طه ، الآيات (٧٢ - ٧٦) .

(٥) سورة الشعراء ، الآيتان (٥٠ - ٥١) .

(٦) السيد رزق الطويل : بنو إسرائيل في القرآن ، الطبعة الثانية ، مكتبة الإرشاد ، جدة ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٣٢ ، ص ٣٣ .

وقول السَّحرة لفرعون : ﴿ **لن نؤثرك على ما جاءنا من البيّنات والذي فطرنا فاقضِ ما أنت قاضٍ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا** ﴾[1] قول يدل على مدى إيمانهم با لله عز وجل وبرسوليه الكريمين ، وكان الأوْلَى ببني إسرائيل أن يقولوا هذا القول لفرعون ، لأن القضية قضيّتهم ، وما أُرسل موسى عليه الصلاة والسلام إلاّ لأجلهم وإنقاذهم مما كانوا فيه في مصر تحت سطوة فرعون وجبروته .

والظاهر من خلال سياق الآيات القرآنية ، آنفة الذكر ، أن فرعون لعنه ا لله ، صلبهم وعذّبهم رضي ا لله عنهم . فقد قال عبد ا لله بن عباس رضي ا لله عنهما في المصير الذي حلَّ بالسَّحرة المؤمنين : ((كانوا من أول النهار سَحَرة ، فصاروا من آخِرِهِ شهداء بررة))[2] .

وهناك روايات[3] تشير إلى أن فرعون قتّلهم وقطّعهم – كما قال عبد ا لله بن عباس رضي ا لله عنهما – حين قالوا : ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفّنا مسلمين** ﴾[4] ، ونفّذَ فيهم تهديده بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، بأن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى ، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى ، فيُخالِف بين العضوين في القطع ، فمخالفتهِ في ذلك بينهما هو القطع من خِلاف .

وفي قول السّحرة بعد إيمانهم ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفّنا مسلمين** ﴾ ما يثير في النّفس البشرية من شعور بالطمأنينة ، فإن ما يُثيره لفظ ﴿ **أفرغ** ﴾ وما يوحي به من لِين ورفقٍ وطمأنينة يحسُّها مَنْ هَدأ جسمُهُ بما يُلقى عليه . وهذه الراحة تُشبهُها تلك الراحة النفسية التي ينالُها مَنْ مُنِحَ الصبر الجميل[5] .

---

(١) سورة طه ، الآية (٧٢) .

(٢) الطبري : المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٣٦ وكذا
الطبري : تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٤١٣ وكذا
ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٣ وكذا
ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٨ .

(٣) انظر : الطبري : تفسير الطبري ، ج ١٣ ، ص ٣٤ وكذا
فخر الدين الرازي : المصدر السابق ، ج ٢٢ ، ص ٨٧ وكذا
القرطبي : المصدر السابق ، المجلد الرابع ، ج ٧ ، ص ١٦٦ وكذا
ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية (١٢٦) .

(٥) التهامي نقرة : المرجع السابق ، ص ٤٩٤ .

وقد ذكرت بعض المصادر الإسلامية[1] روايات عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن فرعون كان أول مَنْ صَلَبَ ، وقطع الأيدي والأرْجُلَ مِنْ خِلاف .

وقد أشار أحد المؤرخين[2] إلى بعض الأساليب التي أتّبعها الفرعون مرنبتاح (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق . م) في تعذيب ومعاقبة الخارجين عليه ومعارضيه بقوله : ورد في معبد " عمدا "[3] بالنوبة ، في النص الذي نقشه نائب مرنبتاح هناك ، على مدخل المعبد ، والمؤرخ بالعام الرابع من حكم مرنبتاح ، أن مرنبتاح كان يعاقب الخارجين عليه بالصلب فوق الشجر ، وبإحراق الجموع من الناس ، وقطع الأيدي ، واقتلاع العيون ، وصلم الآذان ، إضافة إلى مبالغته في العذاب ، حتى أنه كان يعاقب الخارجين عليه بإحراقهم في النار أمام أهلهم ، وأيضاً يُرسل ما اجتمع من الآذان والعيون فتُعرض أكواماً في بلادهم إرهاباً وتخويفاً .

ومما ورد في النص الذي نقشه نائب مرنبتاح على مدخل معبد " عمدا " : ((... ، ٥ - (وسُبِيَت نساؤهم) وكل ما في أرضهم بمئات الآلاف وعشرات الآلاف . (أما) الباقون فقد صُلبوا على رؤوس الأشجار عند جنوب منف مقتولين ، وحُمِلَ كلّ شيءٍ إلى مصر سالماً .

٦ - إن زعماء البلاد جميعاً قد شُتِّتوا بفضل عزم جلالته الذي زار في قلوبهم (بإسمه)[4] .

---

(١) الطبري : المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٣٤ وكذا السيوطي : المصدر السابق ، ص ٦٧ .

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(٣) معبد عمدا : بدأ بناء هذا المعبد تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق . م) ثم أكمله من بعده ابنه أمنحُتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق . م) ومن ثم تحتمس الرابع (١٤١٣ - ١٤٠٥ ق . م) . وهو يقع على مسافة ٢٠٨ أكيال من أسوان . انظر :
أحمد عبد الحميد يوسف : " وثائق مطوية وأضواء جديدة في تاريخ مصر القديم ، نص العام الرابع من حكم مرنبتاح " ، مجلة المجلة ، العدد ٧١ ، السنة السادسة ، القاهرة ، رجب ١٣٨٢ هـ / ديسمبر (كانون الأول) ١٩٦٢ م ، ص ٢٢ .

(٤) أي بعث فيها الرعب .

٧ - إن رهبة قوّته على بلاد الأطراف قد سحقتهم دفعةً واحدة فلم يبقَ وريث لأرضهم من بعدهم . ولقد حُمِلَ إلى مصر النُّجاة فَقُذِفت النار على جموعهم .

٨ - أمام ذويهم ، والباقون قُطعت أيديهم جزاء ذنوبهم ، وآخرون أُقتُلِعَت آذانهم وعيونهم (ثم) حُمِلت إلى النوبة ، وجُعِلَ ذلك في كومةٍ في مدائنهم .

٩ - فلم يحدث أن أعادت النوبة العصيان إلى الأبد إذ أصبحوا يائسين ...))[١] .

وهذا النص يُبيّن أن مرنبتاح كان قاسياً غليظ القلب مع أعدائه ، لم تأخذه شفقة أو رحمة في عقابهم وتعذيبهم . ويصوّر ما ورد في وثيقة العام الرابع ، قسوة لعلّها أقرّت في الأذهان من قديم جبروت فرعون وطغيانه ، وأنه كان جبّاراً في الأرض ومن المفسدين ، فاتّخذ من وسائل التعذيب ما لا يوجد له مثيل في نصوص الفراعنة السابقين . مما يكاد يتفق هذا النص في حروفه مع ما أشار إليه القرآن الكريم بذكره من نوع التعذيب والقتل الذي هدّد به فرعون[٢] . وإن صح ذلك عن مرنبتاح ، فإن هذه النصوص تؤكد ما عُرف عنه من التنكيل بخصومه بطريقة لم يتّبعها الفراعنة إلا نادراً[٣] .

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٥ .

(٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .

موقف بني إسرائيل من رسالة موسى عليه الصلاة والسلام :

رغم أن إنقاذ بني إسرائيل من سطوة وعذاب فرعون كان هدفاً رئيساً لرسالة موسى عليه الصلاة والسلام ، إلا أنه يبدو أن الأكثرية من بني إسرائيل لم يكونوا شديدي العزم على مناصرة الدعوة والرسالة السماوية ، لِما أصاب نفوسهم من الوهن ، خاصة بعدما رأوا موقف فرعون العنيد من دعوة موسى عليه السلام ورسالته ، الأمر الذي أوقع الخوف والرعب في قلوبهم ، بعد أن قام فرعون بقتل السحرة المؤمنين .

ويذهب أحد المؤرخين[١] إلى أن بني إسرائيل لم يتبعوا موسى عليه الصلاة والسلام عن إيمانٍ جازمٍ به ، بل رغبة منهم في أن يكون على يده الخلاص مما يُعانون في مصر من قسوة ، ورغبة في أن يستعيدوا بعض ما كان لهم في عهد الهكسوس من جاهٍ وسلطان .

لذلك يمكن القول بأن موقف بني إسرائيل من رسالة موسى عليه السلام يتمثل في فئتين منهم :

الفئة الأولى : كبار السن من الاباء والأمهات من بني إسرائيل وموقفهم من الرسالة.

الفئة الثانية: صغار السن والشباب من بني إسرائيل وموقفهم من الرسالة .

ففيما يتعلق بالفئة الأولى من بني إسرائيل ، وهم كبار السن من الآباء والأمهات ، فإنه لِطولِ مقامهم في مصر قبل رسالة موسى عليه السلام استمرأوا الذل والخنوع ، وآثروا السلامة على الجهاد والمشقة ، وتحمل تبعات رسالة موسى عليه السلام .

هذا بالإضافة إلى أن الآباء والأمهات من قوم موسى قد سيطر عليهم حبهم لمصالحهم وأغراضهم الدنيوية ، ورغبتهم في أن يظلوا بأمن وسلام ، فلم يكونوا على استعداد لنصرة الحق الذي دعا إليه موسى عليه السلام ، ورأوا في ذلك خطراً عليهم ، الأمر الذي أدى بهم إلى توجيه النصح لأبنائهم من الشباب بعدم مناصرة موسى عليه السلام خوفاً من غضب فرعون ، وما يمكن أن يصيبهم بسبب ذلك من مصائب ومحن[٢] .

---

(١) أحمد شلبي : " سيناء والأديان السماوية " ، مجلة الهلال ، العدد السادس ، السنة التاسعة والسبعون ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م ، ص ٤٥ .

(٢) التهامي نقرة : المرجع السابق ، ص ١٢٣ وكذا
أبو الأعلى المودودي : المرجع السابق ، ص ٣٦ - ص ٣٧ وكذا
فضل حسن عباس : المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .

وهذا الموقف الذي وقفه كبار السن من الآباء والأمهات من بني إسرائيل يبين أن الشأن في الآباء أن تكون نفوسهم متعاصية على الدعوة ، وحريصة على التقاليد ، قد شاخت منها العقول ، وأَلِفَتْ طريقاً خاصة في تَدَيُّنِها ، فمن الصعب على تلك النفوس الرجوع عن ذلك الإلف وتلك التقاليد[1] .

وحتى أنهم لما خاطبوا موسى عليه الصلاة والسلام امتنوا عليه بما لاقوه من الأذى ، كما أخبر الله تعالى في قوله سبحانه :

﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعدما جئتنا قال عسى ربكم أن يُهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾[2] .

أما فيما يتعلق بالفئة الثانية وهم صغار السن والشباب من بني إسرائيل فقد آمنوا بموسى عليه السلام ودعوته ، كما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز في قوله تعالى :

﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوفٍ من فرعون وملأهم أن يفتنهم وإن فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين ﴾[3] .

قال فخر الدين الرازي[4] : « قال بعضهم : المراد أولاد من دعاهم ، لأن الآباء استمروا على الكفر ؛ إما لأن قلوب الأولاد ألين ، أو دواعيهم على الكفر أخف ، والمراد من قومه أي قوم موسى لأنه أقرب المذكورين » .

وقال القرطبي[5] : « الهاء عائدة على موسى . قال مجاهد : أي لم يؤمن منهم أحد، وإنما آمن أولاد من أُرسل موسى إليهم من بني إسرائيل ، لطول الزمان هلك الآباء وبقي الأبناء فآمنوا ، وهذا اختيار الطبري » .

---

(١) محمد أحمد العدوي : المرجع السابق ، ص ٢٢٣ وكذا
صابر عبد الرحمن طعيمة : اليهود في موكب التاريخ ، الطبعة الأولى ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٩ م ، ص ١٢٢ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٢٩) .

(٣) سورة يونس ، الآية (٨٣) .

(٤) التفسير الكبير ، ج ١٧ ، ص ١٤٤ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الرابع ، ج ٨ ، ص ٢٣٦ . وانظر :
محمد رشيد رضا : المرجع السابق ، ج ١١ ، ص ٣٨٣ .

ولفظ ﴿ ذرية ﴾ الوارد في الآية السابقة ، له دلالة وإشارة هامة لأهمية ودور الشباب في مناصرة الحق ، والوقوف بجانب دُعاته ، حيث وقفوا يؤيدون موسى عليه الصلاة والسلام في دعوته ورسالته ؛ لاقتناعهم وإيمانهم بأنه رسول من رب العالمين ، وأنه أحوج ما يكون في ذلك الوقت إلى المناصرة والتأييد والعون ، وسط ما كان يُحيط به من الأخطار التي كان يُهدد بها فرعون : من قتل موسى ، والقضاء على بني إسرائيل .

إلا أن بعض الآراء تشير إلى أن المقصود في الآية الكريمة السابقة ، هم ذرية من آل فرعون ، وليس من بني إسرائيل . فيقول ابن كثير[١] :

((يُخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات ، والبراهين الساطعات ، إلا قليل من قوم فرعون من الذرية ، وهم الشباب ، على وجلٍ وخوف منه ومن ملأه أن يردّوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر ....

عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن الذرية التي آمنت لموسى ، من أُناسٍ غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسيرٌ ، منهم : امرأة فرعون ، ومؤمن آل فرعون ، وخازن فرعون ، وامرأة خازنه .... والمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام واستبشروا به ، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة ، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويُظهرهم عليه ، ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذر منهم كل الحذر ، فلم يُجْدِ عنه شيئاً ، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى و ﴿ **قالوا أُوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يُهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون** ﴾[٢] ، وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل ﴿ **على خوف من فرعون وملأهم** ﴾ أي وأشراف قومه أن يفتنهم ، و لم يكن في بني إسرائيل من يُخَافُ منه أن يُفتَنَ عن الإيمان سوى قارون ، فإنه كان من قوم موسى فبغى عليهم لكنه كان طاوياً إلى فرعون متصلاً به متعلقاً بحباله)) .

وهذا ما ذهب إليه سيد قطب[٣] رحمة الله عليه .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ – ص ٤٢٨ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٢٩) .

(٣) في ظلال القرآن ، ج ٣ ، ص ١٨١٥ .

والحق ، أن رأي ابن كثير رحمة الله عليه أقرب الآراء صحةً ، وأكثرها إطمئناناً للنفس ؛ لأن بني إسرائيل الذين أُرسل إليهم موسى عليه السلام أشار إليهم القرآن الكريم بلفظ ﴿ **عبادي** ﴾ أي عباد الله عز وجل ، فمن غير المعقول أن يكونوا عباداً لله ولا يتبعون رسوله ويُطيعونه فيما يأمرهم به ، رغم ما حدث منهم بعد ذلك من إنحرافات ، خاصة وأنه أُرسل لإخراجهم مما كانوا فيه من العنت والذل تحت سطوة فرعون وجبروته .

قال تعالى : ﴿ **ولقد أوحينا إلى موسى أن أسرِ بعبادي** ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن أسرِ بعبادي إنكم مُتّبَعون** ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ **فأسرِ بعبادي ليلاً إنكم مُتّبَعون** ﴾(٣) .

هذا بالإضافة إلى أن الآيات القرآنية التي أعقبت الآية ٨٣ من سورة يونس تدل على أن بني إسرائيل كانوا مؤمنين ومسلمين ، ومتبعين لموسى عليه الصلاة والسلام ، فقال تعالى إخباراً عنهم :

﴿ **وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين • فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين • ونجنا برحمتك من القوم الكافرين • وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوّءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قِبلةً وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين** ﴾(٤) .

ومن غير المستبعد أن يكون من بني إسرائيل مَنْ قد ساورهم الخوف في إتّباع موسى عليه السلام ؛ إلا أن الغالبية العظمى يظهر أنهم آمنوا واتبعوا الرسول ، كما سيتبين ذلك في موضوع الخروج من مصر .

وقد أشار القرآن الكريم إلى شخصية هامة كانت معاصرة لموسى عليه السلام ، وفي نفس الوقت من بني إسرائيل ، وهو قارون ، الذي آتاه الله من الكنوز والأموال ما ينوء بحملها الأشداء والأقوياء من الرجال ، وبالرغم من ذلك كفر بما جاء به رسول الله وصَدَّ عن دعوة الله ، فأهلكه الله عز وجل .

---

(١) سورة طه ، الآية (٧٧) .

(٢) سورة الشعراء ، الآية (٥٢) .

(٣) سورة الدخان ، الآية (٢٣) .

(٤) سورة يونس ، الآيات (٨٤ - ٨٧) .

قال تعالى : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لَتَنوءُ بالعصبة أُولي القوة إذ قال له قومُهُ لا تفرح إنّ ا لله لا يُحبُّ الفرحين • وابتغ فيما آتاك ا لله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن ا لله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن ا لله لا يحب المفسدين • قال إنما أوتيته على علمٍ عندي أولم يعلم أن ا لله قد أهلكَ من قبله من القرون مَنْ هو أشد منه قوةً وأكثرُ جمعاً ولا يُسئل عن ذنوبهم المجرمون • فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أُوتي قارون إنه لذو حظٍ عظيم • وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثوابُ ا لله خيرٌ لمن آمن وعمل صالحاً ولا يُلقاها إلا الصابرون • فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئةٍ ينصرونه من دون ا لله وما كان من المنتصرين ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبيّنات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبين • إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحرٌ كذاب ﴾[3] .

قال أحد العلماء[4] : ((هو قارون بن يصفد بن يصهر ، ابن عم موسى . وقيل كان عم موسى ، والأول أصح ، فقد روى ابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس : أنه كان ابن عم موسى)) .

وقارون هو الذي ورد اسمه في التوراة[5] باسم " قورح " .

---

(١) سورة القصص ، الآيات (٧٦ – ٨١) .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية (٣٩) .

(٣) سورة غافر ، الآيتان (٢٣ ، ٢٤) .

(٤) أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، راجعه وقدم له وضبط أحاديثه وعلق عليه طه عبد الرؤوف سعد ، ومصطفى محمد الهواري ، والسيد محمد عبد المعطي ، ج ١٣ ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٢٠١ – ص ٢٠٢ .

(٥) سفر الخروج ٦ : ١٨ ، ٢١ ، ٢٤ وكذا سفر العدد ١٦ ، ٢٦ : ٩ ، ٢٧ : ٣ .

أما البغي الذي إتّصف به قارون ، فقد أشار ابن حجر العسقلاني[١] إلى الاختلاف في ذلك فقال : ((قيل : أن بغي قارون كان الحسد ، لأنه قال : ذهب موسى وهارون بالأمر فلم يبق لي شيء .

وقيل : أنه واطأ امرأة من البغايا أن تقذف موسى بنفسها ، فألهمها الله أن اعترفت بأنه هو الذي حملها على ذلك .

وقيل : الكِبْر ، لأنه طغى بكثرة ماله)) .

وقد روى بعض العلماء[٢] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ((كان موسى يقول لبني إسرائيل : إن الله يأمركم بكذا ، حتى دخل عليهم في أموالهم ، فشقّ ذلك على قارون ، فقال لبني إسرائيل : إن موسى يقول : مَنْ زنى رُجم ، فتعالوا نجعل لبغيٍّ شيئاً حتى تقول إن موسى فعل بها ، فيُرجم فنستريح منه . ففعلوا ذلك ، فلما خطبهم موسى قالوا له : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنتُ أنا . فقالوا : فقد زنيت ، فَجزِعَ ، فأرسلوا إلى المرأة ، فلما جاءت عَظّمَ عليها موسى وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل إلاّ صدقت ، فأقَرّت بالحق ، فخر موسى ساجداً يبكي ، فأوحى الله إليه : إني أمرت الأرض أن تُطيعك فأمُرها بما شئت ، فأمرها فخسفت بقارون ومَنْ معه)) .

وهذا جانب من الأذى الذي كان يُلحقه بنو إسرائيل بموسى عليه السلام ، فقد كانوا لا يرعوون ، ولا يُبالون بإلصاق مثل هذه التهم الشنيعة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لذلك كان موسى عليه السلام من الرسل أولي العزم الذين تحمّلوا في سبيل الله المشاقّ والأذى .

وقد أثبت القرآن الكريم ذلك الأذى في قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾[٣] .

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ج ١٣ ، ص ٢٠١ - ص ٢٠٢ . وانظر :
محمد الطيب النجار : المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١٥ - ص ١١٦ وكذا
ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ٣١٠ وكذا
ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٢٠١ - ص ٢٠٢ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية (٦٩) .

وقد ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال[1] : قسم النبي ﷺ قَسْماً ، فقال رجلٌ : إن هذه لقسمة ما أُريدَ بها وجه الله ، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه ، ثم قال : « يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر » .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري[2] بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى كان رجلاً حَيِيّاً سِتّيراً لا يُرى من جلده شيءٌ استحياءً منه ، فآذاه مَنْ آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا : ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده ، إما برصٌ وإما أُدْرَةٌ[3] ، وإما آفةٌ ، وإن الله أراد أن يُبرّئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول :

ثوبيَ حَجَرُ ، ثوبيَ حَجَرُ ، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عُرْياناً أحسنَ ما خلق الله ، وأبرأه مما يقولون . وقام حجرٌ فأخذ بثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إنّ بالحجر لَنَدْباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ، فذلك قوله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾** » .

وفي هذا الحديث الشريف بيان أن الأنبياء في خَلقهم وخُلقهم على غاية الكمال ، وأن من نسب نبياً من الأنبياء إلى نقصٍ في خِلْقته فقد آذاه ويُخشى على فاعله الكفر .

---

(١) ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ١٨٩ ، حديث رقم ٣٤٠٥ .
وهناك روايات متعددة لهذا الحديث أوردها ابن حجر أيضاً . انظر :
ج ١٦ ، ص ١٧١ ، حديث رقم ٤٣٣٥ ، وحديث رقم ٤٣٣٦ وكذا
ج ٢٢ ، ص ٢٦٧ ، حديث رقم ٦٠٥٩ ؛ ص ٣١١ ، حديث رقم ٦١٠٠ وكذا
ج ٢٣ ، ص ٩٧ ، ص ٩٨ ، حديث رقم ٦٢٩١ ، ص ١٦٢ ، ص ١٦٣ ، حديث رقم ٦٣٣٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ١٨٧ – ص ١٨٨ ، حديث رقم ٣٤٠٤ .

(٣) الأُدرة : انتفاخ الخُصْية ، لِتَسرُّب سائل فيها ، أو تضخمها من فتق أو غيره . انظر :
أبو موسى محمد بن أبي بكر بن أبي عيسى المديني الأصفهاني : المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث ، تحقيق عبد الكريم العزباوي ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، ص ٤٤ وكذا
المعجم الوسيط : ج ١ ، ص ١٠ .

وفيه معجزة ظاهرة لموسى عليه السلام ، وأن الآدمي يغلب عليه طِباعُ البشر لأن موسى علم أن الحجر ما سار بثوبه إلا بأمر من الله ، ومع ذلك عامله معاملة من يعقل حتى ضربه ، ويُحتمل أنه أراد بيان معجزة أخرى بتأثير الضرب بالعصا في الحجر . وفيه ما كان في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الصبر على الجُهّال ، واحتمال أذاهم ، وجعل الله تعالى العاقبة لهم على مَنْ آذاهم(١) .

ومما هو جدير بالذكر ، أن الله عز وجل أخبر في كتابه الكريم عن موقف فئة قليلة من آل فرعون ، حيث آمنوا بما دعا إليه موسى عليه الصلاة والسلام من توحيد الله عز وجل وإلوهيته ، وما أمر الله به .

إلا أن ذلك الإيمان كان على خوفٍ ووجل من فرعون وملأه أن يفتنهم عن دينهم .

قال تعالى : ﴿ **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوفٍ من فرعون وملأهم أن يفتنهم وإن فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين** ﴾(٢) .

بناءً على رأي ابن كثير ، آنف الذكر ، من أن هذه الاية تشير إلى إيمان ذرية وفئة قليلة من آل فرعون بموسى عليه السلام ؛ فإن ذلك يبدو معقولاً لكثرة ما طغى فرعون على المؤمنين وعلى بني إسرائيل ، حيث شرع بعد مجيء موسى عليه السلام بقتل أبناء المؤمنين واستحياء النساء ، كما في قوله تعالى : ﴿ **فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال** ﴾(٣) .

بل وتجرأ فرعون أيضاً محاولاً قتل الرسول الكريم موسى عليه السلام ، كما أخبر الله تعالى عن ذلك في قوله سبحانه :

﴿ **وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدعُ ربه إني أخاف أن يُبدّل دينكم أو أن يُظهر في الأرض الفساد • وقال موسى إني عُذتُ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾(٤) .

---

(١) ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ١٨٩ .

(٢) سورة يونس ، الآية (٨٣) .

(٣) سورة غافر ، الآية (٢٥) .

(٤) سورة غافر ، الآيتان (٢٦ ، ٢٧) .

فكان المؤمنون من آل فرعون عدداً قليلاً من الناس ، ذكر الله منهم ، كما مرّ آنفاً : الرجل المؤمن ، وامرأة فرعون التي آثرت ما عند الله على ما عند فرعون .

وقد ذكر الله عز وجل في كتابه الكريم موقف ذلك الرجل المؤمن من آل فرعون . ويبدو أنه كان من أعيان دولة فرعون ، وقد آمن بموسى عليه السلام سراً ، واستطاع أن يُثني فرعون عن عزمه في قتل موسى عندما كان فرعون قد تأهب لذلك . ولو لم يكن الرجل كذلك من علوّ المكانة والمنصب في الدولة المصرية لما استطاع أن يجهر بالحق علانية أمام فرعون دون أن يتجرأ أحد من ملأ فرعون على عقابه أو إيقافه . لذلك قام فرعون وملأه في نهاية الأمر بالعزم على قتله والتخلص منه . إلا أن عناية الله عز وجل أدركت هذا المؤمن ، ووقاه شر ما مكروا به من القتل ، ونجاه منهم برحمته وفضله[1] .

قال تعالى :

﴿ وقال رجلٌ مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يكُ كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يُصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرفٌ كذاب • يا قوم لكم المُلْك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد • وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب • مثل دأب قوم نوحٍ وعادٍ وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد • ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد • يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يُضلل الله فما له من هاد • ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شكٍ مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يُضلُّ الله من هو مسرفٌ مرتاب • الذين يُجادلون في آيات الله بغير سلطانٍ أتاهم كَبُرَ مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبرٍ جبار • وقال فرعون يا هامان إبنِ لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب • أسباب السموات فأطّلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً وكذلك زُيّن لفرعون سوء عمله وَصُدّ عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب • وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد • يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار . من عمل سيئة فلا يُجزى إلا مثلها ومن

---

(١) أبو الأعلى المودودي : المرجع السابق ، ص ١٤٢ ، ص ١٤٥ .

عمل صالحاً من ذكـر أو أنثى وهـو مؤمـنٌ فـاولئك يدخلـون الجنـة يُرزقـون فيهـا بغـير حساب • ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النـار • تدعونـني لأكفـر بـا لله وأُشركَ به ما ليس لي به علمٌ وأنا أدعوكـم إلى العزيز الغفار • لا جرم أنما تدعونـني إليـه ليس له دعوةٌ في الدنيـا ولا في الآخـرة وأن مَردّنـا إلى ا لله وأن المسـرفين هـم أصحـاب النار • فستذكرون ما أقول لكم وأُفوّضُ أمري إلى ا لله إن ا لله بصيرٌ بالعباد • فوقاه ا لله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوءُ العذاب ﴾[1] .

وفي موقف مؤمن آل فرعـون في تـأييد رسـول ا لله موسـى عليـه الصـلاة والسـلام ، ومحاجّته لفرعون أمام الملأ ، وما دار خلال ذلك من الحوار « من المعاني السامية ما يتجاوز نطاق القصة ذاتها ، ويتخطى القرون ليبقى صداه عبر الزمان والمكان ... في كلمـةٍ مدويـةٍ صريحة ، جاهداً أن يُثير حساسيتهم بالإقتناع والتخويف ، ولكن في حذرٍ ومهارةٍ وحذق . فكانت كلمةً خالدة في ضمير الزمان ، يستمد منها دعاة الحق في كل عصر حرارة الإيمان، وبراعة المنطق ، وقوة الحجة »[2] .

وكذلك ، أراد ا لله عز وجل بقدرته البالغة أن يؤمـن مـن آل فرعـون أقـرب النـاس إليه ، وهي زوجه آسية بنت مزاحم .

قال ابن حجر العسقلاني[3] : قيل أن آسية بنت مزاحم امرأة فرعون كانت مـن بـني إسرائيل ، وقيل : أنها من العماليق ، وقيـل : ابنـة عـم فرعـون . وإن كـان هنـاك رأي[4] بإحتمال أن تكون آسية امرأة فرعون امـرأة آسـيوية مـن بقايـا المؤمنـين بديـن سمـاوي قبـل موسى عليه الصلاة والسلام .

وقد كان فرعون لما وُصفت له آسية أحب أن يتزوج بها ، فتزوجها على كُرْهٍ منهـا ومن أبيها ، لكنه بذل لهم أموالاً جزيلة ، وزُفّت إليه ودخل عليها ، فلما هَمّ بها أخذه ا لله عنها فلم يقدر عليها ، وكان ذلك حاله معها ، وكان قد رضي منها بالنظر إليها[5] .

---

(١) سورة غافر ، الآيات (٢٨ - ٤٥) .

(٢) التهامي نقرة : المرجع السابق ، ص ٣٢٥ .

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ج ١٣ ، ص ١٩٩ .

(٤) سيد قطب : المرجع السابق ، ج ٦ ، ص ٣٦٢١ .

(٥) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن المقدسي الحنبلي المعروف بـأبي اليُمْـن مجير الدين : الأُنـس الجليـل بتـاريخ القدس والخليل ، ج ١ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٣ م ، ص ٧٤ .

وقد أشار القرآن الكريم إلى إيمان امرأة فرعون في قوله تعالى :

﴿ وضرب ا لله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ونجّني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾[١] .

فأراد ا لله سبحانه وتعالى بها خيراً منذ ولادة موسى عليه السلام ، حين جيء به إلى قصر فرعون ، وقالت كما ذكر القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ وقالت امرأة فرعون قُرّة عينٍ لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون ﴾[٢] . فلما جاء موسى عليه السلام بالرسالة السماوية آمنت با لله وبرسوله ، واختارت القتل على المُلْك ، والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت تعيش فيه ، مُؤثِرةً ما عند ا لله على كل زخرف الحياة الدنيا .

وقد أخبر الرسول الكريم محمد ﷺ عن امرأة فرعون بأنها من النساء اللاتي وصلن إلى الكمال ، فقد روى البخاري[٣] بسنده عن أبي موسى الأشعري رضي ا لله عنه قال : قال رسول ا لله ﷺ :

((كَمُلَ من الرجال كثيرٌ ، ولم يَكمُل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثّريد على سائر الطعام)) .

قال ابن كثير[٤] : ((قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم ، فوا لله ما ضرّ امرأته كُفْر زوجها حين أطاعت ربها ، ليعلموا أن ا لله تعالى حَكَمٌ عَدْلٌ لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه)) .

وممن آمنوا أيضاً من آل فرعون برسالة موسى عليه السلام ماشطة بنت فرعون .

---

(١) سورة التحريم ، الآية (١١) .

(٢) سورة القصص ، الآية (٩) .

(٣) صحيح البخاري ، ج ٣ ، كتاب الأنبياء ، باب قول ا لله تعالى ﴿ وضرب ا لله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ... إلى قوله وكانت من القانتين ﴾ ، ص ١٢٥٢ ، حديث رقم ٣٢٣٠ .
وانظر أيضاً الأحاديث ذات الأرقام : ٣٢٥٠ ، ٣٥٥٨ ، ٥١٠٢ وكذا
ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ١٩٩ ، حديث رقم ٣٤١١ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٣٩٣ .

روى الإمام أحمد بن محمد بن حنبل[(١)] رحمة الله عليه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

((لما كانت الليلة التي أُسري بي فيها ، أتت عليّ رائحةٌ طيبة ، فقلت : يا جبريلُ ، ما هذه الرائحة الطيبة ؟ فقال : هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها . قال : قلت : وما شأنها ؟ قال : بَيْنا هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم إذ سقطت المِدْرَى[(٢)] من يدها ، فقالت : بسم الله . فقالت لها ابنة فرعون : أبي ؟

قالت : لا ، ولكن ربي ورب أبيك الله . قالت : أُخبره بذلك ! قالت : نعم .

فأخبرته فدعاها ، فقال : يا فلانة ، وإنّ لكِ ربّاً غيري ؟ قالت : نعم ، ربي وربُّك الله . فأمر ببقرةٍ من نحاس فأُحميَتْ ، ثم أَمرَ بها أن تُلقى هي وأولادها فيها ، قالت له : إن لي إليك حاجة . قال : وما حاجتك ؟ قالت : أُحبُّ أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد ، وتدفنا . قال : ذلك لك علينا من الحق . قال : فأمرَ بأولادها فأُلقوا بين يديها ؛ واحداً واحداً ، إلى أن انتهى ذلك إلى صبيٍ لها مُرْضَع ، كأنما تقاعست من أجله ؛ قال : يا أُمّهْ ، إقتحمي ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، فاقتحمت)) .

وهكذا كان فرعون قد أخذ على عاتقه مقاومة دعوة التوحيد ، والقضاء على المؤمنين بالرسالة التي جاء بها موسى عليه السلام ، بعد أن احتالته الشياطين فأعرض عن سبيل الله ، وكان كما أخبر الله تعالى عنه :

---

(١) المُسند ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، ج ٤ ، دار المعارف ، مصر ، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م ، ص ٢٩٥ - ص ٢٩٦ ، حديث رقم ٢٨٢٢ .

وهناك روايات أخرى لهذا الحديث فيها بعض الاختلاف في الألفاظ . انظر :

عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ، ومصطفى عبد القادر عطا ، مراجعة نعيم زرزور ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ، ص ٣٤٦ - ص ٣٤٧ وكذا

ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٣ - ص ١٠٤ وكذا

ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٥ وكذا

ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ٣٣١ وكذا

عبد الحميد محمود مطاوع : المرجع السابق ، ص ٦٣ .

(٢) ما يُسوّى به شعر الرأس كالمشط ونحوه . انظر :

المعجم الوسيط ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .

﴿ وكذلك زُيّن لفرعون سوء عمله وصُدَّ عن السّبيل وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾(١) .

فَظلّ في غيّهِ سادراً ، وفي كُفره مجاهراً ، حتى صَبّ الله عليه وعلى ملأه العذاب صباً ، بأن أرسل عليهم الآيات التسع التي كانت كل واحدة أكبر من أختها .

(١) سورة غافر ، الآية (٣٧) .

الآيات التسع التي ايد اللهُ بها موسى عليه السلام :

لقد أشار القرآن الكريم إلى الآيات التسع التي أيد ا لله بها رسوله الكريم موسى عليه الصلاة والسلام ، لإقامة الحجة الكاملة على فرعون وقومه ، فأرسل ا لله عز وجل على قوم فرعون أنواعاً من العذاب ، وأصنافاً شتى من الابتلاءات والمحن والنُّذر لعلهم يتوبون إلى ا لله عز وجل ويرجعون إليه ، ويؤمنون بموسى عليه السلام رسول رب العالمين .

ولكن ا لله عز وجل كتب الشقاء على فرعون وقومه ، فما اتعظوا وما رجعوا ، حيث ظلوا في غيهم سادرين ، وصدق ا لله العظيم إذ يقول : ﴿ **ولقد جاء آل فرعون النُّذُر • كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر** ﴾(١) .

وهذه الايات التسع التي وردت في القرآن الكريم ، أخبر عنها الخالق سبحانه وتعالى في قوله عز وجل : ﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقصٍ من الثمرات لعلهم يذّكّرون • فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تُصبهم سيئةٌ يطّيّروا بموسى ومَنْ معه ألا إنما طائرهم عند ا لله ولكن أكثرهم لا يعلمون • وقالوا مهما تأتنا به من آيةٍ لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين • فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم أياتٍ مُفصّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين • ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنُؤمننّ لك ولنُرسلنّ معك بني إسرائيل • فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجلٍ هم بالغوه إذا هم ينكثون • فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليمّ بأنهم كذّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين** ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات ا لله فأخذهم ا لله بذنوبهم إن ا لله قويٌ شديد العقاب** ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً • قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً** ﴾(٤) .

---

(١) سورة القمر ، الآيتان (٤١ ، ٤٢) .

(٢) سورة الأعراف ، الآيات (١٣٠ - ١٣٦) .

(٣) سورة الأنفال ، الآية (٥٢) . وانظر الآية (٥٤) .

(٤) سورة الإسراء ، الآيتان (١٠١ ، ١٠٢) .

وما حلّ بفرعون وقومه ، وما أُصيبت به الأرض من قحطٍ وعللٍ وآفات ، بعد إعراضهم عن دعوة الله تعالى ، إنما تُصدقها أحداث التاريخ ؛ فمصر لم تكن بمنجاةٍ مما قد ينزل بها من كوارث ، فربما انحبس نهر النيل فَقلَّ الزرع ، وربما زاد فأغرق البلاد بطوفانه ، وهو في كلا الحالتين نذير النوازل ، ونقصٍ في الثمرات ، فإذا نزل البلاء ، وانتشرت الأمراض والأوبئة حصدت الناس حصداً حتى يُعجزهم عن تشييع موتاهم إلى المقابر[١] .

هذا مع الإشارة إلى أن الأمر بين موسى عليه السلام وفرعون كان معجزة ربانية أيد الله بها رسوله ، وليس بالضرورة أن تتفق المعجزات مع بعض أحداث التاريخ ، فإذا كان لها صدىً في بعض الأحداث التاريخية،فإن ذلك يكون تصديقاً لتلك الأحداث[٢] .

وما حَلّت تلك المصائب ، أو الآيات بآل فرعون إلا ليتذكّروا ضعفهم أمام قوة الله تعالى ، وضعف فرعون نفسه ، وعجزه عن أن يردّ من ذلك شيئاً ، فلعلهم إذا تذكروا اعتبروا واتعظوا ، فرجعوا عن ظلمهم لبني إسرائيل ، وآمنوا بموسى عليه السلام نبياً ورسولاً .

فإن الخوف شدة ، والشدائد من شأنها أن تُرقّق القلوب ، وتُهذّب الطباع ، وتُوجّه الأنفس إلى رضى الله والتضرع له دون غيره[٣] . والمعهود أن يكون الناس في الشدائد ألين نفوساً ، وأشد لله خضوعاً ؛ لذلك ابتلاهم الله بالجدب والقحط حتى غاض النيل فَقلّتْ ثمراتهم .... وأشد الناس حيرة واضطراباً في الحياة غير المؤمنين ، فهم في خوفٍ دائمٍ مما لا يُخيف ؛ لأنهم يُعلّقون حياتهم وكل ما يجري عليهم فيها بالظروف والصُّدَف[٤] .

والآيات التسع التي أشارت إليها الآيات القرآنية آنفة الذكر أشارت إليها المصادر الإسلامية[٥] ، وهي :

---

(١) أحمد عبد الحميد يوسف : مصر في القرآن والسنة ، ص ١١١ .

(٢) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٤٣٧ .

(٣) محمد أحمد العدوي : المرجع السابق ، ص ١٩١ .

(٤) التهامي نقرة : المرجع السابق ، ص ٤٤٦ ، ص ٤٤٧ .

(٥) انظر :

الطبري : تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٤١٠ - ص ٤١١ ، ص ٤١٧ - ص ٤١٨ وكذا

ابن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٤٤ ، ص ٣٤٥ وكذا

ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٥ وكذا

القرطبي : المصدر السابق ، المجلد الرابع ، ج ٧ ، ص ١٧٠ - ص ١٧٣ وكذا

ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ - ص ٢٤١ وكذا

ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ٢٦٤ ، ص ٢٦٥ .

أولاً : السنين ، وهي أعوام القحط والجدب التي حلّت بأرضهم ، فلم يُزرع فيها شجر .

ثانياً : النقص من الثمرات .

ثالثاً : الطوفان ، وهو كثرة الأمطار المغرقة والمتلفة للزروع والثمار ، أو أنه فيضان نهر النيل عليهم .

رابعاً : الجراد ، الذي أتلف الزرع والثمار .

خامساً : القُمّل ، الذي هو البعوض الذي أقضّ مضاجعهم بحيث لم يستطيعوا النوم والعيش . أو هو السوس الذي يُفسد الحبوب . أو أنه القمل المعروف .

سادساً : الضفادع .

سابعاً : الدم ، حيث تحول الماء عندهم إلى دم ، فلا يستقون من شيءٍ إلا وانقلب الماء فيه إلى دم .

ثامناً : العصا ، التي كانت تتحول بأمر الله تعالى إلى حية تسعى .

تاسعاً : اليد ، حيث كان موسى يضع يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء ، أي من غير برص .

وبالرغم من هذه الآيات العظام ، والمعجزات البيّنات ؛ إلا أن آل فرعون واجهوا موسى عليه السلام بالسخرية والاستهزاء ، مع أنهم كانوا يدركون صدق موسى عليه السلام ، وأنه مؤيد بالوحي الرباني .

إلا أنه استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، فكانوا كما أخبر الله تعالى عنهم : ﴿ **فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون • وما نُريهم من آيةٍ إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون • وقالوا يا أيها الساحر ادعُ لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون • فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون** ﴾[1] .

الطبري : تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٤١٠ – ص ٤١١ ، ص ٤١٧ – ص ٤١٨ وكذا
ابن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٤٤ ، ص ٣٤٥ وكذا
ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٥ وكذا
القرطبي : المصدر السابق ، المجلد الرابع ، ج ٧ ، ص ١٧٠ – ص ١٧٣ وكذا
ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ – ص ٢٤١ وكذا
ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ٢٦٤ ، ص ٢٦٥ .

(١) سورة الزخرف ، الآيات (٤٧ – ٥٠) .

« فلما عاينوا العذاب قالوا : يا أيها الساحر ؛ نادوه بما كانوا ينادونه به من قبل ذلك على حسب عادتهم . وقيل : كانوا يُسمّون العلماء سحرة ، فنادوه بذلك على سبيل التعظيم ... حيث كان الساحر فيهم عظيماً يوقّرونه ، ولم يكن السحر صفة ذم ... أو أن يكون أرادوا به الساحر على الحقيقة على معنى الإستفهام ، فلم يَلُمْهم على ذلك رجاء أن يؤمنوا »[١] .

فكان علماء زمانهم هم السحرة ، ولم يكن السحر في زمانهم مذموماً عندهم ، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص ، لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك ، وإنما هو تعظيم في زعمهم[٢] .

إلا أن الراجح – والله أعلم – أنهم كانوا ينادونه بتلك الصفة ، لأنهم كانوا عازمين على الاستمرار في الكفر ، وعدم الإيمان بالله تعالى في قلوبهم ، بدليل قولهم ﴿ **ادع لنا ربك** ﴾ فلو كانوا يريدون الإيمان حقاً لقالوا ﴿ **ربنا** ﴾ ، فهم سألوا موسى أن يدعو ربه بما عهد عنده من إجابة الدعاء في أن يكشف عنهم ما حَلّ بهم من العذاب حتى يهتدوا ويؤمنوا ؛ ولكنهم ما إن يكشف الله عز وجل عنهم العذاب حتى يعودوا إلى سيرتهم الأولى من الكفر والجحود والنكران[٣] .

وقد ذكر الله سبحانه أنه أوقع عليهم العذاب بعد تلك الآيات ، فما كان منهم إلا أن قالوا لموسى عليه السلام كما قال تعالى عنهم :

﴿ **ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل • فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجلٍ هم بالغوه إذا هم ينكثون** ﴾[٤] .

وكان هذا العذاب الذي صَبّهُ الله عليهم عذاباً شديداً ، بحيث أنهم وعدوا موسى عليه السلام في حالة كشف ذلك عنهم ورفعه ، أن يُطلقوا بني إسرائيل ليذهبوا مع موسى عليه السلام حيث أراد . إلا أنهم كانوا قوماً ناكثي العهود ، فما أن استجاب الله لموسى

---

(١) القرطبي : المصدر السابق ، المجلد الثامن ، ج ١٦ ، ص ٦٥ .

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ١٢٩ .

(٣) فضل حسن عباس : المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

(٤) سورة الأعراف ، الآيتان (١٣٤ ، ١٣٥) .

دعاءه برفع ذلك حتى رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر با لله ، وعدم التصديق بما جاء به الرسول الكريم صلى ا لله عليه وسلم .

وقد روى السيوطي[١] عند تعليقه على الرجز الذي أُرسل على قوم فرعون بقوله :

((أخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير ، عن سعيد بن جبير : أنه الطاعون ، وكان أول طاعون في الدنيا أرسله ا لله على قوم فرعون)) .

أما روايات التوراة عن هذه الآيات ، فقد وردت الإشارة لذلك في سفر الخروج من الاصحاح السابع إلى الاصحاح الثاني عشر . وقد أطلقت التوراة على هذه الآيات اسم " الضربات "[٢] وذكرت أنها عشر ضربات ، هي :

الأولى : تحويل مياه النيل إلى دم ، أو شيء مثيل له .

فقد جاء في التوراة[٣] :

((ثم قال الرب لموسى قل لهارون خُذ عصاك ومُدَّ يدك على مياه المصريين على أنهارهم وعلى سواقيهم وعلى آجامهم وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دماً . فيكون دمٌ في كل أرض مصر في الأخشاب وفي الأحجار . ففعل هكذا موسى وهارون كما أمر الرب . رفع العصا وضرب الماء الذي في النهر أمام عيني فرعون وأمام عيون عبيده . فتحول كل الماء الذي في النهر دماً . ومات السمك الذي في النهر ، وأنتن النهر . فلم يقدر المصريون أن يشربوا ماءً من النهر . وكان الدم في كل أرض مصر)) .

ولقد ورد في النصوص المصرية القديمة من الأساطير ما يشير إلى أن نهر النيل قد تحول لونه إلى لون الدم ، وذلك في فترة نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى (٢٣٠٠ - ٢٠٥٠ ق.م) . فقد ورد في الأدب المصري القديم ما يعرف بـ" عِظات الحكيم المصري إيبو – ور Ipu - wer "[٤] التي يعود تاريخها إلى الفترة الزمنية آنفة الذكر،

(١) الوسائل إلى معرفة الأوائل ، ص ٤٢ .

(٢) انظر دراسة جيدة عن هذه الضربات :

Greenberg , M . , " The Redaction of the Plague Narrative in Exodus " , In Near Eastern Studies in Honor of William Foxwell Albright , Edited by Hans Goedicke , The John Hopkins Press , Paltimore and London , 1971 , PP . 243 - 252 .

(٣) سفر الخروج ٧ : ١٩ - ٢١ .

(٤) Wilson , J . A . , " Egyptian Oracles and Prophecies - The Admonitions of Ipu - Wer " , ANET , P. 441 .

وهي تتحدث عن الاضطرابات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعيـة في البـلاد . فذكـر إيبو – ور بأن « نهر النيل كان دماً ، وأن الذي حاول أن يشرب من ماءه قد امتنـع عليـه وذهب ظمآناً » .

وهناك إتجاه في تفسير ما حدث من تغيّر الماء إلى لـون الـدم : بـأن التربـة في حـوض النيل الأزرق ، وروافده نهر عطبرة ، هي تربة حمراء ، وهـذه التربـة تمتـد علـى طـول مجـرى النهر ، مما يُسبّب قدراً هائلاً من الرواسب الحمراء التي تُنقل إلى النيل عن طريق الفيضانـات غير العادية عندما تحدث . وتُحمل هذه الرواسب على طـول مجـرى النيـل ، وتكـون مـن الكثرة بحيث لا يمكن فصلها ، حتى في حجم الفيضانات العادية . وهذه ربما أدت إلى تغيّر لون الماء عبر الأراضي المصرية ، بحيث أعطت المظهر الأحمر الدموي(١) .

ولا يمكن الاعتماد على هذا الرأي ، لأن سياق الأحداث من خلال الآيات القرآنيـة آنفة الذكر ، وما ورد أيضاً في التوراة ؛ يدل دلالة قاطعـة علـى تحـول المـاء إلى دم حقيقـي وليس للتربة الحمراء أي علاقة بهذه المعجزة الربانية . بل إن تغيّر الماء وتحوّله إلى دم أظهـر للمعجزة وأدلُّ على عِظَمِ الآية التي أيد ا لله عز وجل بها رسوله موسى عليه السلام .

الثانية : ضربة الضفادع .

جاء في التوراة(٢) : « قال الرب لموسى ادخل إلى فرعون وقل له هكذا يقـول الـرب أطلق شعبي ليعبدوني. وإن كنت تأبى أن تُطلقهم فها أنا أضرب جميع تخومك بالضفادع. فيفيض النهر ضفادع . فتصعد وتدخل إلى بيتك وإلى مخدع فراشـك وعلـى سـريرك وإلى بيوت عبيدك وعلى شـعبك وإلى تنانـيرك وإلى معـاجنك . عليـك وعلـى شـعبك وعبيـدك تصعد الضفادع . فقال الرب لموسى قل لهارون مُدَّ يدك بعصـاك علـى الأنهـار والسـواقي والآجام وأصعد الضفادع على أرض مصر . فمدَّ هارون يده على مياه مصـر . فصعـدت الضفادع وغطّت أرض مصر » .

فهذه البرمائيات تصير عادة أرضية عند انخفاض النيل في سـبتمبر – اكتوبـر ، ولكـن في ذلك العام غزت الضفادع الأرض بصورة استثنائية خـلال فـترة الطوفـان أو الفيضـان .

(١) Sarna , N . M . , Exploring Exodus the Heritage of Biblical Israel , Schocken Books , New york , 1989 , PP . 70 - 71 .

(٢) سفر الخروج ٨ : ١ – ٦ .

وبالإمكان تفسير ذلك بتلوّث البيئة الطبيعية للضفادع ، والذي سبّبته الأسماك الميتة . فخرجت هذه المخلوقات تبحث عن ملجأ لها في الأرض الجافة ، بعد أن أُصيبت – كما يبدو – بصورة ما بنوعٍ من البكتيريا التي تُكوِّن نوعاً من الجراثيم عالية المقاومة ، والتي تُنقل بواسطة الحشرات . ويظهر أن الكميات الهائلة من الأسماك المتعفنة قد كَوّنت أرضية قابلة لإنتشار المرض الذي قضى بالموت فيما بعد على الضفادع(١) .

والحق ، أن تلك الضفادع الهائلة الكثرة التي غطّت أرض مصر هي معجزة أخرى لموسى عليه السلام ، خرجت بأمر الله وقدرته . وهي معجزة تتخطى المقاييس البشرية ، ولا تخضع للتفسيرات المادية أو الحسية ، على نحو ما ذهب إليه ناحوم سارنا في رأيه السابق . فالمعجزة بذلك الوصف الذي ورد في الفقرات السابقة من سفر الخروج تُبين مدى تأثير هذه الآية العظيمة على فرعون وملأه وقومه ، والتي أحالت حياتهم إلى حدٍ لا يُطاق من نكد العيش ، الأمر الذي جعلهم يهرعون إلى موسى عليه السلام يرجونه أن يدعو ربه ليكشف عنهم ذلك البلاء « فدعا فرعون موسى وهارون وقال صَلّيا إلى الرب ليرفع الضفادع عني وعن شعبي فأُطلق الشعب ليذبحوا للرب »(٢) .

الثالثة : ضربة البعوض .

بعد أن دعا موسى عليه السلام ربه بأن يكشف عنهم عذاب الضفادع ، استجاب الله تعالى لرسوله فماتت الضفادع من البيوت والدور والحقول . ولكن فرعون وقومه عادوا إلى ما كانوا عليه . فأمر الله عز وجل رسوله ، كما جاء في التوراة(٣) :

« ثم قال الرب لموسى قل لهارون مُدّ عصاك واضرب تراب الأرض ليصير بعوضاً في جميع أرض مصر . ففعلا كذلك . مدّ هارون يده بعصاه وضرب تراب الأرض . فصار البعوض على الناس وعلى البهائم . كلُّ تراب الأرض صار بعوضاً في جميع أرض مصر » .

وحشرات البعوض الماصّة للدم تتوفر بكثرة في مصر خلال فترة اكتوبر – نوفمبر . ولابد أن الفيضان غير العادي للنيل قد كثّف من كثرته ، رغم أنها تتكاثر أصلاً بسرعة ، فكانت عليهم بمثابة كارثة لم تنته إلا تدريجياً(٤) .

---

(١) Sarna , N , M . , Op . Cit . , P . 71 .

(٢) سفر الخروج ٨ : ٨ .

(٣) سفر الخروج ٨ : ١٦ – ١٧ .

(٤) Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 71 .

هذا بالإضافة إلى أن البعوض أيضاً قد سبّبَ الأذى للبهائم ، حيث كان يلسع أنوفها وعيونها ، ويجعلها تهيج هياجاً شديداً ، وكثيراً ما كانت تقتل نفسها من شدة الألم[١] .

الرابعة : ضربة الذباب أو الذُّبّان .

جاء في التوراة[٢] : « ففعل الرب هكـذا . فدخلت ذُبّانٌ كثيرة إلى بيت فرعون وبيوت عبيده . وفي كل أرض مصر خربت الأرض من الذُّبّان » .

فسلط الله عليهم هذا البلاء ، وأفسد عليهم معيشتهم ، رغم حقارة هذه الحشرة وضعفها ؛ إلا أن الله عز وجل جعلها آية عظيمة لفرعون وقومه لا يستطيعون لها دفعاً .

ونص التوراة : « خربت الأرض من الذُّبّان » يدل على أن بعض ذلك الذُّبّان كان نوعاً من الهوام المهلكة للزروع أيضاً ، والضارة بالإنسان والبهائم ، بحيث كان شراً من البعوض[٣] .

وقد يكون هذا الذُّبان هو ذُبّان الاسطبلات على وجه الخصوص ، الذي يتصف بشراسته وقدرته على امتصاص الدماء ، ومضاعفة أعداده بسرعة ، واختفائه كذلك بسرعة . مما يُفسر خلوّ إقليم جوشن من ذلك ، بسبب المناخ المعتدل الذي يسود في المنطقة ، وهو مناخ البحر المتوسط[٤] .

وقد كان المصريون يُراعون منتهى الدّقة في النظافة ، وخاصة الكهنة منهم ، حيث كانوا يغتسلون مراراً ، ويحلقون شعورهم حتى لا يعلق بها أي دنس يُعطّلهم عن واجباتهم الدينية . لذلك كانت ضربة البعوض وضربة الذبّان أليمة بالنسبة إليهم ، وبغيضة أيضاً إلى نفوسهم ، مما جعل فرعون يكرر طلبه إلى موسى أن يدعو الله ليكشف عنهم هذه المصائب ، في مقابل أن يسمح لبني إسرائيل أن يذبحوا لربهم في البرية ، على ألا يتعدوا كثيراً ، فما أن دعا موسى ربه بكشف البلاء عنهم ، واستجاب الله له دعائه حتى عاد فرعون إلى موقفه السابق من الكفر والعناد ، ومنع بني إسرائيل من الخروج مع موسى عليه السلام[٥] .

---

(١) وليم مارش : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٣٦ .
(٢) سفر الخروج ٨ : ٢٤ .
(٣) وليم مارش : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٣٧ .
(٤) Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 71 .
(٥) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٤٣٤ .

الخامسة : الوباء على البهائم .

ورد في التوراة[١] : « ثم قال الرب لموسى ادخل إلى فرعون وقل له هكذا يقول الرب إله العبرانيين أطلق شعبي ليعبدوني . فإنه إن كنت تأبى أن تُطلقهم وكنت تُمسكهم بَعْدُ فها يد الرب تكون على مواشيك التي في الحقل على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم وباءً ثقيلاً جداً » . « فماتت جميع مواشي المصريين . وأما مواشي بني إسرائيل فلم يمت منها واحد »[٢] .

السادسة : ضربة الدمامل على الناس والبهائم .

جاء في التوارة[٣] : « ثم قال الرب لموسى وهارون خُذا ملء أيديكما من رماد الأتون . وَلْيُذَرِّهِ موسى نحو السماء أمام عيني فرعون . ليصير غباراً على كل أرض مصر. فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة بِبُثورٍ في كل أرض مصر . فأخذا رماد الأتون ووقفا أمام فرعون وذرّاهُ موسى نحو السماء . فصار دمامل بُثُورٍ طالعةً في الناس وفي البهائم » .

السابعة : ضربة البَرَد .

جاء في التوراة[٤] : « ثم قال الرب لموسى مُدّ يدك نحو السماء ليكون بَرَدٌ في كل أرض مصر على الناس وعلى البهائم وعلى كل عشب الحقل في أرض مصر . فمدّ موسى عصاه نحو السماء . فأعطى الرب رعوداً وبَرَداً وجرت نارٌ على الأرض وأمطر الرب بَرَداً على أرض مصر . فكان بردٌ ونارٌ متواصلة في وسط البَرَد . شيءٌ عظيمٌ جداً لم يكن مثله في كل أرض مصر منذ صارت أُمّةً . فضرب البَرَد في كل أرض مصر جميع ما في الحقل من الناس والبهائم . وضرب البرد جميع عُشب الحقل وكَسَّر جميع شجر الحقل إلا أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل فلم يكن فيها بَرَدٌ » .

---

(١) سفر الخروج ٩ : ١ - ٣ .

(٢) سفر الخروج ٩ : ٦ .

(٣) سفر الخروج ٩ : ٨ - ١٠ .

(٤) سفر الخروج ٩ : ٢٢ - ٢٦ .

وهذه الضربة أُنذِرَ بها فرعون إنذاراً هائلاً ، وكانت أول ضربة مُميتة للناس وتُهلك كلَّ مَنْ يتعرض لها حتى الحيوان والنبات والغلال ، لذلك وُصفت بالعظمة المتناهية[١] ، " بَرَداً عظيماً جداً " لما كان لها من نتائج مؤثرة على فرعون وقومه .

وقد عم البَرَد كل أرض مصر ، على الناس وعلى عشب الحقول ، والبهائم ، فكانت عاصفة مُدَمّرة ، على الرغم من أن مثل هذه العواصف الرّعدية التي يتخللها البَرَد نادراً ما تحدث في مصر العليا . أما في شمال مصر ، حيث منطقة مناخ البحر المتوسط فإن هذه العواصف تحدث بكثرة في أواخر الربيع وبداية الخريف . وبين شهري نوفمبر ومارس لا تشهد أرض جوشن عواصف من هذا النوع[٢] .

وظلت الريح تعصف بهم ، ويشتد هبوبها مع البَرَد والرعد ، حتى أرسل فرعونُ إلى موسى عليه السلام يطلب منه كشف هذه المصيبة عنهم ، بعد أن وعده بإطلاق بني إسرائيل . فورد في التوراة[٣] :

((فأرسل فرعون ودعا موسى وهارون وقال لهما أخطأت هذه المرّة . الرب هو البارُّ وأنا وشعبي الأشرار . صَلّيا إلى الرب وكفى حدوث رعود الله والبَرَد فأُطْلِقكم ولا تعودوا تلبثون)) ، ((فخرج موسى من المدينة من لدن فرعون وبسط يديه إلى الرب . فانقطعت الرعود والبَرَد و لم ينصبَّ المطر على الأرض))[٤] . ولكن فرعون عاد إلى النكث بالوعد ، بعد أن رأى انقطاع الرعود والبرد والمطر ، فأصرّ على عدم إطلاق بني إسرائيل .

الثامنة : ضربة الجراد .

جاء في التوراة[٥] : ((ثم قال الرب لموسى مُدّ يدك على أرض مصر لأجل الجراد . ليصعد على أرض مصر ويأكل كلَّ عُشب الأرض كلّ ما تركه البَرَد . فمد موسى عصاه على أرض مصر . فجلب الرب على الأرض ريحاً شرقية كل ذلك النهار وكل الليل . ولما كان الصباح حملت الريحُ الشرقية الجراد . فَصَعِدَ الجرادُ على كل أرض مصر وحَلَّ في

(١) وليم مارش : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٤١ .

(٢) Sarna, N. M., Op. Cit., P. 72.

(٣) سفر الخروج ٩ : ٢٧ – ٢٨ .

(٤) سفر الخروج ٩ : ٣٣ .

(٥) سفر الخروج ١٠ : ١٢ – ١٥ .

جميع تخوم مصر . شيءٌ ثقيل جداً لم يكن قبله جراد هكذا مِثلُه ولا يكون بعده كذلك . وغطى وجه كل الأرض حتى أظلمت الأرض . وأكل جميع عشب الأرض وجميع ثمر الشجر الذي تركه البَرَد . حتى لم يبق شيءٌ أخضر في الشجر ولا في عشب الحقل في كل أرض مصر » .

وكانت هذه الضربة موجعة لفرعون وقومه ، إذ سَلّطَ الله عليهم هذه المخلوقات ، فأكلت كل ثمر الشجر و لم تترك أخضراً إلا أكلته . وكان من الكثرة بحيث غطى وجه الأراضي المصرية التي لم تعهد مثل هذه الكثرة الضخمة .

ويفسر ناحوم سارنا وجود تلك الأعداد الهائلة من الجراد بقوله[1] :

في الفترة من فبراير – مارس فإن الجراد الذي يتكاثر خلال شهور الشتاء يهاجر عادةً إلى فلسطين ومصر ، ومع ذلك يعتمد على اتجاه الرياح . وهو يغزو البلدين من مارس حتى بداية مايو . ولابد أن رياحاً شرقية قوية قد جلبت الجراد إلى مصر . أما الرياح الغربية القوية التي يُقال أنها أبعدته عن حدود مصر فهي رياح بحرية ، مما يعني أنها كانت عاصفة آتية من البحر المتوسط دفعت بالجراد إلى أسفل وادي النيل ، وباتجاه الجنوب إلى خارج حدود البلاد .

وحسب رواية سفر الخروج[2] : « فدعا فرعون موسى وهارون وقال أخطأت إلى الرب إلهكما وإليكما . والآن اصفحا عن خطيّتي هذه المرة فقط . وَصَلّيا إلى الرب الهكما ليرفع عني هذا الموت فقط . فخرج موسى من لدن فرعون وصلى إلى الرب . فَرَدَّ الرب ريحاً غربية شديدة جداً . فحملت الجراد وطرحته إلى بحر سوف . لم تبق جرادةٌ واحدةٌ في كل تخوم مصر » .

ورغم ذلك ظل فرعون ينكث عهوده مع موسى عليه السلام فلم يُطلق بني إسرائيل، فسلّطَ اللهُ عليهم كارثة أخرى هي كارثة الظلام .

التاسعة : ضربة الظلام .

ورد في التوراة[3] : « ثم قال الرب لموسى مُدّ يدك نحو السماء ليكون ظلامٌ على أرض مصر . حتى يُلْمَس الظلامُ . فمد موسى يده نحو السماء فكان ظلامٌ دامسٌ في كل أرض مصر ثلاثة أيام . ولكن جميع بني إسرائيل كان لهم نورٌ في مساكنهم » .

---

(١) Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 72 .

(٢) الاصحاح ١٠ : ١٦ – ٢٠ .

(٣) سفر الخروج ١٠ : ٢١ – ٢٣ .

وكانت ضربة الظلام أيضاً بلا تحذير سابق لفرعون . ولعلها نشأت عن رياح الصحراء الحارة المعروفة بالخماسين والتي تجتاح البلاد المصرية كل عام في فصل الربيع ، وتحمل كثيراً من الرمال ، حيث يتغيّر الجو ويصير ثقيلاً ، وتبدو الرمال وكأنها سحاب يحجب الشمس ، فيبدو حالكاً كأنه ظلام الليل ، والذي قد يستمر لعدة أيام ، فيلزم الناس مساكنهم . أو أن تكون تلك الضربة بسبب ضباب كثيف جداً دام نحو ثلاثة أيام ، ولم يستطع أن يرى بعضهم بعضاً ، مما أوقع الرعب في قلوبهم[١] .

وقد ورد في نبوءة نفرتي[٢] :

« لقد تَغطّى قرص الشمس . ولن تُشرق ليرى الناس . ولن يستطيع أحدٌ الحياة عندما تُغطّي السُّحبُ (الظلام) الشمس » .

ولما أصاب العنت فرعون وقومه من ذلك الظلام الدامس ، حيث تعطّلت أعمالهم ، دعا فرعون موسى عليه السلام وقال له[٣] : « اذهبوا اعبدوا الرب . غير أن غنمكم وبقركم تبقى . أولادكم أيضاً تذهب معكم . فقال موسى أنت تُعطي أيضاً في أيدينا ذبائح ومُحرَقات لِنصنَعَها للرب إلهنا . فتذهب مواشينا أيضا معنا . لا يبقى ظِلْفٌ . لأننا منها نأخذ لعبادة الرب إلهنا . ونحن لا نعرف بماذا نعبد الرب حتى نأتي إلى هناك . ولكن شَدّدَ الربُّ قلب فرعون فلم يشأ أن يُطلقهم . وقال له فرعون إذهب عني . احترز . لا تر وجهي أيضاً . إنك يوم ترى وجهي تموت . فقال موسى نِعمّا قُلتَ . أنا لا أعودُ أرى وجهك أيضاً » .

فكان فرعون – من خلال النصوص السابقة – فظاً مع رسول الله عليه السلام ، وكلّمَهُ بكلمات قاسية تَنمُّ عن مدى غضبه وحنقه ، حتى أنه هدّده بعدم رؤية وجهه مرة أخرى .

---

(١) وليم مارش : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٥٠ وكذا

Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 72 , 73 .

(٢) Wilson , J . A . , " Egyptian Oracles and Prophecies - The Prophecy of Neferti " , ANET , P . 445 .

(٣) سفر الخروج ١٠ : ٢٤ – ٢٩ .

العاشرة : موت الأبكار .

ورد في التوراة[١] : ((فحدث في نصف الليل أن الربّ ضرب كلَّ بِكْرٍ في أرض مصر من بِكْرِ فرعون الجالس على كُرسيّهِ إلى بكر الأسير الذي في السجن وكلَّ بكر بهيمة . فقام فرعون ليلاً هو وكلُّ عبيده وجميع المصريين . وكان صُراخٌ عظيمٌ في مصر . لأنه لم يكن بيتٌ ليس فيه مَيْتٌ)) .

وبناءً على هذا النص ، فإنه لم يبق بيت من بيوت المصريين إلا وكان فيه ميت ؛ إذ مات كل ابنِ بكْرٍ ، وعمَّ ذلك جميع المصريين فمات بكر فرعون ، والأبناء البكور للكهنة، والتجار ، والفلاحين ، وحتى الأبناء الأبكار للأسرى الذين في السجون .

يقول أحد مفسّري التوراة[٢] :

وكان ذلك في وقت النصف من الليل ، وتلك ساعة من أشد ساعات الليل هولاً ، حيث شدة الظلام وسكون الحركات . فكانت مصيبة عظيمة على المصريين تميزت بشدتها وإتيانها في أشد الأوقات وهو نصف الليل ، ثم انها اقتصرت على كل الأبناء الأبكار من المصريين دون أن يصيب الموت أبناء الإسرائيليين ، ثم امتداد هذه الضربة أيضاً إلى أبكار البهائم التي يملكها المصريون .

وبعد ذلك أرسل فرعون إلى موسى وهارون عليهما السلام يبلغهما بالسماح لبني إسرائيل بالخروج من أرضه ، كما جاء في نص التوراة[٣] :

((فدعا موسى وهارون ليلاً وقال قوموا اخرجوا من بين شعبي أنتما وبنو إسرائيل جميعاً . واذهبوا اعبدوا الرب كما تكلمتم . خذوا غنمكم أيضاً وبقركم كما تكلمتم واذهبوا . وباركوني أيضاً . وألحَّ المصريون على الشعب لِيُطلقوهم عاجلاً من الأرض . لأنهم قالوا جميعنا أمواتٌ)) .

وقد جاء في تفسير كلمة " وباركوني " الواردة في النص : أن فرعون أدرك أن لموسى عليه السلام قوة وسلطاناً فقد ((بلغ تواضع فرعون بتلك الضربة حَدّاً بعيداً ، حتى أنه طلب بركة مَنْ كان يحتقره ويوبّخه ويُنذره وينتهره ... وطرده من حضرته وأوعده

(١) سفر الخروج ١٢ : ٢٩ - ٣٠ .

(٢) وليم مارش : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٦١ .

(٣) سفر الخروج ١٢ : ٣١ - ٣٣ .

بالقتل ... فالذي كان له ، بحسب المتعارف ، قدرة وسلطان على قتل موسى وإبقائه حياً، شعر بأن لموسى سلطاناً على أن يُباركه أو يلعنه))[1] .

هذا ما أشارت إليه التوراة في موضوع الآيات التي أيد الله بها موسى عليه السلام ، وهي تتفق مع ما ورد في القرآن الكريم في أربع آيات ، والتي أطلقت عليها التوراة اسم " ضربات " وهي :

الدم والضفادع والقمل (البعوض) والجراد .

ولاشك أن ما ورد في القرآن الكريم ، فيما يتعلق بهذا الشأن ، هو الحق والصدق ، حيث أشار إلى تسع آيات بيّنات ، فيما أشارت التوراة إلى عشر ضربات . ويمكن قبول ما أشارت إليه التوراة في حالة اعتبار ذلك من أنواع العذاب الذي أصاب فرعون وقومه ، نتيجة إعراضهم عن دعوة الله ، حيث سلّط عليهم بعض الأوبئة التي لم تكن في أسلافهم ، لعلهم يرجعون ويؤمنون برسالة موسى عليه السلام ، ويرسلون معه بني إسرائيل .

أما الآيات التسع التي ذكرها القرآن الكريم ، كما سبقت الإشارة لذلك ، فهي مُعجزات ربانية أيد الله بها رسوله ، ولم يستطع فرعون وقومه لها دفعاً ، ولم يكن لهم حولٌ ولا قوة في التخلص من أيٍ منها ، حتى كان موسى عليه السلام يدعو ربه ليكشف عنهم العذاب بعد أن يطلبوا منه ذلك ، ويواعدوه على الإيمان ، وإرسال بني إسرائيل معه .

لذلك فإن الله عز وجل أراد أن يقضي أمره على فرعون وقومه ، بعد أن أقام عليهم الحجة البالغة ، وأراهم على يد رسوله الكريم من الآيات البينات ما يدل على صدق رسوله ، إلا أنهم كما قال الله تعالى : ﴿ **فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين** ﴾[2] ، فكتب الله عز وجل على فرعون وقومه الشقاء والعذاب ، بعد إعراضهم عن ذكر الله ودعوته ، فاستدرجهم الله عز وجل كما قال في كتابه الكريم : ﴿ **والذين كذّبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون • وأملي لهم إن كيدي متين** ﴾[3] .

---

(١) وليم مارش : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٢ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٣٣) .

(٣) سورة الأعراف ، الآيتان (١٨٢ ، ١٨٣) .

رغم أنهم كانوا يُدركون تماماً ، أن تلك الآيات التي أيد الله عز وجل بها رسوله كافية لإيمانهم ، ولكنهم جحدوا بها ، كما قال تعالى : ﴿ **فلما جاءتهم آياتنا مُبصرةً قالوا هذا سحرٌ مبين • وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظُلماً وعُلوّاً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾[1] .

وبعد ذلك أمر الله عز وجل رسوله الكريم بأن يخرج ببني إسرائيل من مصر ، لِيُتِمَّ الله عز وجل أمره ، ويُهلِكَ عدوَّه فرعون وقومه ، على نحو ما سيأتي بيانه إن شاء الله في الباب الثاني .

(١) سورة النمل ، الآيتان (١٣ ، ١٤) .

الباب الثاني

خروج بني إسرائيل من مصر

الفصل الأول

خروج بني إسرائيل من مصر

أولاً: الاستعداد للخروج، وأهم الأسباب لخروجهم.

كان موسى عليه السلام قبل خروجه ببني إسرائيل من مصر ، يحث قومه على الصبر والاستعانة با لله عز وجل ، ويخبرهم باقتراب الفرج من عند ا لله عز وجل .

قال تعالى : ﴿ **قال موسى لقومه استعينوا با لله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾[1] .

فأمرَ موسى عليه السلام قومه بشيئين ، وبشّرهم بشيئين :

أما اللذان أمر بهما ، فالإستعانة با لله تعالى ، والصبر على بلاء ا لله . وإنما أمرهم أولاً بالاستعانة با لله تعالى ، لأن من عرف أنه لا مُدبّر في العالم إلا ا لله تعالى،انشرح صدره بنور معرفة ا لله تعالى ، وحينئذٍ يسهل عليه أنواع البلاء ، ولأنه يرى عند نزول البلاء أنه إنما حصل بقضاء ا لله تعالى وتقديره . واستعداده بمشاهدة قضاء ا لله خَفّف عليه أنواع البلاء . وأما اللذان بشّر بهما ، فالأول قوله ﴿ **إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده** ﴾ ، وهذا إطماع من موسى عليه السلام قومَه في أن يورثهم ا لله تعالى أرض فرعون بعد إهلاكه ، وذلك معنى الإرث ، وهو جعل الشيء للخلف بعد السلف . والثاني قوله ﴿ **والعاقبة للمتقين** ﴾ . فإما يكون المراد أمر الآخرة فقط أو أمر الدنيا فقط ، وهو الفتح والظفر ، والنصر على الأعداء ، أو أن يكون ذلك مجموع الأمرين[2] .

لكن من المعلوم أن بني إسرائيل لم يرثوا أرض فرعون في مصر بعد هلاكه ، وإنما خرجوا منها متجهين إلى أرض كنعان عبر منطقة شرق الأردن . فأورثهم ا لله عز وجل أرضاً شبيهة بأرض مصر من حيث النعم والأرزاق فيها .

قال سيد قطب[3] :

فقام موسى عليه الصلاة والسلام يُحدّث بني إسرائيل بقلب النبي ولغته ، ومعرفته بحقيقة ربه ؛ وبسنّته وقَدَرِهِ ، فيوصيهم باحتمال الفتنة ، والصبر على البليّة ، والاستعانة با لله عليها . ويُعرّفهم بحقيقة الواقع الكوني ، فالأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة لمن يتقون ا لله ولا يخشون أحداً سواه . فإذا شكوا إليه أن هذا العذاب الذي يحلّ

---

(١) سورة الأعراف ، الآية (١٢٨) .

(٢) محمد بن عمر بن حسين الملقب بالإمام فخر الدين الرازي : التفسير الكبير ، ج ١٤ ، الطبعة الثالثة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٢١٢ .

(٣) في ظلال القرآن ، ج ٣ ، الطبعة الثانية عشرة ، دار العلم للطباعة والنشر ، جدة ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ ، ص ١٣٥٥ .

بهم قد حلّ بهم من قبل أن يأتيهم ، وهو يحل بهم كذلك بعدما جاءهم ، أعلن لهم رجاءه في ربه أن يُهلك عدوهم ، ويستخلفهم في الأرض ليبتليهم في أمانة الخلافة .

وقال تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوّءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين** ﴾[١] .

وقد ذهب بعض المفسرين[٢] ، إلى أن الله عز وجل أوحى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذوا بيوتاً لهم متميزة فيما بينهم عن بيوت المصريين ، ليكونوا على أُهبةٍ في الرحيل إذا أُمروا به ، ليعرف بعضهم بيوت بعض ، ولتكون أيضاً مباءةً ومرجعاً لقومهم يرجعون إليها في العبادة والسكنى ، ويستوطنونها ، وأن يجعلوا بيوتهم مساجد متوجهة نحو القبلة . وقيل : أنهم أُمروا بأن يجعلوا بيوتهم مساجد ، خيفةً من الكفرة، لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم . أو أنهم أُمروا بذلك لأن فرعون أمر بتخريب مساجد بني إسرائيل ومنعهم من الصلاة فيها . وقوله تعالى : ﴿ **واجعلوا بيوتكم قبلة** ﴾ قيل : مساجد ، وقيل معناه : كثرة الصلاة فيها ، مما يدل على الاستعانة على ما هم فيه من الضُر والشدة والضيق بكثرة الصلاة ، وكان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلّى . وقيل : انهم لم يكونوا حينئذٍ يقدرون على إظهار عبادتهم ، فأُمروا بالصلاة في بيوتهم ، عِوضاً عما فاتهم من إظهار شعار الدين الحق في ذلك الزمان ، الذي اقتضى حالهم إخفائه خوفاً من فرعون وملأه .

وذهب البعض[٣] إلى أن المراد – والله أعلم – بقوله تعالى ﴿ **قِبلةً** ﴾ أن تكون

---

(١) سورة يونس ، الآية (٨٧) .

(٢) فخر الدين الرازي : المصدر السابق ، ج ١٧ ، ص ١٤٨ وكذا

محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الرابع ، ج ٨ ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٢٣٧ وكذا

إسماعيل بن عمر بن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٤٢٨ – ص ٤٢٩ وكذا

إسماعيل بن عمر بن كثير : البداية والنهاية ، ج ١ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٢٦٩ .

(٣) محمد أحمد العدوي : دعوة الرسل إلى الله تعالى ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م ، ص ٢٢٦ وكذا

فضل حسن عباس : القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته ، الطبعة الأولى ، دار الفرقان ، عمان ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٢٥٦ هامش (١) .

متقابلة في مكان واحد حتى يعتضد المؤمنون بعضهم ببعض ، ويتعاونوا على الحق الذي أمرهم الله تعالى به ، ويؤازرُ بعضهم بعضاً على الشدائد التي تنوبهم . وكذلك أمرهم بإقامة الصلاة ليتذكروا بها سلطان الله عليهم ورحمته بهم ، وَلِيثبُتُوا بإقامة ذلك الركن على اليقين والإيمان .

وقال محمد رشيد رضا[١] :

أُمروا بإقامة الصلاة في بيوتهم متوجهين إلى وجهة واحدة ؛ لأن الاتحاد في الاتجاه يساعد على اتحاد القلوب ، كما قال النبي ﷺ في حكمة تسوية الصفوف في الصلاة : ((ولا تختلفوا فتختلف قلوبُكم)) . وحكمة أمرهم بذلك أن يكونوا على استعدادٍ لما يأمرهم به موسى وهارون عليهما السلام ، ولسهولة تبليغهم ما يهمهم ويعنيهم من شئون الرسالة ، وما يتعلق بإنجائهم من عذاب فرعون وإخراجهم من مصر .

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام ، قبل خروجه ببني إسرائيل من مصر ، التجأ إلى الله تعالى بالدعاء والتضرّع إليه ، يشكو إلى الله سبحانه وتعالى ظُلم فرعون وملأه ، واستكبارهم وجحودهم ، فدعا عليهم بأن يطمس الله على أموالهم ويصيبهم العذاب الأليم .

قال تعالى : ﴿ **وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليُضلّوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم • قال قد أُجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون** ﴾[٢] .

وقد رُوي أن موسى عليه السلام دعا على آل فرعون ، فحبس الله عنهم النيل ، حتى أرادوا الجلاء ، وحتى طلبوا إلى موسى أن يدعو الله ، فدعا الله رجاءَ أن يؤمنوا ، فأصبحوا وقد أجراهُ الله في تلك الليلة[٣] .

---

(١) تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار ، ج ١١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٢ - ١٩٧٣ م ، ص ٣٨٥ .

(٢) سورة يونس ، الآيتان (٨٨ ، ٨٩) .

(٣) عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق Charles , C. T. ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٣٠ م ، أعادت طبعه مكتبة المثنى ، بغداد ، ص ١٥١ .

إلا أنهم ظلوا على كفرهم وعنادهم ، وأصروا على عدم الإيمان بالله عز وجل وبرسوله ، فدعا موسى عليه السلام عليهم بالطمس على أموالهم ، أي إهلاكها ، وبالتشديد على قلوبهم .

قال محمد بن جرير الطبري[١] :

((ذُكر أن طمس الأموال أنه جعل دراهمهم ودنانيرهم حجارة ، ثم قال لهما : استقيما ، فخرجا في قومهما ، وأُلقي على القِبْط الموت ، فمات كلُّ بِكْرِ رجل ، فأصبحوا يدفنونهم ، فَشُغِلوا عن طلبهم حتى طلعت الشمس)) .

وقال القرطبي[٢] :

((وقد استشكل بعض الناس هذه الآية ، فقال : كيف دعا عليهم وحُكْم الرُّسل استدعاء إيمان قومهم ؛ فالجواب : أنه لا يجوز أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن من الله ، وإعلامٍ أنه ليس فيهم من يؤمن ، ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن)) .

وكانت هذه دعوة عظيمة دعا بها موسى عليه السلام على فرعون وملأه غضباً لله ولدينه ، بعد أن تبين له أنهم لا خير فيهم ، ولا يجيء منهم شيء من الإيمان ، وخاصة عدو الله فرعون الذي تكبر عن إتّباع الحق ، وصَدّ عن سبيل الله ، بعد معاندته وعتوّه وتمرّده ، واستمراره على الباطل ، ومكابرته الحق الواضح ، فاستجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي أمّنَ عليها أخوه هارون عليه السلام[٣] .

ومن الممكن أن يكون دعاء موسى عليه السلام عليهم بطمس أموالهم ، بأن يمحق الله أموالهم بالآفات التي تُصيب حرثهم وأنعامهم ، وتُنقص مكاسبهم وثمراتهم وغلاّتهم ، فيذوقوا بذلك ذُلّ الحاجة . هذا فضلاً عن التشديد على قلوبهم بأن طبع الله عليها ، وزادها قساوة وإصراراً وعناداً ، حتى استحقوا تعجيل عقاب الله لهم[٤] .

---

(١) تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ، ج ١ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الثالثة ، دار سويدان ، بيروت ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ، ص ٤١٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الرابع ، ج ٨ ، ص ٢٤٠ .

(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٤٢٩ وكذا ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

(٤) محمد رشيد رضا : المرجع السابق ، ج ١١ ، ص ٣٨٦ – ص ٣٨٧ .

ووجود النعمة في أيدي المفسدين ، لاشك يزعزع كثيراً من القلوب التي لا يبلُغ من يقينها با لله أن تُدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار . فموسى عليه السلام يتحدث عن الواقع المشهود في عامة الناس ، ويطلب لوقف هذا الإضلال ، ولتجريد القوة الباغية المُضلّة من وسائل البغي والإغراء ، أن يطمس ا لله على هذه الأموال بتدميرها والذهاب بها ، بحيث لا ينتفع بها أصحابها . أما دعاؤه بأن يشدّ ا لله على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، فهو دعاء مَنْ يئس من صلاح هذه القلوب ، ومن أن يكون لها توبة أو إنابة . دعاء بأن يزيدها ا لله قسوة واستغلاقاً حتى يأتيهم العذاب ، وعندئذٍ لن يُقبل منهم الإيمان ؛ لأن الإيمان عند حلول العذاب لا يُقبل ، ولا يدل على توبة حقيقية باختيار الإنسان(١) .

ولقد أشار القرآن الكريم كثيراً إلى خروج بني إسرائيل من مصر في عهد رسول ا لله الكريم موسى عليه السلام ، بأمرٍ من ا لله عز وجل .

قال تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرِج قومك من الظلمات إلى النور وذكّرهم بأيام ا لله إن في ذلك لآياتٍ لكل صبّارٍ شكور** ﴾(٢) .

فأمر ا لله عز وجل رسوله عليه الصلاة والسلام أن يُذكر قومه بنعم ا لله عليهم ، ويُذكرهم بأيامه التي انتقم فيها من أهل معاصيه من الأمم ، ويخوّفهم بها ، ويُحذّرهم إياها ، ويُذكّرهم أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبلهم(٣) .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد أوحينا إلى موسى أن أسرِ بعبادي** ﴾(٤) .

وقال تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن أسرِ بعبادي إنكم مُتّبعون** ﴾(٥) .

وقال تعالى : ﴿ **فأسرِ بعبادي ليلاً إنكم مُتّبعون** ﴾(٦) .

---

(١) سيد قطب : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٨١٧ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية (٥) .

(٣) محمد بن جرير الطبري : تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ، حققه وخرج أحاديثه محمود محمد شاكر ، راجع أحاديثه أحمد محمد شاكر ، ج ١٦ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٩ م ، ص ٥٢٢ وكذا

ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٥٢٣ .

(٤) سورة طه ، الآية (٧٧) .

(٥) سورة الشعراء ، الآية (٥٢) .

(٦) سورة الدخان ، الآية (٢٣) .

فأمْرُ الله عز وجل لموسى عليه الصلاة والسلام بالخروج ببني إسرائيل من مصر هو وحي من الله عز وجل ، وليس باجتهادٍ من الرسول الكريم . ومن حكمة الله عز وجل ورحمته أن جعل خروجهم ليلاً ، لأن الليل عندما يُسدل أستاره ، يحجز حاجب الرؤية عن العدو .

ويشير فخر الدين الرازي[1] إلى ما امتن الله به على بني إسرائيل ، حيث أراد الله عز وجل تمييز بني إسرائيل من طائفة فرعون وخلاصهم ، فأوحى إلى موسى أن يسري بهم ليلاً ، ليكون اجتماعهم لا بمشهدٍ من العدو فلا يمنعهم عن استكمال مُرادهم في ذلك ، وليكون عائقاً عن طلب فرعون ومُتّبعيه ، بالإضافة إلى إزالة الرهبة من قلوب أولئك العباد، إذا تقارب العسكران (عسكر موسى وعسكر فرعون) فلا يهابوهم .

وذكر القرطبي[2] عن الأمر لموسى عليه السلام بالخروج ليلاً :

أُمِرَ موسى عليه السلام بالخروج ليلاً ، وسيرُ الليل في الغالب إنما يكون عن خوف ، والخوف يكون بوجهين : إما من العدو ، فيُتّخذ الليل سِتراً مُسْدِلاً ، فهو من أستار الله تعالى ؛ وإما من خوف المشقة على الأبدان والدواب بحرٍّ أو جدبٍ ، فيُتّخذ السُّرى مصلحة من ذلك .

وقال ابن كثير :

((لما طال مقام موسى عليه الصلاة والسلام بمصر ، وأقام بها حُجج الله وبراهينه على فرعون وملأه ، وهم مع ذلك يُكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال ، فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً من مصر ، وأن يمضي بهم حيث يُؤمَر ، ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربُّه عز وجل .... فلما أصبحوا ، وليس في ناديهم داعٍ ولا مجيب ، غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بني إسرائيل ، لِما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين ، أي من يحشر الجند ويجمعه ، ونادى فيهم : ﴿ **إن هؤلاء لشرذمةٌ قليلون • وإنهم لنا لغائظون • وإنا لجميعٌ حاذرون** ﴾[3] ، يعني أن بني إسرائيل طائفة قليلة ، وكل وقت يصل منهم إلينا ما يُغيظنا ، لذلك فنحن في

---

(١) التفسير الكبير ، ج ٢٢ ، ص ٩٢ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الثامن ، ج ١٦ ، ص ٩١ .

(٣) سورة الشعراء ، الآيات (٥٤ – ٥٦) .

كل وقت تحذرُ من غائلتهم ، فبيّنَ فرعونُ أنه يريد أن يستأصل شأفتهم ، ويُبيد خضراءهم ، فجوزيَ في نفسه وجُنده بما أراد لهم))[١] .

وهناك اتجاه لدى البعض يشير إلى أنه قد نجح فريق صغير من بني إسرائيل في الخروج من مصر ؛ وذلك بأن خادعوا فرعوناً من الفراعنة ، وهربوا إلى صحراء سيناء ، حيث كان ذلك الفريق هو أكثر بني إسرائيل تمصّراً ، وهم قبيلة اللاويين الذين استطاعوا فيما بعد ، الوصول إلى كنعان ، حيث جاءوا يحملون ديانة جديدة لإله واحد للجبل والصحراء ، إدّعوا أنه هو الذي أنقذهم من العبودية التي كانوا يرزحون تحتها في مصر[٢] .

فيما يتجه البعض إلى أن الذين خرجوا من مصر هم قبيلة راحيل[٣] .

ويتبين لي من سياق الآيات القرآنية الكريمة آنفة الذكر ، أن موسى عليه الصلاة والسلام ، خرج بقومه بني إسرائيل من مصر دون علمٍ من فرعون وقومه ، بل إن فرعون ما أنْ عَلِمَ بخروجهم حتى أرسل في المدائن يحشر الجنود للحاق بهم .

غير أن الروايات التوراتية تُخالف ما جاء به صريح القرآن الكريم ، فقد ورد في التوراة[٤] :

((فقال لهما اذهبوا اعبدوا الرب إلهكم . ولكن مَنْ ومَنْ هم الذين يذهبون . فقال موسى نذهب بفتياننا وشيوخنا . نذهب ببنينا وبناتنا بغنمنا وبقرنا . لأن لنا عيداً للرب . فقال لهما يكون الرب معكم هكذا كما أُطلقكم وأولادكم . انظروا إن قُدّام وجوهكم شراً . ليس هكذا . اذهبوا أنتم الرجال واعبدوا الرب)) .

وجاء في النص أيضاً :

((فدعا فرعون موسى وقال اذهبوا اعبدوا الرب . غير أن غنمكم وبقركم تبقى . أولادكم أيضاً تذهب معكم . فقال موسى أنت تعطي أيضاً في أيدينا ذبائح ومُحرَّقات لنصنعها للرب إلهنا . فتذهب مواشينا أيضاً معنا . لا يبقى ظِلْفٌ . لأننا منها نأخذ لعبادة الرب إلهنا . ونحن لا نعرف بماذا نعبد الرب حتى نأتي إلى هناك . ولكن شدّد الربُّ

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص ٣٣٥ – ص ٣٣٦ .

(٢) جون ولسون : الحضارة المصرية ، ترجمة أحمد فخري ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، ١٩٥٦م ، ص ٤٠٨ .

(٣) Kennett , R . H. , " Israel " , in Encyclopaedia of Religion and Ethics , Edited by James Hastings , Vol . VII , Edinburgh , T. & T . Clark , New York , Charles Scribner's Sons , 1974 , P. 439 .

(٤) سفر الخروج ١٠ : ٨ – ١١ .

قلب فرعون فلم يشأ أن يطلقهم . وقال له فرعون اذهب عني . احترز . لا ترى وجهي أيضاً . إنك يوم ترى وجهي تموت . فقال موسى نِعمّا قلت . أنا لا أعود أرى وجهك أيضاً))[١] .

وفي النص أيضاً :

((ثم قال الرب لموسى ضربةً واحدة أيضاً احلب على فرعون وعلى مصر . بعد ذلك يُطلقكم من هنا . وعندما يُطلقكم يطردكم طرداً من هنا بالتمام))[٢] .

أي أن فرعون من خلال هذا النص ، يطرد بني إسرائيل من مصر طرداً .

وبعد مصيبة الموت التي حَلَت بالمصريين ، أطلق فرعون بني إسرائيل جميعاً ، حسب رواية التوراة[٣] :

((فحدث في نصف الليل أن الرب ضرب كلَّ بِكْرٍ في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كُرسيّه إلى بكر الأسير الذي في السجن وكل بكر بهيمة . فقام فرعون ليلاً هو وكل عبيده وجميع المصريين . وكان صُراخ عظيمٌ في مصر لأنه لم يكن بيتٌ ليس فيه مَيْت . فدعا موسى وهارون ليلاً وقال قوموا اخرجوا من بين شعبي أنتما وبنو إسرائيل جميعاً . واذهبوا اعبدوا الرب كما تكلمتم . خذوا غنمكم أيضاً وبقركم كما تكلمتم واذهبوا . وباركوني أيضاً)) .

إلا أن هناك نص آخر ، يتحدث بعد ذلك عن أن بني إسرائيل خرجوا من مصر مُكرهين ، فقد ورد في التوراة :

((وخبزوا العجين الذي أخرجوه من مصر خُبز مَلّةٍ فطيراً إذ كان لم يختمر . لأنهم طُردوا من مصر ولم يقدروا أن يتأخروا . فلم يصنعوا لأنفسهم زاداً))[٤] .

وتشير الروايات التوراتية إلى أن بني إسرائيل عمدوا إلى استعارة حُلي من المصريين ، كما جاء في النص :

---

(١) سفر الخروج ١٠ : ٢٤ - ٢٩ .

(٢) سفر الخروج ١١ : ١ .

(٣) سفر الخروج ١٢ : ٢٩ - ٣٢ .

(٤) سفر الخروج ١٢ : ٣٩ .

« فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين . بل تطلبُ كلُّ امرأةٍ من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهبٍ وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم . فَتسْلُبون المصريين »[١] .

وفي نص آخر : « وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى . طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهبٍ وثياباً . وأعطى الربُّ نعمةً للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم . فسلبوا المصريين »[٢] .

وتسجيل هذا الخبر في التوراة ، بهذا الأسلوب ، يدل على طبيعة نفوس بني إسرائيل من فكرة استغلال واستحلال أموال غيرهم وسلبها بأية وسيلة ، لتكون غنيمةً لهم ، مما كان له أثر بالغ في ذراريهم من بعدهم ، ثم فيمن دخل في دينهم من غير جنسهم[٣] .

وقد ورد في التوراة : « ارتحلوا من رعمسيس في الشهر الأول في اليوم الخامس عشر من الشهر الأول في غد الفصح خرج بنو إسرائيل بيدٍ رفيعة أمام أعين جميع المصريين ، إذ كان المصريون يدفنون الذين ضرب منهم الرب من كل بكر »[٤] .

ويذهب البعض[٥] ، إلى أن بني إسرائيل غادروا مصر في بداية السنة العبرية ، وأن المقصود بالشهر الأول ، في نص التوراة السابق ، هو شهر أبيب[٦] من السنة العبرية ، وقد

(١) سفر الخروج ٣ : ٢١ - ٢٢ .

(٢) سفر الخروج ١٢ : ٣٥ - ٣٦ .

(٣) محمد عزه دروزه : تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، صيدا ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ، ص ٦٨ .

(٤) سفر العدد ٣٣ : ٣ - ٤ .

(٥) سبتينو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، مراجعة محمد القصاص ، دار الرقي ، بيروت ، ١٩٨٦ م ، ص ٣٠٨ هامش المترجم (٢) .

(٦) أبيب : اسم عبري معناه « سنبلة خضراء من الشعير أو غيره من الحبوب » . وهو أول شهر في السنة العبرية ، حيث أن حساب الشهور في السنة العبرية يتبع دورة القمر ، بينما حساب السنين يتبع لدورة الشمس . وشهور السنة العبرية تشبه إلى حدٍ ما شهور السنة الهجرية في عدد الأيام ؛ بحيث تكون ثلاثين يوماً أو تسعة وعشرين يوماً . إلا أن هناك شهران في السنة العبرية يأتي كل واحد منهما كاملاً (ثلاثين يوماً) أحياناً ، وناقصاً أحياناً (أي تسعة وعشرين يوماً) وهما : شهر " حِشوان " الذي يقابله شهر نوفمبر ، وشهر " كِسْلو " الذي يقابله شهر ديسمبر . وشهور السنة العبرية بحسب ترتيبها هي :

⇐

سُمي هذا الشهر بعد السبي البابلي بالاسم البابلي الأصل " نيسان " الذي يقابله من الشهور الميلادية شهر إبريل .

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن بني إسرائيل حملوا معهم أثناء خروجهم حُلي وزينة، كما في قوله تعالى :

﴿ واتخذ قومُ موسى من بعده من حُليهم عجلاً جسداً له خوار ﴾(١) .

وقوله تعالى : **﴿ قالوا ما أخلفنا موعدك بِمَلْكِنا ولكنّا حُمّلنا أوزاراً من زينة القوم ﴾**(٢) .

وقد روى ابن عبد الحكم(٣) بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن بني إسرائيل كانوا قد استعاروا من قوم فرعون حُلياً وثياباً ، وقالوا : إن لنا عيداً نخرج إليه ، فخرج بهم موسى عليه الصلاة والسلام ليلاً .

غير أن هناك رواية أخرى تشير إلى « أن موسى عليه الصلاة والسلام قال لبني إسرائيل فيما أمره الله به : استعيروا منهم الأمتعة ، والحُليّ ، والثياب ، فإني مُنَفّلكم

= تِشْري ٣٠ يوماً (اكتوبر) ، حِشْوان ٢٩ أو ٣٠ يوماً (آخر اكتوبر – نوفمبر) ، كِسْلو ٢٩ أو ٣٠ يوماً (آخر نوفمبر – ديسمبر) ، طِبت ٢٩ يوماً (آخر ديسمبر – يناير) ، شباط ٣٠ يوماً (آخر يناير – فبراير) ، آذار ٢٩ يوماً (آخر فبراير – مارس) ، نيسان ٣٠ يوماً (آخر مارس – إبريل) ، أيار ٢٩ يوماً (آخر إبريل– مايو) ، سيوان ٣٠ يوماً (آخر مايو – يونيه) ، تموز ٢٩ يوماً (آخر يونيه – يوليه) ، آب ٣٠ يوماً (آخر يوليه – أغسطس) ، أيلول ٢٩ يوماً (آخر أغسطس – سبتمبر) .

ويقابل شهر أبيب العبري بشهر " إيبيب أو إيبيف Epiph " من أسماء الشهور في اللغة المصرية القديمة .

ومن الجدير بالذكر ، أن عيد الفطير ، أو عيد الفصح ، عند بني إسرائيل يقع في هذا الشهر ، حسب ما ورد في سفر الخروج ١٢ : ١ – ٢٨ ؛ ١٣ : ٤ ؛ ٢٣ : ١٥ ؛ وسفر التثنية ١٦ : ١ . انظر :

محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي : الآثار الباقية عن القرون الخالية ، تحقيق سي . إدوارد. س . C. Eduard . S ليبزج ، ١٩٢٣ م ، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد ، ص ٥٢ وكذا

بطرس عبد الملك ، جون الكساندر طمسن ، إبراهيم مطر ، وآخرون : قاموس الكتاب المقدس ، الطبعة الثانية ، مجمع الكنائس في الشرق الأدنى ، بيروت ، ١٩٧١ م ، ص ٢٠ وكذا

حسن ظاظا : الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه ، الطبعة الثانية ، دار القلم ، دمشق ، دارة العلوم ، بيروت، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ١٦٣ – ص ١٦٤ .

(١) سورة الأعراف ، الآية (١٤٨) .

(٢) سورة طه ، الآية (٨٧) .

(٣) فتوح مصر وأخبارها ، ص ٢٣ .

أموالهم مع هلاكهم ؛ فلما أذّنَ فرعون في الناس كان مما يُحرِّض بـه علـى بـني إسـرائيل أن قال حين ساروا : لم يرضوا أن خرجوا بأنفسهم حتى ذهبوا بأموالكم معهم »[1] .

ويظهر لي – وا لله أعلم – أن بني إسرائيل استعاروا ذلك من المصريين استعارةً ، و لم يقصدوا الكذب أو الاحتيال عليهم .

(١) الطبري : تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٤١٩ .

أسباب خروج بني إسرائيل من مصر :

لقد مر فيما سبق ، أن خروج بني إسرائيل من مصر كان بأمر من الله عز وجل ، ووحي منه لرسوله موسى عليه الصلاة والسلام ، فكان الخروج قدراً مقدوراً من الله عز وجل ليس للرسول الكريم فيه إلا تنفيذ واتباع ما يأمره به الخالق عز وجل .

وهذه هي وجهة النظر الإسلامية الصحيحة ، التي يجب على كل مسلم أن يعتقدها ويدين بها ، مهما تشعّبت الآراء ، وكثُرت السُّبل .

والحق ، أن نصوص التوراة ، لا تتفق مع ما يعتقده المسلمون ، على وجه التأكيد ، وذلك بسبب ما دخل فيها من التحريف والتزييف ، والتبديل والتغيير ، على أيدي كُتّاب الأسفار ، الذين حرّفوا الكلم عن مواضعه . لذلك تشير نصوص التوراة إلى أكثر من سبب فيما يتعلق بهذا الموضوع . ومن ذلك ما ورد في النص[(١)] :

((فقال الرب إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صُراخهم من أجل مُسَخّريهم . إني علمت أوجاعهم . فنزلتُ لأُنقذَهم من أيدي المصريين وأُصعِدَهم من تلك الأرض إلى أرضٍ جيدة وواسعة . إلى أرضٍ تفيض لبناً وعسلاً . إلى مكان الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزّيين والحِوّيين واليبوسيين)) .

فهذا النص يفيد ، أن الرب عز وجل ، أراد أن يُخرج بني إسرائيل من مصر ، وينقذهم من أيدي المصريين الذين أذلّوهم ، وسخّروهم ، إلى الأرض التي وُصِفَت بأنها ((تفيض لبناً وعسلاً)) .

وفي نص آخر :

((وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبي ليُعيّدوا لي في البرّية . فقال فرعون من هو الرب حتى أسمع لقوله فأُطلِقَ إسرائيل . لا أعرفُ الرب وإسرائيل لا أُطلِقَه . فقالا إله العبرانيين قد التقانا . فنذهب سفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا . لئلا يُصيبنا بالوباء أو بالسيف . فقال لهما ملك مصر لماذا يا موسى وهارون تُبطّلان الشعب من أعماله . إذهبا إلى أثقالكما))[(٢)] .

---

(١) سفر الخروج ٣ : ٧ - ٨ .

(٢) سفر الخروج ٥ : ١ - ٤ .

فطلبهم الخروج في هذا النص إلى البرّية ، من أجل إقامة عيدٍ للرب ، حيث يذبحون له الذبائح والقرابين ، وإلا أُصيبوا بالوباء أو بالسيف أي القتل . إلا أن فرعون يرفض هذا الطلب ، ويوجّه التهمة إلى موسى وهارون عليهما السلام بأنهما يُبطّلان ويثبّطان بني إسرائيل عن العمل ، ويأمرهما بالعودة إلى العمل . بل إن فرعون يصف بني إسرائيل بأنهم متكاسلون عن مزاولة أعمالهم ، كما جاء في النص :

« فإنهم متكاسلون لذلك يصرخون قائلين نذهب ونذبح لإلهنا . لِيُثقَّل العملُ على القوم حتى يشتغلوا به ولا يلتفتوا إلى كلام الكذب »[١] .

وفي موضع آخر :

« فقال متكاسلون أنتم متكاسلون . لذلك تقولون نذهب ونذبح للرب . فالآن اذهبوا اعملوا »[٢] .

ففرعون – من خلال هذه النصوص – يرفض السماح لهم بالذهاب لعبادة الرب ، ويتهمهم بالتراخي في أعمالهم ، ومحاولة التوقف عن أداء الأعمال الموكلة إليهم .

وقد كان طلب بني إسرائيل في الذهاب إلى البرية لعبادة الرب ، وتقديم الذبائح والقرابين لإلههم في نظر المصريين طلبٌ معقول ، وخاصة أنه لغرض الاحتفال بمناسبة دينية. فعبادة الإله ، وتقديم الشعائر التعبدية له ، في نظرهم أيضاً ، ليس أمراً خارجاً عن النظام ، بل هو أمر سائد في المجتمع المصري القديم ، ولكل فرد الحق في ذلك .

ويؤيد هذا ما ورد في أحد النصوص المصرية القديمة ، حيث كان يقوم على رأس كل فريق من العمال مُقدّم عُمال أو رئيس ، كان يُلقّب بـ" كبير الفرقة " ، ولم يكن يعلو كثيراً عن رفقائه ؛ فقد يحدث أن مَنْ يُسمّيه أحد الكُتّاب عاملاً بسيطاً ، يُطلق عليه كاتب آخر بشكل أدق " رئيس عمال " . وكان رئيس العمال يحمل سِجلّاً يُسجل فيه جهود عماله ؛ ففي لوح من الحجر الجيري ، محفوظ الآن بالمتحف البريطاني ، كتب مُقدّم عمال أسماء عماله الثلاثة والأربعين ، وأمام كل اسم عدد الأيام التي تغيّبَ فيها عن العمل خلال الشهر ، والأعذار التي قدمها كل عامل لبيان سبب غيابه ، ومن بينها عدد من العمال

---

(١) سفر الخروج ٥ : ٨ – ٩ .

(٢) سفر الخروج ٥ : ١٧ – ١٨ .

إدّعوا بأنهم عمال أتقياء ورعين ، فتغيّبوا بسبب تقديمهم القرابين للإله ، أو بسبب المرض[١] .

لذلك فإن طلب بني إسرائيل من فرعون ، السماح لهم بالذهاب إلى البرية ، لعبادة الرب ، ما هو إلا حيلة خُطّطت للتغلب على موقف فرعون وعناده ، حيث كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة المتاحة أمام شعب مغلوب على أمره ، خاضع لإرادة فرعون ، رغم أن هذا الطلب بقصد الاحتفال بمناسبة دينية ليس أمراً شاذاً في النظام المصري القديم[٢] .

يقول أحد المؤرخين[٣] :

إنه عندما قرّرت مصر الإتساع شرقاً حتى بابل ، رأت من ضروريات السياسة الجديدة المصرية إقرار البدو وتوطينهم ، نشراً للأمن والاستقرار ؛ فشقّ هذا الوضع الجديد على بني إسرائيل المقيمين بوادي جوشن (جاسان) ، حيث كانوا بدواً يروحون ويغدون، وهم بحكم هذا النوع من الحياة تغلب عليهم النزعة الفردية ، وينفرون من الاشتراكية الجماعية ، لذلك فإنهم تمرّدوا ، مُفضّلين حياة البداوة والترحال ، على حياة الحضارة والاستقرار .

ويروي يوسفوس اليهودي عن مانيثون (عاش تحت حكم بطلميوس فيلاديلفوس الذي حكم مصر فيما بين ٢٨٥ - ٢٤٦ ق.م) المؤرخ والكاهن المصري ، أن السبب الذي دفع ببني إسرائيل للخروج من مصر يكمن في رغبة المصريين في أن يتّقوا شرّ وباء تفشى وانتشر بين بني إسرائيل وهو مرض الجُذام[٤] ، وهو يعتقد أن موسى كان كاهناً

---

(١) أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ، ترجمه وراجعه عبد المنعم أبو بكر ، ومحرم كمال ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٣ م ، ص ١٢٣ - ص ١٢٤ .

(٢) Sarna , N . M . , Exploring Exodus the Heritage of Biblical Israel , Schocken Books , New York , 1989 , PP . 55 - 56 .

(٣) فؤاد حسنين علي : إسرائيل عبر التاريخ - في البدء ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦ م ، ص ٥٤ - ص ٥٥ .

(٤) الجُذام : علّة تتآكل منها الأعضاء وتتساقط . وقيل : الجذام : داءٌ يعترض في الرأس ، ويتشوه منه الوجه ، وأصل الجذم : القطع . وقيل : سُمي جذاماً لتقطع الأصابع منه .

وورد في الحديث النبوي الشريف : « لا تديموا النظر إلى المجذومين » . وفي حديث آخر : « أن وفد ثقيف كان فيهم مجذوم ، فأرسل إليه ، إرجع فقد بايعناك » . وفي الطب الحديث يعتقد العلماء أن هذا المرض مُعدٍ ومزمن، ⇐

مصرياً خرج للتبشير بين قومه " المجذومين " ، وعلّمهم قواعد للنظافة على نسق القواعد المتبعة عند كهنة المصريين[(١)] .

وقد أيد هذا الرأي أحد الباحثين[(٢)] بقوله :

إن من الأسباب التي أثارت الخلاف بين بني إسرائيل والفراعنة في مصر ، هو الاضطراب الصحي نتيجة تزايد عددهم ، بحيث كانت فئة منهم أغنياء ، وكثير منهم فقراء ، يعيشون في حالة فقر مدقع ، الأمر الذي أدى إلى انتشار القذارة بينهم ، ومن ثم ظهور الأمراض .

وهناك وجهة نظر أخرى يرى صاحبها[(٣)] أن موسى عليه السلام تزعّمَ ثورة لبني إسرائيل في مصر ، أثناء حكم رعمسيس الثاني الذي كان يستعبدهم ، فقرّر الخروج ببني إسرائيل من مصر .

= يتسبب عن عدوى بميكروب ، وأن الجذام نوعان : درني وعصبي . يتميز الأول بظهور أورام صغيرة على الجسم وبخاصة على الوجه ، ويتميز الثاني بظهور بُقع على سطح الجلد تتصف بفقدانها لحاستي اللمس والألم . وطريقة العدوى بهذا المرض غير معروفة ، إلا أن العلماء يتفقون على أنه لابد لحصول العدوى من الاختلاط الوثيق بالمرضى . انظر :

أبو موسى محمد بن أبي بكر بن أبي عيسى المديني الأصفهاني : المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث ، تحقيق عبد الكريم العزباوي ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، ص ٣١١ وكذا

محمد شفيق غربال وآخرون : الموسوعة العربية الميسرة ، المجلد الأول ، دار نهضة لبنان للطبع والنشر ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٦١٦ .

(١) نجيب ميخائيل إبراهيم : مصر والشرق الأدنى القديم ، الجزء الثالث ، الشرق الأدنى القديم – سورية ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٦ م ، ص ٢٨٥ وكذا

أحمد سوسة : العرب واليهود في التاريخ ، الطبعة الثانية ، العربي للإعلان والنشر والطباعة ، دمشق ، ١٩٧٢م ، ص ٢٧٨ وكذا

ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، المجلد الأول ، الجزء الثاني ، الطبعة الثالثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ م ، ص ٣٢٦ وكذا

Lods , A . , Israel From its Beginnings to the Middle of Eighth Century , Routledge & Kegan Paul , London , 1962 , P . 168 .

(٢) أحمد شلبي : مقارنة الأديان (١) اليهودية ، الطبعة الخامسة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٨ م ، ص ٦٢ – ص ٦٣ .

(٣) مصطفى محمد الأمير : " الامبراطوريات القديمة في افريقيا وآسيا " ، مقال نشره وليام لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، أشرف على الترجمة محمد مصطفى زيادة ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٦٧ .

على أن هناك اتجاه آخر للرأي،يذهب إلى أن خروج بني إسرائيل من مصر ، كان له دافعان أساسيان :

الدافع الديني ، نتيجة للصدام بين عقيدة التوحيد التي دعا إليها موسى عليه الصلاة والسلام ، والعقيدة الوثنية التي كان فرعون والمصريون يدينون بها .

والدافع الاجتماعي ، نتيجة لعدم تكيّف بني إسرائيل مع البيئة الحضرية في مصر ، ورغبتهم في الترحال بشكل مستمر[(١)] .

لذلك ، أمر الله عز وجل رسوله موسى عليه الصلاة والسلام بإخراجهم من مصر ، حتى يمكن تقويمهم ، وعودتهم إلى الدين الصحيح في توحيد الله عز وجل ، ولزوم الأوامر الربانية التي ستأتيهم من ربهم عز وجل في التوراة ، لأنهم تأثروا كثيراً باختلاطهم بالمصريين في مشاركتهم عقائدهم وتقاليدهم ، فضلاً عن إذلالهم وتسخيرهم على يد فرعون وقومه[(٢)] .

ويرى البعض[(٣)] أن موسى عليه السلام حَدَّدَ لبني إسرائيل أرض فلسطين المقدسة كهدف من أهداف خروجهم من مصر ، يجب الوصول إليه لضمان سلامتهم . هذا فضلاً عن هدف آخر ، أكثر احتمالاً وتصديقاً ، وهو اللحاق بالقبائل ذات الصلة باللاويين ، والمقيمين حول قادش برنيع[(٤)] والاتحاد مجدداً معها ، والإلتحام بهم ، بالإضافة إلى أنه ربما

(١) محمد إسماعيل علي : " الأصول العربية لفلسطين : الإسرائيليون .. أين وكيف ظهروا ؟ " ، مجلة الفيصل ، العدد ١٦٢ ، السنة الرابعة عشرة ، دار الفيصل الثقافية ، الرياض ، ذو الحجة ١٤١٠ هـ / تموز (يولية) ١٩٩٠ م ، ص ٤٢ .

(٢) عادل محمد صالح أبو العلا : " الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف " ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، قسم الكتاب والسنة ، كلية الدعوة وأصول الدين ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٩ هـ ، ص ٣٢٠ وكذا

عبد المحسن الخشاب : تاريخ اليهود القديم بمصر ، الطبعة الأولى ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م ، ص ١٥ ، ص ٢٢ .

(٣) مصطفى كمال عبد العليم ، سيد فرج راشد : اليهود في العالم القديم ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية ، بيروت ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م ، ص ٦٠ – ص ٦١ وكذا

Eissfeldt , O . , " Palestine in the Time of the Nineteenth Dynasty - (a) The Exodus and Wanderings " , CAH , Vol . II , Part 2 , 1975 , P . 321 .

(٤) قادش برنيع : حسب ما ورد في سفر التكوين ١٤ : ٧ فقد كانت تُدعى عين مشفاط .

وقد دُعيت عيون الماء المجاورة لها باسم ماء مريبة قادش ، حسب ما ورد في سفر العدد ٢٧ : ١٤ ، وسفر ⇐

كانت هناك فكرة الحج إلى جبل سيناء ، المثوى الرئيس – حسب اعتقادهم – للرب يهوه الذي برر الخروج وأمر به .

ومن الدوافع الرئيسة للخروج أن يستأنف بنو إسرائيل ، بعد تحررهم من ظلم فرعون ، حياة كريمة ، في ظلال الدعوة إلى دين الله عز وجل ، ونشر عقيدة التوحيد الخالص لله رب العالمين ، وإعدادهم لمهمة كبيرة هي أن يقيموا أمّة موحِّدة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر(١) .

قال تعالى : **﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربّانيون والأحبار بما استُحفِظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشونِ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون ﴾**(٢) .

= التثنية ٣٢ : ٥١ . كما دُعيت اختصاراً باسم ماء مريبة ، حسب ما ورد في سفر العدد ٢٠ : ١٣ – ١٤ أي ماء المخاصمة ، لأنه هناك تذمر بنو إسرائيل من أجل الماء وخاصموا موسى .

ويبدو أن قادش برنيع كانت مساحة متسعة من الأرض ، خصبة في بعض أماكنها ، وقاحلة في أماكن أخرى منها ، حسب ما ورد في التوراة عنها . ولتحديد موقع قادش برنيع بشكل تقريبي يمكن القول أنها كانت عند طرف برية صين ، حسب ما ورد في سفر العدد ٢٠ : ١ إلى الجهة الغربية من وادي العربة قرب منطقة العقبة . والراجح أنها " عين قديس " الواقعة إلى الجنوب من بئر السبع على مسافة حوالي ٧١ كيلاً ، جنوبي شرقي القسيمة وعين قُديرات داخل الحدود المصرية في شمال شرق سيناء . انظر :

محمد عزه دروزه : تاريخ الجنس العربي ، ج ٤ ، الطبعة الأولى ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، صيدا ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م ، ص ١٥٨ وكذا

نجيب ميخائيل إبراهيم : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣١١ وكذا

بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٧٠٨ – ص ٧٠٩ وكذا

ألويس موسل : شمال بلاد العرب ، الجزء الأول ، شمال الحجاز ، ترجمة عبد المحسن الحسيني ، مطابع رمسيس ، الاسكندرية ، ١٩٥٢ م ، ص ٣٩ ، ص ٤٥ وكذا

Eissfeldt , O . , Op . Cit . , P P . 325 - 326 .

(١) السيد رزق الطويل : بنو إسرائيل في القرآن ، الطبعة الثانية ، مكتبة الإرشاد ، جدة ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٢١ ، ص ٢٩ وكذا

أبو الأعلى المودودي : فرعون في القرآن ، ترجمة وتعليق أحمد إدريس ، المختار الإسلامي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة ، ١٩٨٥ م ، ص ٣٤ ، ص ١٦٤ .

(٢) سورة المائدة ، الآية (٤٤) .

وقال تعالى : ﴿ **وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدىً لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً** ﴾[١] .

ومن الجائز أن يكون سبب إيحاء الله عز وجل لرسوله موسى عليه السلام بالخروج بهم من مصر ، أن عدو الله فرعون ، أمعن وأسرف في إيذاء بني إسرائيل والمؤمنين ، بعد إيمان السحرة ، الذي غاظه وأسقط هيبته ، حيث توعّدَهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم وتصليبهم في جذوع النخل . ويدل لذلك ، أن السُّنة العامة مع كل رسول من رسل الله الكرام ، أن يأذن الله عز وجل لرسوله بالهجرة فراراً من الاضطهاد إذا وقع بالمؤمنين ، وَلِيَخلُص بدين المؤمنين من أُمّته من الفتنة . هذا فضلاً عن ما قدّره الله عز وجل من إغراق فرعون وجنوده ، ونجاة موسى عليه الصلاة والسلام ، ومعه بني إسرائيل ومن آمن بدعوته[٢] .

والرأي الذي أميل إليه وأُرجحه ، أن هذه الأسباب آنفة الذكر ، تضافرت فيما بينها ، وكان كل منها دافعاً قوياً للاستجابة لأمر الله عز وجل الذي أوحاه إلى رسوله موسى عليه الصلاة والسلام ، فما أن أخبرهم الرسول الكريم بذلك الأمر الرباني حتى طفقوا يستعدون لعملية الخروج .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية (٢) .

(٢) محمد أحمد العدوي : المرجع السابق ، ص ٢٤٧ .

ثانياً : خط السير والمعجزات الربانية في طريق الخروج .

إن موضوع خط السير أو الطريق الذي سلكه موسى عليه الصلاة والسلام ومعه بنو إسرائيل من مصر باتجاه أرض كنعان ، من الموضوعات التي يكتنفها كثير من الغموض ، فضلاً عن الصعوبة في التحديد الدقيق للأماكن التي مروا بها أثناء خروجهم من مصر ، لعدم توفر المصادر الكتابية ، غير التوراتية ، المعاصرة لتلك الفترة الزمنية .

وهذا ما دفع بأحد المؤرخين(١) إلى القول :

إن أسماء المحطات أو الأماكن التي توقف فيها بنو إسرائيل أثناء رحلة الخروج ، من الممكن معرفتها ؛ إلا أن تحديد مواقع تلك الأماكن جغرافياً لا يزال غامضاً .

بل إن بعض المؤرخين(٢) ذهب إلى أن مسألة الطريق التي اتخذها بنو إسرائيل عند مغادرتهم البلاد المصرية إلى أرض كنعان ، ظهر أنها أكثر تعقيداً من تحديد تاريخ خروجهم ، وقد زاد تعقيدها أنه عند تطبيقه على ما جاء في الكتب الدينية ، وما حصل لموسى عليه الصلاة والسلام من معجزات في أثناء الطريق ، وخاصة معجزة عبور البحر ؛ يجعل المؤرخ الذي لا يستند إلا على آثار مادية أو كتابية معاصرة لها ، يقف مكتوف اليدين ، معقود اللسان ، لا يحير جواباً شافياً ، الأمر الذي أدى إلى أن يكون هذا الموضوع هدفاً لبحوث طويلة ، ونظريات عديدة لباحثين كُثر ، منهم : هنري بروكش ، والسير فلندرز بتري ، وإدوارد ناقيل ، والسير ألن جاردنر ، ووليام فوكسويل البرايت ، وغيرهم .

ومن الأسباب الرئيسة في عدم إمكانية تحديد طريق الخروج ، تحديداً دقيقاً وأكيداً ، أن أسماء الأماكن التي مرّوا بها قد تغيرت ؛ حتى أنه لم يكد يبقى مكان معروف باسمه القديم(٣) ، هذا بالإضافة إلى أن النصوص التوراتية التي ذكرت بعض المواقع الجغرافية

---

(١) Smith , G . A . , The Historical Geography of the Holy Land , Twenty - Third Edition , Hodder and Stoughton Limited , London , P . 557 .

(٢) سليم حسن : مصر القديمة ، ج ٧ ، عصر مرنبتاح ورعمسيس الثالث ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠ م ، ص ١١٧ – ص ١١٨ وكذا

أبكار السقاف : إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٧ م ، ص ١٩١ .

(٣) نعوم بك شقير : تاريخ سينا القديم والحديث وجغرافيتها ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م ، ص ٤٤٩ .

القديمة في طريق الخروج لازالت نقاط تحديدها غامضة وغير دقيقة ، والأسماء الحديثة لبعضها ، وإن كانت متشابهة في نُطقها ، فليس بالضرورة أن يكون هو الموقع القديم ، الأمر الذي يؤدي بالباحث إلى الافتراض المعقول والمعتدل في تحديد هذه المواقع[١] .

ومن المهم القول أيضاً : أن الأماكن في التوراة لا تُشكِّل بصورة واقعية محسوسة ، ولابد من التفريق بين مجرد ذكر الأماكن وبين وصفها ؛ فالأماكن في التوراة تُذكر فقط في معرض الحدث ، ولا ترتسم للقارئ صورة حية وواضحة عنها ، رغم أن هناك في أسفار التوراة قصص تشذ عن ذلك[٢] ، بسبب اختلاف الكاتب والزمان أو العهد ، مما يعني أن الأماكن الوارد ذكرها في أسفار التوراة موجودة كخلفية للأحداث ، وكساحة يقع فيها الحدث ، ولكن لا تُتاح للقارئ فرصة المقارنة بين الصورة المعروضة في القصة ، والصورة التي يمكن تخيلها في الذهن[٣] .

وسيحاول الباحث بيان طريق خروج بني إسرائيل من مصر بقدر المستطاع ، معتمداً في ذلك على ما ورد في التوراة ، وعلى البحوث العلمية الأثرية التي تناولت هذا الموضوع . إلا أنه قبل الحديث عن الأماكن التي مروا بها أثناء خروجهم ، تجدر الإشارة إلى ما ورد في نص التوراة[٤] :

((وكان لما أطلق فرعون الشعب أن ا لله لم يهدهم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبةٌ . لأن ا لله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر . فأدار ا لله الشعب في طريق برية بحرسوف . وصعد بنو إسرائيل متجهزين من أرض مصر . وأخذ موسى عظام يوسف معه لأنه كان قد استحلف بني إسرائيل بحَلْفٍ قائلاً إن ا لله سيفتقِدُكم فتُصعِدُون عظامي من هنا معكم)) .

---

(١) Wright , G . E . , " Route of Exodus " , in The Interpreter's Dictionary of the Bible , Vol . 2 , Edited by Buttrick , G . A . , Abingdon Press , New York , Nashville , 1962 , P . 197 ;
Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 103 .

(٢) انظر مثلاً ما ورد عن خيمة الاجتماع ، والمسكن الذي أقامه موسى عليه السلام ، في سفر الخروج ٣٥ إلى ٤٠ ، حيث فيه وصف لأدق التفاصيل عن ذلك .

(٣) أحمد عبد اللطيف حماد : " الزمان والمكان في قصة العهد القديم " ، مجلة عالم الفكر ، المجلد السادس عشر ، العدد الثالث ، وزارة الإعلام ، الكويت ، ١٩٨٥ م ، ص ٨٩ .

(٤) سفر الخروج ١٣ : ١٧ - ١٩ .

فهذا النص يشير إلى قضيتين هامتين :

الأولى : أن الله عز وجل لم يهدهم في اتباع الطريق القريبة للوصول إلى أرض كنعان ، وهي " طريق حورس " أو الطريق القديمة التي كانت تربط مصر بفلسطين ، وهي التي أُطلق عليها في هذا النص « طريق أرض الفلسطينيين » والتي كانت أيضاً أقدم طريق في العالم ، حيث كان يسلكها الفراعنة لغزو فلسطين والعودة منها إلى مصر .

الثانية : أن موسى عليه الصلاة والسلام أخذ معه عند الخروج من مصر ، عظام يوسف عليه الصلاة والسلام ، حسب ما أوصى به بني إسرائيل قبل وفاته .

ففيما يتعلق بالقضية الأولى ، وهي أن الله عز وجل لم يهدهم للسير في طريق أرض الفلسطينيين عند الخروج من مصر ، فإن النص السابق من التوراة ، بَيَّنَ السبب الرئيس لذلك ، وهو : « لئلا يندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر »[1] . فإمكانية المصادمة بينهم وبين القوات المصرية المرابطة على هذا الطريق واردة في حال سيرهم عليه .

كذلك من الأسباب الهامة التي من أجلها لم يهدهم الله عز وجل في السير بذلك الطريق ، أن موسى عليه الصلاة والسلام ، كان قد خبر الطرق من مصر وإليها ، إذ خرج منها – بعد قتله المصري – خائفاً يترقب على طريقٍ حَرِصَ من غير شك أن يكون بعيداً عن العيون والرقباء ، وعاد من غير شكٍ أيضاً على الطريق السوي الذي يسلكه المسافرون . فقد كان طريق حورس الملكي ينبعث من ثارو إلى غزة جنوبي فلسطين ماراً بالعريش ، حيث احتل مكانة خطيرة في الحركات العسكرية التي وجهها الفراعنة ، أو تعرضت لها مصر من قِبل جيرانها . ولذلك فقد اشتد حرص الفراعنة على تأمين تلك التخوم التي كانت عرضةً لغارات البدو على شرق الدلتا ، وكانت تدابير الدفاع قد اقتضت في الأسرة الخامسة منصباً خاصاً يتولى الإشراف على الأسوار والصحراوات والقلاع الملكية في منطقة عين شمس ، وذلك لتأمين الطرق وحماية القلة القليلة من الآبار التي يعتمد عليها في سفرهم المسافرون[2] .

(١) سفر الخروج ١٣ : ١٧ .

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف : مصر في القرآن والسنة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ص ١١٥ .

ولكثرة العناصر البدوية التي كانت تُغير على الدلتا للسلب والنهب ، أُنشئت منذ عصر الدولة الوسطى عدة حصون في هذه المنطقة لصد تلك الغارات ، حيث كان من شأنها أن تكون عائقاً صعباً على الرقيق والعبيد الذين كانوا يريدون الفرار من مصر ، وعلى البدو القادمين للدلتا من أجل رعي ماشيتهم ، فعمد الفراعنة منذ أيام امنمحات الأول (١٩٩١ - ١٩٦٢ ق.م) إلى بناء خط دفاعي من التحصينات الحدودية على طول برزخ السويس ، عُرف في النصوص المصرية القديمة باسم " جدار حورس " ، أو " السور الملكي " ، أو " أسوار الحاكم " ، أو " أسوار الأمير " ، حيث وُصِفَ بأنه " حائط الحاكم الذي بُني ليصد البدو وليسحق جوّابة الصحراء " ، وذلك فضلاً عن أبراج المراقبة عند الآبار ، الأمر الذي جعل الحدود المصرية في تلك المنطقة تخضع إلى مراقبة شديدة من قبل ضباط الجيش المصري وفرقهم ، ولم يكن يُسمح لأحد بالمرور من هناك إلا أن يخضع للتفتيش عند مخافر الحدود ، ويذكر إسمه ، ومركزه ، ووجهته ، والغرض من رحلته . كما كان على كل داخل إلى مصر الانتظار حتى يؤذن له بالدخول(١) .

وهناك من يرى(٢) ، أن السبب في عدم سيرهم على الطريق القريب ، آنف الذكر ، كان للتمويه والتضليل على القوات المصرية ، التي ستلاحقهم ، فور وصول الأمر إليهم بذلك .

ومن الممكن أن يكون موسى عليه الصلاة والسلام ، فضلاً عن اتباعه لأمر الله عز وجل بالسير في الطريق البعيد ، على معرفة بنصوص معاهدة السلام التي عُقدت بين الدولة

---

(١) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ١١٧ وكذا

محمد ضياء الرحمن الأعظمي : اليهودية والمسيحية ، الطبعة الأولى ، مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٧١ وكذا

أدولف إرمان ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ، ص ٢٠ ، ص ٦٢٠ - ص ٦٢١ وكذا

جان يويوت : مصر الفرعونية ، ترجمة سعد زهران ، مراجعة عبد المنعم أبو بكر ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٦ م ، ص ٩٦ وكذا

جيمس هنري برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي ، ترجمة حسن كمال ، مراجعة محمد حسنين الغمراوي بك ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ، ص ٣٠١ وكذا

Wright , G . E . , Op . Cit . , PP . 197 - 198 ;
Johnson , P . , The Civilization of Ancient Egypt , Weidenfeld and Nicolson , London , 1978 , P . 76 ;
Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 105 .

(٢) أبكار السقاف : المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

المصرية ، ومملكة الحثيين في حوالي سنة ١٢٨٠ ق.م[١] ، في أثناء حكم رعمسيس الثاني (١٢٩٠ – ١٢٢٤ ق.م) وخاتوسيل ملك الحثيين ، والتي من ضمن بنودها : أنه إذا استطاع رجل ، أو رجلان ، أو ثلاثة رجال ، أو مجموعة من الناس الخروج من أرض مصر بدون علم فرعون مصر رعمسيس الثاني ، أو بدون السماح لهم بذلك ، والوصول إلى بلاد مملكة الحثيين ، فإن على الملك خاتوسيل القبض عليهم ، وضمان عدم فرارهم ، ومن ثم إعادتهم مُقيّدين إلى رعمسيس الثاني فرعون مصر . لذلك أعرض موسى عليه الصلاة والسلام عن المرور بتلك الجهة وسار بهم على أطراف البراري المقفرة[٢] .

أما ما يتعلق بالقضية الثانية ، وهي أن موسى عليه الصلاة والسلام أخذ معه عظام يوسف عليه الصلاة والسلام ، وذلك عند ابتداء سير بني إسرائيل في طريق الخروج ، حسب ما أوصاهم به قبل وفاته ، فإن التوراة أشارت لذلك ، ، كما في النص السابق ، وغيره من النصوص[٣] .

---

(١) انظر عن هذه المعاهدة :

سليم حسن : مصر القديمة ، ج ٦ ؛ عصر رعمسيس الثاني وقيام الامبراطورية الثانية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٩ م ، ص ٢٨٥ – ص ٣٠٤ وكذا

عبد المنعم أبو بكر وآخرون : تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني ، المجلد الأول – النظم الاجتماعية ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ م ؛ ص ١٢٨ – ص ١٢٩ وكذا

سمير عبد المنعم أبو العينين : العلاقات الدولية في العصور القديمة ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٨٩ م ، ص ٢٦ – ص ٢٩ وكذا

جيمس هنري برستد : المرجع السابق ، ص ٢٩٣ وكذا

Wilson , J . A . , “ Egyptian and Hittite Treaties - Egyptian Treaty ” , ANET , PP . 199 - 201 ;

Goetze , A . , “ Egyptian and Hittite Treaties - Hittite Treaties ” , ANET , PP . 201 - 203 .

(٢) أحمد كمال : العقد الثمين في محاسن أخبار وبدائع آثار الأقدمين ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأميرية ، بولاق ، مصر ، ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٢ م ، ص ١٢٠ وكذا

غطاس عبد الملك الخشبة : رحلة بني إسرائيل إلى مصر الفرعونية والخروج ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٩٠ م ، ص ٢٣٩ .

(٣) انظر سفر التكوين ٥٠ : ٢٥ .

وفي الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ قال :

((أعجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل ؟ فقال أصحابه : يا رسول الله وما عجوز بني إسرائيل ؟ قال : إن موسى لما سار ببني إسرائيل من مصر ، ضلّوا الطريق ، فقال : ما هذا ؟ فقال علماؤهم : نحن نُحدِّثك : إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله أن لا يُخرَج من مصر حتى ننقل عظامه معنا ، قال : فمن يعلم موضع قبره ؟ قالوا : ما ندري أين قبر يوسف إلا عجوز من بني إسرائيل ، فبعث إليها ، فأتته ، فقال : دلّوني على قبر يوسف ، قالت : لا والله لا أفعل حتى تُعطيني حُكمي ، قال : وما حُكْمك ؟ قالت : أكون معك في الجنة ، فكره أن يعطيها ذلك ، فأوحى الله إليه أن أعطها حكمها ، فانطلقت بهم إلى بحيرة ، موضع مستنقع ماء ، فقالت : انضبوا هذا الماء ، فأنضبوا ، قالت : احفروا واستخرجوا عظام يوسف ، فلما أقلّوها إلى الأرض ، إذا الطريق مثل ضوء النهار))(١).

وقد ورد هذا الحديث في بعض المصادر الإسلامية(٢) ، مع اختلاف بعض الألفاظ في الرواية .

---

(١) محمد ناصر الدين الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، المجلد الأول ، الطبعة الثالثة ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٥٥٩ حديث رقم ٣١٣ .

وقد ذكر ابن كثير أن ((هذا حديث غريب جداً ، والأقرب أنه موقوف والله أعلم)) . انظر :

ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٣٥ .

والحديث الموقوف هو ما روي عن الصحابي من قول ، أو فعل ، أو نحو ذلك ، متصلاً كان السند أو منقطعاً . وبعض الفقهاء يُسمون الموقوف بالأثر . أما أهل الحديث فيطلقون الأثر على الحديث الموقوف والمرفوع . انظر: الحسين بن عبد الله الطيبي : الخلاصة في أصول الحديث ، تحقيق صبحي السامرائي ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ٦٣ .

(٢) انظر :

ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٢٢ وكذا

الطبري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤١٦ ، ص ٤١٩ وكذا

علي بن الحسين بن علي المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ج ١، دار المعرفة ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٤٨ وكذا

القرطبي : المصدر السابق ، المجلد السابع ، ج ١٣ ، ص ٧٣ وكذا

ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٣٥ .

وعلى أي حال ، فقد ورد في التوراة الطريق الذي سلكه موسى عليه الصلاة والسلام وبنو إسرائيل أثناء خروجهم من مصر ، فجاء في النص :

« فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سُكّوت ... »[١] .

ثم في فقرة أخرى من التوراة :

« وارتحلوا من سُكّوت ونزلوا في إيثام في طرف البرية »[٢] .

وفي فقرة أخرى :

« وكلم الرب موسى قائلاً . كلم بني إسرائيل أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحِيروث بين مِجْدُل والبحر أمام بعل صَفُون . مُقابِلَه تنزلون عند البحر »[٣] .

وفي موضع آخر من التوراة :

« فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس ونزلوا في سُكّوت . ثم ارتحلوا من سكوت ونزلوا في إيثام التي في طرف البرية . ثم ارتحلوا من إيثام ورجعوا على فم الحيروث التي قبالة بعل صفون ونزلوا أمام مجدل . ثم ارتحلوا من أمام الحِيروث وعبروا في وسط البحر إلى البرية وساروا مسيرة ثلاثة أيام في برية إيثام ... »[٤] .

وبناءً على هذه النصوص التوراتية فإن خط سير بني إسرائيل من مصر ، باتجاه أرض كنعان ، كان ابتداءً من مدينة بر - رعمسيس ، ومن ثم إلى سُكّوت[٥] Succoth ، ثم إلى

---

(١) سفر الخروج ١٢ : ٣٧ .

(٢) سفر الخروج ١٣ : ٢٠ .

(٣) سفر الخروج ١٤ : ١ - ٢ .

(٤) سفر العدد ٣٣ : ٥ - ٨ .

(٥) سُكّوت : هو أول مكان وصل إليه بنو إسرائيل بعد خروجهم من بر - رعمسيس ، حيث تبلغ المسافة بينهما نحو ٢٠ كيلاً . والراجح أن سكوت تقع في الخرائب المجاورة للصالحية ، إذ مر في نص التوراة السابق « أن الله لم يهدهم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة » « لئلا يندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر » . والدليل القوي على أن موقع سكوت عند الصالحية ، ما ورد في بردية انستاسي الخامسة (المحفوظة في المتحف البريطاني برقم ١٠٢٤٤ ، في الورقة ١٩ سطر ٢ إلى الورقة ٢٠ سطر ٦ ، والتي يعود تاريخها إلى نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد في عصر الأسرة التاسعة عشرة ، حيث نشرها عدد من العلماء منهم: ألن . هـ . جاردنر، وأدولف إرمان ، وجون ولسون) التي تصف هروب اثنين من العبيد ، كما في النص : « ومسألة أخرى مُلِحّة : فقد أرسلت من بلاط القصر الملكي ... في الشهر الثالث من الفصل الثالث [فصل الصيف] في اليوم التاسع ، في وقت المساء ، من يتتبع وراء هذين العبدين . والآن عندما وصلت أسوار الحائط في ثكو Tjeku [سكوت] في الشهر الثالث من الفصل الثالث ، في اليوم العاشر ، فقد أخبروني بأن من كان في الجنوب يقولون : بأنهما ⇐

إيثام(1) Etham

← احتازا في الشهر الثالث ، من الفصل الثالث ، في اليوم العاشر . والآن عندما وصلت إلى القلعة أخبروني أن سائس الخيل قد جاء من الصحراء [وأنه يقول] أن العبدين احتازا الحدود شمال بجدول سيتي مرنبتاح ... » .
ومن خلال بردية انستاسي أيضاً فإن سكوت وصفت بأنها أرض متاخمة أو على الحدود ويسكنها أجانب ، وفيها قلعة تدعى " خِتم سكوت " ومستنقعات تُعرف باسم بحيرات " بتوم مرنبتاح " التابعة لبلدة سكوت . وهذه البحيرات لا تخرج عن كونها بحيرة " مهيشر " ومستنقعات " سعده " و " اكياد " ، والتي كان الفراعنة الرعامسة يمارسون فيها هواية الصيد والقنص ، لقربها من العاصمة " بررعمسيس " التي لا تبعد عنها سوى مسيرة يوم . ويرى ج . إي . رايت ، ومارتن نوث ، وناحوم . م . سارنا أن سكوت هي الموقع الحديث المعروف باسم تل المسخوطة في الجزء الشرقي من وادي طميلات . رغم أن جون ولسون لا يوافق على ذلك ، ويرى أن " ثكو أو تكو " ليست " سكوت " الواردة في التوراة ، ولا يؤيد أيضاً ما ذهب إليه ألن جاردنر في تحديد موقعها بتل المسخوطة ، وإن كان قَبِلَ بأن يكون موقعها ضمن الوادي المذكور وهو وادي طميلات .
ومن الجدير بالذكر أن سكوت في اللغة العبرية معناها المظلاّت أو الخيام ، وتُنطق بلفظ " سوخيت " ، وقد توقف البعض في تحديد هذا الموقع ، وذهبوا إلى أن المكان غير معروف بالضبط . انظر :
عبد الحميد محمود مطاوع : موسى كليم الله عليه السلام ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٧ م ، ص ٨١ وكذا
سليم حسن : مصر القديمة ، ج ٧ ، ص ١٢٣ – ص ١٢٤ وكذا
أبكار السقاف : المرجع السابق ، ص ١٩٢ – ص ١٩٣ وكذا
بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٤٧٢ وكذا
وليم مارش : كتاب السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم ، الجزء الأول ، مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، بيروت ، ١٩٧٣ م ، ص ٣٦٤ وكذا
غطاس عبد الملك الخشبة : المرجع السابق ، ص ١٨٨ هامش (١٨) ، ص ٢١٥ هامش (٥) وكذا
Wright , G . E . , Op . Cit . , P . 198 ;
Wilson , J . A . , " Egyptian Historical Texts - The Pursuit of Runaway Slaves " , ANET , P . 259 , note 1 ;
Noth , M . , The History of Israel , SCM Press , London , 1983 , P . 112 note 1 ;
Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . P . 20 , 108 .

(١) إيثام : وقد تُنطق " إيتام " ، وهي ليست بلدة بل بيداء أو صحراء ، كما يفهم ذلك من عبارة التوراة : « وساروا مسيرة ثلاثة أيام في برية إيثام » سفر العدد ٣٣ : ٨ .
وقد كانت أرض إيثام أو إيتام (إدوم) يسكنها العرب البدو الذين يسميهم المصريون القدماء باسم " شاسو " ، حيث كانوا يدخلون أحياناً الحدود المصرية طلباً للكلأ والماء .
وهناك من يرى أن برية إيثام تشمل صحراء الصالحية بالشرقية ، والأراضي المنخفضة في المنطقة الواقعة شمال غرب سيناء . في حين يذهب البعض إلى أن المقصود بإيثام التي في طرف البرية مكان يسمى " بير السويس " الذي يقع عند طرف الصحراء بمدينة السويس إلى الشمال الغربي منها . فيما يظن آخرون أن إيثام كانت بالقرب من مدينة الاسماعيلية الحالية . وإن رأى البعض أن موقع إيثام لا يزال مجهولاً . انظر :
عبد الحميد محمود مطاوع : المرجع السابق ، ص ٨١ وكذا
سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ١٢٤ – ص ١٢٥ وكذا
←

في طرف البرية[١] .

ومن ثم ارتحلوا من إيثام ورجعوا على فم الحِيروث[٢] Pi - hahiroth التي تُقابل بعل

⇐ أبكار السقاف : المرجع السابق ، ص ١٩٣ وكذا

بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٤٠ وكذا

وليم مارش : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٧٠ وكذا

دي بوا ايميه : كيف خرج اليهود من مصر القديمة ، ترجمة زهير الشايب ، مكان الطبع مجهول ، ١٩٩١ م ، ص ٦٢ وكذا

Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 108 .

(١) البرية : هذه الكلمة لها معنىً واسع ، فقد تُطلق على البيداء أو الصحراء ، أو تُطلق على الأرض الرعوية غير المزروعة ، أو الأرض البور ، أو المنعزلة ، أو الأرض الخراب ، وغير ذلك من المعاني . انظر :

Ibid . , P . 106 .

(٢) فم الحيروث : لقد كان الإله المحلي لمدينة ثارو هو الإله " حور " ، وكان يُسمى على الآثار التي عُثر عليها في تلك المدينة باسم " سيد شاسو " أو " سيد المستنقعات " لأنها تقع بين بحيرات البلح وبحيرة المنزلة . وقد جففت قناة السويس تلك المستنقعات ، لأن مياهها في مستوى ماء البحر ، ومنعت مياه النيل عن المستنقعات الواقعة شرقيها . والمقاطعة التي تقع فيها ثارو تسمى " مسن " ، وكان " حور " يُدعى فيها " سيد مسن " الذي ورد في النصوص المصرية القديمة على هذا النحو :  Lord of Mšn " Mesen " .

وهناك من يرى أن فم الحيروث تقع إلى الشرق أو الشمال الشرقي من دافني (أدفينا) ، وهو ما جعل بعض المؤرخين يسمي الفرع البلوزي للنيل باسم مياه حور أو مستنقعات حور . وعلى هذا الفرع تقع مدينة القنطرة بين بحيرات البلح السابقة وبحيرة المنزلة ، مما يعني أن الجزء الشمالي الشرقي لبحر سوف كان يسمى فم الحيروث، حيث عسكر أمامه بنو إسرائيل .

وقد وردت الإشارة لمياه حور في خطاب الكاتب " بيبسا " الذي بعثه يُحيّي فيه استاذه الكاتب " أمنمأبت " الذي يذكر له أن مياه حور يُستخرج منها الملح والنطرون ، وسفنها تروح وتغدو إلى الميناء ، والطعام الوفير فيها كل يوم ، بحيث يبتهج الإنسان بالسكنى فيها .

ويمكن ترجمة اسم مصب هذا الفرع من الاغريقية بعبارة " فم حور " وهي تسمية لا تختلف كثيراً عن تسمية " فم الحيروث " . ويرى ناحوم . م . سارنا أن فم الحيروث ترجع في أصلها إلى معنى المنزل أو المعبد ؛ وأن أقرب المعاني لها في العبرية " بي – حاثور " أي منزل الإلاهة حاثور ، والتي ذُكرت في المصادر المصرية العديدة باسم الإلاهة حتحور . غير أن الكلمة العبرية تزيد عليها بلفظ " فم " . انظر :

عبد الحميد محمود مطاوع : المرجع السابق ، ص ٨١ وكذا

سليم حسن : مصر القديمة ، ج ٦ ، ص ٥٩٩ ؛ ج ٧ ، ص ١٢٦ – ص ١٢٧ وكذا

أبكار السقاف : المرجع السابق ، ص ١٩٣ وكذا

دي بوا ايميه : المرجع السابق ، ص ٦٣ وكذا

Gardiner , A . H . , Ancient Egyptian Onomastica , Vol . II , Oxford University Press , Amen House , Oxford , 1947 , P . 203* ;

Wright , G . E . , Op . Cit . , P . 198 ;

Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 108 .

صِفون(١) Baal - Ze phon ونزلوا أمام فم الحيروث بين مجدول(٢) Migdol والبحر بعد

(١) بعل صفون ، أو بعل زيفون : كان الإله " بعل " أشهر الآلهة عند الكنعانيين القدماء ، ويدل اسمه على معنى الرب أو السيد . وقد انتشرت عبادته في كثير من مناطق الشرق الأدنى القديم ، مما يُفسر وجود أسماء عديدة له ؛ إذ كان الاسم من أسمائه يبتدئ غالباً بـ" بعل " وينتهي بإسم تلك البلاد أو المدينة الموجود هو فيها ، مثل : بعل حاصور ، بعل حرمون ، بعل صفون ، بعل فغور .

و" بعل صفون " معناه " بعل الشمال the Baals of the North " . وحسب رواية التوراة في سفر الخروج ١٤ : ٢ فإن بعل صفون أُستخدم في النص للدلالة على اسم مكان يقع على حافة الحدود المصرية . وفي سنة ١٩٤٠ م عُثر أثناء التنقيبات الأثرية في سقارة على إحدى الوثائق البردية الفينيقية ، ومعها أوراق ديموطيقية ، تدل إحداها على أنها خطاب شخصي يتضرع فيه كاتبه " إلى الإله بعل صفون وكل آلهة دافني Daphne " (تل دفنه الحديثة) ، مما يدل على أن بعل صفون كان الإله الرئيس لبلدة دافني (تل دفنة) التي تبعد حوالي ٤٣ كيلاً جنوب الجنوب الغربي من مدينة بور سعيد . وإن كان هناك رأي آخر يذهب إلى أن بعل صفون كان الإله لبلدة " راس كسرون " التي تبعد حوالي ٦٩ كيلاً إلى الشرق من الفرع الشرقي للنيل عند بلوزيوم ، خلف بحيرة سربونين . ولكن هذا الرأي الأخير يعتريه الكثير من الشك . ومما يُعضد الرأي الذي يذهب إلى أن بعل صفون كان الإله الرئيس لبلدة دافني ، ما عُثر أيضاً في ممفيس وغيرها من وثائق فينيقية تؤيد هذا الاتجاه . انظر :

سليم حسن : مصر القديمة ، ج ٧ ، ص ١٣٠ وكذا

أبكار السقاف : المرجع السابق ، ص ١٩٤ وكذا

Wright , G . E . , Op . Cit . , P . 198 ;

Wilson , J . A . , " Egyptian Historical Texts - The Egyptian and the Gods of Asia " , ANET , 249 - 250 note 12 ;

Oren , E . D . , " Migdol : Anew Fortress on the Edge of the Eastern Nile Delta " , BASOR , number 256 , 1984 , P . 36 ;

Sarna , N . M . , Op . Cit . , P. P . 108 - 109 .

(٢) مجدول : ان الاسم مجدول هو اسم سامي ويعني " برج " أو " قلعة " أو حتى مخيم عسكري . وقد ظهر هذا الاسم في الوثائق المصرية القديمة ، في بداية عصر الأسرة الثامنة عشرة ، كإسم مكان على الحدود المصرية المحاذية لكنعان . وفي إحدى البرديات الديموطيقية المحفوظة في المتحف المصري بالقاهرة تحت رقم ٣١١٦٩ ذُكر فيها على الأقل أربعة أماكن سُميت بهذا الاسم " مجدول " في الدلتا . ولكن المقصود بمجدول هنا هي التي ذُكرت في طريق الفرعون سيتي الأول إلى فلسطين ، حيث ورد هذا المكان قبل موقع ثارو على الطريق الحربي باتجاه فلسطين ، وذلك في نصوص هذا الفرعون في الكرنك ، وفي إحدى البرديات ، وهي بردية انستاسي الخامسة : ٥ ، وفي إحدى رسائل العمارنة أيضاً ذكر الاسم بصيغة " مجدال Magdal " للدلالة على نفس هذا المكان . ويكاد يتفق المؤرخون على أن موقع مجدول الآن هو تل الحير Tell el - Heir الذي يبعد حوال ١٠ أكيال جنوب بلوزيوم القديمة (تل الفرما حالياً) ، وحوالي ١٥ كيلاً إلى الشمال الشرقي من تل أبو صيفة (ثارو القديمة) . أما من ذهب إلى أن مجدول تقع في شرقي الإسماعيلية في الموقع المعروف الآن بـ" تل المسخوطة " فأمر بعيد الاحتمال . انظر :

عبد الحميد محمود مطاوع : المرجع السابق ، ص ٨٢ وكذا

سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ١٣٠ وكذا

⇐

أن ساروا مدة يوم واحد تقريباً ، حيث وصلوا بالفعل إلى البحر .

ولمحاولة تحديد ذلك البحر ، الذي حدثت فيه المعجزة الربانية ، وهي انفلاق البحر ، وعبور موسى عليه الصلاة والسلام ومعه بني إسرائيل ، ينبغي على الباحث بيان المقصود بـ" البحر " قدر المستطاع ، قبل الحديث عن تلك المعجزة ، وغرق فرعون وجنوده .

لم يرد في القرآن الكريم أي إشارة لتحديد ذلك البحر الذي تجمع عنده بنو إسرائيل ، ومن ثم عبورهم إياه بقدرة الله عز وجل . بل إن القرآن الكريم أشار لذلك بلفظ ﴿ **البحر** ﴾ ، وبلفظ ﴿ **اليم** ﴾ في مواضع كثيرة ، منها :

قال تعالى : ﴿ **وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون** ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر** ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده** ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ **فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً** ﴾(٤) .

وقال تعالى : ﴿ **فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر** ﴾(٥) .

وقال تعالى : ﴿ **واترك البحر رهواً إنهم جُندٌ مغرقون** ﴾(٦) .

ـــ أبكار السقاف : المرجع السابق ، ص ١٩٤ وكذا

بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٨٤١ – ص ٨٤٢ وكذا

Lambdin , T . O . , " Migdol " , in The Interpreter's Dictionary of the Bible , Vol . 3 , Edited by Buttrick , G . A . , Abingdon Press , Nashville , New York , 1962 , P . 377 ;

Wright , G . E . , Op . Cit . , P . 198 ;

Wilson , J . A . , " Egyptian Historical Texts - The Pursuit of Runaway Slaves " , ANET , P . 259 note , 9 ;

Albright , W . F . , " Akkadian Letters - The Amarna Letters , EA , No . 234 " , ANET , PP . 484 - 485 note 4 ;

Oren , E . D . , Op . Cit . , P . P . 7 - 38 ;

Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 108 .

(١) سورة البقرة ، الآية (٥٠) .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٣٨) .

(٣) سورة يونس ، الآية (٩٠) .

(٤) سورة طه ، الآية (٧٧) .

(٥) سورة الشعراء ، الآية (٦٣) .

(٦) سورة الدخان ، الآية (٢٤) .

أما لفظ ﴿ اليم ﴾ فجاء أيضاً في آيات كثيرة ، للدلالة على البحر ، الذي تمت فيه المعجزة الربانية ، ومن ذلك :

قوله تعالى : ﴿ **فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين** ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ **فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم** ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم** ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ **فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم** ﴾(٤) .

أما الروايات التوراتية التي أشارت إلى هذا البحر الذي ارتبط ببني إسرائيل ونجاتهم ، وغرق فرعون وجنوده فيه ، فإن أكثرها يشير إلى البحر الأحمر ، حسب ما ورد في مواضع مختلفة من التوراة(٥) ، حيث كان بنو إسرائيل أثناء إقامتهم في مصر يسمونه " البحر "(٦) . وسُمي أيضاً بحر مصر ، حسب ما ورد في النص(٧) :

((ويُبيدُ الربُّ لسان بحر مصر ويهزُّ يدهُ على النهر ...)) .

وبناءً على نصوصٍ أخرى من التوراة(٨) ، ذهب بعض المؤرخين(٩) ، إلى أن البحر الأحمر هو نفسه " بحر سوف " الوارد في تلك النصوص .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية (١٣٦) .

(٢) سورة طه ، الآية (٧٨) .

(٣) سورة القصص ، الآية (٤٠) .

(٤) سورة الذاريات ، الآية (٤٠) .

(٥) انظر :
سفر الخروج ١٤ : ٢ ، ٩ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٨ ؛ ١٥ : ١ ، ٤ ، ٨ ، ١٠ ، ١٩ وكذا
سفر يشوع ٢٤ : ٦ ، ٧ .

(٦) بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

(٧) سفر إشعياء ١١ : ١٥ .

(٨) سفر الخروج ١٠ : ١٩ ؛ ١٣ : ١٨ ؛ ١٥ : ٤ ، ٢٢ ؛ ٢٣ : ٣١ .

(٩) يوسف الدبس : من تاريخ سورية الدنيوي والديني ، المجلد الثاني ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ١٢٠ وكذا
وليم مارش : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٩ ، ص ٣٧١ وكذا
زكي شنودة : موسوعة تاريخ الأقباط والمسيحية ، ج ٨ ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٣ - ١٩٧٤ م ، ص ٢٨ ، ص ٢٩ وكذا
هارفي بورتر : موسوعة مختصر التاريخ القديم ، الكتاب الأول ، الطبعة الأولى ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م ، ص ١١٨ .

وقد ورد في النسـخة الانجليزية المُعتَمدة للتوراة[1] ، اسـم البحـر الأحمـر ، في كـل النصوص السابقة ، بدلاً من " بحر سـوف " . مما يعني المطابقة بين البحـر الأحمـر وبحـر سوف ، وأنهما شيء واحد في هذه النسخة .

إلا أن الحقائق التاريخية ، والبحوث الحديثة ، بيّنت أن الأمـر ليس كذلك[2] ، مما يتطلب بيان وجه الحق في هذا الموضوع .

إن الذين قاموا بترجمة التوراة عن اللغة اليونانية إلى اللغات الشرقية والغربية ، وضعوا بدلاً من كلمة " يام سوف " (بحر سوف) عبارة البحر الأحمـر ، أو بحر القلزم ؛ أي أن فريقاً من المترجمين وضعوا بدلاً من كلمة " يام " التي كانت في الأصل العبري القديم كلمة " بحر " ، بينما راعى فريق آخر من المترجمين كلمة " سوف " في الأصل العبري القديم فألحقها بكلمة بحر . ثم إنهم أيضاً تصرّفوا في الترجمة ، فألحقوا بكلمة بحر كلمة " القلزم " الدالة على البحر الأحمر ؛ أي أن منشأ الخطأ والتخبط جاء عن طريق المترجمين الذين لم يتّبعوا الترجمة الصحيحة ، وأهملوا المعنى من كلمة " يام أو يم " ، والمعنى أيضاً المقصود من كلمة " سوف " ، مما كان لهذا التغيير في الترجمة الأثر الجسيم في البحوث العلمية التي تناولت هذا الموضوع[3] .

وهناك معانٍ عدة في اللغة العبرية لكلمة " سوف " : فقد تعني " البـوص "[4] ، وقد تعني " قصب الغاب "[5] ، أو " نبات البردي أو القصب "[6] .

---

(١) The Holy Bible , King James Version , Containing the Old and New Testaments , American Bible Society , New York , 1988 , P.P . 55 , 58 , 59 , 60 , 67 .

(٢) سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ١٢٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٢٨ وكذا
أبكار السقاف : المرجع السابق ، ص ١٩٥ – ص ١٩٦ وكذا
Anderson , B . W . , The Living World of the Old Testament , First Edition , Longmans , Green and Co , London , 1958 , P . 47 ;
Towers , J . R . , " The Red Sea " , JNES , Vol . 18 , 1959 , PP . 150 - 153 ;
Kapelrud , A . S . , Israel From the Earliest Times to the Birth of Christ , Translated by J . M . Moe , Oxford , 1966 , P . 23 .

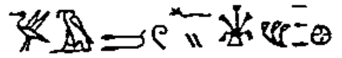
(٤) سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ١٢٩ وكذا
أبكار السقاف : المرجع السابق ، ص ١٩٦ .

(٥) بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٤٩٤ .

(٦) Albright , W . F . , From the Stone Age to Christianity , Second Edition , Doubleday Anchor Books , New York , 1957 , P . 14 ;
Anderson , B . W . , Op . Cit . , P . 47 ;
Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 107 .

وكلمة " سوفي " معناها باللغة المصرية القديمة " البردي " ، إذ أن هذه الكلمة مستعارة من الكلمة المصرية القديمة Čwfy[١] .

وعلى ذلك ، فإن " يام سوف " أو " بحر سوف " يشير إلى ما يتميز به هذا الماء من نموّ مُكثّف لنبات البردي عليه ، أو أنه مغطى بشكل كثيف بنبات القصب .

وقد وردت الإشارة إلى مستنقعات البردي في النصوص المصرية القديمة ، وأشير إليها بالرمز الهيروغليفي 

ودلالته الصوتية Pȝ - ṯ wf الذي يدل على نبات البردي نفسه ، والذي يكثر في المناطق الشرقية لبحيرة المنزلة ، وهو ما يدل على ارتباط الكلمة العبرية " يام سوف " بالكلمة المصرية القديمة Pȝ - ṯ wf حيث أنها تؤدي نفس المعنى للكلمة[٢] .

وعلى ذلك ، فإن التعبير " يام سوف " يُلغي إمكانية التطابق مع ما عُرف تقليدياً بـ" البحر الأحمر " ، والسبب هو أن نبات البردي ينمو فقط في المياه العذبة التي لا توجد إلا في الدلتا شمال مصر . والبحر الأحمر ، من ناحية أخرى ، بحر مالح لا يحتوي على نبات البردي ، مما يؤكد أن " بحر القصب " يشمل جميع شبكة البحيرات التي تحد البرية من ناحية إقليم الدلتا الشمالية الشرقية ، كما يشمل الشريط الضيق الطويل من المياه ، الذي يمتد باتجاه جنوبي شرقي السويس[٣] .

ويذهب جي . ر . تورز[٤] إلى أن الكُتّاب المصريين القدماء ، كانوا يشيرون بشكل واضح إلى البحر الأحمر والبحر المتوسط معاً تحت اسم عام هو Wȝ ḏ wr الذي يعني " الأخضر العظيم Great Green " ، بينما أشاروا إلى بحر القصب ، أو بحيرة القصب في النصوص المصرية القديمة بإسم Šiȝrw ، حيث أن المقطع Š يعني " بركة أو حوض " ، واستخدمت للإشارة على ما اتسع من الماء .

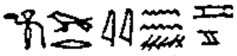
---

(١) سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ١٢٩ وكذا
Lambdin , T . O . , " Egyptian Loan Words in the Old Testament " , JAOS , Vol . 73 , 1953 , P . 153 .

(٢) Gardiner , A . H . , Op . Cit . , Vol . II , P . 201* .

(٣) Towers , J . R . , Op . Cit . , P . 150 ;
Sarna , N . M . , Op . Cit . , PP . 107 - 108 .

(٤) Towers , J . R . , Op . Cit . , P . 150 .

غير أن ألن . هـ . جاردنر[١] يعتقد أن W3 dwr أي الأخضر العظيم يشير فقط إلى البحر المتوسط ، حيث ورد في بعض نصوص اللغة المصرية القديمة 

وعلى ذلك ، فقد ذهب بعض المؤرخين[٢] إلى أن بني إسرائيل كانوا قد وصلوا إلى بحيرة المنزلة ، وأنها هي التي يُقصد بها البحر في نصوص التوراة آنفة الذكر ، حيث كان يُفترض أن الطريق الوحيد الذي كان متاحاً لعبورهم إلى سيناء هو اجتياز المياه الضحلة في الامتداد الجنوبي لبحيرة المنزلة ، حيث وقعت الحادثة الشهيرة بعد ذلك لبني إسرائيل وأنجاهم ا لله عز وجل بقدرته .

وإن كان أغلب الظن – حسب رأي البعض[٣] – أن هذا البحر الذي وقعت فيه المعجزة الكبرى هي بحيرة البّلاح التي تخرج من بحيرة المنزلة .

وهذه البحيرة التي سميت أيضاً بـ" بحر القصب " أو " بحر سوف " لم تكن امتداداً شمالياً للبحر الأحمر ، إذ ثبت من خلال الاكتشافات الحديثة – حسب هذا الرأي – أن مستوى البحر الأحمر لم يتغير بشكل ملحوظ عبر الأزمنة التاريخية .

وقد اختلفت الآراء في تحديد البحر الذي وصل إليه موسى عليه السلام ، والمعجزة الربانية التي حدثت فيه .

فقد ذهب البعض[٤] ، إلى أن الحادثة المهمة ، المقرونة بالبحر الأحمر هي مرور بني

---

(١) Gardiner , A . H . , Op . Cit . , Vol . I , P . P . 25 , 33* , 35* ;
Gardiner , A . H . , Egyptian Grammar Being An Introduction to the Study of Hieroglyphs , Third Edition , Griffit Institute , Ashmolean Museum , Oxford , 1976 , P . 560 .

(٢) سامي سعيد الأحمد : " الأسس التاريخية للديانة اليهودية " ، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية ، العدد ١٩ ، جامعة بغداد ، بغداد ، ١٩٧٦ م ، ص ١٠٥ وكذا
غطاس عبد الملك الخشبة : المرجع السابق ، ص ١٩٠ – ص ١٩١ وكذا
نعوم بك شقير : المرجع السابق ، ص ٤٥٠ وكذا
Wright , G . E . , Op . Cit . , P . 198 .

(٣) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ١١٩ .

(٤) بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٦٣ – ص ١٦٤ وكذا
أحمد شلبي : المرجع السابق ، ص ٦٧ وكذا
ديتلف نيلسن وآخرون : التاريخ العربي القديم – الديانة العربية القديمة – الديانة العربية القديمة والإسرائيلية ، ترجمة فؤاد حسنين علي ، مراجعة زكي محمد حسن ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ م ، ص ٢٣٩ وكذا
دي بوا ايميه : المرجع السابق ، ص ٧٧ وكذا
Noth , M . , Op . Cit . , P . 116 .

إسرائيل فيه ، وغرق فرعون والمصريين ، وأنهم عبروا خليج السويس بالقرب من طرفه الشمالي .

وذهب آخرون[١] ، إلى أن ذلك كان في البحر الأحمر عند الشاطيء الجنوبي الغربي لخليج السويس إلى شاطئه الجنوبي الشرقي ، من موضع يقرب ، على الأرجح ، من جبل عناقه أو عتاقة ، أو جبل الطاقة القائم بجوار مدينة السويس الحالية ، حيث وقعت معجزة إنشقاق البحر .

وقد ذكر أحد العلماء[٢] أن موضع غرق فرعون وقومه كان عند موضع القلزم ، أي مدينة السويس الحالية .

ويذكر سليم حسن[٣] : أن " لينان دي بلفون Linant de Bellfonds " أحد علماء الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١ م) ذهب إلى أن البحر الأحمر كان يمتد شمالاً حتى بحيرة التمساح ، وذلك من أجل أن يجعل التفاصيل التي ذُكرت في التوراة مطابقة للواقع .

وهناك من يرى[٤] أن البحر الذي وقعت فيه الحادثة المعجزة كان بالتأكيد على الحدود الشرقية للدلتا ، حيث كان بنو إسرائيل مجتمعين هناك ، في محاولة لمغادرة مجال السيطرة المصرية ، ويكاد التأكيد مستحيلاً من مكان الحدث بصورة دقيقة ، وسيظل مستحيلاً حتى ولو كان هناك معلومات دقيقة فيما يتعلق بمدى مداخل البحر والبحيرات في منطقة قناة السويس الحالية ، ولا يوجد معلومات دقيقة يُعوَّل عليها في التوراة ، فيما يتعلق بهذه النقطة . ومن المحتمل أنه في الألف الثاني قبل الميلاد كان خليج السويس متصلاً بمياه ضحلة مع البحيرات المرة ، وحتى مع بحيرة التمساح ، بينما في أقصى الشمال كانت بحيرة

---

(١) يوسف الدبس : المرجع السابق ، ص ١٢٠ وكذا
زكي شنودة : المرجع السابق ، ج ٨ ، ص ٢٨ - ص ٢٩ وكذا
هارفي بورتر : المرجع السابق ، ص ١١٨ .
وانظر : بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٣٤٠ - ص ٣٤١ .

(٢) شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ٣٤٤ .

(٣) مصر القديمة ، ج ٧ ، ص ١٢٨ .

(٤) Noth, M., Op. Cit., P. P. 115 - 116 note 1 .

البلاح مرتبطة بمياه البحر المتوسط[1] ؛ لذلك كان هناك ممر ضيق نوعاً ما بين بحيرة التمساح ، وبحيرة البلاح . لذا ، فإن قلة المعلومات المتوفرة عن تفاصيل هذه الأحداث التي وقعت ، مسئولة – من ناحيةٍ ما – عن الغموض وعدم التأكد .

وقريب من هذا ، ما ذهب إليه أيضاً أحد المؤرخين[2] بقوله : إن الطريق قادهم باتجاه منطقة المستنقعات حول بحيرة التمساح ، الامتداد الضحل لخليج السويس .

وفي عام ١٩٣٦ م قام " روبرتسون " بعبور خليج السويس ، ولكنه كان على نقيض " لينان " الذي رفع مستوى البحر الأحمر وجعله يصل حتى بحيرة التمساح ، على حين أن " روبرتسون " قد خفّضه بما يتراوح بين خمس عشرة وعشرين عقدة ، ليجعل عبره من قبالة الطور ممكنة ، وبذلك يُقدم للناس اتساعاً معقولاً بين سلسلة الجبال المعروفة باسم " جلال " الشمالية والجنوبية[3] .

صحيح أنه في سفر الخروج ١٤ : ٢ هناك بعض الإشارات دقيقة جداً ، وواضحة بما فيه الكفاية ، للقول بشكل أكيد ، أن ذلك كان يتركز في الاقليم ، الذي كان يُسمى في العصور الهلينستية والرومانية باسم بحر سربونين ، الذي يُعرف حديثاً باسم سبخة

---

(١) شق سنوسرت الثالث (١٨٧٨ – ١٨٤٣ ق.م) قناة في شرق الدلتا ، وصل بها ما بين النيل وخليج السويس عن طريق وادي طميلات والبحيرات المرة . وتُعد هذه القناة أقدم طريق مائي وصل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر ، إذ كانت السفن تشق طريقها في النيل ، ثم في تلك القناة إلى البحر الأحمر متجهة إلى بونت . وهذه القناة تقع الآن بالقرب من الزقازيق المسماة حديثاً بـ" ترعة الإسماعيلية " . وتدل الآثار البنائية الباقية من القناة القديمة على أن عرضها كان حوالي ٤٥ متراً ، وعمقها ما بين $\frac{٣}{٤}$ ٣ المتر و $\frac{١}{٤}$ ٥ المتر . ويظهر أنه تم تعميق تلك القناة في عهد رعمسيس الثاني ، وعلى أيدي كثير من الفراعنة المتأخرين . انظر :

محمد جمال الدين مختار وآخرون : تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني ، المجلد الأول – لمحة في تاريخ مصر السياسي والحضاري ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ م ، ص ١٠٠ – ص ١٠١ وكذا

جيمس بيكي : الآثار المصرية في وادي النيل ، ترجمة لبيب حبشي ، وشفيق فريد ، مراجعة محمد جمال الدين الشيال ، ج ١ ، دار الكرنك ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٥٨ وكذا

جيمس هنري برستد : العصور القديمة ، ترجمة داود قربان ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٨٣ .

(٢) Anderson , B . W . , Op . Cit . , P . 47 .

(٣) سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ١٢٨ .

بردويل ، البحيرة الضحلة الضحمة ، والتي تقع على مسافة رحلة يوم شرق الركن الشمال الشرقي للدلتا ، حيث يمكن تماماً أن تكون هذه الإشارات دقيقة . ولكن رغم تلك الإشارات الدقيقة فإنها موجودة فقط في النص الكهنوتي المتأخر (الذي كتب بعد السبي البابلي) The Late Priestly Code ، وربما كانت تُظهر مجهوداً متأخراً لوضع الحادث العظيم في مكان دقيق ومطابق للوضع التقليدي للأحداث التاريخية . ولكن ذلك يفصل عن ذلك الحدث نفسه أكثر من ٥٠٠ عام ... وحتماً هذا البحر ، الذي أثّر على مجرى الأحداث ، يجب أن يكون ممتداً في المنطقة المجاورة لقناة السويس الحديثة ، فيما لو أن شخصاً ما تتبع سفر الخروج ١٤ : ٢ في الإشارة إلى البحيرة الضحلة وهي سبخة بردويل ، أو واحدة من البحيرات على برزخ السويس التي تتقاطع في الوقت الحاضر مع قناة السويس(١) .

إلا أن هذا الرأي ، الذي يقترح أنهم ساروا باتجاه بحر سربونين ، أو بالأحرى بحيرة سربونين ، من الصعب الأخذ به ، لعدم مطابقته مع ما ورد في الروايات التوراتية(٢) .

أما المصادر الإسلامية ، فقد ورد في كثير منها(٣) أن البحر الذي وصل إليه بنو إسرائيل عند خروجهم من مصر ، والذي غرق فيه فرعون وجنوده هو بحر القلزم أي البحر الأحمر ، عند خليج السويس ، وخاصة عند مدينة السويس الحالية التي كانت تُسمى أيضاً في تلك المصادر بمدينة القلزم .

---

(١) Noth , M . , Op . Cit . , P. P . 115 - 116 .

(٢) Anderson , B . W . , Op . Cit . , P . 47 .

(٣) انظر على سبيل المثال لا الحصر :

خليفة بن خياط بن أبي هبيرة خليفة بن خياط الليثي العصفري الملقب بـ شباب : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، الطبعة الثانية ، دار طيبة ، الرياض ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ١٩٢ وكذا

ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ١٦٤ وكذا

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٤٤ وكذا

علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير : الكامل في التاريخ ، راجع أصوله وعلق عليه نخبة من العلماء ، ج ٣ ، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ١٧٨ وكذا

محمد بن عبد المنعم الحميري : كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، الطبعة الثانية ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ، ١٩٨٠ م ، ص ٤٦٦ – ص ٤٦٧ .

ونتيجة لكثرة الآراء في هذا الموضوع ، ذهب بعض المؤرخين[١] ، إلى أن الحقائق التي يجب التفكير فيها في تحديد هذا البحر ، وفي عملية تحديد مشهد الحدث العظيم ، ما هي إلا حقائق غامضة ، ويبقى تحديد ذلك المكان غير ممكن على وجه اليقين ، ويظل تحديده أمراً مشكوك فيه ، فيما إذا كان هو النهاية الشمالية لخليج السويس ، أو إحدى البحيرات المرة ، أو بحيرة المنزلة ، أو حتى خليج العقبة ، أو بحيرة سربونين . ويزداد الشك عِظماً بسبب أن روايات التوراة تتناقض في هذه النقطة ، وإن كان قد قيل بمكانين على الأقل من هذه الاحتمالات ، وهي تحديداً إحدى البحيرات المرة بدون تحديد ، أو بحيرة سربونين . لكن عدم التأكد هذا لا يؤثر بشيء على مصداقية التراث التوراتي من أساسه ، وهو أن بني إسرائيل الهاربين قد أُنقذوا من الإبادة على الحدود المصرية .

والرأي ، أن تحديد ذلك البحر هو مما استأثر الله به من علم الغيب عنده سبحانه وتعالى ، ولو كان في تحديده ومعرفته خيرٌ ومنفعة ، وكبير فائدةٍ لعباده لأخبر الله عز وجل في كتابه الكريم عن ذلك ، أو أخبر الرسول الكريم محمد ﷺ أمته بذلك ؛ لأن الهدف الرئيس من ذِكر البحر أو اليم ، في سياق الآيات القرآنية الكريمة آنفة الذكر ، هو بيان المعجزة الربانية حيث انفلق بقدرة الله عز وجل كالطود العظيم ، وهو ما يشير إلى قدرة الله سبحانه وتعالى على كل شيء ، وعلى سائر مخلوقاته . وبالتالي لم يُعنَ القرآن الكريم بذكر اسم البحر إلا بقدر ما جعلته الحادثة العظيمة مكاناً للأمر الرباني المعجز ، لاستخلاص العبرة والعظة .

وعلى أي حال ، فإن موسى عليه الصلاة والسلام كان يعلم بأن فرعون وجنوده سيلحق بهم ، وذلك لإخبار الله عز وجل له في قوله تعالى :

﴿ **إنكم مُتّبعون** ﴾[٢] ، لذلك كان رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام يدرك تماماً أن فرعون سيلحق به . فما إن نمى إلى فرعون الخبر بخروج بني إسرائيل ، حتى بدأ في

---

(١) موريس بوكاي : التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ، ترجمة حسن خالد ، الطبعة الثالثة ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، دمشق ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م ، ص ٢٦٧ وكذا

Eissfeldt , O . , Op . Cit . , P. P . 322 - 323 ;
Anderson , G . W . , The History and Religion of Israel , Oxford University Press , Oxford , 1976 , P . P. 23 - 24 .

(٢) سورة الشعراء ، الآية (٥٢) ؛ سورة الدخان ، الآية (٢٣) .

التجهّز للحاق بهم ، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك في قوله سبحانه : ﴿ **فأرسل فرعون في المدائن حاشرين • إن هؤلاء لشرذمةٌ قليلون • وإنهم لنا لغائظون • وإنا لجميعٌ حاذرون** ﴾[١] .

قال ابن كثير[٢] عند تفسيره لهذه الآيات :

((فلما أصبحوا وليس في ناديهم داعٍ ولا مجيب غاظ ذلك فرعون ، واشتد غضبه على بني إسرائيل لما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين ، أي من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحجاب ونادى فيهم ﴿ **إن هؤلاء** ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿ **لشرذمة قليلون** ﴾ أي لطائفة قليلة ﴿ **وانهم لنا لغائظون** ﴾ أي كل وقت يصل منهم إلينا ما يغيظنا ﴿ **وإنا لجميعٌ حاذرون** ﴾ أي نحن كل وقت نحذر من غائلتهم : وقرأ طائفة من السلف ﴿ **وإنا لجميعٌ حذرون** ﴾ أي مستعدون بالسلاح ، وإني أُريد أن أستأصل شأفتهم وأُبيد خضراءهم ، فَجُوزيَ في نفسه وجنده بما أراد لهم)) .

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن فرعون أراد بلحاقه ببني إسرائيل إبادتهم وإهلاكهم، كما في قوله تعالى : ﴿ **فأراد أن يستفزهم من الأرض** ﴾[٣] .

وفي هذا دلالة على أن فرعون عزم على أن يُزعجهم ، فيخليهم من الأرض ، ويزيلهم عنها[٤] .

أما ما ورد في التوراة عن لحاق فرعون وجنوده ببني إسرائيل ، فقد جاء ذلك في مواطن مختلفة ، منها :

((فلما أُخبر مِلكُ مصر أن الشعب قد هرب تغيّرَ قلبُ فرعون وعبيده على الشعب. فقالوا ماذا فعلنا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا . فشدَّ مركبته وأخذ قومه معه . وأخذ ستَّ مئةِ مركبة مُنتخبةٍ وسائر مركبات مصر وجنوداً مركبيةً على جميعها . وشدد الرب

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات (٥٣ - ٥٦) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص ٣٣٥ - ص ٣٣٦ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية (١٠٣) .

(٤) الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن ، تحقيق نديم مرعشلي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ، ص ٣٩٣ وكذا ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦٧ .

قلب فرعون ملك مصر حتى سعى وراء بني إسرائيل وبنو إسرائيل خارجون بيدٍ رفيعةٍ . فسعى المصريون وراءهم وأدركوهم . جميع خيل مركبات فرعون وفُرسانه وجيشه وهم نازلون عند البحر عند فم الحيروث أمام بعل صفون))[١] .

ويبدو أن فرعون عندما رأى بني إسرائيل في ذلك المكان قال – كما جاء في التوراة – : ((فيقول فرعون عن بني إسرائيل هم مرتبكون في الأرض . قد استغلق عليهم القَفْرُ))[٢] .

ويظهر أن هناك – فضلاً عما سبق – أسباباً هامة ، دعت فرعون وجنوده ، للحاق ببني إسرائيل ؛ فحسب نص التوراة أن بني إسرائيل أُمروا عند خروجهم بأوامر منها :

((فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين . بل تطلب كل امرأةٍ من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضةٍ وأمتعة ذهبٍ وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم . فتسلبون المصريين))[٣] ، مما يدل على أنهم أخذوا معهم تلك الأمتعة ، والذهب ، والفضة ، التي أخذوها من المصريين على سبيل الإستعارة ، حيث أعاروهم إياها .

ولعل ذلك ما أشار إليه القرآن الكريم أيضاً في قوله تعالى ، على لسان بني إسرائيل: ﴿ **ولكنا حُمّلنا أوزاراً من زينة القوم** ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده من حُليّهم عجلاً جسداً له خوار** ﴾[٥]. والمقصود بالزينة والحلي ، في هاتين الآيتين الكريمتين هو ما كان بأيديهم من حُلي المصريين الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر[٦] .

---

(١) سفر الخروج ١٤ : ٥ – ٩ .

(٢) سفر الخروج ١٤ : ٣ .

(٣) سفر الخروج ٣ : ٢١ – ٢٢ . وانظر :
سفر التكوين ١٥ : ١٤ وكذا
سفر الخروج ١١ : ٢ – ٣ ؛ ١٢ : ٣٥ – ٣٦ وكذا
سفر المزامير ١٠٥ : ٣٧ .

(٤) سورة طه ، الآية (٨٧) .

(٥) سورة الأعراف ، الآية (١٤٨) .

(٦) الطبري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤١٣ – ص ٤١٤ وكذا
ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ ؛ ج ٣ ، ص ١٦٢ .

وقد عدَّ فرعون وجنوده أن خروج بني إسرائيل بأمتعة قومه المصريين يُعتبر غدراً وخيانة ، بعد أن خرجوا بها دون أن يُعيدوها لأصحابها ، فخرج بجنوده وراءهم لمعاقبتهم واستعادة أموال قومه[١] .

ويذهب البعض[٢] ، إلى أن أمْرَ أخْذِ بني إسرائيل لأشياء قيّمة ، لم يرد قطعاً بطريقة توحي بوجود إلفة وصداقة بينهم وبين المصريين ، وأنه من المحتمل حدوث موقف جرى فيه تغيير في السلوك الخاص بالسلطات المصرية نتيجة لكارثةٍ ما ، وقد تم تفسير ذلك على أنه ناتج لتصميمهم على طرد بني إسرائيل من مصر .

ومن الأسباب التي أدت إلى لحاق فرعون وجنوده ببني إسرائيل ما ورد في التوراة ، في قول المصريين :

((فقالوا ماذا فعلنا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا))[٣] .

وقد كان المصريون حِرَاصاً على إمساك أسراهم وعبيدهم لتواصل النفع بعملهم ، كما تبين من كثيرٍ من آثارهم ، فلا مرية إن كان غمُّهم شديداً إذ رأوا بني إسرائيل يخرجون من بلادهم ، مما يُعدمهم الإنتفاع بأعمالهم لا إلى زمنٍ ليُقدِّموا الذبائح لإلههم كما كان يظن فرعون وقومه ، بل إلى مالا نهاية له . ولذلك ركب فرعون بنفسه في مقدمة جنوده ، بهدف استعادة عبيده السابقين ، بعد أن أدرك ما ينتج عن خروجهم من توقف الإنتاج والبناء الذي كانوا يقومون به ، وما سيلحق بالاقتصاد المصري من أضرار من جراء فقدانهم المفاجيء لمصادر القوى العاملة[٤] .

---

(١) كمال أحمد عون : اليهود من كتابهم المقدس ، دار الشعب ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٣٣ – ص ٣٤ .

(٢) Bimson , J . J . , Redating the Exodus and Conquest , The Almond Press , Sheffield , 1981 , P. P . 20 - 21 .

(٣) سفر الخروج ١٤ : ٥ .

(٤) يوسف الدبس : المرجع السابق ، ص ١٢٠ وكذا
وليم مارش : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٧١ وكذا
عبد الشكور محمد أمان العروسي : " بنو إسرائيل وموقفهم من الذات الإلهية " ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، قسم العقيدة ، كلية الدعوة وأصول الدين ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، ص ١٨٥ وكذا
صلاح عبد الفتاح الخالدي : الشخصية اليهودية من خلال القرآن ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، دمشق ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٧٣ وكذا
Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 109 .

وقد كان فرعون حريصاً على إستمراره في تعذيبهم ، وإذلالهم ، والتنكيل بهم ، فضلاً عن كراهيته وبغضه لهم ؛ حيث أن بني إسرائيل رفضوا الاعتراف بأنه - كما ادعى في مصر - ربهم الأعلى ، فعدّ ذلك طعناً في كبريائه وإهانة له ؛ فنقم عليهم نقمة حاقدة ، خاصة وأنهم كانوا يواجهون ، من قبل ، إضطهاده وتعذيبه بالإيمان ، والصبر ، والثبات[١].

ومن الأسباب أيضاً ما يراه البعض[٢] من أن فرعون راى بخروج بني إسرائيل من مصر فرصة لبني إسرائيل في أن يجمعوا شملهم ، ويستكملوا قوتهم ، خارج الأراضي المصرية ، ويتآمروا مع أعداء الدولة المصرية ليعودوا بعد حين إلى مهاجمة الدولة المصرية نفسها ، مما يشكل خطراً فادحاً على الدولة .

وهذا الأمر كان قد حذّرَ منه فرعون منذ زمن طويل ، حسب رواية التوراة[٣] :

((هَلُمَّ نحتالُ لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حربٌ أنهم يَنضمّون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض)) .

وعلى أي حال ، فإن الله عز وجل أراد أن يستدرج فرعون وجنوده إلى مصارعهم، وأظهر على بني إسرائيل أمارات الحيرة والارتباك في الأرض أمام المصريين ، زيادة في الاستدراج ، ليشتدوا في اللحاق بهم . وفي نفس الوقت كان ذلك إعداداً إلهياً ، اطمأن إليه موسى عليه الصلاة والسلام ، وطمأن قومه أيضاً بأن الله عز وجل سيُنجيهم من فرعون وجنوده ، وسيُريهم عاقبة فرعون ومن معه[٤] .

وقد اقتضت سنة الله عز وجل في شأن الكافرين والمعاندين أنه يستدرجهم لمصارعهم ، كما في قوله تعالى :

﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾[٥] .

---

(١) صلاح عبد الفتاح الخالدي : المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٢) عماد عبد الحميد النجار : التطور التاريخي لبني إسرائيل ، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ص ٣٦ وكذا

محمد الطيب النجار : تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ، الطبعة الثانية ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٢٠٨ .

(٣) سفر الخروج ١ : ١٠ .

(٤) عبد الشكور محمد أمان العروسي : المرجع السابق ، ص ١٨٦ - ص ١٨٧ .

(٥) سورة الأعراف ، الآية (١٨٢) .

وقوله تعالى :

﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾[(١)] .

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن فرعون وجنوده اقتربوا من الوصول إلى بني إسرائيل، الذين كانوا ينزلون عند البحر، وقت الشروق، كما في قوله تعالى :

﴿ فأتبعوهم مُشرقين ﴾[(٢)] .

قال ابن كثير :

((أي وصلوا إليهم عند شروق الشمس وهو طلوعها))[(٣)] .

وعند اقتراب فرعون وجنوده من بني إسرائيل أصابهم الخوف والذعر، فطبقاً لرواية التوراة[(٤)] : ((فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريون راحلون وراءهم ففزعوا جداً وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب . وقالوا لموسى هل لأنه ليست قبورٌ في مصر أخذتنا لنموت في البرية . ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر . أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين كُفَّ عنّا فنخدم المصريين . لأنه خيرٌ لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية . فقال موسى للشعب لا تخافوا . قِفُوا وانظروا خلاص الرب الذي يصنعه لكم اليوم . فإنه كما رأيتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم أيضاً إلى الأبد . الرب يُقاتل عنكم وأنتم تصمتون)) .

وهذا التذمر الذي أبداه بنو إسرائيل كان نتيجة الخوف وضعف الإيمان، وإن كان من خواص الطبيعة البشرية أن ترتكب مثل ذلك في زمان الخطر والنوازل، خاصة وأن بني إسرائيل كانوا قوماً مُذَلّين غير معتادين على الحرب، وأكثرهم أعزلٌ من السلاح، في حين كان المصريون كُماة متسلحين ومتدربين في الحرب، مما أوقع الرهبة في قلوب بني إسرائيل[(٥)] .

(١) سورة القلم، الآية (٤٤) .

(٢) سورة الشعراء، الآية (٦٠) .

(٣) تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٣٣٦ .

(٤) سفر الخروج ١٤ : ١٠ - ١٤ .

(٥) وليم مارش : المرجع السابق، ج ١، ص ٣٧٣ .

وقد أشار القرآن الكريم إلى الحالة النفسية التي كان فيها بنو إسرائيل حال رؤيتهم لفرعون وجنوده ، في قوله تعالى : ﴿ **فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون** ﴾[١] .

وقالوا أيضاً : يا موسى ، أوذينا من قبل أن تأتينا ، كانوا يُذبّحون أبناءنا ، ويستحيون نساءنا ، ومن بعد ما جئتنا اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا ! إنا لمدركون ، البحر من بين أيدينا ، وفرعون من خلفنا . فقال لهم موسى عليه الصلاة والسلام : لا يصل إليكم شيء مما تحذرون ، فا لله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير ههنا بكم ، وهو سبحانه لا يُخلف الميعاد[٢] .

وهذا يدل على أن منظر القوات المصرية المتقدمة قد أوهن الروح المعنوية لبني إسرائيل ، خاصة وأنهم مُحاصرون بين العدو من ناحية ، والبحر من ناحية أخرى ، فبدى لهم أنهم مدركون لا محالة ، ويتمنون العودة إلى الاستعباد المصري ، لأنهم حسب ما رأوا من الشدة أفضل لهم من الموت المحقق في البرية . وفي هذه اللحظة التي تُمثل الكارثة العظمى بالنسبة لهم ، بدأ موسى – عليه الصلاة والسلام – يلم شعث بني إسرائيل ويُشجّعهم ، ليُعيد لهم الثقة في مستقبلهم[٣] .

وقد أخبر ا لله سبحانه وتعالى عن ما قاله موسى عليه الصلاة والسلام لقومه ، فقال تعالى : ﴿ **قال كلا إن معي ربي سيهدين** ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ **قال عسى ربكم أن يُهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون** ﴾[٥] .

وفي هذا يتبين مدى تَوكّل موسى عليه الصلاة والسلام على ا لله عز وجل ، وهو في أحلك الظروف ، حيث البحر من أمامهم ، والعدو يتعقبهم من خلفهم ، فكان ذلك

---

(١) سورة الشعراء ، الآية (٦١) .

(٢) الطبري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤١٥ وكذا ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٣٦ .

(٣) Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 109 .

(٤) سورة الشعراء ، الآية (٦٢) .

(٥) سورة الأعراف ، الآية (١٢٩) .

التوكل الصادق بمثابة السلاح الروحي الذي يجعل من الضعف قوة ، ومن القلة كثرة . وهذا التوكل على ا لله كان قد سبقه الأخذ بالأسباب ، حيث بذل موسى عليه الصلاة والسلام كل ما في وسعه لإخراج بني إسرائيل من قبضة فرعون وملأه ، وترك النتائج كلها لله تعالى ، ثقةً به ، ويقيناً بوعده ، وإيماناً بنصره ، فكان ا لله سبحانه وتعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام يهديه سواء السبيل ، ومَنْ كان ا لله معه فلن يضيع ، وصدق ا لله العظيم إذ يقول في مُحكم كتابه الكريم :

﴿ إن ينصركم ا لله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى ا لله فليتوكل المؤمنون ﴾[١] .

وبينما موسى عليه الصلاة والسلام يدعو ربه ، ويطلب منه العون ، وبنو إسرائيل يقفون عند البحر لا يدرون ما يصنعون ، حتى سأل مؤمن آل فرعون ، أو يوشع بن نون ، فقال :

((يا نبي ا لله أين أُمرت ، هذا البحرُ أمامك وقد غَشيَنَا آلُ فرعون ، فقال : أُمرت بالبحر ، فأقحم مؤمن آل فرعون [أو يوشع بن نون] فرسه فردَّهُ التيار ، فقال : يا نبي ا لله أين أُمرت ، فقال : بالبحر ، قال : فأقحم أيضاً فرسه فردّهُ التيار ، فجعل موسى صلى ا لله عليه وسلم لا يدري كيف يصنع ، وكان ا لله عز وجل قد أوحى إلى البحر أن أطع موسى وآية ذاك إذا ضربك بعصاه))[٢] .

وقد روى الطبري[٣] بسنده عن محمد بن إسحاق ، قال :

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٦٠) .

(٢) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٢٥ . وانظر :
الطبري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤١٤ وكذا
ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٣٦ .

(٣) تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٤٢٠ . وانظر :
عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ، راجعه وصححه نعيم زرزور ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ، ص ٣٤٨ – ص ٣٤٩ وكذا
ابن كثير : المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة وكذا
عبد الحميد محمود مطاوع : المرجع السابق ، ص ٨٧ .

((فأوحى الله تبارك وتعالى – فيما ذُكر لي – إلى البحر : إذا ضربك موسى بعصاه فانفلِقْ له ، فبات البحر يضرب بعضه بعضاً ، فَرَقاً من الله ، وانتظاراً لأمره ، فأوحى الله عز وجل إلى موسى : ﴿ **أن اضرب بعصاك البحر** ﴾(١) ، فضربه بها ، وفيها سلطان الله الذي أعطاه ﴿ **فانفلق فكان كل فرقٍ كالطود العظيم** ﴾(٢) ، أي كالجبل على نشزٍ من الأرض . يقول لموسى عليه السلام : ﴿ **فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى** ﴾(٣) . فلما استقر له البحر على طريق قائمةٍ يبس سلك فيه موسى ببني إسرائيل ...)) .

فكانت هذه المعجزة الربانية العظيمة ، وهي انغلاق البحر كالطود العظيم أمرٌ من الله عز وجل ، أيّدَ بها رسوله الكريم موسى عليه الصلاة والسلام ، تحقيقاً لوعده الذي لا يُخلّف بنجاة رُسله الكرام وعباده المؤمنين ، كما قال تعالى :

﴿ **ثم ننجي رُسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا نُنجِ المؤمنين** ﴾(٤) .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المعجزة الربانية في قوله تعالى :

﴿ **وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون** ﴾(٥) .

وقال تعالى : ﴿ **فأوحينا إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر فانفلقَ فكان كلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم . وأزلفنا ثَمَّ الآخَرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين** ﴾(٦) .

وقد أسندَ الله عز وجل فرق البحر لذاته الكريمة ؛ للدلالة على أن الله سبحانه وتعالى كان مع بني إسرائيل ، ومع رسوله الكريم ، عند دخولهم البحر ، وهي مِنّةٌ عظيمة إمتنّ الله بها عليهم ؛ لأن فرق البحر لهم ترتّب عليه أمران : نجاتهم ، وهلاك عدوّهم جميعاً أمام أعينهم وهم ينظرون ، فكان ذلك أدعى لليقين بهلاك عدوّهم ، وأبْلَغُ في الشماتة به ، وأرْجَى لِشُكرِ النعمة ، إذ أن رؤية المُنعَمِ عليه للنعمة فيها لذة كبرى ، ورؤيته

---

(١) سورة الشعراء ، الآية (٦٣) .

(٢) سورة الشعراء ، الآية (٦٣) .

(٣) سورة طه ، الآية (٧٧) .

(٤) سورة يونس ، الآية (١٠٣) .

(٥) سورة البقرة ، الآية (٥٠) .

(٦) سورة الشعراء ، الآيات (٦٣ – ٦٥) .

لهلاك عدوّه فيها عبرة عظمى ، ومعاينته لإنفراق البحر فيها تقوية لإيمانه ، وتثبيت ليقينه[١] .

فلما رأى فرعونُ البحر على تلك الهيئة العجيبة ، احتاله الشيطان وزيّن له أن يقول لقومه : ((ألا ترون البحر فَرِقَ[٢] مني ، وقد تفتّحَ لي حتى أُدرِكَ أعدائي فأقتُلَهم !))[٣] .

وفي قوله تعالى : ﴿ وأزْلَفْنا ثَمَّ الآخرين ﴾[٤] دلالة على تقريب فرعون وجنوده من البحر ، ودنوّهم إليه[٥] .

وحقيقة الحال التي كان عليها فرعون وجنوده عندما رأوا تلك المعجزة ، لاشك أنها كانت مُذهلة لهم أجمعين . قال ابن كثير[٦] عن رؤية فرعون لذلك : ((... هالَهُ هذا المنظر العظيم ، وتحقّق ما كان يتحقّقهُ قبل ذلك من أن هذا مِنْ فِعْلِ رب العرش الكريم ، فأحجَمَ و لم يتقدّم ، ونَدِمَ في نفسه على خروجه في طلبهم ، والحالة هذه حيث لا ينفعُه الندم ، لكنه أظهرَ لجنوده تجلّداً وعاملهم معاملة العِدا ، وحَمَلَتْهُ النَّفْس الكافرة ، والسّجيّة الفاجرة على أن قال لمن إستخفّهم فأطاعوه ، وعلى باطِلِهِ تابَعوه ، انظروا كيف انحسر البحر لي لأُدركَ عبيدي الآبقينَ من يدي ، الخارجين عن طاعتي وبلدي ، وجعل يوري في نفسهِ أن يذهب خلفهم ، ويرجو أن ينجو ، وهيهات ، ويَقْدُمُ تارةً ويُحْجِمُ تارات)) .

وبهذه المعجزة الرّبانية نجّى الله عز وجل موسى عليه الصلاة والسلام وبني إسرائيل ، فلما تكامل عددهم وخرج آخر رجل من بني إسرائيل من البحر ، أراد موسى عليه الصلاة والسلام أن يضرب بعصاه البحر مرة أخرى ، إلا أن الله عز وجل أمَرَهُ في قوله تعالى : ﴿ واترك البحر رَهْواً إنهم جُندٌ مُغرَقون ﴾[٧] . فموسى عليه الصلاة والسلام أراد أن

---

(١) محمد سيد طنطاوي : بنو إسرائيل في القرآن والسُّنّة ، الطبعة الأولى ، دار الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٣٥١ – ص ٣٥٢ .

(٢) أي جزع واشتدّ خوفه .

(٣) الطبري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤١٥ وكذا ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

(٤) سورة الشعراء ، الآية (٦٤) .

(٥) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٣٧ .

(٦) البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

(٧) سورة الدخان ، الآية (٢٤) .

يضربه بعصاه حتى يعود كما كان ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون ، فلا يصل إليهم ، فأمره الله تعالى أن يتركه على حالِهِ ساكناً ، وبشّره بأنهم جندٌ مغرقون فيه ، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى(١) .

ودخل فرعون وجنوده في ذلك الممر البحري ، والطريق الربّاني ، وهم سُذّج أغرار غافلون ، لا يفطنون لهذا المكر الرباني الحكيم ، وأمرَ اللهُ البحر ، الجندي المطيع ، أن يعود كما كان ، وأمر الأمواج أن تلتقي وتتلاءم وتعود كما كانت ، وأطبقت الأمواج على فرعون وجنوده الكافرين(٢) .

قال تعالى : ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعونُ وجنودُهُ بغياً وَعَدْوَاً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنتُ أنّهُ لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . ءَآلئنَ وقد عصيتَ قبلُ وكنت من المفسدين . فاليوم نُنجّيك ببدنك لتكون لمن خَلْفك آيةً وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون** ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ **فلما آسَفونا**(٤) **انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخِرين** ﴾(٥) .

فعندما أشرفَ فرعون على الغرق ، لم ينفعه إيمانه عند اللحظات الأخيرة ، ولم يُقبَل منه ، لأن التوبة عند الغرغرة بالموت لا تنفع صاحبها ، ففرعون لم يُقلع عن موقفه من التكذيب برسول الله ورسالته ، والصدّ عن الحق ، فكان ملازماً للكفر حتى عندما دخل البحر . ومما يُشتَرطُ في قبول التوبة الصادقة الندم والإقلاع الفوري عن الذنب . هذا

---

(١) الراغب الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٢١٠ وكذا
ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ١٤١ .

(٢) صلاح عبد الفتاح الخالدي : المرجع السابق ، ص ٧٤ – ص ٧٥ .

(٣) سورة يونس ، الآيات (٩٠ – ٩٢) .

(٤) الأسف : شدة الغضب ، والتغيّظ به على مَنْ أغضبه . وآسفونا أي أغضبونا . انظر :
الطبري : تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ، حقّقه وخرّج أحاديثه محمود محمد شاكر ، راجع أحاديثه أحمد محمد شاكر ، الجزء الثالث عشر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٨ م ، ص ١٢٠ وكذا
الراغب الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ١٣ وكذا
القرطبي : المصدر السابق ، المجلد الرابع ، ج ٧ ، ص ١٨٢ .

(٥) سورة الزخرف ، الآيتان (٥٥ ، ٥٦) .

بالإضافة إلى أن فرعون عندما أدركه الغـرق لم يكـن في قـدرة علـى النجـاة مـن الغـرق في البحر ، لأن ا لله عز وجل كتب عليه الموت والهلاك ، فلا اختيار له عند ذلك .

قال أحد العلماء[1] : لّما قال فرعون عندما أدركه الغرق ((آمنـت)) مـا كـان يقـول ذلك اعتقاداً وإيماناً با لله عز وجل ؛ وإنما أراد أن يدفع عن نفسه الغرق بهـذه الكلمـة دون أن يعتقدها ، ظناً منه أنه يخدع موسى عليه الصلاة والسلام والإله الذي يدعو إلى عبادته .

قال تعالى : ﴿ **إنما التوبة على ا لله للذيـن يعملـون السـوء بجهالـة ثـم يتوبـون مـن قريـب فـأولئك يتـوبُ ا للهُ عليهـم وكـان ا لله عليمـاً حكيمـاً . وليسـت التوبـة للذيـن يعملون السيئات حتى إذا حضرَ أحدَهُم المـوتُ قـال إنـي تُبـتُ الآن ولا الذيـن يموتـون وهم كُفَّار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **يوم يأتِ بعضُ آياتِ ربّك لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنـت مـن قَبلُ أو كسبت في إيمانها خيراً** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **أثُمَّ إذا ما وقع آمنتم به ءَآلئن وقد كنتم به تستعجلون** ﴾[4] .

وقـال تعـالى : ﴿ **فلمّـا رأوا بأسَـنا قـالوا آمنّـا بـا لله وحـده وكفرنـا بمـا كُنّـا بـه مشركين • فلم يكُ يَنفعُهُم إيمانُهم لّما رأوا بأسنا سُنّةَ ا لله التي قد خَلَتْ في عباده وخسِـرَ هُنالِكَ الكافرون** ﴾[5] .

وفي قوله تعالى : ﴿ **فاليوم نُنجّيك ببدنك لتكون لمن خَلْفَكَ آيـة** ﴾[6] دلالـة علـى أن ا لله عز وجل نجّى بدن فرعون بعد موته ، ليكون ذلك عبرة للناس من بعده .

---

(١) عبد الوهاب النّجار : قصـص الأنبيـاء ، الطبعـة الثالثـة ، دار إحيـاء الـتراث العربـي ، بـيروت ، بـدون تـاريخ ، ص ٢٠١ .

(٢) سورة النساء ، الآيتان (١٧ ، ١٨) .

(٣) سورة الأنعام ، الآية (١٥٨) .

(٤) سورة يونس ، الآية (٥١) .

(٥) سورة غافر ، الآيتان (٨٤ ، ٨٥) .

(٦) سورة يونس ، الآية (٩٢) .

وقد ذهب بعض العلماء[1] عند تفسير هذه الآية في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ نُنجّيك ﴾ أي نُلْقيكَ على نجوةٍ من الأرض ، وهو النَّشَزُ ، أي المكان المرتفع المنفصل بارتفاعه عما حَوْلَه من الأرض .

وعن معمر عن قتادة قال : لما أغرق الله فرعون لم يُصدّق طائفة من الناس بذلك ، فأخرجَهُ الله ليكون لهم عِظةً وآية . وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : فلما خرج موسى وأصحابه قال مَنْ تخلّفَ من قوم فرعون : ما غرق فرعون وقومه ولكنهم في جزائر البحر يتصيّدون ، فأوحى الله إلى البحر أن الفظ فرعون عرياناً فلفظه عرياناً أصلع أخنس قصيراً[2] .

فجعله الله تعالى عبرة وعلامة لمن يكون بعده من الأمم ، لينظروا عاقبة مَنْ كفر بالله تعالى . ولهذا ذكر الله تعالى الإعتبار بقصة فرعون وقومه في غير موضع من القرآن الكريم ، فكان فرعون أكثر الكفّار ذِكْراً في القرآن الكريم ، وهو لا يذكره سبحانه إلا بالذم والتقبيح واللعن ، ولم يذكره بخير قط[3] .

وفي هذا القَصص القرآني ، الذي ورد فيه قول فرعون عند غرقه ، يتضح مظهراً من صفات القصص في القرآن الكريم ؛ حيث تتجلى فيه قدسية الحضور الإلهي العظيم ، وهو ما يرد فيه من خفايا الأسرار ، التي لا يتسنى لأحدٍ أن يعلمها سوى الله تعالى ، الذي يُحيط علماً بما تُخفي الصدور ، وتهمس الشفاه . فكشفَ الخالق عز وجل بنفسه عن

---

(١) محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري ، ضبطه ورقمّه ، وذكر تكرار مواضعه ، وشرح ألفاظه وجُمَلَهُ ، وخرّج أحاديثه في صحيح مسلم ، ووضع فهارسه مصطفى ديب البغا ، المجلد الرابع ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، دمشق ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، كتاب التفسير ، تفسير سورة يونس ، باب رقم ١٧١ ؛ ص ١٧٢٢ وكذا الراغب الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٥٠٤ .

(٢) أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، راجعه وقدّم له وضبط أحاديثه وعلّق عليه طه عبد الرؤوف سعد ، ومصطفى محمد الهواري ، والسيد محمد عبد المعطي ؛ ج ١٧ ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٢٣١ – ص ٢٣٢ .

(٣) شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية : جامع الرسائل ، المجموعة الأولى ، تحقيق محمد رشاد سالم ، الطبعة الأولى ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ ، ص ٢٠٨ ، ص ٢١١ – ص ٢١٢ .

حُجُب الأسرار ، وأحاديث النفوس ، وخطرات الضمائر ، في مواقف تُثير الشعور بالجلال والرهبة ، والإحساس الجليّ بأن كل الخلائق في قبضته ، وتحت سلطانه سبحانه وتعالى[١] .

وقد أخبرَ رسولُ الله محمد ﷺ عن حال فرعون وما كان يلاقيه عند سكرات الموت ، فقد روى الإمام أحمد بن محمد بن حنبل[٢] بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : إن النبي ﷺ قال : ((إن جبريل كان يَدُسُّ في فم فرعون الطين مخافة أن يقول لا إله إلا الله)) .

وفي رواية أخرى[٣] أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ : ((لو رأيتني وأنا آخذُ من حال البحر فأدسّه في فيّ فرعون)) .

وفي رواية ثالثة[٤] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ((لما قال فرعون " آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل " قال : قال لي جبريل : يا محمد ، لو رأيتني وقد أخذتُ حالاً من حال البحر فَدَسَّيْتُه في فيهِ ، مخافة أن تناله الرحمة)) .

وهناك روايات أخرى لهذا الحديث وردت في بعض المصادر الإسلامية[٥] ، تختلف قليلاً في الألفاظ ، وتتفق جميعها في المعنى .

---

(١) التهامي نقرة : سيكولوجية القصة في القرآن ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ١٩٧٤ م ، ص ٤٣٦ – ص ٤٣٧ .

(٢) المُسنَد ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، الجزء الرابع ، دار المعارف بمصر ، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م ، ص ١٦ ، حديث رقم ٢١٤٤ .

قال المحقق عن هذا الحديث : إسناده صحيح .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٠ – ص ٤١ حديث رقم ٢٢٠٣ .

وقال المحقق في الهامش : إسناده صحيح ، وحال البحر أي الطين الأسود كالحمأة .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٩٥ ، حديث رقم ٢٨٢١ .

قال المحقق : إسناده صحيح .

(٥) انظر :

ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٢٥ وكذا

الطبري : تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٤١٦ وكذا

ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٦ وكذا

ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٠ – ص ٤٣١ وكذا

ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .

وفي الحديث الصحيح عن أبي موسى الأشعري رضي ا لله عنه قال : قال رسول ا لله ﷺ : ((إنَّ ا لله لَيملي للظّالِمِ ، حتى إذا أخَذَهُ لم يُفْلِتْهُ))[1] .

وفي هذا الحديث النبوي الشريف دلالة على أن ا لله عز وجل يُمهل الظالم ويمدّ له في الإمهال ، لعله يتوب إلى ا لله عـز وجـل ويثـوب إليـه ، فـإذا ظـلّ علـى ظُلمـه ، سـادراً في غيّه ، لا يرعوي لأمر ، ولا يسمع لهداية ، وأراد ا لله عـز وجـل إنـزال العقوبـة بـه ، فلـن يُخلّصه ا لله عز وجل ولن يتركه من العذاب والعقاب حتى يستوفي ذلك .

وهكذا غَرِقَ فرعون وجنـوده أجمعـين ، ونجّـى ا لله عـز وجـل موسـى عليـه الصـلاة والسلام ومن معه أجمعين ، كما أشار لذلك القرآن الكريم في مواضع كثيرة ، منها :

قولـه تعـالى : ﴿ **وإذا فرقنـا بكـم البحـر فأنجينـاكم وأغرقنـا آل فرعـون وأنتـم تنظرون** ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليمّ بأنهم كذّبوا بآياتنا وكانوا عنهـا غافلين** ﴾[3] .

وقولـه تعـالى : ﴿ **كـدأب آل فرعـون والذيـن مـن قبلهـم كذّبـوا بآيـات ربهـم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكلّ كانوا ظالمين** ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ **فأغرقناه ومن معه جميعاً** ﴾[5] .

وقوله تعالى : ﴿ **وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخَرين** ﴾[6] .

وقوله تعالى : ﴿ **فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مُليم** ﴾[7] .

---

(١) البخاري : المصدر السابق ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذُ ربك إذا أخذَ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ﴾ [سورة هود : الآية ١٠٢] ، ص ١٧٢٦ ، حديث رقم ٤٤٠٩ وكذا أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري : صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد البـاقي ، ج ٤ ، دار الفكـر للطباعـة والنشـر والتوزيـع ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، كتـاب الـبر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم ، ص ١٩٩٧ - ١٩٩٨ ، حديث رقم ٢٥٨٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية (٥٠) .

(٣) سورة الأعراف ، الآية (١٣٦) .

(٤) سورة الأنفال ، الآية (٥٤) .

(٥) سورة الإسراء ، الآية (١٠٣) .

(٦) سورة الشعراء ، الآيتان (٦٥ ، ٦٦) .

(٧) سورة الذاريات ، الآية (٤٠) .

والآيات في هذا المعنى كثيرة[١] .

وكل ذلك يدل على أن سُنّة الله جارية في إهلاك الأمم التي تُعرِضُ عن دعوة الله ورسالته ، فإنه ((ما تعرَّضَ الدولُ للدِّين إلا سُلِبوا مُلْكَهم ، وذلّوا بعد عِزّهم ، وكذا وقع لآل فرعون ؛ ما زالوا في شكٍ وريب ، ومخالفةٍ ومعاندة لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من المُلْك والأملاكِ ، والدور والقصور ، والنعمة والحبور ، ثم حُوِّلوا إلى البحر مُهانين ، ونُقِلَت أرواحُهم بعد العلوّ والرفعة إلى أسفل السافلين))[٢] .

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **فأخرجناهم من جنّاتٍ وعيون . وكنوزٍ ومَقام كريم** ﴾[٣] .

وقد كانت نجاة موسى عليه الصلاة والسلام ومن معه من بني إسرائيل ، وهلاك فرعون وجنوده أجمعين ، يوم عاشوراء ، ولهذا كان اليهود في زمن الرسول محمد ﷺ يصومون ذلك اليوم ، فأمر الرسول ﷺ المسلمين بصيام ذلك اليوم ، ومخالفة اليهود بصيام يوم قبله أو بعده .

قال البخاري[٤] : ((حدثني محمد بن بشار ؛ حدثنا غُنْدر ؛ حدثنا شُعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قَدِمَ النبي ﷺ المدينة ، واليهود تصوم عاشوراء ، فقالوا : هذا يومٌ ظهرَ فيه موسى على فرعون ، فقال النبي ﷺ لأصحابه : " أنتم أحقُّ بموسى منهم ، فصوموا ")) .

---

(١) انظر :

سورة الفرقان ، الآية (٣٦) .

سورة القصص ، الآية (٤٠) .

سورة القمر ، الآية (٤٢) .

(٢) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٠ - ص ٢٦١ .

(٣) سورة الشعراء ، الآيتان (٥٧ ، ٥٨) .

(٤) صحيح البخاري ، ج ٢ ، كتاب الصوم ، باب رقم ٦٨ صيام يوم عاشوراء ، ص ٧٠٤ ، حديث رقم ١٩٠٠ وكذا

المصدر نفسه ، ج ٤ ، كتاب التفسير ، باب رقم ١٧١ ، ص ١٧٢٢ ، حديث رقم ٤٤٠٣ .

وفي رواية أخرى ، قال البخاري[١] : ((حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، حدثنا أيوب السختياني ، عن ابن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ لما قدم المدينة وجدهم يصومون يوماً ، يعني يوم عاشوراء ، فقالوا : هذا يوم عظيم ، وهو يومُ نجّى الله فيه موسى ، وأغرق آل فرعون فصام موسى شُكراً لله . فقال : " أنا أوْلَى بموسى منهم " فصامه وأمر بصيامه)) .

وأما الروايات في التوراة[٢] فتشير إلى أن خلاصهم من فرعون وقومه كان في شهر أبيب من السنة العبرية (نيسان = ابريل) ، وليس شهر أبيب من شهور السنة المصرية القديمة الذي يقع في فصل الصيف (في يوليه – أغسطس) ، فكان هذا اليوم هو اليوم الخامس عشر من شهر نيسان من السنة العبرية هو بداية عيدهم الأكبر الذي يسمونه " عيد الفصح "[٣] ، أو " عيد الفطير " ، أو " عيد العبور " ، أو " عيد الربيع " ، أو " موسم الحرية " ، حيث يحتفلون فيه بخروجهم من مصر ، ونجاتهم من فرعون وجنوده . ومدة احتفالهم بهذا العيد سبعة أيام ، تبدأ من اليوم الخامس عشر من الشهر الأول من شهور السنة العبرية " شهر أبيب " وينتهي في اليوم الحادي والعشرين منه . وخلال تلك الأيام السبعة يأكلون الفطير بدل الخبز المختمر ، ويمارسون طقوسهم ابتداءً من مساء يوم الرابع

---

(١) المصدر نفسه ، ج ٣ ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ وهل أتاك حديث موسى ﴾ ، ﴿ وكلّمَ الله موسى تكليماً ﴾ ، ص ١٢٤٤ ، حديث رقم ٣٢١٦ . وانظر :
ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩١ وكذا
ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ١٧٩ ، حديث رقم ٣٣٩٧ .

(٢) سفر الخروج ١٢ : ١ – ٢٨ ؛ ١٣ : ٤ ؛ ٢٣ : ١٥ وكذا
سفر التثنية ١٦ : ١ .

(٣) تجدر الإشارة إلى أن عيد الفصح عند اليهود قد ارتبطت طقوسه بخلط عجينة الفطير عندهم بدم بشري غير يهودي ، أي أن يكون دم مسلم أو نصراني ، أو أي ملّة أخرى من غير ملّتهم . وقد ثبت كثيراً من الأحداث التي تؤكد تورط اليهود بحالات قتلٍ عديدة لأناسٍ أبرياء ، بهدف إرضاء أحبارهم ، ومحرّفي التوراة ، في إقامة طقوسهم وشعائرهم الإجرامية .
ولمزيد من التفاصيل حول هذه الجرائم ، انظر :
روهلنج : الكنز المرصود في قواعد التلمود ، ترجمة يوسف نصر الله ، قدّم له مصطفى أحمد الزرقا وحسن ظاظا ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، دمشق ، دارة العلوم ، بيروت ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٧ – ص ٩ ، ص ١١٣ – ص ٢١٨ .

عشر من شهر نيسان (ابريل) ، حيث يُسمّون تلك الليلة باسم ليلة التفتيش عن الخميرة ، حيث يجب على الواحد منهم التأكد من خلوّ بيته من الخميرة التي تصلح للخبز[١] .

ومما هو جدير بالذكر ، فيما يتعلق بمعجزة انفلاق البحر ، ما ورد في التوراة عن هذه الآية العظيمة : ((ومدّ موسى يده على البحر . فأجرى الربُّ البحر بريحٍ شرقيةٍ شديدةٍ كُلَّ الليل وجعل البحر يابسةً وانشقَّ الماءُ . فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسةِ والماءُ سُورٌ لهم عن يمينهم وعن يسارهم . وتبعهم المصريون ودخلوا وراءَهم . جميعُ خيل فرعون ومركباته وفُرسانه إلى وسط البحر . وكان في هزيع الصُّبْح أن الربَّ أشرفَ على عسكر المصريين في عمود النار والسحاب وأزعجَ عسكر المصريين . وخَلَعَ بَكَرَ مركباتهم حتى ساقوها بثَقْلَةٍ . فقال المصريون نهربُ من إسرائيل . لأن الربّ يُقاتل المصريين عنهم . فقال الربُّ لموسى مُدَّ يدك على البحرِ ليرجعَ الماءُ على المصريين على مركباتهم وفُرسانهم . فمدَّ موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصُّبْح إلى حاله الدائمة والمصريون هاربون إلى لقائه . فدفع الربُّ المصريين في وسط البحر . فرجع الماءُ وغطّى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر . لم يبق منهم ولا واحدٌ . وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماءُ سُورٌ لهم عن يمينهم وعن يسارهم فخلّصَ الربُّ في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين . ونظر إسرائيلُ المصريين أمواتاً على شاطيء البحر))[٢] .

---

(١) محمد بن أحمد البيروني : المصدر السابق ، ص ٥٣ ، ص ٢٧٦ - ص ٢٧٧ وكذا
أحمد شلبي : المرجع السابق ، ص ٣١١ وكذا
حسن ظاظا : المرجع السابق ، ص ١٨٠ - ص ١٨٢ .

(٢) سفر الخروج ١٤ : ٢١ - ٣٠ .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن الجهود العلمية ، لا زالت متواصلة في المحاولة للوصول إلى أي أدلة مادية لغرق فرعون وجنوده في البحر . فقد تلقى قطاع الآثار المصرية بهيئة الآثار ، من معهد ومتحف سميثونيان للتاريخ الطبيعي بأميريكا ، خطاباً يطلب فيه السماح لبعثة أثرية متخصصة ، برئاسة البروفيسور " هارولد فان إشن " بالبحث في مياه خليج السويس عن بقايا جيش فرعون الخروج بصفة خاصة العجلات الحربية الخاصة بفرعون ؛ على أن يبدأ العمل أولاً في الجزء الشمالي لخليج السويس بأحدث الأساليب العلمية ، ثم تنتقل الدراسة بعد ذلك إلى مدينة بر - رعمسيس . وقد التزم المعهد بأن يكون العمل أثرياً بالدرجة الأولى وليس له أي هدف ديني .

ويرى الأثري إبراهيم النواوي ، عضو المجالس القومية المتخصصة ، أنه من الصعب العثور على أدلة مادية سواء في البر أو البحر تؤكد وجود تلك البقايا ، خاصة وأنه قد فشلت قبل ذلك بعثتان الأولى ألمانية برئاسة " ديتريش

⇐

وهذا النص من التوراة لاشك أنه يتعارض مع ما ورد في القرآن الكريم ، وهو من جُملة التحريف الذي دخل في التوراة . فالقرآن الكريم أشار - كما مر سابقاً - إلى أن الله عز وجل أمر عبده ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام بأن يضرب البحر بعصاه ، فانفلق فوراً ، في حين جاء في هذا النص : ((فاجرى الربُّ البحر بريحٍ شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشقّ الماء)) .

وأشار القرآن الكريم أيضاً إلى أن الله عز وجل أمر موسى عليه الصلاة والسلام أن يترك البحر رهواً ، أي ساكناً على حاله ، ليتمَّ أمرُ الله عز وجل بغرق فرعون وجنوده أجمعين ، بينما هذا النص من التوراة يشير إلى أن الله أمر موسى بعد أن صار المصريون في وسط البحر أن يمدّ يده على البحر ليرجع الماء ويُغرق جميع جيش فرعون .

وثمة تحريف واضح آخر في نص التوراة هذا ، فبينما يشير القرآن الكريم إلى أن الله تعالى أغرق جميع جنود فرعون الذين دخلوا معه في البحر ، ولم يخرج أحد من جنوده أجمعين إلا جثة فرعون لتكون آية للناس من بعده ؛ ورد في نص التوراة أن بني إسرائيل كانوا ينظرون إلى المصريين أمواتاً على شاطيء البحر .

ومما يؤسَفُ له ، أن بعض المؤرخين أخذوا بتفسير التوراة للمعجزة الربانية في انفلاق البحر ، وبَنَوا على ذلك استنتاجاتهم الخاطئة .

فقد ذهب أحد هؤلاء[1] إلى أن جنود فرعون الذين دخلوا في البحر هم فقط الذين غرقوا ، أما فرعون وجنود المشاة فلا سبيل إلى الحكم بغرقهم إذ لا دلالة عليه في نص التوراة ؛ ولو أنه غرق لذُكرَ ذلك صريحاً ، خاصة وأن معظم القصة متعلّقٌ به . هذا فضلاً عن أن فرعون لا يُتوقع منه أن يُعرّض نفسه لمثل ذلك الخطر العظيم .

وقال سليم حسن : ((... وأشار بعصاه نحو البحيرة على يمينه ، ثم أرسل الله ريحاً شرقية . وقد جاء في التوراة أنها ريح شرقية عاتية ظلت تهبّ طوال الليل ، وهذه هي المعجزة ، فكان الريح يهبُّ في الاتجاه الصحيح في الوقت المناسب ، وكان هبوبه شديداً

= فيلدونج " ، والأخرى نمساوية برئاسة " بيتاك " . انظر :
((معهد آثار أمريكي يطلب البحث عن بقايا جيش " فرعون موسى " بخليج السويس)) ، جريدة الأهرام : الجمعة ١٣ شوال ١٤١٤ هـ / ٢٥ مارس ١٩٩٤ م ، العدد ٣٩١٩٠ - السنة ١١٨ .

(١) وليم مارش : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٧٦ .

حتى جفّف الأرض ، وبذلك سار موسى وقومه على اليابس ، ... ولا يزال منسوب الماء حتى الآن متأثراً بدرجة عظيمة بالريح في بحيرة المنزلة والبرلس ، ويُلاحظ أن الطريق من بلطيم حتى برج البرلس تُغطى بالماء عندما يهب الهواء غرباً ثُم تصبح جافة عندما يهب الهواء من الشرق ، ويمكن الإنسان أن يسير عليها بالعربة .

أما موضوع غرق فرعون فهو أمر قد فُهِمَ خطأ على حسب ما جاء في الكتب السماوية ، والواقع أنه لا يمكن الإنسان أن يتصوّر غرق الفرعون وعربته ومن معه في ماء ضحضاح لا يزيد عمقه على قدمين أو ثلاث ، بل المعقول أن خيل الفرعون وعرباته قد ساخت في الأوحال وسقط بعض ركّابها مغشياً عليه ، ... ومما سبق نعلم أن خرافة غرق الفرعون في البحر الأحمر لا أساس لها من الصحة ، وقد جاء كل ذلك الخلط من ترجمة يام سوف بالبحر الأحمر أو بحر القلزم ، هذا فضلاً عن أن ما جاء في القرآن الكريم لا يُشعر بأن الفرعون الذي عاصر موسى قد غرق ومات ، بل على العكس نجاه الله ببدنه ليكون آية للناس على قدرة الخالق))[1] .

وهذا الرأي هو نفسه الذي ذهبت إليه أبكار السقاف[2] ، بل أضافت بالقول : ((... ، وليس هذا فحسب ، وإنما غرق فرعون وجنده معه كان لابُدّ أن يُحدث هزّة في أرجاء البلاد ، وأن تُسجّله البرديات ؛ وليس في الوثائق المصرية ما يشير إلى ذلك . ويُدعّم هذا وجود موميات فراعنة هذا العهد ، ولا دليل هناك على الموت باسفكسيا[3] الغرق)) .

وإني أعتقد جازماً ، أن هذا الرأي ردّ صريح وواضح لما جاء في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الذي حفظه الله عز وجل دون سائر

---

(١) مصر القديمة ، ج ٧ ، ص ١٣٥ .

(٢) إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٣) اسفكسيا : معناها باليونانية توقّف النبض ، وهي تُطلق على تعطّل دلائل الحياة ، كالحسّ والتنفس ، من أثر الاختناق . وهي تنشأ من افتقار الدم إلى عنصر الأوكسجين الذي يستمد الجسم من الهواء بالاستنشاق . ويصحب هذه الحالة ازرقاق في لون الجلد والشفتين . ومن أسبابها الخنق ، أي سدّ قناة التنفس بالضغط عليها ، وانحشار أجسام غريبة في قنوات التنفس فتسدّها ، واستنشاق الغازات السامة التي تمنع الدم من امتصاص الأوكسجين ، والغرق ، وهو يغصّ الشُّعَب بالماء فلا ينفذ الهواء منها . انظر :
محمد شفيق غربال وآخرون : الموسوعة العربية الميسرة ، المجلد الأول ، دار نهضة لبنان للطبع والنشر ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ١٤٩ .

الكتب السماوية السابقة ، كما قال تعالى : ﴿ **إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون** ﴾[١] ، فكلّ ما ورد في القرآن الكريم هو الحق والصدق ، الذي يجب على المسلم الأخذ به ، والتصديق بآياته دون أدنى شك .

وعلى ذلك ، فإني أنكرُ هذا الرأي تماماً ، ولا أقرّ من يأخذ به ، كائناً من كان ، لمخالفته الواضحة – كما ذكرت – للقرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الصحيحة .

وبناءً على ما ورد في نص التوراة ، آنف الذكر ، فقد ذهب أيضاً بعض المؤرخين إلى أن ما حدث في البحر كان نتيجة للريح القوية .

فيقول روبنسون[٢] : ان ريحاً شرقية شمالية تهب على هذا الجزء (خليج السويس) تكفي لطرد الماء من بعض الأماكن .

ويقول آخر[٣] : إن ما حدث عند البحر هو نتيجة لهبوب الرياح العاتية الجنوبية الشرقية ، حيث تنساق معها المياه نحو الشمال الغربي ، عاملةً بذلك مخاضاً عند التقاء البُحيرتين المُرّتين حيث تمّ العبور الذي سهّلَ عملية المرور . وهذا ما حدث في ليلة الخروج .

ويقول آخرون[٤] : إن ذلك حدث نتيجة لنوبات المدّ والجزر في البحر الأحمر ، عند اشتداد الرياح العاتية ، حيث يعلو الماء فيفيض إلى الجنوب من بحيرة المنزلة ، فيغطّي الطرق التي في اتجاه القنطرة والطريق الساحلي إلى فلسطين ، في البُقعة التي تُعرف حالياً باسم " الطينة " ، وكانت تُعرف قديماً باسم منطقة الهلاك . ففرعون وقع في مأزق ، يبدو أن موسى – حسب هذا الرأي – قد دبّره ، بأن جعل بني إسرائيل في اتجاه مخاضة أو منطقة الهلاك ، في منطقة الطينة ، مع علمه بوجود رياح موسمية في ذلك الوقت ، وقد ساعدته الظروف الطبيعية ، فلما زحف الجيش المصري نحو ذلك الموضع ، دون أن يتنبّه إلى طبيعة الأرض هنالك ، وكان مدّ البحر في انتظاره في تلك اللحظة ، ارتبكت الخيّالة والمركبات في المقدمة ، وغلبها الموج ، فغاصت في الأرض اللّينة ، وتعذّر عليها الخروج من الوحل بسهولة .

---

(١) سورة الحِجْر : الآية (٩) .

(٢) بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(٣) سامي سعيد الأحمد : المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٤) غطاس عبد الملك الخشبة : المرجع السابق ، ص ١٩٠ – ص ١٩٢ وكذا نعوم بك شقير : المرجع السابق ، ص ٤٥٠ .

ولاشك أن هذا القول تعسّف في الرأي ، وتجنٍّ على الحقيقة ، ومجانباً للصواب ، فالبحر صار كالطود العظيم ، حيث انحبس الماء بأمر الله عز وجل وقدرته ، حتى صار فيه طُرقاً جافة وصلبة ، كرامة لرسوله موسى عليه الصلاة والسلام ومعجزة خارقة ، فليس للمد ولا للجزر علاقة بهذا الذي حدث ، إذ أن كون انفلاق البحر معجزة ربانية يترتب عليه قصور العقول البشرية في إدراكها وتصوّرها ، لأنها ، بلا شك ، فوق طاقة البشر الذي حدّد الله عز وجل لهم قدرة بشرية محدودة ، لا يستطيع الإنسان تجاوزها . هذا بالإضافة إلى أن موسى عليه الصلاة والسلام عبد الله ورسوله يُؤمَر من الله فيُطيع ، فالأمر متعلّق بالخالق سبحانه وتعالى ، وليس للعبد في ذلك من شيء .

وبعد أن ألقى الله عز وجل ببدن فرعون إلى ساحل البحر ، أخذه المصريون بعد ذلك ، حيث قاموا بتحنيط جثته ، لتظل آية من آيات الله العظيمة ، ليس فقط لمن خلفه جيلاً أو جيلين ، بل بقيت للأجيال الكثيرة ، لتكون عبرة وموعظة للناس ، وهي إنما صارت كذلك بما مكّن الله عز وجل لأهل مصر في ذلك الزمان ، من سلطان معرفة أسرار التحنيط[١] .

ويرى البعض[٢] أن جُثة فرعون بعد غرقه قد أُلقيت على الساحل الغربي لشبه جزيرة سيناء ، في المكان الذي يسمى حالياً جبل فرعون ، وبالقرب منه توجد عين ماء ساخنة يُسمّيها سكان المنطقة حمّام فرعون ، وهي على بضعة أكيال شمال منطقة أبي زنيمة .

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن حال فرعون وقومه يوم القيامة ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **يَقدُمُ قومَهُ يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الوِرْدُ المورود . وأُتبعُوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفدُ المرفود** ﴾[٣] .

---

(١) محمد أحمد العدوي : المرجع السابق ، ص ١٨١ وكذا
أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٢) أبو الأعلى المودودي : المرجع السابق ، ص ٤١ وكذا
نعوم بك شقير : المرجع السابق ، ص ٣٥ - ص ٣٦ ، ص ٤٥٧ .

(٣) سورة هود ، الآيتان (٩٨ ، ٩٩) .

وذهب بعض المفسرين[١] إلى أن فرعون كان قدوة لقومه في الضلالة حال ما كانوا في الدنيا ، وكذلك مَقدمهم إلى النار وهم يتبعونه ، أو يُقال كما تقدّم قومه في الدنيا فأدخلهم في البحر ، فكذلك يتقدمهم يوم القيامة فيدخلهم النار ويحرقهم . وقد لعنهم الله في الدنيا قبل الآخرة ، مما يشير إلى أن اللعن من الله ومن الملائكة والأنبياء ملتصق بهم في الدنيا وفي الآخرة لا يزول عنهم .

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة[٢] : ((فأخبر سبحانه أنهم اتّبعوا أمره ، وأنه يقدُمهم لأنه إمامهم ، فيكون قادماً لهم لا سائقاً لهم ، وأنه يوردهم النار . فإذا كان التابع قد ورد النار ، فمعلوم أن القادم الذي يَقدِمُه وهو مَتبوعُه ورد قَبْلَهُ ، ولهذا قال بعد ذلك : **﴿ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾**[٣])) .

وقال تعالى : **﴿ النارُ يُعرَضون عليها غُدوّاً وعشيّاً ويوم تقوم الساعةُ أَدْخِلوا آل فرعونَ أشدَّ العذاب ﴾**[٤] .

ويذهب بعض المفسرين[٥] إلى أن هذا العرض في البرزخ ، وهذه الآية دليل على عذاب القبر ، وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه : ((أن أرواح آل فرعون ومَنْ كان مثلهم من الكفار تُعرض على النار بالغداة والعشيّ ، فيقال هذه داركم)) . وعنه أيضاً أن ((أرواحهم في أجواف طيرٍ سود تغدوا على جهنم وتروح كل يوم مرتين ، فذلك عَرْضُها)) .

قال سيد قطب : ((والنص يُلهم أن عرضهم على النار غدواً وعشياً ، هو في الفترة من بعد الموت إلى قيام الساعة . وقد يكون هذا هو عذاب القبر ، إذ أنه يقول بعد هذا

(١) فخر الدين الرازي : المصدر السابق ، ج ١٨ ، ص ٥٤ وكذا
القرطبي : المصدر السابق ، المجلد الخامس ، ج ٩ ، ص ٦٢ وكذا
ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٤٥٨ – ص ٤٥٩ وكذا
محمد رشيد رضا : المرجع السابق ، ج ١٢ ، ص ١٢٥ – ص ١٢٦ وكذا
سيد قطب : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ١٩٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١٥ .

(٣) سورة القصص ، الآية (٤٢) .

(٤) سورة غافر ، الآية (٤٦) .

(٥) القرطبي : المصدر السابق ، المجلد الثامن ، ج ١٥ ، ص ٢٠٨ وكذا
ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨١ – ص ٨٢ .

﴿ **ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب** ﴾ فهو إذن عذاب قبل يوم القيامة ، وهو عذابٌ سيء ؛ عرضٌ على النار في الصباح وفي المساء ، إما للتعذيب برؤيتها ، وتوقّع لذعها وحرّها – وهو عذاب شديد – وإما لمزاولتها فعلاً ، فكثيراً ما يُستعمل لفظ العرض للمس والمزاولة ، وهذه أدهى ... ثم إذا كان يوم القيامة أُدخلوا أشدّ العذاب !))[١] .

وقد دلّ الحديث النبوي الشريف أيضاً على حال فرعون يوم القيامة ، فعن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : ((مَنْ حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاةً يوم القيامة ، ومَنْ لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبّي بن خلف))[٢] .

وقال تعالى في حقّ فرعون وقومه : ﴿ **فما بكت عليهم السماءُ والأرض وما كانوا مُنظرين** ﴾[٣] .

وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى ما يُشبه السخرية بهم ، حيث كانوا يستعظمون أنفسهم ، وكانوا يعتقدون أنهم لو ماتوا لبكت عليهم السماء والأرض ، فما كانوا في هذا الحد ، بل كانوا دون ذلك ، وهذا إنما يُذكَرُ على سبيل التهكم[٤] .

قال ابن كثير[٥] : ((أي لم تكن لهم أعمال صالحة تصعدُ في أبواب السماء فتبكي على فقدهم ، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فَقَدَتهم ، فلهذا استحقّوا أن لا يُنْظَروا ، ولا يؤخّروا لكفرهم وإجرامهم ، وعتوهم وعنادهم ... [وفي الحديث عن] أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم قال : " ما من عبدٍ إلا وله في السماء بابان : بابٌ يخرجُ منه رزقُه ، وبابٌ يدخل منه عملُهُ وكلامُه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه " . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن قوم فرعون لم تكن لهم آثار صالحة ، ولم يكن يصعد إلى الله عز وجل منهم خير ، فلم تبكِ عليهم السماء والأرض)) .

---

(١) في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص ٣٠٨٤ .

(٢) أحمد بن محمد بن حنبل : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٨٣ – ص ٨٤ ، حديث رقم ٦٥٧٦ .

(٣) سورة الدخان ، الآية (٢٩) .

(٤) فخر الدين الرازي : المصدر السابق ، ج ٢٧ ، ص ٢٤٧ وكذا القرطبي : المصدر السابق ، المجلد الثامن ، ج ١٦ ، ص ٩٤ .

(٥) تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ١٤٢ .

وبعد عبور بني إسرائيل البحر ونجاتهم ، وغرق فرعـون وجنـوده ، انطلقـوا إلى شبه جزيرة سيناء ، وشُغِلَ المصريون عنهم بمصيبتهم في فرعون مصر الغريق ، وتتويج خليفته من بعده . ولعل المصريين قد كفّوا عن تعقّبهم هناك ، وقد عرفوا أنهم طائفـة هاربة لا تبغي سوى النجاة ، ولن يكون منهم على مناجمهم في سيناء من خطرٍ يحذرون[١] .

وهكذا أصبح موسى عليه الصلاة والسلام ومعه بني إسرائيل في سيناء ، وأطلق القوم لأنفسهم العنان بالغناء والرقص ، والضرب بالدفوف ، تعبيراً عن فرحهم بالنجاة ، بدلاً من أن يتوجّهوا بالشكر لله تعالى ، والخضوع له ، وحمده سبحانه وتعالى على تلك المعجزة .

جاء في التوراة[٢] : ((حينئذٍ رنّمَ موسى وبنو إسرائيل هذه التسبيحة لـلرب وقـالوا . أُرنّمُ للرب فإنه قد تعظّمَ . الفَرَسُ وراكبُه طرحهما في البحر . الربُّ قوّتـي ونشيدي وقـد صار خلاصي . هذا إلهي فأُمجّدُهُ)) .

وفي موضع آخر من التوراة[٣] : ((فأخذت مريم النّبيّة أخت هارون الـدُّفَّ بيدهـا . وخرجت جميع النساء وراءها بدفوفٍ ورقص)) .

(١) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

(٢) سفر الخروج ١٥ : ١ - ٢ .

(٣) سفر الخروج ١٥ : ٢٠ .

ثالثاً : نظريات موضوع الخروج .

إن تحديداً دقيقاً لتاريخ خروج بني إسرائيل من مصر بقيادة الرسول الكريم موسى عليه الصلاة والسلام أمرٌ في غاية الصعوبة ، الأمر الذي أدّى إلى تباين وجهات النظر ، والاختلاف في الآراء العلمية بين المؤرخين فيما يتعلق بهذا الموضوع .

ومن الأسباب الهامة التي أدّت إلى هذا الاختلاف في الوصول إلى رأي مُحدّد لتاريخ الخروج ، والفرعون الذي خرج في عهده موسى عليه الصلاة والسلام ومعه بني إسرائيل من مصر :

أولاً : ان المصادر المصرية القديمة ، وأيضاً الفلسطينية ، لم تُقدّم تاريخاً محدداً عن هذا الحدث ، الذي أصبح له تأثير كبير على التاريخ الديني لبني إسرائيل[١] . ويعود السبب في خلوّ تلك المصادر من ذكر تاريخ محدد لذلك إلى أمرين هامين :

الأمر الأول : هو أن احتمال العثور على أسماء الرسل والأنبياء في النصوص الإنسانية ضعيف نسبياً ، لأن حقيقة الصراع بين القيم السماوية والإنسانية ربما يكون قد دفع تلك المجتمعات الإنسانية إلى إغفال ذكرها . وهذه ظاهرة يلمسها المؤرخ في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم بوجه عام بالنسبة إلى تعمّد عدم التعريف بالمعارضين . وإن عدم العثور على اسم موسى عليه الصلاة والسلام في النصوص المصرية القديمة حتى الآن ، رغم ضخامة التركة الأثرية المصرية القديمة ، ورغم كون موسى عليه الصلاة والسلام قد نشأ في مصر ، وحمل اسماً مصرياً قديماً لربما يُدعّم هذا السبب[٢] .

الأمر الثاني : ان المصادر المصرية القديمة ، رغم كثرتها ووضوحها ، لم تمدّ الباحثين بأي معلومات عن موسى عليه الصلاة والسلام . فهذه المصادر ، في غالبيتها كُتبت بأمر من الملوك ، أو بوحي منهم ، إذا كان فرعون في العقيدة المصرية إلهاً ، أكثر منه بشراً ، الأمر الذي أدّى بالمصريين إلى عدم اعترافهم أصلاً بهزيمة فرعون في حرب خاض غمارها ،

---

(١) محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (٧) إسرائيل ، الكتاب الأول – التاريخ ، الاسكندرية ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٣٥٧ .

(٢) رشيد سالم الناضوري : جنوب غربي آسيا وشمال افريقيا – المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني – المدخل في دراسة بعض جوانب العطاء الفكري لإنسان الشرق الأدنى القديم ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م ، ص ١٧٤ .

ولهذا فالنصر في اعتقادهم كاد أن يكون حليفه ، وقد تكون الحقيقة غير ذلك . ومن المعروف أن قصة موسى عليه الصلاة والسلام في مصر إنما انتهت بغرق فرعون وجنوده في البحر ، ونجاة موسى عليه الصلاة والسلام ومن آمن معه بالرسالة السماوية ، وبالتالي ليس من المقبول – طبقاً لعقيدة تأليه الفرعون – أن تسجل النصوص المصرية القديمة غرق الإله الفرعون ، ونجاة بني إسرائيل الخارجين(١) .

ثانياً : الاضطراب الواضح في نصوص التوراة ، مما أدى إلى أن يكون هناك تاريخين للخروج في وقتين مختلفين ، يكاد الواحد منهما يبعد عن الآخر بأكثر من قرنين من الزمان(٢) .

ثالثاً : أن القرآن الكريم ، وأيضاً التوراة ، لم يرد فيهما أي إشارة لإسم الفرعون الذي عاصر موسى عليه الصلاة والسلام ، والذي تمّ الخروج في عهده ، رغم أن قصة موسى عليه الصلاة والسلام وردت في كثير من سور القرآن الكريم . وربما يعود السبب في عدم ذكر اسم ذلك الفرعون في القرآن الكريم هو أن الاسم ليس له أهمية في موضع القصص القرآني ، إذ أن الهدف هو العبرة والعظة(٣) .

والحق ، أن التحديد الدقيق لتاريخ خروج بني إسرائيل من مصر ، والفرعون الذي تمّ الخروج في عهده ، وكان معاصراً لموسى عليه الصلاة والسلام ، لا يزال بغير حلٍّ مُرضٍ أو شافٍ ، وكلّ ما كُتب فيه اجتهادات علمية قد تُصيب وقد تُخطيء .

والحق أيضاً ، أن هذه الاجتهادات العلمية والآراء المختلفة حول هذا الموضوع قد سبقني إلى دراستها دراسة علمية جادة الاستاذ الدكتور محمد بيومي مهران(٤) ، حيث قام – جزاه الله خيراً -بلمّ شعث تلك الآراء والنظريات ورتّب أفكارها ترتيباً جيداً ، مما يُعدّ

(١) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٣١٤ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٥٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٥٧ ، ص ٣٥٨ .

(٤) دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (٧) إسرائيل ، الكتاب الأول – التاريخ ، الاسكندرية ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٣٥٧ – ص ٤٣٩ وكذا مصر والشرق الأدنى القديم (٣) مصر ، الجزء الثالث – منذ قيام الدولة الحديثة حتى الأسرة الحادية والثلاثين ، الطبعة الرابعة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٤٤٥ – ص ٥٢٢ .

بحق سبقاً علمياً ، ساعد في توضيح هذا الموضوع إلى حد كبير ، الأمر الذي يستلزم الاعتراف بحقه وفضله وعلمه .

وعلى أي حال ، فقد اختلف المؤرخون حول هذا الموضوع اختلافاً بيّناً ، ولا يكادون يُجمِعون على تحديد شخصية فرعون الذي خرج بنو إسرائيل في عهده من مصر . فقد زعم المؤرخ اليهودي يوسف بن متى (٣٧ - ٩٨ م أو ١٠٠ م) أن المؤرخ المصري مانيثو[١] الذي كتب تاريخه حوالي عام ٢٨٠ ق . م يُرجع الهكسوس إلى أصول يهودية . وبناء على ذلك فإن خروج بني إسرائيل من مصر ، في نظر المؤرخ اليهودي ، آنف الذكر ، ليس إلا طرد الهكسوس من مصر حوالي عام ١٥٧٥ ق . م على يد أحمس الأول (١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق . م)[٢] . فقد تمّ لمصر أن تطرد الهكسوس وتطاردهم منذ عام ١٥٧٨ ق . م ، ولم يكن هذا الغزو الأجنبي أو الاحتلال ، حادثاً هاماً بالنسبة لتاريخ مصر وحدها ، بل هو ذو أهمية خاصة بالنسبة لدارسي تاريخ التوراة كذلك ؛ لأنه ارتبط باستقرار بني إسرائيل هناك ، وقد تأثر بهذا مانيثو الذي نقل عنه - كما مر سابقاً - يوسف بن متى اليهودي قائلاً : ((هؤلاء الرعاة لم يكونوا سوى آبائنا)) ، فجاءت هذه النظرية من وجهة نظر القصص اليهودي أن الخروج هو طرد الهكسوس من مصر ، وإن كان هـ . و . روبنسون يذهب إلى أنه ليس من الميسور وضع قصص التوراة في هذا الإطار[٣] .

---

(١) مانيثو Manetho : مؤرخ وكاهن مصري ، عاش في القرن الثالث قبل الميلاد ، وعاصر حكم بطلميوس فيلاديلفوس (٢٨٥ - ٢٤٦ ق . م) ، وكتب عن الحياة الاجتماعية والسياسية معاً منذ أقدم العصور حتى أيامه . وأهم ما كتب عنهم من فراعنة مصر الملك " حر " الذي ذكره باسم أثوثيس . واعتبر الملك " جسر نترخت " (زوسر) بداية لملوك منف كلهم . وكذلك روى عن " نيت نفرتي " التي انتهت إليها وراثة العرش في آخر الأسرة السادسة (٢٤٢٠ - ٢٢٣٠ ق . م) . وقد فاقت شهرة مانيثو كمؤرخ شهرته ككاهن في هليوبوليس ، وقد لعب دوراً مهماً في خلق ونشر عبادة المعبود سيرابيس ليكون معبوداً للمصريين واليونانيين في حوالي عام ٢٨٦ ق . م . انظر :

محمد كمال صدقي : معجم المصطلحات الأثرية ، الطبعة الأولى ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٢٤٠ .

(٢) محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (٧) إسرائيل ، الكتاب الأول - التاريخ ، ص ٣٦١ .

(٣) نجيب ميخائيل إبراهيم : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧٤ .

وقد اعتمد أحد المؤرخين[١] وجهة النظر هذه باعتبار أن أصل الهكسوس يعود إلى أصل سامي ، وموطنهم فلسطين ، وأنهم من بني إسرائيل ، إذ أورد مانيثو عن الهكسوس أنهم قوم شرقيون أتوا إلى مصر من الشرق ، وأنهم من بني إسرائيل وليسوا من العرب . فمن خلال تسمية المصريين للهكسوس وُجِدَ أنهم لُقِّبوا بألقابٍ متعددة في النصوص المصرية القديمة ؛ فقد أُطلق عليهم اسم " حقا خاسوت " أي حكام قبائل فلسطين ، وتعني حرفياً " الأراضي الجبلية " ، كذلك أُطلق عليهم اسم " عامو " أي الآسيويين ، وبشكلٍ خاص الساميين .

وأطلق عليهم أيضاً اسم " منتيوستت " وهو اسم القبائل التي كانت تسكن الصحراء في شمال شرق مصر ، وجنوب فلسطين . وسُمُّوا أيضاً باسم " شاسو " الذي كان ُطلق على سكان شمال شرق مصر أيضاً ، ويُقصَدُ به القبائل الساميّة التي كانت تسكن جنوب فلسطين . هذا فضلاً عن أن أكثر الأسماء التي جُمعت عن ملوك الهكسوس وأفرادهم في فترة وجودهم في مصر ، وهي التي لم يُعرف أنها أسماء مصرية ، ترجع إلى أصل سامي كنعاني مثل : يعقوب إل ، وعنات إل ، وهي أسماء سامية كنعانية . ومن أسماء الأفراد : عابد ، ونحمن ، وهي أيضاً أسماء سامية كنعانية . هذا بالإضافة إلى وجود معبودات ساميّة في مصر أثناء حكم الهكسوس لمصر كانت تُعبد أصلاً في فلسطين وهي المعبودة عنات ، والمعبود بعل ، مما يدل على أن الهكسوس كانوا من أصلٍ سامي يمتُّ بصلة كبيرة إلى بني إسرائيل ، وأن لهم علاقة بفلسطين ، وهي الجهة التي كان يسكنها بنو إسرائيل .

وهذه النظرية التي تجعل الخروج في فترة طرد الهكسوس من مصر غير منطقية ، إذ أن أبسط تساؤل قد يَردُ عليها هو : كيف ذكرت الوثائق المعاصرة للهكسوس أسماء يعقوب - إل أو يعقوب إيل ، ويوسف - إل أو يوسف إيل في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وشمعون ، وآشر ، ولاوي ، في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، الأمر الذي يعني أن الجماعات الإسرائيلية التي سُميت بتلك الأسماء كانت قد استقرت بالفعل في فلسطين . وأيضاً كيف يُفسَّر تدمير أريحا الذي تم في وقت مبكر في حوالي سنة ١٥٠٠ ق.م وهو ما أكده Sellin وفقاً لقطع فخارية عثر عليها في نفس الموقع ، أو حتى فترة أقصر بعد سنة

---

(١) باهور لبيب : لمحات من الدراسات المصرية القديمة ، القاهرة ، ١٩٤٧ م ، ص ٤١ - ص ٤٢ .

١٦٠٠ ق.م وفقاً لما قدره Watzinger وهو مكتشف آخر لموقع أريحا[١] ، كما سيأتي بيانه قريباً .

ومما يجدر بالذكر تصحيح ما زعمه المؤرخ اليهودي يوسف بن متى في تاريخه ، وَمَنْ تابعه من المؤرخين في هذا المجال ، وهو أنهم ينقلون عن مانيثو ، ومن الثابت أن تاريخ مانيثو الأصلي الذي كُتب حوالي سنة ٢٨٠ ق.م على أيام بطلميوس الثاني (٢٨٤ – ٢٤٦ ق.م) قد فُقد في حريق الاسكندرية في عام ٤٨ ق.م[٢] ، وأن النص الكامل الذي كتبه مانيثو لم يزل مفقوداً ، و لم يبق منه إلا مقتطفات مختصرة أحياناً ، ومبتورة أحياناً أخرى ؛ حيث أهمله الإغريق في ذلك الوقت ، من منطلق الروح القومية التي تميّزَ بها كتاب مانيثو المصري . لذلك لا يمكن الإطمئنان لرواية يوسف بن متى اليهودي ومن تابعه على رأيه من انهم ينقلون عن مانيثو ، مادام النص الكامل لكتابه مفقوداً ، في نفس الوقت الذي لا توجد أدلة تاريخية ثابتة على صحة المعلومات التي رووها عن مانيثو . وما إدعاء يوسف ابن متى اليهودي بأن خروج بني إسرائيل من مصر له صلة بطرد الهكسوس من مصر إلا رفع شأن قومه اليهود ، خاصة وأن الاغريق كانوا يحتقرونهم ويُكنّون لهم الكراهية ، فأراد أن يُنشيء صلة بين اليهود والهكسوس ، وأنهم من عنصر واحد ، وأن قومه كانوا ملوكاً ذوي سلطة وتاريخ مجيد[٣] .

وهذه النظرية تتعارض تماماً مع ما جاء في نصوص التوراة فيما يتعلق بدخول بني إسرائيل إلى مصر وخروجهم منها ، إضافة إلى أن حملات تحتمس الثالث (١٤٩٠ – ١٤٣٦ ق.م) ، وفقاً لهذه النظرية أيضاً ، تكون قد حدثت بعد استقرار بني إسرائيل بشكل نهائي في فلسطين ، ولذلك لا يمكن تفسير ما صمتت عنه التقاليد الإسرائيلية فيما

(١) Lods , A . , Op . Cit . , P . 181 - 182 .

(٢) اشتعل هذا الحريق ، وأتى على مكتبة الاسكندرية القديمة التي أنشأها بطلميوس الأول (حوالي عام ٣٠٠ ق.م) ، عندما وصل يوليوس قيصر إلى الاسكندرية في سنة ٤٨ ق.م ، بسبب نشوب معركة بحرية أتلفتها وأتلفت ما جاورها من مبان .

ولا صحة لما زعمه بعض المغرضين من أن العرب أحرقوها عند فتحهم لمصر . انظر :

محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ٣٣ – ص ٣٤ .

(٣) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٣٦٤ – ص ٣٦٦ .

يتعلق بالنزاع الذي لا يمكن تجنبه مع الفاتحين المصريين ، وخاصة فيما يتعلق بإدارة البلاد بموظفين مصريين ، ووجود حاميات مصرية في فلسطين[1] .

وتشير التوراة بالنص : ((وأما إقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر فكانت أربعمائة وثلاثين سنة))[2] ، بينما حكم الهكسوس مصر ، حسب الرأي الراجح ، مدة مائة وخمسين عاماً ، امتدت من عام ١٧٢٥ – ١٥٧٥ ق.م[3] .

كذلك فإن مدة التيه التي حكم الله بها على بني إسرائيل ، بعد خروجهم من مصر ، كانت أربعين سنة ، فقد جاء في التوراة[4] :

((وبنوكم يكونون رعاةً في القفر أربعين سنةً ويحملون فجوركم حتى تفنى جُثثكم في القفر)) .

وفي نصٍ آخر :

((فحمي غضب الرب على إسرائيل وأتاههم في البرية أربعين سنة حتى فني كل الجيل الذي فعل الشر في عيني الرب))[5] .

أما النص في الإنجيل :

((هذا أخرَجَهم صانعاً عجائب وآياتٍ في أرض مصر وفي البحر الأحمر وفي البرية أربعين سنة))[6] .

---

(١) Lods , A . , Op . Cit . , P . 183 .

(٢) سفر الخروج ١٢ : ٤٠ .

(٣) انظر :

أحمد بدوي : " أيام الهكسوس " ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الأول ، العددان الأول والثاني ، مصر ، ١٩٤٨ م ، ص ٤١ – ص ٨٦ وكذا

سليم حسن : مصر القديمة ، الجزء الرابع ، عهد الهكسوس وتأسيس الامبراطورية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ م ، ص ٥٤ – ص ٦٥ وكذا

Wilson , J . A . , " Egyptian Historical Texts - The Hyksos in Egypt " , ANET , PP . 230 - 234 .

(٤) سفر العدد ١٤ : ٣٣ .

(٥) سفر العدد ٣٢ : ١٣ .

(٦) سفر أعمال الرسل ٧ : ٣٦ .

وفي القرآن الكريم :

﴿ قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين • قال فإنها مُحرمةٌ عليهم أربعين سنةً يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾[1] .

فهي إذن أربعين سنة ، ووفقاً لهذه النظرية التي تعتبر الخروج هو نفسه طرد الهكسوس من مصر ، فإن فترة التيه تتجاوز القرنين من الزمان ، وهي فترة أطول بكثير مما يجب ، ومما افترضته التقاليد العبرانية[2] .

(١) سورة المائدة ، الآيتان (٢٥ ، ٢٦) .

(٢) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٣٦٨ .

ومن خلال ما ورد في التوراة في النص التالي :

((وكان في سنة الأربعمائة والثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر في السنة الرابعة لمُلْك سليمان على إسرائيل في شهر زيو وهو الشهر الثاني أنه بنى البيت للرب))(١).

وفي النص أيضاً :

((وكانت الأيام التي مَلَكَ فيها سليمان في أورشليم على كل إسرائيل أربعين سنة))(٢) .

ذهب فريق من المؤرخين ، مرتكزين أساساً على هذين النصين ، إلى أن السنة الرابعة من حُكم سليمان(٣) هي سنة ٩٦٧ ق.م أو ٩٦٦ ق.م ، وبعملية حسابية بسيطة يكون خروج بني إسرائيل من مصر ، وفقاً للنصين السابقين ، قد حدث في حوالي سنة

---

(١) سفر الملوك الأول ٦ : ١ .

(٢) سفر الملوك الأول ١١ : ٤٢ .

(٣) لا يزال العلماء مختلفين حتى اليوم حول تواريخ ملوك بني إسرائيل . ومن أولئك الملوك النبي سليمان عليه الصلاة والسلام . فهناك آراء مختلفة حول تاريخ حكمه ؛ منها : ما يراه ستانلي آرثر كوك أنه حكم في الفترة (٩٧٤ ق.م – ٩٣٢ ق.م) ، وما يراه حسن ظاظا من أنه حكم في الفترة (٩٧٣ ق.م – ٩٣٦ ق.م) ، فيما يرى جورج كونتنو أنه حكم في الفترة (٩٧٣ ق.م – ٩٣٣ ق.م) ، ويرى لطفي عبد الوهاب يحيى أنه حكم في الفترة (٩٧٠ ق.م – ٩٣٧ ق.م) ، ويرى محمد عزه دروزه والسيد يعقوب بكر أنه حكم في الفترة (٩٧٠ ق.م – ٩٣٣ ق.م) ، ويرى عبد الحكيم خير الدين ذا النون أن فترة حكمه كانت من (٩٦٣ ق.م – ٩٢٣ ق.م) ، فيما يرى حامد عبد القادر ، وظفر الإسلام خان ، ومصطفى كمال عبد العليم ، وسيد فرج راشد ، وسبتينو موسكاتي أنه حكم في الفترة (٩٦١ ق.م – ٩٢٢ ق.م) . انظر :

محمد عزه دروزه : تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ، ص ١٦١ وكذا

حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١ م ، ص ٨٤ وكذا

حامد عبد القادر : الأمم السامية مصادر تاريخها وحضارتها ، مراجعة وتعليق عوني عبد الرؤوف ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٨١ م ، ص ١١١ هامش (٢) وكذا

عبد الحكيم خير الدين ذا النون : تاريخ فلسطين القديم ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربي ، سورية ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ٦٤ وكذا

ظفر الإسلام خان : تاريخ فلسطين القديم ، الطبعة الخامسة ، دار النفائس ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، ص ٤٥ وكذا

لطفي عبد الوهاب يحيى : العرب في العصور القديمة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٦ م ، ص ١٧٠ وكذا

مصطفى كمال عبد العليم ، وسيد فرج راشد : المرجع السابق ، ص ٧٩ وكذا

جورج كونتنو : المدنيات القديمة في الشرق الأدنى ، ترجمة متري شماس ، المنشورات العربية ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ١٠٩ وكذا

سبتينو موسكاتي : المرجع السابق ، ص ١٤٣ ، ص ٢٧٩ هامش (٨) وكذا

Cook , S . A . , " Israel and the Neighbouring States " , CAH , Vol . III , 1976 , P . 356 .

١٤٤٦ ق.م أو سنة ١٤٤٧ ق.م ، وهو التاريخ الذي يعود لأواخر عهد تحتمس الثالث (١٤٩٠ – ١٤٣٦ ق.م) ، مما يعني أنه هو فرعون الذي خرج في عهده بنو إسرائيل بقيادة موسى عليه الصلاة والسلام(١) .

ويعتقد أحد الباحثين(٢) أن بناء سليمان – عليه الصلاة والسلام – للمعبد في القدس ، هي الحادثة الوحيدة في التوراة التي أُرخت حسب مرور السنوات منذ الخروج ، وأن هذه الفكرة القائلة ، بأن بناء المعبد هو الاكتمال الأمثل لفترة الخروج ، عُبّر عنه أيضاً في ترنيمة بني إسرائيل مع موسى – عليه الصلاة والسلام – والتي أشارت إليها التوراة في النص التالي :

« تجيء بهم وتغرسهم في جبل ميراثك . المكان الذي صَنَعْتَهُ يا ربُّ لِسَكَنِكَ . المَقْدِس الذي هيَّأَتْهُ يداك يا ربُّ »(٣) .

وتوجد أصداء ، لا يمكن للمرء تجاهلها ، من نفس هذا الموضوع في قرار سليمان لأن يبني المعبد ، فعندما أراد أن يُشرك حيرام (حوالي ١٠٠٠ ق.م – ٩٣٥ ق.م)(٤) ملك صور في ذلك،أرسل له الرسالة التالية :

« أنت تعلم داود أبي أنه لم يستطع أن يبني بيتاً لاسم الرب إلهه بسبب الحروب التي أحاطت به حتى جعلهم الرب تحت بطن قدميه . والآن فقد أراحني الرب إلهي من كل الجهات فلا يوجد خصمٌ ولا حادثة شرٍ . وهأنذا قائلٌ على بناء بيتٍ لاسم الرب إلهي كما كلم الرب داود أبي قائلاً إنّ ابنك الذي أجعلُهُ مكانك على كرسيك هو يبني البيت لاسمي . والآن فأمُر أن يقطعوا لي أرْزاً من لبنان ويكون عبيدي مع عبيدك وأُجرةُ عبيدك

---

(١) نجيب ميخائيل إبراهيم : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ – ص ٢٨٠ وكذا
غوستاف لوبون : اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ، ترجمة عادل زعيتر ، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٧٠ م ، ص ٣٥ وكذا

Lods , A . , Op . Cit . , P . 182 ;

Finegan , J . , Light From the Ancient Past , The Archeological Background of Judaism and Christianity , Princeton University Press , Princeton , New Jersey , 1969 , P . 117 ;

Anderson , G . W . , Op . Cit . , P . 25 ;

Bimson , J . J . , Op . Cit . , P. P . 230 - 231 .

Sarna , N . M . , Op . Cit . , P. P . 100 - 101 .

(٢)

(٣) سفر الخروج ١٥ : ١٧ .

(٤) محمد أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص ٣٦، ص ٣٩ – ٤٠ .

أعطيك إياها حسب كل ما تقول لأنك تعلم أنه ليس بيننا أحدٌ يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين »[١] . إن الهدف من كل هذا هو أن بناء المعبد قد أُعتبر ذروة الأعمال العظمى للخلاص التي قام بها الرب ، والتي بدأت بالخروج ، فالصرح نفسه هو الرمز المادي لتحقيق الوعد الإلهي الكامل بالخلاص المعطى لشعب إسرائيل . وحسب منظور الراوي التوراتي فإن الفترة الزمنية المعنية بأحداث الخروج لا تقتصر إذن على الأربعين سنة التي انقضت في التيه في البرية ، ولكنها تشمل الفترة الزمنية من موسى إلى سليمان[٢] .

وقد انتصر لهذه النظرية من كون تحتمس الثالث هو فرعون الخروج ، نجيب ميخائيل إبراهيم[٣] ، إذ يرى أنه بناءً على الحفائر التي قام بها جارستانج فقد أثبتت أن تدمير أريحا[٤] كان في عام ١٤٠٧ ق.م ، مما يعني أن ذلك حدث بعد فترة التيه التي استمرت أربعين عاماً . وأنه قد ورد في قائمة الكرنك التي تعود إلى عام ١٤٧٩ ق.م إشارة إلى أسماء يعقوب إل ، ويوسف إل ، وتحريض الخابيرو على الثورة في مصر في أواخر عهد أخناتون ، وإذا صح الرأي القائل بأن الخابيرو والـ" عابريو " يعنيان جماعات متقاربة ، فليس بعيداً أن يكونوا هم العبرانيون ، أو أقرباؤهم الذين يشير إليهم مرنبتاح فيما بعد - بعد هذه الأحداث بحوالي قرنين أو أكثر - أنه أتلف بلاد قوم إسرائيل وخرّبها ، بعد أن كان بنو إسرائيل قد أمضوا أربعين سنة في التيه ، وأكثر من قرنين من الزمان محاولين الإستقرار الفعلي في أرض كنعان . وأن في هذا التسلسل التاريخي والحسابي ، ما يُدعّم الرأي بأن الخروج كان في

---

(١) سفر الملوك الأول ٥ : ٣ - ٦ .

(٢) Sarna, N. M., Op. Cit., P. 101 .

(٣) مصر والشرق الأدنى القديم ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ - ص ٢٨٢ .

(٤) أريحا : معناها " مدينة القمر " أو " مكان الروائح العطرية " . وهي إحدى المدن الكنعانية القديمة . ورد الاسم في الكتابات الكنعانية بلفظ " يريحو " التي تعني القمر ، مما يشير إلى انتشار عبادة القمر في تلك المنطقة في عهد الكنعانيين . وقد حدد الأثريون موقع أطلال المدينة القديمة في " تل السلطان " الذي يقع على مسافة ١,٥ كيلاً تقريباً من مدينة أريحا الحالية .

وتقع أريحا على مسافة ٨ أكيال غربي نهر الأردن ، وعلى مسافة ٣٧ كيلاً شمال شرقي القدس . وكانت أول مدينة هاجمها بنو إسرائيل غربي نهر الأردن في عهد يشوع خليفة موسى عليه السلام . وتعتبر أريحا من أقدم مدن العالم حسب ما أثبتته الكشوف الأثرية . انظر :

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٥ وكذا

عبد الحكيم خير الدين ذا النون : المرجع السابق ، ص ١٣٠ وكذا

محمد محمد شراب : معجم بلدان فلسطين ، الطبعة الأولى ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ١١١ - ص ١١٢ .

منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، أي في عام ١٤٤٧ ق.م في أواخر عهد تحتمس الثالث ؛ لأن الإشارة إليهم في لوحة مرنبتاح ، بعد أكثر من قرنين من الزمان كشعب يُسجله أحد فراعين مصر ، تعني أنهم نزلوا في مكان ما في فلسطين ، وقام بتخريب بلادهم وإتلافها .

وقد أكد هذه النظرية جون . ج . بيمسون[١] عندما ذهب إلى أنه ضمن إطار التواريخ المصرية المقنعة ، فإن تاريخ الخروج يقع ضمن عهد تحتمس الثالث ، وإن فكرة كون تحتمس الثالث هو فرعون الخروج تتطلب برهاناً قوياً لجدوى ذلك . فقد ورد في التوراة[٢] أن الإسرائيليين كانوا يعملون في صناعة الطوب للفرعون ، ولابد أن صناعة الطوب هذه كانت من أعمال الشعب المُستَرقّ خلال عهد تحتمس الثالث ، وهذا مطابق مع حقيقة ما عُرف عن تحتمس الثالث وقيامه بأعمال بناء في منف ، وكذلك في أون . وتتطلب رواية التوراة آنفة الذكر بأن يكون مسكن الفرعون ليس بعيداً عن المنطقة التي كان الإسرائيليون يقومون بالعمل فيها ، وذلك لأن موسى ، في الرواية التوراتية ، كان يذهب ويعود بين مكان عمل الإسرائيليين ، ومسكن الفرعون بسهولة ويسر ، وكانت عاصمة تحتمس الثالث في منف ، في أقصى جنوب الدلتا ، وعلى بُعْد عدة أيام بالمركب من منطقة جوشن / رعمسيس ، الأمر الذي يُعدّ مشكلة في وجه هذه النظرية .

ومع ذلك فبينما كان المقر الرئيس للإسرائيليين في منطقة جوشن / رعمسيس عند وقت الخروج ، حسب رواية التوراة[٣] ، فإنه من المجدي الاقتراح بأن العديد من الإسرائيليين كانوا يُوظّفون للعمل في معسكرٍ قريب جداً من منف في ذلك الوقت . وبناءً على ما ورد أيضاً في التوراة[٤] ؛ حيث الإسرائيليون قاموا ببناء مدينتي بيثوم ورعمسيس ، فقد جاءت الإضافة في الترجمة السبعينية بأنهم بنوا أيضاً في أون ، وتلك الإشارة تعود إلى بداية الإضطهاد وليس إلى نهايته . ولكن من المحتمل أن تكون مُذكّرة للعمل في أون قد حُفظت في تراث مستقل من الفترة المتأخرة ؛ وقد تكون وُضعت في هذا الموضع ببساطة ، لتكون أسماء الأماكن الثلاثة معاً في مكان واحد من التوراة . هذا بالإضافة إلى أنه منذ

---

(١) Bimson , J . J . , Op . Cit . , P. P . 230 - 231 .

(٢) سفر الخروج ٥ : ٦ – ١٨ .

(٣) سفر الخروج ٨ : ٢٢ ؛ ٩ : ٢٦ ؛ ١٢ : ٣٧ .

(٤) سفر الخروج ١ : ١١ .

السنة الثانية من حكم تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) ولمدة حوالي عشرين عاماً شاركته في الحكم حتشبسوت (١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق.م) ، إلا أنه استقل بالحكم منفرداً حوالي عام ١٤٧٠ ق.م . وتاريخ الخروج إذن يضع الحادثة في أو قرب بداية الفترة التي استقل فيها تحتمس الثالث بالحكم منفرداً . فإذا كان الخروج في عام ١٤٧٠ ق.م ، مع تَذَكُّر أن موسى قضى أربعين عاماً ، حسب رواية التوراة[١] ، بعيداً عن مصر قبل تاريخ الخروج ، فمن الجائز عندئذٍ أن يكون الفرعون الذي فرَّ منه موسى هو تحتمس الثاني (١٥١٠ - ١٤٩٠ ق.م) . وهذا يتناسب مع ما ورد في التوراة[٢] ، حيث لا توجد أي إشارة تؤكد أن عودة موسى إلى مصر قد جاءت مباشرة بعد موت الفرعون الذي كان يسعى لقتله ، مما يُجيز اعتبار رجوع موسى ضمن عهد تحتمس الثالث[٣] .

إلا أن البعض يتردد في قبول هذه النظرية على اعتبار أنها تُؤرِّخ لمغادرة بني إسرائيل مصر بحوالي منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وهو التاريخ الذي يعود إلى عهد الأسرة الثامنة عشرة المصرية (١٥٧٥ - ١٣٠٨ ق.م) ، أي إلى عهد فراعنة مصر الأقوياء تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) ، وأمنحتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق.م) ، وكلاهما قد قاد الحملات القوية ضد سوريا وفلسطين ، وحققا سيطرة قوية على هذه الأراضي ، حيث وسّع تحتمس الثالث الامبراطورية المصرية إلى الفرات الأعلى ، وهذا ينفي أن تكون مغادرة بني إسرائيل من مصر وغزوهم لأرض كنعان قد وقعا في هذا الوقت[٤] .

ولكن رغم اقتناع جون . ج . بيمسون بقوة تحتمس الثالث ، وقيادته لما لا يقل عن ستة عشر حملة ضد سوريا وفلسطين ؛ إلا أنه يرى أن بعض تلك الحملات كان مجرد استعراض للقوة ، ولم تتضمن أي معارك . وأن كون تحتمس الثالث فرعوناً قوياً لا ينفي أن يكون الإسرائيليون قد خرجوا من مصر في عهده ؛ إذ أن الروايات التوراتية ، آنفة الذكر ، تُصوِّر فرعون رجلاً قوي الشخصية ، ولم تهتز سيطرته إلا عن طريق أحداث هي

---

(١) سفر الخروج ٧ : ٧ .

(٢) سفر الخروج ٢ : ٢٣ ؛ ٤ : ١٩ .

(٣) Bimson , J . J . , Op . Cit . P . 231 .

(٤) فراس السواح : آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي ، الطبعة الأولى ، دار علاء الدين ، دمشق ، ١٩٩٥ م ، ص ٧٣ وكذا

Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 8 .

معجزات . وبهذا الفهم فإن تحتمس الثالث يناسب تماماً وصف الفرعون الذي تم في عهده الخروج[١] .

ويذهب جاك فنجان[٢] إلى أن تحتمس الثالث كان بالفعل قد استخدم الآسيويين لمبانيه العظيمة ومشاريعه ، فحسب رواية التوراة : ((وأكل بنو إسرائيل المَنّ أربعين سنة حتى جاءوا إلى أرضٍ عامرة . أكلوا المَنّ حتى جاءوا إلى طرف أرض كنعان))[٣] ، مما يعني أنه بناءً على هذا القول الذي يجعل من تحتمس الثالث فرعون الخروج ، أن بني إسرائيل وصلوا إلى فلسطين قبل سنة ١٤٠٠ ق.م ، واندمجوا مع الهابيرو Habiru الذين كانوا يضغطون بشكل مستعجل على أرض كنعان في ذلك الوقت .

وتجدر الإشارة إلى ما ادعاه جارستنج من أنه اكتشف في مقابر أريحا أدلة تُثبت أن موسى قد أنجبته الأميرة حتشبسوت في عام ١٥٢٧ ق.م - حسب رأيه - على وجه التحقيق ، وأن موسى أيضاً تربى في بلاطها بين حاشيتها إلى أن فر من مصر عندما جلس على عرش مصر عدوها تحتمس الثالث . ولكن هذه التواريخ لا تعتمد إلا على ما ورد منقوشاً على الجعول والخزف ، وبالرغم من ذلك فمن الواجب أخذها بالشك المقرون بالإهتمام[٤] .

وقريب من هذا الإدعاء ما أشار إليه أحد الكُتّاب[٥] من أن مولد موسى عليه الصلاة والسلام كان في سنة ١٥٤٨ ق.م في أواخر حكم أحمس الأول (١٥٧٥ - ١٥٥٠ق.م) ، وأوائل حكم امنحتب الأول (١٥٥٠ - ١٥٢٨ ق.م) ، وأن تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر كان في أواخر حكم الملكة حتشبسوت (١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق.م) في سنة ١٤٦٨ ق.م حيث كان عمر موسى عليه الصلاة والسلام ثمانون عاماً .

ويظهر أن هومل Hommel و أور Orr يؤيدان نظرية الخروج في عام ١٤٤٧ ق.م ؛ إذ يعتقدان أن هذا التاريخ مطابق للمعلومات التاريخية التي وردت في سفري الخروج

---

(١) Bimson , J . J . , Op . Cit . , P . 231 .

(٢) Finegan , J . , Op . Cit . , P . 118 .

(٣) سفر الخروج ١٦ : ٣٥ . وانظر :
سفر التثنية ٢ : ٧ وكذا
سفر يشوع ٥ : ٦ .

(٤) ول ديورانت : المرجع السابق ، ص ٣٢٦ الهامش . وانظر :
كامل سعفان : اليهود تاريخ وعقيدة ، الطبعة الثانية ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٨٨ م ، ص ١٢ .

(٥) غطاس عبد الملك الخشبة : المرجع السابق ، ص ١٧٨ ، ص ٢٤٥ هامش (١٥) .

والملوك الأول ، ويريان أن دخول بني إسرائيل إلى مصر وغزو الهكسوس لمصر كان في سنة ١٨٧٧ ق.م ، وأنهم خرجوا من مصر بعد إقامتهم فيها ٤٣٠ سنة وفقاً لنص التوراة[١] ؛ أي في سنة ١٤٤٧ ق.م ، حيث كان غزو فلسطين قد بدأ بعد أربعين سنة ، وهذا تقريباً كان بداية فترة تل العمارنة ، ومن ثم ، وحسب رواية التوراة[٢] أيضاً ، بدأ سليمان – عليه السلام – في بناء المعبد في سنة ٩٦٧ ق.م بعد ٤٨٠ سنة بعد الخروج[٣] .

وبناءً على نص التوراة أيضاً : ((حين أقام إسرائيل في حشبون وقراها وعروعير وقراها وكل المدن التي على جانب أرنون ثلاثمائة سنة فلماذا لم تستردّها في تلك المدة))[٤]، فقد اتجه رأي البعض إلى أن سنة ١٤٤٧ ق.م هي أقرب التواريخ اتفاقاً لتاريخ الخروج ؛ إذ أن خطاب يفتاح[٥] إلى ملك بني عمون تضمن الإشارة إلى أن ثلاثمائة سنة مضت من دخول بني إسرائيل إلى أرض كنعان ، أي أنهم دخلوها في نحو سنة ١٤٠٠ ق.م ، وعندما يُضاف إليها الأربعون سنة التي قضوها في التيه يصل التاريخ إلى حوالي سنة ١٤٤٠ ق.م ، حيث يتفق هذا التاريخ أيضاً مع ما ورد في رسائل العمارنة التي تحدثت عن شعبٍ قَدِمَ إلى أرض كنعان في هذا التاريخ تقريباً ، أو بعده بزمن قصير ، يسمى شعب العابيرو أو الخابيرو[٦] ، الأمر الذي أدى إلى الاعتقاد بأن هذا الشعب هم بني إسرائيل الذين جاءوا إلى أرض كنعان في نحو هذا التاريخ[٧] .

وهذه النظرية التي تجعل الخروج في عهد تحتمس الثالث (١٤٩٠ – ١٤٣٦ ق.م) يعتريها الضعف من جوانب شتى ، منها على سبيل الاستدلال لا الحصر ، أن البرايت الذي

---

(١) سفر الخروج ١٢ : ٤٠ .

(٢) سفر الملوك الأول ٦ : ١ .

(٣) Lods , A . , Op . Cit . , P . 182 .

(٤) سفر القضاة ١١ : ٢٦ .

(٥) يفتاح بن جلعاد ، عاش حوالي سنة ١١٠٠ ق.م ، أحد قضاة بني إسرائيل ، وكان يُقيم ، حسب ما ورد في سفر القضاة ١١ : ٣ في أرض طوب التي ربما كانت أرض حوران . وقد خاض حروباً مع العمونيين . انظر : بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٣٤٠ ؛ ص ١٠٧٨ .

(٦) ناقش الباحث اختلاف وجهات النظر بين العلماء في علاقة العابيرو أو الخابيرو بالعبريين في الباب الأول – الفصل الأول .

(٧) بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٣٤٠ وكذا

Wright , G . E . , " Book of Exodus " , In The Interpreter's Dictionary of the Bible , Edited by Buttrick , G , A . , Vol . 2 , Abingdon Press , Nashville , New York , 1962 , P . 191 .

كان قد نادى بتوحيد التسمية عبريين بالعابيرو أو الخابيرو يرى أن ذلك لا يـزال أمـراً غـير مؤكد ، وغير يقيني ، وليس بالإستطاعة اتخاذ تلك التسمية أساساً لأي نتيجة تاريخية(١) .

ثم إن النشاطات العدائية التي كان يقوم بها العابيرو ضـد منـاطق النفـوذ المصريـة في فلسطين وسوريا ، واعتداءهم على المدن المستقرة في فلسطين ، وقيامهم بأعمـال التخريـب الخطيرة في تلك الجهات ، خاصة في عهد امنحتب الثـالث (١٤٠٥ – ١٣٦٧ ق.م) وفي عهد أخناتون (١٣٦٧ – ١٣٥٠ ق.م) ، بعد أن ضعفـت الإدارة المصريـة هنـاك ؛ تـدل دلالة واضحة على مدى الخطر الذي كـانت تقـوم بـه قبـائل العابـيرو مـن تهديـدٍ للأمـن ، وطرق التجارة ، الأمر الذي حمل بعض الأمراء المواليـن لامنحتـب الثـالث للإستغاثة بـه ، وطلب نجدته ، إلا أنه لم يُقدِّر خطورة تلك الأحداث حق قدرها ، بل وزاد الأمر سوءاً أن بعض الأمراء من كنعان كانوا يُرسلون إليه الرسائل ، ويقللون مـن شـأن تلـك الأحـداث، ويؤكدون له الطاعة لمصر ولفرعونها ، مما جعله يركن إلى تلك الألفاظ المُضلِّلة من عبارات الودّ والخضوع ، والطاعة والولاء(٢) .

ومن تلك الرسائل الهامة التي كانت تصـل إلى أخنـاتون (١٣٦٧ – ١٣٥٠ ق.م) رسالة " عبدُ – هيبا Abdu - Heba "(٣) والي مصر على اورو – سالم (القدس) ، يُخـبره فيها عن مـدى الخطـر الـذي كـان يتهـدد مدينتـه ، والمـدن الأخـرى في فلسـطين ، نتيجـة لهجمات العابيرو ورؤسائهم . ومما جاء فيها :

« إلى مولاي الملك ، يقـول عبـدُ – هيبـا خـادِمُك ... إنهـم يلومونـي أمـامك ، يـا مولاي (يقولون) : عبدُ – هيبا عصى مولاه الملك ، ... ، لماذا تُحابي العابـيرو وتُنـاهض الحكـام ؟ وهكـذا فـإنني أُلاَمُ في حضـرة مـولاي الملـك ، لأنـه يُقـال ، غـدت أرض الملـك

---

(١) Albright , W . F . , " Akkadian Letters - The Amarna Letters , EA, No . 271 " , ANET , P . 486 , note 13 .

(٢) عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول ، مصر والعراق ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٧ م ، ص ٢٢٥ – ص ٢٢٦ وكذا

خير نمر ياسين : جنوبي بلاد الشام تاريخه وآثاره في العصور البرونزية ، منشورات لجنة تـاريخ الأردن ، عمـان ، ١٩٩١ م ، ص ١٨٨ وكذا

جان يويوت : المرجع السابق ، ص ١١٤ وكذا

Anderson , B . W . , Op . Cit , P . 74 ;

Bowden , J . , What about the Old Testament ? , SCM Press , London , 1972 , P . 67 .

(٣) ورد الاسم في نصوص أخرى بلفظ " عبدي – خيبا Abdi - Kheba " ولكن اعتمدت هذه التسمية لورودهـا في النص بهذا اللفظ المذكور . انظر :

Albright , W . F . , " The Amarna Letters From Palestine " , CAH , Vol . II , Part 2 , P . P . 105 , 110 , 114 , 116 and note (5) ;

Noth , M . , Op . Cit . , P . P . 32 note (2) , 34 , 190 and note (3) .

مفقودة . ... مولاي الملك لا يوجد جنود حاميات (هنا) ! [ولهذا] فَلْيُعْنَ الملكُ بأرضه ! لِيُعْنَ الملك بأرضه !

... نهب العابيرو جميع بلاد الملك . ولو وُجد رماةٌ بالسهام (هنا) في هذه السنة فإن أرض مولاي الملك ستبقى (على حالها) ؛ ولكن إذا لم يوجد رُماةٌ بالسهام (هنا) فإن أرض مولاي الملك سوف تُفْقَدْ ! ... جميع أرض مولاي الملك مفقودة »[١] .

هذا ما أشارت إليه إحدى رسائل العمارنة من تعرّض مدينة أورو – سالم (القدس) لبعض الأحداث التي قام بها العابيرو .

ومن خلال نص التوراة : « وذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض . فكلموا داود قائلين لا تدخل إلى هنا مالم تنزع العُمْيان والعُرْج . أي لا يدخل داود إلى هنا . وأخذ داود حصن صهيون . هي مدينة داود »[٢] ، من خلال ذلك يتبين أنه بعد أن أصبحت لداود عليه الصلاة والسلام حرية السيطرة السياسية والدينية ، قام بالزحف إلى مدينة أورو – سالم (القدس) بجيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل ، وبالرغم من المقاومة الشديدة التي أبداها اليبوسيون إلا أنه تمكن من فتحها ، بعد أن انتزع منهم جبل صهيون ، واتخذها حينذاك عاصمة لمُلْكه[٣] . وقيام داود – عليه السلام – بفتح المدينة في عهده يدل على أن يشوع – عليه السلام – لم يفتحها عند دخوله أرض كنعان ، حيث يبدو أنها لم تكن الهدف الرئيس للفتح[٤] .

وقد ذكر أدولف لودز[٥] ، أنه فضلاً عن ذلك ، فإن التفاصيل التي بيّنتها التوراة[٦] ، فيما يتعلق باستقرار الإسرائيليين في فلسطين ، لا تتفق بشكل عام مع مدلولات ومعلومات رسائل تل العمارنة . فعلى سبيل المثال كما يقول : فإن أسماء الملوك الكنعانيين الواردة في أسفار يشوع والقضاة – آنفة الذكر – تختلف عن أسماء الأمراء الذين حكموا نفس المدن في فترتي حكم امنحتب الثالث (١٤٠٥ – ١٣٦٧ ق.م) ، وامنحتب الرابع (أخناتون) (١٣٦٧ – ١٣٥٠ ق.م) ، كما هو في التوضيح التالي :

---

(١) Albright , W . F . , " Akkadian Letters - The Amarna Letters " , ANET , PP . 487 - 488 , Letter No . 286 .

(٢) سفر صموئيل الثاني ٥ : ٦ – ٧ .

(٣) مصطفى كمال عبد العليم ، وسيد فرج راشد : المرجع السابق ، ص ٧٥ – ص ٧٦ .

(٤) Finegan , J . , Op . Cit . , P . 118 .

(٥) Lods , A . , Op . Cit . , P. P . 182 - 183 .

(٦) سفر يشوع ١٠ ؛ ١١ ؛ سفر القضاة ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

القدس	سفري يشوع – القضاة		رسائل تل العمارنة
القدس	أدوني صادَق[1] أو أدوني بازَق[2]	أراد – خيبا [عبد – هيبا]	Arad - Ḫiba
جازر[3]	هورام[4]	ياخي[5]	Yapaḫi
حاصور[6]	يابين[7]	عبدي – تيرشي	Abdi - Tirshi

(١) أدوني صادَق : اسم كنعاني معناه " سيد البرّ " أو " سيد العدل " ، وكان ملكاً على القدس قبل فتح بني إسرائيل لها . وعندما سمع أن يشوع قد أخذ " عاي " بعد استيلائه على أريحا وتحالف الجبعونيون مع يشوع ؛ عقد أدوني صادق حلفاً مع أربعة من ملوك الأموريين لمعاقبة جبعون وهم : ملك حبرون ، وملك يرموت ، وملك لخيش ، وملك عجلون ، إلا أنه هُزم مع حلفائه ، وتم أسرهم وقتلهم بعد ذلك ، حسب ما ورد في سفر يشوع ١٠ : ١ – ٢٧ . انظر :

بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٤١ وكذا

مصطفى كمال عبد العليم وسيد فرج راشد : المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٢) أدوني بازَق : اسم كنعاني معناه " سيد بازق " وهو ملك بازق الذي حاربه جيش يهوذا وانتصر عليه ففر هارباً ، غير أنه أُمسك به ، وقطعت يداه وقدماه ، وجيء به إلى القدس ، حيث مات هناك ، حسب ما ورد في سفر القضاة ١ : ٤ – ٧ . انظر :

بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٤٠ – ص ٤١ .

(٣) جازر : مدينة كنعانية الأصل ، ورد اسمها في رسائل العمارنة ، ويقوم مكانها في الوقت الحاضر تل الجِزر على بُعْد ٨ أكيال جنوب شرقي الرملة بالقرب من قرية أبو شوشة . انظر :

محمد محمد شراب : المرجع السابق ، ص ٩٥ ، ص ٢٥٥ وكذا

Finegan , J . , Op . Cit . , P . 170 ;

Noth , M . , Op . Cit . , P . 216 note (1) .

(٤) هورام : حسب ما ورد في سفر يشوع ١٠ : ٣٣ فقد حاربه يشوع وذبحه بعد أن كسر شوكته مع شعبه حتى لم يُبقِ له شارداً .

(٥) أو يباخو Yapakhu ، حيث تذكر رسائل العمارنة أنه تولى بعد وفاة مِلكيلو Milkilu . انظر :

Albright , W . F . , Op . Cit . , P . 490 note (23) ;

Albright , W . F . , " The Amarna Letters From Palestin " , CAH , Vol . II , Part 2 , P . 101 .

(٦) حاصور : مدينة كنعانية قديمة ، كانت تسيطر على القسم الشمالي من فلسطين ، وتقع حالياً في موقع تل القدح ، أو تل وقاص كما يسمى في بعض الأحيان ، وهي تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة صفد ، وإلى الجنوب من بحيرة الحولة على مسافة ٨ أكيال إلى الشمال من الجاعونة . انظر :

محمد محمد شراب : المرجع السابق ، ص ٢٨٨ وكذا

Finegan , J . , Op . Cit , P . 164 ;

Eissfeldt , O . , " The Hebrew Kingdom " , CAH , Vol . II , Part 2 , P . 559 ;

Noth , M . , Op . Cit . , P . 149 .

(٧) يابين : ملك من ملوك كنعان الذين عاصروا يشوع ، وقد تحالف مع الملوك الذين حوله في الشمال وفي الشرق لمقاومة يشوع ، غير أن جيوشهم هُزمت ، فأُخذت حاصور ، وقُتل يابين . انظر :

بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٠٤٤ وكذا

Eissfeldt , O . , Op . Cit . , P. P . 545 - 546 .

وهناك عامل مُعقّد آخر يُقلل من إمكانية صحــة هــذه النظرية ، يتمثـل في اختـلاف وتضارب المعلومات التاريخية والزمنية في أسفار التوراة ، فقد جاء في أحد النصوص[١] ، أن الزمن الذي ظل فيه بنو إسرائيل في مصر كان أربعمائة وثلاثـين عاماً . وفي نـص آخـر[٢] حُددت فترة أربعمائة عام للإستعباد والإضطهاد ، حيث خُصِّص لهذه الفترة مالا يزيـد عـن أربعة أجيال في الفقرة ١٦ من النص الأخير .

ومن خلال دراسة معنى الكلمة العبرية " دور Dor " فإنها تعني أو تقابل دائماً كلمة " جيل " ، وأن مرادفاتها السامية توضح أنها تعني بدقة أكبر " دورة زمن أو عُمُر " ، وهي بذلك غير محددة المعنى تماماً ؛ وعليـه فـإن أربعـة أجيـال لا تعـني بـالضرورة أنهـا لا تمـاثل أربعمائة عام ؛ إذ أن حقيقة الأمر أن موسى – عليه الصـلاة والسـلام – ابـن حفيـد لاوي الذي هاجر إلى مصر ، وكذلـك فـإن يائـير Jair هـو ابـن حفيـد يوسـف – عليـه الصـلاة والسلام – ، وهو مع أبنائه قد شارك في حروب الفتح بعد ذلك في عملية الاسـتقرار علـى أرض كنعان ؛ وكذلك نحشون[٣] الذي كان أميراً علـى قبيلتـه في فـترة الخـروج مـن مصـر كان من الجيل الخامس المنحدر من يهوذا ، بينما كان " عَخَان Achan "[٤] معاصراً ليهوذا في زمن يشوع خليفة موسى ، أي من الجيل الخـامس بعـد يعقـوب . وبمعنـىً آخـر ، فإنـه كما يبدو لم يمر سوى أكثر من قرن أو قرن ونصف لهجرة بني إسرائيل إلى مصر والخـروج منها[٥] . وهذا الرقم يبدو غير متطابق مع الأربعمائة عام الواردة في النـص التوراتـي آنـف

---

(١) سفر الخروج ١٢ : ٤٠ – ٤١ .

(٢) سفر التكوين ١٥ : ١٣ .

(٣) نحشون : اسم عبري معناه " حيّة " وهو ابن عَمّيناداب ، رئيس قبيلة يهوذا في أوائل التيه في البريـة ، حسـب مـا ورد في سفر الخروج ٦ : ٢٣ ؛ وسفر العدد ٢ : ٣ ؛ ١٠ : ١٤ . وقد تزوجت اخته اليشابع هارون . انظر : بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٩٦١ .

(٤) عَخَان بن كرمي بن زمري ، من سبط يهوذا ، أخفى شيئاً من مغانم أريحا عند فتحها زمن يشـوع ، عاصياً أمـر الله ، الأمر الذي أغضب الله على بني إسرائيل فكسرهم وردهم من عاي . ورُميت القرعة لمعرفة المجرم ووقعت عليه واعترف به . ورجمه الشعب بالحجارة هو وعائلته وأحرقوهم وأتلفوا ممتلكاتهم ، حسـب مـا ورد في سفر يشوع ٧ : ١ – ٣٥ ، وسفر أخبار الأيام الأول ٢ : ٧ . انظر : بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٦٠٨ .

(٥) Sarna , N . M . , Op . Cit . , P. P . 7 - 8 .

الذكر . إلا أن نصاً توراتياً آخر[١] ووحيداً قد حقق تزامناً دقيقاً ؛ إذ بيّنَ هذا النص أن سليمان بنى المعبد في القدس في السنة الرابعة من حكمه ، وأنه تزامن مع السنة الثمانين بعد المائة الرابعة بعد الخروج ، مما يعني أن هذا النص يؤرخ خروج بني إسرائيل من مصر بحوالي منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد ؛ إذ أن رقم الأربعمائة وثمانين عاماً يملك كل المظاهر اللازمة ليمثل التسلسل الزمني الدقيق ، وأعني بهذه المظاهر توضيح التقسيم المتوازن بمهارة للزمن ، كطريقة للتعبير عن فكرة أن ما حدث ليس مصادفة ، ولكنه جاء نتيجة لإرادة إلهية[٢] ، حسب ما يعتقده المؤلف .

وبالعودة إلى الرقم ٤٨٠ عاماً ، فقد حدث أن مجموع السنوات منذ السنة الرابعة لعهد سليمان حيث بنى المعبد ، وحتى آخر سنة لآخر ملك في القدس هو حسب المصادر التوراتية بالتحديد ٤٣٠ عاماً ، فإذا أضيف إليها سنوات النفي البابلي الخمسون فإن الناتج هو ٤٨٠ عاماً ، وهذه النتيجة تُذكّر بسماح كورش الفارسي عام ٥٣٨ ق.م لليهود بالعودة إلى صهيون Zion وإعادة بناء معبد سليمان[٣] . وبكلمات أخرى ، فإن المؤرخ التوراتي يجعل بناء معبد سليمان في الأربعمائة وثمانين عاماً بعد الخروج ، فلربما أراد أن يجعل هذا الحدث النقطة المركزية في تاريخ بني إسرائيل التوراتي ، هذا فضلاً عن أنه يجب ملاحظة أن الرقم ٤٨٠ هو ناتج ٤٠ × ١٢ ، وكلا الرقمين رقم رمزي في التوراة ، وفي نصوص الشرق الأدنى القديم عموماً ؛ فالرقم ٤٠ خاصة يُمثّل فترة طويلة من الزمن في مفهوم التجربة الإنسانية ؛ لذلك فمن غير المقبول أن تكون رواية سفر الملوك الأول ٦ : ١ قد قُصد بها علامة تحديد زمن تاريخية دقيقة ، ولكنها غالباً تعبير مجازي ، مما يجعل وضع تاريخ الخروج في القرن الخامس عشر قبل الميلاد تجميع للإشكالات التاريخية[٤] .

ومن الممكن الإضافة لذلك القول ، بأن الإشارة الواردة في سفر الملوك الأول ٦ : ١ وهي أربعمائة وثمانين عاماً (أو أربعمائة وأربعين عاماً) بين الخروج وبين تاريخ بناء معبد سليمان ، ما هي إلا إحدى النقاط المتأخرة كثيراً في النص ، والتي أشارت إليها نسخة

---

(١) سفر الملوك الأول ٦ : ١ .

(٢) Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 8 .

(٣) Ibid . , P . 9 .

(٤) Ibid . , P . 9 .

الترجمة السبعينية في مكان آخر (بعد V. 30) ، حيث من المحتمل أن تلك الإشارة قد وضعها أحد العلماء المتأخرين والذي استنتجها من السجلات التوراتية ؛ إذ أنه أعطى فترة اثني عشر جيلاً بين الحدثين ، وكذلك خمّن إلى حد ما فترة أعلى كأربعين سنة لكل جيل : ١٢ × ٤٠ = ٤٨٠ ، ونفس الحالة تكون صحيحة عند وصف التفاصيل المرتبة زمانياً ، الموجودة في خلال أسفار يشوع والقضاة وصموئيل ، والتي ترتكز على نفس التخمين كأربعين سنة لكل جيل[١] .

ثم إن هذه النظرية التي تحدد خروج بني إسرائيل من مصر في عام ١٤٤٧ ق.م ، مع ما أشارت إليه التوراة[٢] من تحديد أربعمائة وثلاثين سنة كمدة لإقامة بني إسرائيل في مصر ، فمعنى ذلك الوصول إلى عام ١٨٧٧ ق.م كتاريخ لدخولهم إلى مصر ، أي حوالي مائة وخمسين عاماً قبل سيطرة الهكسوس على مصر ، وهو أمر غير مقبول أن يدخل بنو إسرائيل مصر قبل عصر الهكسوس ؛ لأن تحديد عام ١٨٧٧ ق.م كتاريخ لدخولهم مصر يعني أن ذلك كان في عصر سنوسرت الثالث (١٨٧٨ - ١٨٤٣ ق.م) ، إلا إذا تم الاعتماد على الترجمة السبعينية للتوراة التي تختصر مدة الإقامة في مصر إلى النصف[٣] .

وبالرغم ما عُرف عن تحتمس الثالث اهتمامه بالمشاريع البنائية الضخمة ، إلا أن ذلك الاهتمام كان مُنصبّاً على منطقة الصعيد ، وعلى وجه الخصوص في العاصمة طيبة (الأقصر الحالية) ؛ إذ لم تكن العاصمة فيما قبل الأسرة التاسعة عشرة في اقليم الدلتا ؛ ولم يكن هذا الاقليم أيضاً فيما قبل عهد الأسرة التاسعة عشرة محط أنظار الفراعنة المصريين لإقامة مشاريع ضخمة فيه ، خاصة وأنهم كانوا يُدركون أن شرق هذا الاقليم قد استقر فيه بنو إسرائيل[٤] .

---

(١) Lods , A . , Op . Cit . , P. P . 183 - 184 ;
Finegan , J . , Op . Cit . , P. P . 120 - 121 .

(٢) سفر الخروج ١٢ : ٤٠ .

(٣) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٣٨٢ وكذا
Finegan , J . , Op . Cit . , P . 118 .

(٤) محمد العزب موسى : " موسى في سيناء " ، مجلة الهلال ، العدد السادس ، السنة التاسعة والسبعون ، القاهرة ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م ، ص ٦٨ وكذا
نيقولا جريمال : تاريخ مصر القديمة ، ترجمة ماهر جويجاتي ، مراجعة زكية طبوزاده ، الطبعة الثانية ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٣ م ، ص ٢٧٦ وكذا
Wright , G . E . , Op . Cit . , P . 190 .

ويذكر أدولف لودز في أثناء حديثه عن هذه النظرية ، أن من الصعب الأخذ بها ؛ لأن هناك معلومات حقيقية تؤكد أن الفترة الزمنية الواقعة بين ١٥٠٠ ق.م و ١٢٠٠ ق.م تشير إلى أدلة غزيرة على التقدم الذي وصل إليه الفلسطينيون في وسائلهم الفنية التي تميزت بتأثرها بالطابع الفني الإيجي ، الأمر الذي يدل على أن هذا العصر يمثل العصر الذهبي The golden Age للفخار الكنعاني[1] . ومن ثم يبدو غريباً تطابق ازدهار الفن تحت التأثير الغربي مع غزو البلاد بواسطة أولئك البدو ، الذين كانوا على وجه التأكيد ، أقل حضارة من السكان الأصليين . فكان من الطبيعي جداً وصول هؤلاء " البرابرة Barbarians " متفقاً مع فترة الأفول أو الانحطاط التي جاءت في إثر سنة ١٢٠٠ ق.م ، والتي عليها أدلة كثيرة[2] .

ومن خلال الحفريات الأثرية المتعددة التي قام بها العلماء في مواقع مختلفة من الأردن وفلسطين ، والأدلة الأثرية التي عثروا عليها أيضاً ، أصبحت هذه النظرية يعتريها كثير من الوهن ، فهناك N. Glueck الذي بذل جهوداً كبيرة في المسح الأثري لمنطقة شرق الأردن، وتوصل في نتائجه إلى أن المنطقة الواقعة شرق البحر الميت وجنوباً حتى العقبة كانت خالية من أي استيطان سكاني ثابت أو مستقر خلال عصري البرونز المتوسط والأخير ، أي من حوالي ١٩٠٠ ق.م إلى ١٣٠٠ ق.م ، وأن هذه الفجوة الاستيطانية قد انتهت بنشأة حياة القرية خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد بنشوء ممالك عمون ومؤاب وإدوم ، والذين كان لهم دور فاعل في عدم السماح لبني إسرائيل في المرور بأراضيهم خلال توجههم إلى أرض كنعان[3] .

وفيما يتعلق بتدمير بعض المدن في فلسطين ، فقد ذهب J . Garstang أن تدمير مدينتي أريحا وحاصور كان في حوالي سنة ١٤٠٠ ق.م[4] ، وإن كان هناك اتجاه بأن أريحا

---

(١) Lods , A . , Op . Cit . , P . 183 .

(٢) Ibid . , P . 183 .

(٣) حولة قسوس الحناينة : عصر الهكسوس في الأردن وفلسطين ، وزارة السياحة والآثار ، دائرة الآثار العامة ، عمان ، ١٩٩٠ م ، ص ٩ – ص ١٠ وكذا
Bimson , J . J . , Op . Cit . , P 61 ;
Miller , J . M . , " Recent Archaeological Developments Relevant to Ancient Moab " , In Studies in the History and Archaeology of Jordan , Edited by Adnan Hadidi , Vol . I , Department of Antiquities , Amman , Jordan , 1982 , PP . 171 - 172 .

(٤) Finegan , J . , Op . Cit . , P . 164 ;
Anderson , G . W . , Op . Cit . , P . 26 ;
Bowden , J . , Op . Cit . , P . 68 .

دُمرت في حوالي ١٥٠٠ ق.م ، رغم أن E . Sellin يعتقد ، بناءً على بقايا فخارية عثر عليها في نفس الموقع ، أن المدينة قد تم تدميرها بعد سنة ١٦٠٠ ق.م ، وهو ما أيده Watzinger الذي يُعد أيضاً أحد المكتشفين لموقع أريحا(١) .

ومنذ أن استأنفت كاثلين كينيون الحفريات في أريحا بين الأعوام ١٩٥٢ م – ١٩٥٨ م ، فقد توصلت إلى نتائج هامة ، استوجبت مراجعة الكثير من أعمال وانجازات J . Garstang التي قام بها في اريحا من سنة ١٩٣٠ م – ١٩٣٦ م ، حيث أظهرت أبحاث كاثلين كينيون أن الجدران المنهارة في أريحا ، والتي قدَّر J . Garstang تاريخ انهيارها بحوالي سنة ١٤٠٠ ق.م ، أي خلال العصر البرونزي الأخير (١٥٥٠ – ١٢٠٠ ق.م) ، تعود في حقيقة الأمر للعصر البرونزي المبكر (٣٢٠٠ – ٢٠٠٠ ق.م) دون تحديد تاريخ معين فيه ، وهي فترة طويلة قبل ذلك التاريخ الذي حدده J . Garstang ، فيما كان التآكل وعوامل التعرية الطبيعية سبباً في إتلاف الموجودات الأثرية التي تعود إلى فترة العصر البرونزي الأخير . أما المتبقيات القليلة التي تم العثور عليها مثل : المقابر ، وبعض الخزفيات ، فإنها تشير إلى أن تخريب المدينة يعود إلى حوالي عام ١٣٢٥ ق.م ، بعد أن تم تخريبها عدة مرات قبل ذلك التاريخ(٢) .

وفيما يتعلق بدخول بني إسرائيل إلى أريحا في عهد يشوع ، فإنه لا يوجد حقيقة حتى الآن دليل من هذه المدينة لمحاولة تحديد استيلاء يشوع عليها ، حيث كانت هناك كمدينة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، إلا أنها اختفت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وإذا كانت جدران المدينة قد سقطت أمام قوات يشوع ، فمن المحتمل أنها كانت بقايا لِفعْل زلزال ؛ لأن طبقات الأرض في هذه المدينة تؤدي إلى مثل تلك الأحداث(٣) ، وإن كانت هذه المدينة إحدى المدن الكنعانية التي تميزت بقوة استحكاماتها ، إلا أن جدرانها تأثرت بالتخريب(٤) .

---

(١) Lods , A . , Op . Cit . , P . 182 .

(٢) Kenyon , K . M . , Archaeology in the Holy Land , Ernest Benn Limited , London , 1960 , P . 214 ;
Kapelrud , A . S . , Op . Cit . , P . 28 ;
Anderson , G . W . , Op . Cit . , P . P . 26 , 28 .

(٣) Finegan , J . , Op . Cit . , P . 159 .

(٤) Eissfeldt , O . , Op . Cit . , P . 546 .

ولو كان رأي بعض المؤرخين صحيحاً من أن تدمير أريحا حدث عقب فترة التيه مباشرة ، أي بعد التجوال في الصحراء مدة أربعين سنة في عام ١٤٠٧ ق.م[١] ، فإن ذلك يعني أن الخروج حدث في عهد تحتمس الرابع (١٤١٣ - ١٤٠٥ ق.م) إذا ما تم الاعتماد على التحديد الزمني الذي حدده ألن . هـ . جاردنر[٢] .

وأما إن كان تدمير أريحا في عام ١٤٠٠ ق.م فإن ذلك أيضاً يكون ضمن فترة حكم امنحتب الثالث (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) ، أي أن دخول بني إسرائيل أرض كنعان يكون قد تم في أواخر عهد تحتمس الرابع ، أو أوائل عهد امنحتب الثالث ، وهو أمر يناقضه أن مصر كانت في تلك الفترة ما تزال تبسط سيطرتها بقوة في آسيا الغربية ، خاصة وأن تحتمس الرابع كان من الفراعنة الذين قاموا بجهود حربية مشهودة ، ساهمت في الحفاظ على السيطرة المصرية على تلك المناطق الشاسعة ، وهو ما ينطبق أيضاً على عهد امنحتب الثالث - على الأقل في النصف الأول من حكمه - من كبار حكام الشرق الأدنى القديم[٣] .

أما الحفريات[٤] التي أجريت في دبير[٥] ، فقد عُثر من خلالها على أحد الجعول الملكية ، التي تعود إلى عهد امنحتب الثالث (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) الذي يشير إلى استخدام الموظفين المصريين يقيناً لقرية سِفِر (دبير) ، مما يُعدُّ دليلاً قوياً على أن الحكم

---

(١) نجيب ميخائيل إبراهيم : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ .

(٢) Gardiner , A . H . , Egypt of the Pharaohs , Oxford University Press , New York , 1972 , P . 443 .

(٣) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٣٨٨ - ص ٣٨٩ .

(٤) أُجريت هذه الحفريات في سنة ١٩٢٦ م ، وتتابعت لعدة سنوات بواسطة بعثة مشتركة من مدرسة بتسبُرج Pittsburgh اللاهوتية ، والمدرسة الأميريكية للأبحاث الشرقية في القدس تحت رئاسة Melvin G . Kyle ؛ و William F . Albright .

(٥) دبير : إحدى المدن الكنعانية ، وهي بمعنى مقدس في اللغة الكنعانية . وعُرفت باسم " قرية سِفِر - Kiriath Sepher " أي مدينة الكتب . وحسب ما ورد في سفر يشوع ١٥ : ١٥ ، ١٩ ، ٤٨ ، ٤٩ فقد كانت تُدعى أيضاً قرية سَنّة أي مدينة غصن النخيل . وكان يسكنها في عصر يشوع قوم من العناقيين . والراجح أن مكانها الآن هو " تل بيت مِرسيم " الذي يبعد مسافة ٢٠ كيلاً جنوب غرب الخليل . انظر :

بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٣٦٨ وكذا

محمد محمد شراب : المرجع السابق ، ص ٢٠٤ وكذا

Finegan , J . , Op . Cit . , P . 163 ;

Noth , M . , Op . Cit . , P . P . 148 note (2) , 283 note (1) .

المصري في عهد امنحتب الثالث كان لا يزال قوياً هناك ، وأن بني إسرائيل لم يكونوا قد استولوا على الأرض بعد ، إلا أنه في نهاية عصر البرونز المتأخر (المرحلة الأولى ١٥٥٠ - ١٤٠٠ ق.م والمرحلة الثانية ١٤٠٠ - ١٢٠٠ ق.م) تم العثور على طبقة حريق عظيم ، وفوقها بقايا إسرائيلية ، مما يُثبت أن خروج بني إسرائيل وتدميرهم للمدينة الكنعانية دبير كان قد تم في وقت قصير قبل عام ١٢٠٠ ق.م[1] ، أو على وجه التحديد حوالي عام ١٢٤٠ ق.م إما بواسطة بني إسرائيل أو على يد مرنبتاح ، حسب ما يعتقد هـ . ج . فرانكن[2] .

وكذلك الأمر بالنسبة لمدن أخرى في فلسطين مثل لخيش[3] ، التي كانت قد دُمرت في حوالي سنة ١٢٣٠ ق.م ، أو بعد ذلك الوقت بقليل ، إما بواسطة بني إسرائيل ، أو مرنبتاح ، أو بواسطة شعوب البحر[4] . وقد كان في مدينة لخيش في حوالي سنة ١٤٠٠ ق.م أحد المعابد المصرية ، بدليل وجود لوحة مصرية تحمل اسم الفرعون امنحتب الثالث (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) وهذه اللوحة تؤرخ بدء إنشاء ذلك المعبد[5] . مما يُعدّ أيضاً دليلاً ظاهراً على قوة السيطرة المصرية في عهد امنحتب الثالث على فلسطين .

أما في بيسان (بيت - شان) فقد عُثر أيضاً على معبدين ، يرجع تاريخ أقدمهما إلى عصر تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) وظل هذا المعبد يَؤمُّه الناس حتى عام ١٣٥٠ ق.م ، في حين يرجع تاريخ المعبد الثاني إلى ما بين ١٣٠٠ ق.م - ١١٥٠ ق.م ،

---

(١) Finegan , J . , Op . Cit . , P . 163 .

(٢) Franken , H. J. , " Palestine in the Time of the Nineteenth Dynasty - (b) Archaeological Evidence", CAH . Vol . II , Part 2 , P . 334 .

(٣) لخيش : مكان أثري في ظاهر قرية القبيبة الجنوبي بمنطقة الخليل ، وهي تقع في شمال شرقي غزة ، وتُعرف أطلالها اليوم باسم " تل الدوير " . ويرى بعض العلماء أن أطلالها تقع في تل الحِصى أو تل الحسي الذي يبعد نحو ٢٦ كيلاً للشمال الشرقي من غزة ، وهو التل الذي عُثر فيه سنة ١٨٩١ م على كتابات قديمة تؤيد هذا الاتجاه . إلا أن الراجح أنها تقع في تل الدوير على مسافة ٨ أكيال تقريباً إلى الجنوب الغربي من بيت جبرين . انظر : عبد الحكيم خير الدين ذا النون : المرجع السابق ، ص ١٣٥ وكذا محمد محمد شراب : المرجع السابق ، ص ٢٢٩ وكذا Finegan , J . , Op . Cit . , P . 161 ; Albright , W . F . , " Palestinian Inscriptions - The Lachish Ostraca " , ANET , PP . 321 - 322 .

(٤) Franken , H . J . , Op . Cit . , P . 334 .

(٥) خير نمر ياسين : المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

حيث يدل أسلوب بناء هذا المعبد على الأسلوب نفسه المتبع في مصر، وخاصة في الكرنك. وتدل المخلفات ، التي عُثر عليها داخل المعبد المشار إليه ، على أن مدينة بيسان قد استمرت بالتقدم والازدهار من دون توقف حتى في زمن سيتي الأول (١٣٠٩ - ١٢٩١ ق.م) ، حيث كان للعثور على تمثال للفرعون ستي الأول منصوباً في بيسان دلالات مهمة ؛ إذ كان سيتي الأول أول فرعون مصري يستعيد السلطة المصرية في هذه المنطقة ، بعد كوارث فترة تل العمارنة ؛ حيث عمل جاهداً للقضاء على عصابات الغزاة ، الأمر الذي ساعد على استتباب الأمن والهدوء في أرجاء البلاد[١] .

كما أثبتت الحفائر[٢] في موقع بيسان أن الموقع كان تحت سيطرة الحاميات المصرية ، على الأقل حتى زمن رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م)[٣] ، ولم تُدمر المدينة إلا في حوالي سنة ١١٥٠ ق.م[٤] .

وهناك اتجاه في أن تخريب بعض المدن الكنعانية ليس من الضروري أن يكون قد حدث على أيدي بني إسرائيل ، إذ المرجح أنه حدث في فترة الفوضى التي صحبت عهد أخناتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) ، والتي تشير فيها وثائق تل العمارنة إلى قوم العابيرو الذين قاموا بمهاجمة أملاك الدولة المصرية في فلسطين[٥] .

كما أن القول بخروج بني إسرائيل من مصر في عهد تحتمس الثالث معناه أنهم لم يلحقوا عصر أخناتون في مصر ، مع أن هناك تأثيراً قوياً للغاية - كما يعتقد المؤلف - لعقيدة أتون في الشريعة الموسوية ، إلى درجة أن بعض نصوص التوراة عبارة عن ترجمة حرفية لأناشيد أخناتون ، ولا يمكن أن يكون بنو إسرائيل قد حملوا كل هذه البصمات من عصر أخناتون دون أن يشهدوا العصر في مصر[٦] .

---

(١) خير نمر ياسين : المرجع السابق ، ص ١٩٦ - ص ١٩٧ ، ص ٢٠٠ - ص ٢٠١ وكذا
Faulkner , R . O . , " Egypt : From the Inception of the Nineteenth Dynasty to the Death of Ramesses III " , CAH , Vol . II , Part 2 , PP . 218 - 219 .

(٢) أهم هذه الحفائر تلك التي قام بها متحف جامعة بنسلفانيا برئاسة Clarence S . Fisher و Alan Rowe ، وأيضاً G . M . Fitzgerald في سنة ١٩٣٠ م .

(٣) Finegan , J . , Op . Cit . , P . 167 .

(٤) Franken , H . J . , Op . Cit . , P . 334 .

(٥) محمد العزب موسى : المرجع السابق ، ص ٦٨ وكذا
Bowden , J . , Op . Cit . , P . 67 .

(٦) محمد العزب موسى : المرجع السابق ، ص ٦٨ .

ويرى الباحث أن هذه النظرية تدحضها الأدلة آنفة الذكر ، وربما كان هناك أيضاً أدلة لم أستطع الوصول إليها ، تُساهم في نقضها وعدم صحتها ؛ وبالتالي فهي بعيدة عن الصواب ، ولا أُرجّح بصحتها ، إذ لا أعتقد أن يكون تحتمس الثالث ، أو ابنه امنحتب الثاني هو الفرعون الذي خرج بنو إسرائيل من مصر في عهده بقيادة الرسول الكريم موسى عليه الصلاة والسلام .

ولقد تفتق ذهن سيجموند فرويد ، بعد دراسته لشخصية موسى عليه الصلاة والسلام ، عن نظرية هامة ، نادى بها استطراداً لنظريته في مصرية موسى ، وهي أن الخروج قد حدث بعد وفاة أخناتون مباشرة .

لذلك فَجُلّ ما سأورده في هذه النظرية يندرج في سياق آرائه التي دوّنها في كتابه عن موسى وعقيدة التوحيد ، الأمر الذي يتطلب من الباحث الاستشهاد بفقرات عدة من كتابه في هذا الموضوع .

في أثناء ترسيخه لنظريته في أن موسى عليه الصلاة والسلام كان مصرياً وليس من بني إسرائيل ، يقول :

((إنه لعمل لا يمكن الاستخفاف به ، أن ننكر نسبة إنسان إلى شعب يُثني عليه وَيَعُدّه أعظم أبنائه ، وخاصة إذا كان المتوفر على هذا العمل أحد أبناء هذا الشعب . وعلى كلٍ فلن أدع لأي اعتبار أن يؤثر عليّ فأُنحّي الحقيقة جانباً ، إيثاراً لمصلحة قومية مُدّعاة))[١] .

ويقول أيضاً :

((وكان المتوقع أن يستنتج واحد من المؤلفين الكثيرين الذين تبينوا أن اسم موسى هو اسم مصري ، أن مَنْ يحمل إسماً مصرياً كان مصرياً هو نفسه ، أو أن يقول على الأقل باحتمال ذلك . ونحن لا نحسّ في العصر الحديث بأي ارتباك عندما نستخلص استنتاجاً كهذا ، مع أن الإنسان في هذه الأيام يحمل اسمين وليس إسماً واحداً ، ومع أن تغيير الاسم أو اكتسابه في ظروف جديدة شيء لا يمكن استبعاده . وهذه الإحالة من الاسم إلى

---

(١) سيجموند فرويد : النبي موسى ورسالة التوحيد ، ترجمة ودراسة عبد المنعم الحفني ، الطبعة الأولى ، دار الرشاد ، القاهرة ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ ، ص ٢٦ .

الجنسية تكون أكثر رجحاناً فيما يتعلق بالعصور المبكرة والبدائية ، وهي فعلاً قاطعة في ذلك . ومع ذلك ، وفي أغلب ظني ، فإنه لا يوجد مؤرخ واحد قد خلُص إلى هذه النتيجة فيما يتعلق بحالة موسى ، ...))[١] .

وقد حاول سيجموند فرويد إبراز التعارض بين دعوة موسى وديانته ، وبين الديانة المصرية القديمة ، بعد أن حاول إثبات قوله : ((إذا كان موسى مصرياً ...)) ، فهو يعتقد أن هناك تعارض حاد بين الديانة اليهودية[٢] المنسوبة إلى موسى – عليه الصلاة والسلام –، وبين الديانات المصرية ؛ فبينما الديانة اليهودية ديانة موحدة متزمتة متباهية ، ولا يوجد بها سوى إله واحد مفرد تام القدرة ، لا يُدانيه أحد ، فإن هناك في الديانات المصرية القديمة عدد مذهل من المعبودات تختلف أهمياتها وأصالتها ، وبعضها تشخيص للقوى الطبيعية الكبرى ، مثل السماء ، والأرض ، والشمس ، والقمر . وربما كانت بعض هذه الاختلافات نابعة من التعارض في المبدأ بين الوحدانية الصارمة ، وبين تعدد الآلهة تعدداً لا نهائياً ، وبعضها الآخر نتائج لإختلاف في المستوى الفكري ؛ فديانة قد تكون شبيهة بالديانات البدائية ، وديانة أخرى قد تُحلّق في سوامق التجريد المتسامي ، وهو ما يُلاحظ من تعارض بين الديانة الموسوية وبين الديانة المصرية القديمة ، مع اختلاف آخر بين الديانتين ؛ وهو أنه لم يوجد شعب آخر من الشعوب القديمة كالشعب المصري ، بذل كثيراً لينكر الموت ، وأعدَّ أيما إعداد لحياةٍ بعد الحياة . أما الديانة اليهودية المبكرة فإنها عكس ذلك ؛ لم تتحدث عن الخلود إطلاقاً ، ولم يُذكر فيها في أي مكان إمكان وجود حياة بعد الموت ، وهو أمر تزيد أهميته ؛ لأن التجربة التي تلت ذلك (أي الديانات الأخرى اللاحقة) قد أثبتت أن الإعتقاد في وجود حياة أخرى بعد هذه الحياة يمكن أن يتوافق جداً مع الديانة التوحيدية[٣] .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٧ – ص ٢٨ .

(٢) لاشك أن صفة " اليهودية " التي يستخدمها هنا سيجموند فرويد على ديانة موسى عليه السلام هي تسمية متأخرة أعقبت السبي البابلي (٥٨٦ – ٥٣٩ ق.م) ، ولم تكن هذه التسمية معروفة زمن موسى عليه السلام ؛ كما بينت ذلك في الفصل الأول من الباب الأول . إلا أنني آثرت هنا إثبات التسمية كما جاءت في رأي سيجموند فرويد خلال عرضه لاثبات تاريخ الخروج في عهد أخناتون ، وذلك تفادياً لتحريف كلامه الوارد بين ثنايا رأيه .

(٣) سيجموند فرويد : المرجع السابق ، ص ٣٨ ، ص ٤٠ – ص ٤١ .

ويعتقد سيجموند فرويد أن هناك واقعة غريبة في تاريخ الديانة المصرية القديمة تثير وجهة نظر أخرى ما تزال ممكنة ، حسب اعتقاده ، وهي أن الديانة التي أعطاها موسى لشعبه هي ديانة أخناتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) ، أي ديانة من الديانات المصرية القديمة ، إذ كان أخناتون قد فرض على رعاياه ديانة جديدة تُناقض تقاليدهم وكل ما اعتادوه ، وأعلن لهم ديانة توحيدية تؤمن بإله واحد هو إله الشمس آتون[١] ، بوصفه الإله الخالق والحافظ لكل الأحياء داخل وخارج مصر ، ويمتدحها بحميّة ، كالتي تتكرر بعد ذلك بعدة قرون في سفر المزامير[٢] التي تُنشَد امتداحاً لإله اليهود يهوه ، ولكن أخناتون لم يتوقف عند هذا السبق المدهش للمعرفة عن أثر ضوء الشمس وإنما ذهب أبعد من ذلك ، حيث عَبَدَ الشمس ليس بوصفها موضوعاً مادياً ، ولكن كرمز لكائن إلهي تتكشف طاقته في أشعتها ، بالإضافة أيضاً إلى صفة استبعادية استبعدت كل الآلهة الأخرى بتأكيده في أحد أناشيده على صفة الوحدانية[٣] .

وقد وجه أخناتون اضطهاده بشكل خاص إلى الإله آمون ، ولكن ليس ضده وحده؛ ففي كل أنحاء الامبراطورية المصرية أُغلقت المعابد ، ومُنِعت الصلوات ، وصُودرت الممتلكات الخاصة بعبادة آمون ، بل إن أخناتون أمر بالبحث في النقوش فوق الآثار القديمة

---

(١) آتون أو إتن *itn* ، وقد تُكتب اتوم *'Itm* بمعنى إله الشمس اتوم . إلا أن آتون تعبير أُطلق على قرص الشمس رمزاً للإله الشمسي الجديد في عهد أخناتون . ولم يقتصر أخناتون على صورة قرص الشمس التقليدية القديمة ، بل صورها في شكل القرص المجسم أو الكرة الشمسية المجسمة نسبياً ، وتخرج منها أشعة كثيرة ينتهي كل شعاع منها بيدٍ بشرية تُقدم بدورها رمز الحياة عنخ *ʿnḫ* بمعنى يعيش أو حي . انظر :

سليم حسن : مصر القديمة ، الجزء الخامس ، السيادة العالمية والتوحيد ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ م ، ص ١٤ - ص ١٦ ، ص ٢٩٣ - ص ٣٠١ وكذا

رشيد سالم الناضوري : المرجع السابق ، ص ٩١ وكذا

ألن جاردنر : مصر الفراعنة ، ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم ، مراجعة عبد المنعم أبو بكر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ص ٢٤٣ - ص ٢٤٤ وكذا

Aldred , C . , " Egypt : the Amarna Period and the End of the Eighteenth Dynasty " , CAH , Vol . II , Part 2 , PP . 51 - 52 ;
Gardiner , A . H . , Egyptian Grammar , P . P . 555 , 557 .

(٢) المزمور ١٠٤ .

(٣) سيجموند فرويد : المرجع السابق ، ص ٤١ - ص ٤٥ .

حتى يُزال اسم الإله كلما جرى استخدامه في صورة الجمع ، ولم يسمح أيضاً بصنع أي صورة محفورة لآتون ؛ لأن هذا الإله الجديد لا شكل له ، وهو ما ظل عليه اعتقاد أخناتون طوال حياته(١) .

وعلى الرغم من محاولة كهنة الإله آمون تخفيف مناقشة الآلهة الأخرى لهم ، ومحاولة إحداث نوع من الدمج بين آمون ورع (وهو الإله الشمسي) ، وظهور الإله آمون رع ، فإن ذلك لم يحل دون رغبة امنحتب الرابع (أخناتون) في تركيز فكره الديني تجاه العقيدة الشمسية البحتة ، مما يدل على تصميمه في إحداث تغيير جذري في العقيدة المصرية القديمة، والاتجاه نحو الوحدانية والعالمية بدلاً من النزعة المحلية وتعدد الآلهة(٢) . ولم يكن ذلك الاتجاه في الفكر الديني المصري القديم بالأمر اليسير ؛ فقد واجه معارضةً شديدة من كهنة الإله آمون ؛ إلا أن امنحتب الرابع شرع في بناء معبد للإله آتون مجاوراً لمعبد الإله آمون في طيبة ، ولكن المعارضة الشديدة من قِبَلِ كهنة آمون ، كانت من القوة بحيث اضطرت امنحتب الرابع إلى استبدال العاصمة المصرية طيبة بعاصمة جديدة اتجه إلى بنائها لأول مرة في السنة السادسة من حكمه الذي استمر حوالي تسعة عشر عاماً ، في موقع العمارنة ، وسماها أخيتاتون بمعنى أفق آتون ، كما اتجه إلى تغيير اسمه من امنحتب إلى أخناتون بمعنى الذي رضي عنه آتون ، وبدأ يدعو إلى عقيدته الجديدة من عاصمته الجديدة بعيداً عن معارضة كهنة آمون في طيبة . وقد سجلت مقبرة آي بالعمارنة النص الكامل للوثيقة الهامة الدالة على المعتقد الآتوني ، وهي انشودة آتون التي يمكن اعتبارها بمثابة نص أساسي لذلك المعتقد(٣) .

وبناءً على هذه العقيدة التي نادى بها أخناتون ، جازف سيجموند فرويد باستخراج النتيجة التالية وهي : أنه إذا كان موسى مصرياً ، ونقل إلى شعبه ديانته ، فإن تلك الديانة هي ديانة أخناتون(٤) .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٤٦ ، ص ٤٧ .

(٢) رشيد سالم الناضوري : المرجع السابق ، ص ٩٠ ، ص ٩٢ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٩٢ ، ص ٩٣ وكذا
Wilson , J . A . , " Egyptian Hymns and Prayers - The Hymn to the Aton " , ANET , P . 369 ;
Aldred , C . , Op . Cit . , P . P . 55 - 56 , 59 - 60 .

(٤) سيجموند فرويد : المرجع السابق ، ص ٤٧ .

ثم قام بمقارنة ديانة موسى عليه الصلاة والسلام بديانة أخناتون ، مع قوله مسبقاً : ((وينبغي أن نتوقع أن نجد أنهما متشابهتان أصلاً . ونعرف أن هذه المهمة ليست بالمهمة السهلة ، وقد لا نعرف الكثير عن ديانة آتون ، والفضل في ذلك يرجع إلى الروح الإنتقامية لكهنة آمون . ولم نعرف الديانة الموسوية إلا في شكلها النهائي كما حدده لها الكهنة اليهود بعد النفي ، أي بعد موسى بنحو ثمانمائة سنة .

... وهناك طريق قصير لإثبات ما افترضناه من أن الديانة الموسوية ليست سوى ديانة آتون ، ولكني أخشى أن يُقال لي أن مثل هذا الطريق متعذر ، فالعقيدة اليهودية ، كما هو معروف جيداً ، تقول :

Schema Jisroel Adonai Elohenu Adonai Echod(١)

فإذا لم يكن الشبه بين اسم آتون المصري (أو أتوم) ، وبين الكلمة العبرية أدوناي Adonai ، وبين اسم الإله السوري أدونيس(٢) Adonis مجرد صدفة ، ولكنه نتيجة وحدة بدائية في اللغة والمعنى ، فإننا نستطيع أن نترجم الصيغة اليهودية السابقة هكذا : " إسمعي يا إسرائيل ، إن إلهنا آتون (أدوناي) هو الإله الوحيد " ، وإني للأسف غير مؤهل كلية لأن أحلّ هذا الإشكال))(٣) .

---

(١) تُنطق على الوجه التالي : ((شمع يسرائيل أدوناي إلوهينو أدوناي أحاد)) وترجمته إلى اللغة العربية كالآتي : اسمع يا إسرائيل : الرب إلهنا إله واحد . انظر :

محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٣٩٣ .

(٢) أدونيس Adonis : شاب جميل عشقته أفروديتي ربة العشق والجمال والسحر الفتان عند الاغريق ، وتُعرف أيضاً عند الرومان باسم فينوس Venus ، وفي الأساطير الاغريقية هي ابنة زيوس (جوبتر Jupiter) الحاكم الأعلى رب الآلهة والناس في الأساطير الاغريقية ، ويعني زيوس " السماء " بوصفها موطناً لكل الظواهر الجوية والطقس. وفي الأساطير الاغريقية أيضاً أن أدونيس وُلد من لحاء شجرة المر ، وكان جميلاً فاتناً ، بلغ من جماله وفتنته أن أخفته أفروديتي بعد مولده في صندوق وعهدت به إلى ربة العالم السفلي برسيفوني Persephone لتحفظه وديعة عندها . وبعد أحداث كثيرة تعرض لها أدونيس ، أصبحت حياته وموته ، طبقاً للأسطورة الاغريقية ، يرمز إلى دورة فصول السنة ، فيُبعث في فصلي الصيف والربيع ، ويموت في فصلي الخريف والشتاء .

وقد ارتبط اسم أدونيس أيضاً في النصوص الأكادية بتموز Tammuz الذي كان عشيقاً لعشتار أيضاً . انظر :

محمد كمال صدقي : المرجع السابق ، ص ٢٢ ، ص ٣٩ ، ص ٤١٥ وكذا

Ginsberg , H . L . ," Ugaritic Myths , Epics , and Legends - The Tale of Aqhat ", ANET , P . 155 ;
Pfeiffer , R . H . , " Fables and Didactic Tales - Akkadian Fable " , ANET , P . 410 note (1) ;
Guthrie , W . K . C . , " The Religion and Mythology of the Greeks " , CAH , Vol . II , Part 2 , P . P . 871 , 899 , 904 .

(٣) سيجموند فرويد : المرجع السابق ، ص ٤٨ .

ثم من السهل بيان أوجه التشابه والإختلاف بين الديانتين ، فكلاهما شكل من التوحيد المتزمت ، والذي يميل سيجموند فرويد إلى الرجوع إلى هذه السمة الأساسية فيما هو متشابه في كل منهما ، رغم إصراره على أن التوحيد اليهودي في بعض وجوهه لا يقل تزمتاً عن التوحيد المصري الذي دعا إليه أخناتون[١] .

إن الديانة اليهودية لم تتحدث عن أي شيء بعد القبر والحياة الآخرة ، وهو مذهب ينحو إلى التزام أدق أشكال التوحيد ، وهذه السمة نُقلت من ديانة أخناتون ، إذ كانت ضرورة من الضروريات بالنسبة لأخناتون في محاربة الديانة الشائعة ، مما يعني اتفاق الديانة اليهودية مع ديانة أخناتون في هذه النقطة الهامة ، وهي الحجة القوية - وليست الحجة الوحيدة - فيما أُفترض من قبل[٢] .

ولم يُعط موسى اليهود ديناً جديداً فقط بل أدخل أيضاً عادة الختان ، رغم أن نصوص التوراة[٣] ، تنقض هذه النقطة كثيراً ؛ إذ تُرجع تاريخ عادة الختان إلى أيام زعماء القبائل ، وهم الآباء الأولين ، كعلامة للعهد بين الرب وبين إبراهيم . وحسب إشارة التوراة[٤] أيضاً فإن الرب غضب من موسى لأنه أهمل هذا العُرْف المُقدّس وكاد أن يقتل ابنه كعقاب له ، لولا أن زوجة موسى ، وهي من أهل مدين ، أنقذت زوجها من غضب الرب ، بأن أجرت عملية الختان لإبنها بسرعة . غير أن الواقع - فيما يتعلق بالختان - أن أصله ومصدره كان من مصر ، ولم يتبع شعب آخر من شعوب شرق البحر المتوسط هذه العادة غير المصريين[٥] .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٤٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٨ - ص ٤٩ .

(٣) سفر التكوين ١٧ : ١٠ - ٢٧ ؛ ٣٤ : ١٤ - ١٧ ، ٢٢ وكذا
سفر الخروج ١٢ : ٤٨ وكذا
سفر اللاويين ١٢ : ٣ .

(٤) سفر الخروج ٤ : ٢٤ - ٢٦ .

(٥) سيجموند فرويد : المرجع السابق ، ص ٤٩ وكذا

Lods , A . , Op . Cit . , P . 198 - 199 .

وانظر :

Stubbings , F . H . , " The Recession of Mycenaean Civilization ", CAH , Vol . II , Part 2 , P . 339 ;
Barnett , R . D . , " The Sea Peoples " , CAH , Vol . II , Part 2 , P . 367 .

وكانت عملية الختان في مصر تُجرى للأولاد غالباً بين سن السادسة والثانية عشرة من أعمارهم في المعابد ، ومع ذلك فإنها لم تكن فرضاً على الشعب ، كما صارت فيما بعد عند اليهود أو سنة عند المسلمين ، لقلة النقوش التي أشارت إلى ذلك . ومع أنها لم تكن مقصورة على الملوك والكهنة ، غير أنها كانت مُحتّمة على مَنْ يقومون بطقوس معينة . وقد ورد في نقش على جدران مقبرة (عنخ ماحور) في عصر الأسرة السادسة بعض التفاصيل لعملية الختان ، وهذا النقش مكون من جزئين :

الجزء الأيمن ، ويظهر فيه الجرّاح وقد ذُكرت قُبالته عبارة " الكاهن المُختِن " مما يدل على أن العملية التي يقوم بإجرائها لا تدخل ضمن اختصاصات الجراح العادي .

أما الجزء الأيسر ، فيظهر فيه الجراح ممسكاً بآلةٍ أو بشيءٍ آخر بيضاوي الشكل ، وهو يزاول عملية الجراحة ، مع وجود مساعد الجرّاح الذي يقف خلف المريض وقد أمسك بذراعيه على ارتفاع وجهه في قوة وعنف ، ويوجهه الطبيب الجراح بقوله : " أمسِكْهُ كيلا يقع " ، ويُردُّ عليه المساعد بقوله : « سأفعل وفق إشارتك » ، كما أن هناك نقش آخر لعملية الختان في معبد الكرنك يظهر فيه الجراح وهو يقوم بعملية الختان[١] .

وقد ورد في التوراة : « وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي . أنتَ ونسلُكَ من بعدك في أجيالهم . هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك . يُختَنُ منكم كلُّ ذكرٍ »[٢] .

ويذهب بعض مفسري التوراة إلى أن الختان هو إثبات للعهد ، بين الرب وإبراهيم ، بسرّ الختان الذي كان رمزاً للطهارة وهجر أعمال الجسد ، والأخذ في أعمال الروح[٣] .

غير أن أدولف لودز يعتقد أن ذاك النص كهنوتي[٤] الأصل ، وأن نسخة الأصل الكهنوتي The Priestly Code تؤرخ فيما بين سنة ٥٥٠ ق.م و ٤٥٠ ق.م[٥] .

---

(١) بول غليونجي وآخرون : تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني ، المجلد الأول – الطب عند قدماء المصريين ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ م ، ص ٥٣٣ – ص ٥٣٥ .

(٢) سفر التكوين ١٧ : ٩ – ١٠ . وانظر : سفر التكوين ١٧ : ١١ – ١٤ ، ٢٣ – ٢٧ .

(٣) وليم مارش : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، ص ١٣٣ .

(٤) أي مصدره رجال الدين عند اليهود وهم الحاخامات .

(٥) Lods , A . , Op . Cit . , P . 152 .

أي أن هذا التاريخ يعود إلى ما بعد عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، الذي عـاش فيما يُرجح في المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسـط (٢٠٠٠ – ١٨٠٠ ق.م)(١) ، أي بما يزيد عن ألف وخمسمائة عام ، ((ثـم إنهـا روايـة لم تتداخـل مـع بقيـة النصـوص في صُلب أسفار الشريعة في صورتها الحالية إلا عام ٤٠٠ ق.م ، أو مـا يقـارب ذلـك ، حـين أُبتعثت دولة يهوذا في ظل الحماية الفارسـية علـى يـدي عـزرا (نحميـا ٨ : ١ – ٣) إليـه يُعزى إرساء أركان العقيدة اليهودية ... فلا غرو أنه يتعارض تعارضاً جذريـاً مـع روايـات أخرى ، ربما كانت أصداء خافتة لوقائع فعلية حيكت في صورة من الأسـاطير ، عـن نشـأة سُنّة الاختتان))(٢) .

وقد جاء في نص التوراة أيضاً :

((في ذلك الوقت قال الرب ليشوع اصنع لنفسك سكاكين من صوّان وَعُـدْ فـاختن بني إسرائيل ثانية))(٣) . والسبب في ذلك ، ما أشار إليه نص آخر :

((لأن جميع الشعب الذين خرجوا كانو مختونين . وأما جميع الشـعب الذيـن وُلـدوا في القفر على الطريق بخروجهم من مصر فلم يُختنوا . لأن بني إسرائيل ساروا أربعين سـنة في القفر ...))(٤) .

لذلك اتجه البعض(٥) إلى أنه لا يوجد تعارض بين نصوص التـوراة فيمـا يتعلـق بعـادة الختان زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وزمن موسى عليه الصلاة والسلام ؛ لأنها عـادة تجددت لموسى عليه الصلاة والسلام بأمر من الرب ، حيث طلب الرب منه أن يكلم قومـه بني إسرائيل فيما يتعلق بالطهارة لهم .

وهذا الاتجاه يعتمد على نص التوراة التالي :

((وكلم الرب موسى قائلاً كلم بني إسرائيل قائلاً : إذا حَبِلَت امـرأةٌ وولـدت ذكـراً تكون نجسة سبعة أيام . كما في طَمْث عِلّتها تكون نجسة . وفي اليوم الثـامن يُختـن لحـم غُرْلته))(٦) .

(١) خير نمر ياسين : المرجع السابق ، ص ٩ .

(٢) حسين ذو الفقار صبري : " توراة اليهود بين أصول متشعثة وسعي إلى انعقـاد " ، المجلة ، العـدد ١٥٧ ، السـنة الرابعة عشرة ، القاهرة ، يناير (كانون ثاني) ، ١٩٧٠ م ، ص ١٦ .

(٣) سفر يشوع ٥ : ٢ .

(٤) سفر يشوع ٥ : ٥ – ٦ .

(٥) بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٣٣٧ .

(٦) سفر اللاويين ١٢ : ١ – ٣ .

إلا أن الافتعال واضح في إقحام كلمتي " عُدْ " و " ثانية " في نص سفر يشوع ٥ : ٢ آنف الذكر ، فهل يُختن المرء مرتين ؟ أما تلك الفقرات الأخرى من نفس الاصحاح (٤ - ٧) فإنما هي إضافات لاحقة ، ومحاولة غير موفقة ، أُريد بها تبرير عملية الاختتان الجماعية تلك - يبدو إن كان لها سند من حقيقة - فتتوافق ولو بعض الشيء مع الروايات المستقاة من مصادر أخرى[١] .

والحق ، أن الإختتان من سُنن الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهي من سُنن الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

((الفطرة خمسٌ : الإختتان ، والاستحداد ، وقص الشارب ، وتقليم الأظفار ، ونتف الإبط))[٢] .

وعند شرح هذا الحديث قال النووي :

((والصحيح من مذهبنا الذي عليه جمهور أصحابنا أن الختان جائز في حال الصغر ليس بواجب ، ولنا وجه أنه يجب على الولي أن يختن الصغير قبل بلوغه ، ووجه أنه يحرم ختانه قبل عشر سنين ، وإذا قلنا بالصحيح أُستحب أن يُختن في اليوم السابع من ولادته ...))[٣] .

وعلى أي حال ، فقد ظل سيجموند فرويد يحاول ترسيخ نظريته في كون موسى عليه الصلاة والسلام مصرياً وليس من بني إسرائيل ، فيذهب إلى أنه على افتراض أن موسى كان يهودياً أراد أن يُحرر قومه من استعباد سيد أعلى مصري ، وأن يخرج بهم من مصر ، ليطوّروا لأنفسهم وجوداً مستقلاً ، فأي مغزىً يمكن أن يكون في أن يفرض عليهم في نفس الوقت ممارسة عادة حوّلتهم افتراضاً إلى مصريين ؟ وما الهدف من أن تبقى بينهم

---

(١) حسين ذو الفقار صبري : المرجع السابق ، ص ١٦ وكذا
Lods , A . , Op . Cit . , P . 199 note 8 .

(٢) الإمام الحافظ أبو زكريا يحيى بن شرف النووي : صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ٣ ، الطبعة الثانية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ، ص ١٤٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٨ .

عادة الاختتان المصرية التي تُذكّرهم بمصر ؟ رغم أنه كان من الممكن أن يكون هدفه شيئاً آخر ، وهو أن يحسّ شعبه بأنه قد صار غريباً على البلد الذي عرف عبوديته . فإذا كان موسى قد أعطى قومه ليس فقط ديناً جديداً ، وإنما أعطاهم أيضاً عادة الاختتان المصرية ، فموسى ليس يهودياً ، ولكنه مصري ، وعليه تكون ديانته أيضاً احتمالاً ديانة مصرية هي ديانة آتون – بسبب معارضتها للديانة الشائعة – والتي تتفق معها الديانة اليهودية في بعض نقاطها البارزة[١] .

وزيادةً في محاولته ترسيخ دعواه في مصرية موسى عليه السلام يفترض أن موسى كان نبيلاً مرموقاً ، وربما كان حقاً من أعضاء البيت المالك في عهد أخناتون ، وأنه كان على وعي بإمكانياته العظيمة ، وأنه كان طموحاً وجمّ النشاط ، وربما رأى نفسه في مُستقبلٍ مُظلم كزعيم لشعبه ، وأنه كان من المؤمنين المتّبعين للديانة الجديدة بحكم صلته الوثيقة بفرعون مصر أخناتون ، وأنه كان يفهم فهماً كاملاً مبادئها الأساسية ، وجعلها مبادئه[٢] . وعلى أثر وفاة أخناتون رأى موسى – حسب اعتقاد سيجموند فرويد – أن كل آماله ومشاريعه تُدمَّر ، فإذا لم يكن بوسعه أن يتنكر لمعتقداته العزيزة عليه فإن مصر إذن لن يكون لديها ما يمكن أن تمنحه إياه أكثر من ذلك ، إلا أن موسى عثر على حلٍ غير عادي ؛ فقد رأى أن أخناتون جعل نفسه غريباً عن شعبه ، وترك الامبراطورية المصرية تتهاوى ، لذلك سارع موسى بوضع خطة لتأسيس امبراطورية بديلة ، والعثور على شعب جديد يمكن أن يعطيه الديانة التي احتقرتها مصر وخذلتها ، وربما كان في ذلك الوقت حاكماً لاقليم الحدود المسمى جوشن ، الذي ربما استقرت فيه بعض القبائل السامية في عهد الهكسوس ، وهؤلاء اختارهم ليكونوا شعبه الجديد ؛ حيث بدأ بإقامة علاقات مع تلك القبائل السامية ، ووضع نفسه على رأسهم ، وقاد عملية الخروج بذراعٍ قوية ، وهي عملية تمت بطريقة مخالفة تماماً لرواية التوراة ؛ أي أنها تمت في سلام ، ودون مطاردة أو متابعة من فرعون ، لأن موسى كان في مكان السلطة التي تخوله الخروج من مصر ، وإمكانية ذلك ، مع ضمان عدم وجود قوة مركزية تمنعه من ذلك ، فتم الخروج من مصر

---

(١) سيجموند فرويد : المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٥٠ – ص ٥١ .

بعد وفاة أخناتون بين سنتي ١٣٥٨ ق.م و ١٣٥٠ ق.م ، وقبل استعادة الفرعون حورمحب (١٣٣٥ - ١٣٠٨ ق.م) لسلطة الدولة[١] .

وعلى ذلك ، يمكن إجمال نظرية سيجموند فرويد بأنه حدث بعد وفاة أخناتون أن تغلّبَ الكهنة المصريون من شيعة الديانة الوثنية القديمة ، فوجد موسى عليه السلام نفسه مضطراً إلى الهجرة ؛ حتى يستطيع أن يُنظّم صفوفه على الحدود الشرقية لمصر ، ثم يُعاود الكَرّة ليفرض الوحدانية على المصريين ، الأمر الذي دفع فرعون مصر الوثني إلى محاولة منع موسى ومن معه من الخروج ، وهو الذي جعل هذا الفرعون يُفضّل أن يُعرِّض نفسه وجيشه للخطر في تَعَقّب هذا الداعية التوحيدي عبر سيناء ، على أن يعتبر رحيله هو ومن معه أمراً مَرْضياً ، وراحة له وللناس[٢] .

ومما يُلفت النظر أن سيجموند فرويد لا يتشبث برأيه في تاريخ الخروج الذي حدده، بل يرى أن نظريته في مصرية موسى تستقيم كذلك إذا تأخر تاريخ الخروج بعض الوقت ، على افتراض أن موسى كان - حسب رأيه - كاهناً في أون التي استمرت فيها عقيدة آتون حية عدة أجيال بعد القضاء عليها من الناحية الرسمية بعد وفاة أخناتون[٣] .

وقد ذهب آرثر ويجال A . Weigal إلى أن الذين خرجوا من مصر كانوا من عبدة آتون ، وأن الفرعون الذي حدث الخروج في عهده هو توت عنخ آمون (١٣٤٧ - ١٣٣٩ ق.م) ، مستدلاً على رأيه بما ورد في أحد النقوش في معبد الكرنك من أن توت عنخ آمون استخدم عبيداً من ألاسيويين في إعادة بناء هياكل المعابد التي خرّبها أخناتون ، فضلاً عن ما ورد في النقش ذاته من الإشارة إلى حدوث وباء في عهده[٤] .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا،ما ذهب إليه البعض أيضاً من ربط دعوة موسى عليه السلام وديانته بما نادى به امنحتب الرابع (أخناتون) (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) ، وأنه تأثر بالعقيدة المصرية القديمة التي اعتنقها ذلك الفرعون .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٥١ - ص ٥٢ .

(٢) حسن ظاظا : المرجع السابق ، ص ٧٥ وكذا
حسن ظاظا : الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه ، ص ١٨ .

(٣) محمد العزب موسى : المرجع السابق ، ص ٦٨ .

(٤) مجلة المقتطف ، المجلد ٦٣ ، الجزء الأول ، باب الأخبار العلمية ، الجامعة الأميركية ، بيروت ، ١٦ ذي القعدة ١٣٤١ هـ / ١ يوليو (تموز) ١٩٢٣ م ، ص ١٠٢ .

يقول أحد المؤرخين :

((كان من المرجح جداً أن تكون الديانة التي جاء بها موسى قد تأثرت بمعتقدات المصريين ، كما أن شريعة بني إسرائيل وشعائر عبادتهم إحتوت كثيراً من العناصر المصرية))[١] .

ويقول مورخ آخر :

((... ، فصحف موسى وتوراته لم تُدون في العبرية بل في المصرية القديمة ، وأُرجِّح أن هذه التوراة وثيقة الصلة بالعقيدة المصرية التي بشَّرَ بها أخناتون ، وأن مقابلةً بين ما وصلنا من العقيدة الأتونية وما جاءنا مبعثراً في العهد القديم تأخذ بيدنا إلى صحف موسى وتوراته))[٢] .

وفي موضع آخر يقول فؤاد حسنين علي :

((فموسى هو الرجل ، المصري إسمه ، عرف القصر الفرعوني في ممفيس ، كما تأثر ولاشك بالعقيدة المصرية القديمة ، وإدراكها للعالم والألوهية ، وكما تأثر موسى بهذه العقائد ، كذلك بنو إسرائيل ، وذلك لأن موسى لم يخلق ديناً ؛ فالدين لا يخلقه فرد ...))[٣] .

ويقول آخر :

((كان موسى على دين التوحيد الذي اعتنقه أخناتون ملك مصر ، الذي تقوم ديانته على عبادة الإله الواحد ، ويظهر أن موسى عرف عقيدة أخناتون التوحيدية فأخذها عنه ، وتأثر بها ، ودعا إليها ، حيث كانت تلك الديانة تقضي بعبادة إله واحد ، وتدعو إلى نشر الإخاء بين الناس جميعاً))[٤] .

---

(١) أستيندرف الألماني : ديانة قدماء المصريين ، تعريب سليم حسن ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٢٣ م ، ص ١٢٦ .

(٢) فؤاد حسنين علي : التوراة الهيروغليفية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ م ، ص ٥٩ .

(٣) إسرائيل عبر التاريخ ، ص ٥٥ .

(٤) خير الله طلفاح : كنتم خير أمة أخرجت للناس ، الجزء السابع ، حقيقة يهود ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ؛ ص ١٠٥ - ص ١٠٦ .

وهناك بعض الآراء تجعل أخناتون أول مُوحّدٍ في تاريخ البشرية ، وأنه أول من دعا إلى ذلك ، ومنها :

يقول جيمس هنري برستد :

« ان أخناتون كان أول مُفرّد [موحِّد] في التاريخ »[١] .

وفي موضع آخر يقول[٢] :

« كان أول زعيم عقلي في التاريخ . لقد كان حكمه أقدم عهد لحكم الأفكار ، بغض النظر عن حاله ورضى الشعب الذي كانت لِتُفرَض عليه ... لقد كان هو بذاته أول ثوريّ في العالم ، وكان مقتنعاً تمام الإقتناع بأنه كان يمكنه أن يُعيد صَوْغَ عالم الدين والفكر والفن والحياة بالعزم المنيع الذي لديه ، ... فكان أقدم صاحب مُثُلٍ عليا ... » .

بل إن جيمس هنري برستد يجزم بأن دعوة أخناتون ، كانت المرة الأولى في التاريخ الإنساني التي دعت إلى فكرة إله واحد ، وذلك بقوله :

« ... وللمرة الأولى في تاريخ الدنيا ، ظهرت فكرة إله واحد للعالم كله له سلطان امبراطوري ، وتلك هي أقدم صورة في التاريخ لفكرة التوحيد كما وصلت إليها خبرة الشرق ... فكان هذا العمل من جانبه حادثاً جديداً لا مثيل له في التاريخ البشري »[٣] .

هذا فضلاً عما ذهب إليه أحد المؤرخين المعاصرين بقوله :

« فلاشك ، أن ديانة اتون الوحدانية ، تُعتبر أول لَبِنة في صرح عقيدة التوحيد التي ظهرت بشكل أكثر رقياً وتجريداً في الديانات السماوية فيما بعد »[٤] .

وهناك اتجاه ينادي إلى عدم الشك في وجود صلة بين ديانة أخناتون وديانة موسى عليه السلام ، حتى وإن كانت هذه الصلة غير مباشرة ، إذ أن الوحدانية المطلقة كانت من أوضح الصور الشائعة بين الديانتين ، فقد ورد في التوراة أن إله بني إسرائيل يقول : « أنا

---

(١) تطور الفكر والدين في مصر القديمة ، ترجمة زكي سوس ، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٦١ م ، ص ٤٥٤ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٥٨ - ص ٤٥٩ .

(٣) انتصار الحضارة (تاريخ الشرق القديم) ، ترجمة أحمد فخري ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٦ م ؛ ص ١٣٧ .

(٤) عبد المنعم عبد الحليم سيد : حضارة مصر الفرعونية ، الجزء الأول ، دار المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ م ، ص ٢٠٤ .

الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية . لا يكن لك آلهة أخرى أمامي))[١] . وآتون يوصف بأنه " الإله الذي لا إله إلا هو " ، ثم التأكيد بعد ذلك في التعاليم الآتونية على الإله الواحد والخالق لكل شيء[٢] .

إضافة لذلك ، هناك نقطة تشابه أخرى جديرة بعدم الإهمال ، وهي المحبة الشخصية للتعاليم الدينية الجديدة التي جاء بها هذان الرمزان الرئيسان ، تلك المحبة التي اتخذت أسلوباً أسطورياً عظيماً ، حسب تعبير أرڤيد . س . كابلرود الذي أقر بوجود اختلاف ظاهر وبيّن بين ديانة موسى عليه السلام وديانة أخناتون ، وأن هناك فرق كبير جداً بين الديانتين ، بحيث يكون كافٍ لإسقاط فكرة اعتماد أحدهما على الأخرى ؛ إلا أنه جانبه الصواب عندما ذهب إلى أن من المحتمل أن يكون موسى قد بنى تعاليمه على تقاليدٍ من العصور القديمة ، من عهود الآباء الكبار (إبراهيم وإسحاق ويعقوب) بإدخال ملامح جديدة عليها ، ساهم فيها شخصياً ، ليس أقلها فضائله الذاتية ، رغم أنه لا يمكن تتبع التفاصيل بأي درجة من اليقين[٣] .

أن الديانات السماوية تدعو إلى إله واحد لا شريك له ، في حين أن دعوة أخناتون يتضح أنها تشتمل على إلهين اثنين : الإله آتون الذي كان معنياً – حسب اعتقادهم – بالخلق والمحافظة على الحياة ، ثم الفرعون أخناتون الذي كان معنياً بالأخلاق والديانة ، رغم أن النصوص الواردة في نشيد أخناتون دعت إلى أن آتون هو " الإله الأوحد الذي لا مثيل له " ، وهو أمر ليس جديداً في الإبتهالات الدينية المصرية القديمة ؛ حيث كان ذلك التعبير من تعبيرات المبالغة الحماسية ، أو تعبيرات تركيز السلطان ، كما وردت في نصوص الأدب الديني المصري القديم السابق لعهد أخناتون بفترة تزيد عن ألف عام . ففي العصر السابق لعهد أخناتون كان يطلق على كل من الآلهة آمون ، ورع ، وأتوم ، وحرختي ، ومين ، بأنه " الإله الأوحد " ، رغم أن هذا التعبير قد أُستخدم أحياناً عند الحديث عن خلق العالم، وأحياناً أخرى استخدم على سبيل المبالغة في الإطراء ، بصفته أهم الآلهة من بين الآلهة الأخرى[٤] .

---

(١) سفر الخروج ٢٠ : ٢ – ٣ .

(٢) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٣٩٨ .

(٣) Kapelrud , A . S . , Op . Cit . , P . 19 - 20 .

(٤) جون ولسون : المرجع السابق ، ص ٣٦٢ .

ولا يمكن اعتبار ديانة آتون أنها أصل التوحيد الذي جاء به موسى عليه الصلاة والسلام ، فديانة أخناتون لم تكن إلا الديانة الشخصية لأحد الفراعنة (أخناتون) الذي اعتبره المصريون بعد جيلٍ واحد شخصاً مُلحداً ، ولم يعرفها المصريون على نطاق واسع ، بل إن السرعة التي عاد بها المصريون إلى عبادة الآلهة القديمة بعد وفاته يدل على أن ديانته لم تتجاوز العائلة الملكية إلا قليلاً . وبافتراض وجود بني إسرائيل في عصر العمارنة في مصر ، فمن الصعب عليهم التعرف على تعاليم الديانة الآتونية التي دعا إليها أخناتون ، خاصة وأنها تدعو إلى اعتبار فرعون مصر الواسطة الوحيدة بين الخالق والناس . فضلاً عن أنها خلت خلواً واضحاً من ذكر الأخلاق ، مما جعلها تتصف بأنها عقيدة ثقافية أكثر منها أخلاقية ؛ وذلك لكثرة حماس أخناتون لها ، الذي نبذ الأوضاع القديمة ، واعتبرها أموراً باطلة ، وأن ما يدعو إليه هو الحق . فلا يمكن لفكرة نشأت في بلاط الفرعون في العمارنة ، ولم يفهمها الناس إلا وهي في صورة معقدة وناقصة أن تكون هذه الفكرة إلا أمراً غريباً على قبائل آسيوية اعتادت العيش في الصحراء ، ومنها قبائل بني إسرائيل[1] .

ومن المواضع التي فيها تشابه قريب بين نشيد أخناتون للإله آتون وبين ما ورد في التوراة[2] ، الفقرات التالية :

من نشيد آتون عن الليل :

« وعندما تغرب في الأفق الغربي ،
تَسوَدّ الأرضُ كما لو كان قد حل بها الموت .
ينام (الناس) داخل حجرة وقد لفّوا رؤوسهم ،
فلا ترى عينٌ عيناً أخرى ،
ويمكن أن تُسرق أمتعتهم التي يضعونها
تحت رؤوسهم ، فلا يحسون بذلك .
يخرج كل أسدٍ من عرينه ،
وجميع الزواحف (تخرج) لتلدغ ،

(١) المرجع نفسه ، ص ٣٦٤ – ص ٣٦٦ .

(٢) سفر المزامير : المزمور ١٠٤ .

ويلف الظلام كل شيء ويعم الأرض السكون ،
لأن الذي خلقهم يرتاح في أفقه))[١] .
ويقابل ذلك في التوراة :
((تجعل ظُلمةً فيصير ليلٌ . فيه يَدِبُّ كلُّ حيوان الوَعْـر . الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها))[٢] .
وعن النهار والإنسان ، ورد في نشيد آتون :
((وعندما يُصبح الصباح . وتطلع من الأفق ،
وعندما تُضيء كآتون أثناء النهار ،
تطرد الظُلمة وتمنح أشعتك .
فالأرضان في عيد كل يوم ،
ويستيقظ (الناس) ويقفون على الأقدام .
لأنك أنت الذي أيقظتهم .
يغسلون أجسامهم ويلبسون ملابسهم ،
ويرفعون أذرعهم ابتهالاً عند ظهورك ،
والناس جميعاً يؤدون أعمالهم))[٣] .

(١) سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٣٠٢ وكذا
أحمد فخري وآخرون : تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني ، المجلد الأول - الأدب المصري القديم ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ م ، ص ٤١٧ - ص ٤١٨ وكذا
محمد بيومي مهران : مصر والشرق الأدنى القديم (٥) الحضارة المصرية القديمة ، الجزء الثاني ، الطبعة الرابعة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م ، ص ٤٦٥ - ص ٤٦٧ وكذا
جيمس هنري برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي ، ص ٢٤٦ وكذا
Finegan , J . , Op . Cit . , P. P . 106 - 107 ;
Wilson , J . A . , " Egyptian Hymns and Prayers - The Hymn to the Aton " , ANET , P . 370 .

(٢) المزمور ١٠٤ : ٢٠ - ٢١ .

(٣) سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٣٠٣ وكذا
أحمد فخري وآخرون : المرجع السابق ، ص ٤١٨ وكذا
جيمس هنري برستد : المرجع السابق ، ص ٢٤٦ وكذا
Wilson , J . A . , Op . Cit . , P . 370 .

وهذا يقابله في التوراة :

((تُشرق الشمس فتجتمع وفي مآويها تربِضُ . الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شُغله إلى المساء))[١] .

وكذلك جاء في نشيد أخناتون :

((ما أعظم (أعمالك) التي عملتها !
إنها خافية على الناس ،
أيها الإله الأوحد الذي لا شبيه له .
لقد خلقت الدنيا كما شئت ،
عندما كنت وحدك ،
الناس والماشية والوحوش الضارية ،
وكل يسعى على قدميه فوق الأرض ،
وكل ما يرتفع (في السماء) ويطير بجناحيه .
" في " بلاد سوريا والنوبة وأرض مصر ، تضع كل شيء في مكانه ، ...))[٢] .

ويقابل ذلك في التوراة :

((ما أعظم أعمالك يا رب . كلّها بحكمةٍ صَنَعْتَ . ملآنةٌ الأرض من غناك))[٣] .

وهناك رأي له أهميته ، يتجه إلى :

((أن مؤلفي المزامير العبرانيين قد رسموا صورة تدل على الحماية الإلهية المستمدة من تحت جناحي إله الشمس المصري الظليلين ، ولابد أنهم كانوا كذلك على علم بانشودة أخناتون التي وضعها لإله الشمس . ومن المحتمل أن يكون الأصل المصري القديم لتلك الأنشودة ، قد انتشر في فلسطين ، أو فينيقية ، قبل ظهور المزامير العبرانية بزمن طويل ؛ فقد انتهى أخناتون من إخراج انشودته قبل منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، ومن البديهي أن أعداءه الحانقين عليه ما كانوا يتركونها تنتشر في مصر مدة ستة أو سبعة قرون

---

(١) سفر المزامير ١٠٤ : ٢٢ - ٢٣ .

(٢) سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٣٠٥ وكذا
أحمد فخري وآخرون : المرجع السابق ، ص ٤١٨ - ص ٤١٩ وكذا
جيمس هنري برستد : المرجع السابق ، ص ٢٤٧ وكذا
Wilson , J . A . , Op . Cit . , P . 370 .

(٣) سفر المزامير ١٠٤ : ٢٤ .

(أي إلى ما بعد سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد بكثير) وهو الوقت الذي ابتدأ فيه العبرانيون يُبدون اهتمامهم بها ، وعلى ذلك يجب التسليم بأن تلك الأنشودة انتقلت إلى آسيا في عهد أخناتون نفسه ، وأنها بذلك أفلتت هناك من الدمار المحقق على يد أعدائه .

وقد حدث فيها تغيير كبير بعد أن تُرجمت إلى بعض اللهجات السامية من لهجات آسيا الغربية ، كالفينيقية ، أو الآرامية ، أو العبرية على الأرجح . على أنه بفحص محتويات الفقرات المشابهة لها من المزمور ١٠٤ يظهر مدى الشبه المدهش بين الصورتين ؛ لا من حيث مضمون انشودة أخناتون فحسب بل في تتابع الأفكار وترتيبها الظاهري ، فإن ذلك بقي في الرواية الآسيوية كما كان في انشودة أخناتون ، ولا يمكن بحال أن تكون تلك المشابهات من قبيل الصدفة ، بل أنها دليل على وجود جزء كبير من الانشودة المصرية الدينية القديمة تم نشره بشكل مُعدَّل في سفر المزامير ››[١] .

ويمكن القول بأن بعض الآراء والتعبيرات الواردة في ديانة آتون كانت معروفة في مصر قبل دعوة أخناتون ، ولم تكن لها صلة بها ، بل واستمرت بعض تلك التعبيرات في الاستخدام حتى بعد سقوط الآتونية ، دون أن يكون لها صلة باعتبار تلك الديانة فيما بعد أنها كانت إلحاداً[٢] .

وبعد القضاء على ديانة أخناتون ظل الناس يتناقلون أناشيد من هذا النوع فيما بينهم ، فلما جاء الوقت الذي وصلت فيه الديانة العبرية إلى المرحلة التي احتاجت فيها إلى نوع خاص من التعبير ، استطاعت أن تجد في الآداب الأخرى جُملاً تسد حاجتها[٣] . بل إن البعض[٤] يؤكد أن نشيد أخناتون هو الأصل الذي نُقل عنه جزء من المزمور ١٠٤ من مزامير داود في التوراة .

وأياً كان مصدر هذه المزامير المتشابهة فالواقع أن أخناتون عاش قبل داود عليه السلام بأكثر من ثلاثة قرون ، وأن العبريين لم يُنشئوا هذا المذهب في الصلوات الدينية قبل شعوب المنطقة المعاصرة لهم[٥] .

---

(١) جيمس هنري برستد : فجر الضمير ، ترجمة سليم حسن ، مراجعة عمر الاسكندري وعلي أدهم ، مكتبة مصر، القاهرة ، ١٩٥٦ م ، ص ٣٩٣ – ص ٣٩٤ .

(٢) جون ولسون : المرجع السابق ، ص ٣٦٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٦٩ .

(٤) أحمد فخري وآخرون : المرجع السابق ، ص ٤١٧ .

(٥) عباس محمود العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ م ، ص ٩٣ .

يقول جون ولسون :

« إن مثل تلك التعبيرات الدينية الثمينة التي تأتي من أعماق النفوس لا يمكن أن تُستعار ، ولكنها يجب أن تمر على الناس ويجرّبوها . فإذا ما جرّبوها ، ربما يستعيرون من الآخرين بعض الصيغ الكلامية التي يصفونها بها ، ولكنهم لا يمكن أن يستعيروا من غيرهم الروح المتغلغلة في أعماق النفس »[1] .

والرأي الذي أراه في موضوع توحيد أخناتون ودعوته ، ومن ثم تأثر موسى عليه الصلاة والسلام بذلك التوحيد ، والدعوة إليه ، ما هو إلا أمر باطل لا يُقرّ به المسلم صحيح العقيدة ، ومن غير الممكن أن يَغترّ به أيضاً مَنْ كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان با لله تعالى وبرسله الكرام .

فهذه الفِرية العظيمة ، التي تجعل من أخناتون أول موحدٍ في التاريخ ، تُشكل خطراً جسيماً على عقيدة المسلمين الذين يؤمنون بأن أول نبي في تاريخ البشرية هو آدم عليه الصلاة والسلام ، أول موحد على وجه الأرض ، الذي خلقه ا لله عز وجل بيده . ثم بعث ا لله من بعده نوح عليه الصلاة والسلام ، ثم تتابعت الرسل من بعده تترا ، كهودٍ ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط، وشعيب ، ويوسف ، وموسى ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

فكيف يكون أخناتون أول موحدٍ في تاريخ البشرية ، ويتم إغفال رهط الأنبياء الكرام هؤلاء ؟ !

وأمر آخر لابد من التذكير به ، وهو أن موسى عليه الصلاة والسلام حفظه ا لله عز وجل منذ ولادته إلى انتهاء حياته،وذلك بنص القرآن الكريم[2] الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، رغم أنه نشأ في قصر فرعون الذي ادعى الألوهية من دون ا لله ، فعصمه ا لله عز وجل من الوقوع في الشرك الذي كان سائداً في مصر قبل رسالته الربانية ، فحفظ ا لله عز وجل موسى عليه الصلاة والسلام ونشأ على فطرة الإسلام السليمة التي فطر ا لله عليها عباده المؤمنين ، دون أن يتأثر قيد أنملة بشيء من عقائد الشرك التي سادت في عصره .

---

(١) الحضارة المصرية ، ص ٣٦٦ .

(٢) انظر على سبيل المثال :

سورة القصص ، الآيات (٧ - ١٤) .

والسور الكريمة التي أشارت لذلك كثيرة .

فإذا كان ا لله عز وجل قد عصم موسى عليه السلام منذ صغره عن الوقوع في الخطايا والذنوب ، وصنعه على عينه ، فكيف يُعقل أن يتأثر بعقائد الشرك با لله بعد أن سوّاه ا لله عز وجل وآتاه الحكمة والعلم ؟ ! بل وكيف يرتضي المسلم أن يُقر من يدينون بدين الإسلام أن أخناتون كان موحداً لله ؟ في نفس الوقت الذي تظهر فيه الحقيقة واضحة في أن الفرعون أخناتون لم يكن موحداً لله عز وجل بلا شريك ، بل كان مشركاً با لله ، جاعلاً بعض صفات ا لله عز وجل لمعبوده وإلهه قرص الشمس آتون ، وفي الوقت ذاته يصفه بصفات الإله الذي يغيب عند المساء في الأفق الغربي ، ويشرق عند الصباح من أفقه . وهذا يتنافى ، على وجه التأكيد ، مع عقيدة الإسلام التي يدين بها الرسل والأنبياء والمؤمنون با لله عز وجل،من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ ، وهي أن ا لله عز وجل ، هو الخالق الرازق ، الحي القيوم الذي لا يموت ، ولا معبود بحق سواه ، له ملك السموات والأرض وما بينهما ، وكل ما في الكون خلقه وملكه سبحانه وتعالى .

كما أن هناك بون شاسع بين رسالة موسى عليه الصلاة والسلام الذي بعثه ا لله عز وجل برسالة سماوية مؤيدة بالوحي ، تحمل التوحيد الخالص لله رب العالمين ، وهو الرسول الكريم الذي كلمه ا لله تكليماً ، وجعله من الرسل أولي العزم ؛ وبين دعوة بشرية لاشك في أن صاحبها أخناتون مشرك با لله عز وجل ، دعا فيها إلى عبادة قرص الشمس في نشيده آنف الذكر ، وليس لعبادة ا لله تعالى خالق الشمس والكون كله . فهي دعوة شرك با لله عز وجل خضعت للأهواء والدعاء والطلب من قِبل أخناتون .

وإنه لمن المؤسف حقاً أن تُوصف رسالة موسى عليه السلام ودعوته بما تَقَوّلَهُ عليه من غير مِلّة المسلمين ، لكن المُحزن في نفس الوقت ، أن يُتابع بعض الكُتّاب المسلمون ، ويُردّدون ما ذهب إليه غير المسلمين من اليهود والنصارى ، ويفترون على ا لله الكذب ، وعلى رسوله موسى عليه الصلاة والسلام ، فيما ادّعوه في موضوع التوحيد الذي دعا إليه كليم ا لله عليه الصلاة والسلام ، وهو التوحيد الخالص لله رب العالمين .

والحق ، أن هذه النظرية التي نادى بها سيجموند فرويد في خروج بني إسرائيل في أعقاب وفاة أخناتون ، تفتقر إلى الأدلة التاريخية والأثرية الأكيدة التي سجلتها النصوص المصرية القديمة المعاصرة لأخناتون ، وهي نصوص – بلاشك – قد تم تدمير كثير منها على

أيدي كهنة آمون ، الذين سارعوا في القضاء على كل ما يمتّ لديانة أخناتون بصلة بعد وفاته مباشرة . وهذا أدى بدوره إلى اختفاء كثير من المعلومات عن هذه الديانة وما ارتبط بها في العهود اللاحقة .

وهناك ما يشير إلى أن توت عنخ آمون (١٣٤٧ - ١٣٣٩ ق.م) قد تولى الحكم بفضل نفوذ كهنة آمون ، الذين بدأوا في عهده في شن حربٍ عنيفة على الديانة الآتونية ، وتدمير كل مظاهر العقيدة الآتونية في مصر[1] .

ولو كانت نظرية سيجموند فرويد صحيحة في تأريخ الخروج فلماذا أغفلت نصوص الفراعنة حورمحب (١٣٣٥ - ١٣٠٨ ق.م) ، وسيتي الأول (١٣٠٩ - ١٢٩١ ق.م) الإشارة لذلك الحدث الهام ، على اعتبار أنهم قريبي العهد من تلك الفترة ؟ .

بل إن هذه النظرية تنتقض من أساسها إذا ما أُخِذَ بالإعتبار التحديد الزمني لوفاة أخناتون حوالي عام ١٣٥٠ ق.م ، وفترة حكم سيتي الأول (١٣٠٩ - ١٢٩١ ق.م) .

وبناءً على ذلك اتجه رأي البعض إلى أنه بناءً على حساب مدة التيه التي ظل فيها بنو إسرائيل أربعين سنة ، وتحديد هذه النظرية لتاريخ خروجهم من مصر في عام ١٣٤٢ ق.م، أو ما بين سنة ١٣٥٠ ق.م ، وسنة ١٣٤٢ ق.م ، فإن دخولهم إلى كنعان يكون قد تم في سنة ١٣٠٢ ق.م ، أي في فترة حكم سيتي الأول ، وهو مالا يمكن الأخذ به أو تصديقه ؛ إذ كيف يمكن لبني إسرائيل أن يدخلوا إلى كنعان في عهده ، ويقومون - حسب ما روته التوراة في سفر يشوع - بتدمير المدن وتخريبها ، وهو الذي استرد هيبة الامبراطورية المصرية ، وأرسل أربع حملات عسكرية إلى سوريا وفلسطين[2] .

---

(١) سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٣٠٠ وكذا
أحمد فخري وآخرون : المرجع السابق ، ص ٤١٧ .

(٢) محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (٧) إسرائيل - الكتاب الأول - التاريخ ، ص ٤٠٥ - ص ٤٠٦ .
وانظر عن حملات سيتي الأول العسكرية إلى سوريا وفلسطين :
محمد عبد القادر محمد : الساميون في العصور القديمة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ م ، ص ١٤٦ وكذا
عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٣١ - ص ٢٣٢ وكذا
ألن جاردنر : المرجع السابق ، ص ٢٨٠ - ص ٢٨٣ وكذا
Bowden , J . , Op . Cit . , P . 67 ;
Wilson , J . A . , " Egyptian Historical Texts - Acampaign of SitiI in Northern Palestine " , ANET , P. P. 253 - 254 ;
Faulkner , R . O . , Op . Cit . , P. P . 218 - 221 ;
Goetze , A . , " The Hittites and Syria (1300 - 1200 B . C .) " , CAH , Vol . II , Part 2 , P . 252 .

ولاشك أيضاً ، أن هذه النظرية تتعارض تعارضاً تاماً مع ما ورد في القرآن الكريم ، الذي بيّنَ بصورة جلية موقف فرعون من رسالة موسى عليه الصلاة والسلام ، وهو الموقف الذي اتصف بالكفر والعناد ، والاستهزاء والسخرية بموسى ورسالته ومحاولة قتل موسى عليه الصلاة والسلام ، والتنكيل والتعذيب الذي أوقعه ببني إسرائيل ، والعمل على منعهم من مغادرة البلاد ، بعد أن طلب موسى عليه الصلاة والسلام الخروج بقومه من مصر .

قال تعالى : ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم ا لله بذنوبهم وا لله شديد العقاب** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **وقال موسى يا فرعون إني رسولٌ من رب العالمين • حقيقٌ على أن لا أقول على ا لله إلا الحق قد جئتكم ببينةٍ من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل • قال إن كنت جئت بآيةٍ فأت بها إن كنت من الصادقين** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **وإن فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبين • إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحرٌ كذاب • فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال • وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يُبدل دينكم أو أن يُظهر في الأرض الفساد • وقال موسى إني عُذتُ بربي وربكم من كل مُتكبرٍ لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً • فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً** ﴾[5] .

وبعد كل هذه الآيات الكريمة ، لا يمكن للمسلم أن يُصدق بما نادى به سيجموند فرويد في الربط بين عقيدة الفرعون ورسالة موسى عليه الصلاة والسلام ، وبالتالي خروجه بقومه بني إسرائيل دون معارضة من فرعون . وإن كان صاحب هذه النظرية لا يُصدق

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١١) .

(٢) سورة الأعراف ، الآيات (١٠٤ - ١٠٦) .

(٣) سورة يونس ، الآية (٨٣) .

(٤) سورة غافر ، الآيات (٢٣ - ٢٧) .

(٥) سورة المزمل ، الآيتان (١٥ ، ١٦) .

ولا يؤمن بالقرآن الكريم ، كونه من ملة اليهود ، فإنه لا يعترف أيضاً بصحة ما ورد في التوراة عن خروج بني إسرائيل ، فهو يقول :

« وليس بوسع أي مؤرخ أن ينظر إلى القصة التي ترويها التوراة عن موسى والخروج ، بأكثر من أنها اسطورة دينية ، قلبت إحدى الروايات البعيدة لمصلحة اتجاهاتها. ولسنا نعرف ما الذي كانت عليه الرواية الأصلية . أما ما كانت عليه الاتجاهات التي أعملت الإنحراف في الرواية ، فهذا ما نُحب أن نُخمّنه ، ولكنا نُستبقى في الظلام بحكم جهلنا للأحداث التاريخية . ولن يُضلنا أن النظرية التي نحاول بها إعادة بناء الرواية لا تترك مكاناً للكثير جداً من سمات النص المتنوع المشاهد الذي تورده التوراة »[١] .

لذلك يرى الباحث مدى العوار الذي اكتنف هذه النظرية ، التي اعتمد صاحبها على آرائه السيئة الدلالة ، وبذل كل مُستطاع في طمس ما تشير إليه صراحة نصوص التوراة ، ويدّعي أحياناً أنه يؤمن بها ، وينتسب إلى أهلها . هذا فضلاً عن أنه لا يؤمن بالقرآن الكريم – كما أسلفت – الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو ما يتوجب على المسلم الأخذ به والتصديق بما جاء فيه ، وردّ كل ما يتعارض مع ما أخبر عنه القرآن الكريم .

قال تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتابٌ عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد** ﴾[٣] .

---

(١) سيجموند فرويد : المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٢) سورة الحجر ، الآية (٩) .

(٣) سورة فُصلت ، الآيتان (٤١ ، ٤٢) .

وقد سادت نظرية أخرى بين المؤرخين في أن رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) هو الفرعون الذي خرج في عهده موسى عليه الصلاة والسلام بقومه بني إسرائيل ومن آمن معه .

والراجح في أصل هذه النظرية هو اعتماد القائلين بها على نص التوراة الذي يذكر أن بني إسرائيل بنوا مدينتي مخازن بيثوم ورعمسيس ، كما في النص :

((فجعلوا عليهم رؤساء تسخيرٍ لكي يُذلوهم بأثقالهم . فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس))[1] .

فالإسم رعمسيس في هذا النص حُجة لدى أصحاب هذه النظرية في كونه إشارة إلى رعمسيس الثاني .

وهناك من يتجه إلى أن ذكر بيثوم ورعمسيس في النص السابق لعله تصرُّف من كاتب سفر الخروج ، وتفسير متأخر منه ؛ إذ من المحتمل أن القصة في صورتها الأصلية لم تُسمِّ هذه المدن[2] .

ويذهب إيسفلت إلى أن المدونات الواردة في التوراة ، رغم طابعها الأسطوري ، يجب النظر فيها وتقديرها ، فهي برهان كاف - حسب وجهة نظره - لمعالجة ما أشارت إليه من أحداث فعلية ؛ إذ من غير المفهوم تماماً أن يحتفظ شعب بإصرار بمأثورٍ عن عبودية غير مشروعة لأجداده في أرضٍ أجنبية ، ثم ينقل تلك المأثورات من جيل إلى جيل ما لم يكن قد مر فعلاً بمثل تلك التجربة ، الأمر الذي يدل على أن الروايات التوراتية عن العمل الجبري الذي فُرض على بني إسرائيل في مصر تحتوي على معالم تاريخية تصل إلى التطابق الفعلي ، بدرجة معقولة ، مع الظروف التي كانت سائدة في مصر في التاريخ الذي يُسند إليه تسخير بني إسرائيل في نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وبداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد ؛ إذ أن النص السابق من التوراة ما هو إلا إشارة إلى ذلك النشاط المشبوب في أعمال البناء في ذلك الحين ، الذي يقود إلى الإفتراض بأن الفرعون الذي قام بالنشاط المذكور هو رعمسيس الثاني الذي أخذ على عاتقه تجديداً جسيماً ، وتغييراً في التشييد في

---

(١) سفر الخروج ١ : ١١ .

(٢) تيودور . هـ . روبنسن : " إسرائيل في ضوء التاريخ " ، ترجمة عبد الحميد يونس ، مراجعة إبراهيم زكي خورشيد ، مقال نشره السير جون . أ . هامرتن : تاريخ العالم ، ترجمته إلى العربية إدارة الترجمة بوزارة المعارف العمومية ، المجلد الثاني ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ ، الفصل السابع والعشرون ، ص ١٠٧ .

يثوم ورعمسيس فور اعتلائه العرش في مستهل القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وخاصة في السنوات العشر الأولى من حكمه ، واستمر في تسخير بني إسرائيل في ذلك إلى أن تم خروجهم من مصر الذي يتعين أن يكون قد حدث في النصف الثاني من القرن الثالث عشر قبل الميلاد[١] .

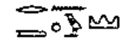
ومن النصوص التي تشير إلى استخدام رعمسيس الثاني لكثير من الأسرى والعمال الأجانب في إقامة مشاريعه البنائية ، النص التالي[٢] :

« تأمّل أمّا جلالته – له الحياة والفلاح والصحة – فإنه يقظ في البحث عن كل فرصة مفيدة ، بعمل أشياء ممتازة لوالده " حور " رب " حا " (وهو الاقليم الذي يقع فيه معبد " أبو سمبل ") مقيماً له بيت عشرات آلاف السنين بحفره في جبل " حا " هذا ، وهو ما لم يأته أحد من قبله إلا ابن " آمون " ، فقوّته في كل الأراضي ، وقد أحضر له جماً غفيراً من العمال ممن استولى عليهم بسيفه في كل مملكة ، ولقد ملأ بيوت الآلهة بأولاد "رتنو"[٣]،

---

(١) Eissfeldt , O . , " Palestine in the Time of the Nineteenth Dynasty - (a) The Exodus and Wanderings " , CAH , Vol . II , Part 2 , PP . 321 - 322 .

(٢) سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٦ ، ص ٣٤٢ .

(٣) رتنو : هو الاسم الذي كان يُطلق على سوريا وفلسطين في النصوص المصرية القديمة ، إذ لم يكن مصطلح بلاد الشام معروفاً بهذا اللفظ في تاريخ الشرق الأدنى القديم . وقد وردت الإشارة إليه في اللغة المصرية القديمة بلفظ  ، ودلالته الصوتية Rṯnw رتنو Retjnu .

أما فلسطين أو جزء منها في عصر الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ – ١٣٠٨ ق.م) فقد وردت الإشارة إليها في اللغة المصرية القديمة بلفظ  ، ودلالته الصوتية Ḫ3rw خارو . أما الاسم فلسطين فهو الصيغة اليونانية للفظ " فلاشت " الوارد في التوراة كما في سفر الخروج ١٥ : ١٤ ، وسفر اشعيا ١٤ : ٢٩ ، ٣١ ، وسفر المزامير ٦٠ : ١٠ ، وهذا الاسم " فلاشت " يعني " أرض الفلسطينيين " وهي الجزء المطل على البحر .

وكانت بلاد رتنو وخارو تنقسم إلى أقسام ، لكل منها اسمها الخاص منذ العصور القديمة فأقصى الأجزاء الجنوبية ، التي تمثل فلسطين الحالية ، هي " رتنو العليا " وكان يُطلق عليها أيضاً اسم " زاهي Zahi " . وهذه الأجزاء الجنوبية تنقسم إلى مقاطعتين :

المقاطعة الجنوبية وتسمى " كنعان " ، والمقاطعة الشمالية وتسمى " أمورو " أي بلاد الأموريين .

أما " رتنو السفلى " فهي سهل سوريا المنخفض . أما سكان السهل الساحلي السوري فأُطلق عليهم " فنخ " أي الفينيقيين . انظر :

فؤاد حسنين علي : إسرائيل عبر التاريخ ، ص ٦٠ – ص ٦١ وكذا

⇐

وبعد ذلك أعطى ساقي فرعون " رعمسيس عشاحب " الأوامر لإعداد بلاد " كوش " من جديد باسم جلالته العظيم له الحياة والفلاح والصحة ... » .

ويرى الباحث أن المعلومات المتوفرة عن تحديدٍ دقيق لتاريخ خروج بني إسرائيل من مصر في عهد رعمسيس الثاني لا تتوفر كحلٍّ نهائي وغير قابل للمناقشة ، الأمر الذي يمكن القول عنده أنه من خلال الاستفادة من عدد قليل من عناصر الأدلة غير المباشرة قد تكون النتيجة ترجيح القرن الثالث عشر قبل الميلاد كتاريخ للخروج ، وليس على وجه التحديد في عصر رعمسيس الثاني .

ومن هذه الأدلة ، ما ورد في التوراة :

« فقام فرعون ليلاً هو وكل عبيده وجميع المصريين . وكان صُراخٌ عظيم في مصر . لأنه لم يكن بيتٌ ليس فيه ميتٌ . فدعا موسى وهارون ليلاً وقال قوموا اخرجوا من بين شعبي أنتما وبنو إسرائيل جميعاً . واذهبوا اعبدوا الرب كما تكلمتم »(١) .

فهذا النص يدل على أن فرعون الخروج كان قادراً على استدعاء موسى وهارون عليهما السلام إلى قصره في منتصف الليل ، مما يشير إلى أن مسكنهما لم يكن بعيداً عن قصره . وهذا يتفق تماماً مع ما عرف عن رعمسيس الثاني من أنه استقر في شرق الدلتا ، حيث قام بالمشاريع البنائية هناك وسخر بني إسرائيل وغيرهم في ذلك(٢) . بل أن التوراة تؤكد إقامتهم هناك كما في النص :

« قُدّام آبائهم صنع اعجوبةً في أرض مصر بلاد صُوعَن »(٣) ، وفي موضع آخر :

⇐ حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ، ص ١٢ وكذا

ظفر الإسلام خان : المرجع السابق ، ص ١٥ وكذا

Gardiner, A. H., Ancient Egyptian Onomastica, Vol. I, P. P 139* F., 142* - 147*, 158*, 169*; Wilson, J. A., " Egyptian Historical Texts ", ANET, P. P. 235 note (19), 253 note (3), 258 note (4); Gardiner, A. H., Egyptian Grammar, P. P. 579, 584, 623.

(١) سفر الخروج ١٢ : ٣٠ - ٣١ .

(٢) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٤١٠ وكذا

Sarna, N. M., Op. Cit., P 10.

(٣) سفر المزامير ٧٨ : ١٢ .

« حيث جعل في مصر آياته وعجائبه في بلاد صُوعن »[١] . غير أن النسخة الانجليزية للتوراة تذكر بدلاً من جملة : « في بلاد صوعن » جملة أخرى هي : « في حقول صوعن »[٢] .

إلا أن ذلك له نفس المعنى ، حيث استخدمت التوراة[٣] كلمة " حقل " للدلالة على الأرض غير المسوَّرة ، سواء كانت مرعى أم فِلاحة مهما كانت مساحتها ، فتُرجمت أحياناً نفس الكلمة العبرية بكلمة بلاد[٤] .

وكذلك ورد في التوراة :

« فأسكن يوسف أباه وإخوته وأعطاهم مُلكاً في أرض مصر في أفضل الأرض في أرض رعمسيس كما أمر فرعون »[٥] . فعلى الرغم من أن سياق النص مخالف للتاريخ في ذكره لقب " فرعون " زمن يوسف عليه السلام ، إلا أنه – حسب رأي بعض المؤرخين[٦] – من المعروف أن اسم " رعمسيس " اسم مصري قديم معناه " ابن إله الشمس " . فكأن الملك أسكنهم في أفضل الأرض أي أرض الإله رع إله الشمس ، وهي أرض جاسان .

والفرعون رعمسيس الثاني هو الذي أقام عاصمته في تلك المنطقة ، وسماها على اسمه ، وبالتالي تكون إشارة التوراة السابقة ، ذات دلالة كبيرة في مطابقتها بين منطقة استقرار بني إسرائيل و" أرض رعمسيس " ، مما يشير إلى أن هذا الوصف هو انعكاس لحقيقة تاريخية أصيلة ، تدل على استنتاج لا مهرب منه هو أن التسخير والاضطهاد ، أو على الأقل المرحلة الأخيرة منه والأكثر قسوة ، قد حدث خلال عهد رعمسيس الثاني ،

---

(١) سفر المزامير ٧٨ : ٤٣ .

(٢) The Holy Bible , King James Version , the Old Testament , Psalms 78 : 12 , 43 , P. P . 503 , 504 .

(٣) انظر :

سفر التكوين ١٤ : ٧ ؛ ٢٣ : ٩ ؛ ٣٧ : ٧ ، ١٤ – ١٦ وكذا

سفر راعوث ١ : ٦ .

(٤) بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٣١٢ .

(٥) سفر التكوين ٤٧ : ١١ .

(٦) بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٤٠٦ .

الذي قام بجهود بنائية عظيمة في تلك المنطقة ، مما يُقـدم خلفية مقنعة للرواية التوراتية في إمكانية حـدوث الخـروج خـلال القـرن الثالث عشر قبـل الميلاد ، كفـترة زمنية مقبولة للأحداث الموصوفة في سفر الخروج[١] .

وتتجه بعض الآراء إلى أن بني إسرائيل ، كانوا مُسخرين في المباني ، والمشاريع الإنشائية في عهد سيتي الأول (١٣٠٩ – ١٢٩١ ق.م) في تانيس ، وفي عهد رعمسيس الثاني (١٢٩٠ – ١٢٢٤ ق.م) ، حيث ولد موسى عليه السلام في ذلك الوقت ، ونشأ ، ثم سكن في مدين ثم عاد إلى مصر ، حسب رواية التوراة[٢] ، مما يقوي أن عهد رعمسيس الثاني كان هو الوقت الذي أُستعبد فيه بنو إسرائيل ، ومن ثم خرجوا من مصر في عهده ، ووصلوا إلى فلسطين واستقروا في أماكن مختلفة منها حيث قابلهم مرنبتاح (١٢٢٤ – ١٢١٤ ق.م) حوالي سنة ١٢٢٠ ق.م ، وهذا نوع آخر من المعلومات ذات الأهمية العظيمة لتوقيت الخروج إن لم يكن الحدوث الفعلي للخروج[٣] .

ويذهب وليام . ف . البرايت إلى أنه في سنة ١٩٣٧ م كُشِفَ في خرائب مدينة لخيش ، عن نقوش كُتبت بالهيراطيقية مؤرخة بسنة ١٢٢١ ق.م (أو بعد ذلك بقليل ، ولكن ليس قبل هذا التاريخ) ، الأمر الذي يدل على سقوط هذه المدينة بيد بني إسرائيل في هذه السنة أو التي بعدها . إضافة إلى ذلك فإن لوحة إسرائيل مؤرخة بسنة ١٢١٩ ق.م ، مما يبرهن على وجود بني إسرائيل في غربي فلسطين قبل ذلك التاريخ ، واستيطانهم فيها ، خاصة وأنه كُتب الاسم بمخصص يشير إلى " شعب أجنبي " بدلاً من " أرض أجنبية " . وإذا تمت إضافة مدة الأربعين سنة التي تتطلبها التقاليد الإسرائيلية لاحتلالهم شرقي فلسطين ، فإن ذلك يصل إلى تاريخ لا يتجاوز ١٢٥٠ ق.م لتاريخ الخروج ، ومن المحتمل جداً تقدير جيلٍ لاحتلال بني إسرائيل شرقي فلسطين ، وتقدّمهم

---

(١) Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 10 ;
Abu - Qorah , O . , " Astructural Comparison of the Hebrew Conquest and the Arab Conquest of Southern Syria : Trans - Jordan and Palestine " , Dissertation , Published , Los Angeles University of California , 1989 , PP . 28 - 29 .

(٢) سفر الخروج ٢ : ١ – ٢٥ .

(٣) Anderson , B . W . , Op . Cit . , P. P . 27 - 28 ;
Finegan , J . , Op . Cit . , P . 120 - 121 ;
Abu - Qorah , O . , Op . Cit . , P . 28 .

غرباً فيها بقواتهم ، وعلى ذلك يكون تحديد خروجهم من مصر في بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد في حد المعقول ، وإذا تم اعتبار حوالي سنة ١٢٨٠ ق.م فإن ذلك لا يكون بعيداً عن الصواب ؛ إذ أن السنين الأولى من عهد رعمسيس الثاني (١٢٩٠ – ١٢٢٤ ق.م) كانت قد تمت فيها مشاريع ضخمة ، منها : بناء مدينة " بر – رعمسيس " التي سماها بنو إسرائيل " رعمسيس " وهي التي حملت اسم ذلك الفرعون(١) .

وهناك من حدد عام ١٢٦٠ ق.م كتاريخ لزمن الخروج إبان حكم الفرعون رعمسيس الثاني(٢) .

وقريباً من هذا الرأي الذي ذهب إليه ويليام ف. البرايت ، ما ذهب إليه أيضاً بعض المؤرخين ، بناءً على الحفريات الأثرية التي تمت في دبير (تل بيت مرسيم) وحاصور ، وبيت ايل ، وأريحا ، ولخيش ، وغيرها من المدن ؛ فإنه وجدت مؤشرات مؤكّدة لتخريب تلك الأماكن في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وأن ذلك يعني أن خروج بني إسرائيل من مصر لم يحدث بعيداً عن سنة ١٢٥٠ ق.م باعتبار تجوال بني إسرائيل في التيه مدة أربعين سنة(٣) .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن للأربعين عاماً التي كانت تفصل بين مغادرة بني إسرائيل مصر ، وبداية حملة يشوع في أرض كنعان علاقة مباشرة في تحديد خروج بني إسرائيل ، والدليل الأثري لا يعني أنه قاطع أو نهائي أو ثابت ، ولكنه أيضاً يميل كما يبدو لصالح تحديد القرن الثالث عشر قبل الميلاد ؛ فقد أوضحت الحفريات الأثرية أنه بنهاية العصر البرونزي الأخير (١٥٥٠ – ١٢٠٠ ق.م) كانت أرض كنعان قد وصلت إلى مرحلة متقدمة من الإنهيار ، ويعمها التشرذم السياسي ، ويجتاحها عدم الإستقرار الاقتصادي ، مع ضعفٍ شديد في قواهم العسكرية من جراء الحملات العسكرية المصرية

---

(١) Albright , W . F . , From the Stone Age to Christianity , P. P . 255 - 256 , 278 - 279 .

(٢) فراس السواح : الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم ، دار علاء الدين ، دمشق ، بدون تاريخ ، ص ١٩٨ ، ص ٢٣٣ .

(٣) نيقولا جريمال : المرجع السابق ، ص ٣٣٧ وكذا

Kenyon , K . M . , Op . Cit . , P . 214 ;
Kapelrud , A . S . , Op . Cit . , P . 27 ;
Eissfeldt , O . , Op . Cit . , P . 322 .

المتابعة على تلك البلاد ، حيث كانت دويلات المدن City States التي تتكون منها البلاد في حالة تحفها المخاطر ، وكانت الحضارة الكنعانية قد وصلت بشكل فجائي إلى نهايتها خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وانتهت من الوجود دويلات مدن كانت شديدة الأهمية مثل لخيش وحاصور ، وكل الدلائل تُشير إلى خراب عنيف سببته يد الإنسان(١) . ولقد أُستبدلت الحضارة الكنعانية القديمة بحضارة مختلفة كلياً ، لم تعد تعتمد على نظام دويلة المدينة ، وظهرت في معطياتها كل مظاهر الحضارة شبه البدوية ، والتي كانت في مراحلها الأولى تتسم بالإقامة والإستقرار ، وخير مثال على ذلك : مدينة حاصور التي كانت مدينة هامة ، حيث أثبتت الحفريات الأثرية فيها ، فيما لا يدع مجالاً للشك ، أن المدينة قد دُمرت فجأة بواسطة حريق هائل في وقتٍ ما من القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، لكن على الأقل في عام ١٢٣٠ ق.م بدأ مستوطنون جُدد في الاستقرار على جزء من ركام المدينة ، حيث أن نموذج الفخار المُستخدم فيما بعد يختلف أساساً عن ذلك الذي كُشف عنه فيما بعد ، ولم يكن مُكتشفاً في الطبقات الأولى من المدينة ، والذي يمثل مرحلة سابقة(٢) . وخلال مسيرة نفس القرن لقي مالا يقل عن اثنتي عشر مدينة كنعانية من العصر البرونزي الأخير نفس المصير من الدمار العنيف ، ثم قامت على أنقاضها قرىً أكثر تخلفاً ، ولم يظهر دليل من خارج التوراة لتحديد من هم الغزاة والمستوطنون الجدد الذين جاءوا مع جيش يشوع . لكن الصورة التي تكونها البحوث الأثرية بشكل عام تتناسب مع الرواية التوراتية عن حروب الغزو الإسرائيلي ، وبالتالي لا يوجد سبب مُقنع يمنع من ربط الواحد بالآخر . وهذا يعني أن العديد من الأدلة المختلفة تتضافر لتدعم حوادث الخروج من مصر ضمن فترة القرن الثالث عشر قبل الميلاد(٣) .

ومن الأدلة أيضاً المساندة لاعتبار القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وخاصة في عهد رعمسيس الثاني ، كتاريخ للخروج ؛ ورود أسماء بعض المناطق الواقعة في منطقة شرق الأردن مثل : منطقة مؤاب في النصوص المصرية القديمة ، فقد ورد اسم مؤاب في نصوص

---

(١) توماس ل . طومسون : التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي ، ترجمة صالح علي سوداح ، الطبعة الأولى ، بيسان للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٩٥ م ، ص ١٤٣ ، ص ٢٠٤ وكذا
Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 13 .

(٢) Ibid . , P. P . 13 - 14 .

(٣) Ibid . , P . 14 .

رعمسيس الثاني لأول مرة في النقوش المصرية[١] المعاصرة لحكمه . وكذلك ذُكرت إدوم في نصوص مرنبتاح[٢] خليفة رعمسيس الثاني ، مما يعني أنها كانت موجودة في عهد رعمسيس الثاني نفسه .

وبناءً على الروايات التوراتية[٣] ، فإن مؤاب وإدوم كانتا من الممالك التي تعرضت لمواجهة بني إسرائيل عند خروجهم من مصر على طول الطريق التي سلكوها في أراضيهم .

وهذه الإشارة لتلك الممالك في المصادر المصرية ، في الفترة المذكورة آنفاً ، ذات أهمية بالغة ؛ إذ أنها المرة الأولى التي تظهر فيها هذه المناطق في نصوص غير النصوص التوراتية ، مما يؤكد وجودها قبل خروج بني إسرائيل من مصر ، وهذا يُدعّم فترة القرن الثالث عشر قبل الميلاد كتاريخ للخروج ، خاصة وأن الأبحاث الأثرية أكدت أنه قبل القرن الثالث عشر قبل الميلاد لم تكن تلك الممالك موجودة ، وأنه كانت هناك فجوة تاريخية[٤] ، فيما يتعلق بالاستقرار السكاني في منطقتي إدوم ومؤاب ، امتدت من حوالي القرن العشرين قبل الميلاد إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ؛ إذ لم يكن هناك حياة قروية مستقرة ، على الأقل في الأجزاء الجنوبية من منطقة الأردن ، مما يُحرز تأييداً وقبولاً في اعتبار القرن الثالث عشر قبل الميلاد كتاريخ للخروج ، وكتاريخ قريب أيضاً من نشأة مملكتي إدوم ومؤاب[٥] .

لذلك اعتقد جمعٌ من المؤرخين[٦] أن الخروج كان في عهد رعمسيس الثاني ، وأن

---

(١) Wilson , J . A ., " Egyptian Historical Texts - Lists of Asiatic Countries Under the Egyptian Empire " , ANET , P. P . 242 - 243 ;
Faulkner , R . O. , Op . Cit . , P . 229 .

(٢) Wilson , J . A . , " Egyptian Historical Texts - The Report of a Frontier Official " , ANET , P . 259 .

(٣) سفر العدد ، الاصحاح ٢٠ إلى الاصحاح ٢٤ .

(٤) انظر : الباب الثالث – الفصل الأول .

(٥) Miller , J . M . , Op . Cit . , P . 172 ;
Abu - Qorah , O . , Op . Cit . , P . 28 .

(٦) سليم حسن : مصر القديمة ، ج ٧ ، ص ١١٧ وكذا
أحمد سوسة : المرجع السابق ، ص ٢٨٥ وكذا
عامر سليمان ، وأحمد مالك الفِتيان : محاضرات في التاريخ القديم ، جامعة الموصل ، الموصل ، ١٩٧٨ م ، ص ٣٦٦ ؛ ص ٣٦٨ وكذا
داود عبد العفو سُنقرط : جذور الفكر اليهودي ، الطبعة الأولى ، دار الفرقان ، عمان ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م، ص ١٠٣ وكذا
إسماعيل راجي الفاروقي : أصول الصهيونية في الدين اليهودي ، الطبعة الثانية ، مكتبة وهبه ، القاهرة ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٣٢ ، ص ٣٧ وكذا

⇐

هذه النظرية على ما ظهر لديهم ، هي أصوب الآراء التاريخية في التحديد الزمني لخروج بني إسرائيل من مصر .

غير أن فريقاً آخر من المؤرخين يُعارض هذا الاتجاه ؛ فمنهم من يحتج بأن اسم المدينة التي بُنيت في عهد رعمسيس الثاني وهي " بر - رعمسيس " لا يمكن أن يُتخذ كدليل قاطع ونهائي على اسم الفرعون الذي تم الخروج في عهده ؛ إذ من المحتمل أن الاسم " رعمسيس " قد أُستخدم في عصر سابق لعصر رعمسيس الثاني بزمن طويل[١] .

يقول أحد المؤرخين[٢] : ((وفي الحقيقة ، فإن أرض رعمسيس ، ومدينة رعمسيس ، مما ورد ذكره في سفر الخروج ، مسألة لا يمكن الاعتماد عليها في تحديد زمن الخروج ؛ لأن المحرر التوراتي قد استخدم اسم أرض رعمسيس في الإشارة إلى منطقة الدلتا منذ أيام يوسف ، أي قبل بناء مدينة رعمسيس بحوالي خمسمائة سنة .... وهذا يعني أن المحرّر التوراتي ، الذي كان يكتب سفر الخروج في فترة متأخرة من الألف الأول قبل الميلاد قد استخدم الاسم الذي يعرفه لمنطقة الدلتا ، بصرف النظر عن ارتباط هذا الاسم بفترة تاريخية مُعيّنة . ومن ناحية أخرى يحق لنا هنا أن نتساءل : لماذا ذكرت رواية الخروج اسم أرض رعمسيس ، أو مدينة رعمسيس ، وغفلت عن ذكر اسم فرعون الخروج الذي من المفترض أن يكون رعمسيس نفسه ؟)) .

ومن الصعب أيضاً تحديد تاريخ دقيق لبناء مدينة بر - رعمسيس بالنسبة إلى عهد رعمسيس الثاني ، فضلاً عن أن يكون ذلك في أوائل عهده ، وهو الذي حدثت فيه أكثر حروبه تقريباً في غربي آسيا ، مما يجعل بناء المدينة في النصف الثاني من حُكمه أكثر ملائمةً واحتمالاً ، وأن لزواجه من ابنة ملك الحثيين خاتوسيل في حوالي عام ١٢٥٦ ق.م بعد عقد المعاهدة بين البلدين في حوالي سنة ١٢٦٩ ق.م ، إلى جانب أسباب أخرى ، أثّرَ في بناء المدينة ، مما يجعل بناءها في فترة متاخرة من عهده أقرب إلى الصواب[٣] .

⇐ جمال عبد الهادي محمد ، وفاء محمد رفعت : أخطاء يجب أن تُصحح في التاريخ - تاريخ الأمة المسلمة الواحدة منذ أقدم عصورها وحتى القرن السابع قبل الهجرة في مصر والعراق ، الطبعة الأولى ، دار الوفاء ، المنصورة ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م ، ص ٣٧١ .

(١) بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٣٤٠ .

(٢) فراس السواح : آرام دمشق وإسرائيل ، ص ٧٥ .

(٣) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٤١٢ وكذا

⇐

ثم إن من غير الممكن التسليم بأن بني إسرائيل قد غادروا مصر في بداية عصر رعمسيس الثاني ؛ لأن اعتبار ذلك يتسبب في قدر من المصاعب التاريخية ، أقلها أنه كان حتى أواخر عهده قد بلغ ذروة القوة والجبروت(١) ، فضلاً عن أنه كان يُرسل الحملة تلو الأخرى إلى سوريا وفلسطين ، وبالتالي لا يُعقل أن يكون بنو إسرائيل قد غزوا أرض كنعان في أوج عظمة فراعنة مصر ، خاصة وأنه لا يوجد أي من النصوص الموثقة تذكر شيئاً عن ذلك الغزو(٢) .

وقد أشارت التوراة إلى وفاة الفرعون الذي كان يطلب موسى عليه الصلاة والسلام أثناء وجوده في مدين ، فقد جاء في النص :

« وحدث في تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات »(٣) .

وفي نص آخر :

« وقال الرب لموسى في مديان اذهب ارجع إلى مصر . لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك »(٤) .

فهذا النص الأخير يشير إلى أن الذين كانوا يطلبون القصاص من موسى عليه الصلاة والسلام قد ماتوا ، بدليل عبارة « جميع القوم » وهم فرعون ، وأهل المقتول ، والشُّرَط المأمورون بالقبض عليه(٥) .

وهذا يدل أيضاً على أن فرعون الذي بَلّغهُ موسى عليه الصلاة والسلام الرسالة السماوية ، ووقف منها موقف العناد والكفر ، وسام المؤمنين العنت والعذاب هو فرعون آخر غير الذي فَرّ في عهده إلى مدين .

وقد اتجه البعض إلى أن رعمسيس الثاني كان هو الذي سخر بني إسرائيل في بناء مدينتي بيثوم وبر – رعمسيس ، وأنه الذي كان يسومهم سوء العذاب ، ويُنكل بهم ⇐

Faulkner , R . O . , Op . Cit . , P. P . 229 , 232 ;
Goetze , A . , Op . Cit . , P. P . 259 , 260 .
Bimson , J . J . , Op . Cit . , P . 16 . (١)

(٢) إبراهيم أمين غالي : سيناء المصرية عبر التاريخ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ م ، ص ١٠١ – ص ١٠٢ وكذا

Faulkner , R . O . , Op . Cit . , P. P . 226 - 230 ;
Goetze , A . , Op . Cit . , P. P . 252 - 253 .

(٣) سفر الخروج ٢ : ٢٣ .

(٤) سفر الخروج ٤ : ١٩ .

(٥) وليم مارش ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣١٦ .

ويضطهدهم ؛ أي أنه فرعون الاضطهاد ، خاصة إذا ما تم اعتبار مدة حكمه الطويلة التي استمرت حوالي ٦٧ عاماً ، رغم عدم وجود نص مصري معاصر لحكمه يشير صراحة إلى إيقاع الاضطهاد على بني إسرائيل ، وأن هذا الفرعون قد مات قبل خروج بني إسرائيل من مصر، مما يعني أن الخروج الذي قاده موسى عليه الصلاة والسلام كان في عهد فرعون آخر بعد عهد رعمسيس الثاني[١] .

وكذلك فإن نتائج الحفريات والأدلة الأثرية لا تؤيد كون رعمسيس الثاني فرعون الخروج ؛ إذ أن تلك الحفريات التي أُجريت في دبير (تل بيت مرسيم) ، وحاصور ، وبيت ايل ، ولخيش ، وأريحا ، وغيرها من المدن التي تم فتحها على يد يشوع خليفة موسى عليه الصلاة والسلام ، والتي يرى القائلون بهذه النظرية أنها فُتحت في تاريخ يقرب من عهد رعمسيس الثاني ، لا يمكن أن يكون ذلك تحديداً تاريخياً دقيقاً ، حيث أن المعلومات التاريخية التي يُستدل عليها من خلال الحفريات الأثرية تكون تقريبية في كثير من الأحيان[٢] .

وفضلاً عن ذلك ، فإن البيّنة الآثارية من تلك المدن تؤكد عدم صحة جزء لا بأس به من الفتوحات المعزوة إلى يشوع ، وأن الدمار الذي لحق بالمدن الكنعانية خلال الربع

---

(١) ناشد سيفين : " أثر الأساطير في قصة خروج بني إسرائيل " ، مجلة المقتطف ، المجلد ٨١ ، الجزء الثالث ، مصر ، جمادى الأولى ١٣٥١ هـ / اكتوبر ١٩٣٢ م ، ص ٢٩٦ – ص ٢٩٧ وكذا

عبد الوهاب النجار : المرجع السابق ، ص ٢٠٢ وكذا

نجيب ميخائيل إبراهيم : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ وكذا

أبكار السقاف : المرجع السابق ، ص ١٨٥ وكذا

صابر عبد الرحمن طعيمة : اليهود في موكب التاريخ ، الطبعة الأولى ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٩ م ، ص ١٢٩ وكذا

عماد عبد الحميد النجار : المرجع السابق ، ص ٣٩ وكذا

أحمد شلبي : المرجع السابق ، ص ٦٨ وكذا

رمضان عبده علي السيد : معالم تاريخ مصر القديم ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٦ م ، ص ٤٩٠ وكذا

تيودور . هـ . روبنسن : المرجع السابق ، ص ١٠٧ وكذا

Noth , M . , Op . Cit . , P . 120 .

(٢) بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، ص ٣٤٠ .

الأخير من القرن الثالث عشر قبل الميلاد لا يمكن إرجاعه بصورة مؤكدة إلى جهة بعينها ، مما يشير إلى أن الرواية التوراتية في سفر يشوع لا تؤيدها الأدلة الأثرية إلا في بعض جوانبها ، وحتى في هذه الحالة ، فإن الشكوك تبقى قائمة ، والبرهان غير أكيد[1] .

(١) فراس السواح : الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم ، ص ١٩٩ ، ص ٢٠٠ .

وقد كانت هناك أيضاً ، نظرية أخرى بين رهط المؤرخين تُفضي إلى أن الخروج كان في عهد مرنبتاح (١٢٢٤ – ١٢١٤ ق.م) .

والعُمدة في هذه النظرية على مصدرين رئيسين استقاموا بهما على رأيهم :

المصدر الأول : الرواية التوراتية التي تشير إلى قيام بني إسرائيل ببناء مدينتي مخازن لفرعون ، كما في النص :

« فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يُذلوهم بأثقالهم . فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس » [1] .

المصدر الثاني : " لوحة إسرائيل[2] The Israel Stela " أو " لوحة النصر لمرنبتاح Hymn of Victory of Mer - ne - ptah " التي وردت فيها الإشارة الوحيدة ، ولأول مرة إلى إسرائيل ، في النصوص المصرية القديمة ، في العام الخامس من حكم مرنبتاح .

---

(١) سفر الخروج ١ : ١١ .

(٢) هذه اللوحة اكتشفها " فلندرز بتري " عام ١٨٩٦ م في خرائب معبد مرنبتاح الجنازي في طيبة (الأقصر) ، وهذه اللوحة محفوظة الآن في المتحف المصري في القاهرة برقم ٣٤٠٢٥ . وتتكون اللوحة من قطع ضخمة من الجرانيت الأسود المكتوب عليه ، وارتفاعها نحو ١٠ أقدام ، وعرضها ٥ أقدام ، وقد أقامها في الأصل الفرعون امنحتب الثالث (١٤٠٥ – ١٣٦٧ ق.م) في معبده في غربي طيبة ، والتي كُتب عليها نشاطاته في مجال البناء . فقام مرنبتاح بنقلها إلى معبده ، وسجل على وجهها الثاني نشيداً حول نصره المؤزر على الليبين و" شعوب البحر " الذين غزوا مصر في السنة الخامسة من حكمه حوالي سنة ١٢٢٠ ق.م . وقد قام بنشر هذه اللوحة كثير من العلماء ، منهم : فلندرز بتري ، وجيمس هنري برستد ، وأدولف إرمان ، وجون ولسون ، وغيرهم . انظر :

سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ١٤٥ وكذا

أحمد فخري : مصر الفرعونية ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٨ م ، ص ٣٥٨ هامش (١) وكذا

جيمس بيكي : المرجع السابق ، ص ٧٥ – ص ٧٦ وكذا

ألن جاردنر : المرجع السابق ، ص ٣٠١ وكذا

Wilson , J . A . , " Egyptian Hymns and Prayers - Hymn of Victory of Mer - ne - ptah (The " Israel Stela ") " , ANET , P . 376 ;
Anderson , G . W . , Op . Cit . , P 28 ;
Noth , M . , Op . Cit . , P . 3 ;
Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 11 .

ومما جاء في نص هذه اللوحة :

((والأمراء منطرحون على الأرض يقولون : " الرحمة ! " .
ولا يرفع واحد رأسه من أهالي الأقواس التسعة[١] .
الخراب للتحنو[٢] ، وبلاد خاتي[٣] قد أُسكتت ؛
ونُهبت كنعان وأصابها كل شر ؛
وسيقت عسقلان ؛ وهُجم على جزر [جازر] ؛
وصارت ينُعَم[٤] كأن لم يكن له وجود .
إسرائيل خربت ، وزالت بذرتها ؛
وأصبحت خارو[٥] أرملةً لمصر !
وجميع الأراضي أصبحت هادئة كلها ؛
وكل من كان غير مستقر صار مرتبطاً
بملك مصر العليا والسفلى :
با - إن - رع - ميري - أمون ؛ ابن رع :
مِر - نِ - بتاح حوتب - حِر - ماعت ، يعطى الحياة
كل يوم مثل رع))[٦] .

---

(١) الأقواس التسعة : اسم قديم يرمز إلى جيران مصر المعادين لها . انظر :
سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ١٠١ هامش (١) وكذا
Wilson , J . A . . Op . Cit . , P . 376 note 2 .

(٢) التحنو : اسم لإحدى المجموعات من الليبيين . انظر :
Finegan , J . , Op . Cit . , P . 116 note 65 ;
Wilson , J . A . , Op . Cit . , P . 376 note 4 .

(٣) خاتي : أرض الحثيين . انظر :
Finegan , J . , Op . Cit . , P . 116 note 66 .

(٤) ينُعَم : كانت إحدى المدن الهامة في شمال فلسطين . انظر :
Ibid , P . 116 note 67 ;
Wilson , J . A . , Op . Cit . , P . 378 note 17 .

(٥) خارو : أي سوريا ، أو أنها تشمل سوريا وفلسطين . انظر :
سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ١٠١ هامش (٤) وكذا
Gardiner , A . H . , Ancient Egyptian Onomastica , Vol . I , P . P . 134* , 180* ff ;
Finegan , J . , Op . Cit . , P . 116 note 68 ;
Wilson , J . A . , Op . Cit . , P . 378 note 19 .

(٦) سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ١٠١ وكذا

لقد ذكر سليم حسن أن هناك ترجمات مختلفة للجملة التي وردت فيها الإشارة إلى كلمة " إسرائيل " في اللوحة السابقة ، حيث قام علماء اللغة والآثار بترجمة الجملة على النحو التالي :

ترجمة فلندرز بتري : وقوم إسرائيل قد أُتلفوا ، وليس لديهم غلّة (بذر) .

ترجمة إدوارد نافيل : وإسرائيل قد مُحي وبذرته لا وجود لها .

ترجمة جيمس هنري برستد : وإسرائيل قد أقفروا ، وبذرتهم قد انقطعت .

ترجمة جرفث : وقوم إسرائيل قد صاروا قفراً ، ومحاصيلهم قد ذهبت[١] .

إن الحقيقة التاريخية خلف هذه الأنشودة الاحتفالية بانتصار مرنبتاح قد تعرضت للتساؤل ، وذلك بسبب أسلوبها التقليدي ، وبسبب استبعادها لأية تفاصيل عن تلك الحروب والمعارك التي خاضها ، بعكس المُتّبع بكتابات الحملات الفرعونية ، ومع ذلك فليس من المرفوض منطقياً إمكانية استغلال ممالك المدن الكنعانية ، التي ذُكرت في اللوحة ، للغزو الليبي الضخم باتجاه مصر ، وانشغال مرنبتاح بالحدود الغربية للدولة المصرية ، مما شجعها على التمرد على السلطة المصرية ، ومن ثم كان من الجائز أن مرنبتاح بعد انتصاره على الليبيين قام باستعراض قوة في أرض كنعان[٢] .

ولقد صوّرَ الكُتّاب المصريون الأقوام الأجنبية في النقوش المصرية القديمة بدلالات تدل عليهم ، وهو ما يُعرف بـ" المُخصِّص Determinative " الذي يدل على قومٍ ما في تلك النقوش . فرمزوا إلى البلاد الأجنبية الجبلية بالرمز الهيروغليفي dw الذي يُشير بشكل خاص إلى " الجبل " ، أو بالرمز الهيرغليفي المختصر من الكلمة الأصلية (*ḫ3st*) *ḫ3st* التي تعني " أرض أجنبية " أو " الأرض ذات التلال " وفي أحيان أخرى كمخصص يشير إلى الصحراء Smt[٣] .

جون ولسون : المرجع السابق ، ص ٤٠٦ وكذا

ألن جاردنر : المرجع السابق ، ص ٣٠١ – ص ٣٠٢ وكذا

Finegan , J . , Op . Cit . , P . 116 ;
Gardiner , A . H . , Egypt of the Pharaohs , P . 273 ;
Wilson , J . A . , Op . Cit . , P . 378 ;
Faulkner , R . O . , Op . Cit . , P. P . 233 - 234 ;
Ahlstrom , G . W . , and Edelman , D . , " Merneptah's Israel " , JNES , Vol . 44 , Number 1 , 1985 , P. P . 59 - 60 .

(١) مصر القديمة ، ج ٧ ، ص ١١١ .

(٢) Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 12 .

(٣) Gardiner , A . H . , Egyptian Grammar , P. P . 488 و 489 .

فالرمز الهيروغليفي لبلد أجنبي هو الرمز ذاته لمرتفع أو صحراء ، وقرنوا ذلك بالإشارة إلى الجبل ، لأن سلاسل الجبال المحاذية لوادي النيل أيضاً كانت صحراوية وأجنبية ، ومن ثم ظلّ الكُتّاب المصريون في نقوشهم يربطون بين الأقوام الأجنبية وحيوانات المرتفعات والبراري ، لاعتقادهم بأن تلك الأقوام والحيوانات تقطن في مناطق جبلية تصوّرها المصريون بمقابلتها بوادي النيل ، وبالتالي أنكر عليهم المصريون صورياً نِعَم الخصب والتماثل[1] .

وبالتالي ، فقد ورد في الأصل المصري للوحة إسرائيل تفصيلاً هاماً في كتابة كلمة " إسرائيل " ، فحينما وردت أسماء الأقوام الآخرين الذين ذكروا مع إسرائيل ، كُتب في نهاية اسم كل قوم مُخصص دل على البلاد الأجنبية أو أراضٍ أجنبية ، وهذا المخصص في كلمة إسرائيل غير موجود ، بل كُتب بدلاً منه مخصص آخر يدل على أنهم قوم أجانب أو شعب أجنبي ، حيث أُلحق باسم إسرائيل رسم رجل وامرأة دلالة على الجمع من الناس ليس غير . مما يعني أن هذا المخصص يدل على أن بني إسرائيل كانوا أجانب لا وطن لهم ، وأنهم ليسوا سكان هذه البلاد أو تلك ، مما يشير أيضاً إلى أن عناصر النقش تدل على أن البلاد التي كانت تفيض بالمن والسلوى لم تكن قد أُحتلت بعد ، فقد كانت كنعان لا تزال الأرض الموعودة لا الأرض المملوكة . وعلى ذلك من الطبيعي القول : أن النقش يشير هنا إلى خروج بني إسرائيل من مصر ، وكذلك يعني أنه طُرد من مصر قوم أجانب من البدو يُسمون " إسرائيل " ومعهم أولادهم وكل ما يتبعهم ، ومن ثم أصبح لا وجود لهم في مصر . لذلك فهذه اللوحة تُعتبر سجلاً معاصراً لخروج بني إسرائيل من مصر مع حوادث أخرى ، كما يدل دلالة واضحة على أنه قد وقع في السنة الخامسة من عهد مرنبتاح كما يعتقد نافيل . ومما يُلفت النظر أنه من خلال الأسلوب الفرعوني في تدوين ذلك الحدث الذي ظهر بصورة طرد قومٍ أجانب بإرادة الفرعون وأمره ، لا هرباً منه ، في حين جاءت وجهة النظر في الروايات التوراتية السابقة مختلفة عن وجهة النظر الفرعونية . وعلى ذلك فلا تعارض بين ترجمة إدوارد نافيل وما ورد في التوراة : « ثم قال الرب لموسى ضربةً واحدةً أيضاً أجلب على فرعون وعلى مصر . بعد ذلك يُطلقكم من هنا . وعندما

(١) هنري فرانكفورت ؛ هـ . أ . فرانكفورت ؛ جون . أ . ولسُن ؛ ثوركيلد جاكوبسن : ما قبل الفلسفة ؛ الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى ، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ، مراجعة محمود الأمين ، دار مكتبة الحياة ، بغداد ، بدون تاريخ ، ص ٥١ .

يُطلقكم يطردكم طرداً من هنا بالتمام »[1] . وإذا صحت النتائج السابقة ، فإن الأجزاء الأخرى من تاريخ بني إسرائيل في مصر تكون غير متعارضة مع بعضها ، بل ومتفقة مع ما ورد في التوراة والنقوش المصرية القديمة[2] . هذا فضلاً عن أن ذكر الأقوام الأخرى في اللوحة ، وبعض المدن التي حاربها مرنبتاح ، مثل : عسقلان وجازر وينعم وخارو ليس فيها دليل على أن بني إسرائيل كانوا في فلسطين وقت ذاك ، لأن النص إنما يتحدث عن حروب الفرعون في فلسطين ، وحروبه ضد الحثيين (خاتي) وهي دولة ، وعن تحنو وإسرائيل ، وهما أقوام ، وعن عسقلان وجازر وينعم ، وهي مدن ، أي عن حروب مرنبتاح في مصر وخارجها ، على الحدود الشرقية والغربية ، بل حتى بلاد الحثيين[3] .

وقد كان الكاتب المصري أثناء كتابته للوحة موفقاً وواعياً ، فلقد وردت أسماء الشعوب ، والبلاد الأجنبية في ذلك النص ، تسع عشرة مرة لم يُغفل رسم الأرض الأجنبية في واحدٍ منها مما سبق اسم إسرائيل أو لحق به ، بل كان من دقته أنه في ذكره اسم الشرطة المصرية - وقد كان رجالها يُتخذون من بُجاة النوبة - قد اقتصر مع رسم رمز الناس على رمز يدل على الأجنبي دون رسم الأرض ، لأنهم في غير أرضٍ لهم[4] .

وعلى ذلك ، فإن ما ذهب إليه جون ولسون - رغم إقراره بأهمية ظهور كلمة إسرائيل في لوحة إسرائيل - قد جانب الصواب عندما قال :

« ولكن لا قيمة له كحقيقة تُنبئ عن نزاعٍ حربي ضد مصر ، ولا تدل على شيء أكثر من أن أحد الكتبة المصريين كان يعلم بوجود شعبٍ يسمى إسرائيل في مكان ما في فلسطين أو شرق الأردن . وهذا يعطينا تاريخاً يجب أن يكون خروج بني إسرائيل من مصر قد حدث قبله »[5] .

---

(١) سفر الخروج ١١ : ١ . وانظر : سفر الخروج ١٢ : ٣٩ .

(٢) سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ١١١ - ص ١١٣ وكذا
أبكار السقاف : المرجع السابق ، ص ١٨٨ وكذا
أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ١٤٥ وكذا

Lods , A . , Op . Cit . , P.P. 187 - 188 ;
Finegan , J . , Op . Cit . , P. P. 116 - 117 ;
Noth , M . , Op . Cit . , P . 3 note 2 ;
Ahlstrom , G . W . and Edelman , D . , Op . Cit . , P . 60 ;
Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 12 .

(٣) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٤١٧ ، ص ٤١٨ .

(٤) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ١٤٥ وكذا
توماس ل . طومسون : المرجع السابق ، ص ١٨٩ .

(٥) الحضارة المصرية ، ص ٤٠٧ وكذا

Wilson , J . A . , Op . Cit . , P . 378 note 18 .

وبناءً على ذلك ، كما مر سابقاً ، اعتقد كثير من المؤرخين أن رعمسيس الثاني (١٢٩٠ – ١٢٢٤ ق.م) هو فرعون التسخير ، وأن مرنبتاح (١٢٢٤ – ١٢١٤ق.م) هو فرعون الخروج الذي خرج موسى عليه الصلاة والسلام ومعه بنو إسرائيل في عهده .

وأول من وضع هذه النظرية في كون رعمسيس الثاني فرعون التسخير والاضطهاد ، ومرنبتاح فرعون الخروج في عصر الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ – ١١٩٤ ق.م) هو ريتشارد لبسيوس C . R , Lepsius (١٨١٠ – ١٨٨٤ م) في سنة ١٨٤٩ م ، عندما كان علم المصريات لا يزال في بدايته ، وهي أقدم نظرية في موضوع تاريخ الخروج[١] .

وقد أورد سليم حسن[٢] ما ذهب إليه ادوارد نافيل بقوله :

« إني لا أزال مُسلِّماً بوجهة النظر التي أولى بها لبسيوس عن موضوع خروج بني إسرائيل – وهي التي يقتفيها معظم الأثريين – أن مضطهد اليهود هو رعمسيس الثاني الذي كان حكمه الطويل بداية انحلال الامبراطورية المصرية ، وأن الفرعون الذي يُنسب إليه خروج بني إسرائيل هو ابنه مرنبتاح » .

ويتجه البعض إلى إمكانية الاستنباط من لوحة إسرائيل بأن ذِكر إسرائيل في النصوص المعاصرة لمرنبتاح يشير إلى خروج بني إسرائيل وانتهاء علاقتهم بمصر ، وأنه رغم أن تلك الإشارة كان آخر ما ذُكر عنهم للمرة الأولى والأخيرة في النصوص المصرية القديمة ، فمن الممكن الافتراض أن ذلك يشير إلى حادثة الخروج ، وأنه كان من الأهمية بالنسبة للمصريين بحيث دونوا ذلك في نقوشهم ، وإن كان صحة ذلك الإستنباط يرتبط بالعلاقة بين تاريخ الخروج وتاريخ نقوش اللوحة من ناحية ، ومن ناحية أخرى معنى الجملة التي وردت في اللوحة المتعلقة بإسرائيل ؛ إذ ليس هناك شك في تاريخ النقوش ؛ حيث وُجد في متن اللوحة انتصار مرنبتاح على الشعوب التي ذكرها في السنة الخامسة من حكمه[٣] .

إلا أن توماس ل . طومسون[٤] يرى أن لوحة إسرائيل ، لا تُقدِّم إلاّ مجرد اسم في بيئة تاريخية ، شاع فيها تغيير الأسماء الجغرافية ، والقبلية ، وتشويشها على مدى قرون .

---

(١) Bimson , J . J . , Op . Cit . , P . 13 .

(٢) مصر القديمة ، ج ٧ ، ص ١٠٩ – ص ١١٠ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٠٨ – ص ١٠٩ وكذا أبكار السقاف : المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٧٧ .

ومن خلال بعض نصوص التوراة يبرز عنصراً هاماً يمكن من خلاله تحديد الخروج في عهد الفرعون مرنبتاح ، وهو الخبر بأن عُمر موسى عليه الصلاة والسلام كان ثمانين سنة عندما جاء بأمر الله بالرسالة ، وطلب من فرعون إطلاق بني إسرائيل ، كما جاء في النص : ((وكان موسى ابن ثمانين سنة وهارون ابن ثلاثٍ وثمانين سنة حين كلّما فرعون))[١] . وبما أن رواية التوراة في نصٍ سابق[٢] أقرّت بوفاة فرعون الذي وُلد موسى عليه الصلاة والسلام في عهده أثناء إقامة موسى في مدين ، مع أن الرواية التوراتية تتابع دون ذكر أي تغيير باسم الفرعون في مصر ، وهو ما يرجّح كونه رعمسيس الثاني ؛ فإن مدة حكم الفرعونين اللذين عاش موسى عليه الصلاة والسلام في عهدهما ينبغي أن تكون حوالي ثمانين سنة ، وقد حكم رعمسيس الثاني ٦٧ عاماً (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) ، وابنه مرنبتاح ١٠ سنوات (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م) ، حيث مرت البلاد المصرية بعد وفاته بضائقة داخلية خطيرة استمرت حوالي ربع قرن من الزمان ، ولم يُعرف خلال عصر الأسرة التاسعة عشرة عهدان متتابعان اقتربت مدة الحكم فيهما من ثمانين عاماً إلا عهدي رعمسيس الثاني ، وابنه مرنبتاح ، الأمر الذي يمكن القول عنده أن موسى عليه الصلاة والسلام خرج بقومه من مصر في أواخر حكم مرنبتاح[٣] .

وهناك من يؤكد أن الخروج كان في عهد مرنبتاح ، وأن ما ورد في لوحة إسرائيل هو من عمل الكهنة ، حيث يظهر أنهم كتبوا ما بها ليُشيدوا بذكر مرنبتاح الذي لم يكن في تصورهم أن يموت بتلك الطريقة السريعة ؛ فأرادوا أن يوهموا الناس بأن فرعون سحق بني إسرائيل ، تمويهاً وقلباً للحقائق ، حتى يستروا أمام الشعب المصري خذلانهم ، وخذلان إلههم فرعون ، وغرقه في البحر[٤] .

---

(١) سفر الخروج ٧ : ٧ .

(٢) سفر الخروج ٢ : ٢٣ .

(٣) ناشد سيفين : المرجع السابق ، ص ٢٩٦ - ص ٢٩٧ وكذا تيودور هـ . روبنسن : المرجع السابق ، ص ١٠٧ - ص ١٠٨ وكذا موريس بوكاي : المرجع السابق ، ص ٢٧١ - ص ٢٧٣ .

(٤) عبد الوهاب النجار : المرجع السابق ، ص ٢٠٢ - ص ٢٠٣ .

ومن الأدلة التي تقوي هذا الرأي في كون مرنبتاح فرعوناً للخروج ، أن هـذا الرأي يُبين حقيقة الأحداث التي دامت في فلسطين فيما بين سنة ١٤٠٠ ق.م وسنة ١٣٠٠ق.م، ويفسر وجود الأسماء شمعون Simeon ، وأشير Asher ، والتي من الممكن أن تكون نفسها قبيلة أسارو[١] Asaru والتي كانت من قبائل بني إسرائيل - حسب هذا الرأي - التي كانت قد أقامت واستقرت في منطقة غرب الجليل[٢] حوالي عام ١٣١٣ ق.م ، ولم تهاجر إلى مصر ، بل ولم تطأ أقدامها أرض مصر ، حيث ظلت لديهم تقاليدهم في الاستقرار ، والتي كانت تختلف عن أولئك الذين شاركوا في الخروج من مصر[٣] .

---

(١) ذُكرت قبيلة أسارو في بردية أنستاسي الأولى المؤرخة بنهاية عصر الفرعون رعمسيس الثاني ، وقد ذُكرت فيها كمجموعة بشرية من كنعان ، كما أنها ذُكرت قبل ذلك في نصوص من عهد سيتي الأول (١٣٠٩ - ١٢٩١ ق.م) ، الأمر الذي جعل بعض المؤرخين يذهبون إلى أنها هي نفسها قبيلة أشير ، وإن كانت تُلفظ أحياناً أسر Aser حيث عُزيت لاسم غير معروف .

وربما كانت إحدى قبائل الكنعانيين المحليين الذين كانوا يقيمون في منطقة الجليل ، ولم تكن أصلاً من قبائل بني إسرائيل . انظر :

Gardiner , A . H . , Ancient Egyptian Onomastica , Vol . I , P. P . 191* - 193* ;
Wilson , J . A . , " An Egyptian Letter " , ANET , P . 477 note 42 ;
Abu - Qorah , O . , Op . Cit . , P. P . 29 - 30 .

(٢) الجليل : لفظ سامي قديم معناه الاستدارة ، والدائرة ، ويراد بها منطقة وتخم الجليل التي تقع في شمال فلسطين ، حيث ينبسط في جنوبها مرج ابن عامر .

وتمتد هذه المنطقة بين لبنان شمالاً ، والبحر المتوسط غرباً ، والأردن شرقاً ، والسامرة جنوباً . وفي هذه المنطقة البحيرة المعروفة باسم بحيرة طبرية . وقد ذكر ياقوت الحموي أن في هذه المنطقة جبل الجليل في ساحل الشام ممتد إلى قرب حمص ، كان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يحبس في موضع منه من يظفر به ممن يُنبز بقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه . انظر :

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٧ ، ص ١٥٨ وكذا

محمد محمد شراب : المرجع السابق ، ص ٢٦٥ ، ص ٢٦٧ .

(٣) نجيب ميخائيل إبراهيم : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ وكذا

أحمد سوسة : المرجع السابق ، ص ٢٨٥ وكذا

تيودور . هـ . روبنسن : المرجع السابق ، ص ١٠٨ وكذا

فيليب حتى : خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ، المجلد الأول ، الطبعة الأولى ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ١٩٧٥ م ، ص ١٢٧ وكذا

فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق ، أشرف على مراجعته وتحريره جبرائيل جبور ، الجزء الأول ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٢ م ، ص ١٩٣ وكذا

Cook , S . A . , " The Rise of Israel " , CAH , Vol . II , 1940 , P . 360 ;
Lods , A . Op . Cit . , P . 185 .

ولكن القول بأن بعض قبائل بني إسرائيل في عهد يوسف عليه السلام لم تهاجر إلى مصر يرده صريح القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ **اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأتِ بصيراً وائتوني بأهلكم أجمعين** ﴾[1] .

وجملة ﴿ **بأهلكم أجمعين** ﴾ تفيد أنه لما كان يوسف عليه الصلاة والسلام قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين تخلّوا عن آخرهم ، وترحّلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر[2] .

وفي نص التوراة أيضاً :

((جميع النفوس ليعقوب التي أتت إلى مصر الخارجة من صُلبه ماعدا نساء بني يعقوب جميع النفوس ستٌّ وستون نفساً . وابنا يوسف اللذان وُلدا له في مصر نفسان . جميعُ نفوس بيت يعقوب التي جاءت إلى مصر سبعون))[3] .

وهؤلاء السبعون هم : يعقوب عليه الصلاة والسلام نفسه ، وأبناؤه ١٢ ، وبنته دينه ، وحفدته ٥١ ، وحفيدته سارح ، وأبناء حفدته ٤ ، فالجميع سبعون من صُلبه[4] .

ومما يقوي هذه النظرية ، ما شهدته السنوات الأولى من حكم مرنبتاح (١٢٢٤ – ١٢١٤ ق.م) حيث كثُرت الحروب والثورات في بقاعٍ مختلفة من سوريا وفلسطين وغربي آسيا ؛ الأمر الذي حتم عليه القيام بالحفاظ على السيطرة المصرية هناك ، فخرج على رأس جيشه لتأديب الخارجين عن طاعته في السنة الثالثة ، بعد أن تأكد له أن الحثيين لا يزالون يُضمرون العداء له ولدولته ، وتحقق أن الحثيين أخذوا يساعدون أهالي البحر المتوسط من الدردانيين وغيرهم ، وهم الذين اتحدوا مع الليبيين في غاراتهم على غربي الدلتا ، وتأكد له أيضاً أنهم أوقدوا نار الفتنة في مدن مستعمراته الآسيوية رغبةً منهم في ضمها إلى أملاكهم،

---

(١) سورة يوسف ، الآية (٩٣) .

(٢) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩٠ .

(٣) سفر التكوين ٤٦ : ٢٦ – ٢٧ . وانظر :

سفر الخروج ١ : ٥ وكذا

سفر التثنية ١٠ : ٢٢ وكذا

سفر أعمال الرسل ٧ : ١٤ .

(٤) وليم مارش : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٥ .

فاستطاع أن يقمع العُصاة الذين قاموا بتلك الاضطرابات رغم كبر سنّه ، ولو أنه لا يُستبعد أن يكون قد اقتص من الحثيين بنهب أو سلب مدينة أو مدينتين على الحدود ، إلا أن الصدمة التي وجهها الفرعون مرنبتاح للعصاة كانت شديدة للغاية تمكن بها من إذلال فلسطين إذلالاً تاماً[١] .

وقد ورد في نص آخر لمرنبتاح مؤرخ بالعام الرابع من حكمه أحداثاً تاريخية على جانب كبير من الأهمية ، تؤيد أحداثاً شك بعض المؤرخين[٢] في وقوعها أو ترددوا فيها ، خاصة جهوده الحربية في آسيا وداخل أرض كنعان ، وذلك النص هو الذي يتكون من ثلاثة عشر سطراً ، وورد فيه :

« ١ – يعيش حور الثور القوي لمن تهجم له الأسود ، ربيب السيدتين ، عظيم البأس ، شديد القوى ، كاسر البلاد الأجنبية ، المُشرق في بلادهم .

٢ – حور الذهبي رب الرعب ، عظيم المهابة ، ملك الشمال والجنوب ، قاهر " جازر " با إن رع مري أمون ساحق الليبيين الذين أتى على نهايتهم مرنبتاح حتب حرماعت معطي الحياة .

٣ – الإله الطيب ، أسد على سوريا ، ثور قوي على النوبة العليا حتى قضى على أرض البُجاة . لقد جاء مَنْ حَدَّثَ جلالته أن الأعداء من سكان الأطراف قد انتهكوا الحدود عند ..

---

(١) إبراهيم نمير سيف الدين ، زكي علي ، أحمد نجيب هاشم : مصر في العصور القديمة ، مراجعة محمد شفيق غربال، القاهرة ، ١٩٤١ م ، ص ١١٧ – ص ١١٨ وكذا

رمضان عبده علي السيد : المرجع السابق ، ص ٤٩٠ وكذا

جان فركوتّر : مصر القديمة ، ترجمة إلياس الحايك ، فرنسا ، ١٩٧٢ م ، ص ٨٧ وكذا

جيمس هنري برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي ، ص ٣١٤ وكذا

Faulkner , R . O . , Op . Cit . , P . 234 ;
Eissfeldt , O . , " The Hebrew Kingdom " , CAH , Vol . II , Part 2 , P . 544 ;
Singer , I . , " Merneptah's Campaign to Canaan and the Egyptian Occupation of the Southern Coastal Plain of Palestine in the Ramesside Period " , BASOR , 269 , 1988 , P . 3 ;
Abu - Qorah , O . , Op . Cit . , P . 29 .

(٢) انظر :

Bimson , J . J . , Op . Cit . , P . 69 .

٤ – المدينة الجنوبية . حدث (ذلك) عام ٤ شهر ٢ فصل الحصاد (في) اليوم الأول . (عند ذلك قام) جيش جلالته القوي فقهر عظماء الخاسئين من الليبيين فما خلّفَ أحداً من رجال الليبيين أجمعين .

٥ – (وسُبيت نساؤهم) وكل ما في أرضهم .. بمئات الآلاف وعشرات الآلاف . (أما) الباقون فقد صُلبوا على رؤس الأشجار عند جنوب منف مقتولين وحُمل كل شيءٍ إلى مصر سالماً .

٦ – إن زعماء البلاد جميعاً قد شُتتوا بفضل عزم جلالته ...))[١] .

وقد قام بنقش هذا النص نائب مرنبتاح في " كوش " على مدخل معبد عمدا ببلاد النوبة ، حيث نُقشت نصوصه في إطار مربع بين يدي رسم لنائب مرنبتاح ، الذي يظهر في الرسم بصورة الرجل الراكع في هيئة المتعبد[٢] .

ومن خلال هذا النص يتبين أن مرنبتاح لُقّب بـ" قاهر جازر " أو " مُخرب جازر "، وهو ما يؤيد قيام مرنبتاح ببعض النشاط الحربي في فلسطين ، ومن ثم بقيت الأمور في الحدود الشمالية الشرقية بالنسبة لمصر تبدو وكأنها طبيعية ويسودها السلم[٣] .

وفي السنة الخامسة من عهد مرنبتاح ، وأثناء انشغاله بصد الخطر الليبي وشعوب البحر عن حدود مصر الغربية ، فإن أكبر الظن أن بني إسرائيل خلال تلك الأوقات العصيبة ، بدأوا يفكرون في مغادرة مصر ، دون إذن من فرعون الذي منعهم من الخروج قبل ذلك[٤] . أو أنهم – حسب رأي أحد المؤرخين[٥] – انتهزوا فرصة الزحف الليبي حيث هربوا إلى صحراء سيناء للخلاص مما كانوا يلاقونه في مصر .

---

(١) أحمد عبد الحميد يوسف : " وثائق مطوية وأضواء جديدة في تاريخ مصر القديم ، نص العام الرابع من حكم مرنبتاح " ، مجلة المجلة ، العدد ٧١ ، السنة السادسة ، القاهرة ، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م ، ص ٢٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٢ .

(٣) ألن جاردنر : المرجع السابق ، ص ٣٠٢ وكذا

Gardiner , A . H . , Egypt of the Pharaohs , P . 273 ;
Ahlstrom , G . W . , Edelman , D . , Op . Cit . , P . 59 ;
Singer , I . , Op . Cit . , P . 3 ;
Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 12 .

(٤) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٤٢٦ .

(٥) جان يويوت : المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

وقد كان من الممكن أن تحدث أموراً في شرقي مصر ، حيث أرض جوشن ، تساعد على خروج بني إسرائيل من مصر مستغلين بذلك الأحوال التي كانت سائدة في الدولة ، حيث تم سحب الحاميات المصرية على الحدود الشرقية لمصر ، لتقوية الجيش المصري لصد هجمات اللوبيين من جهة غربي الدلتا وشمالها ، و لم يبق من تلك الحاميات إلا أعداد قليلة لحماية الحدود . وهذا الدليل وإن كان صحيحاً ، يقوي وجهة النظر السابقة التي مؤداها أن حرب لوبيا وخروج بني إسرائيل من مصر كانا في زمن واحد[١] . وإن كان هناك من يرى أن بني إسرائيل كانوا يتسللون من مصر بشكل جماعات متفرقة إلى أرض كنعان في أثناء الظروف العصيبة[٢] . وهذا جعل ستانلي أرثر كوك يذهب إلى أن الخروج كان بالفعل في عهد مرنبتاح ، وأنه حتى لو ذُكرت " إسرائيل " مع القبائل الليبية الغازية لمصر ، وفرت من الاستعباد إلى البرية في الصحراء الجنوبية لفلسطين ، فإنه من المعروف أن البدو كانوا يدخلون ويخرجون من الحدود المصرية[٣] .

إلا أن ما ورد في القرآن الكريم يؤكد أن خروج بني إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام من مصر لم يكن انتهازاً لفرصة أو غيرها ، وإنما كان بأمر من الله عز وجل ووحي لرسوله موسى عليه السلام ، كما في قوله تعالى :

﴿ **ولقد أوحينا إلى موسى أن أسرِ بعبادي** ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن أسرِ بعبادي إنكم مُتبعون** ﴾[٥] .

وقوله تعالى : ﴿ **فأسرِ بعبادي ليلاً إنكم مُتبعون** ﴾[٦] .

وهذا الأمر بالخروج جاء بعد أن توجه موسى عليه السلام إلى ربه يدعوه ، كما في قوله تعالى : ﴿ **فدعا ربه أن هؤلاء قومٌ مجرمون** ﴾[٧] .

---

(١) سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ١١٠ .

(٢) Bowden , J . , Op . Cit . , P . 66 .

(٣) Cook , A . S . , Op . Cit . , P . 357 .

(٤) سورة طه ، الآية (٧٧) .

(٥) سورة الشعراء ، الآية (٥٢) .

(٦) سورة الدخان ، الآية (٢٣) .

(٧) سورة الدخان ، الآية (٢٢) .

فعند ذلك أمره الله عز وجل بأن يخرج ببني إسرائيل من بين أظهرهم ليلاً من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه[١] .

فإذا كانت هناك علاقة بين خروج بني إسرائيل من مصر ليلاً وبين الحرب الليبية ، فلابد أن تكون في أعقابها بفترة ما ، وليس أثناءها ، لأن فرعون سرعان ما تبعهم عندما تنامى إلى علمه خبر خروجهم ، حيث أدركهم قبل عبورهم البحر ، ومن ثم غرق بعد ذلك هو وجنوده أجمعين ونجى الله عز وجل رسوله موسى عليه السلام ومعه بني إسرائيل، مما يدل على أن الخروج يجب أن يكون في السنة الأخيرة من حكم الفرعون مرنبتاح - حسب هذا الرأي - وليس في السنة الخامسة من عهده والتي دونت فيها اللوحة السابقة[٢] .

ومما يؤيد كون مرنبتاح فرعون الخروج ، عثور المنقبين الأثريين في لخيش على إناء مكسور عليه نص مصري قديم لأحد جُباة الضرائب المصريين هناك ، وقد سجّلَ فيه تسلمه لشحنة من القمح في " السنة الرابعة " من عهد فرعون مُعين ، وتشير الدلائل على أن ذلك كان في عهد مرنبتاح ، ومن ثم فالسنة الرابعة من حُكمه كانت ١٢٢١ ق.م[٣] ، مما يؤكد أن السيادة المصرية على فلسطين كانت قائمة أثناء السنة الرابعة من عهد مرنبتاح، وأن بني إسرائيل لم يكونوا قد دخلوا إلى تلك المدينة حتى سنة ١٢٢١ ق.م[٤] .

ومن الأدلة أيضاً المؤيدة لهذه النظرية ، أنه بعد وفاة مرنبتاح عام ١٢١٤ ق.م ، اضطربت أحوال مصر الداخلية بعد عهده ، بسبب الثورات التي قامت من أجل العرش ، والتطاحن عليه بين أفراد أسرة هذا العاهل ، والتي استمرت حتى بداية عهد رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) حيث كانت البلاد بعد عهد مرنبتاح في حالة إعياء وفقر داخلي بالغين ، الأمر الذي جعل الأمور مهيأة لقيام الاضطرابات ، وتأليف القوى المتصارعة التي أخذت تنمو وتترعرع في مثل تلك الأحوال ، لانعدام الشخصية القوية التي

---

(١) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٤١ .

(٢) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٤٣٥ .

(٣) Finegan , J . , Op . Cit . , P . 162 ; Singer , I . , Op . Cit . , P . 5 .

(٤) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٤٢٧ - ص ٤٢٨ .

تقف في وجه ذلك ، مما أدى في نهاية الأمر إلى اضطراب الأمور وتعقيدها ، وزادت الحالة سوءاً بالتدريج حتى آلت آخر الأمر إلى فوضى شاملة(١) .

وإذا صحت الروايات التاريخية التي أوردتها المصادر الإسلامية(٢) ، بأن هامان كان أول من طبخ الآجر ، من أجل أن يبني الصرح الذي أمر به فرعون ، وإذا صح أيضاً ما ذهب إليه فلندرز بتري ، من أنه عثر على طائفة من غير مألوف المصريين ، من الآجر المحروق في أسس البناء ، وبعض المنشآت ، يعود تاريخها إلى عصر الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ - ١١٨٤ ق.م) خاصة عصر رعمسيس الثاني ومرنبتاح وسيتي الثاني ، فإن ذلك لا يكاد يخالف ما أوردته المصادر الإسلامية من بدء اتخاذ الآجر المحروق على عهد فرعون موسى ، وهو كذلك من قرائن القرآن الكريم ، التي تطمئن إليها النفس ، في تحديد عصر خروج بني إسرائيل من مصر ، في أثناء حكم الأسرة التاسعة عشرة التي كانت قد بدأت تصطنع في بنائها الآجر من طين محروق(٣) .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن هناك وجهة نظر أخرى ، تتعارض مع وجهة النظر السابقة ، في كون مرنبتاح هو الفرعون الذي خرج في عهده موسى عليه السلام ، وبنو إسرائيل من مصر . فيذهب البعض إلى أنه ليس هناك أدلة كافية لإثبات ، أو نفي حادثة خروج بني إسرائيل في عهد هذا الفرعون ، ويبدو أن قرائن النفي أقوى من قرائن الإثبات في هذا الموضوع ؛ ومنها أن لوحة إسرائيل آنفة الذكر ورد في نصها ما يدل على أن " إسرائيل " من نزلاء جنوب بلاد الشام في مكان ما في فلسطين ، ولم يذكر مرنبتاح تتبعه لهم من مصر ، وهو ما يعني أن بني إسرائيل دخلوا فلسطين قبل عهده ، وخرجوا من مصر بالتالي قبل عهده(٤) .

---

(١) سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ٢٠٣ - ص ٢٠٤ وكذا
عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٤١ وكذا
محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٤٢٩ .

(٢) انظر : الباب الأول ، الفصل الثاني .

(٣) أحمد عبد الحميد يوسف : مصر في القرآن والسنة ، ص ١٣٨ .

(٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٣٩ - ص ٢٤٠ وكذا
جون ولسون : المرجع السابق ، ص ٤٠٧ وكذا

Kapelrud , A . S . , Op . Cit . , P . 27 ;
Bimson , J . J . , Op . Cit . , P . 14 , 69 .

وهناك رأي آخر يذهب أصحابه(١) إلى أنه لا يمكن تحديد المقصود بـ" إسرائيل " في نص اللوحة السابقة تحديداً أكيداً ، فهل يُقصد بها قبائل بني إسرائيل الاثنا عشر كما ترد في التوراة ؟ أم جماعة قديمة كانت تقيم في فلسطين ، وبسبب بعض الأسباب التاريخية الغامضة ، أو لمناسبة تاريخية مجهولة خلعت على نفسها هذا الاسم " إسرائيل " ؟ كل ذلك لا توجد إجابة قاطعة عنه .

وهناك اتجاه إلى أنه لا يمكن أن يعني ذلك أن الأمر يتعلق بإسرائيل كلها بالاثني عشر قبيلة ، إذ لم تكن إسرائيل حينئذٍ قد تشكلت بعد من تلك القبائل ، وأن الأمر لابد أنه يتعلق بمجموعة أقل عدداً(٢) .

إلا أن جمهرة من المؤرخين(٣) ، يذهبون إلى أن المقصود بـ" إسرائيل " في نص اللوحة ما هو إلا قبيلة إسرائيلية فرت من مصر قبل خروج بني إسرائيل منها ، حيث كانوا أثناء إقامتهم بالقرب من تخوم مصر الشرقية في أرض جوشن يتسللون منها منذ أن اشتدت وطأة الحياة فيها عليهم ، وأنهم ازدادوا تسللاً وفراراً منذ بدأ فرعون يُذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ؛ لذلك فإن أفواجاً من بني إسرائيل بدأت بالذهاب إلى أرض كنعان وعاشوا هناك بين سكانها من الكنعانيين ، إلا أنهم كانوا يتذكرون جدهم إسرائيل (يعقوب عليه السلام) ويردّون نسبهم إليه باسم إسرائيل ، وأن بداية ذلك التسلل أو التسرب إلى أرض كنعان ، يبدو أنه كان في أواخر عهد أخناتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) نتيجة للصراع

---

(١) سبتينو موسكاتي : المرجع السابق ، ص ٢٧٨ هامش المترجم (١) وكذا
Lods , A . , Op . Cit . , P . 188 ;
Anderson , G . W . , Op . Cit . , P . 28 ;
Noth , M . , Op . Cit . , P. P . 3 - 4 .

(٢) روجيه جارودي : ملف إسرائيل ، دراسة للصهيونية السياسية ، أشرف على ترجمته مصطفى كامل فودة ، الطبعة الأولى ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٣٦ ، ص ٣٧ .

(٣) ناشد سيفين : المرجع السابق ، ص ٢٩٦ وكذا
محمد عزه دروزه : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ١٨٦ ، ص ٢٠٣ وكذا
محمد عزه دروزه : تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ، ص ٣٥ - ص ٣٦ وكذا
أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ١٤٢ - ص ١٤٥ وكذا
ول ديورانت : المرجع السابق ، ص ٣٢٤ وكذا
جورج كونتنو : المرجع السابق ، ص ١٠٥ وكذا
Kenyon , K . M . , Op . Cit . , P . 219 ;
Sarna , N . M . , Op . Cit . , P . 13 .

الديني العنيف في تلك الفترة ، وأنهم واصلوا تسرّبهم بشكل موجات بلغ أقصى مداه في عهد رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) وبداية عهد مرنبتاح (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م) حتى عُرف لهم في كنعان عدد يحمل اسم إسرائيل بين مجموع القبائل القاطنة هناك ، فلما اندلعت الثورة في أملاك مصر غربي آسيا ، وقام مرنبتاح بإخمادها ، سجل ذلك في لوحته ، وذكر أسماء المدن ، والقبائل ، والشعوب ، التي أخضعها ، ومن ضمنهم إسرائيل ، مما يدل على أن طائفة من بني إسرائيل قد كانت في بقاع أرض كنعان ، أو عند تخومها حين خروج مرنبتاح لإخماد الثورة هناك ، وأنهم ذُكروا في نص اللوحة ضمن الشعوب الذين هزمهم الفرعون في تلك المنطقة ، مما يعني أن مرنبتاح لم يكن هو فرعون الخروج ؛ حيث عاش بعد تلك الثورة خمسة أعوام ، في حين أن فرعون الخروج قد غرق في البحر ومعه جنوده أجمعين عند تتبعهم لبني إسرائيل .

وقد ذهب البعض أيضاً إلى أنه بناءً على تحقيق موضوع الخروج من تاريخ بني إسرائيل واحتساب الزمن ، وبناءً على ما ورد في نتائج التنقيبات الأثرية في فلسطين ، وعدم وجود أي سند تاريخي في النصوص المصرية القديمة تؤيد موضوع الخروج في عهد مرنبتاح ؛ فإن خروج بني إسرائيل من مصر في عهد هذا الفرعون أمراً غير مؤكد ، ويجب أن يكون في عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ - ١٣٠٨ ق.م)[١] .

إلا أن بني إسرائيل لم يثبت وجودهم في فلسطين قبل عصر مرنبتاح من الأسرة التاسعة عشرة ، إذ أن ذِكْر إسرائيل في نص اللوحة المشهورة يتنافى مع وجودهم في فلسطين في عصر الأسرة الثامنة عشر ، ولم توجد أدلة أثرية تؤيد خروجهم من مصر أبان هذه الأسرة[٢] .

ومن الأدلة أيضاً التي تعارض كون مرنبتاح فرعون الخروج ، ما جاء في إحدى وثائق أوراق البردي ، المحفوظة في المتحف البريطاني ، والتي تُعرف بورقة أنسطاسي السادسة ، حيث ورد فيها خطاباً من كاتب الفرعون مرنبتاح ، والذي عُرف بتقرير

---

(١) أحمد فخري : المرجع السابق ، ص ٣٥٩ - ص ٣٦٠ وكذا محمد أبو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم من أقدم العصور إلى مجيء الاسكندر ، الطبعة الثالثة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ١٩٣ .

(٢) محمد عبد القادر محمد : المرجع السابق ، ص ١٩٧ .

موظف الحدود ، جاء فيه : ((إن بعض بدو (شاسو) إيتام (إدوم) قد سُمح لهم على حسب التعليمات التي لديه أن يجتازوا حصن إقليم " سكوت " (تل المسخوطة) في " وادي طميلات " لُيتاح لهم رعي ماشيتهم بالقرب من بلدة " بتوم " في ضياع الفرعون العظيم))(١) .

وتاريخ هذا الخطاب في السنة الثامنة من حُكم مرنبتاح ، ويظهر من خلاله أنه قد سُمح لأولئك البدو في الاستيلاء على بعض أرض جوشن ، وهذا لا يمكن أن يحدث إذا كان بنو إسرائيل لا يزالون يقيمون في أرض جوشن في السنة الثامنة من حكم هذا الفرعون ، وعلى ذلك يكون خروج بني إسرائيل من مصر قد حدث بالفعل قبل هذا التاريخ – أي قبل السنة الثامنة – وهو تاريخ قريب من الزمن الذي نُقشت فيه اللوحة السابقة ، وهذا البرهان لا يسمح بتقريب زمن خروجهم أكثر من ذلك ، بل يجوز أنه قد يتقدم به(٢) .

ويرى جون . ج . بيمسون أن العقاب الذي يزعم الفرعون مرنبتاح أنه قد أنزله بأعدائه يمتد من المناطق التي يقطنها الحثيون حتى أقصى جنوب فلسطين ، وأن من غير المعقول أن مرنبتاح كان هناك في تلك المنطقة يقوم بمطاردته الناجحة لبني إسرائيل وقت خروجهم من مصر . هذا فضلاً عن أن اللوحة السابقة قد ذكرت المجموعات المنهزمة بالترتيب من الجنوب إلى الشمال : عسقلان ، جازر ، ينعم ، إسرائيل ، وهذا يعني أن إسرائيل قد هُزمت في الشمال ، ومن غير المعقول أيضاً ضمن هذا الإطار التاريخي ، وجود

---

(١) انظر :

سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ١١٠ وكذا

عبد العزيز صالح : " شبه الجزيرة العربية في المصادر المصرية القديمة " ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس عشر ، العدد الأول ، وزارة الاعلام ، الكويت ، ١٩٨٤ م ، ص ٣٠٣ وكذا

جون ولسون : المرجع السابق ، ص ٤١٢ وكذا

ألن جاردنر : المرجع السابق ، ص ٣٠٢ – ص ٣٠٣ وكذا

جيمس هنري برستد : المرجع السابق ، ص ٣٠٠ وكذا

Gardiner , A . H . , Op . Cit . , P . 274 ;

Wilson , J . A . , " Egyptian Historical Texts - The Report of afrontier official " , ANET , P . 259 ;

Noth , M . , Op . Cit . , P . 112 - 113 .

(٢) سليم حسن : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ١١٠ .

بني إسرائيل في سيناء بعد الخروج مباشرة[١] . وبنـاءً على ذلـك فـإن بـني إسـرائيل كـانوا بالتأكيد – حسب قوله – في فلسطين في زمن الحملات التي قام بها مرنبتـاح ، وحيث أن الحملات لم يُشار إليها في التوراة في سفر القضاة ، فإن حقيقة عدم ذكر حمـلات كـل مـن سيتي الأول (١٣٠٩ – ١٢٩١ ق.م) ، ورعمسيس الثـاني (١٢٩٠ – ١٢٢٤ ق.م) لا يمكن أن يكـون دليـلاً على عـدم وجـود الإسـرائيليين في فلسـطين عندمـا وقعـت تلـك الحملات ، وإن صمت سفر القضـاة فيمـا يتعلـق بمصـر ، خـلال الفـترة الـتي تعـامل معهـا لا يُشكِّل حُجّة قوية لصالح تحديد القرن الثالث عشر قبل الميلاد كتاريخ للخروج[٢] .

ومن خلال بعض الأدلة الأثرية ، احتج بعض المؤرخين بأن تلك الأدلة لا تقوم دليـلاً على أن مرنبتاح هو فرعون الخروج ؛ بل ولا تؤيد إثبات القـرن الثـالث عشـر قبـل الميـلاد كتاريخ للخروج .

ويصل هـ . ج . فرانكن إلى نتيجة هامة مؤداها :

أنه لن يكون لأي باحث أثري سبب لافتراض أن القرن الثالث عشر قبـل الميـلاد في فلسطين قد شهد مولد أمة جديـدة ، والـتي وصلـت إلى اكتمـال تطورهـا في حـوالي نهايـة القرن الحادي عشر قبل الميـلاد ، وليـس هنـاك دليـل علـى أن مجموعـة بشـرية جديـدة قـد سيطرت على مقاليد الأمـور في تلـك الأرض في ذلـك الزمـن . ومـن الصعـب علـى علـم الآثار ، في وضعه الحالي ، أن يكتشف عنصراً بشرياً جديداً بين سكان منطقة ما ؛ أو جـاء بديلاً لسكان منطقة ما أيضاً ؛ ما لم يُخلِّـف عنـد زمـن وصولـه مصنوعـات حضاريـة ذات طبيعة غير قابلة للتدمير ، وتختلف بوضوح عن تلك التي كانت للمجموعة السـابقة ، فعلـى الرغم من أن هناك نموذج معين من أواني (جِرار) التخزين الفخارية كان يميز الإسرائيليين الأوائل ، إلا أنه يمكن القول أنـه حتـى هـذا النمـوذي ملفـوف الحافـة قـد وُجـد في صيغـة كنعانية ، مما يُفقِد قيمته التشخيصية ، رغم أنه عُثر على جرة طبخ ذات حافة عالية كعلامة مميزة للاسرائيليين الأوائل ، ممـا قـد يـؤدي أيضـاً للاعـتراف فقـط ببعـض القبـائل مـن بـني إسرائيل[٣] .

---

(١) Bimson . J . J . , Op . Cit . , P. P . 69 - 71 .

(٢) Ibid . , P . 71

(٣) Franken , H . J . , Op . Cit . , P. P . 332 - 333 .

ويرى معاوية م . إبراهيم(١) أن ظهور الجرار ذات الحواف المثنية التي ظلت تُعتمد من قِبل العديد من الدارسين ، مثل البرايت وأهاروني وغيرهم ، كأساس للإستيطان الإسرائيلي المبكر ، والتي قُبلَتْ ببساطة دون مناقشة حقيقية للأدلة المساندة ، وُجدت موزعة في مناطق مختلفة من فلسطين ، ومن المفترض أن توزيع الجرار ذات الحـواف المثنيـة أن يكـون محـدوداً بالمنطقة الجغرافية ما بين حاصور في الشمال ، وتل بيت مرسيم في الجنوب ، حيـث كـانت هذه المنطقة بالتحديد هي التي يُعتقد أن بعض الإسرائيليين الأوائل قـد استقروا فيهـا ، وأن مما زاد الأمر صعوبة ظهور هذا النوع من الجرار الفخارية في منطقـة وادي الأردن وشمالـه ، مما أدى إلى أن تكون نتائج الحفريات مخيبة لآمال الذين تبنوا وجهـة النظـر السـابقة ، ومـع ذلك فإن حفريات المدرسـة البريطانيـة للآثـار (في القـدس) في منـاطق مختلفـة مـن شـرق الأردن وجنوبه لم تكشف عن دليل أثري للخروج ، حسب وجهة نظره .

ومن خلال علم الآثار أيضاً ، لم يتم اكتشاف أية دلائل ، تشير إلى دخول فلسـطين خلال الجزء الأخير من القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، من قِبَلِ جماعات كبـيرة العـدد ذات طابع ثقافي متميز ، فالثقافة الكنعانية في جميع المواقع الفلسطينية بقيت مستمرة في تطورهـا الطبيعي دون انقطاع أو انحراف يؤشر إلى حلول أقوام جديدة أتت معها بتقاليد غريبة عـن كنعان ، ما عدا منطقة الساحل الفلسطيني(٢) .

إن الدمار الذي لحق ببعض المدن الفلسطينية خلال الربـع الأخـير مـن القـرن الثـالث عشر قبل الميلاد ، لا يمكن إرجاعه بصورة مؤكـدة إلى جهـة بعينهـا(٣) ، والمبـاني الضعيفـة تؤخذ عادة على أنها دلالة على مستوطنين جُدد ، ومن المفـترض أن القـادمين الجـدد عـادة يأخذون الحضارة المادية للمجموعات الـتي احتلـوا أماكنهـا . وإن مجـرد إعـادة بنـاء سيئة لمدينة كانت مزدهرة في العصر البرونزي الأخير لا يمكن أن تكون دليـلاً علـى حضـور بـني إسرائيل إلى هناك . وإذا كان سكان مدينةٍ ما قد قُتل منهم عدد كبير خلال تدمير المدينة ،

---

(١) Ibrahim , M .M . ," The Collared - Rim Jar of the Early Iron Age ", in Archaeology in the Levant , Essays for Kenyon , K . , Edited by Roger Moorey and Peter Parr , Aris and Phillips LTD , Warminster , England , 1978 , P. P . 123 - 124 .

(٢) فراس السواح : المرجع السابق ، ص ٢٠١ وكذا Kenyon , K . M . , Op . Cit . , P. P . 204 - 206 .

(٣) فراس السواح : المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .

الذي قد يكون بسبب حريق هائل ، أو زلزال ، أو هجوم من قِبل دويلة مدينة مجاورة ، أو هجوم من الحاميات المصرية ؛ فإن الأمر يحتاج إلى أكثر من جيل واحد لكي يتمكن الناجون من إعادة بناء دفاعاتهم أو حصونهم ، وما لم تُحدَّد شخصية المهاجمين ، وتاريخ الهجوم ، فإن مجرد تدمير بعض المدن لا يمكن أخذه كدليل أثري قاطع على وصول مجموعة بشرية جديدة(١) .

وبعد بيان وجهتي نظر المؤرخين المؤيدين والمعارضين لهذا الاتجاه ، الذي يجعل خروج بني إسرائيل من مصر في عهد الفرعون مرنبتاح (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م) تجدر الإشارة إلى أن هذا الرأي يبقى ضمن الآراء القريبة من الصواب ، وليس هو الرأي النهائي في هذا الموضوع .

يقول أحد المؤرخين :

((والواقع أن ذلك الأمر لا يمكن البتّ فيه بصفة قاطعة ؛ إذ ليس بين أيدينا ما نستطيع أن نُقدّمه كحجة لا تحتمل المناقشة أكثر من أن نقرر أن الأساس الذي تقوم عليه بعض نصوص التوراة في هذا الصدد ، تشير إلى أن فرعون التسخير كان رعمسيس الثاني ، وأن فرعون الخروج كان مرنبتاح ، فلئن كان ذلك كذلك ، فإن التاريخ الأخير [أي في عهد مرنبتاح] أقرب التورايخ التي تتفق وبعض نصوص التوراة ، إن نحن سَلّمنا بأن نص التوراة لا يحتمل شكاً .. وهو أمر لا يساير المقاييس المتعارف عليها في البحوث العلمية مادام الأمر يعتمد على نص ليس هناك ما يُدعّمه .. بل لعل أهم ما يعتمد عليه هو ذكر مدينة بر - رعمسيس وهي المدينة التي خرج منها العبرانيون [هكذا] والتي نعلم عنها أنها لم يتم بناؤها و لم تحمل هذا الاسم إلا منذ عهد رعمسيس الثاني))(٢) .

ويتجه بعض المؤرخين أيضاً ، إلى أن مرنبتاح هو الفرعون الذي خرج في عهده موسى عليه السلام وبنو إسرائيل من مصر ، وأن هذا الرأي هو الرأي الراجح من بين الآراء السابقة ، على أن يكون تاريخ الخروج في العام الأخير من حكم مرنبتاح وليس في العام الخامس كما هو المفترض ؛ وذلك لأن القرآن الكريم والروايات التوراتية تتفق في أن

---

(١) Franken , H . J . , Op . Cit . , P . 333 ;
Ibrahim , M . M . , Op . Cit . , P . 124 .

(٢) نجيب ميخائيل إبراهيم : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧٨ .

فرعون قد غرق في البحر عند لحاقه ببني إسرائيل ، وإن انفرد القرآن الكريم في بيان المعجزة الربانية في نجاة بدن فرعون ، كما في قوله تعالى : ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية** ﴾[1] . وبذلك يمكن التوفيق إلى حدٍ كبير بين أحداث التاريخ القديم ، وبين ما ورد عن موضوع الخروج في القرآن الكريم والتوراة ، وإيجاد تفسير مقبول إلى حدٍ ما لتسجيل انتصار مرنبتاح على لوحةٍ ليست له ، وإنما للفرعون امنحتب الثالث (١٤٠٥ – ١٣٦٧ ق.م) ، وذلك بسبب موته المفاجيء . وأما تحديد العام الخامس من حكم مرنبتاح في اللوحة كتاريخ للخروج فذلك يتناقض تماماً مع ما ورد في القرآن الكريم ، وأيضاً التوراة ، عن موضوع الخروج ؛ إذ أن ذلك يعني أن الفرعون قد ظل على قيد الحياة بعد خروج بني إسرائيل من مصر ، هذا فضلاً عن أن حملة مرنبتاح على سوريا كانت في العام الثالث من حكمه ، وأما تحديد العام الخامس تاريخاً للنص ، فربما كان يهدف مَنْ كَتَبهُ بعد غرق الفرعون ، تخليد ذكرى انتصاره على الليبيين وحلفائهم ، وإنقاذ مصر مما تعرضت له[2] .

ومن الفرضيات التي أشارت إلى تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر ، نظرية J . de Miceli سنة ١٩٦٠ م الذي ادعى أن الخروج كان في اليوم التاسع من إبريل سنة ١٤٩٥ ق.م في عهد تحتمس الثاني (١٥١٠ – ١٤٩٠ ق.م) ، وأنه هو فرعون الخروج، بناءً على ما وُجد على مومياءه من وصف لأورام جلدية ، حيث أن أحد الابتلاءات التي أرسلها الله عز وجل على قوم فرعون ، حسب ما أشارت التوراة[3] ، كانت الدمامل[4] .

إلا أن هذا الاستدلال لا يُعير أي حساب للوقائع الأخرى للروايات التوراتية ، وخاصة فيما يتعلق بذكر بناء مدينة رعمسيس التي تجعل افتراض الخروج في تاريخ سابق لعهد رعمسيس الثاني أمراً متقادماً . إضافة إلى أن الطفح الجلدي الظاهر على مومياء تحتمس الثاني لا مجال لإتخاذه دليلاً على أنه هو فرعون الخروج ؛ لأن ابنه تحتمس

---

(١) سورة يونس ، الآية (٩٢) .

(٢) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٤٣٥ – ص ٤٣٦ وكذا أحمد أمين سليم : المرجع السابق ، ص ٣٣٥ – ص ٣٣٦ .

(٣) سفر الخروج ٩ : ٨ – ١٢ .

(٤) موريس بوكاي : المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .

الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) وحفيده امنحتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق.م) كانا مصابين بأورام جلدية ، حسب ما هو ظاهر على موميات هؤلاء الفراعنة بمتحف القاهرة ، وإن كان هناك فَرَضٌ بوجود مرضٍ بهذه العائلة ، الأمر الذي يجعل هذا الرأي فرضاً لا يمكن الدفاع عنه(١) .

وقريب من هذا ما يراه البعض من أن الخروج كان في سنة ١٤٩١ ق.م(٢) ، وهو التاريخ الذي يعود لعهد تحتمس الثاني .

وهناك رأي آخر يعتبر أن خروج بني إسرائيل من مصر كان في نهاية حكم حتشبسوت (١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق.م) ، في ليلة الخامس عشر من شهر نيسان عام ١٤٦٨ ق.م ، حيث أنها ماتت غرقاً عندما لاحقت - حسب رأيه - بني إسرائيل ومعها جيشها في أطراف بُحيرة المنزلة ، أو أنها أُصيبت بالحمى بسبب ذلك ودفنها تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) سراً لأنها أخذت السلطة منه ، وأن ذلك ، إن صح - حسب قوله - فهو بتشجيع من تحتمس الثالث الذي زَيَّنَ لها الخروج في إثر بني إسرائيل ، وأنه عمل بطولي يليق بها ، ومع ذلك فليس في الآثار المصرية خبرٌ عن حتشبسوت بعد ذلك التاريخ(٣) .

ورأي آخر أيضاً يذهب صاحبه(٤) إلى أن فرعون الاضطهاد الذي سام بني إسرائيل العذاب هو حورمحب (١٣٣٥ - ١٣٠٨ ق.م) ، أما فرعون الخروج فكان رعمسيس الأول (١٣٠٨ ق.م) الذي كان قائداً لجيش حورمحب ، وقد توفي رعمسيس الأول في عامه الثاني من الحكم ، وهو ما يتفق ، حسب رأيه ، مع قصة موسى عليه السلام إذ مات فرعون الاضطهاد قبل عودة موسى عليه السلام من مدين ، ومات فرعون الخروج رعمسيس الأول بعد فترة وجيزة من ذلك . وهذا الرأي بعيد عن الصواب .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٦٨ - ص ٢٦٩ .

(٢) نعوم بك شقير : المرجع السابق ، ص ٤٤٦ وكذا
Nadvi , S . M . , Ageographical History of the Qur'an , Vol . I , Ashraf Press , Lahore , Pakistan , 1974 , P . 7 .

(٣) غطاس عبد الملك الخشبة : المرجع السابق ، ص ١٦١ - ص ١٦٢ ، ص ١٨٣ ، ص ١٨٧ هامش (١٧) ؛ ص ٢٤١ .

(٤) أحمد عثمان : تاريخ اليهود ، ج ١ ، مكتبة الشروق ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٨٥ .

وهناك اتجاه إلى أن الخروج كان في عهد سيتي الثاني (١٢١٤ - ١٢٠٨ ق.م) ، وذلك بناءً على تقرير موظف الحدود السابق الذكر ، من عهد مرنبتاح ، الذي يُستدل من خلاله على سواد الهدوء والنظام على التخوم الشرقية لمصر ، وعلى ما كان لسلطات الأمن في حكومته من سيطرة كاملة على حركات الناس والبدو في تلك البقاع ، حيث بلغ من استتباب الأمن على التخوم أن القلاع قد تُركت حيث قامت متاريسها في ضوء الشمس ، ورجال الشرطة آمنين مطمئنين ، لذلك كان عهد مرنبتاح - حسب هذا الرأي - عهداً قوياً ، الأمر الذي يجعل بني إسرائيل لا يجرؤن على الهرب من مصر خلال عهده ، خاصة وأنه قد امتد العمر بمرنبتاح حتى اكتمل حكمه عشر سنين ، وبلغ به الكِبر ما يقعد به ، أو يوشك أن يقعد به ، عن الخروج في حملات الحرب والقتال ، ومن ثم فأحرى به لو وقع الخروج في أواخر حكمه ألاّ يخرج لإدراك بني إسرائيل . لذلك فالراجح أن فرعون الخروج كان شاباً ، أو رجلاً مكتمل الصحة ، موفور النشاط ، وهو ما يتبين من جثة سيتي الثاني بمتحف القاهرة ، حيث الموت المفاجيء بغرق أدنى إلى العقل والاقتناع . هذا فضلاً عن أنه في أواخر عهد سيتي الثاني استشعر بنو إسرائيل ضعف الدولة في عهده ، وتراخيه في السيطرة على زمام الحكم ، الأمر الذي أدى إلى حدوث نزاع كبير على السلطة بعد وفاته ، مما أدى إلى انتشار الفوضى في البلاد ، وقيام سكان التخوم بإشاعة القلاقل والفوضى(١) .

ومما تجدر الإشارة إليه ما ورد في المصادر الإسلامية من روايات تتعلق بفرعون موسى عليه الصلاة والسلام . ومن ذلك ، أن فرعون مصر في أيام موسى عليه السلام كان قابوس بن مصعب بن معاوية ، وأن موسى وُلد في عهده ، وكانت امرأته آسية بنت مزاحم بن عُبيد بن الريان بن الوليد . أما فرعون الذي أُمر موسى وهارون عليهما السلام

(١) محمود نعناعة : المشكلة اليهودية وهل تحلها إسرائيل ، ج ١ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ م ، ص ١٥٠ وكذا

أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ١٤٥ - ص ١٤٧ وكذا

سامي سعيد الأحمد : المرجع السابق ، ص ١٠١ ، ص ١٠٤ .

بإبلاغ الرسالة إليه فهو شقيق الفرعون السابق ويسمى الوليد بن مصعب بن معاوية بن أبي نمير بن أبي الهلواس بن ليث بن هران بن عمرو بن عملاق[١] .

وفي رواية أخرى أن فرعون موسى عليه الصلاة والسلام هو الوليد بن مصعب وأنه نفسه الذي عاصر يوسف عليه الصلاة والسلام حيث عُمِّرَ أكثر من أربعمائة سنة[٢] . وهي رواية لا تتفق مع واقع الأحداث التاريخية التي مر بها بنو إسرائيل زمن يوسف عليه السلام ومن بعده موسى عليه السلام . هذا فضلاً عن أن ذِكر الأربعمائة سنة كفترة زمنية عاشها فرعون واحد لا تتفق أيضاً والسنن الكونية في عُمـر البشر ، إلا ما ورد صريحاً في نص القرآن الكريم .

قال تعالى : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوحٍ وعادٌ وفرعون ذو الأوتاد** ﴾[٣] .

وفي قوله تعالى : ﴿ **وفرعون ذي الأوتاد . الذين طغوا في البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد** ﴾[٤] .

وصف الله سبحانه وتعالى فرعون بأنه ﴿ **ذي الأوتاد** ﴾ . وقد ذهب علماء التفسير في بيان ذلك مذاهب شتى ، منها : ما ذكره فخر الدين الرازي بقوله :

« وأما قوله تعالى : ﴿ **وفرعون ذي الأوتاد** ﴾ ففيه وجوه :

أحدها : أنه سُمي ذا الأوتاد لكثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا.

ثانيها : أنه كان يُعذب الناس ويشدهم بها إلى أن يموتوا ....

ثالثها : ذي الأوتاد ، أي ذي المُلْك والرجال ....

رابعها : روى قتادة عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس أن تلك الأوتاد كانت ملاعب يلعبون تحتها لأجله ... »[٥] .

---

(١) الطبري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨٦ وكذا
المسعودي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٨ وكذا
ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٥ وكذا
عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن المقدسي المعروف بأبي اليُمْـن مجير الدين : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، الجزء الأول ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٣ م ، ص ٧٤ .

(٢) عبد الله بن مسلم بن قتيبة : المعارف ، حققه وقدم له ثروت عكاشة ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ م ، ص ٤٣ .

(٣) سورة ص ، الآية (١٢) .

(٤) سورة الفجر ، الآيات (١٠ - ١٤) .

(٥) التفسير الكبير ، ج ٣١ ، ص ١٦٨ .

وقال القرطبي[١] :

« وقد أُختلف في تأويل ذلك ؛ فقال ابن عباس : المعنى ، ذو البناء المُحكَم .

وقال الضحاك : كان كثير البنيان ، والبنيان يُسمى أوتاداً . وعن ابن عباس أيضاً وقتادة وعطاء : أنه كان له أوتاد وأرسان وملاعب يُلعب له عليها . وعن الضحاك أيضاً: ذو القوة والبطش . وقال الكلبي ومقاتل : كان يُعذب الناس بالأوتاد ، وكان إذا غضب على أحدٍ مَدّهُ مستلقياً بين أربعة أوتاد في الأرض ، ويرسل عليه العقارب والحيات حتى يموت . وقيل : كان يشبح المُعَذَّب بين أربع سَوَارٍ ؛ كل طرفٍ من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وتد من حديد ، ويتركه حتى يموت . وقيل : ذو الأوتاد أي ذو الجنود الكثيرة فسُميت الجنود أوتاداً ؛ لأنهم يُقوّون أمره كما يُقوّي الوتد البيت » . وقريب من هذه الروايات ما أشار إليه أيضاً ابن كثير[٢] رحمة الله عليه .

وذهب البعض إلى أن المقصود بـ" فرعون ذو الأوتاد " هو فرعون صاحب الأهرام التي تقوم في الأرض كالأوتاد ، حيث أن الأهرامات تشبه الأوتاد الثابتة في الأرض المتينة البُنيان ، فأُشيرَ بذلك لفرعون الطاغية الجبار الذي كان معاصراً لموسى عليه الصلاة والسلام[٣] .

وهناك من يُرجِّح أن ذلك الفرعون الذي وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه " ذو الأوتاد " هو رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) ؛ لما كان له من الآثار والمعابد في أنحاء متفرقة من مصر ، ما يهول بكثرته وعظمته وشموخه العقول ، وأن ذلك دليل على مدى قوته وسطوته وسلطانه . أما الأوتاد فلربما كانت تلك المَسلاّت الضخمة المصنوعة من الجرانيت ، ولها طرفٌ من حديد ، وهي تعلو عن الأرض بعلوٍّ شاهق . أو ربما تكن تلك الأعمدة والأساطين الكثيرة في أروقة المعابد وأبهائها ؛ أو تلك الصروح التي تقوم أمام المعابد قوية راسخة كالجبال[٤] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الثامن ، ج ١٥ ، ص ١٠٢ . وانظر : المجلد العاشر ، ج ٢٠ ، ص ٣٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٥٠٨ .

(٣) سيد قطب : المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٣٠١٤ ؛ ج ٦ ، ص ٣٩٠٤ .

(٤) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ، ص ١٣٥ ؛ ص ١٣٧ .

ويرى الباحث أنه من الممكن القول بأن الأهرامات والمسلات التي أقامها الفراعنة ، من الجائز إطلاق اسم الأوتاد عليها ؛ من قبيل مشابهتها بالجبال ومدى رسوخها ، وَعِظَمِها ، وعلوّها ، وارتفاعها . وقد أطلق القرآن الكريم اسم الأوتاد على الجبال ، كما في قوله تعالى : ﴿ **والجبال أوتاداً** ﴾[١] .

هذه هي أهم النظريات المرتبطة بتاريخ الخروج ، وإن كنت لا أزعم بأني حصرتها كلها ، إلا أني لا أجزم ولا أُرجِّح أي منها في تحديد شخصية فرعون الذي خرج في عهده موسى عليه الصلاة والسلام وبنو إسرائيل ، مُتّبعاً في ذلك المنهج القرآني ، والسنة النبوية المطهرة ؛ فعلى الرغم من أن هذا اللفظ " فرعون " قد ورد في القرآن الكريم ٧٤ مرة[٢] ، فإن القرآن الكريم لم يُبيّن اسم ذلك الفرعون . وكذلك السنة النبوية المطهرة لم يُحدد الرسول الكريم محمد ﷺ في أي حديثٍ من أحاديثه النبوية الشريفة اسم فرعون الذي سام بني إسرائيل العذاب ، وواجه موسى عليه الصلاة والسلام في دعوته ورسالته ، وخرج ببني إسرائيل من مصر في عهده . ولو كان في ذلك خير وفائدة ، أو مصلحة للمسلمين في شأن من شؤونهم لبين ذلك رسول الله ﷺ ، إذ ما ترك خيراً إلا ودلّ أُمّته عليه ، وما عرف شراً إلا وحذّرها منه .

لذلك أتوقف في تحديد من هو فرعون الذي كان معاصراً لموسى عليه الصلاة والسلام ، لأن العلم في ذلك عند الله عز وجل وحده ، فهو الذي يعلم الغيب ، وهو الذي يعلم يقيناً من هو ذلك الفرعون . وحسبي أن أقول إني أفوض هذا الأمر لله سبحانه وتعالى ، إلى أن يأذن الله عز وجل لمن يشاء من خلقه الكشف عن ذلك ، خاصة وأن الآثار المصرية القديمة لم يزل كثير منها في باطن الأرض ، وجهود العلماء متواصلة في البحث والتنقيب عنها ، وليس ذلك على الله ببعيد ، وهو القائل سبحانه وتعالى :

﴿ **وفوق كل ذي علمٍ عليم** ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين** ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ **قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يُبعثون** ﴾[٥] .

---

(١) سورة النبأ ، الآية (٧) .

(٢) محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، المكتبة الإسلامية ، اسطمبول ، ١٩٨٤ م ، ص ٥١٥ مادة ف ر ع .

(٣) سورة يوسف ، الآية (٧٦) .

(٤) سورة الحجر ، الآية (٢٤) .

(٥) سورة النمل ، الآية (٦٥) .